البحرين مرآة لتاريخ الأمة

موجز تاريخ البحرين عبر عصور الخلافة الإسلامية

(١)

جميع الحقوق محفوظة

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

ISBN 978-9933-549-17-6

البحرين مرآة لتاريخ الأمة

موجز تاريخ البحرين عبر عصور الخلافة الإسلامية

تأليف

ناصر بن عبد المجيد بن محمد أبو العلا

المجلد الأول

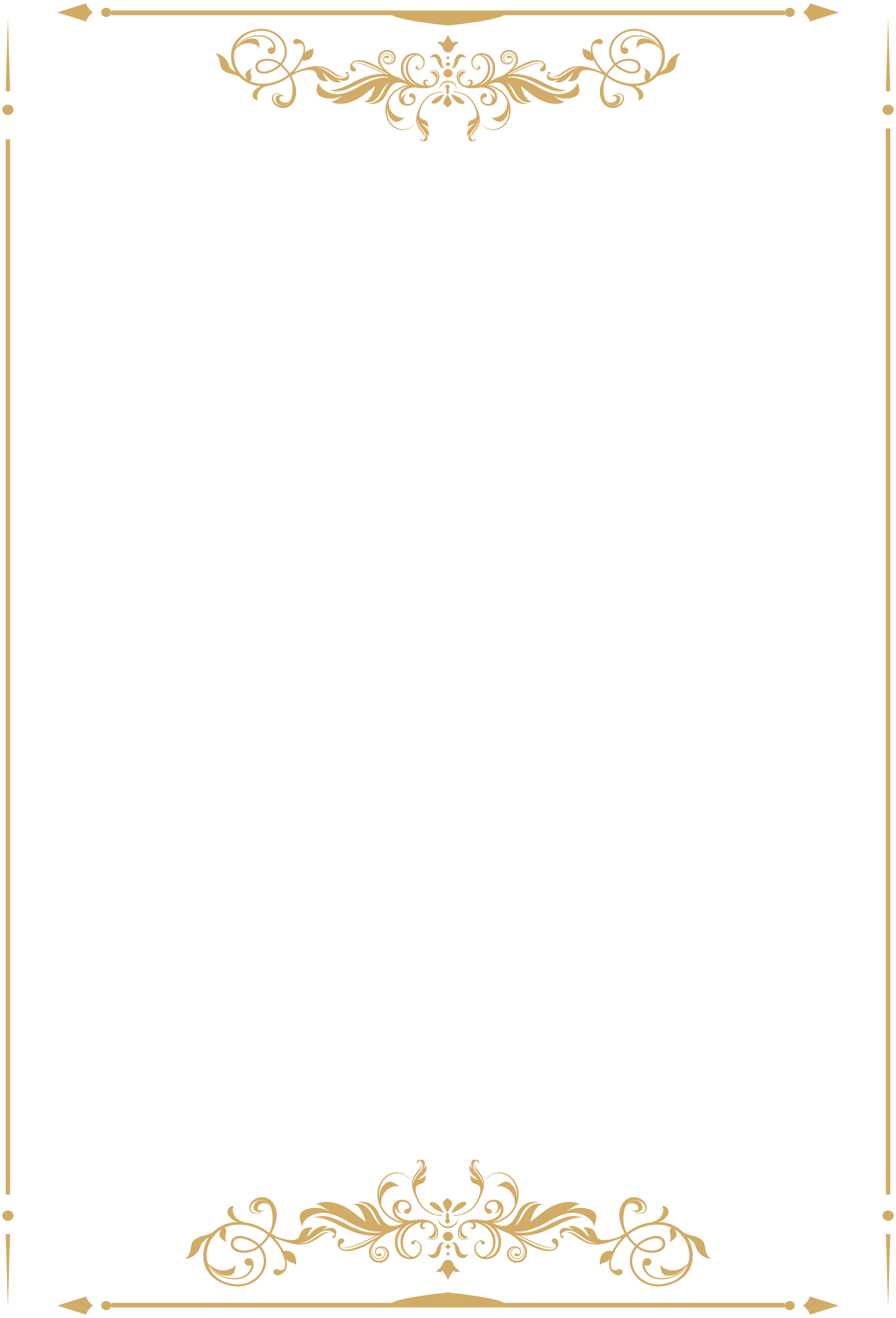

المُقدِّمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أمّا بعد :

فإن الله تعالى بعث نبيه محمداً ﷺ على فترة من الرسل بالحق بشيراً ونذيراً، وأنزل معه الكتاب فرقاناً وتبياناً لكل شيء، وأوحى إليه مثلَه معه من السنة النبوية المطهرة؛ لتبينَ مُجملَ القرآن، ومرادَ الله تعالى من خلقه، وتولى حفظه بنفسه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

ولقد عاشت البشرية قبل بعثته قروناً من الظلام والجاهلية، يأكل فيها القوي الضعيف، ويستبيح بعضهم بعضاً ، حتى إن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم جميعاً، عربَهم وعجمهم، إلا بقيةً من أهل الكتاب⁽¹⁾، فجاء الإسلام وأرسى قواعد الأخوة بين البشر، وأنه لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى، فأسقط بذلك جاهلية القوميات، والألوان، والأنساب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣].

ولقد أدى النبي ﷺ ما عليه من أمانة التبليغ والبيان، وإقامة الحجة والبرهان، وجاهد في الله حق جهاده، وأرسى قواعد وأُسس الدولة الإسلامية، حتى توفاه الله تعالى راضياً مرضياً.

ثم قام بالأمر من بعده أصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه، وفهموه أحسن الفهم، وكان زمانهم خير أزمنة الأمة بعد عهد النبي ﷺ، فهماً وعلماً وعملاً، فثبتوا دعائم الإسلام في جزيرة العرب، ثم ساحوا فى الأرض فاتحين ومزلزلين عروش الطغاة والجبابرة الذين وقفوا أمام مد الدعوة الإسلامية.

فاتسعت بذلك الدولة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وورث المسلمون ملك فارس والروم، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ورحبت معظم تلك الشعوب بالإسلام الذي رفع عنهم الظلم الذي عانوه أحقاباً طويلة.

ولقد قامت الخلافة الراشدة متمثلة في أصحاب النبي ﷺ: أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليهم ـ أحسنَ القيام بما وجبَ عليها وأُلقِيَ على عاتقها من أمانة المسؤولية، والأخذ بالشورى في اختيار من يقوم بأمر المسلمين، حتى شاء الله تعالى وتولى أمر الخلافة الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، والذي أخذ البيعة لتولية ابنه يزيد من بعده اجتهاداً منه، خشية

---

(١) روى الامام مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب.... الحديث». ١٧/ ٢٨٦٥ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

أن يقع المسلمون في فتنة دهماء تُطيح بصرح الدولة الإسلامية من بعده، فخرجت بذلك الخلافة من طور التنوع إلى الملك المتوارث، مصداقاً لما جاء في السنة النبوية الصحيحة(١)، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى.

وظلت الخلافة ملكاً متوارثاً على مر تاريخها بعد ذلك في زمان الأمويين ثم زمان العباسيين، ثم زمان العثمانيين، إلى أن ضعفت وانهارت أركانها، فقام مصطفى كمال الملقب بأتاتورك -أبو الأتراك- بإلغائها في السابع والعشرين من رجب سنة اثنتين وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة «١٣٤٢هـ» الموافق للثالث من مارس من العام الرابع والعشرين وتسعمئة بعد الألف للميلاد «١٩٢٤هـ»، لتنتهي بذلك مرحلة الملك المتوارث، وانحصرت مظاهره في بعض بقاع العالم الإسلامي، وخاصة جزيرة العرب؛ حيث الإمارات و الممالك العربية؛ كمملكة البحرين وبقية دول مجلس التعاون الخليجي التي كانت امتداداً طبيعياً من عصر الخلافة إلى زماننا.

ثم انتقلت الخلافة بعد ذلك إلى مرحلة الملك الجبري بالقوة، والانقلابات العسكرية بعد أن قسّم المحتل الصليبي العالم الإسلامي إلى دول ودويلات ووحدات سياسية مختلفة.

ولا تزال الأمة تعيش هذه المرحلة الصعبة من تاريخها إلى الآن، ومن رحمة الله تعالى بخلقه ورأفته بهم أن بشر على لسان نبيه ﷺ بأن هذه المرحلة ستزول وينقشع ظلامها.

وستنهض الأمة من جديد لتعود بالبشرية إلى طريق الهدى والحق، وتنتشل العالم من الردى العقدي والخلقي الذي يعيشه اليوم، ولايكون ذلك إلا بخلافة راشدة على منهاج النبوة.

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم: «أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً ورحمة، ثم يكون إمارة ورحمة، ثم يتكادمون عليه تكادم الحمر، فعليكم بالجهاد، وإن أفضل جهادكم الرباط، وإن أفضل رباطكم عسقلان». رواه الطبراني (٨٨ / ١١)، حديث رقم ١١١٣٨، باب حديث ابن عباس، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، حديث ٣٢٧٠.

روى الإمام أحمد[1] في مسنده عن النعمان بن بشير[2] ﵁ قال: كنا قعودًا في مسجد رسول الله ﷺ، فجاء أبو ثعلبة الخشني[3] فقال: يا بشير بن سعد[4]! أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة[5] ﵁ أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة ﵁ :قال رسول الله ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت»[6].

هذا الحديث من دلائل نبوة النبي ﷺ، فلقد أشار من خلاله إلى الأطوار والمراحل التاريخية التي مرت وتمر بها الأمة الإسلامية، وبين من خلاله طبيعة الإمارة والخلافة خلال كل مرحلة.

ولقد مرت مملكة البحرين بهذه المراحل المتوالية وانعكست عليها مجريات الأمور في الدولة الإسلامية على مر تاريخها، فهي جزء لا يتجزء من جزيرة العرب مهد ورأس الإسلام، وجزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية.

---

[1] هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المحدث صاحب المسند، والفقيه صاحب المذهب الحنبلي الشهير المتبوع عقيدةً وفقهاً، شيخ الإسلام وسيد المسلمين في عصره الحافظ الحجة والإمام القدوة إمام أهل السنة والجماعة المولود سنة ١٦٤هـ والمتوفى سنة ٢٤١هـ. ببغداد. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧).

[2] أول مولود في الإسلام للأنصار بعد الهجرة النبوية، روى عن النبي ﷺ أحاديث عدة، كما روى عنه جمع من الصحابة والتابعين، استعمله معاوية على الكوفة، قتل ﵁ سنة خمس وستين. الإصابة (٣٤٦/٦) - الاستيعاب (١٤٩٦/٤).

[3] صحابي جليل أسلم قبيل خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ، اختلف في اسمه اختلافاً كبيراً، قيل: جرثُم، وقيل: جرهم، كما اختلف في اسم أبيه، ينسب إلى بني خشين بن قضاعة، روى عن النبي ﷺ أحاديث عدة في الصحيحين وغيرهما، وأرسله النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا. سكن الشام، وروى عنه جمع من كبار التابعين، مات وهو ساجد في أول خلافة معاوية. الإصابة (٥٠/٧) - الاستيعاب (١٦١٨/٤).

[4] هو بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب الخزرجي الأنصاري البدري، صاحب رسول الله ﷺ، ووالد النعمان بن بشير ﵁ صحابي جليل له مواقف مشهودة في تاريخ الإسلام، من أشهرها موقفه من بيعة أبي بكر في يوم السقيفة، فهو أول من بايع أبا بكر من الأنصار، له ذكر في صحيح مسلم وغيره في قصة الهبة لولده.استشهد بعين التمر في خلافة أبي بكر سنة اثنتي عشرة للهجرة ﵁ . الإصابة (٤٤٢/١).

[5] هو حذيفة بن اليمان بن حسيل العبسي من كبار الصحابة ﵄ ، شهد مع أبيه أحداً فاستشهد أبوه، وشهد حذيفة بعدها الخندق، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، واشتهر بين الصحابة بأنه كان يسأل النبي ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، وقد حدثه النبي ﷺ بما كان وما يكون حتى تقوم الساعة، وقد أسرّه النبي ﷺ بأسماء المنافقين، شهد فتوح العراق وله بها آثار كثيرة، ولّاه عمر على المدائن عاصمة الفرس بعد فتحها فبقي بها حتى مات أول خلافة علي سنة ٣٦ هجرية. الاستيعاب (٣٣٤/١) - الطبقات الكبرى (٢٣٠/٧) - الإصابة (٣٩/٢).

[6] رواه أحمد (١٨٤٠٦/٣٥٥/٣٠) مسند النعمان بن بشير، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/٣٤/١).

ولذلك إذا رغبنا في دراسة هذه المراحل وأثرها على البحرين وجدنا أنفسنا أمام تاريخ دولة الإسلام على مر عصورها المتوالية، فالبحرين دولة في أمة عظيمة كانت وما زالت وستبقى إن شاء الله مناراً للهدى ودين الحق، وإن مرت بها الكبوات، والمآزق، والأزمات، فإنها سنة الله في خلقه ابتلاءً وامتحاناً، غير أن المبشرات الإلهية، والنبوية تبين جلياً أن المستقبل لهذه الأمة، وإن أخفقت في القيام بأمر ربها وشريعته لعوامل عدة، فإنها ستنهض بإذن الله وتعود إلى سالف عزها.

إن التاريخ هو حلقة الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهو السجل الذي تدون فيه الأمة مجدها وعزها ومكانتها لتشعر بذاتها وتعرف نفسها واعية لماضيها، متذكرة لمظاهر عزها، مسجلة وقائعها، لتستنير به في حاضرها ومستقبلها، ودراسة التاريخ تمدنا بمعرفة آفاق الماضي وأحوال الحاضر الذي هو ثمرة الماضي وتطلعات المستقبل بما يُستلهم من العبر التي يزخر بها التاريخ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١]، فهي دراسة تضيء الطريق لتحقيق الغد المشرق للإنسان، وترقى به إلى آفاق الرقي في حياته وجميع جوانبها خُلقاً وفهماً وعلماً وعملاً.

لذلك اهتم الأولون والمتقدمون من هذه الأمة بدراسة التاريخ، وتدوين الموسوعات الكبرى الحافلة بالأحداث الهامة مثل: «تاريخ الأمم والملوك» للطبري(١)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير(٢)، و«البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير(٣).

وعلى هذا ينبغي للأمة اليوم أن تتوجه لدراسة الأحداث التاريخية بحسب هذا التفصيل النبوي، وأن تفسرها بسنن الله الماضية في خلقه، ليسهل عليها تحليل تلك الأحداث بشكل صحيح، والوقوف على مواطن الخلل في مسيرة الأمة، وأخذ العبرة من ذلك، فالصراع

---

(١) الطبري: هو شيخ المفسرين والمؤرخين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المولود (٢٢٤هـ) والمتوفى (٣١٠ هـ) صاحب تاريخ الأمم والملوك، الذهبي/ السير (١٤/ ٢٦٧).

(٢) ابن الأثير: علي بن محمد الشيباني، ولد في (سنة ٥٥٥هـ) بالجزيرة الفراتية، وتوفي سنة (٦٣٠هـ)، له تصانيف كثيرة، الذهبي/ السير (٢٢/ ٣٥٣).

(٣) ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المولود (سنة ٧٠٠ هـ) والمتوفى (سنة ٧٧٤هـ)، له تصانيف كثيرة في علوم وفنون مختلفة جعل الله لها القبول في الأرض منها تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير ابن كثير، والبداية والنهاية وهو موسوعة تاريخية، والفصول في سيرة الرسول.

بين التوحيد والشرك سيظل دائماً ما شاء الله تعالى إلى أن يرسل الله ريحاً باردة طيبة تقبض أرواح المؤمنين جميعاً، ولا يبقى على الارض إلا كافر، وعليهم تقوم الساعة(١).

إن تفسير التاريخ وَفْقَ الضوابط الشرعية أمرٌ في غاية الأهمية لمن يدرس، أو يدون أو ينظر بالتاريخ.

فليس تفسير الحدث التاريخي مادياً كما ادعى كارل ماركس(٢) وأصحاب العقول الطائشة، وإنما بحسب القرب والبعد من منهج الله تعالى، وبحسب السنن الكونية التي أرادها الله تعالى وأمضاها في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[النحل:١١٢]. وإن المتأمل لكتاب الله تعالى، ولسنة نبيه ﷺ ليجدُ حشداً من النصوص الدالة على ذلك.

وعلى هذا كتب ودون مؤرخو الإسلام كتبهم، ودواوينهم التي هي منهل عذب لمن أراد الوقوف على الأحداث التاريخية وتفسيرها.

ولا شك أننا نحتاج إلى معرفة المزيد عن تاريخنا، استلهاماً للعظة، ووقوفًا على العبرة، سواءٌ أكان عموم التاريخ الإسلامي، أو تاريخ الأقاليم والدول، وبخاصة أننا نعيش اليوم ثورة هائلة لبث المعلومات غثها وسمينها عبر وسائل الاتصال المتطورة، والذي تنوعت معه أساليب الغزو الفكري لأعداء الإسلام، والذي ترتب عليه الفرقة والانقسام، واختلاف الآراء على أسوأ ما وصلت إليه الأمم.

ولأننا نعيش بين الأمس واليوم والغد؛ ولا نستطيع أن نعيش خارج الزمن بماضيه وحاضره ومستقبله، فإن الماضي يبقى أثره علينا؛ لأننا نتاجهُ، وأثرٌ من آثاره، وامتداده الطبيعي، فنحن بحاجة ماسة إلى قراءة تاريخنا قراءة صحيحة من اليمين إلى اليسار، وليس العكس كما تعود البعض أن يقرأ، ويبث ذلك في الأمة متعمداً.

---

(١) الحديث من علامات الساعة، رواه مسلم (١٨/٦٠/٢٩٤٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة/ باب خروج الدجال.

(٢) كارل هايريك ماركس ولد في (١٨١٨ م) بألمانيا وتوفي (١٨٨٣ م) ، من أسرة يهودية ، مؤسس النظرية الشيوعية ودعا إلى أنه لا إله، والحياة مادة، د. محمد علي حله/محاضرات في تاريخ أوروبا المعاصره/١٤٣ (باختصار).

ففي هذه الطريقة للقراءة عودة إلى الفهم الصحيح للأحداث، وكشف خبايا الأسباب التي أدت بنا إلى ما نحن فيه.

ومن هنا انطلقتُ لكتابة هذا الكتاب، وأسميته: «البحرين مرآة لتاريخ الأمة»، لأن الأحداث التاريخية التي مرت بها الأمة الإسلامية قد انعكست من قريب أو بعيد على تلك المرآة مملكة البحرين ـ حفظها الله، وجعلها بالإسلام عزيزةً راياتها خفّاقة عالية ـ.

وقد قسمت الكتاب إلى: مقدمة، وتمهيد، وسبعة أبواب رئيسية، وكل باب قسمته إلى فصول متسلسلة بحسب التسلسل الزمني للأحداث التاريخية لدول الإسلام المختلفة، فأما التمهيد، فيشتمل على: مدخلٍ لعلم التاريخ، وأتبعته ببيان أن الإسلام دين الأنبياء والرسل من لدن آدم ﵇ إلى نبينا محمد ﷺ.

وإتماماً لفائدة القارئ أتبعتُ ذلك عرضاً موجزاً لتاريخ الأمم السابقة للبعثة النبوية المباركة، ثم لحال العرب قبل بعثة النبي ﷺ، وقد زودت الكتاب بخرائط توضيحية زيادة في النفع.

ثم أتبعت ذلك الأبواب السبعة، وهي كالتالي:

الباب الأول : البحرين في العهد النبوي.

الباب الثاني : البحرين في عهد الخلافة الراشدة.

الباب الثالث : البحرين في عهد الخلافة الأموية.

الباب الرابع : البحرين في عهد الخلافة العباسية في العراق.

الباب الخامس : البحرين في عهد الخلافة العباسية في مصر.

الباب السادس : البحرين في عهد الخلافة العثمانية.

الباب السابع: أسرة آل خليفة في البحرين.

ثم رصدت المصادر والمراجع، ثم وضعت فهرسةً للكتاب.

وأحب أن ألفت نظر القارئ إلى أهمية مراجعة الهوامش بالكتاب؛ لعلاقتها المباشرة مع المعلومة والمتن في الأعلى، وقد حاولت بذل الجهد أن أترجم لكل من ذكر بالكتاب، وخاصة خلفاء المسلمين الذين زادوا عن المئة بواحد، وأيضاً ولاة البحرين في عصور الخلافة المختلفة، والأعلام المذكورين بالكتاب، ومن وقفت على ترجمته ذكرته في موضعه، ومن لم أقف عليه اضطررت لتركه مكتفياً بذكر اسمه مع الحدث الذي ارتبط به.

وقد يَلفت نظرَ القارئ أنني لم أترجم لبعض الأعلام من الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك لشهرتهم وكثرة التراجم عنهم في تصانيف متعددة ومختلفة، ولمكانتهم الفاضلة في الأمة، فإن ترجمتهم تحتاج إلى مساحة واسعة من الهوامش بما لا يسعها كتاب واحد، فاكتفيت بما في تلك الكتب الأخرى المتعددة، والتي يسهل على القارئ الحصول عليها، والوقوف على ترجمة كل صحابي.

ولا أنسى في مقامي هذا أن أذكر بأن هذا جهد بشري يعتريه النقص والزيادة، والخطأ والصواب، وحسبي أني بذلت جهدي، وأرجو من الله القبول.

كما أشكر الله تعالى على توفيقه وهدايته، وأسأله العفو عن الزلل والمغفرة.

كما أشكر كل من ساهم وحثَّ وعمل على إخراج هذا العمل في هذه الصورة، شكر الله لهم جهودهم دون أن أذكر اسم أحد منهم، وذلك لعلمي بأنهم يترفعون عن ذلك محتسبين لله تعالى جهدهم، ولأن هذا أبعد عن الرياء والسمعة، غفر الله لنا ولهم، وعفا عنا وعنهم، وجعلنا وإياهم من السعداء في الدارين.

وأسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يلهمنا الرشاد والسداد، كما أسأل الله تعالى أن يرفع بهذا الكتاب الجهل عمن جهل ما فيه. وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم ليس لأحد فيه شيء، كما أسأله أن يغفر لأولئك الذين سبقونا بالإيمان، وسطروا تلك الصفحات الناصعة من تاريخ أمتنا بدمائهم، وأن يفسح لهم في قبورهم، ويفيض عليهم من بركاته ورحماته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وَكَتَبَهُ
ناصر بن عبد المجيد بن محمد أبو العلا

التَّمهِيدُ

- مدخل إلى علم التاريخ وأهميته.
- الإسلام دين الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.
- عرض موجز لتاريخ أمم الأنبياء السابقين للبعثة النبوية المباركة.
- العالم بين يدي البعثة النبوية.

أَوَّلاً

مَدخَلٌ إِلى عِلمِ ٱلتّارِيخ

تعريف التاريخ:

التاريخ في اللغة: الإعلام بالوقت، ويقال: التأريخ ـ بالهمزة ـ في لغة قيس: أرخت تأريخاً. ويقال: التوريخ ـ بالواو ـ، وهي لغة تميم: ورخت الكتاب توريخاً(١).

فهي لفظة عربية أصيلة، وليست معربة عن لغة أخرى كما زعم البعض أنها فارسية أو سريانية، فهي عربية في الأصل.

التاريخ في الاصطلاح: اختلف العلماء في تعريفه؛ لكثرة الموضوعات التي تدخل في معنى التاريخ، فقد عرّفه خليفة بن خياط(٢)، وهو من المتقدمين الأوائل في هذا العلم بقوله: هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدة نسائهم، ومحل ديونهم(٣). وقريباً من هذا التعريف عرّفه الطبري في تاريخ الأمم والملوك؛ فهما اهتما بالتاريخ من جهة التوقيت الزمني المرتبط بالأحكام الشرعية.

أما ابن خلدون، فإنه يعرف التاريخ في مقدمة «كتابه العبر» بقوله: التاريخ في ظاهره لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمّروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، جدير بأن يعد في علومها وخليق(٤).

وفي تعريفه هذا يركز على العبر والدروس المستفادة من الوقائع وأسبابها، ويعد ابن خلدون أول من اهتم بوضع قواعد لعلم التاريخ.

---

(١) شمس الدين السخاوي / الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص:١٦).

(٢) خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العُصفُري البصري محدث نسّابة وإخباري، له تصانيف في التاريخ والطبقات - الأعلام للزركلي (٢/ ٣١٢).

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (ص:٤٩).

(٤) عبد الرحمن بن خلدون، ت:٨٠٨ هـ/ مقدمة ابن خلدون (١/ ٨١) / دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

وأما السخاوي، فقد عرّفه بأنه: فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيينُ والتوقيت، بل عما كان في العالم؛ فهو بذلك يشارك خليفة بن خياط والطبريَّ في الاهتمام بالتوقيت، وابنَ خلدون من حيث الوقائعُ والأحداث.

وعَرَّف صديق حسن خان(١) التاريخ بأنه : معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم، وأنسابهم، ووفياتهم، إلى غير ذلك، فهو بذلك ركز على أحوال الهيئات وعاداتها وثقافاتها.

وقد عرف المقريزي التاريخ بأنه: الإخبار عما حدث في الأمم الماضية والقرون الخالية(٢).

كما عرفه الكافيجي(٣)بأنه: علم يُبحث فيه عن أحوال الزمان، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيينُ ذلك وتوقيتُه(٤).

كما أن الجبرتي رحمه الله(٥) عرفه بقوله: علم يبحث في معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم، وموضوعُه: أحوالُ الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والشعراء والملوك والسلاطين وغيرهم.

ونجد أن الجميع يدور حول المعنى الاصطلاحي من حيث الزمان، والتعيين، والتوقيت، والتفسير.

فهو عندهم جميعاً السجلُّ الذي تُدَوَّن فيه أحداث الماضي، حسيةً كانت أو معنوية، وتفسير حدوثها.

---

(١) صديق حسن خان/ أبجد العلوم (٢/ ١٢٧).

(٢) المقريزي/ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (١/ ٣)، ت: ٨٤٥هـ.

(٣) محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي، اشتهر بمصر، وكان من طلابه السيوطي ولازمه، وعرف بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافيه في النحو، ومن تصانيفه الكثيرة: المختصر في علم التاريخ، ولد (٧٨٨هـ) وتوفي (٨٧٩هـ)/ الأعلام للزركلي (٦/ ١٥٠).

(٤) الكافيجي/ المختصر في علم التاريخ (ص:٥٥).

(٥) تاريخ الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، مؤرخ مصر الشهير، ومدون وقائعها وسير رجالها في زمان عصر المماليك والعثمانيين ومحمد علي والحملة الفرنسية على مصر، ولد بالقاهرة (سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م)، وكان عالماً فقيهاً تولى مشيخة الإفتاء للسادة الأحناف بمصر في عهد محمد علي، والذي اختلف معه كثيراً وقتل له ولد فبكى عليه الجبرتي كثيراً حتى ذهب بصره وقد توفي رحمه الله في (سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٢م) وهو محزون على ولده وقيل: إنه مات مخنوقاً بتدبير من محمد علي، ومن أشهر مؤلفاته: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ويُعرف بتاريخ الجبرتي، ابتدأه بحوادث سنة ١١٠٠هـ وانتهى سنة ١٢٣٦هـ ، رحمه الله رحمة واسعة، الزركلي/ الأعلام (٣/ ٣٠٤) (بتصرف).

فالتاريخ هو حلقة الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهو السجل الذي تدون فيه الأممُ مجدها وعزها ومكانتها؛ لتشعر بذاتها، وتعرف نفسها واعية لماضيها، متذكرة مظاهر عزها، مسجلة وقائعها؛ لتستنير في حاضرها ومستقبلها.

أهمية دراسة التاريخ:

فوائد التاريخ جمة عظيمة، كثيرة وفيرة، جمعها لنا ربنا تبارك وتعالى في قوله: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[يوسف:١١١].

فدراسة الحدث تفسر لنا أسباب وقوعه، والنتائجَ التي ترتبت عليه، فهو دراسة وتحليل وتعليل للحدث من أجل الوصول إلى العبرة، وهو أمر هام دعا إليه القرآن الكريم، ووصف أصحابه بأنهم أولو الألباب، إذ أنهم يتأملون ويدرسون ويحللون ويعللون من أجل الاعتبار من الحدث.

يقول ابن الأثير(١): ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها (الأحداث التاريخية) كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة.

ويقول الجبرتي: علم التاريخ علم شريف فيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار، وقد قص الله تعالى أخبار الأمم السابقة في أم الكتاب(٢).

ويقول: وفائدته: العبرةُ بتلك الأحوال، والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن؛ ليتحرز العاقل عن مثل أحوال الهالكين من الأمم المذكورة السالفين، ويستجلب خيار أفعالهم، ويتجنب سوء أقوالهم، ويزهد في الفاني، ويجتهد في الباقي.

ومن فوائد دراسة التاريخ: الوقوفُ على سلوك القدوة والأسوة التي أمرنا الله أن نلتزم هداها ومسلكها؛ كالرسل والأنبياء، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[الأنعام:٩٠]،

---

(١) علي بن محمد ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (١/ ٣٤).

(٢) عجائب الآثار (١/ ٤).

وبخاصة خاتمهم نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وكذلك الخلفاء الراشدون المهديون، والصحابة ﷺ، والتابعون سلف الأمة الصالحون من أصحاب القرون الثلاثة الأولى المشهود لهم بالخيرية(١)، رحمهم الله أجمعين.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

فلا يتأتى لنا معرفة سبيل هؤلاء إلا بالوقوف على أيامهم وأحوالهم وأخبارهم وفهمهم ومسالكهم.

مصادر التاريخ الإسلامي:

تتعدد وتتنوع مصادر التاريخ الإسلامي، ويأتي على رأس هذه المصادر:

١ ـ **القرآن الكريم**: وهو أصدق المصادر؛ إذ أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد حوى قصصاً وأخباراً للأمم الماضية لا نستطيع الوقوف عليها إلا من خلاله، وقد تميز القرآن بأنه يقص علينا الحدث، والأسباب التي أدت إلى حدوثه، مفسراً لنا نتائج نهايات الأمم، واعظاً لنا بالعبرة مما وقع.

كما أنه يتميز بأنه يقص علينا الحدث بتفصيله أحياناً، وأحياناً أخرى يذكر لنا أهم ما في الحدث لعدم أهمية التفاصيل، كما أنه يكرر ذكر الحدث والأخبار في سور متعددة مذكراً لنا بأهمية الانتباه للعبرة من ذلك الحدث وتلك الأخبار.

٢ ـ **السنة النبوية الشريفة**: وهي كل قول أو فعل أو تقرير مرفوع إلى النبي ﷺ، وهي أصدق المصادر لدينا بعد القرآن الكريم، إذ أنها اشتملت بين جنباتها على أحاديث الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة، وتتميز بما تميز به القرآن في أنها تقص علينا الخبر مفسرةً لنا أسباب وقوعه.

---

(١) عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم. ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». رواه البخاري (٥/ ٣١٩/ ٢٦٥٢)، ورواه مسلم (١٦/ ٧٣/ ٢٥٣٥) واللفظ للبخاري.

٣ ـ **كتب التفسير.**

٤ ـ **كتب دلائل النبوة.**

٥ ـ **كتب الشمائل والسيرة النبوية.**

٦ ـ **كتب الطبقات والأنساب.**

٧ ـ **كتب الرحلات والجغرافيا والبلدان والأموال:** كرحلة ابن فضلان، ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وكتاب الخراج لأبي يوسف.

٨ ـ **الآثار والوثائق الرسمية والنقوش والعملات والمسكوكات والآثار المعمارية والتحف.**

٩ ـ **كتب الأدب والشعر واللغة.**

١٠ ـ **المدونات التاريخية:** ويقصد بها: الكتب والموسوعات التي دونها ورتب وقائعها أئمة عظام ترتيباً زمنياً متسلسلاً من بَدْءِ الخليقة إلى زمان المصنف، وبعضها يختص بمرحلة بعينها من التاريخ، وتعد هذه الكتب من أهم المصادر والمراجع لدينا، ومن أهمها:

كتاب تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري(١) شيخ المفسرين والمؤرخين والمتوفى في عام (٣١٠هـ)، ولقد سن فيه الطريقة الحولية لكتابة التاريخ، وابتدأه من بَدْءِ الخليقة إلى عام (٣٠٢هـ)، وهو من أهم كتب التاريخ الإسلامي؛ لما لصاحبه من جلال علمي، ومكانة مرموقة عند أهل السنة والجماعة.

يقول عنه الحافظ الذهبي: كان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرَة تصانيف، قلَّ أن ترى العيونُ مثلَه، كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات واللغة وغير ذلك(٢).

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري صاحب التصانيف الراقية المختلفة، توافق معه في الاسم والكنية أبو جعفر محمد بن جرير ابن رستم المتوفى (٤١١هـ)، واختلفا في الجد وفي المعتقد، فالأخير رافضي جلد يستشهد برواياته الرافضة الاثنا عشرية ليلبسوا على جماهير المسلمين بأنها روايات الطبري الإمام، مستغلين جهل المسلمين وانشغالهم بسفاسف الأمور ليطعنوا في عقائدهم وتاريخهم، الذهبي/ السير (١٤/ ٢٨٢).

(٢) شمس الدين الذهبي – سير أعلام النبلاء – مؤسسة الرسالة (١٤/ ٢٦٧).

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايناز بن عبد الله الذهبي، ولد بدمشق في شهر ربيع الآخر سنة (٦٩٣هـ) من أسرة تركمانية الأصل، محدث حافظ ومؤرخ بارع وعلامة محقق، له تصانيف نافعة كبيرة وكثيرة تقارب المئة، من أشهرها: دول الإسلام، وتاريخ الإسلام الكبير، والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، وسير أعلام النبلاء، وتذكرة الحفاظ، والعبر في خبر من غبر، والإمامة الكبرى، والكبائر، وميزان الاعتدال، وغيرها من الكتب النافعة، توفي رحمه الله سنة (٧٤٨هـ) بدمشق.

كتاب الكامل في التاريخ: لابن الأثير علي بن محمد[1] المتوفى (٦٣٠ هـ): وهو من أجلِّ الموسوعات التاريخية التي سار فيها على نسق الإمام الطبري في مصنفه للتاريخ، وهو كتاب مرتب على السنين، بلغ فيه إلى عام (٦٢٨ هـ)، وأكثرُ من جاء بعده من المؤرخين عيالٌ على هذا الكتاب، لكنه توقف فترة اجتياح المغول مشرق العالم الإسلامي؛ لما أصابه من الهم والغم، ثم عاد وكتب.

كتاب البداية والنهاية: لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي الحافظ العلامة صاحب التصانيف في العلوم المختلفة؛ كالتفسير والتاريخ والحديث الشريف.

ويعد كتابه البداية والنهاية في التاريخ من أفضل الكتب وأوثقها، وجعل الله له القبول في الأرض؛ فقد حظي بالعناية لدى جماهير المسلمين وطلبة العلم.

ابتدأه من بداية الخليقة، مروراً بتاريخ الأمم والملوك إلى السيرة النبوية العطرة، ثم ماكان من أيام دول الإسلام الأموية والعباسية، وما صاحب ذلك من أحداث عظام إلى عام (٧٦٨هـ)، وأتبعه بما يكون من الفتن والملاحم والأمور العظام التي تقع بين يدي الساعة، والتي ذكرت تفاصيلها في السنة النبوية الشريفة، وقد اتبع فيه الطريقة التي سبقه بها الإمام الطبري وابن الاثير، وهي الكتابة الحولية للتاريخ الإسلامي.

---

(١) ابن الأثير لقب عرف به ثلاثة أشقاء كلهم علماء طبقت شهرتهم الآفاق وسارت بمؤلفاتهم الركبان، أكبرهم أبو السعادات المبارك بن محمد المولود (٥٤٤ هـ) والمتوفى (٦٠٦ هـ) وهو محدث مشهور، ولغوي بارع، ومن أشهر مصنفاته: جامع الأصول في أحاديث الرسول، والنهاية في غريب الحديث، والمرصع.

وأوسطهم المؤرخ النسابة عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المولود ٥٥٥هـ والمتوفى في شعبان (٦٣٠ هـ) وهو عالم بالتاريخ، خبير بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم، من أشهر مصنفاته: الكامل في التاريخ، واللباب في تهذيب الأنساب، اختصر فيه أنساب السمعاني، وزاد فيه تاريخ الدولة الأتابكية، والجامع الكبير في البلاغة، وتاريخ الموصل، مات ولم يتمه، وأسد الغابة في معرفة الصحابة. وكان رحمه الله موسوعة علمية تاريخية كانت تمشي على الأرض في زمانه، وتوارثت الأجيال علمه رحمه الله رحمة واسعة.

وأصغرهم ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المولود سنة ٥٥٨ هـ والمتوفى ببغداد ٦٣٧ هـ، وهو أديبٌ وكاتبٌ راق بليغ، ومن مصنفاته: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، والوشي المرقوم في حل المنظوم.

وصدق فيهم قول الشاعر:

وبنو الأثير ثلاثـــــة   قد حاز كلٌّ مفتخر
فمؤرخ جمع العلـــوم   وآخـــر ولي الوزر
ومحدث كتب الحديث   له النهاية والأثـــر

مقدمة المختار في مناقب الأخيار لابن الأثير لثلاثة محققين ـ مركز زايد للتراث والتاريخ (١/ ١٠).

اهتمام المسلمين بعلم التاريخ:

اهتم المسلمون بعلم التاريخ اهتماماً واسعاً، ودونوا فيه الموسوعات الموثوقة الهائلة، وذلك لارتباط التاريخ بالعلوم الشرعية، وخاصة علم الحديث، فمن خلال التاريخ وقفوا على أحوال الرواة والنقال من حيث الجرح والتعديل، ولذلك اعتنى أكابر العلماء بهذا العلم، وألفوا فيه مؤلفات لا غنى لمحدث عنها، ومن هؤلاء الأئمة: الإمام أحمد بن حنبل صاحبُ المسند(١)، والإمام البخاري صاحب الصحيح(٢)، والإمام مسلم صاحب الصحيح(٣)، وأبو زرعة(٤)، وأبو حاتم(٥)، والترمذي(٦)، وغيرهم كثير.

قال ابن عبد البر(٧) في «جامع بيان العلوم وفضله»: ويلزم صاحبَ الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم، ويعنى بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم، حتى يقف على العدول من غير العدول.

وقال سفيان الثوري(٨): لما استعمل الرواة الكذبَ، استعملنا لهم التاريخ(٩).

كذلك اهتم المسلمون بعلم التاريخ؛ لما له من السبق في ميدان التربية والسلوك، والرجال، والجرح والتعديل، ووسيلة يستعان بها في شتى المجالات العلمية.

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل: راجع المقدمة.

(٢) الإمام البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، ولد سنة (١٩٤هـ) ببخارى من بلاد ما وراء النهر وتوفي سنة (٢٥٦هـ) بسمرقند، أمير المؤمنين في الحديث وإمام الحفاظ، صاحب التصانيف الكثيرة، والتي أشهرها كتابه في الحديث النبوي الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، والمعروف باسم: صحيح الإمام البخاري.

(٣) الإمام مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري الإمام الحافظ الناقد الذي يعد من كبار علماء الحديث عند أهل السنة والجماعة صاحب الكتاب الشهير بصحيح الإمام مسلم.

(٤) أبو زرعة: الإمام الحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان بن عمرو النصري الشهير بأبي زرعة الدمشقي، أحد أكابر العلماء ورواة الحديث، الدمشقي المولود بها، صاحب كتاب العلل في الحديث وكتاب التاريخ، المتوفى بدمشق سنة (٢٨١هـ).

(٥) أبو حاتم الرازي: الإمام أبو حاتم الرازي محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الغطفاني أحد أكابر العلماء في الجرح والتعديل يكنى بأبي حاتم، ولد سنة (١٩٥هـ) وتوفي سنة (٢٧٧هـ) بالري، ابنه المحدث الشهير ابن أبي حاتم.

(٦) الإمام الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك الترمذي، ولد سنة (٢١٠هـ) بمدينة ترمذ ببلاد ما وراء النهر، وبها توفي سنة (٢٧٩هـ)، صاحب التصانيف الشهيرة في الحديث النبوي والشمائل المحمدية، والجرح والتعديل والعلل، ومن أشهر كتبه: جامع الترمذي الشهير بسنن الترمذي.

(٧) ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله النَّمري القرطبي الأندلسي صاحب التصانيف البديعة والمؤلفات الممتعة النافعة، توفي (٤٦٣هـ)./ جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٣٤).

(٨) سفيان بن سعيد الثوري التميمي، ولد (٩٧ هـ) وتوفي (١٦١) أحد أئمة التابعين، وأحد أئمة الحفاظ العاملين.

(٩) مقدمة ابن الصلاح (ص:١٨٩).

قال العلامة أبو شامة(١) عن من لم يهتم بعلم التاريخ ويهمله: إن الجاهل بالتاريخ راكبُ عمياء، خابطٌ خبطَ عشواء، يَنسب إلى من تقدم أخبارَ من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن ردَّ عليه وهْمَه لا يتأثر، وإن ذُكّرَ فلجهله لا يتذكر، لا يفرق بين صحابي وتابعي، ولا حنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفة وأمير، وسلطانٍ ووزير، ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبي مرسل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدرِ الأول، الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البوس(٢).ا.هـ.

قال الحافظ ابن كثير: لا يجمُل بأُولي العلم إهمالُ معرفة الأيام النبوية، والتواريخ الإسلامية، وهي مشتملة على علوم جمة، وفوائدَ مهمة لا يستغني عالم عنها(٣).

قال العلامة ابن خلدون: فن التاريخ عزيز المذهب، جَمُّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذ يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم الفائدة في الاقتداء بذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا(٤).

ولقد أعلن شمسُ الدين السخاوي التوبيخَ على من ذَمَّ التاريخ(٥)، في كتابه «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ».

فالأمم الناهضة الواعية هي التي تهتم بدراسة التاريخ، وتوثيق الأحداث ، وتحليلها وفق القواعد العلمية الرصينة؛ لتستفيد منها في مسيرتها نحو آفاق المستقبل.

---

(١) أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي الدمشقي المقرئ والمحدث والفقيه اللغوي المؤرخ المعروف بأبي شامة الدمشقي شيخ دار الحديث الأشرفية، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة، ولد بدمشق (٥٩٩ هـ) وبها نشأ وترعرع وتعلم، جده من بيت المقدس ولذا كنّي بذلك، توفي بدمشق سنة (٦٦٥ هـ).

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٩١).

(٣) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ، (ص: ٢٩).

(٤) مقدمة ابن خلدون (١/ ٩٢).

(٥) السخاوي: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي نسبة إلى سخا في شمال مصر، ولد سنة (٨٣١هـ) بالقاهرة، مؤرخ ومحدث ومفسر وأديب، ومن أشهر مؤرخي عصر المماليك، مات بالمدينة النبوية سنة (٩٠٢هـ) بعد أن صنف أكثر من مئتي كتاب في العلوم المختلفة النافعة.

ثَانِياً

ٱلإِسۡلَامُ دِينُ ٱلأَنۡبِيَاءِ وَٱلرُّسُلِ

عَلَيۡهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

إن الدين عند الله الإسلام

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران:١٩].

خلق الله تعالى الخلق لمهمة عظيمة هي أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:٥٦].

ومن أجل بيان معنى العبادة، وبيان مراد الله تعالى من خلقه أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء:١٦٥].

وهؤلاء الأنبياء والرسل جميعاً جاؤوا بدين واحد هو الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

والإسلام يعني الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله.

فهو الدين الحق الذي خُلق الخَلْقُ من أجله، وتعبَدهم الله به، وما دونه من الديانات جاهلية، وشريعة بشرية.

كما أن سائر الكون بما فيه خلق من خلق الله تعالى مربوب مدبَّر، محدَث بعد عدمه، فالعرش الذي هو سقف المخلوقات إلى ما تحت الثرى وما بينهما من جماد وناطق خلقٌ من خلق الله وملكه وعبيده، وتحت قهره وقدرته، وتحت تصريفه ومشيئته، ولقد بعث الله تعالى الأنبياء والرسل جميعاً بدين واحد من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.

فالإسلام هو دين نوح ﵇ الذي دعا قومه إليه، قائلاً لهم بعد أن دعاهم وأبوا عليه ذلك: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢].

والإسلام هو دين إبراهيم ﵇، قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة:١٣١].

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[آل عمران:٦٧].

والإسلام هو مطلب إبراهيم ﵇ وإسماعيل ﵇ من الله أن يستقيما عليه، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٨].

والإسلام هو وصية إبراهيم ويعقوب (إسرائيل) عليهما السلام لأبنائهما من بعدهما، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢].

والإسلام هو الدين الذي ارتضاه بنو إسرائيل - أبناء يعقوب ﵇ - عندما أوصاهم به عند موته، قال تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٣].

والإسلام هو الدين الذي بعث الله به أنبياء بني إسرائيل لأقوامهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤].

والإسلام هو دين لوط ﵇، قال تعالى في حديثه عن قرى قوم لوط: ﴿ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[الذاريات:٣٦].

والإسلام هو دين يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى على لسان يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

والإسلام هو دين موسى عليه السلام والذي دعا إليه قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾[يونس:٨٤].

وهو الدين الذي استقر عليه سَحَرَة فرعون، ودعَوا ربهم أن يُميتهم عليه، قال تعالى على لسانهم: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦].

وهو إقرار فرعون بأنه الدين الحق عندما أدركه الغرق، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠].

والإسلام هو الدين الذي كان عليه سليمان عليه السلام، وأقرت به ملكة سبأ، قال تعالى على لسانها: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

والإسلام هو الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام، وهو إقرار حوارييِّه بأنه دينهم الحق عندما سألهم، ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[آل عمران:٥٢].

والإسلام دين نبينا محمد ﷺ الذي جاء به وامتثله ودعا إليه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

فالإسلام هو الدين الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل جميعاً، والذي ارتضاه الله تعالى لخلقه، والذي أشرقت به جزيرة العرب والبشرية بعد بعثة النبي ﷺ.

ثالِثاً

ٱلصِّرَاعُ بَيۡنَ ٱلتَّوۡحِيدِ وٱلشِّرۡكِ

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا
شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ
أَمۡرِهَا خُسۡرًا ٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴾[الطلاق:٨-١٠].

بينّا فيما مضى أن الله تعالى خلق الخلق لمهمة عظيمة، وهي أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذريات:٥٦].

وهذه العبادة تشمل ركني الديانة – العقائد والأحكام – بأن يُعبد الله وحده وفق مراده الذي بينه لهم، والذي من أجله أرسل الرسل وأنزل معهم الكتب لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فكل الرسل جاؤوا بالدعوة إلى عقيدة التوحيد، وكل الكتب الإلهية نزلت لبيانها وبيان ما يبينها ويناقضها أو ينقصها، وهذا هو الحق البيّن الواضح في مواجهة الضلال والزيغ، قال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[يونس:٣٢].

ولقد حذرهم الله تعالى من الزيغ واتباع الشيطان الذي أبى طاعة أمر الله تعالى بالسجود لآدمَ، فناله الطردُ من رحمة الله تعالى، واللعنةُ السرمدية، ولذلك أغوى أبويهم آدمَ وحواء، وكان سبباً في إخراجهما مما كانا فيه من النعيم، لحكمة عظيمة ارتضاها الله تعالى، وهي أن تُستعمر الأرض بالتوحيد والطاعة، قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:٣٠]. وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١].

وقال في تحذيرنا من إغواء الشياطين: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾[الأعراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة:٢٦٨].

وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:١٦٨-١٦٩]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

ولقد كان آدم أبو البشر ﷺ نبياً في أبنائه يرشدهم ويعلمهم ويحذرهم إغواء الشيطان إلى أن مات، ثم عاشت البشرية بينه وبين نوح ﷺ عشرة قرون كلها على التوحيد.

في الحديث الصحيح عن أبي أمامة ﷺ: «أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبياً كان آدم؟ قال: نعم، مُعلمٌ مُكلَّم. قال:كم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون.قال : كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: عشرة قرون، قالوا: يا رسول الله! كم كانت الرسل؟ قال: ثلاثمئة وخمسة عشر، جَمّاً غفيراً»⁽¹⁾.

أول ظهور الشرك في البشرية:

أول ما ظهر الشرك والانحراف بالبشرية في قوم نوح، وسبب ذلك: التصاويرُ التي صنعوها لأناس صالحين فيهم كانوا يرشدونهم إلى الخير ومعرفة التوحيد الخالص، فلما ماتوا أغوى الشيطان قوم نوح، وأرشدهم إلى الضلال بأن يصنعوا لهم التصاوير والأصنام، وأن ذلك أدعى أن يجتهدوا في الطاعة والعبادة كلما رأَوْها، فصنعوها، فلما طال الزمان، ورُفِعَ العلم وفشا الجهل، عبدوها من دون الله، فأرسل الله فيهم نوحاً يرشدهم ويردهم إلى الصواب.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه(٩/ ٣٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٦٦٨.

قوم نوح عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح:١].

فلم يتهاون أو يقصّر في دعوتهم، بل اجتهد ودعاهم بالليل والنهار، وبالسر والعلن، غير أنهم عادَوْه وأبغضوه، وسخروا منه أشد السخرية ، قال الله تعالى على لسان نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا (٩) فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا (١٠) يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا (١١) وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح:٥-١٢].

ولقد ظل على دعوته ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولما استيئس منهم دعا نوح ربه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح:٢٦-٢٧]، فأمره ربه أن يصنع سفينة عظيمة، حتى إذا رأى آية ربه بخروج الماء من تنور النار أن يحمل في هذه السفينة من كل مخلوق زوجين اثنين، وأهلَه إلا من سبق عليه القول ومَنْ آمنَ، وما آمن معه إلا قليل .

وفي هذا مواساة لنفوس المؤمنين إذا تكاثر عليهم أهل الباطل في كل زمان، فإن الفئة المؤمنة الموحدة دائماً قليلة بالنسبة إلى الكافرة، وقد مدح الله القلة المؤمنة، ووعدها بالنصر على أعدائها، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، **وقال تعالى:** ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، **بل إن الله عز وجل ذكر عكس ذلك الفئة الكثيرة، كما جاء في قوله تعالى:** ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، **وقال سبحانه:** ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦) وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ (٣٧) وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ (٣٨) فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود:٣٦-٤٠].

قال ابن قيم الجوزية(١): إن من أعظم مكائد الشيطان التي كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد اللهُ تعالى فتنته، ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور إلى أن عبدوا أربابها من دون الله، وعُبدت قبورُهم، واتُّخذت أوثاناً، وبنيت لها الهياكل، وصورت أربابها فيها، ثم جُعلت تلك الصور أجساداً لها ظلّ، ثم جُعلت أصناماً، وعُبِدت من دون الله، وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح.

ثم أضاف قائلاً: ما زال الشيطان يوحي إلى عُبَّاد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجابٌ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يُقسَم عليه، أو يُسأل بأحد من خلقه، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعائهم وسؤالهم الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبورهم أوثاناً تُعلَّق عليها القناديل والستور، ويُطاف بها وتقبَّل، ويُحج إليها، ويُذبح عندها، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادة قبورهم، واتخاذها عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فيغضب المشركون،

---

(١) الإمام ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية نسبةً إلى والده الذي كان قيّماً على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن، ولد بدمشق في صفر سنة (٦٩١هـ) وقيل في زرع، أشهر تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية، وصاحب التصانيف والمؤلفات الراقية الشهيرة التي بلغت نحو مئة مؤلف من أشهرها: زاد المعاد في السيرة النبوية، والصواعق المرسلة في العقيدة، ومفتاح دار السعادة في الرقائق، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، وأعلام الموقعين عن رب العالمين، والمنار المنيف في الصحيح والضعيف، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، وغيرها من المؤلفات النافعة التي ما زالت الأمة تنتفع بها، توفي رحمه الله ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب سنة (٧٥١هـ) وله ستون سنة، وصُلي عليه بالجامع الأموي، ودفن بدمشق.

وتشمئز قلوبهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر:٤٥](١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): الشرك في بني آدم أكثره من أصلين؛ **أولهما**: تعظيم قبور الصالحين، وتصويرُ تماثليهم للتبرك بها، وهذا أول الأسباب التي ابتدعها الآدميون الشرك، وهو شرك قوم نوح، والسبب الثاني: عبادة الكوكب. ثم أضاف: المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين، وعبادة تماثيلهم(٣).

وكان لقوم نوح خمسة أصنام كبرى يعبدونها كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴾ [نوح:٢٣].

عن ابن عباس ﵁(٤) قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم، عُبدت(٥).

وفي هذا بيان لعظم وأهمية شأن العلم ونشره بين الناس، فهو منجاة لهم، وحصن حصين، ووقاية لهم من حبائل ووساوس الشيطان، وأن الجهل سبب الخسارة في الدنيا والآخرة.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٦ - ٤٠٧) بتصرف.

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحرّاني، ولد في حرّان شمال بلاد الشام يوم الإثنين العاشر من ربيع الأول سنة (٦٦١هـ) في أسرة اشتهرت بالعلم، فنشأ نشأة علمية رصينة، وعني بالحديث، وحفظ القرآن، وسمع مسند الإمام أحمد، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير مرات متعددة، وكان رحمه الله حافظاً حسن الاستنباط، قوي الحجة، سريع البديهة، وكان زاهداً عفيفاً ورعاً عابداً ذاكراً لله تعالى.

عاصر الكثير من الفتن الدينية والدنيوية، وابتلي المسلمون في زمانه بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، ومن ذلك: التتر والفرنجة والخلافات العقدية والفقهية، والصراع على الملك بين المماليك، فقيض الله هذا الشيخ المجاهد ليذب عن الأمة بالقول وبالكتابة وبالمناظرة وبالسيف، وقد اُمتحن من أجل ذلك بالابتلاءات الكثيرة، وسُجن عدة مرات، إلى أن توفي رحمه الله في سجنه بقلعة دمشق رحمه الله مخلفاً وراءه ثروة علمية من المؤلفات التي لا تُقدر بقيمة مادية بما فيها من النفع، ومن أشهرها: الاستقامة، واقتضاء الصراط المستقيم، وبيان تلبيس الجهمية، وهو الذي حُقق في ثمان رسائل دكتوراه، والجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، وحقق في ثلاث رسائل دكتوراه، ودرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة ، ومجموع الفتاوى، وغيرها كثير ما زالت الأمة تنهل منها وتستفيد، ومازال العلماء يوصون طلابهم بكتبه وبكتب تلميذه ابن قيم الجوزية.

(٣) مجموع الفتاوى، الرد على المنطقيين (ص:٢٥٨).

(٤) ابن عباس ﵁ : صحابيٌ جليل حبر الأمة وإمام التفسير أبو العباس عبد الله ابن عمّ النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، انتقل مع أبويه إلى دار الهجرة المدينة النبوية سنة الفتح، دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين»، لذلك حمل عن النبي ﷺ علماً غزيراً نافعاً كثيراً، توفي رضي الله عنه سنة ثمان وستين للهجرة وعاش إحدى وسبعين سنة. سير أعلام النبلاء/ الذهبي.

(٥) رواه البخاري (٨/ ٨٥١).

قال ابن قيم الجوزية: إن سبب عبادتهم إنما كانت بسبب تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها(١).

وفَعَلَ نوحٌ ما أُمر به، واعتلى السفينة ومن معه من المؤمنين، قال تعالى على لسان نوح: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[هود:٤١]، وأتى الذين ظلموا ما كانوا يوعدون من العذاب جزاءً بما أشركوا وجحدوا، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر:١١].

فأُغرق من في الأرض جميعاً إلا سفينة النجاة؛ وهي التي استنقذ الله بها أهل التوحيد، ثم أمر الله الأرض أن تبلع ماءها ، والسماء أن تقلع، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود:٤٤].

وعادت الأرض بكراً طاهرة من الشرك والمشركين، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون:٣٠]، ونزل نوحٌ ومن معه ليعمروا الأرض مرة أخرى، ولتبدأ البشرية مرحلة جديدة في تاريخها، وشاء الله تعالى أن يقبض ذرية كل من بقي من المؤمنين ممن ركب السفينة إلا ذرية نوح ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

فتفرق أبناؤه في الأرض بين جزيرة العرب والشرق وبلاد الشام يستعمرونها ويقيمون عليها الحضارات، ولقد لعبت المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب دوراً مهماً في التطور والتفوق الحضاري ـ بالنسبة إلى باقي المناطق الأخرى من العالم ـ على يد قوم هود ﷺ.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٩).

قوم هود عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون:٣١]، وهم عاد إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلُها في البلاد، وهم أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وقد سكنوا في الجنوب من الجزيرة العربية، ولعبوا دوراً بارزاً في التطور والتفوق على أبناء عمومتهم الآخرين في العالم، ثم دارت الدائرة على قوم هود، وبدلاً من أن يعبدوا الله ويوحدوه ويشكروه على ما أسبغ عليهم من النعم، وفتح عليهم من علم كوني، انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك، واغتروا بقوتهم وقالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥].

فبعث الله تعالى فيهم أخاهم هوداً: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[هود:٥٠].

فعاندوه، ووقفوا منه موقف المتكبر المغتر بشركه، فحذرهم عذاب الله تعالى، وأنذرهم بعد أن ذكرهم، ولكنهم تمادوا في غيِّهم و قالوا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢].

فأرسل الله تعالى عليهم العذاب، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٦].

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[هود:٥٩]. فكانت سنة الله الماضية مع أنبيائه ورسله ومع كل مسلم موحد لله تعالى بالنجاة والنصر والتمكين: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود:٥٨].

قوم صالح عليه السلام

ثم تأتي مرحلة جديدة للصراع بين التوحيد والشرك، وأيضاً في جزيرة العرب من الجهة الشمالية الغربية حيث سكن قوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وحفروا الجبال واتخذوها قصوراً، وعاثوا في الأرض فساداً، وانحرفوا عن التوحيد إلى الشرك، وعبدوا المخلوق مرة أخرى، فأرسل الله تعالى فيهم نبيه صالحاً .

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾[هود:٦١].

لكنهم عَصَوا، وساروا على نهج الأمم الهالكة السابقة، **وتذرعوا بحجة المفلس، وهي أن ما هم عليه إنما هو ميراث الآباء والأجداد،** ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾[هود:٦٢].

فحذرهم وذكَّرهم وأنذرهم، وأتى لهم بالآيات المادية المحسوسة، حيث أخرج الله تعالى لهم دابة من الصخر آية لهم، ولكنهم عاندوا وتجبروا بعد أن رأوا الآيات، وهذا سبيل المفسدين، واستعجلوا نبيهم بعذاب الله فقالوا: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧].

فجاءهم عذاب الله تعالى، وأنجى الله تعالى نبيه صالحاً ومن آمن معه، سنَّةٌ ماضية لنجاة أهل الإيمان.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ [هود:٦٦-٦٨].

دعوة إبراهيم ﵇

ثم كان من بعد قوم صالح قومُ إبراهيم، وهم الذين عاشوا في جنوبيّ العراق يعكفون على أصنام لهم صنعوها بأيديهم، وأقاموا لها معابد خاصة، وعبدوها من دون الله.

كان آزر والدُ إبراهيم أمهرَ قومه صناعةً للأصنام، فخاطبه إبراهيم في ذلك، ووقف منه موقف الولد المشفق الحاني على والده، وأخذ يحاوره ويجادله بأدب وحكمة قائلاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا (٤٤) يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٢-٤٥].

قال الحافظ ابن كثير: دعا أباه إلى الحق بألطفِ عبارة، وأحسنِ إشارة، وبين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام(١).

لكن آزر وقف موقف المعاند المتكبر قائلاً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم:٤٦].

قال إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا (٤٧) وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾[مريم:٤٧-٤٨].

وقد استغفر إبراهيم ﵇ لأبيه كما وعده:

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾[التوبة:١١٤].

وتوجه إبراهيم ﵇ إلى قومه منكراً عليهم عبادتهم للأصنام، وخاطبهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ووعظهم أن يصرفوا الطاعة والعبادة للخالق سبحانه، لكنهم **تذرعوا**

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٢٧).

بما يتذرع به المفلس في كل زمان ومكان، بأن هذه الأصنام ميراث الأباء والأجداد، وكيف لنا أن نخالفهم في معتقدهم الموروث؟ ولقد ذكر الله تعالى ذلك في أكثر من موضع في كتابه العزيز ذكرى لمن كان له قلب، قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ (٦٩) إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ (٧٠) قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ (٧٢) أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ (٧٥) أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء:٦٩-٨٣].

غير أن قومه استكبروا وعاندوا بعد أن ناظرهم إبراهيم عليه السلام مرات عديدة، بوسائل متعددة، وأجمعوا على قول واحد:﴿ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ ﴾ [العنكبوت:٢٤].

فأراهم الله تعالى آية في إنقاذ إبراهيم من النار التي أوقدوها له وخرج منها سالماً معافى.

قال الحافظ ابن كثير: فأراد قوم إبراهيم بذلك أن ينصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا، وأرادوا أن يَغلِبوا فغُلِبوا، قال تعالى:﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٠].

وفي الأخرى:﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات:٩٨].

ففازوا بالخسارة والسفال في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ [الفرقان:٦٦](١).

وتوجه إبراهيم عليه السلام تلقاء بابل حيث ملكها النمروذ بن كنعان المدعي الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء، وكان قد طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا، فدعاه إبراهيم إلى

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٣٩).

عبادة الله الواحد القهار، فحمله جهله وضلاله وشيطانه ونفسه الأمارة بالسوء على إنكار الصانع سبحانه، فحاجَّ إبراهيمَ في ربه، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فردَّ عليه بكلِّ جبروت: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وأمر برجلين حُكِمَ عليهما بالقتل، فقال: أحدُهما يُقْتَل، والآخر يذهب إلى دار أهله: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. قال قتادة والسديُّ: وهذا ليس بمعارضة للخليل عليه السلام، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، بل هو تشغيب محض(١).

فرد عليه إبراهيم بما يبهته ويدمغ حجته: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨].

فكأنه يقول له: إن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء على الوجه الذي يشاء، لا يغالب ولا يمانع، بل قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فأتِ بالشمس من المغرب، فإن لم تفعل، فلست كما زعمت، وأنت تعلم أنك لا تقدر على هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة، أو تنتصر منها.

فبين له ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما تبجح به عند جَهَلَة قومه، فلم يبق له كلام يجيب به على إبراهيم، بل انقطع وسكت. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

ثم توجه إلى مصر، ومنها جاء بهاجر أم إسماعيل عليه السلام، ثم استقر بالأرض المقدسة ببلاد الشام.

ولقد كانت في هجرته آيات، إذ أن الله تعالى أبدله بقومه قوماً آخرين، وجعله خليلاً له عليه السلام، وداعياً بإذنه إلى صراط مستقيم.

استقر إبراهيم عليه السلام بأهله في الأرض المقدسة، وقد رزق بإسماعيل عليه السلام من أمنا هاجر،

---

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٤٣).

ورزق بإسحاق عليه السلام من أمنا سارة، والتي كانت عاقراً لا يولد لها من الولد أحد، فوهبها الله تعالى الذرية، وجعل في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[العنكبوت:٢٧].

فكل نبي بعده من نسله وعقبه، منحة من الله، وكرامة له، حيث ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى ربه، حتى يتمكن من العبادة والطاعة والدعوة.

وقام إبراهيم عليه السلام بما أمره به ربه؛ حيث نقلَ إسماعيلَ عليه السلام وأمه إلى وادٍ غير ذي زرع، حيث قام بعد ذلك ببناء الكعبة المشرفة مع ولده إسماعيل عليه السلام لتكون محجاً للناس وأمناً ومجمعاً لأفئدة أهل الإيمان على مر الأزمان والأيام، وذلك ما دعا به إبراهيم عليه السلام عندما ترك ذريته هناك: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[إبراهيم:٣٧]..

واستقر إسماعيل عليه السلام في مكة، وكان من نسله خاتم الأنبياء والرسل محمدٌ ﷺ. كما كان من نسل أخيه إسحاق عليه السلام يعقوبُ عليه السلام، ومن نسل يعقوب عليه السلام يوسفُ عليه السلام والأسباطُ بنو إسرائيل، الذين كان من نسلهم أنبياء بني إسرائيل، ومنهم موسى عليه السلام وهارون عليه السلام وداود عليه السلام وسليمان عليه السلام. إلى أن ختمت النبوة فيهم بعيسى عليه السلام عبدِ الله ورسولهِ وابنِ أمته مريمَ ابنةِ عمران، التي هي من نسل بني إسرائيل.

وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة كفاية تامة لتاريخ هؤلاء جميعاً بما يغنينا عن مصادر غيرنا.

دعوة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر معه كما أخبر الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦].

وقد أمره الخليل إبراهيم عليه السلام أن ينزل إلى أرض سدوم التي بها قوم من أفجر الناس وأكفرهم، وأسوئهم طوية، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، بل يتعاطون المنكر جهاراً نهاراً، ويفخرون بذلك، ويعلنون بالمعصية، ابتدعوا معصية لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيانُ الذكران من العالمين، وتركُ ما خلق الله لهم من نسائهم.

فنزل لهم لوط، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وعن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات والأفعال القبيحة، ثم إنهم أصروا على فعل القبيح، واستكبروا وعاندوا، وتعجلوا عذاب الله تعالى بهم، فأنزل بهم من البأس الذي لا يرد، وجعلهم مثلاً للعالمين من بعدهم، وعبرة يتعظ بها العقلاء.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧-٢٩].

ولقد كان من شدة ضلالهم وعمى بصيرتهم أن اتهموا لوطاً وأهله بتهمة عجيبة، هي أنه هو وأهله أناس يتطهرون!!، وهذا من تمام عمى البصيرة وانتكاسة الفطرة أن زين لهم الشيطان أعمالهم، فرأوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، فجاءهم أمر الله بنهايتهم المحتومة بما كسبت أيديهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(١) [هود:٨٢-٨٣].

---

(١) وفي ذلك عبرة لكل أحد من الناس في كل زمان ومكان، ومن المؤسف أننا نرى في زماننا من ينظر إلى هذه الجريمة الشنعاء أنها حرية شخصية، والمؤسف أكثر أن نجد من يعينهم على نشر هذا البلاء بين الناس، بل ويدفعهم لتبوء المكانة المرموقة في بعض المجتمعات، ويطالب بإنشاء محافل وأندية وجمعيات لهؤلاء، بل بلغ بهم الحمق أن يطالبوا لهم بمقاعد في بعض المجالس النيابية والبرلمانات، وإلى الله المشتكى.

دعوة شعيب عليه السلام

أرسل الله شعيباً نبياً إلى قوم مدين، وهي قرية من أرض معان من أطراف الشام الجنوبية مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط «البحر الميت».

قال الحافظ ابن كثير: وكان من أهل مدين كفار يقطعون السبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك، حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها، يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص⁽¹⁾.

فبعث الله فيهم شعيباً، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر وتعاطي هذه الأفعال القبيحة قائلاً: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود:٨٥-٨٦].

فما كان جوابهم إلا كما فعل أسلافهم من الأمم السابقة، ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. يقولون ذلك على سبيل السخرية والتهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

فرد عليهم بكل أدب وملاطفة كما هو حال الأنبياء والرسل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

ثم حذرهم وذكرهم ووعظهم مشفقاً عليهم أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم قائلاً: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (٨٩) وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود:٨٩-٩٠]..

---

[1] البداية والنهاية (١/ ٩٢٤).

وبعد أن أكثر دعوتهم ومناظرتهم وجدالهم وهم على حالهم من التعنت والإصرار والإباء والاستكبار، استفتح على قومه، ودعا ربه، واستنصره عليهم في تعجيل ما يستحقونه من العذاب: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩]، والله تعالى لا يرد دعاء أنبيائه ورسله.

فبعث الله عليهم العذاب والعقوبات؛ إذ رجفت بهم الأرض، وزلزلت زلزلة شديدة أفزعتهم حتى أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وأصبحت أجسامهم جثثاً لا روح فيها، ولا حركات بها، ولا حواس لها.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾ [هود:٩٤-٩٥].

بنو إسرائيل

يُقصد ببني إسرائيل: الأقوامُ الذين انحدروا من نسل يعقوب «إسرائيل» بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وهم أكثر الأقوام ذكراً في القصص القرآني، وذلك لما اتصفوا به من صفات مشينة تفردوا بها عن غيرهم، ولما وقع منهم من تعدّ وتمرد على أمر الله تعالى وعلى أنبيائه ورسله، لذا أفاض القرآن في بيان صفاتهم، وحذر من شرورهم ومن أخلاقهم، ومن التأسي بهم، فهم شر قافلة في التاريخ إلا من رحمه الله منهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:٦٠].

فهم على مدى التاريخ أذىً لأنفسهم ولغيرهم، وهي طبيعة فيهم تتضح جلية في نصيحة أبيهم يعقوب عليه السلام لولده يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف:٥].

ولقد وصفهم يوسف عليه السلام بأنهم قافلة شر بقوله لهم: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:٧٧].

فهم مفسدون في الأرض معتدون، لا تسعد نفوسهم إلا بالأذى وإنكار المعروف والأمر بالمنكر، فهم المنتقصون من ذات الله تعالى، وقَتَلةُ الأنبياء، والمنتقصون من أولياء الله ورسله، وهم آية في تصرفاتهم المنحرفة المخالفة للعقيدة والأخلاق الفطرية، لذا لعنهم الله تعالى على لسان أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[المائدة:٧٨].

ولذلك حذرنا الله تعالى من أن نتصف بهم، أو أن نتشبه بهم هم والنصارى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

وقصتهم مختصرة فيما يلي:

عاش يعقوب ـ إسرائيل ـ ﷷ مع أبنائه الاثني عشر بالأرض المقدسة بفلسطين، وكان أصغر أبنائه يوسف ﷷ وبنيامين، وهما من أم واحدة.

وقد تميز إخوتهم العشرة السابقون لهم بصفات الحقد والغل والحسد، فلقد تآمروا على يوسف ﷷ الذي كان صغيراً ومحظياً عند أبيه، وأرادوا التخلص منه، فعقدوا اجتماعاً قرروا فيه التخلص من يوسف قائلين: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾[يوسف:٩].

أراد الله تعالى أمراً آخر؛ حيث إنهم خدعوا أباهم، وذهبوا بيوسف ﷷ وألقوه في غيابت الجب، وتركوه هناك، ورجعوا إلى أبيهم وادعوا أن الذئب أكل يوسف ﷷ، وزيادة في المخادعة جاؤوا بثياب يوسف ﷷ عليها دمٌ كذبٌ، وفاضت أعينهم بدموع كاذبة ليصدقهم أبوهم، فقال ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف:١٨].

ومر على يوسف ﷷ قوم، فأخرجوه من البئر، وأخذوه معهم إلى مصر، وباعوه هناك لعزيز مصر(١)، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة يوسف ﷷ وبني إسرائيل، تخللتها أحداث وابتلاءات عِظامٌ ليوسف ﷷ انتهت بتوليه منصبَ عزيز مصر، وجاء بأبيه وبأهله أجمعين ليستقروا بمصر.

---

(١) عزيز مصر يقصد به الرجل الذي يلي الملك في مصر من حيث الأمر والنهي وتدبير ميزانية الدولة، وليس ملك مصر كما يفهم بعض الناس.

ظل يعقوب ﵇ وذريته هناك إلى أن قُبض ﵇، فحملوه ونقلوه ليدفن إلى جوار أبويه في أرض كنعان – فلسطين –، وقام بأمر بني إسرائيل وتسويسهم من بعده يوسف ﵇ إلى أن توفاه الله تعالى في مصر(١).

استمر بنو إسرائيل في مصر إلى أن انقلب عليهم حكامها واستذلوهم، وطغوا عليهم وبغوا، فأراد الله تعالى أن يستنقذهم من فرعون مصر ببعثة موسى ﵇، قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾[القصص:٥].

---

(١) «أتى النبي ﷺ أعرابياً فأكرمه فقال له: ائتنا، فأتاه، و في رواية: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه ، فقال له رسول الله ﷺ: تعهدنا ائتنا ، فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ: سل حاجتك، فقال: ناقة برحلها و أعنزاً يحلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل !؟ فقال أصحابه: يا رسول الله و ما عجوز بني إسرائيل ؟ قال : إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال : ما هذا ؟ فقال علماؤهم : نحن نحدثك: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: ما ندري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فأتته فقال: دلوني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي، قال: و ما حكمك ؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء، فقالت : انضبوا هذا الماء فأنضبوا، قالت : احفروا و استخرجوا عظام يوسف فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار » رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ١٤٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣١٣، وصححه في صحيح ابن حبان ٦٢٢.

موســـــى عليه السلام

ولد موسى عليه السلام في مصر، وشاء الله تعالى له أن يربّى في قصر الفرعون حتى شبّ، وجرت معه أحداث عظام انتهت باصطفاء الله له أن جعله نبياً رسولاً من أولي العزم من الرسل، وأمره بأمرين عظيمين:

الأول: دعوة فرعون إلى توحيد الله تعالى.

الثاني: رفع المحنة عن بني إسرائيل، والخروج بهم إلى بيت المقدس.

واجه موسى فرعون عدة مرات يدعوه ويذكره، لكن فرعون تجبر وتكبر، وظن في نفسه أنه رب قادر على كل شيء، مصدقاً بكذبه الذي كان يخضع به الناس بأنه رب وإله؛ حيث قال لشعبه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨].

وقد ضربه الله مثلاً لكل طاغية كذاب أعانته حاشيته السيئة وأعوانه الضلّال على الفساد في الأرض، لقد قال هامان وزير السوء ومستشار فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

مستنفرين فيه صفات السوء ونفسه الخبيثة للانتقام من موسى ومن قومه، فرد عليهم بغباء مستحكم، وبقرار مندفع قائلاً: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وحذر فرعون شعبه أن يستمعوا لموسى، أو أن يقبلوا على دعوته بعلة المفلس الفاسد عقدياً، والمنحرفِ أخلاقياً قائلاً لهم عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

وهذا من أعجب العجب أن يُتهم الرسلُ وأتباعهُم بالفساد في الأرض، وأن يمدح الفراعنة المفسدون الضالون ويُثنى عليهم بأنهم أهل الصلاح والتقى، وهذا ـ والله ـ

دليل على فِطَر منكوسة، وعقول مطموسة أن يرى الإنسانُ المغرورُ الحقَّ باطلاً، ويرى الباطلَ حقاً، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا ﴾[فاطر:٨]. فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين.

توالت الأحداث والوقائع والآيات مع موسى وقومه إلى أن سار بهم ليلاً بأمر من الله تعالى ليخرج بهم من مصر إلى الأرض المقدسة، فتبعه فرعون بجنوده فكان هلاكه في معجزة عظيمة انتهت بالقضاء على فرعون وجنوده، وبنجاة موسى عليه السلام وبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف:١٣٦].

موسى مع بني إسرائيل في سيناء:

بدت علامات التمرد من بني إسرائيل على نبيهم موسى عليه السلام، والانحراف عن أمر الله من قبل خروجهم من مصر، فهم لم يقروا له جميعاً بما جاء به من عند الله كما قال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ ﴾[يونس:٨٣]. وفي معرض حديث لموسى معهم يردون عليه في غلظة: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾[الأعراف:١٢٩]. وهذه مواقف تنبي عن صفات سيئة اتصفت بها نفوس خبيثة متمردة على أمر ربها رغم وجود الرسول والآيات المؤيدة له، وعلى النقيض نرى موقف سحرة فرعون الذين لم يكونوا من قوم موسى عليه السلام وكانت لهم المكانة العالية عند فرعون، لما رأوا الآيات خروا ساجدين: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[الشعراء:٤٧-٤٨].

ثم ظهرت هذه الصفات السيئة أكثر بعد هذه الآية العظيمة التي شاهدوها عندما انفلق البحر أمامهم فرقين، فكان كل فِرْق كالطود العظيم، فساروا ونجوا، وأُغرق فرعون وجنوده فيه، وبدلاً من أن يحمدوا الله، ويسجدوا له شاكرين، إذا هم ينكصون على أعقابهم، إذ أنهم مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم يدعونها من دون الله، فبدلاً من أن يستنكروا ذلك الشرك والكفر قالوا: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾[الأعراف:١٣٨].

لقد شهد بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام آيات ومعجزات لا نعرف أنها سرت في أمة من

الأمم قبلهم ولا بعدهم، وبرغم هذه الآيات تجبروا وطغوا وفسقوا عن أمر الله تعالى.

أنعم الله عليهم بالغمام يُظلُّهم من شمس وحر سيناء وأجواء الصحراء، كما أنعم عليهم بأن أمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط منهم عين ليشربوا منه ماءً زلالاً، كما أنعم عليهم بطعام أنزله من السماء هو المن والسلوى، فاستظلوا وأكلوا وشربوا.

ومن أعظم النعم التي أنعم الله بها عليهم: أن سَيَّر معهم موسى وهارون عليهما السلام يسوسانهم، ويرشدانهم، ويوحى إليهما، وكلم الله نبيه موسى عليه السلام على جبل الطور تكليماً، فيأمره وينهاه، وينزل عليه التوراة كتاباً هادياً ومرشداً لبني إسرائيل، فأخذ موسى عليه السلام عليهم العهد والميثاق أن يعملوا بما جاء في التوراة.

ومن نعمه سبحانه عليهم: أنه رفع فوقهم جبل الطور، فأصبح فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، وذلك ليزدادوا إيماناً بالله تعالى ويقيناً بقدرته جل وعلا.

موقف بني إسرائيل من آيات الله ومعجزاته:

لقد قابل بنو إسرائيل نعم الله عليهم وآياته بالجحود والخيانة ونقض العهد والميثاق، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[المائدة:١٣].

وقام السامري(١) وهو رجل منهم بصناعة عجلٍ مسبوكٍ من الذهب، فاتخذوه إلهاً وعبدوه من دون الله، وذلك في الوقت الذي ذهب فيه موسى يناجي ربه على جبل الطور.

لم يكتف بنو إسرائيل بذلك، بل تمردوا مستكبرين على الطعام الذي أنزله الله تعالى لهم من السماء، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يستبدل به لهم البقول والثوم والبصل، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾[البقرة:٦١].

---

(١) رجل من بني إسرائيل استغل ذهاب موسى لمناجاة الله تعالى فصنع لهم عجلاً وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى، فكان سبباً في إضلال بني إسرائيل عندما ذهب موسى، فكان فتنة لهم وقصته ذكرت في مواضع في القرآن الكريم.

ومن أبرز مواقف بني إسرائيل: رفضُهم قتالَ الجبابرة ودخولَ الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، وسخريتُهم منه، واستهزاؤهم بأمر الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٠) يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢١) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[المائدة: ٢٠-٢٦].

فضرب الله عليهم التيه في سيناء أربعين سنة متواصلة حدث فيها من الوقائع وعجائب الأمور ما الله به عليم، ومن ذلك: ما أشار إليه القرآن الكريم في قصة القتيل الذي من أجله أمروا أن يذبحوا بقرة ليعرفوا من قاتله، وقصة أصحاب السبت الذين خالفوا أمر الله تعالى، ولقاء موسى ﵇ بالخضر، والذي رأى معه موسى ﵇ أموراً عجباً كما جاء في سورة الكهف.

لقد رأى بنو إسرائيل الكثير من الآيات والعجائب التي أجراها الله تعالى لهم، غير أنهم لم يزدادوا بذلك إلا تعنتاً وبعداً عن شريعة الله تعالى، سوى القلةِ المؤمنة فيهم ممن استسلموا لأمر الله تعالى، وعملوا بمقتضى شريعته.

وفي عهد التيه مات نبيُّ الله هارون ﵇، ثم بعده بفترة قريبة مات موسى ﵇، ولم يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة معهما، وفي هذا بيان لكل داع إلى الله أن على أتباع الرسل عليهم السلام السعيَ بالوسائل الشرعية الصحيحة لهداية الناس، وبيان شريعة الله لهم، وإرشادهم وهدايتهم هداية الدلالة والإرشاد، والحرص على تبليغ رسالات الله دون النظر إلى عواقب الأمور، ودون النظر لإدراك نجاح الدعوة وجني ثمارها، فكم من نبي دعا قومه ولم يستجيبوا له ومات على ذلك، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس ﵄

قال: «خرج علينا النبي ﷺ يوماً فقال: عُرضت عليّ الأمم، فجعل يمر النبيُّ معه الرجلُ، والنبيُّ ومعه الرجلان، والنبي ومعه الرهطُ، والنبي ليس معه أحد..» (١) الحديث.

فالدعوة ليست بالكم وإنما بالكيف، فعلى الداعي أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح، وعليه أن يعلم أن أجره من دعوته مذخور له عند ربه إن هو أخلص، سواء نجحت الدعوة أو لم تنجح، كما عليه أن يعلم أن الله تعالى ناصرٌ لدينه وأوليائه إن عاجلاً أو آجلاً، في حياة الدعاة أو بعد مماتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

بنو إسرائيل بعد موسى والتيه:

بعد انقضاء فترة التيه دخل بنو إسرائيل إلى الأرض المقدسة بعد قتالهم للعماليق الجبابرة وانتصارهم عليهم بقيادة يوشع بن نون عليه السلام، والذي أيده الله بمعجزة أثناء القتال، إذ أن الشمس حُبست عليه، وأطال الله له نهارَ اليوم حتى فرغ من قتال عدوه، روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشعَ لياليَ سار إلى البيت المقدس»(٢).

وقد قسم المؤرخون تاريخ بني إسرائيل في الأرض المقدسة إلى ثلاثة عهود ساسهم خلالها الأنبياء والملوك:

١. عهد القضاة.

٢. عهد الملوك.

٣. عهد الانقسام.

وقد بعث الله تعالى لهم خلال هذه العهود جمعاً من الأنبياء، منهم: داود عليه السلام، وابنه سليمان عليه السلام، وبعده تنازعَ بنو إسرائيل، وانقسموا إلى قسمين: قسم منهم كون دولة في جنوب فلسطين

---

(١) أصله في الصحيحين – والحديث بطوله رواه البخاري (١٠/ ١٩١) ومسلم (٣/ ٧٩).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٤/ ٦٥)، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح، وله شاهد من حديث أبي هريرة في البخاري: أن النبي ﷺ قال: (غزا نبي من الأنبياء.... فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليهم).

عاصمتها بيت المقدس، وسميت: دولةَ يهوذا⁽¹⁾، ودولة في شمال فلسطين سميت بمملكة السامرة، أو إسرائيل، وقد وقع بين الدولتين عداء وقتال وانحراف عَقَدِي، حتى إنهم عبدوا الأصنام في كثير من الأحيان، مما أدى إلى غضب الله تعالى عليهم فسلط غيرهم عليهم، فلقد جاء الآشوريون، وأسقطوا مملكة إسرائيل، وسبوا شعبها، وسقطت مملكة يهوذا في يد الفراعين الذين فرضوا عليهم الجزية، ثم جاء نبوخذ نصر ملكُ بابل الكلداني -بختنصر- ودمر مملكة يهوذا، وساق شعبها مسبياً إلى بابل فيما سُمي بالسبي البابلي.

عاش بنو إسرائيل في ذل وهوان كعبيد للأرض، ولخدمة ملوك وأمراء بابل، وتعاونوا مع قورش الفارسي ليتخلصوا من الرق، إذ أن قورش كان يعمل على امتداد ملكه إلى بابل، وليفرض سلطانه على بلادهم وما جاورها، فكافأ بني إسرائيل بالعودة إلى بيت المقدس بعد أن عاونوه على تحقيق مطلبه، وأقاموا بها إلى أن جاء الإسكندر بن فيليب المقدوني اليوناني، واستولى على الدولة الفارسية وأملاكها، فدخل بنو إسرائيل ضمن ملكه إلى أن هلك، وقسمت أملاكه بين قادته، حتى جاء الرومان بقيادة بومبي، فدخلوا تحت حكم الرومان وسيطرتهم، وقد افترق اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة ⁽²⁾ عملت على تحريف التوراة، وتبديل شريعة موسى عليه السلام، كما في الحديث: «إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه وتركوا التوراة»⁽³⁾.

فلما حدث ذلك، أرسل الله فيهم عيسى بن مريم عليه السلام نبياً، وأيّده بالمعجزات من ميلاده إلى أن رفعه الله إليه.

---

(١) تنسب الدولة إلى يهوذا أحد أسباط بني إسرائيل، قيل: إنه الابن الرابع ليعقوب، وهو الذي قام بأمر بني إسرائيل في مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام، وإليه ينسب بعض أهل العلم لفظة اليهودية التي أطلقت على بني إسرائيل، لأن اليهودية ليست ديانة سماوية كما يظن البعض أن موسى جاء بها، وإنما الذي جاء به موسى وجميع الأنبياء والرسل هو الإسلام، وقيل: إن لفظة اليهودية أو اليهود أطلقها بنو إسرائيل على أنفسهم تزكية منهم لأنفسهم، وأن معناها التوبة والرجوع والإنابة لله فهي الأمة المهتدية كما يزعمون، قال موسى عليه السلام ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

والظاهر من الروايات التاريخية أن الفرس هم من أطلق لفظة اليهود على بني إسرائيل بعد السبي البابلي، والقرآن الكريم عندما يذكرهم بمسمى اليهود يذكرهم في مواطن الذم مثل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨]. وأيضاً: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧].

وفي هذا وأمثاله دلالة على أنهم تلقبوا باليهود بعد أن انحرفوا عقدياً وأخلاقياً.

(٢) روى أبو داود (٣/ ٨٦٩)، والترمذي (٢/ ٣٣٤)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٤) بسند صحيح صححه الألباني عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة). هذا الحديث رواه جمع من الأئمة عن جمع من الصحابة منهم: أبو هريرة ومعاوية وعبد الله بن عمر وعوف بن مالك وأنس بن مالك وأبو أمامة وعبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وسعد بن أبي وقاص وأبو الدرداء وواثلة بن الأسقع وعمرو بن عوف المزني وعلي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري رضوان الله عليهم.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٤٠٩).

عيســـى عليه السلام

ولد عيسى عليه السلام في مرحلة تجبر فيها بنو إسرائيل سوى الفئة المؤمنة منهم التي كانت تطيع أمر نبيهم زكريا عليه السلام، وولد في معجزة من فتاة عذراء هي مريم البتول، حملت به ووضعته بآية من آيات الله تعالى، وأتت به قومها تحمله، فخاطبهم الوليد بلسان فصيح: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾[مريم:٣٠].

قال الحافظ ابن كثير: فكان أول ما تكلم به أن قال: إني عبد الله، اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جنابَ الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابنُ الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون، وقذفوها به ورموها بسببه(١).

ولقد ذكر الله عز وجل قصة ميلاد عيسى في مواضع عدة من القرآن الكريم، وأفرد بذلك سورة باسم أمه العذراء البتول هي سورة مريم، وأثبت القرآن بشرية المسيح، وأنه انحدر من نسل امرأة من بنات آدم وحواء، وُلد من أم بلا أب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩]. كما أثبت القرآن أنه رسول من الله تعالى أرسله في بني إسرائيل ليصحح لهم مسارهم المعوج المنحرف.

وأثبت له القرآن أنه جاء بما جاء به من سبقه من الأنبياء والرسل بالإسلام والتوحيد الخالص حيث قال الله على لسان عيسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[آل عمران:٥١]. كما أنه متبع لشريعة موسى عليه السلام ومكمل لها كما قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[آل عمران:٥٠].

ولقد انتقل في صغره مع أمه إلى أرض الناصرة، وهي ربوة ذات قرار ومعين بعد أن خافت عليه من اليهود وأحبارهم، ولذا سمي بالناصري وسُمِّي أتباعُه بالنصارى(٢).

ولما شب واجه أحبار بني إسرائيل مراتٍ عديدةً يدعوهم فيها إلى توحيد الله، كما أجرى

---

(١) قصص الأنبياء (ص:٤٨٩).

(٢) وقيل: النصرانية نسبة إلى حوارِيِّي المسيح الذين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله؟ فأجابوا: نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون.

الله تعالى على يديه معجزات باهرة: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٤٩].

فلذا وقف أحبارُ بني إسرائيل منه موقف العداء؛ لشعورهم بأنه سيزعزع مكانتهم، فوشَوا به عند الحاكم الروماني الوثني الذي أمر بالقبض عليه وبصلبه وقتله، وعلم عيسى بالأمر بوحي من السماء، فأمر حوارييِّه بالاجتماع به في دار ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ قائلاً لهم: (أيكم يقبل أن يلقى عليه شبهي ليقتل مكاني ليكون معي في درجتي في الجنة، فقام شاب من أحدثهم سناً قال: أنا يا نبي الله، فقال له عيسى عليه السلام: اجلس ـ كأنه أشفق عليه لصغر سنه ـ فجلس الشاب، فقال عيسى عليه السلام قولته للمرة الثانية: أيكم يقبل أن يلقى عليه شبهي ليقتل مكاني ليكون معي في درجتي في الجنة، فقام نفس الشاب، فقال له نبي الله عيسى عليه السلام: اجلس، فردد عيسى المقولة للمرة الثالثة، فقام الشاب نفسه، فقال له عيسى عليه السلام: هو أنت.

قال ابن عباس: فجاء الطلب ـ أي: الجند الرومان مع اليهود ـ ليأخذوا نبي الله عيسى عليه السلام: فألقى الله شبهه على هذا الشاب، وألقى على عيسى عليه السلام سنة من النوم، ثم رفعه إليه، فأخذ اليهود هذا الشابَّ الذي ألقي عليه الشبه، فقتلوه وصلبوه، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[النساء:١٥٧-١٥٨].

قال ابن عباس: فانقسم الناس فيه إلى ثلاث فرق:

الأولى: قالت: كان فينا الله في الأرض، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية.

وقالت الفرقة الثانية: كان فينا ابنُ الله، ثم رفعه أبوه إلى السماء، وهذه النسطورية.

وقالت الفرقة الثالثة: كان فينا عبدُ الله ورسولُه، ثم رفعه الله إليه، ثم ينزله الله إلى الأرض إذا شاء، وهؤلاء هم الموحِّدون)⁽¹⁾.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره وصححه وقال: رواه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٤٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وتُثْبِت المصادر التاريخية أنه قد فر من قتل الطوائف النصرانية المنحرفة قلة قليلة من المسلمين اختبأت تدعو إلى التوحيد في سرية تامة، من تلامذتهم الأربعة الذين واجههم سلمان الفارسي ﵁ وتعرّف على بعثة النبي ﷺ من خلالهم، وكذلك الراهب في قصة أصحاب الأخدود، وكذلك بحيرا الراهب الذي ورد ذكره في السيرة النبوية العطرة.

ولقد انقسم النصارى بعد عيسى ﵇ إلى اثنتين وسبعين فرقة كما جاء في حديث الفرق، عملت على تحريف الإنجيل وتبديل شريعة الله التي جاء بها المسيح ﵇.

ولم يكن للنصارى دولة يعيشون فيها، بل كانوا يعيشون بين بني جنسهم من اليهود وإلى جانب الرومان الوثنيين، مما أوقع عليهم الابتلاء والعذاب من كلا الفريقين، إلى أن تولّى الإمبراطور قسطنطين الروماني، فأوقف اضطهادَ النصارى بمرسوم ميلان سنة (٣١٣) ميلادية، ثم تنصَّر قسطنطين؛ مما كان له أكبرُ الأثر في انتشار النصرانية المحرفة الوثنية في الدولة الرومانية، وبنى من أجل ذلك العاصمة القسطنطينية لتكون أول عاصمة للنصرانية سنة (٣٢٤م)، هذا ما انتهى به أمر النصارى مختصراً.

وأما أبناء عمومتهم اليهود من بني إسرائيل، فظلوا على فسادهم إلى أن قام القائد الروماني تيتوس في سنة (٧٠) للميلاد يُنكل بهم، ويسبي أعداداً كبيرة منهم، ويقوم بتهجيرهم، كما قام بتخريب بيت المقدس، وجاء من بعده الحاكم الروماني هادريان في سنة (١٣٥م) حيث هدم بيت المقدس تماماً، وأقام معبداً كبيراً لآلهة الرومان هو معبد جيبتور، ولم يُبق يهودياً واحداً في بيت المقدس، كما منع اليهود من دخول مدينة القدس، وجعل العقوبة لذلك الإعدام، ثم سمح لهم بالزيارة يوماً واحداً في السنة، والوقوف بجدار بقي قائماً من المسجد، وهو الحائط الغربي منه، والذي يسمونه بحائط المبكى، ومازالوا يأتون إليه ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المزعوم.

خرجت بعد ذلك الهجرات اليهودية مشتتة في الأرض جزاء بما قدمت أيديهم من انحراف عقدي وخلقي(١)، فمنهم من ذهب إلى شمال إفريقيا، ومنهم من ذهب إلى شرقها، ومنهم من نزل في جنوب جزيرة العرب، ومنهم من ذهب إلى فارس والعراق، ومنهم من نزل بين الحرتين بيثرب أو قريباً منها، انتظاراً للنبي الخاتم الذي يستعيدون معه مجدهم فوق الأمم كما يزعمون.

---

(١) د. سعود الخلف/ دراسات في الأديان (ص:٥٩) بتصرف.

رَابِعاً

ٱلعَالَمُ قُبَيْلَ ٱلبِعْثَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ

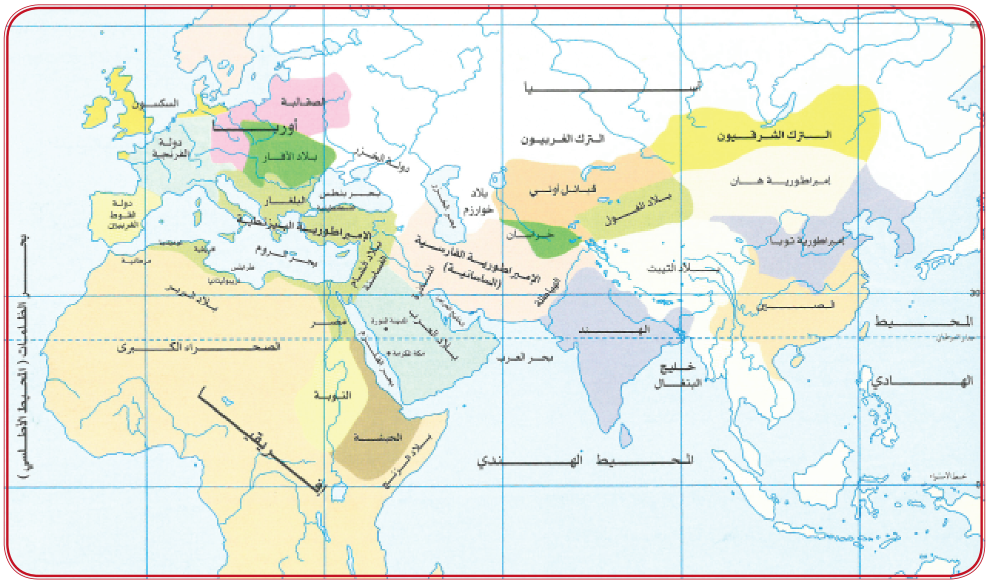
آسيا
أوروبا
السكسون
الصقالبة
دولة الفرنجة
بلاد الأفار
دولة القوط الغربيين
دولة الخزر
بحر بنطس
البلغار
الإمبراطورية البيزنطية
بحر الروم
بلاد الشام
بلاد خوارزم
الإمبراطورية الفارسية (الساسانية)
الترك الغربيون
الترك الشرقيون
إمبراطورية هان
قبائل أوني
بلاد المغول
خراسان
إمبراطورية توبا
بلاد التبيت
الصين
الهند
بحر العرب
خليج البنغال
المحيط الهندي
المحيط الهادي
مصر
الصحراء الكبرى
النوبة
الحبشة
بلاد العرب
المدينة المنورة
مكة المكرمة
بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)
إفريقيا

خريطة العالم قبيل البعثة النبوية

إن الناظر المتأمل لخارطة العالم قبل البعثة النبوية يجد أن العنصر البشري انحصر في ما يسمى بقارات العالم القديم الثلاث الكبرى: «آسيا وإفريقيا وأوروبا»، ولقد انتهت خارطته إلى شكل محدد قبل البعثة النبوية في قوى عسكرية هائلة في الشرق، وأخرى في الغرب، وذلك بعد صراعات طويلة عاشتها البشرية بين ما يسمى بدول الحضارات القديمة.

ففي الشرق كانت الإمبراطورية الفارسية، ومن خلفها الترك والهنادكة و الصينيون في الموقع الجغرافي، وهي الإمبراطورية الساسانية التي فرضت سيطرتها من جهة المشرق في مواجهة القوة الأخرى التي فرضت سيطرتها على الغرب من الجهة الأخرى وهي الروم، وكلاهما ورث ملك حضارات بائدة انحرفت عن أمر الله تعالى، فأبادها الله، وأورثها قوماً آخرين، والعرب آنذاك انحصروا في جزيرتهم، والحبشة والسودان في شرق إفريقيا لتصبح الخارطة كما في الشكل السابق.

أولاً: القوى غير العربية

١ . الدولة الرومانية

تطلق لفظة الروم على قبائل متعددة من اللاتين والإغريق والأترورريين أو الأتروسكيين، اتخذوا من مدينة روما(١) مركزاً وعاصمة لهم للأرض التي تسمى اليوم بإيطاليا، ولقد استطاعت هذه الشعوب أن تتحد فيما بينها لتكون الشعب الروماني الذي أنشأ الحضارة الرومانية القديمة متأثرة بما حولها من حضارات الشعوب الأخرى.

مر تاريخ الرومان بمراحل متعددة، وأشهرها: عصر الملكية، والذي تعاقب فيه سبعة ملوك على حكم روما، وذلك منذ سنة (٧٥٣ ق.م حتى سنة ٥٠٩ ق.م)، وكان أول ملوكها رومولوس(٢)، كما كان آخر ملوكها تاركوينيوس(٣) الذي أدت سياسته في إثقال كواهل المواطنين بالضرائب إلى ثورتهم عليه، وحكم عليه بالنفي مع جميع أفراد عائلته، وتم إلغاء الملكية لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ روما، وهي مرحلة العصر الجمهوري من سنة (٥٠٩ ق.م حتى سنة ٣٠ ق.م)؛ وقد تميز هذا العصر بأحداث كبرى في تاريخ روما، فلقد تولى الحكم في روما حاكمان تنتخبهما جمعية عمومية لمدة عام، ويسمى الواحد منهما قنصلاً، إلى جانب مجلس الشيوخ الروماني المكون من الطبقة الأرستقراطية، وإذا تعرضت الدولة لأي خطر خارجي، أو نزاع داخلي، يعين مجلس الشيوخ شخصاً واحداً لرئاسة الدولة، وتفوض له السلطة المطلقة، ويلقب بالدكتاتور لمدة ستة أشهر.

كما تميز هذا العهد بسيطرة روما العاصمة على جميع شبه جزيرة إيطاليا، وتميز أيضاً بالصراع السياسي بين طبقات المجتمع من العامة والأرستقراطية، واستطاعت أن تحصل طبقة العامة على مكاسب متعددة حتى نالت استقلالاً اجتماعياً تاماً إلى جانب استقلال سياسي بتعيين أحد القنصلين من العامة.

---

(١) روما أو رومية كما جاء في الحديث النبوي الصحيح بلدة قديمة يمتد تاريخها إلى نحو ألفين وخمسمئة سنة أسسها قبائل قديمة على نهر التايبر يقودهم رومولوس مؤسس المدينة والذي تنسب إليه المدينة، وأصبحت عاصمة للملكة الرومانية القديمة وشهدت حضارة الإمبراطورية الرومانية وأصبحت عاصمة لإيطاليا في العصر الحديث.

(٢) رومولوس: هو مؤسس روما وأول ملوكها في القرن الثامن ق.م، حكم نحو أربعين سنة إلى أن مات.

(٣) تاركوينيوس: لُقب بالملك الفخور ، حكم بين سنتي (٥٣٤ - ٥٠٩ ق.م)، كان متسلطاً يبطش بخصومه مما أدى إلى الثورة عليه واستبداله.

ومما تميزت به هذه المرحلة: التوجهُ إلى التوسع خارج إيطاليا، واستطاعت روما أن تستولي على صقلية، والجزرِ المجاورة لها، كما استطاعت أن تصد الغزو الخارجي لقرطاجة بقيادة هنيبال(١)، وانتهت هذه المرحلة بتوسع روما في الشرق على حساب الإغريق(٢)، واستطاعت أن تستولي على ممتلكاتها في آسيا الصغرى والبلقان وجزر بحر إيجه ومقدونيا، ثم استطاع بومبي الروماني(٣) الاستيلاء على سوريا، ثم دارت الدائرة على هذه المرحلة الجمهورية لتقع الإضرابات السياسية والثورات والنزاعات الداخلية، سواء بين القناصل بعضهم بعضاً، أو بين الشيوخ – السناتو –، وقيام الحروب الأهلية، كما أعلنت الجيوش الولاء للمنتصر بدلاً من الدولة، فعندئذ ظهر يوليوس قيصر(٤) الذي استطاع أن يضع كل السلطات في يده، غير أنه قُتل من قِبل بروتس(٥)، مما أدخل روما في صراع جديد انبثق عنه مرحلة جديدة هي مرحلة العصر الإمبراطوري –(٣٠ ق.م إلى ١٤٥٣ م) –، الذي أسقط على يد الدولة العثمانية.

تمكن أكتافيوس(٦) من هزيمة مارك أنطونيوس(٧)وكليو باترا(٨) في معركة أكتيوم البحرية الشهيرة سنة (٣١ق.م) والذي ترتب عليه استيلاء الرومان على مصر، وبذلك

---

(١) هنيبال:أو حنبعل أو هاني بعل قائد عسكري قرطاجي فينيقي الأصل، أسس التكتيكات الحربية في المعارك، ويعتبر كاسر هيبة روما كما صوره الرومان أنه وحش يهوى القتل وسفك الدماء، ولد في شمال إفريقيا بمدينة قرطاج – تونس حالياً – في سنة (٢٤٧ ق.م)، كان أبوه قائد القرطاجيين، ثم تولى من بعده واستطاع أن يصبح حاكماً لقرطاجنة – إسبانيا حالياً – بعد أن حقق ثلاثة انتصارات على الرومان إلى أن هُزم في شمال إفريقيا في معركة زاما، يعتبره كثير من مؤرخي التاريخ القديم واحداً من أعظم القادة العسكريين في زمانه.

(٢) الإغريق: اليونانيون القدماء.

(٣) بومبي: أو بمبيوس قائد روماني كبير ظهر في الفترة ما بين (١٠٦ق.م إلى ٤٦ق.م)، أحد القادة العسكريين الذين برزوا في أواخر عصر الجمهورية الرومانية، استطاع الاستيلاء على سوريا وفلسطين سنة (٦٤ ق.م)، انتهى الأمر به أن توفي بالإسكندرية في مصر.

(٤) يوليوس قيصر: ولد بروما وعاش بها وتولى حكمها بمسمى الإمبراطور في سنة (٤٩ق.م)، انتهت حياته بالاغتيال على يد بروتس.

(٥) بروتس: اسمه ماركس جونيوس بروتس، من أشهر القتلة في التاريخ، أحد الولاة لقيصر ويعد من أشراف الرومان، اختلف مع يوليس قيصر الذي كان يصادقه صداقة حميمة مما أدى به في النهاية لقتل يوليوس، فلما طعنه نظر إليه قيصر وقال لبروتس: حتى أنت يا ولدي بروتس، فأجابه: إني أحبك لكني أحب روما أكثر، فقال له قيصر: إذن فلتحيا روما وليمت قيصر.

(٦) أكتافيوس: أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية، وُلد في عائلة غنية، تولى الحكم بعد اغتيال يوليوس قيصر خال والدته ويعتبر هو المؤسس للإمبراطورية الرومانية، حكم من سنة (٢٧ق.م حتى توفي في سنة ١٤م).

(٧) أنطونيوس: مارك أنطونيوس أو مرقوس أنطونيوس، قائد وسياسي وقنصل روماني، ولد بروما سنة (٨٣ ق.م)، عمل مساعداً مع يوليوس كقائد عسكري، ثم تحالف بعد اغتيال قيصر مع أكتافيوس ولابيدوس وأصبح شريكاً لهما في الحكم مما أدى إلى الاختلاف ونشوب الحرب الأهلية والتي انتهت بهزيمته مع حليفته كليوباترا أمام أكتافيوس في معركة أكتيوم البحرية سنة (٣١ ق.م)، وانتحر على أثر ذلك سنة (٣٠ ق.م).

(٨) كليوباترا: ابنة بطليموس الثاني عشر المصري، كانت ملكة على مصر سنة (٥١ ق.م) إلى جوار أخيها الملك بطليموس الثالث عشر، اختلفت مع أخيها الذي طردها من مصر ولجأت إلى يوليوس قيصر تستعين به، فأعانها على التغلب على أخيها واستطاعت الانتصار عليه وحكمت مصر لبضع سنوات تحت الحكم الروماني لمصر، وأصبح أنطونيوس تتبعه ولاية مصر، ووقع في علاقة غرامية مع الملكة كليوباترا، وانتهت حياتها بالانتحار بعد هزيمتهما في معركة أكتيوم سنة (٣١ ق.م).

أصبح أكتافيوس سيداً للعالم الروماني بلامنازع، ومنحه مجلس الشيوخ لقب المواطن الأول، ثم لقب بأغسطس، ولقد استطاع أن يقنع الرومان بفكرة أن يكون عليهم إمبراطوراً، فقبلوا ذلك، وكان عصره من عصور الازدهار والتقدم؛ حيث قام بإعادة تنظيم الجيش، وأعاد بناء روما، وشجع الحركة العلمية والأدبية والفنون المختلفة.

ثم توالى على حكم روما بعده أباطرة اتسم حكم بعضهم بالاستبداد والقهر؛ مثل: نيرون(١)، وكاليجولا(٢) ، كما اشتهر البعض الآخر بالإصلاحات؛ مثل: تراجان(٣)، وهدريان(٤)، وقد بلغت الإمبراطورية في عهد تراجان أقصى اتساع لها.

ثم قام الإمبراطور قسطنطين(٥)في (سنة ٣٢٤) بنقل عاصمة الدولة من روما إلى مدينة بيزنطة(٦) التي اتسعت اتساعاً كبيراً، وحملت اسم مؤسسها تكريماً له، فسميت بالقسطنطينية، والتي احتفل بتدشينها كعاصمة في (سنة ٣٣٠م).

---

(١) نيرون: إمبراطور روماني يعد خامس وآخر الأباطرة من السلالة اليوليو كلودية، ولد سنة (٢٧ ق.م) وحكم الإمبراطورية الرومانية في سنة (٥٤م إلى سنة ٦٨م)، تدهور الوضع السياسي في زمانه، وقامت عدة انقلابات تعامل معها بالقوة، كما تعامل مع شعبه بالخصومة والعداوة، واشتهر في التاريخ بجريمة كبرى هي حريق روما (سنة ٦٤م) مبتغياً بذلك إعادة بناء روما، وقد شاهد الحريق والنيران تتصاعد من خلال برج مرتفع وبيده آلة الطرب يغني أشعار هوميروس، وقد هلك في هذا الحريق الآلاف من سكان روما، فازدادت كراهية الشعب نحوه، فكان عليه أن يخرج نفسه من هذا المأزق، وأراد أن يتهم اليهود أو النصارى بحرق روما، وانتهى به الأمر أن ألصقها بالنصارى، فقام بقتل وحرق العشرات منهم مما اضطر أن يعيش الكثير منهم في سراديب تحت الأرض وفي الكهوف ومازالت كنائسهم التي بنوها هناك تحت الأرض ومقابرهم مزاراً للسياح في إيطاليا شاهداً على السنوات الأربع التي ذاق فيها النصارى الأمرين على يد نيرون، ثم سادت الفوضى روما فأعلن مجلس الشيوخ أن الإمبراطور أصبح عدواً للشعب فمات منتحراً في (سنة ٦٨م) مخلفاً البلاد في حالة يرثى لها.

(٢) كاليجولا: ثالث أباطرة الرومان واسمه جايوس قيصر، وسمي بكاليجولا نسبة لنعاله العسكرية التي كان يلبسها منذ صغره، حكم من (سنة ٣٧م إلى سنة ٤١م)، اشتهر بالقسوة والاستبداد والفساد الأخلاقي، وعاشت البلاد في زمانه حالة من الفوضى، وانتهى الأمر بقتله.

(٣) تراجان: واسمه ماركس أليبيوس، إمبراطور رومانيا الثالث عشر، حكم من (سنة ٩٨م إلى سنة ١١٧م)، اتسعت الإمبراطورية في عهده حتى بلغت أوجها، ويعد أحد أفضل الأباطرة في عهد الإمبراطورية الرومانية، توفي في (سنة ١١٧م).

(٤) هدريان: أو أدريان، أحد أفضل الأباطرة الرومان، حكم بعد تراجان من (سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م) وهو ابن تراجان بالتبني، من أشهر أعماله: سور هدريان الذي بناه حول بريطانيا لصد الغارات العدوانية عليها وتحصينها، وقد كانت بريطانيا آنذاك مقاطعة رومانية، ومازالت آثاره باقية إلى اليوم.

(٥) قسطنطين: قسطنطين الأول ولد في سنة ٢٧٢م، إمبراطور روماني تولى الحكم في (سنة ٢٨٥م إلى سنة ٣٣٧م)، أول من أعلن النصرانية من الرومان وأنشأ مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة للنصرانية.

(٦) بيزنطة: مدينة إغريقية قديمة، كانت تقع على مضيق البسفور في تركيا حالياً، أُسست (سنة ٦٥٨ق.م) على أنقاض قرية للصيادين دخلت بعد بناء القسطنطينية في المدينة الجديدة وأصبحت ضمن أحيائها، وبسببها أُطلق على الإمبراطورية الرومانية الشرقية: الإمبراطورية البيزنطية.

مدينة القسطنطينية:

كان الرومان يعتقدون بآلهة متعددة ترتبط بوظائف حياتية مختلفة متأثرين بوثنية الفراعين والإغريق، فعندهم آلهة الحصاد، وآلهة البذر، وآلهة الولادة، وآلهة الزواج، والآلهة الرسمية التي تُخصص لها أعياد سنوية؛ مثل جبيتور كبير الآلهة، كما عبد الرومان الحكام بعد وفاتهم منذ عهد يوليوس قيصر، حتى اعتنق قسطنطين النصرانية، فهو يعتبر أول إمبراطور روماني يعتنق النصرانية، لذلك اختار نقل العاصمة إلى مكان جديد أكثر ملاءمة للديانة النصرانية، بعيداً عن هجمات البرابرة من القبائل الجرمانية(١) التي كانت تهاجم روما، وتتزايد هجماتهم من وقت إلى آخر.

تطورت الأمور في الدولة الرومانية حيث شهدت (سنة ٣٥٩م) تقسيم الدولة الرومانية إلى قسمين:

الدولة الأولى: الدولة الرومانية في الشرق، وعاصمتها القسطنطينية، وقد أطلق عليها: البيزنطية نسبةً إلى مدينة بيزنطة التي كانت نواة القسطنطينية.

الدولة الثانية: الدولة الرومانية الغربية، وعاصمتها روما، والتي تعرضت في منتصف القرن الخامس الميلادي لهجمات بربرية أدت إلى نهبها وسقوطها في أيدي القوط الذين أنهوا حكم الأباطرة الرومان فيها، بعد أن خلعوا آخر أباطرتها عن الحكم.

وبقيت دولة الروم الشرقية التي ظلت تحتل بلاد الشام ومصر إلى أن شاء الله بالفتح الإسلامي الذي أزالها من هناك، حتى كانت نهايتها على يد محمد الفاتح سلطان العثمانيين الذي استطاع فتحها (سنة ٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣م)، لتصبح عاصمة للدولة العثمانية التي تولت الخلافة الإسلامية بعد ذلك، وأطلق محمد الثاني - الفاتح - على القسطنطينية اسم: إسلام بول؛ أي: مدينة الإسلام.

---

(١) يقصد بالقبائل الجرمانية أو التيتينيون: الشعوب والقبائل التي تتحدث باللغات الجرمانية، والتي تنحدر من أصل عرقي واحد، استوطنوا المناطق المحادية للإمبراطورية الرومانية وكان من أشهر قبائلهم: القوط الشرقيون والغربيون والفاندال والسكسونيون والأنجلوسكسونيون واللمبارد والفرنجة والفايكنج وغيرهم، وهم الذين شكلوا بعد ذلك الدول الأوروبية الحديثة، ويعود أصلهم إلى أوروبا الشمالية، وأغلبهم من مناطق إسكندنافيا ، توسعت هذه القبائل واستطاعت أن تستولي على روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية، وأن ترث ملكها.

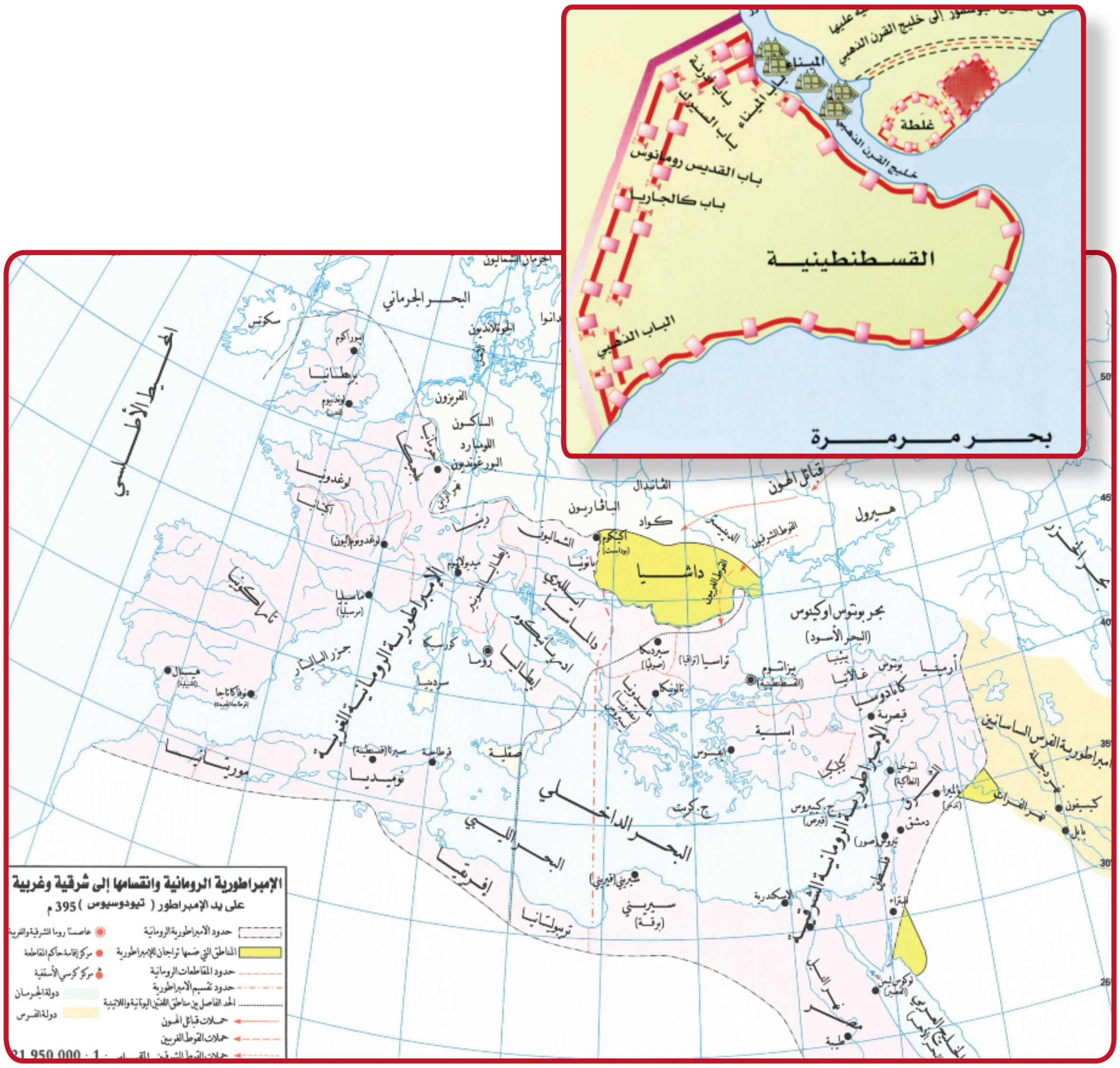
الإمبراطورية الرومانية وانقسامها إلى شرقية وغربية
على يد الإمبراطور (تيودوسيوس) 395 م
حدود الأمبراطورية الرومانية
المناطق التي ضمها تراجان للإمبراطورية
حدود المقاطعات الرومانية
حدود تقسيم الأمبراطورية
الحد الفاصل بين مناطق اللغتين اليونانية واللاتينية
حملات قبائل الهون
حملات القوط الغربيين
عاصمتا روما الشرقية والغربية
مركز إقامة حاكم المقاطعة
مركز كرسي الأسقفية
دولة الجرمان
دولة الفرس
القسطنطينية
بحر مرمرة
غلطة
الميناء
باب الميناء
باب أدرنة
باب السيرك
باب القديس رومانوس
باب كالجاريا
الباب الذهبي
خليج القرن الذهبي
المحيط الأطلسي
البحر الجرماني
بريطانيا
لوندينيوم
سكوتس
الفريزون
الساكسون
اللومبارد
البورغونديون
الفانيدال
الباقاريون
كواد
قبائل الهون
هيرول
داشيا
الإمبراطورية الرومانية الغربية
الإمبراطورية الرومانية الشرقية
إيطاليا
روما
ميديولانوم
غاليا
أكيتانيا
تاراكونيا
هسبانيا
جزر البليار
قرطاجة
نوميديا
موريتانيا
أفريقيا
صقلية
سردينيا
كورسيكا
البحر الداخلي
بحر بونتوس أوكينوس
(البحر الأسود)
بيزانتيوم
(القسطنطينية)
تراقيا
مقدونيا
أخائية
آسية
كبادوكيا
قيصرية
أرمينيا
إمبراطورية الفرس الساسانيين
نهر دجلة
نهر الفرات
كتيسفون
بابل
أنطاكية
دمشق
فلسطين
البتراء
الإسكندرية
مصر
طيبة
برقة
تريبوليتانيا
نهر النيل
بحر الخزر

٢. الدولة الفارسية الساسانية

سكنت القبائل الآرية في روسيا الجنوبية، وكانت تنتقل من مكان لآخر، وتستوطن المناطق التي نزلت بها، ومن ذلك: هضبة إيران منذ أكثر من ألف سنة ق.م، وكان من أهم القبائل التي هاجرت إليها:

١. قبيلة ميديا – ميدي.

٢. قبيلة براثيا – باري.

٣. قبيلة فارس.

وقد أطلقت أسماؤهم على المناطق التي سكنوا بها.

سكن الميديون الشمال الغربي من الهضبة، والباراثيون الأجزاء الشمالية. والفرس الجنوب الغربي من الهضبة، ثم أطلقت تسمية فارس على الهضبة بكاملها بعد قيام الإمبراطورية الفارسية الساسانية التي ورثت الكثير من عادات وتقاليد وحضارة الميديين إلى جانب ديانة زرادشت(١)، وذلك في (سنة ٥٥٠ ق.م)، عندما تمكن قورش الفارسي من تأسيس الدولة الإخمينية كما أسماها اليونانيون، فلقد قام بالقضاء على الدولة الميدية، ثم اتسع نفوذه إلى ليديا في آسيا الصغرى (سنة ٥٤٦ ق.م) وإلى بابل (سنة ٥٣٩ ق.م)، وبلاد الشام غرباً ونهر السند شرقاً (سنة ٥٢٩ ق.م) وهو العام الذي قتل فيه.

تولى من بعده ابنه قمبيز، والذي استطاع أن يمد نفوذ الفرس إلى مصر (سنة ٥٢٥ ق.م)، وهناك فشلت حملته في الوصول إلى قرطاجة –تونس حالياً.

---

(١) زرادشت بن إسبيتمان، ولد بأذربيجان وقيل: في صحراء تركمان –تركمانستان، درس في الصغر الزراعة وتربية المواشي وعلاج المرضى، ويدعي البعض أنه كان نبياً بُعث قبل الميلاد في الفترة (٦٢٨ ق.م حتى ٥٥١ ق.م)، وهناك قول بأنه كان فيلسوفاً من فلاسفة قبل الميلاد، ويعتبر هو المؤسس للديانة الزرادشتية والتي انتشرت قبل الميلاد في آسيا الوسطى وأفغانستان وإيران وشمال العراق وهضبة أرمينيا، وظلت تعاليمه منتشرة في هذه المناطق حتى الفتح الإسلامي والذي قضى على المجوسية ديانة زرادشت، ولم يبق منها إلا البقايا في إيران يعتنقها مئات الألوف في إيران، وبعضهم في الهند، وبعضهم في أفغانستان، وبعضهم في أذربيجان.

وتدعو الديانة الزرادشتية المجوسية إلى وجود إلهين: إله للخير، ويسمونه إله النور أو القوى الخيّرة، وإله للشر ويسمونه إله الظلمة أو القوة الخبيثة، كما لهم معتقدات أخرى مختلفة تدل على كفرهم، ولذلك عبدوا النار، وأقاموا لها المعابد، ودعوا إلى ألوهيتها.

وقد ساعد اليهودُ الفرسَ مساعدة بالغة؛ مما أدى إلى وقوف الفرس معهم، ومعاونتهم لعودتهم مرة أخرى إلى بلاد الشام.

بلغت هذه الدولة أقصى اتساعٍ لها في عهد الملك داريوس، أو دارا، الذي توفي في سنة (٤٨٥ ق.م)، والذي ضعفت من بعده الدولة، ومُنيت بهزيمة عسكرية على يد اليونان في معركتي ماراثون البرية، وسيلاميس البحرية، ثم تمكن الإسكندر بن فيليب المقدوني(١) من السيطرة على هضبة إيران كاملة (سنة ٣٣٠ق.م) بعد انتصاره على الملك دارا الثالث في موقعة إربيل، والتي انتهت بمقتل الملك دارا.

وظلت بعد ذلك الهضبة الإيرانية بين حكم السلوقيين(٢) خلفاء الإسكندر إلى أن ضعفوا، فقامت الأسرة الباراثية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بفرض نفوذها على الهضبة الإيرانية إلى أن قامت الدولة الساسانية حوالي (سنة ٢٢٦م) على يد أردشير بن بابك الساساني(٣)، والتي استمر حكمها حتى الفتح الإسلامي.

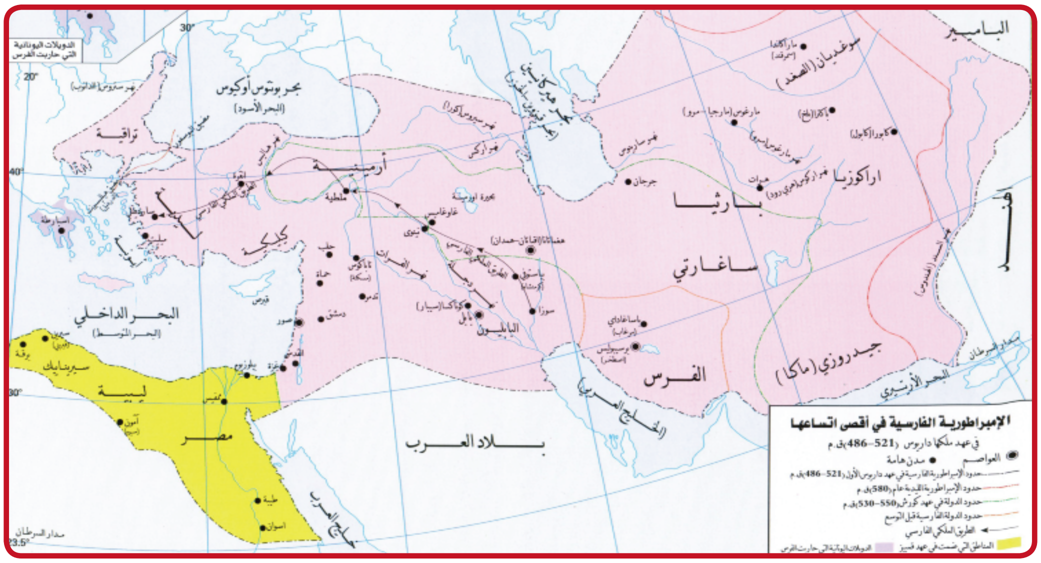
الإمبراطورية الفارسية في أقصى اتساعها
في عهد ملكها داريوس (521–486) ق.م
العواصم
مدن هامة
حدود الإمبراطورية الفارسية في عهد داريوس الأول (521–486) ق.م
حدود الإمبراطورية الميدية عام (580) ق.م
حدود الدولة في عهد كورش (550–530) ق.م
حدود الدولة الفارسية قبل التوسع
الطريق الملكي الفارسي
المناطق التي ضمت في عهد قمبيز
الدويلات اليونانية التي حاربت الفرس
بحر بونتوس أوكيوس
(البحر الأسود)
تراقية
أرمينية
ليدية
البحر الداخلي
(البحر المتوسط)
سيرينايك
ليبية
مصر
بلاد العرب
بابليون
الفرس
بارثيا
ساغارتي
اراكوزيا
سوغديان (الصغد)
جيدروزي (ماكا)
البحر الأرتيري
الخليج العربي
البامير
الهند
ملطية
نينوى
حلب
حماة
دمشق
صور
القدس
غزة
تدمر
بابل
سوزا
برسيبوليس
جرجان
هرات
باكترا (بلخ)
ماراكاندا (سمرقند)
كابورا (كابول)
طيبة
أسوان
منفيس
برقة
قبرص
اسبارطة
30°
40°
20°
23.5°
مدار السرطان

---

(١) الإسكندر بن فيليب الثاني المقدوني، أمه الأميرة أوليمبياس، ولد في بيلا العاصمة القديمة لمقدونيا (سنة ٣٥٦ق.م)، وتعلم على يد أرسطو. تولى عرش مقدونيا بعد أبيه، واستطاع أن يخضع البلاد لسيطرته، ومد سلطانه إلى مصر والعراق وفارس حتى وصل إلى الهند، ثم عاد إلى بابل حيث توفي بها سنة في (سنة ٣٢٣ق.م)، وتنسب إليه مدن كثيرة أشهرها مدينة الإسكندرية في مصر.

(٢) السلوقيون سلالة هلينيستية تنسب إلى سلوقس الأول أحد كبار قادة الإسكندر المقدوني، والذي ورث عن الإسكندر دولته من منطقة غرب آسيا إلى الهند شرقاً، وكانوا سبباً في التقاء الحضارة اليونانية القديمة مع غيرها من الحضارات الشرقية.

(٣) أردشير الساساني أول ملوك الدولة الساسانية في إيران، ولد في أواخر القرن الثاني، استطاع السيطرة على بلاد فارس، وأنشأ الإمبراطورية الساسانية التي اتسعت في عهده اتساعاً عظيماً، وذلك في (سنة ٢٢٦م) واستمرت إلى (سنة ٦٥١م) بعد أن فتحها المسلمون.

أقام أردشير الدولة على أساس النظام الملكي الوراثي، واعتبروا أن الملك في منزلة لا ينبغي للرعية من عامة الشعب المثول بين يديه إلا من وراء حجاب، كما قام رجال الدولة والزوار من الشخصيات الهامة بالسجود أمامه تعظيماً له.

وكان الملك يتمتع بسلطة مطلقة، وإلى جانبه كان هناك مجلس من الأشراف -الأعيان- يجتمع لدى الملك لتقديم المشورة إذا أراد الملك ذلك.

عقائد الفرس : اعتقد الفرس في عهد الدولة الساسانية بوجود إلهين: أحدهما للخير، والثاني للشر، كما اعتقدوا أن الخير والشر في صراع دائم، ونزاعٍ مستمر؛ مما أظهر العقيدة الزرادشتية بين الفرس.

كما ظهر في العصر الساساني عقائد دينية أخرى أهمها: المانوية، والتي تقوم على أساس الصراع بين الخير والشر، فعبد الفرسُ النارَ رمزاً، وأقاموا لها المعابد، وقدموا لها الصلوات والقرابين، وكانت ديانتهم المجوسية هي السائدة في فارس، وظلت إلى الفتح الإسلامي المبارك الذي استنقذ الله به من شاء من الفرس من عبادة النار والخلود فيها بعد الموت، وما زالت طوائف من المجوس باقية إلى يومنا هذا في فارس.

ثانياً : العرب

العرب أقوام انحدروا من نسل يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام، وانقسمت إلى بيوتات وعشائر وقبائل عاشت في شبه الجزيرة العربية التي يحدها شرقاً الخليجُ العربي، وغرباً البحرُ الأحمر، وشبهُ جزيرة سيناء، وشمالاً بلاد الشام والعراق، وجنوباً بحر العرب الممتدّ من المحيط الهندي.

قال الشيخ بكر أبو زيد(١): العرب قوم أشراف يَزِنون الحياة بغيرما تزنُها به أممُ البطون والفروج، وموازينهم في الحياة تدور على قطب واحد، وهو المَحْمَدَة والذكر الحسن(٢).

قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية، مبيناً أن العرب لفظ يقابله العجم، قال: إن اسم العجم يعم في اللغة كلَّ من ليس من العرب.

ثم أضاف: واسم العرب في الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان اللغة العربية.

الثاني: أنهم كانوا أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القُلزم (البحر الأحمر) إلى بحر البصرة (الخليج العربي)، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام، وفي هذه الأرض كانت العرب حين المبعث وقبله.

وأضاف رحمه الله قائلاً: فإن الذي عليه أهلُ السنة والجماعة اعتقادُ أن جنس العرب أفضلُ من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم، وأن قريشاً

---

(١) بكر بن عبد الله بن محمد أبو زيد عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية، ورئيس مجمع الفقه الإ سلامي الدولي تابع لمنظمة التعاون الإسلامي وعضو مجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي، وعضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، ولد في الدوادني (سنة ١٣٦٥هـ) وتوفي بالرياض (سنة ١٤٢٩هـ) .

(٢) خصائص جزيرة العرب (ص:٥٧).

أفضلُ العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً[١].

أقسام وأنساب العرب:

قسَّم النسابة العربَ تقسيماً[٢] يتوافق مع جسم الإنسان كما يلي:

- **الشعب** -الرأس من الجسد.
- **القبيلة** -الرقبة.
- **العمارة** -الصدر.
- **البطن** -البطن.
- **الفخيذة** -الأرداف.
- **العشيرة** -أسفل الجسم.
- **العائلة** -مجمع الأفراد.
- **الفرد** -أساس المجتمع.

وهو تقسيم بديع ودقيق ومفيد؛ إذ يلزم منه ترابط المجتمع في جسد واحد قلباً وقالباً؛ بحيث إن كلاً منهم يحرص على الحفاظ على الجزء الآخر لسلامة الجميع كما في الحديث: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٣].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم.

(٢) حمد بن إبراهيم بن عبد الله الحقيل / كنز الأنساب ومجمع الآداب / الطبقة الرابعة عشرة (ص:٢٥)
عبد الله بن حسين آل بن علي / العتوب وقبائل الخليج العربي (ص:١٥).
سعد زغلول / تاريخ العرب قبل الإسلام / النهضة العربية (ص:٨١).

(٣) رواه البخاري (١٠/٥٣٨)، ومسلم (١٦/١١٤).

أولاً: العرب العاربة ـ القحطانيون:

هم الذين انحدروا من صلب يشجب بن يعرب بن قحطان، ولذا سُمّوا بالقحطانية، ومهدهم اليمن، وتشعبت قبائلهم وبطونهم من ولد سبأ، وهو عبد شمس بن يشجب الذي كان له أحد عشر ولداً، وقيل: أربعة عشرة ولداً، أشهرهم: حِمْير بن سبأ، وكهلان بن سبأ.

توزعت قبائل حمير بن سبأ، وكهلان بن سبأ من جزيرة العرب، وسكنوا مناطق مختلفة في أنحائها، وخارج الجزيرة أيضاً، ومن أشهرهم:

قُضاعة: وهي قبائل انحدرت من صلب حمير، واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق، كما استوطنت بعض بطونها مشارف الشام، وشمالَ الجزيرة العربية. ومن أشهر بطون قضاعة: كلب، وعذرة، وجهينة، وبهراء، وبلي، ووبرة، ونهد، والقين.

وأما أبناء كهلان، فكانت قبائلهم أكثر وأوفر في جزيرة العرب، ومن أشهرها:

الأزد: ونزلوا في عُمان وتهامة والحجاز، وتسمى: قبائل الأزد. ومن بطونهم وقبائلهم: الأوسُ والخزرج الذين سكنوا المدينة، وهاجر إليهم النبي ﷺ، وسُمُّوا بالأنصار.

وأيضاً: **الغساسنة** أبناء عمومة الأوس والخزرج، وهم ملوك الشام.

ومنهم أيضاً: لخم، وجذام، ونزلوا شرق الجزيرة وشمالها، وكان منهم: نصر بن ربيعة أبو ملوك المناذرة بالحيرة.

ومنهم أيضاً: بنو طيئ، ونزلوا إلى جوار جبلي آجا وسلمى في الشمال، وأقاموا هناك حتى عرف الجبلان بجبلي طيئ.

ومنهم أيضاً: كندة، ونزلوا بالبحرين، ثم غادروا إلى حضرموت باليمن، ثم غادروها إلى نجد، وكونوا هناك دولة ومملكة كبيرة الشأن، ولكن سرعان ما فنيت وذهبت آثارها.

ثانياً: العرب المستعربة ـ العدنانيون:

وهم الذين انحدروا من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وينسبون إلى أبيهم عدنان من ولد إسماعيل، ولذا سموا بالعدنانيين.

وأبوهم إسماعيل ﷷ هو أول من تفتق لسانه بالعربية الفصحى المستقرة، والتي اجتمعت عليها قبائل العرب، ونزل بها القرآن الكريم، كما جاء في الحديث الصحيح: «أول من فُتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيلُ وهو ابنُ أربعَ عشرةَ سنة»(١).

وفي الحديث دلالة على أن اللهجات العربية كانت مختلفة، ولكن اللغة واحدة، وأن الله تعالى ألهم إسماعيل النطقَ الصحيح المستقيم المبين الذي تحدثت به العرب بعد ذلك.

وقد انحدرت قبائل مضر وربيعة وإياد من نسل نزار بن معدّ بن عدنان الذي يجتمع فيه أسرة آل خليفة حكام البحرين بالنبي ﷺ.

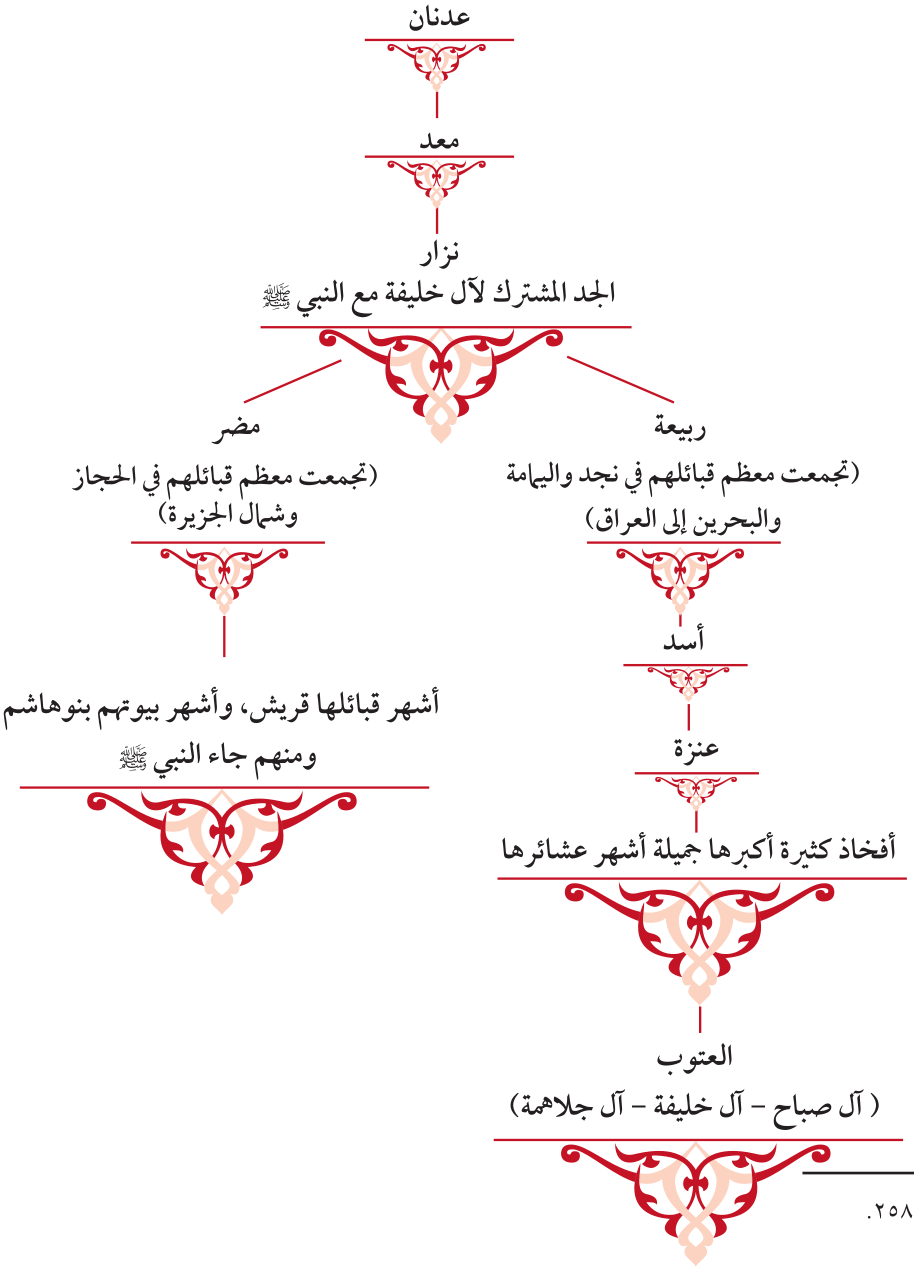
عدنان
معد
نزار
الجد المشترك لآل خليفة مع النبي ﷺ
مضر
(تجمعت معظم قبائلهم في الحجاز وشمال الجزيرة)
أشهر قبائلها قريش، وأشهر بيوتهم بنوهاشم ومنهم جاء النبي ﷺ
ربيعة
(تجمعت معظم قبائلهم في نجد واليمامة والبحرين إلى العراق)
أسد
عنزة
أفخاذ كثيرة أكبرها جميلة أشهر عشائرها
العتوب
(آل صباح – آل خليفة – آل جلاهمة)

---

(١) صحيح الجامع / ٢٥٨١.

خصائص جزيرة العرب:

١. **الموقع الجغرافي** المتميز بين قارات ودول العالم، ولقد هَيَّأَ الله لها أسباباً كالصحاري والرمال المحيطة بها؛ ليكون سكانها في حصن منيع عن غيرهم في الوصول إليهم، وبسطِ سيطرتهم عليهم، مما هيأ لأهلها أن يكونوا أحراراً في جميع أمورهم وشؤونهم منذ أن كانوا؛ لبعدهم في مسكنهم عن مقاصد الطامعين والمزاحمين.

يصف الهمداني(١) العرب وجزيرتهم بالفصاحة والصَّباحة، واعتدال المزاج وحسن الألوان، مع الحمية والأريَحِية والسخاء والكرم والجودِ بما تشحُّ به الأنفس، والصبر في ساعة البأس، وبها الجزيرة العربية، والعرب أفرسُ من ركب الخيل، وأحسنُ من امتطى الإبل، وأوفى من تقلد ذمة، وأبرع من نطق بحكمة(٢).

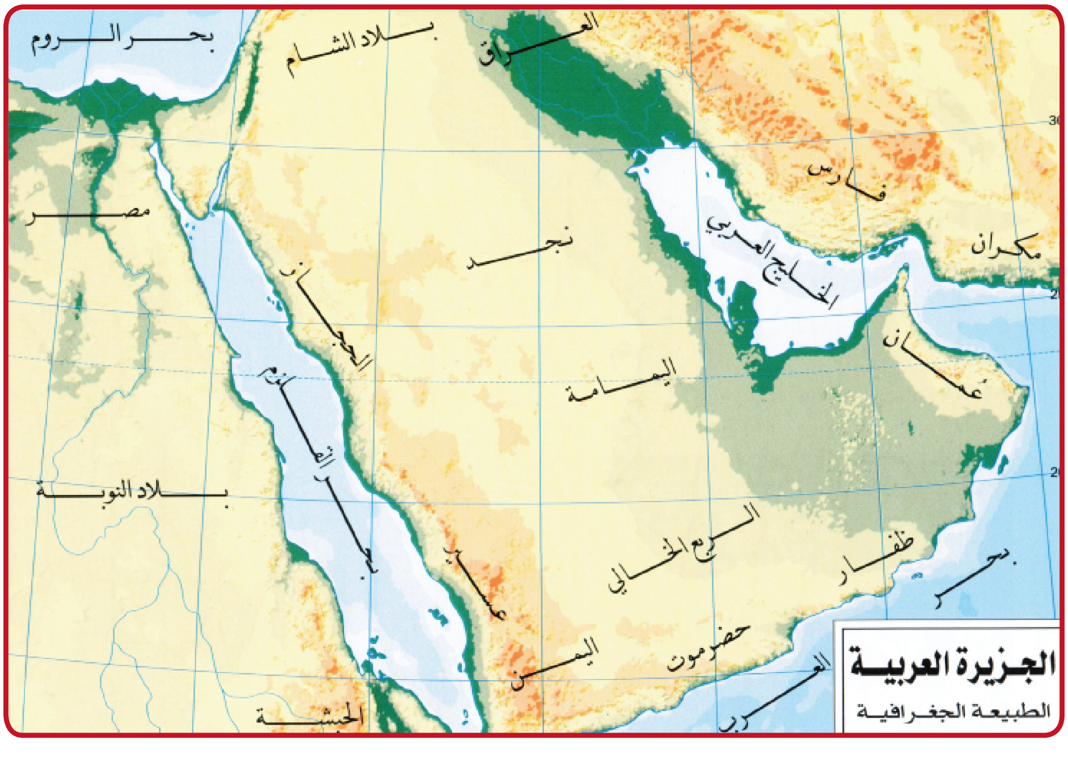
بحر الروم
بلاد الشام
العراق
فارس
مصر
نجد
الخليج العربي
مكران
الحجاز
عمان
اليمامة
بحر القلزم
بلاد النوبة
الربع الخالي
ظفار
بحر
عسير
حضرموت
اليمن
العرب
الحبشة
الجزيرة العربية
الطبيعة الجغرافية

---

(١) الهمداني: أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ولد في (سنة ٢٨٠هـ) وتوفي (سنة ٣٣٦هـ)، أحد أعظم جغرافيي العالم في عصره، شاعر وعالم في الفلك والكيمياء، سُجن في آخر حياته، له مؤلفات عديدة من أشهرها: كتاب صفة جزيرة العرب الذي قدم فيه أدلة كروية الأرض، وكتاب أخبار الأوفياء، تأثر بالفلسفة اليونانية مما دفع البعض أن يصفوه بفليسوف.

(٢) صفة جزيرة العرب ص٤١.

قلت: وولد بها، ودعا إلى الله ومات فيها خيرُ من وطئ الثرى، وطلعت عليه الشمس، وشقت عنه الأرض، سيدُ الأولين والآخِرين، ورسولُ رب العالمين محمدٌ نبينا ﷺ.

٢. بها أول بيت وضع للناس، وهو البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٦].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»(١).

ولقد شرف الله الجزيرة العربية بمجيء الأنبياء والرسل لحج البيت العتيق قبل إبراهيم ﵇، فعن ابن عباس ﵁ قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر! أيُّ واد هذا؟ قال: وادي عسفان. قال: لقد مر به هودٌ وصالحٌ عليهما السلام على بكرات خطمُها الليفُ، أُزرُهم العباء، وأرديتُهم النمار، يلبُّون يحجون البيت العتيق»(٢).

وقد شرفها الله تعالى أن أقام بها إسماعيل ﵇، وبقي نسله بها، والذي انحدر منه سيد ولد آدم محمدُ بن عبد الله ﷺ، فبُعث فيها للعرب والعجم والناسِ كافة.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٩/ ١٠٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٥)، وضعفه شعيب الأرناؤوط، ورواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٦٢)، وضعفه د.عبد العلي حامد.

٣. **كان بها الرسالة الخاتمة** ومنها فاضت أنوار النبوة الماحية لظلمات الشرك والجاهلية، ولذلك جاءت السنة النبوية بأحكام وخصائص وفضائل الجزيرة العربية لتبقى دائماً قاعدة للإسلام ومعقلاً للإيمان، فهي حصن الإسلام، ومجمع الديانة والتوحيد، فلا يعبد فيها إلا الله، فالإسلام هو الغالب فيها دائماً بفضل الله، ففي الحديث الصحيح الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»⁽١⁾.

قال الشيخ بكر أبو زيد: ومعنى هذا الحديث: أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة على الإشراك بالله تعالى، فهذه الجزيرة حَرَمُ الإسلامِ ومعلمه الأول، ودارُه الأولى، وهي عاصمة الديار الإسلامية على مر العصور⁽٢⁾.

وروى الشيخان عن أم المؤمنين عائشة ﵂: أن النبي ﷺ قال: «قاتل الله اليهودَ والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ، لا يبقَيَن دينان في أرض العرب»⁽٣⁾.

قال الشيخ بكر أبو زيد: وعلى هذا ليس للكفار اتخاذُ شيء من جزيرة العرب داراً؛ بتملكِ أرضٍ، أو بناء عليها؛ لأنه إذا حرمت الإقامة والاستيطان، حرمت الأسباب إليهما، وما حرم استعماله حرم اتخاذُه⁽٤⁾.

وصدر من **اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء** فتوى بشأن بناء الكنائس ودور العبادة الكفرية هذا نصها :

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

كل دين غير الإسلام فهو كفر وضلال، وكل مكان يعد للعبادة على غير دين الإسلام فهو بيت كفر وضلال؛ إذ لا تجوز عبادةُ الله إلا بما شرع سبحانه في الإسلام، وشريعةُ الإسلام خاتمةُ الشرائع: عامةٌ للثقلين الجنِّ والإنس، وناسخة لما قبلها، وهذا مُجْمَع عليه بحمد الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٢٩).

(٢) خصائص جزيرة العرب.

(٣) رواه البخاري (١/ ٦٨٩/ ح:٤٣٧)، ومسلم (٣/ ١١/ ح:٥٣٠) واللفظ له.

(٤) خصائص جزيرة العرب.

ومن زعم أن اليهود على حق، أو النصارى على حق، سواء كان منهم أو من غيرهم، فهو مكذب لكتاب الله تعالى، وسنةِ رسوله محمد ﷺ، وإجماع الأمة، وهو مرتدّ عن الإسلام إن كان يدَّعي الإسلام بعد إقامة الحجة عليه إن كان مثلُه ممن يخفى عليه ذلك. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ:٢٨].

وقال عز شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

وثبت في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعِثتُ إلى الناس عامة»(١).

ولهذا صار من ضروريات الدين: تحريمُ الكفر الذي يقتضي تحريمَ التعبد لله على خلاف ما جاء في شريعة الإسلام، ومنه: تحريم بناء معابد وفق شرائع منسوخة، يهودية أو نصرانية أو غيرها؛ لأن تلك المعابد سواء كانت كنيسة أو غيرها تعتبر معابد كفرية؛ لأن العبادات التي تؤدى فيها على خلاف شريعة الإسلام الناسخة لجميع الشرائع قبلها، والمبطلة لها، والله تعالى يقول عن الكفار وأعمالهم: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٦٥)، ومسلم (٥/ ٤).

ولهذا أجمع العلماء على تحريم بناء المعابد الكفرية؛ مثل: الكنائس في بلاد المسلمين، وأنه لا يجوز اجتماع قبلتين في بلد واحد من بلاد الإسلام، وألا يكون فيها شيء من شعائر الكفار، لا كنائس ولا غيرها، وأجمعوا على وجوب هدم الكنائس وغيرها من المعابد الكفرية إذا أُحدثت في أرض الإسلام، ولا تجوز معارضة وليِّ الأمر في هدمها، بل تجب طاعته، وأجمع العلماء رحمهم الله على أن المعابد الكفرية ـ ومنها: الكنائس ـ في جزيرة العرب أشدُّ إثماً وأعظمُ جرماً؛ للأحاديث الصحيحة الصريحة بخصوص النهي عن اجتماع دينين في جزيرة العرب، منها: قول النبي ﷺ: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». رواه الإمام مالك وغيره، وأصله في الصحيحين.

فجزيرة العرب: حرمُ الإسلام، وقاعدته التي لا يجوز السماح أو الإذنُ لكافر في اختراقها، ولا التجنس بجنسيتها، ولا التملك فيها، فضلاً عن إقامة كنيسة فيها لعبّاد الصليب، فلا يجتمع فيها دينان إلا ديناً واحداً، وهو الإسلام الذي بعث الله به نبيه ورسوله محمداً ﷺ، ولا يكون فيها قبلتان إلا قبلة واحدة هي قبلة المسلمين إلى البيت العتيق، والحمد لله الذي وفّق ولاة أمر هذه البلاد إلى صدّ هذه المعابد الكفرية عن هذه الأرض الإسلامية الطاهرة.

وإلى الله المشتكى مما جلبه أعداء الإسلام من المعابد الكفرية من الكنائس وغيرها كثير في بلاد المسلمين ـ نسأل الله أن يحفظ الإسلام من كيدهم ومكرهم ـ.

وبهذا يعلم أن السماح والرضا بإنشاء المعابد الكفرية مثل الكنائس، أو تخصيص مكان لها في أي بلد من بلاد الإسلام من أعظم الإعانة على الكفر وإظهار شعائره، والله عز وجل يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[المائدة:٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من اعتقد أن الكنائس بيوت الله، وأن الله يعبد فيها، أو أن ما يفعله اليهود والنصارى عبادة لله، وطاعةٌ لرسوله، أو أنه يحب ذلك أو يرضاه، أو أعانهم على فتحها وإقامة دينهم، وأن ذلك قربة أو طاعة، فهو كافر.

وقال أيضاً: من اعتقد أن زيارة أهل الذمة في كنائسهم قربةٌ إلى الله، فهو مرتدّ، وإن جهل أن ذلك محرَّم، عُرّف ذلك، فإن أصرّ، صار مرتدّاً» ا.هـ.

عائذين بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهداية.

وليحذر المسلمُ أن يكون له نصيب من قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[١].

عبد العزيز بن عبدالله آل الشيخ **صالح بن فوزان الفوزان**

عبدالله بن عبدالرحمن الغديان **بكر بن عبدالله أبوزيد**

---

[١] فتاوى اللجنة الدائمة: فتوى رقم ٢١٤١٣ لتاريخ ٢-٣-١٤٢١هـ.

ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ

قال ابن حجر الهيتمي[1]: ومن وقعَ في بغضِ مسلمي العرب، فقد وقع في مهاوي العطب؛ فإن كثيراً من الفرق الأعجمية والطوائف العنادية جُبلوا على بغض العرب، فوقعوا في مهاوي العطب؛ جهلاً بما اختصهم الله به من المزايا التي لا يؤتوها غيرهم، والعطايا المحققة لعلو قدرهم.

فالنبي الخاتم ﷺ منهم، والبعثة كانت فيهم، وانطلقت من أرضهم، واستعملهم الله لجهاد الكفار، فأخرج الله بهم من شاء من العباد إلى عبادته سبحانه، وكفاهم فخراً وزهواً أن الله تعالى أنزل كتابه بلسانهم: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

أَوَّلاً:
ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ فِي بِلَادِ ٱلرَّافِدَيْنِ

---

[1] (١) مبلغ الأرب في فخر العرب ص:١٩.

هجرة القبائل العربية في الجزيرة وخارجها :

هاجرت القبائل العربية من أماكنها داخل الجزيرة إلى مناطق أخرى بالجزيرة وخارجها، وذلك لعواملَ وأسبابٍ مختلفة، منها: البحثُ عن المرعى، والماءِ والكلأ، وانهيارُ سد مأرب في أحيان أخرى .

فجاءت هجراتهم بين الشمال والجنوب والشرق والغرب مكونين لأنفسهم مجتمعاتٍ بعضُها على هيئة ممالك وإماراتٍ صغيرة، وبعضها في البوادي والصحاري والقفار.

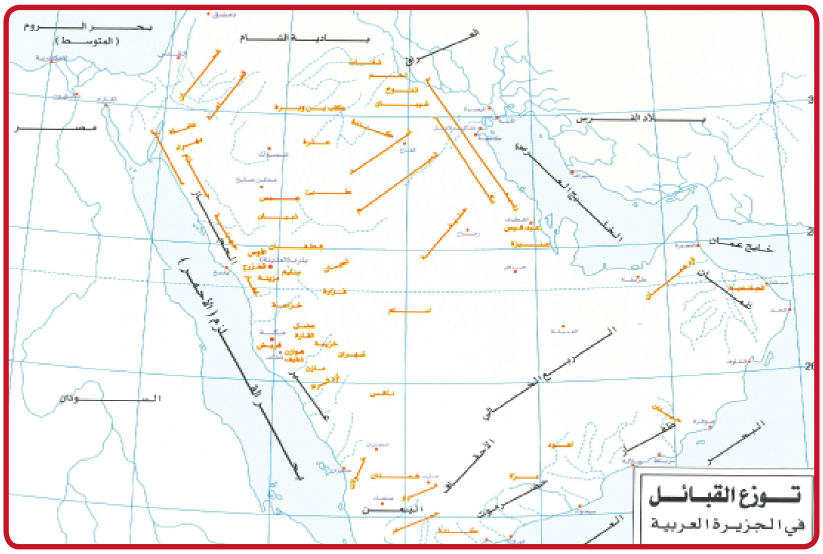
بحر الروم
(المتوسط)
بادية الشام
بلاد فارس
مصر
السودان
خليج عمان
اليمن
توزع القبائل
في الجزيرة العربية

ولقد حدثت هجرات مستمرة على مر التاريخ من العرب إلى خارج جزيرتهم من الجنوب والوسط إلى الشرق في العراق وإيران، وإلى الشمال في الشام والجزيرة (الجزيرة الفراتية)، وإلى الغرب في مصر والحبشة. وذلك كله هيأه الله سبحانه بأسباب لتعمر الأرض وتحيا؛ تحقيقاً لسبب وجود الخليقة: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

وقد تفرقت الهجرات في أرجاء الجزيرة وما جاورها من البلاد، وكانت الأساس لتكوين الممالك والحضارات في العراق والشام ومصر القديمة.

- **الهجرات العربية:**

ساعد في سهولة انتقال العرب من جزيرتهم إلى الدول المجاورة: عدمُ وجود الحواجز أو الموانع الطبيعية؛ كالجبال الشاهقة، أو المحيطات والبحار الواسعة.

ومن أشهر الهجرات العربية إلى بلاد الرافدين:

١. **الأكاديون**: هاجروا من الجزيرة العربية في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ونزلوا شمالَ سهل شنعار بالعراق، وأسسوا مدينة أكاد، واتخذوها عاصمة لهم، وقد أخذوا عن جيرانهم السومريين[١] معظم مظاهر حضارتهم المختلفة، وأخذوا عنهم الخط المسماري، ولقد دام حكمهم نحو قرنين من الزمان تقريباً.

٢. **العموريون** –الدولة البابلية الأولى: هجرات لقبائل عربية خرجت من شبه الجزيرة إلى العراق وإلى الشام قديماً، ومن أشهر ملوكها، حمورابي (١٧٢٨ ق.م ـ ١٦٨٦ ق.م) الذي استطاع أن يُخضع معظمَ العراق لحكمه، واهتم بالزراعة، وأقام الجسور، وحفر القنوات، وسنَّ التشريعاتِ التي اعتمدت على العرف والعادات والتقاليد.

٣. **الآشوريون**: قبائل نزحت من جزيرة العرب حوالي ٣٥٠٠ ق.م، واستقروا في المناطق الشمالية الشرقية من العراق، حيث أنشؤوا عاصمتهم آشور، وبنوا العديد من المدن من أهمها: نينوى (الموصل)، وأربيلا (أربيل)، وقد نجح ملوكهم في تأسيس إمبراطورية كانت جسراً لنقل الحضارة إلى آسيا الصغرى (تركيا حالياً)، كما اتسعت حدود دولتهم اتساعاً كبيراً حتى بلغت مصر، وقد سقطت في نهاية الأمر بعد ضعفها (سنة ٦١٢ ق.م) على يد الدولة الكلدانية.

٤. **الكلدانيون– الدولة البابلية الثانية**: الكلدانيون نسبة إلى قبيلة كلدا التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية حوالي (سنة ١٥٠٠ ق.م)، واستقروا شمال سهل شنعار في ظل

---

(١) السومريون: شعب اُختلف في أصله استقر بجنوب العراق وكوّن مدناً عاش بها، سموا بالسومريين نسبة إلى الأرض التي نزلوا بها بسهل شنعار، كانت لهم حضارة خاصة تعد من أقدم الحضارات البشرية، واشتهرت عنهم مخطوطات ألواح الطين التي كُتبت بلغتهم السومرية.

الآشوريين، فانتهز نابوبلاصر الكلداني حاكمُ بابل (سنة ٦٢٢ ق.م) فرصةَ ضعف الآشوريين، فاستقل ببابل، وبدأ ينظم دولته، وأعاد بناء بابل، وجعلها عاصمة له حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف، خاصة في عهد ولده نبوخذ نصر -بختنصر- والذي استطاع الانتصار على المصريين، والاستيلاءَ على سوريا، كما اهتم اهتماماً كبيراً بالتنظيمات الإدارية وعمرانِ المدن.

أشهر أعمال نبوخذنصر: اشتهر نبوخذ نصر بعملين خلدا ذكره في التاريخ.

الأول: بناؤه لحدائق بابل المعلَّقة الشهيرة، والتي تعدُّ إحدى عجائب الدنيا السبعة، وإنشاؤه لأسوار المدينة ومعابدها، وشق طرقها وقصورها، وإقامة الحدائق.

الثاني: قتاله اليهود، والقضاء على مملكة يهوذا في فلسطين، وسبي جنود اليهود مع ملكهم في ما يسمى بالسبي البابلي الأول، وعيّن نبوخذ نصر ملكاً على أورشليم من طرفه، فظلت خاضعة له أحد عشر عاماً، فقامت بعدها أورشليم بالثورة ضد بابل، فأرسل لهم نبوخذ نصر جيشه مرة ثانية، فحاصر المدينة، واستطاع أن يقتحمها وينتصر على أهلها (سنة ٥٨٥ ق.م)، وقام بسبي آلاف الأهالي، وأخذهم إلى بابل فيما يسمى بالسبي البابلي الثاني، فالتقوا هناك بالفرس؛ لتبدأ علاقة اليهود بالفرس، والتي ظلت وبقيت بينهما إلى زماننا هذا، فقد عاون اليهودُ دولةَ فارس التي أسسها قورش، وقام بالهجوم على بابل (سنة ٥٣٩ ق.م)، وقضى على الإمبراطورية الكلدانية، وسمح لليهود الذين ساعدوه في احتلال بابل بالعودة إلى القدس، فظل الفرس بها حتى مجيء الإسكندر بن فيليب المقدوني ليخضع بلاد الرافدين لحكم الإغريق.

دولة المناذرة

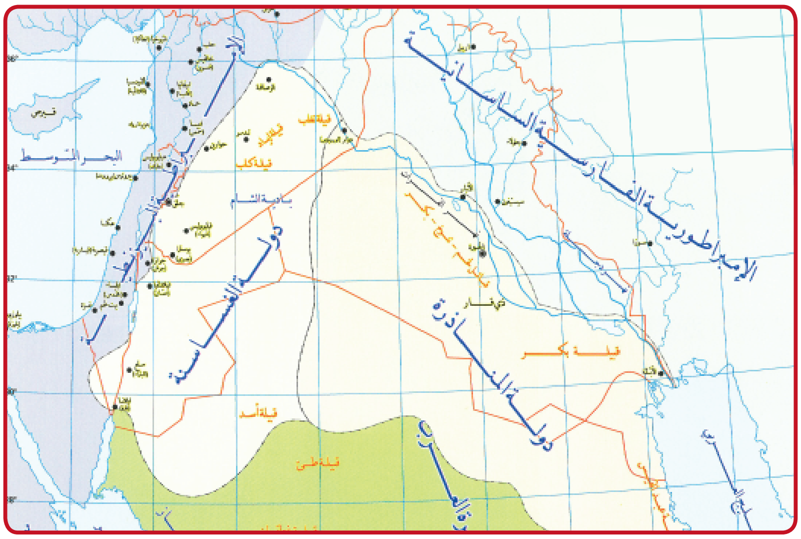
الإمبراطورية الفارسية الساسانية
دولة المناذرة
دولة الغساسنة
البحر المتوسط
بادية الشام
قبيلة بكر
قبيلة أسد
قبيلة طيء
قبيلة كلب

تكونت من قبائل عربية هاجرت من اليمن بعد خراب سد مأرب في منتصف القرن الثاني الميلادي، وانتهوا إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، وقد عملوا بالزراعة والرعي بما هَيَّأه الله لهم من وفرة المياه وخصوبة التربة، إلى جانب التجارة التي وفرت لهم ثروات طائلة، فجعلوا من الحيرة مدينة عامرة، وأصبحت عاصمة لهم، وأقاموا فيها القصور، وعاشوا حياة رغدة، وتعاقب على حكم الحيرة ٢٥ ملكاً تطابقت وتكررت أسماؤهم مثل : امرئ القيس –النعمان– المنذر.

كان أول ملوكهم جذيمة الوضاح الذي اتفق مع الفرس أن يكون عوناً لهم في حروبهم ضد الروم، وخطاً دفاعياً أول، ودرعاً واقياً من ضربات الروم والغساسنة.

عمل المناذرة على تكوين جيش نظامي في عهد جذيمة الوضاح الذي لقب بملك العراق، واتفق مع كسرى ملك فارس أن يكون خط دفاع أول ضد الروم.

ومن أشهر أمراء الحيرة: عمرو بن عدي ابنُ أختِ جذيمة الوضاح، والذي يعتبر في التاريخ المؤسس الحقيقي لدولة المناذرة في الحيرة.

ومن أشهر أمرائها أيضاً: امرؤ القيس الذي اتسع ملكه حتى شمل بادية الشام والعراق وشمال الجزيرة العربية والبحرين، وقد تولى الحكم سنة (٢٨٨ ميلادية)، وكان معاصراً لبهرام الثالث، ونرسي بن بهرام، وهرمز الثاني، وسابور من أكاسرة فارس.

وقد استمر حكمه نحو أربعين عاماً، والمتصفح للتاريخ يبدو له أن امرأ القيس كان يهدف إلى إنشاء دولة للعرب مترامية الأطراف يكون ملكاً عليها، إذ أنه استطاع أن يُخضع القبائل العربية لسلطانه؛ كقبائل معد وفروعها، حتى امتد نفوذه إلى البحرين والحجاز ونجد وأطراف العراق والشام واليمن.

ثم لاحت الفرصة له ليستقل تماماً عن نفوذ الفرس عند وفاة هرمز الثاني الذي لم يكن له وريثٌ للعرش، إلا ذلك الحمل الذي كان في بطن إحدى نسائه، فأوصى له بالملك من بعده، فلما وضعته أمه كان غلاماً سمي بسابور، وبايعته فارس على الملك وهو صغير في إمبراطورية قد اختل شأنها، مما أطمعَ من جاورها فيها من الروم والعرب، فعمل عندئذ امرؤ القيس على تحقيق حلمه بإنشاء الدولة العربية، فأوعز إلى سكان البحرين من قبائل عبد القيس، وبكر بن وائل، وتغلب بن وائل، وتميم أن يعبروا الخليج إلى الساحل الآخر ويهاجموا الفرس.

يقول ابن الأثير عن ذلك : وسمع الملوك أن ملك الفرس صغير في المهد، فطمعت في مملكتهم العرب والروم معاً، وكانت العرب أقرب إلى بلاد فارس، فسار جمع عظيم منهم في البحر من عبد القيس والبحرين إلى بلاد فارس وسواحل أردشير خُرّه، وغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم، وأكثروا الفساد.ا.هـ.

كما أن امرأ القيس وجّه إياد للإغارة على سواد العراق كما ذكر ابن الأثير حيث قال: وغلبت إياد على سواد العراق، فأكثروا الفساد فيهم، فمكثوا حيناً لا يغزوهم أحد من الفرس لصغر ملكهم(١).

ولما بلغ سابور السادسة عشرة من عمره تولى زمام أمور مملكته بنفسه، وعمل على إصلاح أوضاعها الداخلية، ثم انطلق بجيوشه ليخضع من حوله إظهاراً لقوته وقوة الفرس.

قال ابن خلدون عن سابور: حتى إذا كبر، وعرضوا عليه الأمور، فأحسن فيها الفصل، وبلغ ستة عشر من عمره، ثم أطاق حمل السلاح، نهض حينئذ للاستبداد بملكه، وكان

---

(١) الكامل في التاريخ (١/ ٢٥٣).

أول شيء ابتدأ به هو شأن العرب، فجهز إليهم العساكر، وعهد إليهم ألا يبقوا على أحد ممن لقوا منهم. ا.هـ(١).

وقد توجه سابور بنفسه على رأس الجيش، وأعمل السيف في العرب في الحيرة (سنة ٣٢٥م)، واشتبك مع العرب في حروب ضارية استطاع فيها سابور الأقوى سلاحاً وعدداً وعدة أن يحتل الحيرة، وولى عليها أوس بن قلام.

وتقهقر امرؤ القيس بجنوده إلى البحرين، فتبعه سابور الذي أسرف في قتله للعرب، حتى سالت دماؤهم على الأرض في البحرين، ثم تابع زحفه إلى اليمامة، ولشدة قسوته كان يغور المياه، ويخلع أكتاف العرب تنكيلاً بهم، ولذلك سموه: سابور ذا الأكتاف(٢).

وعلى أثر تلك الهزيمة التحق امرؤ القيس إلى دولة الروم في الشام، وتحالف مع قسطنطين، فأسكنه حوران، واعتنق امرؤ القيس النصرانية ديانةَ قسطنطين الذي كان أول من تنصر من الروم.

مات امرؤ القيس في الشام، ودفن على حدودها حيث عثر على قبره بين خرائب النمارة في حوران، وقد كتب عليه: هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج، وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم، وهزم مذحج، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمّر، وأخضع معداً، واستعمل بنيه على القبائل، ووكلهم فرساناً للروم فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم.

ثم نشأت الفتنة في الحيرة في أوائل القرن الرابع الميلادي (سنة ٣٣٠م)، وقتل على أثرها أوس بن قلام الذي عينه سابور، مما مهد لعودة أبناء امرئ القيس بزعامة أخيهم عمرو ابن امرئ القيس الذي تولّى حكم الحيرة بعد قتل أوس، وتفاوض مع الفرس ليكونوا لهم حجر عثرة في وجه الروم.

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون / العبر في ديوان المبتدأ والخبر.

(٢) سابور: يسمى بسابور الثاني أو بسابور ذي الأكتاف، وهو سابور بن هرمز بن نرسي، يُلقب بقتَّال العرب، حكم بعد أبيه وهو صغير، وكان على علاقة ود باليهود الذين كانوا يعيشون في أرضه، ومنحهم الكثير من المزايا، توفي في (سنة ٣٧٩م).

وبذلك أصبح حكم اللخميين أو المناذرة خاضعاً لسلطان الفرس، يشتد حيناً ويضعف آخر، ولا شك أن البحرين كانت خاضعة لنفوذ اللخميين -المناذرة، غير أنهم لم يحكموا حكماً مباشراً من الفرس إلا في فترات عابرة.

وبلغت دولة المناذرة ذروتها في القرنين الخامس والسادس الميلاديين في أيام المنذر الثالث (٥٠٥م - ٥٥٤م) الذي حارب إلى جوار الفرس ضد الروم في الشام في أيام كسرى أنوشروان، وأغار على أنطاكية، غير أن الحارث الثاني الغساني تصدى له، وهزمه وقتله في موقعة يوم حليمة قرب قنسرين، وسمي هذا اليوم بهذا الاسم نسبة إلى حليمة بنت الحارث الغسّاني؛ لأنها أخذت تثير الحمية في نفوس المقاتلين من الغساسنة، وتشجعهم على قتال المناذرة حتى تحقق النصر لهم.

وقد تميز تاريخ المناذرة في هذه الفترة بارتباطهم الشديد بدولة الفرس، وكانت مهمتهم حماية الحدود الغربية لفارس من الروم وحلفائهم الغساسنة.

معركة ذي قار ٦١١م:

ثم وقع العداء بين المناذرة والفرس عندما تدخل الفرس تدخلاً مباشراً في شؤون المناذرة، وتفاقمت الأمور بينهم عندما قبض جنود كسرى على النعمان بن المنذر وقتلوه، ثم عين كسرى والياً فارسياً على الحيرة، مما أغضب عليه عرب الحيرة، فعين بدلاً من الفارسي عربياً هو إلياس بن قبيس.

وقد استاءت العرب استياءً شديداً من قتل ملكهم وتسلُّطِ الفرس عليهم، وخاصة عندما طلب كسرى من هانئ بن مسعود الشيباني⁽¹⁾ تسليمَ ودائع النعمان من أموال ودروع وغيرها، والتي كان النعمان قد استودعها عنده، فرفض هانئ بن مسعود ذلك، فأرسل كسرى جيشاً لمحاربة بني بكر التي نزلت في ذي قار، وخيرهم قائد جيش كسرى بين أمور ثلاثة: الاستسلام لكسرى يفعل بهم ما يشاء، أو الرحيل من الديار، أو الحرب،

---

(١) هانئ بن مسعود بن عمرو الشيباني، أحد سادات العرب وأبطالهم في الجاهلية، قاد العرب في معركة ذي قار ضد الفرس واستطاع أن ينتصر عليهم في ذلك اليوم.

فأسرعت القبائل العربية من البحرين وشرق الجزيرة العربية بالوقوف صفاً واحداً في وجه الفرس، وقام هانئ بن مسعود بتوزيع أسلحة النعمان ودروعه على قبيلته يتسلحون بها.

فدارت رحى الحرب بين الفريقين لمدة يومين انتهت بانتصار العرب على العجم الفرس انتصاراً عظيماً (سنة ٦١١م)، فانتصف العرب في ذلك اليوم من العجم، وجرعوهم المر والذل والهوان.

مظاهر الحضارة عند المناذرة :

بلغت مظاهر الحضارة عند المناذرة شيئاً عظيماً، فلقد ازدهرت عندهم الحياة العلمية إلى جانب الزراعة والتجارة والرعي، والاهتمام بصناعة النسيج والتحف المصنوعة من العاج.

وازدهر عندهم فن البناء والعمارة حتى أصبح فناً قائماً بذاته، واشتهرت الحيرة بقصورها التي ضربت الأمثال في روعتها، مثل قصر الخورنق الذي أمر ببنائه النعمان بن امرئ القيس، وقام ببنائه سِنِمَّار، فلما أتم البناء، قال النعمان: ما رأيت مثل هذا البناء قط، فقال له سنمار: أنا أعلم موضع آجرة -حجر- لو زالت لسقط القصر كله، فقال النعمان: أيعرفها غيرك؟ فقال له سنمار: لا، فقال النعمان: لاجرم أن أدعها وما يعرفها أحد، ثم أمر بقذفه من أعلى القصر إلى أسفله، فضرب العرب المثل : **جزاء سنمار**.

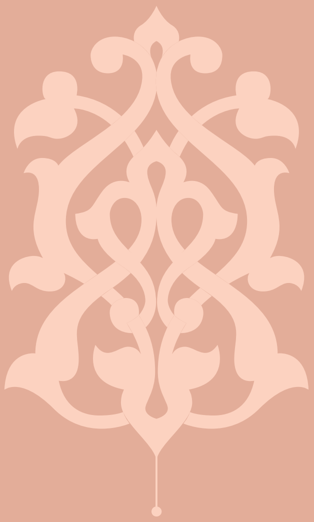

ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ

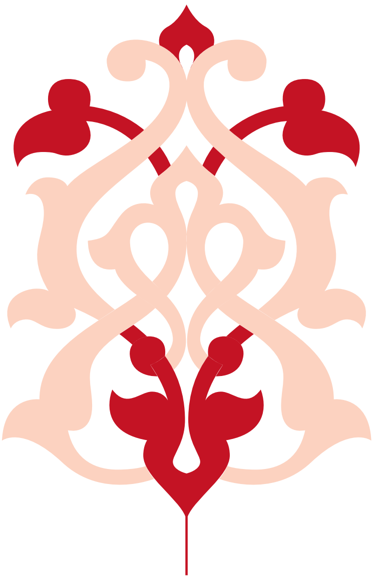

ثَانِياً:
ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ فِي بِلَادِ ٱلشَّامِ

١. **العموريون**: يعتبر العموريون من أوائل الشعوب التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام حوالي (سنة ٢٥٠٠ ق.م)، وقد انتقلوا شيئاً فشيئاً من حياة البداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار بعد أن عرفوا الزراعة، وأسسوا إمارات قوية، وتبادلوا التجارات مع جيرانهم، وخاصة من إخوانهم العموريين في بلاد الرافدين (الدولة البابلية الأولى).

غير أنهم لم ينجحوا في تأسيس دولة موحدة في بلاد الشام كما فعلوا في بلاد الرافدين، وقاموا فقط بتأسيس ممالك من أشهرها: مملكة ماري في سنة (٢٠٠٠ ق.م) على نهر الفرات.

وقد دام بقاء هذه المملكة أكثر من ٢٠٠ سنة حتى غزاها حمورابي، وضمها لمملكته، فلما ثارت عليه أحرقها.

٢. **الكنعانيون**: قبائل هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام في حوالي (٣٥٠٠ ق.م)، وقيل: إنهم هاجروا من الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وقد انقسموا إلى قسمين:

١). **قسم استقر** في الأرض التي سميت باسمهم: أرض كنعان، وهي فلسطين، وأطلق عليهم: كنعانيو الداخل، أو اليوبوسيون.

ويعتبر الكنعانيون أقدم من سكن فلسطين (أرض كنعان)، وأقاموا فيها القرى والمدن والممالك، وهم الجبارون الذين ذكرهم الله تعالى على لسان قوم موسى في القرآن الكريم عندما رفضوا دخول الأرض المقدسة: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[المائدة:٢٢].

ومن أشهر مدنهم: غزة وأريحا وعكا وحبرون (الخليل) ويوبس (القدس) ومجدو وشكيم (نابلس) ويافا وبيت شان (بيسان).

٢). **قسم استقر** بسواحل بلاد الشام، وسموا بكنعانيي الساحل، أو الفينيقيين(١).

وقد عملوا بالزراعة إلى جانب التجارة البحرية التي كانت عماد اقتصادهم؛ حيث قاموا بدور الوساطة التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وقد أنشؤوا مستعمرات ومراكز

---

(١) كلمة (الفينيقيون) أصلها يوناني، وتعني: الصبغة الأرجوانية واللون الأرجواني الذي اشتهرت به تجاراتهم.

تجارية على سواحل البحر المتوسط؛ مثل: صقلية، ومرسيليا، وقبرص، ورودس، ومالطا، وأعظم مستعمراتهم كانت قرطاجة في شمال إفريقيا -تونس.

ضعف الفينيقيون، واستولى على ملكهم قورش الفارسي، ثم الإسكندر المقدوني وخلفاؤه، ثم الرومان، وظلت خاضعة لهم حتى الفتح الإسلامي.

٣. **الآراميون**: قبائل عربية خرجت في حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد من جزيرة العرب، واستقرت في بلاد الشام، واستوطنت الأجزاء الوسطى والشمالية منها، وقد تأثروا بحضارة العموريين والكنعانيين الذين سبقوهم لتلك البلاد، فقاموا بإنشاء ممالك ومدن كثيرة يطلقون على كل واحدة منها اسم: آرام قبل مسماها الخاص؛ مثل: آرام حماة، وآرام شمئال، وآرام دمشق، والتي تعتبر أعظم وأقوى ممالكهم، وقد أسسوها في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وعاصمتها دمشق عاصمة سوريا اليوم، وهي أقدم عاصمة في التاريخ على الإطلاق.

لم تلبث الممالك الآرامية أن تسير فيها سنة الله التي خلت في عباده بالضعف والوهن، فسقطت أمام الغزو الآشوري الذي سيطر عليها في القرن الثامن قبل الميلاد.

ديانة الممالك العربية في بلاد الرافدين والشام:

تأثرت شعوب هذه الممالك بالديانات المنحرفة، فعبدوا قوى الطبيعة، وعبدوا الأصنام، ونصبوها آلهة، وأنشؤوا لها المعابد، وقد نقلت هذه العبادة من بلاد الشام إلى جزيرة العرب على يد عمرو بن لحيّ الخزاعي بعد ذلك.

كما أنه ثبت بالأدلة التاريخية أن بعض سكان هذه البلاد اعتقد الحياة بعد الموت، مما يدل على أنهم تأثروا بالإسلام الذي هو دين الأنبياء والرسل، وأنه قد بلغتهم دعوة التوحيد.

دولة الأنباط

الأنباط: قبائل عربية نزحت إلى بلاد الشام، وقاموا بإنشاء دولة لهم فيها في القرن الخامس ق.م.

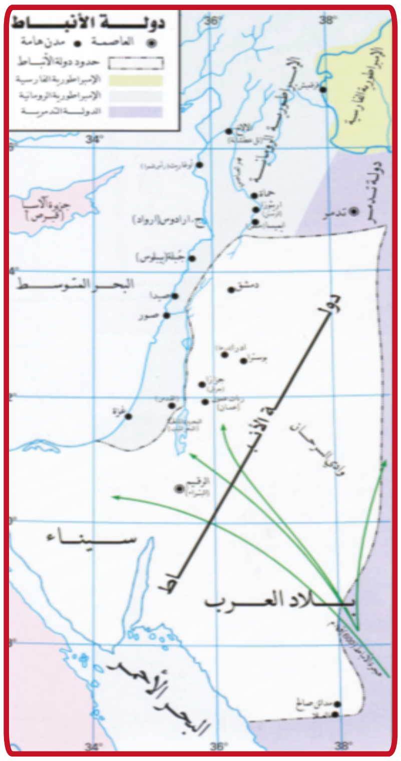
دولة الأنباط
العاصمة
مدن هامة
حدود دولة الأنباط
الإمبراطورية الفارسية
الإمبراطورية الرومانية
الدولة التدمرية
36°
38°
34°
الإمبراطورية الرومانية
الإمبراطورية الفارسية
دولة تدمر
تدمر
حماة
جزيرة آلاسيا (قبرص)
جبلة (بيبلوس)
البحر المتوسط
دمشق
صيدا
صور
بصرى
غزة
الرقيم (البتراء)
دولة الأنباط
وادي السرحان
سيناء
بلاد العرب
البحر الأحمر
مدائن صالح

وقد استطاعت بموقعها المتميز أن تتحكم في طرق التجارة بين الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام، اتخذوا من البتراء عاصمة لهم، وعرفها العرب باسم: الرقيم، عملوا في الزراعة والرعي وتربية الحيوان، فقد قاموا باستخراج المياه الجوفية، وحفروا القنوات، واهتموا بالري اهتماماً واسعاً، كما عمل الأنباط وسطاء للتجارة بين شرق الجزيرة وجنوبها، والحجاز والشام ومصر، كما تميزوا بأنهم كانت لهم عملة خاصة.

تكلموا العربية، واستخدموا الخط النبطي المقتبس من الخط الآرامي.

كانت ديانة الأنباط الديانة الوثنية التي انتشرت في الشام وجزيرة العرب؛ فقد عبدوا اللات ومناة وهبل وذا الشرى إله الشمس الذي كانوا يبجلونه أعظم التبجيل، وهو عبارة عن حجر أسود غير منحوت، زيّنوا قاعدته بالذهب.

برع الأنباط في فن العمارة والنحت، وأقاموا المدن الصخرية، وتركوا خلفهم معابدهم الشركية أثراً باقياً، بعد أن سلط الله عليهم الرومان فهزموهم، وسيطروا على بلادهم في (سنة ١٠٥م) في عهد الإمبراطور تراجان الذي دمر عاصمتهم البتراء، فلما ضعفت هذه المملكة وزالت، ظهر شأن مملكة تدمر العربية.

مملكة تدّمر

مملكة عربية استطاعت أن تسيطر في أقصى اتساعها على بلاد الشام وشمال الجزيرة العربية ومصر وجنوب آسيا الصغرى، تحالفَ مُلوكها مع الرومان في مواجهة الفرس، وقد منحهم الرومان المكانة والصدارة في بلاد الشام بعد أن تمكن أذينة الحيران أحدُ ملوك تدمر من قتال الفرس وهزيمتهم، وفكِّ أسر إمبراطور الروم فلريان، والذي وقع أسيراً عند الفرس، فمنح أذينةَ لقبَ ملك الشرق، وجعل تحت تصرفه القوات الرومانية المعسكرة في الشرق.

أقام العرب في تدمر لأنفسهم دولة قوية، غير أنهم كانوا وثنيين كغيرهم من معظم القبائل العربية.

سيطر عليهم الرومان عندما أراد أذينة بن حيران ملكُ تدمر الاستقلالَ عن الروم، وضربَ النقود باسمه، وعمل على استتباب الأمن، غير أن الرومان قاموا بقتله في حمص، فخلفته في الحكم زوجتُه زنوبيا -زينب أو الزباء- وصيةً على عرش ابنها القاصر وهب اللات، والتي استطاعت أن تثأر لزوجها من الرومان، وأن تستولي على سوريا كاملة، وأجزاءٍ من آسيا الصغرى في (سنة ٢٧٠م)، واستطاعت أن تستولي على مصر، فأثارت توسعاتها ثائرة الرومان، فسيروا لها جيشاً نال هزيمة ساحقة، وعاد قائده إلى الإمبراطورية بعد أن فقد جيشه، فقام الإمبراطور الروماني أورليان، وتقدم بجيشه نحو الشرق، وانتزع منها مصر، وسيطر على آسيا الصغرى بعد هزيمتها قرب حمص، ولجأت إلى عاصمتها تدمر، فتعقبها الإمبراطور، وحاصرها حتى استسلمت.

وفرت زنوبيا نحو الشرق إلى نهر الفرات، غير أن الروم أدركوها، وقبضوا عليها وحاكموها، وساقوها في موكب نصرهم نحو روما، فثارت ثائرة العرب في تدمر، فرجع إليهم الإمبراطور، ودكَّ معالم المدينة، ولم يعد لها ذكر في التاريخ سوى هذه الآثار الباقية التي أصبحت مزاراً سياحياً في سوريا، والتي تدل على مدنية زاهرة وضعها حذّاق في

هندسة البناء، وأن العربي في الجاهلية استطاع أن يستفيد من الحضارات الأخرى في زمن قياسي، إذا أتيحت له الفرصة، ولم يتأثر بقيم هذه الحضارات، وإنما أخذ ما يتواءم مع قيمه، وتركَ ما يخالفها، وهذا الذي حدث بعد الفتوحات الإسلامية بقيام حضارة إسلامية عظيمة مازالت البشرية تستفيد منها، وهو عبرة لنا إذا أردنا التقدم والتطور دون التخلي عن قيمنا الإسلامية.

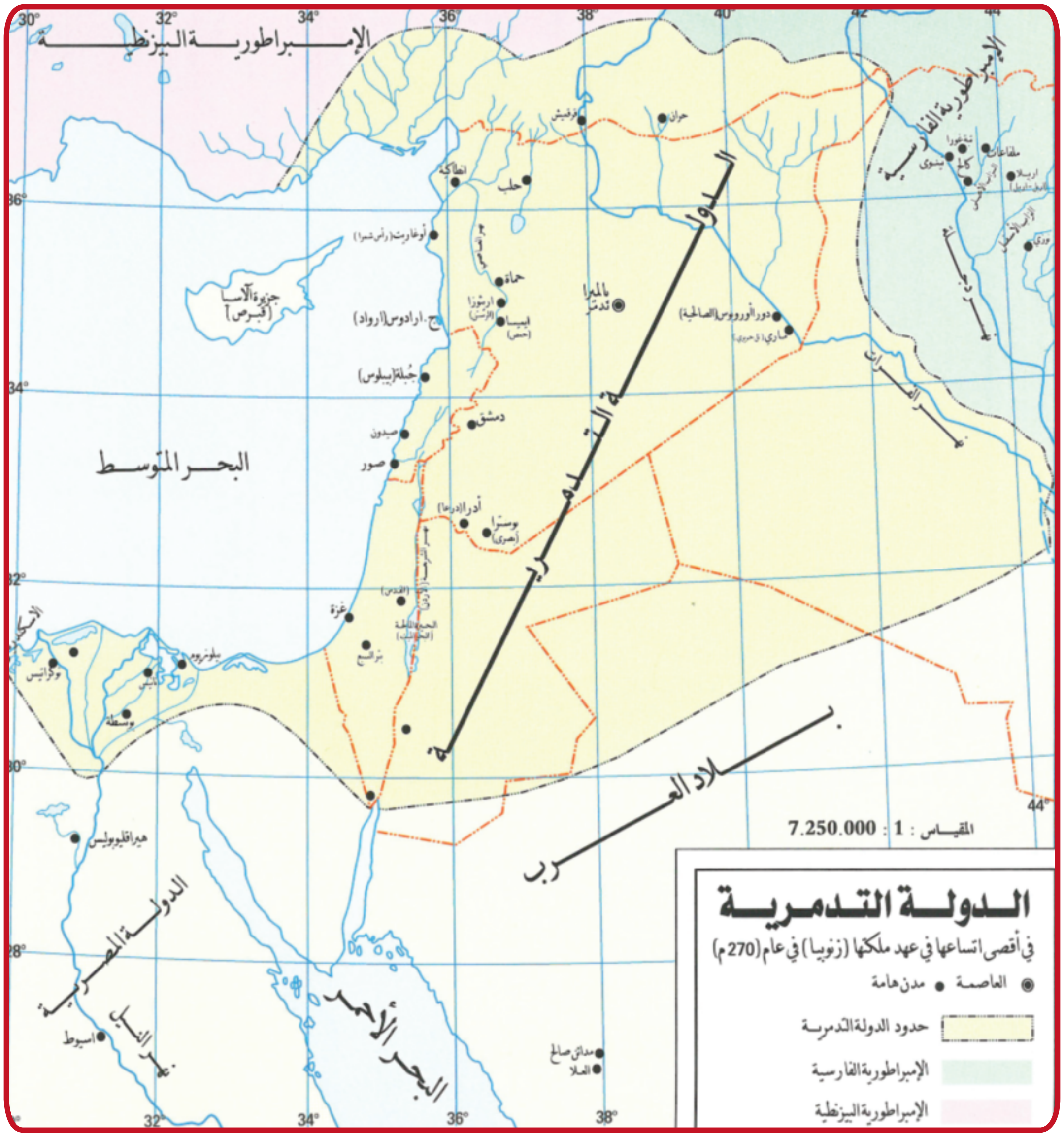
الدولة التدمرية
في أقصى اتساعها في عهد ملكتها (زنوبيا) في عام (270م)
◉ العاصمة ● مدن هامة
▨ حدود الدولة التدمرية
🟩 الإمبراطورية الفارسية
🟥 الإمبراطورية البيزنطية
المقياس : 1 : 7.250.000
الإمبراطورية البيزنطية
الإمبراطورية الفارسية
الدولة التدمرية
بلاد العرب
البحر المتوسط
البحر الأحمر
الدولة المصرية
نهر النيل
جزيرة آلاسيا (قبرص)
تدمر
حلب
أنطاكية
حماة
دمشق
صيدون
صور
غزة
جبلة (بيبلوس)
هيراقليوبوليس
أسيوط
حران
30°
32°
34°
36°
38°
40°
42°
44°

دولة الغساسنة

الغساسنة قبائل عربية من الأزد هاجرت من اليمن إلى الشام بعد تصدُّع سدِّ مأرب في أوائل القرن السادس الميلادي، نزلوا عند بئر يسمى: بئر غسان في تهامة فترةً من الزمن بقيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء، ولذا قيل عنهم: غساسنة، ثم توجهوا إلى حوران والجولان وجنوب سوريا اليوم؛ حيث استقروا فأقاموا دولة قوية إلى جوار دولة الروم بنوا فيها القرى والمدن.

استطاع الغساسنة أن يرثوا من سبقهم من العرب في بلاد الشام، وأقاموا علاقات الجوار والمصلحة على أن يقوموا بدور الحماية لحدود دولة الروم من هجمات الفرس وحلفائهم من المناذرة، مقابل معونة مالية تقدمها دولة الروم للغساسنة في كل عام، مما أسهم في دخول دولة الغساسنة دائرة الصراع مع أبناء عمومتهم من المناذرة والتي قامت في أساسها على الصراع بين فارس والروم، ولم يكن للمناذرة، ولا الغساسنة في هذه الحروب ناقة ولا جمل، مما أدى إلى بذر الأحقاد والخلافات التي عادت عليهما بأوخم العواقب، وذهبت بالكثير من رجال القبيلتين، كما حدث في يوم عين أباغ (سنة ٥٤٤ ميلادية)، ويوم حليمة (سنة ٥٤٤ ميلادية).

اتخذ الغساسنة من بُصْرى عاصمة لهم، واتسعت ديارهم حتى بلغت نهر اليرموك ومرتفعاتِ الجولان وسفوحَها وتدمر، وأصبح لهم نفوذ على كل القبائل العربية بالشام.

بلغت دولة الغساسنة مكانة مرموقة لدى دولة الروم، وخاصة في زمن الحارث بن جبلة (٥٢٩م - ٥٦٩م) والملقب بالحارث الأكبر، إذ منحه إمبراطور الروم لقب بطريق، وهو اللقب الذي يُمنح للقائد العسكري الذي تحت يده عشرة آلاف جندي، وهو أيضاً يمنح لأعلى الطبقات الاجتماعية عند الروم، وقد دام حكمه أربعين سنة، وبعد وفاته تولى ابنه المنذر بن الحارث قيادة الغساسنة، وقد أظهر من القوة والتنظيم بين الغساسنة ما أخاف الروم من تمرده عليهم، فقبضوا عليه ونفوه إلى جزيرة صقلية.

وقطعوا عن الغساسنة المعونة السنوية التي كانوا يقدموها لهم؛ مما أدى إلى ضعف الغساسنة، وانفراد كل أمير منهم بالمدينة التي تحت يده، وتفرقهم إلى إمارات على رأس كل منها أمير.

ثم وقعت الحرب بين الفرس والروم في (سنة ٦١٣ ميلادية) والتي انتهت بانتصار الفرس على الروم، وكان من نتائج ذلك أن أعاد الروم التعاون مع الغساسنة باستخدامهم مرة أخرى خطاً دفاعياً أول عن دولتهم، وخاصة في أيام آخر ملوك الغساسنة جبلة بن الأيهم الذي حارب إلى جوار الروم ضد المسلمين في غزوة مؤتة، وفي غزوة تبوك، ثم فتوحات الشام زمن الخلفاء الراشدين الذين استطاعوا أن يفتحوا بلاد الشام، وانتهى بذلك دور دولة الغساسنة والروم من بلاد الشام.

اعتنق الغساسنة النصرانية بعد أن انتقلوا إلى بلاد الشام، ثم اعتنقوا الإسلام بعد ذلك.

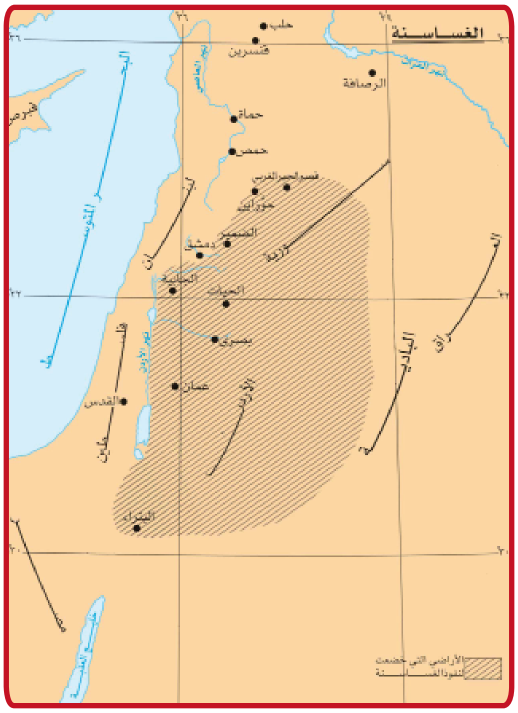
الغساسنة
حلب
قنسرين
الرصافة
نهر الفرات
نهر العاصي
قبرص
البحر المتوسط
حماة
حمص
قصر الحير الغربي
حوارين
الضمير
دمشق
سورية
لبنان
الجابية
الحيات
بصرى
نهر الأردن
فلسطين
القدس
عمان
الأردن
البادية
العراق
البتراء
سيناء
خليج العقبة
الأراضي التي خضعت لنفوذ الغساسنة
٣٦
٣٤
٣٢
٣٠

ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ

ثالِثاً:
ٱلمَمَالِكُ جنُوبَ
شِبهِ ٱلجَزِيرَةِ ٱلعَرَبِيَّة
بِلَادُ ٱليَمَنِ

يقصد بعرب الجنوب: الأقوام العربية التي عاشت في بلاد اليمن، والتي أَطلق عليها الإغريق اسمَ بلاد العرب السعيدة؛ لخصوبة تربتها، وأمطارها الموسمية الصيفية، وموقعها الجغرافي المتميز، وهي العوامل التي ساعدت على قيام دولٍ قديمة ذكر بعضها في القرآن الكريم كما في سورة النمل، وقد أفرد الله تعالى سورة باسم -سبأ- في كتابه العزيز، وهي واحدة من أشهر هذه الممالك.

١. **دولة معين**: والتي ظهرت من (سنة ١٣٠٠ ق.م حتى سنة ٦٥٠ ق.م)، واتخذت من قرناو عاصمةً لها، واستمرت حتى ظهر إلى جوارها مملكة سبأ، والتي نافست معين حتى استطاعت أن تقضي عليها في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وأن تسيطر على أملاكها.

٢. **مملكة سبأ**: من (٩٥٠ ق.م حتى سنة ١١٥ ق.م) اتخذوا من صرواح عاصمة لهم، ثم نقلوها إلى مأرب. ومن أشهر ملوكها: الملكة بلقيس التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة النمل على لسان هدهد سليمان: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[النمل:٢٢-٢٦].

ثم ما لبثت أن ضعفت مملكة سبأ بعد انحرافها العقَدي، والذي كان وسيظل سبباً أساسياً في هلاك الأمم التي تعصي ربها.

وظهر في مكانهم الحميريون بعد تصدع سد مأرب في سيل العرم، وهو عقوبة إلهية تفرق بعدها قومُ سبأ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٥-١٧].

٣. مملكة حِمْيَر: (من ١١٥ ق.م حتى سنة ٥٢٥م):

وهي من أكثر الممالك حكماً في تاريخ اليمن، لُقب ملوكها بلقب تُبَّع، أرسل لهم الرومان حملة عسكرية مكونة من عشرة آلاف جندي في (سنة ٢٤ ق.م) بقيادة إليوس جالوس حاكم الرومان في مصر للسيطرة على بلاد اليمن، لكنها فشلت، وبقي الحميريون ملوكاً في بلادهم إلى أن تولى ذو نواس ملك حمير في (سنة ٥١٥م)، والذي اعتدى على الذين آمنوا في قصة أصحاب الأخدود⁽¹⁾ التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ (١٤) ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ (١٥) ﴾ [البروج: ٤-١٥].

---

(١) عن صهيب ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلمُ الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك، قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس آمنا بربِّ الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك، فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال من لم يرجع عن دينه فارموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري فإنك على الحق» رواه مسلم (١٨/ ١٠٢).

غضب الإمبراطور الروماني النصراني لما جرى لأهل نجران، وأوعز إلى نجاشي الحبشة بغزو اليمن والانتقام من ذي نواس⁽¹⁾.

قام النجاشي بإرسال حملة في (سنة ٥٢٥م) قوامُها سبعون ألف مقاتل بقيادة أرياط الذي استطاع أن ينتصر على ذي نواس، ويقضي عليه، وقام بحكم اليمن نائباً عن النجاشي إلى أن قتله أبرهة بن صباح الأشرم أحدُ قادته (سنة ٥٤٩م)، وظهر على اليمن بعد أن استرضى نجاشي الحبشة، ثم قاد جيشاً لهدم الكعبة والسيطرة على مكة والحجاز، فأهلك الله ذلك الجيش كما ذكر ذلك القرآن الكريم في سورة الفيل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل:١-٥].

فانكسر الأحباش في اليمن التي قام فيها سيف بن ذي يزن⁽²⁾ بقيادة عرب اليمن للانتقام من الأحباش، والقضاء على نفوذهم بمعاونة الفرس الذين استطاعوا السيطرة بعد ذلك على اليمن، فخرج العرب فيها من أيدي الأحباش إلى أيدي الفرس، وبقيت تتبع فارس إلى أن دخلت في الإسلام، وجاءت الوفود من اليمن إلى النبي ﷺ، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وانتهى حكم الفرس، وكان آخر ولاتهم فيها باذان⁽³⁾ الذي اعتنق الإسلام، وكان ذلك مع نهاية ملك فارس في اليمن⁽⁴⁾.

عبد أهل اليمن الأصنام، ومنهم من اعتنق اليهودية والنصرانية المُحرّفَتين.

---

(١) ذو نواس: يوسف بن شراحبيل، أحد ملوك حمير، كان يهودياً ثم ادعى الربوبية، قتل المؤمنين وأحرقهم في الأخاديد التي أمر بشقها، وقُتل بعد ذلك على يد الأحباش، وقيل: هلك بعد فراره من المعركة مع الأحباش إلى البحر وغرق هناك.

(٢) سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك من الحميريين، كان من أشراف حمير، أشهر من سكن قصر غمدان، وهو قصر الحكم في اليمن، استطاع أن يستعين بالفرس لطرد من تبقى من الأحباش بعد قصة أصحاب الفيل، وبقي في الحكم نحو ربع قرن، وقتله بعض الأحباش غيلةً في قصره، وتولى من بعده الفرس أمر اليمن حتى دخول الإسلام.

(٣) باذان بن ساسان آخر حاكم فارسي في اليمن في عهد الأكاسرة، اعتنق الإسلام في السنة السادسة للهجرة وكان والياً للنبي ﷺ وفيها قضى ما تبقى من عمره رحمه الله، وتولى من بعده ابنه داذويه والذي كان مسلماً، وقيل توفي بالقرب من الساحل الفارسي بالبحرين. والله أعلم.

(٤) صفي الرحمن المباركفوري / الرحيق المختوم (ص:١٧).

ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ

رَابِعاً:

ٱلعَرَبُ فِي
شَرقِ ٱلجَزِيرَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ
(ٱلبَحرَين)

الموقع الجغرافي للبحرين:

تعرف البحرين قديماً بأنها المنطقة الممتدة على ساحل الخليج العربي(١) بين البصرة وعمان، وتشتمل هذه المنطقة اليوم على: دولة الكويت، والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، ومملكة البحرين، ودولة قطر، والإمارات العربية المتحدة.

وهي تمتد من ساحل الخليج العربي شرقاً إلى اليمامة غرباً، ومن البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً.

قال ياقوت الحموي(٢): البحرين اسمٌ جامعٌ لبلادٍ على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان، وقيل: هي قصبة «عاصمة» هَجَر، وقيل: هجر قصبةُ البحرين، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة.

ويذكر ياقوت أن أصل التسمية سببه وجود بحيرة كبيرة على باب الأحساء، حيث قال: والصحيح عندنا ما ذكره أبو منصور الأزهري قال: إنما سمّوا البحرين؛ لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء. ا.هـ.

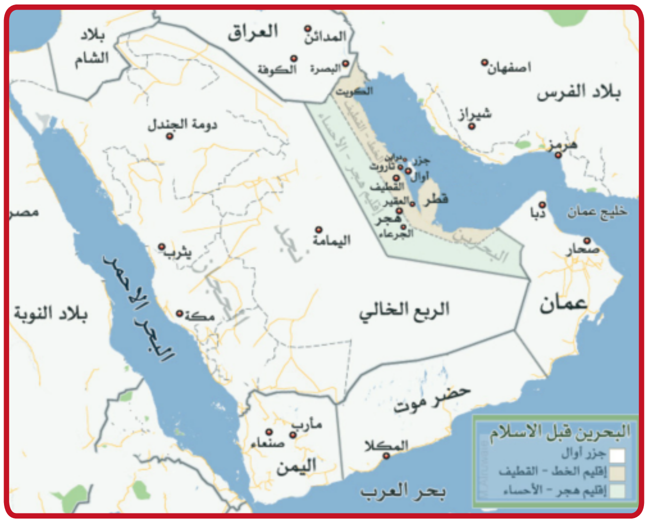
بلاد الشام
العراق
المدائن
الكوفة
البصرة
اصفهان
بلاد الفرس
الكويت
شيراز
دومة الجندل
هرمز
جزر أوال
دارين
تاروت
القطيف
العقير
قطر
هجر
الجرعاء
دبا
خليج عمان
مصر
اليمامة
صحار
يثرب
نجد
إقليم هجر - الأحساء
إقليم الخط - القطيف
البحرين
البحر الأحمر
بلاد النوبة
مكة
الحجاز
الربع الخالي
عمان
حضر موت
مأرب
صنعاء
المكلا
اليمن
بحر العرب
البحرين قبل الاسلام
جزر أوال
إقليم الخط - القطيف
إقليم هجر - الأحساء

---

(١) يعتبر الخليج العربي أحد ذراعي بحر العرب (الخليج العربي ـ البحر الأحمر)، ويمتد من خليج عمان جنوباً إلى شط العرب شمالاً بطول يصل ٩٦٥ كم تقريباً، وتبلغ مساحته ٢٣٣,١٠٠ كم مربع، وأقصى عرض له ٣٧٠ كم، وأدنى عرض ٥٥ كم عند مضيق هرمز، ومتوسط عمقه ٥٠ ميل، وأقصى عمق له ٩٠ ميلاً، والمجموع العام لطول السواحل ٣٣٠٠ كم. محمود شاكر / موسعة تاريخ الخليج العربي (ص:٦).

(٢) ياقوت الحموي / معجم البلدان (١/ ٤١١)/ دار الكتب العلمية «بيروت».

وقد اختلف المؤرخون حول أسباب التسمية: فيرى بعضهم أنها تسمى بالبحرين نسبة للبحر المالح - الخليج العربي - وعيون المياه العذبة التي كانت تصب في البحر فيلتقي العذب بالمالح في آن واحد، وكانت تكثر هذه العيون في جزيرة أوال التي سميت حديثاً بمملكة البحرين.

ويرى بعض آخر أنها سميت بذلك لأنها تقع بين بحر عمان والخليج العربي.

بينما يرى فريق من المؤرخين أن سبب ذلك هو تفجر المياه العذبة من بين صخورها سواءً على اليابسة، أو داخل البحر المالح، وهي ينابيعُ أكثرُ عذوبةً من مياه الآبار العادية.

وقد أطلق على هذه المنطقة اسم: أرض البحر، كما أطلق البابليون عليها اسم: الخط(١)، ويقصدون بذلك: سيف البحر .

كما أطلق العرب عليها: خط عبد القيس؛ لكثر بطون عبد القيس بها.

فهي بذلك اسم جامع لعدة دول حديثة تقع على الساحل الغربي في الخليج العربي.

وأما مملكة البحرين الحالية، فتعرف قديماً بجزيرة أوال(٢)، ووصفها ياقوت الحموي(٣) بقوله: جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين فيها نخل كثير وليمون وبساتين.

وسميت بذلك نسبةً لصنم بكر بن وائل، وتغلب بن وائل يسمى أوال، وقيل: إن أوال صنمٌ لبني مسمار بن جذيمة.

وظل هذا الاسم يطلق عليها إلى (١٥٨٠ م) حيث انتهى النفوذ البرتغالي؛ إذ أصبح يطلق عليها اسم: البحرين.

---

(١) دكتور عماد الحفيظ / الخليج العربي تاريخه وحاضره ومستقبله - مصطفى بدر أحداث مثيرة في تاريخ الخليج العربي.

(٢) قال الحميري: وجزيرة أوال أكثر أهلها من اليمامة، وإليها لجأ من أفلت من أهل هجر من محنة القرمطي / معجم البلدان (١/ ٣٢٦).

(٣) معجم البلدان (١/ ٣٢٥).

واندثر اسم أوال، فلم تذكر المصادر والخرائط البرتغالية لفظة أوال منذ القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر للميلادي، بل ذكرت البحرين، وكتبت بالبرتغالية اسم – بحريم أو باريم –(١).

ومملكة البحرين الحديثة لم تتشكل إلا بعد استقرار آل خليفة بها لتصبح وحدة سياسية مستقلة استطاعت أن تنال استقلالها عن بريطانيا في (سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م).

وتتألف من مجموعة من الجزر تزيد عن ثلاثين جزيرة في غرب الخليج العربي، وتبتعد عن سواحل المملكة العربية السعودية الشرقية بنحو اثنين وعشرين كيلو متراً، وكذلك تبتعد عن الساحل الغربي لدولة قطر بنحو ذلك، ويربطها بالمملكة العربية السعودية جسرُ الملك فهد الذي تم افتتاحه في سنة ست وأربعمئة وألف للهجرة الموافق لعام ١٩٨٦ ميلادية، **وهي أصغر دول الخليج مساحة، وبرغم ذلك فإنها في موقع إستراتيجي جعلها رأس حربة للدفاع عن شبه الجزيرة العربية برمتها.**

يقول أمين الريحاني(٢) عن البحرين:

ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة، وليس أصلح منه للتجارة أو للحرب، فهي تتوسط الخليج في زاوية معينة منه، كأنها بارجة راسية في بون متسع بين قطر والقطيف، أو كأنها باخرة دنت من الساحل الذهبي المحيط بها ترفع علم السلم والتجارة، بل كأنها وهي عند مهد اللؤلؤ جوهرة كبيرة في جيب الخليج، فلا عجب إذا تسابق لها الفاتحون في قديم الزمان، وتنازعها الأمم ذات الصولة والعرفان، وهي لا تزال محط رحال التجار يجيئونها من الهند وفارس، ومحط رحال الطامعين بالسيادة على الخليج العربي(٣).

---

(١) الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة / دكتور علي أبا حسين / مكانة البحرين في التاريخ الإسلامي (١/ ١٦).

(٢) أمين الريحاني: أمين فارس أنطون يوسف بن المطران باسيل الباجاني، أصله نصراني من جبل لبنان، ولد في سنة ١٨٧٦م وتوفي سنة ١٩٤٠م، مفكر وأديب وروائي ومؤرخ ورحالة ورسام كاريكاتير، له كتابات شهيرة منها: كتاب ملوك العرب، وموجز الثورة الفرنسية، وتاريخ نجد الحديث، والمغرب الأقصى، وغيرها من الكتب.

(٣) ملوك العرب (ص:٦٩٠).

سكان البحرين قبل البعثة:

هيأ الله تعالى عواملَ طبيعيةً أسهمت في جذب السكان إلى البحرين، ومن ذلك:

المياه العذبة، وخصوبة الأرض، والموقع الجغرافي على ساحل الخليج؛ مما ساعد وأسهم في انتشار العشائر والقبائل، وإقامة المدن والقرى الكثيرة.

ومن أشهر من سكن هذه المناطق: قبائل عبد قيس، وبكر بن وائل، والأزد، وعشائر من تميم، انتشرت على نطاق واسع بالبحرين.

كان لعبد قيس انتشار واسع في القرى والمناطق المختلفة من البحرين، كما امتدت مساكن بكر بن وائل من الساحل إلى اليمامة غرباً وأطراف العراق الغربية شمالاً.

وأما تميم، فهي من أكبر القبائل العربية التي انتشرت في هضبة نجد من الحجاز غرباً إلى المناطق الشرقية من الجزيرة العربية، واستوطنت بعضُ عشائرها البحرين مع القبائل الأخرى.

وأما الأزد، فهم من أقدم القبائل العربية التي استوطنت مناطق مختلفة بالبحرين، منها: جزيرة أوال إلى جانب بني معن.

ولقد استطاع العرب ـ كما ذكرنا آنفاً(١) ـ في أوائل القرن الرابع الميلادي قبل بعثة النبي ﷺ، وبقيادة امرئ القيس بن عمرو أن يؤسسوا قوة عربية كان لها شأنٌ في التاريخ عملت دولة فارس المجاورة لهم على جعلها خطاً فاصلاً وحاجزاً بينها وبين هجمات الروم، كما عمل الروم على أن تكون دولة الغساسنة حاجزاً بينها وبين الفرس، ولذلك كان للفرس يد في دعم دولة المناذرة العربية في العراق وعاصمتها الحيرة؛ كما عملت على استقرارهم في حكم البحرين.

---

(١) راجع ما سبق من الكتاب عن دولة المناذرة.

العجم في البحرين:

عاش في البحرين جماعات قليلة من الفرس تعمل في الزراعة، وبعضهم أرسلته الدولة الفارسية لمحاولة السيطرة واستغلال بعض المناطق، وهؤلاء شكّلوا نسبة ضئيلة من السكان كانت طارئة في حياة البحرين.

الحياة الدينية:

اعتقد سكان البحرين قبل البعثة النبوية بعقائد وديانات منحرفة ومختلفة، أشهرها:

الوثنية:

انتشرت الوثنية بين القبائل العربية بعد أن نقلها عمرو بنُ لحيٍّ الخزاعيّ(١) إلى مكة، ونقلها حجاج القبائل العربية إلى مناطقهم المختلفة، حتى أصبح لكل قبيلة صنم خاص تعبده، وتتقرب إليه من دون الله تعالى، فقد عُبدت أصنام مختلفة في البحرين، ومنها: صنم ذو اللبّا، كما عبدت قبائل بكر بن وائل وتغلب بن وائل صنماً كبيراً يقال له: أوال، ووضعوه في الجزيرة التي سميت باسمه(٢).

اليهودية(٣):

اليهودية هي الديانة التي حرفها بنو اسرائيل بعد موسى ﵇، وكان في البحرين مجموعات محدودة من اليهود قدمت من بلاد الشام، ولا نستطيع أن ننكر أن بعضهم من بقايا السبي البابلي، أو من مهاجرة اليهود الذين خرجوا من بيت المقدس بعد أحداث سنة ٧٠ ميلادية على يد تيتوس الروماني(٤)، وقد عمل هؤلاء بالتجارة البرية والبحرية وبالزراعة.

---

(١) عمرو بن لحي الخزاعي: سيد قبيلة خزاعة وسيد مكة، وهو أول من غير دين إبراهيم ﵇ وأتى بالأوثان والأصنام من بلاد الشام إلى مكة والجزيرة العربية كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَه – أمعاءه في النار، هو أول من غير دين إبراهيم وسيب السوائب» رواه البخاري (٦/ ٦٦٩)، ومسلم (١٧/ ١٥٥).
وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى: (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) الأنعام ١٤٤: أن أول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي الخزاعي؛ لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

(٢) ياقوت الحموي/ معجم البلدان (١/ ٣٢٥).

(٣) د. سعود الخلف/ دراسات في الأديان (ص:٤٣).

(٤) إمبراطور روماني واجه اليهود في بيت المقدس واستطاع أن يطرد عدداً كبيراً منهم ويمنعهم من البقاء فيها.

المجوسية:

المجوسية كلمة فارسية تطلق على ديانة ثنوية تقول بوجود إلهين، أحدُهما إله للخير، والآخرُ إله للشر، وقيل: إن مؤسسها زرادشت، وهي ديانة تقوم على تقديس النار، وقد تأثرت بالديانات الهندية الفاسدة، فاعتقد أتباعها بتناسخ الأرواح، فعبدوا النار من دون الله تعالى.

وكان يدين بها بالبحرين تلك المجموعات القليلة من الفرس الذين كانوا يعيشون بها، ولم يعتنقها أي من القبائل العربية؛ لما فيها من قيمٍ تتعارض مع طبيعة العرب وتقاليدهم، وخاصة استباحتها للمحارم⁽١⁾.

ولما دخلت البحرين الإسلام، ضرب النبي ﷺ الجزية على من لم يسلم منهم، ونهى عن مناكحتهم وأكل ذبائحهم حتى انقرضت هذه الديانة الفاسدة، ولم يبق لها أثر في البحرين، ولا في جزيرة العرب، والحمد لله رب العالمين.

النصرانية:

النصرانية هي الديانة التي اعتنقها الذين يزعمون أنهم أتباع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكتابهم الإنجيل المحرف.

انتشرت النصرانية في أول أمرها في بلاد الشام، ثم بدأت تنتشر شيئاً فشيئاً إلى أماكن أخرى مع التجار والرهبان، وخاصة بعد تصدي الدولة الرومانية للنصارى قبل اعتناقها لهذه الديانة.

وقد اعتنق معظم المناذرة في الحيرة هذه الديانة، كما تسربت إلى بعض القبائل العربية مثل: ربيعة، وغسان، وبعض قضاعة، كما اعتنقت النصرانيةَ بعضُ عشائر عبد قيس، وبكر بن وائل، وكان الجارود - بشر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سيدُ عبد قيس نصرانياً عندما تأمر وفدهم عند قدومهم إلى النبي ﷺ، وأسلم وحَسُن إسلامه كما سيأتي.

---

(١) البحرين في صدر الإسلام/ مصدر سابق.

كما اعتنق قوم من بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد بن مناة النصرانيةَ، وكان للنصارى في قطر مطارنة يسمونها: بيت قطرايا، وكذلك في دارين، وفي هجر (١).

الحياة الاقتصادية:

تنوعت المصادر الاقتصادية بالبحرين بين الزراعة والصناعة والتجارة والصيد، وذلك بسبب ما وهبها الله من عوامل ساهمت في ذلك.

الزراعة:

تنوعت المحاصيل الزراعية بحسب الحاجة إليها آنذاك، فقامت زراعة الحبوب: القمح والشعير، وخاصة في أوال - مملكة البحرين -، وكذلك قامت زراعة القطن والحنا، وزرع القطن خاصة في هجر؛ مما ساهم في قيام صناعة المنسوجات، كما قامت زراعات مختلفة من الفاكهة؛ كالموز والرمان والتين في أوال وهجر.

ومن أشهر الزراعات: نخيل التمر، وخاصة في أوال وهجر، والتي ضرب بها المثل في وفرة وجودة نوع تمرها ورخصه، فقالوا: كمستبضع التمر إلى هجر (٢).

كما زرع العنب، وخاصة في جزيرة تاروت إلى جانب زراعة الخضروات المختلفة في مناطق البحرين.

الصناعة:

تنوعت الصناعة بالبحرين قديماً تبعاً لتنوع العوامل التي ساهمت في قيامها، ومن أشهر الصناعات:

صناعة المنسوجات: وكانت المنسوجات تسمى باسم المكان الذي تصنع فيه، أو الإقليم الذي ينسج فيه، فهناك الثوب القطري من قطر، والثوب الهجري من هجر، وكانت تصدر هذه المنسوجات إلى مكة في مواسم الحج على هيئة برود وأثواب وأزر وسراويل وأردية.

---

(١) البحرين في صدر الإسلام/ مصدر سابق.

(٢) الزمخشري/ المستقصى في أمثال العرب (٢/ ٢٣٣).

صناعة الأسلحة: اشتهرت البحرين قديماً بصناعة الرماح والسيوف، وكان يضرب المثل بالرماح الخطية التي استخدمها العرب في الحروب والصيد.

صناعة السفن: تميز موقع البحرين الجغرافي بإطلالة على سواحل الخليج العربي، مما ساهم في اتصال سكانها بشعوب عرفت بالملاحة وركوب البحر كالهنود، كما استخدم السكان القوارب والسفن في التنقل بين بعض المناطق والموانئ، كما استخدمت في التجارة البحرية.

صناعة الخمور(١): قامت صناعة الخمور على التمر، ومن أشهر المناطق التي قامت بصناعتها قطر وهجر.

التجارة: ساهمت الزراعة والصناعة، ووجودُ الطرق التجارية، وسهولة التنقل على التبادل التجاري في البحرين قديماً، وساهم ذلك في التجارة الداخلية والخارجية.

التجارة الداخلية: انتشرت الأسواق التجارية بمناطق البحرين المختلفة، وذلك لوفرة الإنتاج الصناعي والزراعي، وسهولة الاتصال والتنقل، واشتهر بالبحرين عدة أسواق منها:

سوق هجر، سوق المشقّر، وكان كلاهما يعقد في كل سنة، وتجتمع فيهما العرب، إلى جانب الأسواق المحلية في المدن والقرى.

التجارة الخارجية: ازدهرت التجارة الخارجية البحرية والبرية بسبب الموقع المتميز، وسهولة الاتصال والتنقل، ووفرة الإنتاج الزراعي والصناعي الفائض عن حاجة السكان كما أسلفنا.

ولعبت البحرين دوراً للوساطة التجارية بين منتجات الهند وفارس من جهة، وبين جزيرة العرب ومصر والشام والعراق من جهة أخرى، وكانت التجارات التي تجلبها من الهند وفارس هي العطور وخاصة المسك والبضائع المتنوعة، كما قامت بتصدير بضائع ومنتجات إلى الجزيرة العربية والهند وفارس، وخاصة إنتاج اللؤلؤ المتميز.

---

(١) قامت هذه الصناعة قبل بعثة النبي ﷺ ولما دخلت البحرين في الإسلام تخلت عن هذه الصناعة والتجارة فيها لتحريمها في شريعة الإسلام الغراء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٥١].

الصيد البحري:

امتهن بعض سكان البحرين حرفة الصيد البحري؛ للموقع الساحلي على الخليج العربي، فقاموا باستخراج اللؤلؤ، وصيد الأسماك.

اللؤلؤ: يعتبر اللؤلؤ أحد أشهر وأهم الموارد في الخليج العربي منذ القدم، كما اشتهر بجودته وحسنه وجماله بين لآلئ البحار الأخرى، مما ساعد على انتشار مهنة الغوص في أوال، وهجر، وقطر.

الأسماك: توافرت بالخليج أنواع مختلفة من الأسماك؛ مما أسهم في قيام مهنة الصيد، وكان سكان أوال يعتمدون في غذائهم عليه إلى جانب التمور.

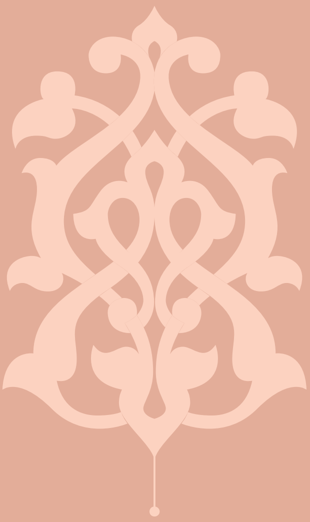

ٱلمَمَالِكُ ٱلعَرَبِيَّةُ

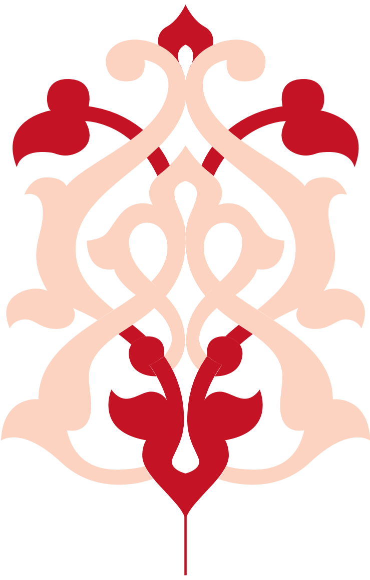

خَامِساً:

ٱلعَرَبُ فِي ٱلحِجَازِ

يقصد بعرب الحجاز: القبائل العربية التي عاشت ما بين الطائف إلى قرب شمال الجزيرة العربية، وأشهر مدنها: مكة والطائف ويثرب، وانقسم عرب الحجاز إلى قسمين:

١. **القبائل القحطانية** نزحت من اليمن إلى الحجاز، ومنها:

قبيلة جُرْهُم: والتي سكنت إلى جوار أم إسماعيل وصغيرِها، كما تزوج منهم إسماعيل عليه السلام، وكانت لهم السيادة على مكة المكرمة لفترة من الزمن.

قبيلة خزاعة: والتي استوطنت مكةَ بعد نزوحها من اليمن بسبب انهيار سدّ مأرب، واستطاعت أن تنتزع زعامة مكة من جرهم.

قبيلتا الأوس والخزرج: وقد استقرتا بيثرب حتى اعتنقتا الإسلام، وأصبحتا أنصار الإسلام.

٢. **القبائل العدنانية:**

ومن أشهرهم: **قبيلة قريش** ببيوتاتها المختلفة، والتي أصبحت لها الزعامة والريادة على القبائل العربية في مكة، وخاصة البيت الهاشمي فيها.

وقد اختلف العرب في حياتهم بين:

البدو: وهم سكان البادية، واتخذوا من بيوت الشعر سكناً لهم، يرتحلون من مكان لآخر طلباً للماء والكلأ، فقامت حياتهم على التنقل والترحال.

الحضر: وهم الذين استقروا بالمدن والقرى في بيوت من الطين، واشتغلوا بالصناعة والتجارة والزراعة.

أهم المدن بالحجاز:

أولاً: مكة المكرمة: أشهر مدن الحجاز، وتميزت بالمكانة الدينية بين العرب، وأُطلق عليها عدة أسماء، فهي مكة، وبكة، وذكرها الله تعالى في القرآن الكريم باسم: أم القرى، والبيت الحرام، والبلد الأمين.

وقد انفردت بهذه المكانة؛ لوجود الكعبة المشرفة بها، وهي التي يلتقي عندها القبائل في موسم الحج، ويقيمون عندها وإلى جوارها أسواقاً يتعارفون فيها، ويتبادلون التجارات المختلفة، ويعقدون مؤتمراتهم لحل مشاكل القبائل، ويصدحون فيها بأشعارهم وأخبارهم، ويلتقون بعاداتهم وتقاليدهم، ويتلاقحون فيها الأفكار، مما ساهم في تقريب العرب بعضهم من بعض، وتوحيد لسانهم، ظلت مكة مدينة مستقلة ذاتَ كيان سياسي ومالي مستقل.

وقد اعتمد سكانها على التجارة التي يتبادلونها مع غيرهم في مواسم الحج، ثم يقومون بنقلها بين الشرق والغرب في رحلتي الشتاء والصيف، كما ذكر الله تعالى في سورة قريش التي سميت باسمهم.

وكانت قبيلة جرهم هي أول القبائل العربية التي كانت لها السيادة في مكة، ثم تلاها في الزعامة قبيلة خزاعة التي قدمت من اليمن بعد انهيار سد مأرب، فقامت بالاهتمام بالبيت والإشراف عليه نحو ٣٠٠ سنة إلى أن تزوج قصي بن كلاب وهو من قبيلة قريش من حبّى ابنة حليل بن حبشية الخزاعي زعيم مكة.

وظلت خزاعة لها المكانة في مكة وبين العرب إلى أن تولى قصي بن كلاب القرشي زعامة مكة بعد وفاة والد زوجته زعيمِ مكة، فبذلك أصبح لقريش السيادة على مكة بدلاً من خزاعة.

قصي بن كلاب:

قام قصي بن كلاب بإدارة مكة بعد أن وطن قبيلة قريش بها، وذلك (سنة ٤٤٠ ميلادية)، وقام بعمل تنظيمات سميت في التاريخ باسمه.

تنظيمات قصي بن كلاب :

إنشاء دار الندوة: وهي دار أشبه ما تكون بمركز للإمارة والتشاور، والاجتماعات وإعلان القرارات بالحرب والسلم، وفض النزاعات بين بيوتات قريش من جهة وبين قبيلة قريش وغيرها من القبائل العربية من جهة أخرى، فهي دار كانت تهتم بالشؤون العامة للمجتمع المكي في كل نواحيه الدينية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تنظيم السقاية والرفادة -الطعام والشراب للحجيج- لأول مرة في تاريخ مكة.

جعل لنفسه الحجابة والسدانة (خدمة الكعبة)، فأصبح له الرياسة الدينية بين العرب.

عقد اللواء والقيادة في قريش، فلا تعقد راية ولا لواءُ حربٍ إلا بيده، أو بيد أحد أولاده، ولا يخرج ركب في تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته، أو إمارة أولاده.

فكانت هذه التنظيمات بمثابة أول عمل سياسي منظَّم في الحجاز.

رئاسة عبد المطلب:

خلف قصيَّ بن كلاب في الزعامة جمع من إخوانه وأبنائه إلى أن استقرت الزعامة لعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، أبوه سيدُ قريش، تزوج من بعض نساء يثرب من بني عديّ بنِ النجار، واسمها: سلمى بنت عمرو، وقد أنجبت له هذا الغلام الذي سمي بشيبة الحمد بسبب شيبٍ في شعر رأسه ولد به.

رُبِّي شيبةُ في بيت جده لأمه، وكان أبوه يقدم عليه في ذهابه وإيابه من الشام إلى أن توفي بغزة بأرض فلسطين، ولذا سميت بغزة هاشم، فتولى زعامة قريش من بعده أخوه المطلبُ بن عبد مناف الذي رحل في طلب ابن أخيه من يثرب وضمه إليه، وقدم به مكة مردفَه على بعيره، فقال الناس: عاد المطلبُ وعبدُ المطلب!!!، فقال: ويحكم! إنما هو ابن أخي هاشم، فالتصق به اللقب، وأصبح زعيماً على قريش بعد عمه المطلب، ولذا كان أخوال النبي ﷺ من بني النجار في يثرب أخواله لأبيه.

ولد لعبد المطلب عشرة من البنين، كان أصغرهم عبد الله الذي تزوج آمنة بنت وهب بن عبد مناف، والتي ولدت له رسولَ الله ﷺ، والذي بعثه الله تعالى نبياً رسولاً بالرسالة الخاتمة، فوضح هذا النور من أفقهم، وسرى خبر السماء إلى بيوتهم، وصارت العزة لمضر وسائر العرب بهم.

قال أحمد شوقي(١):

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسمٌ وثناءُ.

ثانياً: يثرب:

وهي مدينة قديمة، أرضها منبسطة، كثيرة المياه والشجر، بها جبل أُحد، وقد أدى وجود المياه وخصوبة التربة إلى اشتغال أهلها بالزراعة وحياة الاستقرار.

وتعد يثرب من أهم المحطات التجارية التي تنزل بها القوافل في طريقها إلى بلاد الشام.

السكان:

أول من سكن يثربَ من القبائل العربية قبيلتا الأوس والخزرج. وهما قبيلتان عربيتان قدمتا من اليمن بسبب انهيار سد مأرب، وحدوث سيل العرم. كما سكن يثربَ قبائلُ اليهود من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة بعدما طردهم الرومان من الشام خلال فترات متفاوتة في نهايات القرن الأول الميلادي وبدايات القرن الثاني.

وقد عمل اليهود في الزراعة والتجارة، وكانت لهم سوق المعادن في يثرب، وعملوا على إذكاء العداوة والبغضاء وقيام الحروب بين الأوس والخزرج؛ ليكون لهم السيادة والريادة في يثرب، فوقعت الحروب بين الجانبين، كان آخرها يوم بعاث، والذي ذهب فيه خيرة شباب القبيلتين، كان ذلك قبل الهجرة النبوية بخمس سنوات، ولم تنته القبيلتان من النزاع والحرب إلا بعد أن اعتنقتا الإسلام، وقدوم النبي ﷺ مهاجراً إليهم، فحلت أخوةُ الإسلام محل النزاع والمنافسة.

---

(١) أحمد شوقي علي أحمد، كاتب وشاعر مصري يُلقب بأمير الشعراء، ولد في (٢٠ رجب ١٢٨٧هـ/ ١٦ أكتوبر ١٨٦٨م) بالقاهرة بحي الحنفي، لأب كردي وأم من أصول تركية، له قصائد شعرية شهيرة منها: قصائد في مدح النبي ﷺ مثل: نهج البردة، وله ديوان يسمى بالشوقيات، توفي في (جمادى الآخرة ١٣٥١هـ/ أكتوبر ١٩٣٢م).

عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: كان يوم بعاث قدّمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سَرَواتهم وجرحوا، قدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام(١).

وهذا تعبير منها ﵂ عن شعور الأوس والخزرج بالمرارة والبحث من كلا الفريقين عن التخلص من العداوة والبغضاء، فكان الإسلام الذي أقبلوا عليه وانصهروا في بوتقته.

وكان اليهود يقولون للعرب: إن نبياً يبعث هنا سنقاتلكم معه، ولقد سبق بيان أن اليهود هاجروا إلى يثرب لانتظار النبي الخاتم ﷺ(٢).

ثالثاً: الطائف:

مدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من مكة، سميت بذلك؛ لأن سكانها من قبيلة ثقيف أقاموا بها سوراً وحائطاً يحيط بها لحمايتها.

وهي مدينة ذات مناخ معتدل صيفاً، حتى قيل عنها: شامية الهواء، باردة الماء، وقد اتخذها كبراءُ مكة مصيفاً لهم، وكانوا يمتلكون بها المزارع والبساتين، ولهم فيها تجارة وأموال.

سكان الطائف:

سكنت الطائفَ قبيلةُ ثقيف، واستقروا بها إلى أن دخلوا في الإسلام في السنة الثامنة للهجرة، وظلوا باقين إلى الآن.

وقد ضمت الطائف أهمَّ أسواق العرب وأشهرَها على الإطلاق، وهو: سوق عُكاظ الذي كان ملتقًى تجارياً ومنتدى أدبياً واجتماعياً تتنوع فيه الأنشطة بين الشعر والنثر، كما أنه كانت تبرم فيه العقود والمواثيق، وتنقض فيه أخرى، كما كان مضماراً لسباق الخيل.

قال ياقوت الحموي: كانت ثقيف أسعد عيشة بين كل العرب.

والطائف هي إحدى القريتين اللتين ذكرتا في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١]، فكانتا مكة والطائف.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٣٩)، (٧/ ٣٣٠).

(٢) لما هاجر النبي ﷺ أبى اليهود الإيمان به حسداً من عند انفسهم رغم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم تكبروا غدراً وحسداً، فانقلبت عليهم العرب، وقاتلت القبائل العربية مع النبي ﷺ هذه القبائل اليهودية.

مظاهر الحضارة عند عرب الحجاز:

أولاً: الحياة الدينية: تعددت العقائد في جزيرة العرب، وانحرف الناس عن الحنيفية انحرافاً بعيداً، ولم يبق إلا آحادٌ من الناس يعبدون الله على الحنيفية، ومن هذه الديانات والعقائد:

١. **عبادة الكواكب وقوى الطبيعة** من الرياح والأشجار والرمال والأمطار، وقدس بعضهم الجن والشياطين، كما عبدوا الشمس والقمر.

٢. **عبادة الأصنام والأوثان**، والتي انتقلت إليهم على يد عمرو بن لحيٍّ الخزاعي زعيم مكة بعد زيارته للشام، فأعجبه عبادة الأوثان وتعظيمُها من عرب الشام، واستحسنه بعد أن أصيب بحمى، فوصِف له مكانٌ يستشفى بمائه، فوجد أهل المكان يعكفون على أصنام لهم، فلما سألهم عن ذلك، قالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو(١).

فأتى معه بهُبَل، وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة لتعظيمه، فأجابوه لما أراد، ثم اتسعت دائرة الشرك، فشملت أهل الحجاز، ثم الجزيرة العربية حتى نصبوا ثلاث مئةٍ وستين صنماً حول الكعبة لهذه القبائل تعبدها، وتشرك بها مع الله تعالى، وتعددت هذه الأصنام بمسمياتها المختلفة، وقدموا لها التقديس والتعظيم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[النجم:١٩-٢٠]، وهي أصنام العرب المقدسة عندهم. حتى انتشرت هذه الأصنام والأوثان في مناطق عدة من جزيرة العرب، وأصبح لكل قبيلة صنم، ولكل بيت صنم يعبدونه من دون الله، وقد اتُّخذت أصنامُ قوم نوح ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر آلهةً عند العرب في أنحاء الجزيرة.

كل ذلك يبوء بإثمه معهم عمرو بن لحيّ الخزاعي، فهو الذي كان سبباً في ذلك، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (رأيت عمرو بن لحيٍّ الخزاعيَّ يجر قُصْبَه في النار، وكان أولَ من سيب السوائب) (٢)، وفي رواية: (أول من غيَّر دينَ إبراهيم).

---

(١) الأصنام لابن الكلبي / تاريخ العرب قبل الإسلام ـ د. سعد زغلول عبد الحميد (ص:٣٣٩).

(٢) السوائب: جمع سائبة، وهي الأنعام التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء. رواه البخاري ح٣٥٢١.

وقد اعتقد العرب فيها أنها لها منزلة وكرامة عند الله، وأنها واسطة بين الخلق وخالقهم، وأنه لا يقبل الله منهم أمراً إلا عن طريق هؤلاء⁽¹⁾، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:٣].

وقد انصرفت أيضاً همةُ هؤلاء المشركين نحو تعظيم الأوثان و القبور، ومواضع نزول أهل الصلاح فيهم (المقام) وأضرحتهم، وقدموا لها النذور، وتقربوا إليها، واعتقدوا في أصحابها أنهم يملكون ضراً ونفعاً، وموتاً وحياة، ودفع الضر عنهم، فكانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها، ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، ويحجون إليها، ويطوفون بها، ويتذللون لها، وغيرها من أعمال تأبى الفِطَر السليمة فعلَها.

ومما تقرب به هؤلاء لآلهتهم المزعومة: النذرُ في الحرث والأنعام؛ كما ذكر الله تعالى ذلك: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

[الأنعام:١٣٨].

وسموا بعضها بأسماء مختلفة ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾[المائدة:١٠٣].

ومن المؤسف أن بعض المعاصرين يعتقدون أن العرب كانت ملحدة المعتقد، ولا تقر بوجود الله تعالى، وهذا خطأ فاحش؛ لأن العرب كانت تعتقد بوجود الله، وأنه الخالق والربُّ الذي أوجد هذا الكون من العدم، غير أنهم صرفوا الطاعة لغيره، فأقروا بتوحيد الربوبية، وأشركوا في توحيد الألوهية، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[العنكبوت:٦١].

الاستقسام بالأزلام: الأزلام: جمعُ زلم، وهو السهم أو القدح الذي لا ريش له، يكتبون عليها، ويضعونها أمام الأصنام، وإذا أرادوا أمراً، قدموا إليها يستقسمون بها في ما يريدون، ثم يخرجون سهماً زلماً من الكنانة التي أمام الصنم، فما كتب عليه ينفذوه، مثل: نعم، أو لا، أو منكم، أو من غيركم.

---

(١) وما أشبه اليوم بالبارحة فكم من النذور والذبائح تقدم لأصحاب القبور اليوم، وكم من الدعوات والصلوات تصرف إلى الأموات معتقدين أصحابها معتقد أهل الجاهلية وفي تحولهم وفعلهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣. الحنيفية: وهي ديانة الإسلام التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[آل عمران:٦٧].

وهذه بقيت في آحاد من الناس، وهم قلة قليلة، منهم: وَرَقَة بن نوفل، وقُسُّ بنُ ساعدة.

وبرغم الشرك الذي كان عليه عرب الجاهلية إلا أنه كان بهم بقايا من دين إبراهيم عليه السلام، مثل: تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة والمزدلفة، والمبيت بمنى، غير أنهم ابتدعوا بدعاً ألصقوها بهذه الشعائر، ومنها: أنهم كانوا يطوفون عراة -دون قريش- وفيهم قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١].

وكذلك كانت قريش لا تخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة؛ لأنه من الحل، وكانوا يُفيضون من المزدلفة، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[البقرة:١٩٩]، وكانت قبائل قريش يطلقون على أنفسهم: الحمْس: أي: المتحمسون للبيت.

٤. اليهودية والنصرانية: وكلاهما محرف عن أصل الديانة التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام.

وقد اعتقدها آحاد من الناس، وذلك لتمسك عرب الحجاز بمعتقداتهم المنحرفة الفاسدة من جانب، ومن جانب آخر نزعة اليهود العنصرية، ونظرتهم الفوقية، فحرصوا على احتكار اليهودية، ولم يهتموا بنشرها بين العرب، وما زالت تلك نظرتهم لسائر الشعوب والأمم.

كذلك فإن صفات اليهود كالغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق كانت سبباً آخر في بغض العرب لليهودية واليهود، فنفروا منهم بعيداً.

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

كانت القبيلة هي أساس التنظيم الاجتماعي، وأفرادُها تربطهم رابطة الدم والنسب والرحم، ولقد كان العرب يحتفظون بنقائهم العرقي، وكانت القبيلة تنقسم إلى عدة طبقات:

الأحرار: وهم أبناء القبيلة الأصليين، والذين كانوا يشكلون غالبية السكان.

الموالي: وهم الأفراد الذين تخلت عنهم قبائلهم، ودخلوا في حماية قبيلة أخرى، أو كانوا من عبيد القبيلة، ثم أُعتقوا.

الصعاليك: وهم الذين تبرأت منهم قبيلتهم؛ لكثرة ما وقع منهم من مخالفات لا تستقيم مع قيم القبيلة، ولم تقبلهم القبائل الأخرى للدخول في حمايتها كالموالي، وقد ظهر من هؤلاء شعراء وفرسان مشهورون.

العبيد: وهم الأرقاء من الذكور والإناث الذين جُلبوا إلى القبيلة عن طريق شرائهم من أسواق العبيد، أو السبي في الحروب.

وقد اتصف العرب في علاقاتهم الاجتماعية ببعض الصفات التي أقرها الإسلام، وأثنى عليهم ومدحهم بها، ومن ذلك: الكرم، والشجاعة، والوفاء بالعهد، وإغاثة الملهوف، وتقديم العون والحماية للجار، والغَيرة على العرض.

كما انتشرت بينهم صفات وعادات ذميمة نهى عنها الإسلام، وحَرَّمها عليهم؛ كالزنى، وشرب الخمر، ولعب الميسر، ووأد البنات، والغلو بالأخذ بالثأر، والسلب والنهب، وإعلان الحرب على أتفه الأسباب.

وبالجملة: فقد وصف الصحابي الجليل المغيرةُ بنُ شعبة(١) حال العرب في الجاهلية بقوله: لم يكن أحد أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل، فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم.

---

(١) يأتي ذكره إن شاء الله في الولاة على البحرين في العهد الأموي بالكتاب.

ودِيننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حيةٌ كراهيةَ أن تأكل من طعامه(١).

وكذلك ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لنجاشيِّ الحبشة: كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك(٢).

الأسرة: تكونت **الأسرة** على ما جبل عليه الإنسان فطرياً من أن الرجل له الكلمة الأولى، والسلطةُ المطلقة فيها، وهو المسؤول عن شؤون أسرته.

وكان عرب الجاهلية يفضلون البنين على البنات؛ لحاجة القبيلة المستمرة للرجال للقتال في صفوفها ضد القبائل الأخرى، وأما المرأة، فكانت تقوم بتدبير شؤون المنزل، كما كانت ترافق الرجال في حروبهم لإثارة الحمية فيهم، وتضميد جراحهم.

ولقد انتشرت عادة وأد البنات عند بعض القبائل العربية خشيةَ العار على نفسها، وخوفاً من الفقر، وهو ما استنكره القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٣١]. وكان بعض الرجال إذا رزق بالأنثى يظل في غم وهم حتى يئدها، وقد استنكر القرآن عليهم ذلك أيضاً: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل:٥٨-٥٩].

كما كانت المرأة تورَث كأي ميراث للورثة الذكور، والذي نهى عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[النساء:١٩]، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت الآية(٣).

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية (٩/ ٦٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٢٦٣/ ح:١٧٤٠)، و البيهقي في دلائل النبوة.

(٣) البخاري (٨/ ٣٠٩/ ح:٤٥٧٩).

النكاح (الزواج):

اختلفت أنواع النكاح في الجاهلية إلى أربعة أنواع كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

فنكاحٌ منها: نكاحُ الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها، ثم ينكحها.

ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملُها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها، أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يسمى: نكاحَ الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلُّهم يصيبهُا، فإذا حملت، ووضعت، ومضت ليالٍ بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، فتسمي مَنْ أحبت منهم باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن راياتٍ تكون عَلَماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها، ودَعَوا لها القافة -الذين يعرفون الأنساب بفراستهم، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطته، به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالحق، هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم»(١).

وكان التعدد عند الرجل في الزوجات لا حدَّ له حتى حددها القرآن في أربع نساء، كما كانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقوهن أو ماتوا عنهن، حتى نهى القرآن عن ذلك: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢].

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٢٢٨/ ح:٥١٢٧).

كما كان الطلاق والرجعة ليس لهما حد معين حتى حددهما الإسلام، وكانت فاحشة الزنى سائدة في جميع الأوساط، لا يخص بها مجتمع دون آخر، إلا من تأبى نفسه من الرجال والنساء الوقوع في هذه الرذيلة، وخاصة الحرائر من النساء، فكنَّ يتعففن عن فعل هذه الرذيلة التي غلبت على الإماء(١).

ثالثاً: الحياة السياسية:

قامت الحياة السياسية على أساس قبلي، فالقبيلة هي مأوى أفرادها وأبنائها، كان يرأسها شيخ القبيلة، أو أميرها الذي تم اختياره من بين أكابرهم، والذي تتوافر فيه الصفات التي ترتضيها القبيلة.

كان شيخ القبيلة يقوم بتحمل المسؤوليات المختلفة التي تلقى عليه؛ كاستقبال الوفود، وعقد العهود والمصالحات والمحالفات، ويقيم الضيافات، كما أنه يقود الحروب ويقسم الغنائم، ويعمل على وحدة القبيلة التي كانت تدين له بالتوقير والاحترام والطاعة، بالإضافة إلى أنه يحصل على ربع الغنيمة في الحروب، وما يصطفيه لنفسه من الجواري.

كما قام زعماء القبيلة وأصحاب الرأي فيها بمساعدة شيخ القبيلة في حكمها، وكان هؤلاء يسمون بمجلس القبيلة.

رابعاً: الحياة الاقتصادية:

تنوعت الحياة الاقتصادية عند عرب الحجاز، ومن أهم ما قامت عليه:

التجارة: كانت التجارة أهم الحرف الرئيسية لدى عرب الحجاز، وخاصة في مكة التي لم يتوفر فيها عوامل قيام الزراعة، وقد ساهم موقعها المتميز، ووجود البيت الحرام في السيطرة على زمام التجارة من بلاد العرب إلى غيرها، وأن تلعب دور الوسيط التجاري بين المناطق المختلفة، وكانت قريش أعظم قبائل العرب تجارة، كما كان لها رحلتان: في الصيف

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة عند ترجمته لهند بنت عتبة ﵂: أن النبي ﷺ مما بايع به النساء قال: وعاهدوني ألا تسرقن ولا تزنين، فقالت هند بنت عتبة ﵂: وهل تزني الحرة؟! (٨/ ٣٤٦).

قلت: وكأنها تتعجب من هذا الأمر، فماذا لو رأت نساء اليوم وما هن عليه من المنكرات، والمجاهرة بالمعاصي والفواحش وقُبح الأخلاق، الذي خلعن به حريتهن، ولبسنا به ربقة الشهوة والمعاصي والهوى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لبلاد الشام، وفي الشتاء لبلاد اليمن، يقلبون خلالها التجارات المختلفة، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾[قريش:١-٢].

وقد قامت قريش بجلب الأقمشة والبخور واللبان والعاج من اليمن، وحملت من الشام المنسوجات والزيوت والزجاج والحبوب، كما أنشأت أسواقاً هامة في مواسم الحج وغيرها من أجل التجارة؛ كسوق عكاظ، وسوق مجنّة، وسوق ذي المجاز.

الزراعة: تعتبر الزراعة من الحرف التي قام بها أهل الطائف ويثرب، وكانوا يوكّلون أمرها غالباً لعبيد الأرض الذين قاموا بزراعة الواحات والسهول التي تتوافر فيها المياه.

ومن أهم محاصيلهم: الحبوب؛ كالشعير والقمح، إلى جانب الفواكه المختلفة بالطائف، والتمور المتنوعة والتي اشتهرت بها يثرب.

اهتم عرب الحجاز بتربية الحيوانات التي تساعدهم في الزراعة، كما اشتغلوا برعي الأغنام والماعز والإبل.

الصناعة: تعتبر الصناعة واحدة من الحرف المحدودة للغاية في الحجاز، تتمثل في توفير احتياجات السكان من الصناعات البسيطة؛ كالأسلحة، والأواني الفخارية، وبيوت الشَّعر.

خامساً: الحياة الفكرية:

انتشر الشعر بين العرب الذين كانوا يقولونه بالسليقة، وكان له وللشعراء مكانة عظيمة عند عرب الجاهلية في الحجاز، فالشاعر يدافع عن قبيلته بشعره، ويخلد فعلهم الجميل، ويذم عدوهم.

وقد اشتهر في الجاهلية عدد كبير من الشعراء، منهم أصحابُ المعلقات، كالنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سُلْمى، وعنترة بن شداد.

كما استعمل العرب النثر والخطابة، والحكم والمواعظ والقصص، والرسائل والأمثال بألفاظ قوية بعيدة عن التكلف.

كما كان الكتاب فيهم قلة، ولم ينتشر عندهم تعليم الكتابة إلا في نطاق محدود للغاية، فهم أمة أمية.

سادساً: العلوم والمعارف:

وقد عرف عرب الحجاز بعض العلوم والمعارف؛ مثل: ملاحظة النجوم والكواكب ليهتدوا بها في أسفارهم، وعرفوا منازل القمر، وعملوا بالتقويم القمري، كما أنهم حددوا الجهات الأربع والفصول الأربعة.

كما عرف بعضهم شيئاً من الطبّ والتداوي بالأعشاب، وبتر من الأعضاء الفاسدة، وعالجوا بالكيِّ والحِجامة، وكان من أشهر أطبائهم: الحارث بن كلدة.

كما عرفوا القيافة، وهي تتبعُ الآثار على الرمال، وتمييز بصمات الأصابع، إلى جانب معرفتهم بعلم الأنساب، وبرعوا فيه.

الباب الأول

البَحْرَين

فِي ٱلعَهۡدِ ٱلنَّبَوِيِّ ٱلمُبَارَكِ

يعتبر العهد النبوي المبارك أكرم وأزهى وأفضل عصور البشرية، ولقد شاء الله تعالى أن يبعث نبيه ﷺ على حين فترة وانقطاع من الرسل؛ ليصحح للناس مسيرتهم، ويرشدهم ويوجههم إلى صراط الله المستقيم.

وفي عرض موجز للعهد النبوي نعرض لمراحل حياة النبي ﷺ، ودعوته إلى الله بين القبائل العربية وغيرها، مما كان له أكبر الأثر في تغيير وجه التاريخ في جزيرة العرب بما تشمله من أقاليم منها البحرين، بل وغيرت وجه تاريخ البشرية.

ميلاد النبي ﷺ ونسبه:

ولد النبي ﷺ بمكة في سنة الفيل صبيحة يوم الإثنين الثامن أو التاسع من ربيع الأول(١)، وقد انحدر نسله ﷺ من عدنان من ولد إسماعيل ﵇ كما جاء في الحديث الصحيح: عن واثلة بن الأسقع ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٢).

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر -قريش-(٣) بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ عدنان.

وأمه آمنةُ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، كان أبوها سيد بني زهرة.

ولقد رأت آمنة عندما وضعته أن نوراً خرج منها أضاء لها قصور بصرى(٤).

نشأته ﷺ:

نشأ النبي ﷺ في بادية بني سعد بين مكة والطائف؛ لأن الحضر من العرب كانوا يلتمسون المراضع لأولادهم في البوادي؛ ليتقنوا اللسان العربي السليم من صغرهم، وليشبوا على القوة والفتوة، ولتقوى أجسامهم.

فاستُرضع النبي ﷺ من حليمة السعدية، ثم أعادته إلى أمه وهو في الخامسة من عمره، وبقي معها لعام آخر حتى توفيت وهو في العام السادس من عمره، فضمه جده عبد المطلب إليه، وكان يشفق عليه، ويقربه منه إلى أن نزل بعبد المطلب مرض الموت، فأوصى به لأكبر أبنائه أبي طالب، فلما توفي عبد المطلب، انتقل النبي ﷺ إلى دار عمه أبي طالب الذي أحسن إليه، واختصه باحترام وتقدير وعطف وعناية.

---

(١) اختلف المؤرخون في يوم مولده ﷺ ومنهم من قال: في اليوم العاشر، ومنهم من قال: في الثاني عشر، ولقد رجح العلامة الألباني في صحيح السيرة أنه ولد في اليوم الثامن(ص:١٣).

(٢) رواه مسلم (١٥/ ٢٩/ ح:٢٢٧٦).

(٣) لقب بقريش لإنه كان يتقرش لهم البيعات والتجارات، ويختار المربحة منها، وقيل: إنه المجمع لبيوتاتهم جميعاً.

(٤) رواه أحمد بسند صحيح (٢٩/ ١٩٤/ ح:١٧٦٤٨)، صححه الألباني بالسلسلة الصحيحة (ح:٣٧٣).

ولما شب النبي ﷺ في رعاية عمه، كان قد تعلم رعي الغنم، وتعلم التجارة، فلما بلغ مبلغ الرجال، خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة بنتِ خُويلد ذاتِ الشرف والمال، ولقد استأمنته على تجارتها؛ لما اشتهر به من صفات الصدق والأمانة في أهل مكة، فلقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

وقد تزوج النبي ﷺ من أم المؤمنين خديجةَ ﵂، فأنجبت له كلَّ ولدِه سوى إبراهيم، والذي ولدته مارية القبطية ﵂.

ولدت له القاسم، وبه كان يكنى، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، وكلهم توفي في حياة أبيه سوى فاطمةَ توفيت بعده بستة أشهر.

إرهاصات النبوة:

هيأ الله تعالى نبيه لاستقبال هذه المهمة العظيمة التي أوكلها إليه بعد ذلك، وهي النبوة والرسالة، وقد أعده نفسياً لاستقبال ذلك منذ الصغر، ومن ذلك:

شق جبريل صدره ﷺ وهو صغير، واستخراج علقة من قلبه هي حظ الشيطان من الإنسان(١).

التقى بحيرا الراهب في أول الشام بالنبي ﷺ مع عمه ورجال من قريش أتوا للتجارة، فبشرهم بأنه نبي هذه الأمة، وحذرهم أن يدخلوا إلى الشام به وهو في هذا العمر، وكان عمر النبي ﷺ في الثانية عشرة، فأعاده أبو طالب إلى مكة(٢).

ومن إرهاصات نبوته: تسليم الحجر عليه قبل النبوة. روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة ﵁: أن النبي ﷺ قال: «إني لأعرفُ حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

---

(١) روى مسلم عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشق قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة،، فقال: هذا من حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه – أي جمعه وضم بعضه لبعض – ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره (المرضعة) – فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون – قال أنس: وقد رأيت أثر ذلك المخيط في صدره. (٢/ ١٨٣/ ح:١٦٢).

(٢) الألباني – صحيح السيرة (ص:٣١).

ومن الإرهاصات: الرؤيا الصادقة في المنام التي كانت تأتيه كفلق الصبح كما في الصحيحين من حديث أمنا عائشة ﵂: أول ما بُدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

حُبِّبَ إليه الخلاء والاختلاء والتحنث -التعبد-، فكان يعتزل في غار حراء يمكث فيه الليالي ذوات العدد إلى أن فاجأه الحق، وجاءه جبريل وضمه إليه وقال: اقرأ. لتبدأ مرحلة النبوة بعد ذلك. فحمل النبي ﷺ الرسالة، وانطلق بها يدعو القاصي والداني إلى توحيد الله كما كانت الأنبياء والرسل من قبله ﷺ.

عن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت(١): «أول ما بُدئ به رسولُ لله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، فيرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق:١-٥]».

---

(١) رواه البخاري باب بَدْء الوحي (١/ ٢٩/ ح:٣).

البعثة النبوية

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

مراحل الدعوة المباركة:

أولا: العهد المكي: وينقسم الى قسمين: المرحلة السرية، واستمرت ثلاث سنوات، والمرحلة الجهرية، واستمرت لعشر سنوات.

المرحلة السرية: وتبدأ هذه المرحلة منذ أن جاء أمين وحي السماء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وهو يتعبد في الغار، وضمه إليه وقال له: اقرأ، وذلك حينما بلغ النبي ﷺ الأربعين سنة من عمره.

فبدأ النبي ﷺ بعدها في أطوار الدعوة إلى الله، فدعا أقرب الناس إليه، وألصقَهم به من أهل بيته وصحبته، مجتهداً في دعوة من يغلب على ظنه أنه سيدخل في هذا الدين وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية ومصلحة الدعوة، فآمنت به أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهي أول من آمن من النساء(١).

وآمن به صاحبه وصديق عمره أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أول من آمن من الرجال. وكذلك أجابه لدعوته ابن عمه الصبي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أول من آمن من الصبيان، وكذلك مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو أول من آمن من الموالي.

ودخل في الإسلام بنات النبي ﷺ: زينب، ورقية، وأم كلثوم ـ رضوانُ الله عليهن ـ، ثم اتسعت الدائرة شيئاً فشيئاً، حتى كان الرعيل الأول من الصاحبة الكرام رضي الله عنهم أمثال: عثمان بن عفان – الزبير بن العوام – عبد الرحمن بن عوف – سعد بن أبي وقاص – طلحة بن عبيد الله – أبو عبيدة عامر بن الجراح – أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم

---

(١) أحمد فريد – وقفات تربوية من السيرة النبوية (ص:٦٥).

سلمة – وسعيد بن زيد – والأرقم بن أبي الأرقم – وبلال بن رباح – وآل ياسر: ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار – وعثمان بن مظعون – وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيس – وغيرهم من أكابر الصحابة الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ من بدء مسير الدعوة المباركة، رضي الله عنهم، وهذا الرعيل الأول هم النواة التي قامت عليها الدعوة الإسلامية، وكان النبي ﷺ يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم(١)، يصلي بهم، ويتلو عليهم القرآن شطراً من الليل حتى تورمت أقدامهم طاعةً لله، وطهرت قلوبهم من براثن الشرك والتعلقِ بالدنيا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠].

تكوَّن خلال هذه السنوات الثلاث جماعة من المؤمنين تقوم على التوحيد والاستسلام لأمر الله تعالى، وعلى الأخوة والتعاون، وتبليغِ رسالات الله دون الصدام مع طواغيت المشركين وأئمتهم؛ لأن المصلحة تقتضي الحفاظ على الأرواح والدماء؛ لكي يتقدموا ويدعوا غيرهم إلى الإسلام، وإلا فهلاكهم مفسدة وإضرار بالدين والدعوةِ إليه(٢).

وقد تميزت هذه الجماعة المؤمنة ـ على قلتها ـ بالسلوك الأمثل، والأخلاق الفاضلة من الصدق والاستقامة، والطهر والعفاف والوفاء بالعهد؛ مما جعلهم كشامةِ الحسن على جبين قريش.

---

(١) الأرقم بن أبي الأرقم عبد مناف بن أسد المخزومي القرشي، يُكنى بأبي عبد الله، أحد أوائل الصحابة الذين دخلوا الإسلام، وكان النبي ﷺ يجتمع بأصحابه في دار الأرقم على جبل الصفا يعلمهم القرآن ويصلي بهم، توفي رضي الله عنه في خلافة معاوية، سنة خمس وخمسين للهجرة. ابن حجر/ الإصابة (١/ ١٩٦)، ابن سعد/ الطبقات الكبرى (٣/ ٢٤٢).

(٢) وهذا الذي ينبغي أن تكون عليه الدعوة الإسلامية، لا كما تفعل بعض الجماعات التي تنتسب للإسلام التي زجت بنفسها وشبابها في غمار آتون حرب ودماء مما أدى إلى ضعف الدعوة، فلا الإسلام نصروا، ولا العدو كسروا.

مرحلة الجهر بالدعوة:

بعد هذه المرحلة المباركة نزل الوحي بأمر الله تعالى إلى النبي ﷺ يأمره بالجهر بالدعوة، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]. وقال: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤].

فقام النبي ﷺ بالأمر أحسن قيام، ودعا قومه جميعاً، ورغبهم وأنذرهم وحذرهم قائلاً: «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب! لا أغني عنكم من الله شيئاً»(١).

ومنذ ذلك الحين ناصبت قريش العداء والصدود للنبي ﷺ، وحجتهم في ذلك ما احتجت به الأمم من قبل: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٢].

وأن دعوة الإسلام جاءت لتفرق بين المرء وزوجه، والوالد وولده، فمنَعهم كبرُهم وحججُهم الواهية، ودعوى الحفاظ على التراث القديم، ومكانتهم الاجتماعية بين العرب، من أن يؤمنوا، بل دفعهم لإعلان حرب على دعوة الإسلام، واستخدموا في ذلك وسائل وأساليب متنوعة ومختلفة، فتارة بالإيذاء والصدام، وتارة بالسخرية والاستهزاء والتحقير، وتارة بالمساومة بالعروض الدنيوية على النبي ﷺ؛ إغراءً له، وظناً منهم أنه طالب دنيا، حتى أدى بهم الأمر إلى إراقة دماء بعض أصحابه، وكل ذلك لا يثني النبي ﷺ عن دعوته والصبر عليهم، ومحاولة إصلاحهم بالتوحيد وطاعة ربهم، ممتثلاً قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال ابن قيم الجوزية(٢): اقتضت حكمة الله أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح، ويخلصها بكير الامتحان؛ كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان؛ إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإمّا خرج في هذه الدار، وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذِّبَ العبد ونُقِّي، أُذن له في دخول الجنة.

---

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم، وتتمة الحديث في الصحيحين، البخاري (٥/ ٤٦٨/ ح:٢٧٥٣)، مسلم (٣/ ٦٩/ ح:٢٠٦).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٨).

وقد ترتب على ذلك هجرة الحبشة الأولى في السنة الخامسة للبعثة، ثم الهجرة الثانية للحبشة في السنة السادسة للبعثة، فكانت الهجرة مخرجاً لبعض الصحابة مما يلاقونه من الفتن والابتلاءات من قومهم. ولم تجد قريش حيال هذا الأمر إلا أن تجتمع وتقرر المقاطعة العامة لبني هاشم جميعاً، وقرروا ذلك وأثبتوه في صحيفة عهد، على أن لا يناكحوا بني هاشم، ولا يبيعوهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، وعلقوا تلك الصحيفة الظالمة داخل الكعبة.

فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب لأبي طالب، ودخلوا جميعاً شِعْبه، مسلمهُم وكافرُهم، المسلم دخل ديانةً، والكافر دخل حميةً، وخرج أبو لهب من بني هاشم إلى قريش، وظاهرَهم وأيدَهم.

وأقامت قريش على ذلك ثلاث سنوات، حتى أصاب بني هاشم الجهد من قلة الطعام والزاد، إلى أن شاء الله تعالى أن يري قريشاً آية بأن سلط على صحيفتهم الظالمة الأرضة فأكلتها سوى -باسمك اللهم-؛ مما أدى إلى رفع القطيعة، فرفعت القطيعة في السنة العاشرة للبعثة النبوية، وبعدها بفترة قصيرة من العام نفسه توفي أبو طالب؛ مما أفقد النبيَّ ﷺ سنداً كبيراً كان يمنع قريشاً عنه.

وبعده بأيام توفيت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في رمضان من هذا العام، ففقد بفراقها الزوجة والسند البشري والصدرَ الحاني المواسي له عند نزول الشدائد؛ فقد كانت أمنا خديجةُ رضي الله عنها زوجة وفية بارة، ووزير صدق معيناً له.

واشتدت قريش في إيذاء النبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب؛ مما اضطره أن يتوجه إلى خارج مكة لأول مرة ليعرض الإسلام على أهل الطائف، بعد أن صبر على قريش وإيذائها عشر سنوات.

وفي هذا بيان للدعاة بأهمية الصبر، وإطالة النفس، وعدم الملل أو اليأس، وأن على الداعي السعي في دعوته بضوابطها الشرعية، وليس عليه إدراك الثمرة؛ فإن من الأنبياء عليهم السلام من يأتي يوم القيامة وليس معه أحد من قومه؛ كما جاء في الصحيحين وغيرهما

من حديث ابن عباس أنه قال: «خرج علينا النبي ﷺ يوماً فقال: عُرضت عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبيُّ معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد...»الحديث(١).

دعوة الإسلام خارج مكة (رحلة الطائف):

ذهب النبي ﷺ ماشياً على قدميه من مكة إلى الطائف ليعرض الإسلام على قبائلها، وبقي هناك نحو عشرة أيام، التقى فيها زعماء الطائف، فعرض عليهم الإسلام فلم يجبه أحد منهم، بل سخروا منه، وتآمروا عليه، وأغروا سفهاءهم به، فنالوا منه في نفسه وبدنه؛ مما ترك ألماً وذكرى في نفس النبي ﷺ لسنوات عديدة، فلقد سألته أم المؤمنين عائشة ﵂ بعد غزوة أحد: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة(٢)، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال(٣)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب(٤)، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل ﵇، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملكُ الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين(٥)؟ ، قلت: بل أرجو أن يُخرِج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»(٦).

ثم رجع النبي ﷺ إلى مكة حزيناً لما جرى، متأسفاً لصدِّ قومه عن الحق.

---

(١) رواه الشيخان، البخاري (١٠/ ١٩١/ ح:٥٧٠٥)، مسلم (٣/ ٧٩/ ح:٢٢٠).

(٢) عقبة الطائف.

(٣) ابن عبد ياليل بن عمرو، كان زعيماً لقبيلة ثقيف المشهورة، وكانت له مواقف مؤسفة مع النبي ﷺ في الجاهلية، ثم جاء بعد حصار الطائف وأسلم بين يدي النبي ﷺ.

(٤) قرن الثعالب وهو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد.

(٥) الأخشبان: جبلا مكة - أبو قبيس وقعيقعان.

(٦) رواه الشيخان، البخاري(٦/ ٣٧٦/ ح:٣٢٣١)، مسلم(١٢/ ١٣١/ ح:١٧٥٩).

الإسراء والمعراج:

شاء الله سبحانه وتعالى ـ بعد رحلة الطائف الأليمة ـ أن تقع حادثة الإسراء والمعراج، وهي من أجلِّ وأعظم الآيات والمعجزات التي وقعت للنبي ﷺ، وهي ثابتة بنص الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الإسراء:١]. وفيه دليل على الإسراء، كما أن فواتح سورة النجم فيها دليل على وقوع المعراج، كما في السنة النبوية الشريفة جملة من الأحاديث الدالة على وقوعه.

قال الحافظ ابن كثير(١): وأُسري بالنبي ﷺ بجسده من المسجد الحرام إلى البيت المقدس راكباً البراق في صحبة جبريل عليه السلام، فنزل ثَمَّ، وأمَّ الأنبياء ببيت المقدس، فصلى بهم، ثم عُرج به تلك الليلة من هناك إلى السماء الدنيا، ثم للتي تليها، ثم الثالثة، ثم إلى التي تليها، ثم الخامسة ثم التي تليها، ثم السابعة، ورأى الأنبياء في السماوات على منازلهم، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى، ورأى عندها جبريل على الصورة التي خلقه الله عليها، وفَرض الله عليه الصلواتِ تلك الليلة(٢)، كما رأى النبي ﷺ من آيات ربه تلك الليلة أموراً عجباً، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم:١٢].

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعه رضي الله عنه: «أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: بينما أنا في الحطيم – وربما قال: في الحجر – مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فشق ما بين هذه إلى هذه ـ فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته ـ، فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطستٍ من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم ـ يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل:

---

(١) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ، (ص:٦٠).

(٢) الصلوات الخمس شرعت وفرضت في السماء ولم ينزل بها جبريل كسائر التكاليف والشرائع، وذلك لمكانتها العظيمة عند الله تعالى، وهو الأمر الذي استهانت به جماهير غفيرة ممن ينتسبون للإسلام اليوم وفرطوا فيه، هداهم الله تعالى وردهم إلى دينه رداً جميلاً.

مرحباً به، فنِعْمَ المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت، فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه. فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما، فسلمت، فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال:جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت فإذا هارون. قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. فلما تجاوزت بكى. قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء.

ففتح. فلما خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه. قال: فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رُفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقُها مثل قِلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان، فنهران في الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات. ثم رُفع لي البيت المعمور.

ثم أُتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني ـ والله ـ قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله. فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي»(١).

أخبر النبي ﷺ قريشاً بأنه أُسري به في تلك الليلة، فاشتد تكذيبهم له، وأذاهم وتجرؤهم عليه، ولم يثنيه ذلك عن دعوته، بل زاده قوة وإقبالاً على الله تعالى لدعوة الناس إلى الحق، وجعل يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج ويقول: « هل من رجل يحملني إلى قومه، فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي؟! فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي »(٢).

وكان عمه أبو لهب يمشي خلفه يقول للناس: لا تسمعوا؛ منه فإنه كذاب، فينفر الناس عنه، وكانت قريش تقول عنه: ساحر، كاهن، كاذب، شاعر.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٥٢/ ح:٣٨٨٧).

(٢) رواه أحمد (٢٣/ ٣٧٠/ ح:١٥١٩٢) واللفظ له، وصححه شعيب الأرناؤوط، وأبو داود (٣/ ٨٩٧/ ح:٤٧٣٤)، والترمذي (٣/ ١٢/ ح:٣١٠٥)، وابن ماجه (١/ ٤٠/ ح:٢٠١)، وصححه الألباني في صحيح السنن.

وهم في الحقيقة الكَذَبةُ الذين يسحرون الناس بأقوالهم وأفعالهم وإغراءاتهم ليثنوهم عن الحق.

قال الحافظ ابن كثير(١): «أكاذيب يقذفونه بها من تلقاء أنفسهم، فيصغي إليهم من لا تمييز له من قبائل العرب، وأما الألبّاء، فإنهم إذا سمعوا كلامه وتفهموه، شهدوا بأن ما يقوله حق».

وأرادت قريش أمراً، وأراد الله أمراً آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[غافر:٥١]. ففي موسم حج السنة الحادية عشرة للبعثة؛ إذا بستة نفر من يثرب يلقاهم النبي ﷺ، فسمعوا منه، واطمأنوا لما يقول، وكانوا من قبل يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة: أن نبياً مبعوثاً في هذا الزمان، ويتوعدونهم به إذا حاربوهم قائلين: إنا سنقتلكم معه قتل عاد إرم(٢).

فقال بعضهم لبعض: هذا ـ والله ـ الذي توعدكم اليهود به، فلا يسبقنكم إليه، فأسلموا ورجعوا إلى قومهم، ودعوهم للإسلام، فبدأت الدعوة بينهم شيئاً فشيئاً حتى كان العام الذي يليه ذهب منهم اثنا عشر رجلاً في موسم الحج، والتقوا بالنبي ﷺ، وبايعوه على الإسلام بيعة العقبة الأولى، والتي سميت ببيعة النساء(٣).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمرُكم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب»(٤).

وبعد أن تمت هذه البيعة وانقضى موسم الحج؛ بعث النبي ﷺ مع المبايعين مصعبَ بن عمير رضي الله عنه ليعلمهم الإسلام، ويدعو قومهم الآخرين في يثرب.

---

(١) الفصول ص ٦٢.

(٢) أي: قتلاً جماعياً لا يبقي منهم أحداً.

(٣) سميت ببيعة النساء لأنها وفق بيعتهن بعد الحديبية، وتضمنها ما تضمنته في سورة الممتحنة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الممتحنة:١٢].

(٤) رواه البخاري (٧/ ٢٧٤/ ح:٣٨٩٢).

فأقام بينهم مصعب بن عمير يدعوهم إلى الله تعالى، حتى لم تبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا القليل من الدور.

ثم عاد مصعب قبل موسم الحج إلى مكة ليخبر النبي ﷺ بما حققه هناك، ويخبره خبر يثرب، وكيف أنها ذات قوة ومنعة.

بيعة العقبة الثانية التي غيرت وجه التاريخ(١):

بعد أن طرق الإسلام قلوب أهل يثرب، تشوقت لرؤية نبيها، وتطلعت لحمايته، وقال بعضهم: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخوّف؟ فقرروا الاتصال للقائه في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، فتم ذلك اللقاء في أوسط أيام التشريق عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى.

وقد بايع القوم النبي ﷺ على ما أمرهم به، حيث قال:

بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

والنفقة في العسر واليسر.

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعلى أن تقولوا في الله لا تخافون لومة لائم.

وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قَدِمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة(٢).

فبايعوه على ذلك وهم في غاية الإدراك لخطورة هذه البيعة، وما يترتب عليها، وذلك بفضل الله تعالى الذي ملأ قلوبهم باليقين والثبات.

وعاد المبايعون إلى يثرب ينتظرون ساعة قدوم النبي ﷺ إليهم.

---

(١) لقد كانت اليهود في يثرب تؤجج نار الفتنة بين الأوس والخزرج حتى وقعت الحرب بينهما، فأكلت منهم الكثير من رجالهم وأموالهم، وخلفت وراءها الجراح والمآسي، والعداء بين أبناء العمومة، مما كان له أكبر الأثر في إقبالهم بقوة على الإسلام الذي يجمع شملهم، ويصهرهم جميعاً في بوتقة واحدة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٩٢]. وما أشبه الليلة بالبارحة، فاليهود يوقعون الوقيعة والعداء بين أبناء الأمة استنزافاً لقوتهم، لتصبح دولتهم المزعومة إسرائيل هي السيدة المطاعة في المنطقة، فياليتنا نعتبر مما كان، ونكون على نهج الأُلى سائرين.

(٢) رواه أحمد (٢٢/ ٣٤٦/ ح:١٤٤٥٦)، وصححه شعيب الأرناؤوط، وابن حبان (٩/ ٨٩/ ح:٦٢٤١) عن جابر بن عبد الله.

الهجرة المباركة

أذن الله تعالى لنبيه ﷺ، وللمسلمين بالهجرة إلى يثرب بعد أن تمت هذه البيعة، فقاموا فرادى وجماعات بالهجرة إلى هناك، تاركين خلفهم المال والدار، والوطن والذكرى؛ ليقينهم أن كل ذلك يهون في الطريق إلى الله تعالى، **فالجنة هي الوطن الذي يسعى المسلم لاستيطانه، حيث اللذة السرمدية، والنعم المتعددة الدائمة، والحياة الخالدة الباقية، وفوق كل ذلك رؤيته تبارك وتعالى في الجنة، فليس شيء مما تركوه خلفهم يعيقهم عن هذا الطريق، والثابتُ من ثبته الله تعالى.**

لقد هاجرت قلوب هؤلاء أولاً لربها بهجرانها المعاصي العقدية والأخلاقية(١)، واستسلمت لربها بالتوحيد، وانقادت له بالطاعة، وتبرأت من الشرك وأهله، وتعلقت النفوس به سبحانه، حتى إنها أيقنت أن ما عند الله أقرب إليها مما في يدها، فعندئذ سهل على الأبدان الإسراعُ نحو تحقيق أمر الله تعالى ورسوله بالهجرة من مكة إلى يثرب.

وبعد أن قامت هذه المجموعات بالهجرة، أذن الله تعالى لنبيه ﷺ بالهجرة من مكة إلى يثرب، فدخلها في الثاني عشر من ربيع الأول(٢)، بعد رحلة معاناة في الطريق الذي اجتازه مع صديق عمره أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد أنزل الله عليه في هذه الرحلة قرآناً يعزيه في نفسه التي اشتاقت لمكة عند خروجه منها، حتى دفعه ذلك للبكاء الشديد، فوقف على أكمة خارجها وقال: «والله! إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إليّ، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»(٣).

ثم انطلق مع صاحبه مخالفاً للطريق المألوف الذي اعتادته قريش ليُعمّي عليها، مخافة طلب قريش له، فنزل قريباً من الجحفة، وهناك اشتد شوقه لمكة، فأوحى الله إليه بآيات من سورة القصص ليعزيه في نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» متفق عليه، البخاري(ح:١٠ ،٦٤٨٤)، مسلم (ح:٤٢).

(٢) يظن الكثير من الخاصة والعامة أن الهجرة النبوية المباركة وقعت في شهر الله المحرم، وهذا ليس بصحيح.

(٣) رواه أحمد (٣١/ ١٠/ح:١٨٧١٥،١٨٧١٦٢،١٨٧١٧) وصححه شعيب الأرناؤوط، والترمذي (٣/ ٢٥٠/ /ح:٤٢٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٩٦/ ح:٣١٠٨) وصححه الألباني: صحيح الجامع (ح:٧٠٨٩) / المشكاة (ح:٢٧٢٥).

إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[القصص:٨٥]، فأيقن النبي ﷺ أنه سيعود إليها، قال ابن عباس: (لرادك إلى معاد): أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها(١).

وقد تم له ذلك في يوم الفتح الأكبر في رمضان في السنة الثامنة للهجرة، ولا رجعة بعد ذلك له ﷺ إلى يوم القيامة يوم يفصل الله بين الخلائق، وليس كما تزعم بعض الطوائف المنحرفة من أن هذه الآية دليل على رجعته في الدنيا لينتقم من أناس قد خالفوه وخانوه بعد وفاته.

وقعت هجرة النبي ﷺ وهو في الثالثة والخمسين من عمره، هاجر مثل من سبقه من الأنبياء الذين هاجروا في سبيل الله، فلقد هاجر إبراهيم ويعقوب ويونس وموسى ولوط وغيرهم من الأنبياء اتباعاً لأمر الله تعالى.

والهجرة سنة أتباع الرسل، فهم يهاجرون من مكان إلى مكان طلباً للأمن والأمان لإقامة شعائر دينهم والدعوة إليه، وذلك ابتغاء مرضاة الله ورحمته وعفوه ومغفرته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[البقرة:٢١٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء»(٢). وجاء في بعض الروايات: أن النبي ﷺ: سُئل عن الغرباء، فقال: «النُّزَّع من القبائل»(٣).

الهجرة إذاً هي طريق الرسل وأتباعهم، وثمرتُها مرضاةُ الله تعالى، ثم نشرُ هذا الدين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، حرصاً على هدايتهم، فهي إذاً لم تكن بدافع دنيوي، بل إن المهاجر يترك الدنيا خلفه تلبية لأمر الله تعالى.

لقد كانت هجرة النبي ﷺ المباركة حدثاً غير وجهَ التاريخ، ودروساً وعبراً ومثالاً يحتذى به، ولم تكن مجرد حدث تاريخي عابر.

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٤٧/ ح:٤٧٧٣).

(٢) رواه مسلم (٢/ ٢١٥٢/ ح:١٤٥).

(٣) شرح حديث الغربة لابن رجب الحنبلي، رواه ابن ماجه(٢/ ٣٦٣/ ح:٣٩٨٨)، وصححه الألباني في صحيح السنن.

لقد تعدد ذكر الهجرة في القرآن الكريم في مواضع متفرقة؛ حثاً للمسلمين على تذكر ذلك الحدث العظيم، وواعظةً لهم في أنفسهم وأمورهم.

لقد توعد ربُّ العزة أولئك الذين قعدوا عن الهجرة من ديار الكفر إلى دار الإسلام مع القدرة عليها، والرضا بالذل والهوان والتحاكم للقوانين البشرية الجاهلية، وتسلط الكفار عليهم، وهم قادرون على الهجرة إلى بلاد الإسلام التي يُسمع فيها الأذان، ويُوَحَّد فيها الرحمن، ولا يُعتدى فيها على مسلم بغير حق، ويمارس فيها شعائر الدين من غير تمغيص أو تنقيص، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧].

وهذا أمر باق مادام الإسلام قائماً؛ كما في الحديث الصحيح عن معاوية رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»(١).

ولا تعارض بين هذا الحديث وقول النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»(٢).

قال ابن عمر رضي الله عنهما: انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع ما قوتل الكفار(٣).

قال البغوي: «لا هجرة بعد الفتح» أراد به ﷺ: من مكة إلى المدينة، وقوله: «لا تنقطع الهجرة» أراد بها: هجرة من أسلم في دار الكفرة(٤).

---

(١) رواه أحمد (٢٨/ ١١١/ح:١٦٩٠٦)، وأبو داود (٢/ ٤٧٠/ح:٢٤٧٩)، وصححه الألباني في الإرواء.

(٢) رواه الشيخان، البخاري (٧/ ٢٨٢/ح:٣٨٩٩)، ومسلم (١٣/ ٨/ح:١٣٥٣).

(٣) فتح الباري في شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٨٥).

(٤) شرح السنة (١٠/ ٣٧٣).

ثانياً: العهد المدني:

يعتبر العهد المدني عهد التشريعات والجهاد والغزوات؛ لكثرة ما نزل من أحكام تنظم المعاملات، والعلاقات، وتوجه المجتمع للخيرات، وهو عهد الترجمة العملية للنصوص القرآنية التي نزل بها الوحي من عند الله، وكان فيه هذا الجيل الفريد من الصحابة الكرام الذين طبقوا هذه النصوص أفضل تطبيق، وقاموا أحسن قيام بأوامر هذا الدين، فهو جيل لا يتكرر، فهم خير الناس بعد الأنبياء والرسل، وهم أحرص الناس فهماً وعملاً، وهم أكمل الأمة إيماناً بعد نبيها ﷺ، وهذه الخيرية اصطفاء من الله تعالى لهم، وشهادةٌ شهد لهم بها النبي ﷺ في الحديث الصحيح؛ فعن عبد الله بن مسعود ﵁: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه»(١).

النبي ﷺ في المدينة:

دخل النبي ﷺ المدينة، ونزل بها في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول للسنة الرابعة عشرة لبعثته ﷺ(٢)، وكانت أولى الخطوات التي بدأها هي بناء المسجد، فاختار له المكان، وقام بنفسه مع أصحابه بالبنيان، وبنى إلى جوار مسجده بيوتاً من لَبِنٍ، وسقفها بالجريد وجذوع النخل، واتخذها حجراتٍ لأمهات المؤمنين.

وكانت القبلة أول الأمر جهة بيت المقدس، ثم تغيرت بعد ذلك جهة المسجد الحرام بمكة المكرمة، قال تعالى: ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ [البقرة:١٤٤].

وقد احتل المسجد مكانة رفيعة في نفوس المسلمين منذ أن كان، فهم يجتمعون فيه للصلاة خمس مرات قربةً إلى الله تعالى، ويلتقون فيه مع بعضهم البعض، كبيرهم وصغيرهم، فتزداد أواصر المحبة والتكاتف والتماسك بينهم، ويتعلمون من خلاله العقائد، والأحكام، وفيه يتلى عليهم القرآن.

---

(١) رواه الشيخان، البخاري(٥/ ٣١٩/ ح:٢٦٥١)، ومسلم(١٦/ ٧١/ ح:٢٥٣٥).

(٢) وهي السنة الأولى لهجرته ﷺ، كما اعتمدها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁.

وقد كان النبي ﷺ يعقد فيه لقاءه بالوفود، ويقضي فيه بين الناس، ويعقد فيه ألوية الجهاد، ويواسي فيه الفقراء والمساكين، ويعقد فيه عقود النكاح، ويطبب فيه الجرحى من المسلمين، ويربط فيه الأسير من المشركين، فتنوعت أنشطة المسجد؛ مما جعل له المكانة البارزة في حياة الأمة الإسلامية(١).

المؤاخاة بين المسلمين:

اتخذ النبي ﷺ إجراء آخر من أجل بناء المجتمع الإسلامي، وهو: المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار؛ مما جعلهم ينصهرون قلباً وقالباً في معتقد واحد، وفي شريعة واحدة وثّقت بينهم أواصر المحبة والإخاء، مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠].

ولقول النبي ﷺ: «مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢).

ولقد ساهمت هذه المؤاخاة في علاج الكثير من المشكلات المختلفة والمتنوعة التي واجهها المجتمع الإسلامي، وبخاصة أنه ترتب على هذه المؤاخاة حقوق بين المتآخين، منها: التوارث بينهما.

ولما شرع الجهاد، وكانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة، وغنم المسلمون الغنائم، رجعت أحكام التوريث إلى التوارث بين الأرحام فقط، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٧٥].

المعاهدة بين سكان المدينة:

وضع النبي ﷺ نظاماً للعلاقات والتعاملات بين سكان المدينة ـ ومنهم اليهود ـ يتضح فيه التزاماتُ كل فريق بما عليه من واجبات، وما له من حقوق.

---

(١) ولقد تراجعت مكانة المسجد التي كانت عليه في تاريخنا المعاصر، وأصبح قاصراً على أداء الصلوات، فالكثير منها يُغلق أبوابه بقية اليوم في معظم بلدان العالم الإسلامي، واستبدل بأنشطته أماكن أخرى ساهمت أحياناً في انحراف المجتمعات، وهونت من مكانة المسجد في نفوس المسلمين.

(٢) رواه الشيخان من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، البخاري(١٠/ ٥٣٨/ ح:٦٠١١)، ومسلم (١٦/ ١١٥/ ح:٢٥٨٦).

ومن ذلك: موادعة اليهود، والتزام المسلمين بعدم الاعتداء عليهم، والتزام اليهود بدفع جزء من نفقات الحرب إن وقع اعتداء على المدينة، كما منعت المعاهدة بين المسلمين واليهود إجارة اليهود لتجارة قريش، والمشاركة في حروب القبائل خارج المدينة إلا بإذن من النبي ﷺ، فكان ذلك بمثابة تأمين الجبهة الداخلية من غدر اليهود الذين اشتهروا بذلك، وتأمين المدينة لمواجهة الاعتداءات الخارجية.

التشريعات والغزوات:

يعتبر العهد المدني عهداً للتشريعات والتكاليف الشرعية التي يتحتم على كل مسلم العمل بها بتفاصيلها المختلفة، فبعد أن هاجر النبي ﷺ، واستقر الصحابة ﵃ بالمدينة، نزل الوحي بجملة من التشريعات الهامة التي غيرت مسار الأمة، وأحدثت تغييراً ملموساً في حياة الفرد والمجتمع؛ فقد نقلتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الانفلات الاجتماعي إلى الانضباط السلوكي والأخلاقي، فقد أكسبت هذه التشريعات المسلم صفات الرضا، والتحلي بالطاعة، ونمو الشعور برابطة الجماعة المسلمة الواحدة في ظل الدولة الإسلامية التي ارتبط الأفراد فيها ارتباطاً وثيقاً، فدينُهم هو الأساس الذي يجتمع عليه الناس، لا العرق ولا القبيلة ولا اللون، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات:١٣].

- **وكان أهم هذه التشريعات:**

١. **الصلاة**: وهي عماد الدين، والصلة بين العبد وربه، والتي يمتلئ قلب المسلم بها قربة إلى الله تعالى ومحبة له، وطمعاً في مغفرته ورحمته، وهي أنس الروح وراحة للقلوب والأبدان، لذا كان النبي ﷺ إذا حَزَبه أمر هرع إلى الصلاة، وكان يقول: أرحنا بها يا بلال، وبسببها يلتقي المسلم بإخوانه من المسلمين خمس مرات في اليوم والليلة.

لقد كانت الصلاة في العهد المكي تصلَّى ركعتين ركعتين، ثم لما هاجر النبي ﷺ زادت، واستقرت على صورتها الحالية، وثبت الأصل في السفر؛ ففي الحديث عن أم المؤمنين

عائشة رضي الله عنها قالت(١): فرضت الصلاة ركعتين، فلما أقام رسول الله ﷺ بالمدينة، زِيدَ في صلاة الحضر ركعتان ركعتان. وفي رواية: فُرضت الصلاة ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأقِرَّت صلاة السفر، وزيدت في صلاة الحضر(٢).

٢.**الزكاة**: وهي فريضة فرضها الله عز وجل على المسلمين في أصناف بعينها من الأموال مواساة للفقراء وجعلها سبحانه حقاً يؤخذ من أموال الأغنياء إذا بلغت نصاباً بعينه، ويرد إلى مصارف ثمانية قررها سبحانه في كتابه العزيز حيث قال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[التوبة:٦٠].

فهي ليست مِنَّة من الغني على الفقير، بل هي دعامة للأسس التي يقوم عليها التكافل في المجتمع الإسلامي، وقد فرضها الله سبحانه في السنة الثانية للهجرة، كما أوجب في نفس العام زكاة الفطر على المسلمين طُهرةً للصائم من اللغو والرفث، ومواساة لمن لم يجد قوت يومه.

٣.**الصوم**: فرضه الله تعالى في السنة الثانية للهجرة شهراً كاملاً هو شهر رمضان من كل عام،قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾[البقرة:١٨٥]. ولقد كان الصوم في أول أمره أياماً معدودات هي ثلاثة أيام من كل شهر تتعلق به أحكام بعينها إلى أن استقر في صورته الحالية.

٤.**الحج**: وهو حج بيت الله الحرام، وقد فُرض في السنة التاسعة للهجرة، أو العاشرة، على خلاف بين أهل العلم، وقد حج النبي ﷺ حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة بعد أن طهرت مكة من كل مظاهر الشرك، وبعد أن مُنع دخول المشركين إلى المسجد الحرام كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ ﴾[التوبة:٢٨]. والحج هو العبادة العمرية التي تؤدى مرة واحدة في العمر، وما زاد على ذلك فهو نافلة.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٥٢/ ح:٢٧٢٧).

(٢) رواه الشيخان، البخاري (١/ ٦٠١/ ح:٣٥٠)، ومسلم (٥/ ١٦٥/ ح:٦٨٥).

هذه هي التشريعات المتعلقة بأركان الإسلام الخمسة، والمتأملُ يجد أن التوحيد جاء في مقدمتها؛ لأن ما تلاه من الأركان قد ترتب عليه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:١١٦]، ثم تبعته الصلاة؛ لأنها العبادة اليومية، ثم كانت الزكاة الركن الثالث في الترتيب؛ لأنها ذكرت ملتصقة بالصلاة في القرآن الكريم في غالب الآيات، وجاء الصوم ركناً رابعاً؛ لأنه العبادة السنوية، ثم كان الركن الأخير الحج؛ لأنه العبادة العمرية.

كما نزلت تشريعات متنوعة ومتعددة تتعلق بالأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، تُبطل ما كان معمولاً به مخالفاً للفطرة، وتُقر بالذي يتوءم مع الفطرة البشرية السوية؛ فقد نزلت أحكام النكاح وما يتعلق به وما يترتب عليه، والطلاق والرجعة والإيلاء والظهار والحضانة.

كما نزلت التشريعات المتعلقة بحياة المسلم ووفاته؛ من أحقية التملك والتصرف في ماله بالوصية والتبرع والهبة والهدية والوقف في حياته، وتقسيم التركة وإنفاذ وصيته بعد مماته.

كما نزلت التشريعات التي تتعلق بأحكام المال، ومصارفه، والتجارات والبيوع والإجارة، وغيرها من الأحكام المتعلقة بتنمية المال الخاص والعام، كما جاءت بالنهي عن التعامل بالربا وتحريمه تحريماً أبدياً، وحثت المسلمين على تركه وعدم التعامل به، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾[البقرة:٢٧٨-٢٧٩].

كما أباحت القرض، وأرشدت إليه وحثت عليه، وشرعت الرهن وجميع أنواع المعاملات المالية التي لا يترتب عليها الضرر للفرد ولا المجتمع.

كما جاءت التشريعات بتحريم العادات الاجتماعية الجاهلية التي تضر بالفرد والمجتمع؛ كشرب الخمر، وانتهاك العرض، والزنا، وقذف المحصنات، والسرقة، وغيرها من الأحكام التي يترتب عليها صيانة المجتمع الإسلامي.

كما جاءت الشريعة بجملة من الحدود وأحكام القصاص لمن يتعدى الأحكام السابقة، تعزيزاً وضبطاً للسلوك الاجتماعي في المجتمعات الإسلامية؛ لأن النفس البشرية إذا أمنت العقوبة أساءت الأدب، وعاثت في الأرض فساداً.

تشريع الجهاد:

كان تشريع الجهاد من أول التشريعات التي نزلت بالمدينة، وقد مر تشريعه بعدة مراحل:

الأولى: الإذن بالجهاد والقتال؛ كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج:٣٩].

الثانية: الأمر بقتال من قاتل المسلمين فقط؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠].

الثالثة: قتال المشركين كافة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٩٣].

وهذه هي المرحلة التي استقر عليها التشريع، وقد تعلق بتشريع الجهاد أحكام متفرعة عنه؛ كتوزيع الغنائم والأرقاء، والتصرف في الأسرى، وغيرها من التشريعات مظانُّها كتب السنة النبوية وشروحُها، وأيضاً كتب الفقه الإسلامي، وقد ترتب على هذه التشريعات خوضُ المسلمين معاركَ وغزواتٍ دفاعاً عن أنفسهم، وفتوحات يطلبون فيها العدو في أرضه استنقاذاً للشعوب التي تعيش في قهر وطغيان، وتخرجهم في عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الظلمات إلى النور، ولكي تعلو كلمة التوحيد، وتنكس كلمة الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ:٢٨]، وجاء في الحديث الصحيح: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(١).

---

(١) رواه أحمد (٩/ ٤٧٨/ ح:٥٦٦٧)، صححه الألباني في صحيح الجامع (ح:٢٨٣١).

ولذلك قام النبي ﷺ وأصحابه بالدفاع عن أنفسهم من جانب، وبالجهاد لبلاغ هذا الدين من جانب آخر، فالجهاد وسيلة لإزالة العقبات من طريق الدعوة، ولإقامة شرائع الله عز وجل، ولبيان مراد الله عز وجل للخلق، وإقامة الحجة عليهم: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ [الكهف:٢٩]، فهو بذلك وسيلة لإرشاد العباد وهدايتهم، وليس كما يفهمه البعض أنه غاية من أجل تدمير المجتمعات، أو تعذيب الناس وإذلالهم كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾ [البقرة:٢٠٥].

ولذلك كان النبي ﷺ يأمر بعرض الإسلام أولاً على العدو، فإن أبوا، فالجِزيةُ عن يدٍ وهم صاغرون، ويعيشون في أمن داخل المجتمع الإسلامي، فإن أبوا، فالسيف بين الإسلام والكفر، ولقد عبر عن ذلك تعبيراً راقياً الصحابيُّ الجليل رِبْعِيُّ بنُ عامر(١) رداً على سؤال رستمَ(٢) القائدِ العسكري للفرس حين سأله: ما جاء بكم؟ فأجابه: اللهُ ابتعثَنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدالة الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نُفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر -النصر- لمن بقي. قال رستم: قد سمعت مقالتك فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا. قال: نعم، كم أحب إليكم يوماً أو يومين؟ قال رستم: لا حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. قال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ أن لا نمكن الأعداء من آذاننا -إذننا- ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء -الجزية- فنقبل ونكف عنك، أو المنابذة -القتال- في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك على أصحابي وعلى جميع من ترى من المسلمين.

---

(١) ربعي بن عامر صحابي جليل من أشراف العرب من بني تميم، شهد فتح القادسية ونهاوند، وولي على خراسان، وله موقف مشهود مع رستم ذكرنا جانباً منه.

(٢) قائد الفرس العسكري الشهير، قتل في معركة القادسية في سنة ١٦ هجرية.

قال رستم متعجباً: أسيدُهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضُهم من بعض يجُير أدناهم على أعلاهم(١).

ولقد تجلت سماحة التشريعات الإسلامية بعدم تجاوز ما أمرت الشريعة حتى في أثناء القتال، فلقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه عند الغزو بقواعدَ أخلاقيةٍ بقوله: «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا مَنْ كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدِروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً»(٢).

والمتأمل في هذا يعرف حقيقة جهالة وضلال الخوارج ومن شابههم في زماننا من الجماعات التكفيرية الذين يرون أن الجهاد غاية وليس وسيلة، وهذا ضلال استباحوا به دماء المسلمين بغير حق ولا علم، وإنما بهوًى وانحرافٍ وكبرٍ وإعجاب بأنفسهم، وقد صدق فيهم قول النبي ﷺ: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»(٣). عليهم من الله ما يستحقونه، وحفظَ الله الإسلام وبلاد المسلمين من شرهم وفتنتهم.

وقد ترتب على هذا التشريع الغزواتُ التي خاضها النبي ﷺ في حياته، والمعارك والفتوحات التي خاضتها الأمة من بعد وفاته ﷺ.

---

(١) الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية (٩/ ٦٢٢).

(٢) رواه مسلم (١٢/ ٣٤/ح:١٧٣١).

(٣) رواه البخاري (١٣/ ٥١٢/ح:٧٤٣٢)، ورواه مسلم (٧/ ١٤٢/ح:١٠٦٤).

غزوات النبي ﷺ

يقصد بغزوات النبي ﷺ: المعاركُ التي خاضها رسول الله ﷺ في حياته بنفسه، أو سَيَّرها للعدو، فهي غزوات التقى فيها التوحيد بالشرك، والإيمان بالكفر، والهدى بالضلال، والإسلام بالجاهلية، فجاء الحق بنصر المسلمين، وزهق الباطل بهزيمة المشركين، ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء:٨١].

ولقد كانت الغزوات النبوية منها الكبرى، ومنها الصغرى - وسنتعرض هنا إلى الغزوات الكبرى، وهي مرتبة على النحو التالي.

أولا: غزوة بدر الكبرى:

وقعت في رمضان من السنة الثانية للهجرة النبوية بين المسلمين والمشركين، وكانت أولى المعارك الحاسمة بين الحق والباطل، فرّق الله فيها بينهما، ولذا سميت بيوم الفرقان في سورة الأنفال، فهي أولى المعارك التي غيرت وجه التاريخ، وغيرت المفاهيم والمآثر والمفاخر الجاهلية إلى نور الحق والهداية والرشاد، ولقد التقى فيها الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، فلقد خالفت بينهم دعوةُ التوحيد (فريق في الجنة، وفريق في السعير)، ففصل بينهم السيف بأمر الله تعالى، وتحقق النصر فيها للعقيدة التي غرست في نفوس هذه الفئة القليلة المؤمنة. ولقد تحدثت سورة الأنفال عن تفاصيل هذه الغزوة.

لقد كان يوم بدر مولداً لدولة إسلامية استمرت لقرون طويلة، قادت العالم لأرقى مراحل التطور والتقدم الأخلاقي والعلمي، وتحقق النصر فيها لأمة الإسلام في أول غزواته مع الشرك، فهي أمة تنتصر بالإسلام وبغيره لن تنتصر(١).

فالعرب ـ كما أسلفنا من قبل ـ كانوا أمة جاهلية، تتخبط في ظلماتٍ بعضُها فوق بعض، يعيشون في فرقة وعداء، فوحدهم الإسلام بعد أن كانوا أعداء يُغير بعضُهم على بعض:

---

(١) قتل في يوم بدر من المشركين ٧٠ رجلاً من بينهم أئمة الشرك؛ كأبي جهل، وشيبة وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وأسر مثلهم، وقتل من المسلمين ١٤ رجلاً.

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[آل عمران:١٠٣]، فأصبح العرب بالإسلام قوة، ودولة وأمة عظيمة، لها مقامها في صدر الإسلام، استبدلهم الله تعالى بأمم شتى، فورثوا ملك فارس والروم، وأصبحوا سادة وهداة لسائر الأمم، وامتدت دولتهم من الصين شرقاً إلى الساحل الأوربي على المحيط الأطلسي غرباً، وسيبيريا شمالاً إلى وسط إفريقيا جنوباً.

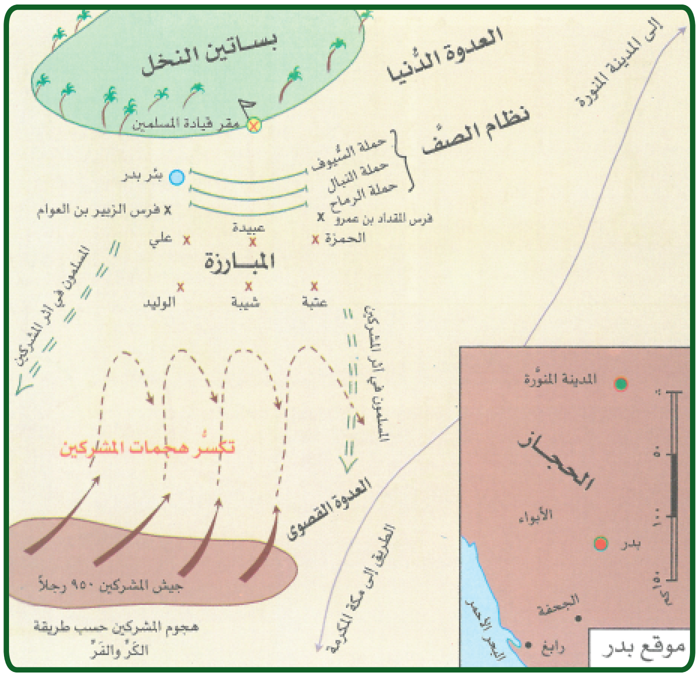
بساتين النخل
العدوة الدُّنيا
إلى المدينة المنورة
مقر قيادة المسلمين
نظام الصفّ
حملة السُّيوف
حملة النبال
حملة الرماح
بئر بدر
فرس الزبير بن العوام
فرس المقداد بن عمرو
عبيدة
علي
الحمزة
المبارزة
الوليد
شيبة
عتبة
المسلمون في إثر المشركين
المسلمون في إثر المشركين
تكسُّر هجمات المشركين
العدوة القصوى
الطريق إلى مكة المكرمة
جيش المشركين ٩٥٠ رجلاً
هجوم المشركين حسب طريقة الكَرّ والفَرّ
المدينة المنوَّرة
الحجاز
الأبواء
بدر
الجحفة
رابغ
البحر الأحمر
٠
٥٠
١٠٠
١٥٠ كم
موقع بدر

خريطة غزوة بدر الكبرى

ثانياً: غزوة أحد:

كانت غزوة أحد هي الغزوة الثانية في حياة المسلمين بعد غزوة بدر، وقعت غزوة أحد في شوال للسنة الثالثة للهجرة، وذلك عندما جاءت قريش في ثلاثة آلاف لتثأر لقتلاها في يوم بدر، فخرج إليهم النبي ﷺ في ألف، حتى إذا ما دنا من المشركين، انكشفت له حقيقة المنافقين في جيشه، فلقد قام عبد الله بن أبي بنُ سلول زعيمُ المنافقين بالانسحاب مع ثلاثمئة من شاكلته، ولم يمنع ذلك النبي ﷺ أو يثنيه عن الاستمرار لخوض المعركة ضد المشركين، فقام بتنظيم جيشه تنظيماً دقيقاً، ووضع الرماةَ منهم على جبل لحماية ظهور المسلمين، وأوصاهم أن لا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم، وعندما بدأت المعركة استطاع المسلمون أن يحققوا نصراً سريعاً حاسماً في أول الأمر، وولت قوات المشركين تاركة خلفها أموالها، هنا طغت لُعاعاتُ الدنيا على نفوس بعض الرماة الذين ظنوا أن المعركة قد انتهت، وأن عليهم أن ينافسوا إخوانهم في جمع الغنائم، فهمّوا بالنزول من الجبل، فذكَّرهم قائدُهم عبدُ الله بن جُبير ﵁ بوصية النبي ﷺ لهم، فلم ينتبهوا لذلك، فنزلوا لجمع الغنائم كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

فلمح خالد بن الوليد(١) قائدُ الفرسان في جيش المشركين هذا الأمر، فجاء بفرسانه، وواجهَ من تبقى من الرماة وهم عشرة، وقتلهم جميعاً، واستطاع أن يطعن المسلمين من الخلف بسبب هذا الخطأ الفادح الذي ترتب عليه درسٌ لا ينسى، في أن التعلق بالدنيا يقود إلى الهزيمة والضياع، ولقد تحدثت سورة آل عمران عن تفاصيل هذه الغزوة، والعبرِ والدروس المستفادة منها.

فهاهم الصحابة ﵃ يقاتلون إلى جوار النبي ﷺ، وقد نزلت الملائكة الكرام لتدعم صفوف المسلمين، فبرغم وجود هؤلاء الكرام جميعاً، وعلى رأسهم سيدُ الأولين والآخرين ﷺ نزلت المصيبة والابتلاء بالمسلمين، وذلك بسبب مخالفة أمر الله ورسوله، وتحقق النصر

---

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، صحابي جليل، أسلم في السنة السابعة للهجرة، لقبه النبي ﷺ بسيف الله المسلول، شارك في فتوحات إسلامية متعددة، وكان سبباً في فتح فارس والروم، ولم يهزم في معركة واحدة في الجاهلية أو الإسلام، توفي ﵁ سنة ٢١هـ بمدينة حمص بسوريا.

للمشركين على المسلمين في معركة أبى الله إلا أن تكون درساً وعبرة للمسلمين على مدى تاريخهم، وقد قتل يومها سبعون رجلاً من المسلمين.

والمتسائل اليوم عن تراجع الأمة الإسلامية، وما منيت به من هزائم، ومن ضياع للخلافة، ومن اعتداءات من أعدائها وطغيان عليها، نقول له: إذا كان هذا قد حدث في يوم أحد بسبب مخالفة أمر واحد من أوامر النبي ﷺ، فكم من أمرٍ اليومَ خالفت به أمة الإسلام أمرَ ربها، وأمرَ نبيها ﷺ، فاستحقت به تلك العقوبات؟! إن يوم أحد ليدعونا أن نعيد النظر فيما بيننا وبين الله تعالى، وأن نحسن ونصلح فيما بيننا وبين شريعتنا الغراء حتى نحقق ما نصبو إليه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٥٥].

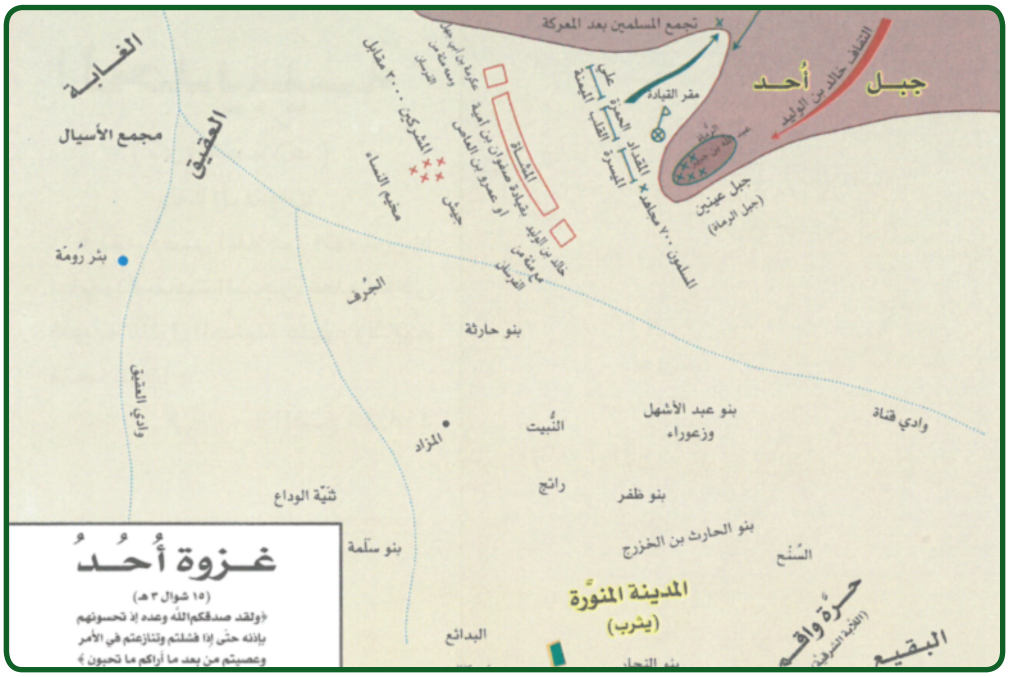
غـزوة أُحُـدُ
(١٥ شوال ٣ هـ)
﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون﴾
جبل أحد
التفاف خالد بن الوليد
تجمع المسلمين بعد المعركة
مقر القيادة
عبد الله بن جبير
الرماة
جبل عينين
(جبل الرماة)
علي
الميمنة
الحمزة
القلب
المقداد
الميسرة
المسلمون ٧٠٠ مجاهد
عكرمة بن أبي جهل ومعه مئة من الفرسان
المشاة
بقيادة صفوان بن أمية أو عمرو بن العاص
خالد بن الوليد مع مئة من الفرسان
جيش المشركين ٣٠٠٠ مقاتل
مخيم النساء
الغابة
العقيق
مجمع الأسيال
بئر رُومَة
الجُرف
بنو حارثة
وادي العقيق
المزاد
النُّبيت
بنو عبد الأشهل
وزعوراء
وادي قناة
ثنيّة الوداع
راتج
بنو ظفر
بنو الحارث بن الخزرج
السُّنح
بنو سَلِمة
المدينة المنوّرة
(يثرب)
البدائع
بنو النجار
حرّة واقم
(اللابة الشرقية)
البقيع

ثالثاً: غزوة الأحزاب - الخندق:

وقعت بعد غزوة أحد بعامين في شوال في السنة الخامسة للهجرة على أصح الأقوال، وهي الغزوة التي كانت في حقيقتها مؤامرة يهودية على المسلمين، استخدمت فيها اليهود المشركين العرب للإطاحة بالإسلام وأهله، فلقد وقعت بتخطيط من اليهود، وبتمويل منهم، وسار زعيمهم حُيِيُّ بنُ أخطبَ كالحية تنفُث سمَّها هنا وهناك حتى جمع مشركي العرب في ذلك اليوم على النبي ﷺ والمسلمين، ولم يكتف بذلك، بل ذهب يؤلب من تبقى في المدينة من بني جلدته، وهم يهود بني قريظة؛ ليفسدوا ما بينهم وبين المسلمين في المدينة، وينقضوا العهد معهم، فأجابوه لما أراد.

وقد اجتمع العرب في عشرة آلاف ذلك اليوم أمام الخندق، وبنو قريظة داخل المدينة وراء المسلمين الذين وقفوا عند الخندق حماية للمدينة ودفاعاً عنها، وقد أيقنوا أن النصر ليس بالعدد والعدة فقط، وإنما النصر من عند الله، فلم يهزَّهم عددُ المشركين وجموعُهم الغفيرة، بل زادهم ثباتاً ويقيناً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٢٢].

ولقد وصفهم الله تعالى بالرجولة في هذا الموطن، كما وصفهم بالرجولة في مواطن أخرى من القرآن الكريم⁽¹⁾: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٢٣]. لقد ظهرت رياح المؤامرة جلية واضحة عندما تحركت بنو قريظة في خيانة تامة داخل المدينة لتمدّ يد العون لمشركي العرب المجتمعين عند الخندق، فأصبح المسلمون في موقف لا يحسدون عليه.

---

(١) وصف الله تعالى الرجال في القرآن الكريم في مواطن هامة أولها: القوامة والقيادة وحسن التدبير في تسيير أمور النساء والبيوتات قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[النساء:٣٤].

وثانيها: رجال في المساجد لإقامة الذكر وأداء الصلوات في الجماعات كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[النور:٣٧]. وهم رجال يحبون الطهر والتطهر المعنوي والمادي كما قال تعالى عن المسجد النبوي: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾[التوبة:١٠٨].

والثالث: رجال في المشاهد أي في الغزوات لأنهم رجال في بيوتهم ورجال في بيوت الله فكانوا رجالاً في المشاهد وساحات القتال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[لأحزاب:٢٣]. فهم رجال في صدقهم، رجال في عهدهم، رجال في إقامة دينهم، فهكذا تكون الرجولة وعليها تربى الأجيال.

قال تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

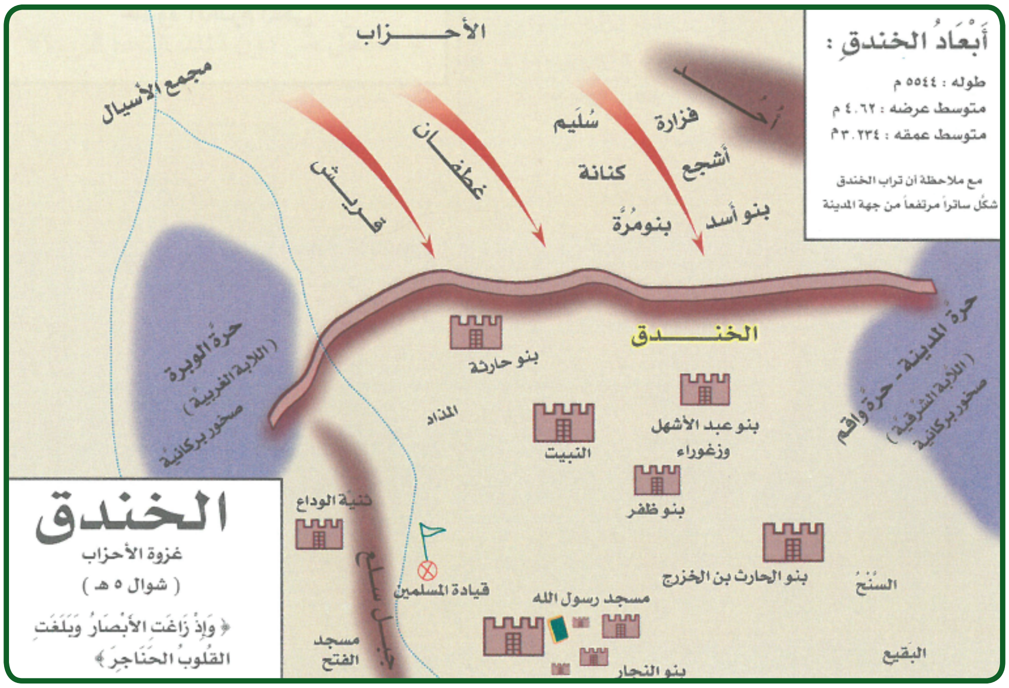
أَبْعَادُ الخندقِ :
طوله : ٥٥٤٤ م
متوسط عرضه : ٤.٦٢ م
متوسط عمقه : ٣.٢٣٤ م
مع ملاحظة أن تراب الخندق شكّل ساتراً مرتفعاً من جهة المدينة
الأحـــــزاب
مجمع الأسيال
قريش
غطفان
سُلَيم
فزارة
أُحُد
كنانة
أشجع
بنو أسد
بنومُرَّة
حرَّةُ الوبرة (اللابة الغربيَّة) صخور بركانيَّة
الخنـــــدق
بنو حارثة
المذاد
النبيت
بنو عبد الأشهل وزغوراء
حرَّةُ المدينة - حرَّةُ واقم (اللابة الشرقيَّة) صخور بركانيَّة
بنو ظفر
ثنية الوداع
قيادة المسلمين
جبل سلع
مسجد الفتح
مسجد رسول الله
بنو الحارث بن الخزرج
السُّنُح
بنو النجار
البقيع
الخندق
غزوة الأحزاب
(شوال ٥ هـ)
﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ﴾

لقد كانت هذه المعركة بحق من أخطر المعارك التي كانت في تاريخ الإسلام، ولذا قال النبي ﷺ بعدها: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»⁽¹⁾.

ولقد وصفت أم المؤمنين أمُّ سلمة رضي الله عنها هذا الموقف بقولها: كان المسلمون مثل الحرجة -الشجرة الصغيرة الملتفة عليها الأشجار من كل جانب- وأن قريظة لا نأمنها على الذراري⁽²⁾.

ثم اجتمع على المسلمين أمر ثالث، وهو انسحاب المنافقين من صفوف الجيش معتذرين بأعذار واهية كما وصفهم الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾[الأحزاب:١٢-١٣].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٠٥/ ح:٤١٠٩).

(٢) الواقدي/ المغازي (٢/ ٤٦٦).

كان ذلك حكمة إلهية ليميز الله الخبيث من الطيّب، ويظهر حقيقة الرجال في مثل هذه المواقف، فقد ثبتت تلك الصفوة المختارة من الصحابة الكرام مع رسولها ﷺ أمام تلك النوازل والمحن والأهوال التي تنخلع لها القلوب، وثبتهم الله تعالى حتى جاءهم نصره عندما ثبتوا وصبروا واستغاثوا بالله تعالى، وأيقنوا أن النصر من عنده سبحانه بعد أن بذلوا له الأسباب، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[يوسف:١١٠].

فجاءهم نصر الله بأن أوقع الخلاف والمخاصمة والمنازعة والشقاق بين الأحزاب من جانب، وبريح أرسلها على المشركين من جانب آخر أطفأت نارَهم، وخلعت خيامَهم، وردمت قدورهم، فقفلوا راجعين، وردهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً.

ولقد تحدثت سورة الأحزاب عن تفاصيل هذه الغزوة الفاصلة.

رابعاً: صلح الحديبية:

هو عقد ومعاهدة تمت في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة بين النبي ﷺ وبين مشركي قريش، بسبب أن قريشاً منعتهم من أداء العمرة، ولقد تم عقد هذا الصلح بعد مفاوضات طويلة بين الطرفين.

ويعد هذا الصلح أول اعتراف رسمي من قريش بقوة المسلمين في جزيرة العرب، ولقد ترتب عليه نتائج عظيمة أدت إلى فتح مكة، حتى إن الله تعالى وصفه بأنه فتح مبين؛ فلقد نزلت سورة الفتح على النبي ﷺ وهو عائد إلى المدينة بعد عقدِ هذا الصلح، وكان صدرها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح:١-٣]، فأرسل النبي ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها، فقال: يا رسول الله أَوَفتحٌ هو؟ قال: نعم⁽¹⁾.

ولقد بوب البخاري في صحيحه باباً بعنوان «باب غزوة الحديبية»⁽²⁾؛ لأهمية هذا الصلح، والنتائج المترتبة عليه، كما روى عن البراء بن عازب ﵁ قال: تعدون أنتم الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرضوان يومَ الحديبية⁽³⁾.

ولقد بين الله تعالى بسببه الرضا على أصحاب النبي ﷺ، وعلى رأسهم السادة الأربعة الخلفاء: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﵃، وعن بقية من كانوا معه، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨]، فمن شك أن الله تعالى يلعن هؤلاء، أو يعذبهم، أو أنهم خانوا النبيَّ ﷺ بعد وفاته، فقد نفى العلمَ عن الله تعالى، فكيف يرضى سبحانه عن قوم خانوا الله ورسوله بعد وفاة النبي ﷺ كما يزعم هؤلاء؟! هذا تطاولٌ على الذات الإلهية، وعلى كلام ربِّ البرية.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٦٤/ ح:٤١٧٧).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٥٤٩/ ح:٤١٥٠).

ومن نتائج صلح الحديبية المباركة: ما ذكره الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» حيث قال عن الحديبية: **كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين؛ لما ترتب على الصلح الذي وقع منه الأمن، ورفع الحرب، وتمكن من يخشى الدخولَ في الإسلام والوصولَ للمدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد، وعمرِو بنِ العاص، وغيرهما، ثم بعثت الأسباب بعضها بعضاً إلى أن كمل الفتح.ا.هـ**(١).

ولقد كان من أعظم ما ترتب عليه الفتحُ أن أمن الناسُ بعضُهم بعضاً، وتواصلوا فيما بينهم حتى دخل في الإسلام خلال العامين فيما بين الصلح وفتح مكة مثلُ ما كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، وأدلُّ الدليل عليه: أن النبي ﷺ جاء للحديبية في ألف وأربعمئة من أصحابه، ثم عاد لفتح مكة في السنة الثامنة في عشرة آلاف من أصحابه.

وكان مما ترتب عليه أيضاً: دعوةُ ملوكِ وأمراء العرب والروم وفارس إلى الإسلام، والتفرغُ للخطر اليهودي المتجمع في خيبر، كما أن هذا الصلح كان حماية للمسلمين في ظهورهم عند ملاقاتهم اليهودَ يومَ خيبر، والرومَ يومَ مؤتة.

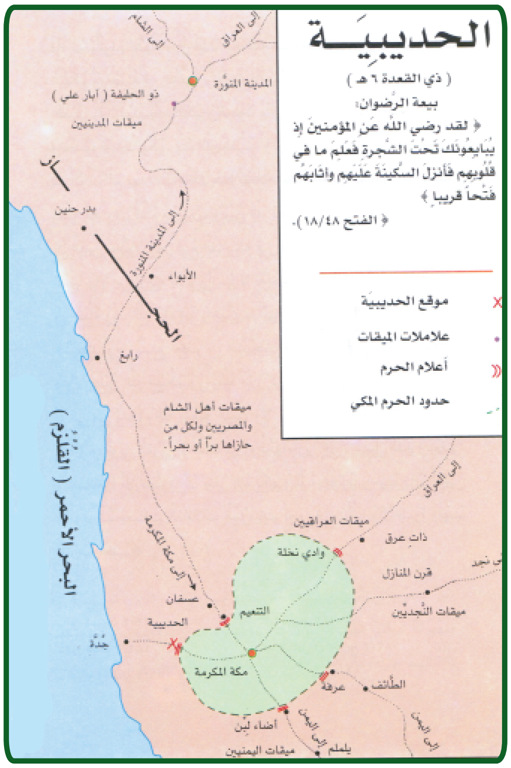
الحديبيَـــة
(ذي القعدة ٦ هـ)
بيعة الرضوان:
﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾
﴿ الفتح ٤٨/ ١٨﴾.
موقع الحديبية
علاملات الميقات
أعلام الحرم
حدود الحرم المكي
إلى الشام
إلى العراق
المدينة المنورة
ذو الحليفة (آبار علي)
ميقات المدنيين
بدر حنين
إلى المدينة المنورة
الأبواء
رابغ
ميقات أهل الشام والمصريين ولكل من حازاها براً أو بحراً.
البحر الأحمر (القلزم)
إلى مكة المكرمة
عسفان
التنعيم
الحديبية
جدة
مكة المكرمة
ميقات العراقيين
ذات عرق
وادي نخلة
قرن المنازل
إلى نجد
ميقات النجديين
إلى العراق
عرفة
الطائف
أضاء لبن
إلى اليمن
يلملم
ميقات اليمنيين
إلى اليمن

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧/ ٥٥٠).

خامساً: غزوة مؤتة:

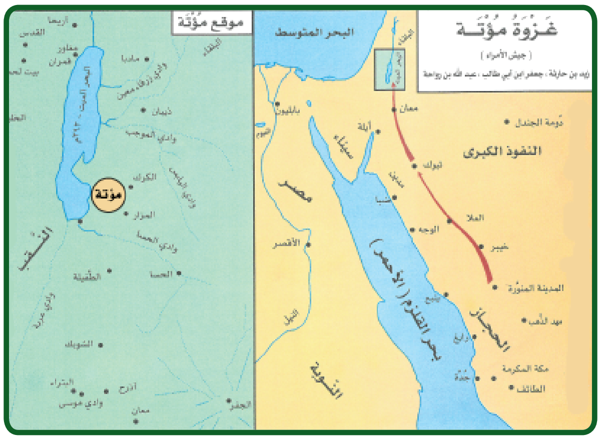
غَـزْوَةُ مُؤْتَــة
(جيش الأمراء)
زيد بن حارثة ، جعفر ابن أبي طالب ، عبد الله بن رواحة
البحر المتوسط
موقع مُؤْتَة
مؤتة
البحر الميت
أريحا
القدس
معاور
قمران
بيت لحم
مادبا
ذيبان
وادي الموجب
الكرك
المزار
وادي الحسا
الحسا
الطفيلة
الشوبك
البتراء
أذرح
وادي موسى
معان
الجفر
النقب
وادي عربة
بابليون
معان
أيلة
دومة الجندل
النفوذ الكبرى
سيناء
تبوك
مصر
العلا
الوجه
خيبر
الأقصر
بحر القلزم (الأحمر)
المدينة المنورة
ينبع
مهد الذهب
الحجاز
رابغ
النيل
مكة المكرمة
جدة
الطائف
النوبة

وقعت في جمادى الأولى في السنة الثامنة للهجرة، وتعتبر من أعظم الحروب الدامية التي خاضها المسلمون في حياة النبي ﷺ، وهي أولى الغزوات مع النصارى.

وكان سبب هذه المعركة هو تعدي العرب الغساسنة النصارى بإقدامهم على قتل رسول النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي، وهو عمل عدواني لا تعرفه العرب؛ إذ أن الرسُل لا تُقتل، فأرسل النبي ﷺ ثلاثة آلاف من أصحابه لحرب نصارى الشام وحلفائهم الروم ثأراً للحارث رضي الله عنه.

فدارت رحى معركة بين ثلاثة آلاف من المسلمين، وأكثرَ من مئتي ألف من النصارى العرب والروم، واستمرت لأيام، ولم تنته إلا بقتل عدد كبير من النصارى وقتل القادة الثلاثة لجيش المسلمين: زيدِ بن حارثة، وجعفرِ بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، ثم تولى خالدُ بن الوليد قيادة الجيش، واستطاع أن يرجع بالجيش دون خسائر كبيرة؛ مما أذهل قادة الروم والغساسنة الذين ظنوا أن قوتهم المادية تستطيع إنهاء المعركة خلال ساعة، ولكنها استمرت لستة أيام، ولم يتحقق لهم ما أرادوا بفضلٍ من الله تعالى الذي جعل كيدَهم في نحورهم، وردَّهم لم ينالوا خيراً بعدَ أن أصاب المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وعلى رأسهم قائدُ العرب المتنصرة مالكُ بنُ رافلةَ، وكان ذلك في أول لقاء بين المسلمين وبين نصارى الشام والروم.

وكان من نتائج هذه المعركة أثر كبير لرفع مكانة المسلمين عند عرب الجزيرة الذين لم يألفوا مواجهة الروم قط، كما يؤكد أن المسلمين مؤيدون ومنصورون من عند الله؛ مما حدا ببعض القبائل أن تُسلم؛ كبني سُليم، وأشجع، وغَطَفان، وذُبيان، وفَزارة، وغيرهم.

سادساً: فتح مكة:

وقع فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وهو خاتمة المعارك بين المسلمين ومشركي قريش الذين عاندوا وحاربوا وكادوا للإسلام وأهله، ولقد جعله الله نصراً مبيناً، وهو تحقيق لوعد الله لنبيه ﷺ عند هجرته إلى المدينة عندما تأثر وبكى النبي ﷺ لفراقه مكة، فأنزلت عليه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص:٨٥].

وكان هذا الفتح واحداً من أهم النتائج التي ترتبت على صلح الحديبية الذي نقضته قريش وحلفاؤها من قبيلة بكر باعتدائهم على قبيلة خزاعةَ حلفاءِ النبي ﷺ؛ مما اضطر عمرَو بنَ سالم الخزاعي أن يستنجد برسول الله ﷺ حليفِه في صلح الحديبية، فجاء النبي ﷺ في عشرة آلاف من أصحابه أمرَهم أن لا يقاتلوا في البلد الحرام إلا إذا قوتلوا.

قال ابن قيم الجوزية: وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣].

وبهذا الفتح طويت صفحة الصراع بين المسلمين وبين مشركي قريش، ودخلت قريش في دين الله تعالى مستسلمة لربها، موحِّدةً له نابذةً للشرك وأهله.

---

[1] زاد المعاد (٣/ ٣١٢).

هدم الطواغيت والأوثان:

إن من أعظم ما ترتب على فتح مكة هو: هدم الأصنام والأوثان التي كانت تُعبد من دون الله في مكة وما حولَها، فلقد قام رسول الله ﷺ بنفسه بهدم ثلاثمئة وستين صنماً كانت منصبة حول الكعبة، وهو يكبر ويقول: جاء الحقُّ وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

ولقد بعث النبي ﷺ خالدَ بن الوليد لهدم العزى، وهي أعظم أصنام قريش، فهدمها، كما بعث عمرَو بنَ العاص إلى صنم سُواع ليهدمه، فهدمه، كما بعث سعدَ بن زيدٍ الأشهليَّ إلى صنم مَناةَ، فهدمه.

فكان فتح مكة فتحاً عظيماً، قضى على كيان الوثنية بها، وسمعت كل الجزيرة به، فكان توطئة لدخول عرب الجزيرة في الإسلام بعد ذلك، وتحقق به سيطرةُ الإسلام في جزيرة العرب، فلم يبق لأقوام العرب في جزيرتهم سوى الوفود على النبي ﷺ لمبايعته على الإسلام، فجاءت إليه وفودُ القبائل، وعلى رأسها وفدُ البحرين؛ ليسلموا بين يديه ﷺ كما سيأتي. فتغير مجرى الأيام، وتحولت به أجواء العرب، واستنقذهم الله به من نار جهنم.

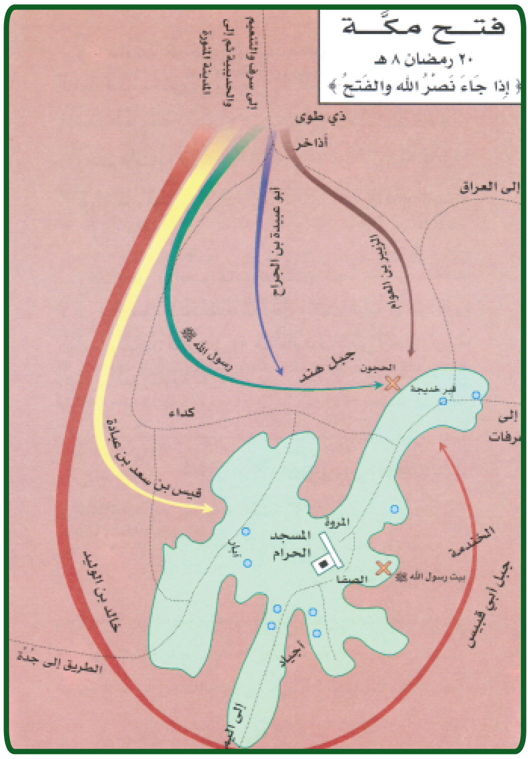
فتح مكة
٢٠ رمضان ٨ هـ
﴿ إذا جاء نصرُ الله والفتح ﴾
ذي طوى
أذاخر
إلى العراق
أبو عبيدة بن الجراح
الزبير بن العوام
رسول الله ﷺ
جبل هند
الحجون
قبر خديجة
كداء
إلى عرفات
قيس بن سعد بن عبادة
المروة
المسجد الحرام
الصفا
بيت رسول الله ﷺ
الخندمة
جبل أبي قبيس
خالد بن الوليد
أجياد
الطريق إلى جدة

سابعاً: غزوة حنين:

وقعت في شوال في السنة الثامنة للهجرة ـ بعد فتح مكة ـ بين المسلمين وبين هوازن وثقيف، خرج إليهم رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفاً لأول مرة، حتى إن البعض اغترَّ بذلك وقال: لن نغلَب اليوم من قلَّة، فأصاب المشركون من المسلمين في أول المعركة، حتى تدارك الله الناسَ بلطفه سبحانه، وألهمَ نبيه ﷺ إدراكَ الموقف، ونظم صفوف الجيش، فتحقق النصر المبين، وغنم النبي ﷺ غنائم لم تغنمها العرب قبلُ قط(١)، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[التوبة:٢٥-٢٦].

وفي ذلك درس وعبرة وعظة أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي لتحقيق النصر، وأن الاعتماد عليها دون الاهتمام بالقوة المعنوية يؤدي إلى الهزائم والنكبات، وعلى الأجيال أن لا تغتر، وأن تعتمد على القوة المادية فقط، بل إن عليهم أن يستعدوا استعداداً تربوياً ومعنوياً قبل المادي إنْ هم أرادوا النصر:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[الأنفال:٦٠].

وترتب على هذا النصر أن تقدم النبي ﷺ وحاصر الطائفَ ليُخرج فلولَ هوازنَ وثقيفٍ الفارة إليها والمتحصنين بها، ودعا النبي ﷺ ربه قائلاً: اللهم اهدِ ثقيفاً، ورفع عنهم الحصار، فأتى وفد من هوازن ليسلم بين يدي النبي ﷺ.

ثم أهلّ النبي ﷺ من الجعرانة بعمرة، فأداها في ذي القعدة، وقفل راجعاً إلى المدينة مسبحاً حامداً ربه سبحانه أن هدى الله على يديه هذه الأقوام، واستنقذهم من النار.

ثامناً: غزوة تبوك:

آخر غزوات النبي ﷺ، وخرج فيها إلى الروم والغساسنة الذين قرروا الاعتداء على

---

(١) كانت غنائم حنين من السبي ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوقية فضة. الرحيق المختوم(ص:٤٢٠).

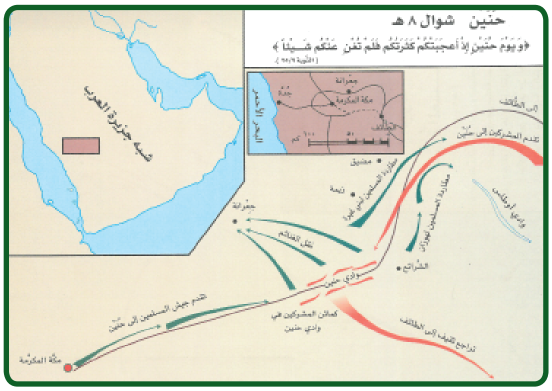
حنين شوال ٨ هـ
﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا﴾
(التوبة ٩/٢٥)
شبه جزيرة العرب
البحر الأحمر
جعرانة
جدة
مكة المكرمة
الطائف
إلى الطائف
تقدم المشركين إلى حنين
مضيق
الشرائع
وادي حنين
كمائن المشركين في وادي حنين
تقدم جيش المسلمين إلى حنين
تراجع ثقيف إلى الطائف
مكة المكرمة

المدينة في السنة التاسعة للهجرة، فباغتهم النبي ﷺ بالخروج إليهم في ثلاثين ألفاً من أصحابه، ولأول مرة يجتمع إليه هذا العدد، وقد اجتمع له مئتان وأربعون ألفاً بتبوك قذف الله في قلوبهم الرعب فلم يجرؤوا على التقدم واللقاء، وتفرقوا يمنة ويسرة داخل حدودهم، وكفى الله المؤمنين القتال؛ مما رفع من مكانة النبي ﷺ والمسلمين، فلقد جاءهم قادة العرب من أيلة وجرباء وأذرح ليصالحوا النبي ﷺ، وأعطوه الجزية، كما صالح النبي ﷺ كبير دومة الجندل، وأيقنت القبائل التي حالفت الروم أن المصير للإسلام، وأن عليها إن عاجلاً أو آجلاً أن تنصره.

ورجع النبي ﷺ من آخر غزواته فرحاً بنصر الله تعالى وتأييده له بعد أن قضى هذا العمر داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

ولقد تحدثت سورة براءة -التوبة- حول موضوع الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين، وقبول التوبة من المسلمين الذين خرجوا مع النبي ﷺ، والمتخلفين الذين تأخروا عنه.

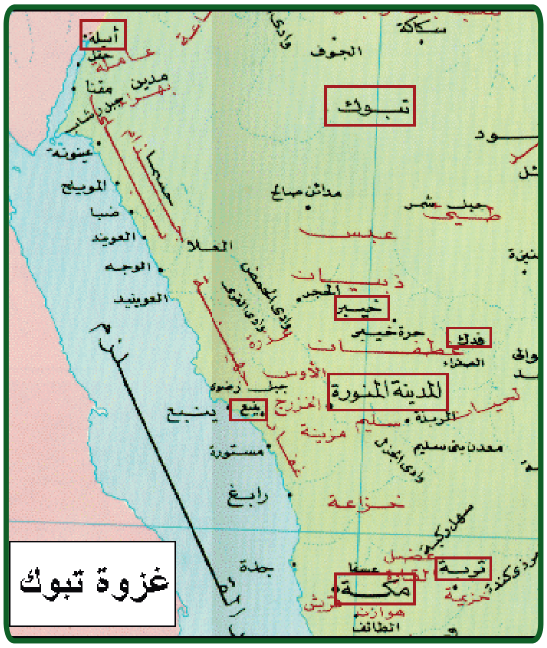
أيلة
مدين
مقنا
عيونة
المويلح
ضبا
العويند
الوجه
العوينيد
الجوف
سكاكة
تبوك
مدائن صالح
العلا
عبس
طيء
الحجر
خيبر
فدك
المدينة المنورة
الأوس
الخزرج
جبل رضوى
ينبع
سليم
مزينة
مستورة
رابغ
خزاعة
جدة
تربة
مكة
عسفان
هوازن
الطائف
غزوة تبوك

غزوات النبي ﷺ لليهود

اليهود قوم بُهْت، لا يتركون فرصة منذ أن كان الإسلام إلا ويحاولون القضاء عليه وعلى نبيه ﷺ، وقد واجههم رسول الله ﷺ حتى قضى على بقائهم في المدينة، فكانت غزواته معهم كالتالي:

أولاً: غزوة بني قينقاع:

وقعت بعد بدر الكبرى، وذلك بسبب صفات اليهود التي ملؤوا بها تاريخهم؛ كالغدر والخيانة ونكث العهود، وقد أغاظ نصر بدر اليهود عموماً، وبني قينقاع منهم خصوصاً، الذين جاهروا بالبغي والأذى، فجمعهم النبي ﷺ ووعظهم ودعاهم إلى الإسلام، وحذرهم البغي والعدوان قائلاً: «يا معشر يهود! أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلَّغت يا أبا القاسم، فقال لهم: «أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم: «ذلك أريد»، ثم قالها الثالثة: «اعلموا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله»(١).

سبب الغزوة: روى ابن هشام: أنه قام بعض يهود بني قينقاع بالاعتداء على امرأة مسلمة في السوق جلست إلى صائغ تشتري، فراودها عن كشف وجهها فأبت، فغافلوها وعقدوا طرف ثوبها عقدة إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتُها، فضحكوا بها فصاحت(٢)، فقام رجل من المسلمين فقتل الصائغ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاصطرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع. فبلغ الخبر النبيَّ ﷺ، فأعد العدة مع أصحابه، وخرج إلى يهود بني قينقاع الذين تحصنوا بحصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ في شوال في السنة الثانية للهجرة لمدة خمس عشرة ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ والذي أجلاهم عن المدينة إلى أذرعات الشام، بعد أن تدخل رأس المنافقين عبد الله بن أبي بنُ سلول في الأمر، وقد هلك هناك الكثير منهم(٣).

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٥٨٢/ ح:٣٠٠٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) إن المسلم ليعجب في زماننا لهذا الأمر العظيم عندما يرى حال نساء المسلمين وما بلغته المرأة العربية من التعري والثياب الفاضحة في جرأة وتعد على شريعة الله ومبارزته سبحانه بالمعصية في زمان استنوقت فيه الإبل، وبين ما كان عليه المسلمون الاوائل من حشمة ووقار وغيرة على الأعراض.

(٣) السيرة النبوية (٣/ ٩).

ثانياً: غزوة بني النضير:

كانت هذه الغزوة في ربيع الأول للسنة الرابعة للهجرة، ولأهميتها أنزل الله سورة كاملة في القرآن الكريم هي سورة الحشر التي كان يقول عنها ابنُ عباس: سورة النضير.

وسبب هذه الغزوة: أن يهود بني النضير حاولوا قتل النبي ﷺ وهو جالس عندهم، فأمرهم النبي ﷺ أن لا يساكنوه في المدينة بعد غدرهم به، وأمهلهم عشرة أيام، وهنا بدأ دور المنافقين؛ فقد مَنَّاهم عبد الله بن أبي بنُ سلولَ بأنه إلى جوارهم، وعليهم أن لا يخرجوا، وأنه سيدخل إلى حصنهم مع رجاله ليبقوا معه قائلاً لهم: ﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر:١١].

وكما قال تعالى، فإن اليهود أبوا أن يخرجوا من ديارهم طامعين فيما مناهم به رأس المنافقين، فخرج إليهم النبي ﷺ، وفرض عليهم الحصار، فلما اشتد عليهم الحصار، لم ينصرهم أحد، وقد خانهم عبد الله بن أبي بنُ سلول: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر:١٦]. فخانهم وغدر بهم بعد أن منّاهم، قال تعالى تصديقاً لذلك: ﴿ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [الحشر:١٢-١٣].

ولما اشتد الحصار على بني النضير، أرسلوا إلى النبي ﷺ للخروج من المدينة، فوافقهم النبي ﷺ أن يخرجوا بأنفسهم وذراريهم وما حملت الإبلُ إلا السلاحَ، فخربوا بيوتهم بأيديهم، وحملوا النساء والصبيان وخرجوا على ستمئة بعير، بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام، وورث المسلمون أرضهم وديارهم وأموالهم، وكفى الله المؤمنين القتال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر:٢-٣].

ثالثاً: غزوة بني قريظة:

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة في السنة الخامسة للهجرة؛ إتماماً لغزوة الأحزاب، وقصاصاً من بني قريظة الذين خانوا العهد مع النبي ﷺ في أحرج المواقف، وأصبحوا شوكة في ظهره في المدينة، فأمره الله تعالى أن يخرج إليهم، فحاصرهم رسول الله ﷺ، فلما اشتد عليهم الحصار، طلبوا من النبي ﷺ أن يُنزلهم على حكم حليفهم السابق سعدِ ابنِ معاذ ﵁، وكانوا يأملون أن يلحقهم حكمه بإخوانهم اليهود من بني قينقاع وبني النضير الذين أجلوا عن المدينة، فقام سعد بعد أن أعطاه النبي ﷺ حق إصدار الحكم، فحكم بقتل الرجال، وسبي الذراري والنساء، وتقسيم الأموال، فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله(١).

فأمر النبي ﷺ بتنفيذ حكم سعد، فضُربت أعناق رجالهم، وقُسمت أموالهم ونساؤهم وذراريهم، وذلك جزاء الخيانة والغدر.

رابعاً: غزوة خيبر:

وقعت في محرم سنة سبع للهجرة، وهي واحدة من آثار وخيرات صلح الحديبية؛ إذ أن النبي ﷺ تفرغ لتصفية حسابه مع اليهود الذين ألَّبُوا قبائل العرب عليه في يوم الخندق، فلقد كانت خيبر مركزاً للدسائس والمؤامرات وإثارة الحروب.

وتعتبر هذه المعركة من أهم المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، بل هي أطول معركة خاضها المسلمون في عهد النبي ﷺ، وهي المعركة التي أنهت الوجود الفعلي لليهود في جزيرة العرب، وترتب عليها استسلامُ بقية المقاومة اليهودية في فدك ووداي القرى وتيماء.

خرج إليهم النبي ﷺ ليحقق موعود الله له: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾[الفتح:٢٠]. يعني: صلح الحديبية، والمغانم الكثيرة: خيبر.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧/ ٥١٣/ ح:٤١٢١)، مسلم (١٢/ ٧٩/ ح:١٧٦٨).

ولقد ظهر في هذه الغزوة دور للمنافقين مرة أخرى، فلقد اتصلوا باليهود في خيبر، وأخبروهم بمسير النبي ﷺ إليهم، فبدأت اليهود تستعد، وتستعين بمشركي العرب ممن حولهم بالوقوف إلى جوارها، ووصل النبي ﷺ إلى خيبر، وكان قد وصلها في الليل، فلما أصبح، ورآه اليهود، فقالوا: محمد والله، محمد والخميس -الجيش-، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خرَبْت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساءَ صباحُ المنذَرين»(١).

وكانت خيبر ثمانية حصون، حاصرها النبي ﷺ، ووقعت المقتلة، وتحقق النصر، ففتح الحصن الأول، ثم الثاني، ثم سقطت القلاع والحصون واحداً تلو الآخر، ولقد ظهرت خلال هذه المعركة نماذجُ نادرةٌ في صدق الجهاد والإخلاص لله من الصحابة الكرام.

عن شداد بن الهادْ: أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ، فآمن به واتبعه، فقال: أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئاً، فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء الأعرابي، دفعوا إليه قسمه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمٌ قسمه لك رسولُ الله ﷺ، فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا يارسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك». قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا -وأشار إلى حلقه- بسهم، فأموت فأدخل الجنة.

فقال النبي ﷺ: «إنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْك»، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ وهو مقتول. فقال ﷺ: «هو، هو؟» قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه». فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه فصلى عليه، وكان من دعائه له: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك قُتل شهيداً وأنا عليه شهيد»(٢).

وقد أُهدي للنبي ﷺ شاة مسمومة، فعن أبي هريرة ﵁ قال: لما فُتحت خيبر، أُهديت للنبي ﷺ شاة فيها سمّ، فقال النبي ﷺ: «اجمعوا لي من كان هاهنا من يهود»، فجمعوا له، فقال: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ عنه؟» فقالوا: نعم.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧/ ٥٨٣/ ح:٤١٩٨)، مسلم(١٢/ ١٣٨/ ح:١٣٦٥).

(٢) رواه النسائي (٢/ ٤٢٠/ ح:١٨٤٥).

قال لهم النبي ﷺ: «من أبوكم؟»، قالوا: فلان، فقال: «كذبتم، بل أبوكم فلان»، قالوا: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «من أهل النار؟» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله! لا نخلفكم فيها أبداً»، ثم قال: «هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟» قالوا: نعم، قال: «ما حملكم على ذلك؟» قالوا: إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك⁽¹⁾.

وقد صالح النبي ﷺ اليهود، وأعطاهم خيبر يزرعونها ولهم نصفُ ما يخرج منها، ولقد اشتملت غزوة خيبر على أحكام كثيرة، منها:

١. جواز قتال الكفار في الأشهر الحرم.

٢. الإغارة على من بلغته الدعوة بغير إنذار.

٣. تحريم لحوم الحمر الأهلية.

٤. تحريم نكاح المتعة.

٥. الإمام مخير في الأرض التي يفتحها عنوةً بين أن يقسمها، أو يتركها.

٦. جواز الأكل من طعام أهل الكتاب، وقبول هديتهم⁽²⁾.

وكانت هذه الغزوة آخر غزوات النبي ﷺ مع اليهود الذين كانوا وما زالوا وسيظلون أهلاً لكل غدر وخيانة، حتى يخرج سبعون ألفاً منهم من يهود أصفهان عليهم الطيالس السود مع المسيح الدجال يقاتلون محمدَ بنَ عبد الله المهديَّ والمسلمين، فينزل لهم عيسى ابن مريم عليه السلام ليقتل مسيحَهم الدجال، ويقتلهم جميعاً؛ مصداقاً لما جاء في السنة النبوية الصحيحة.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٢٧/ح:٣١٦٩)، وأيضاً (ح:٤٢٤٩-٥٧٧٧).

(٢) للاستزادة يراجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المجلد السابع.

لقد كانت غزوات النبي ﷺ الكبرى والصغرى، والسرايا والبعوث ـ مما ذكرناه، وما لم نذكره ـ مسيرة عظيمة لنبي أرسله ربه رحمة للعالمين، رفع السيف حرصاً على هداية الناس، وليس من أجل إراقة دمائهم، رفعَ السيفَ لإزالة العوائق التي تقف في وجه الدعوة، رفع السيف لإزالة الطواغيت الذين أرادوا أن يُعبدوا من دون الله تعالى، فجزاه الله خيراً عمن استنقذه من براثن الشرك.

ولقد أيقنت العرب في الجزيرة أنه مرسَل ومؤيَّد من الله تعالى، لذا وفدت إليه الوفود لتُسلِم بين يديه ﷺ.

رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، وقدومُ وفودهم إلى النبي ﷺ

لما هادن النبي ﷺ قريشاً يوم الحديبية، كتب إلى الملوك والأمراء من العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام، ومن هؤلاء: قيصر الروم هرقل، والمقوقس ملك مصر، ونجاشي الحبشة، وكسرى فارس، وقد تعامل هؤلاء مع الرسل ورسائل النبي ﷺ جميعاً بأدب سوى كسرى فارس، الذي قام بتمزيق كتاب رسول الله ﷺ له متغطرساً في قوله، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك، دعا عليه أن يمزق كل ممزق.

بل إن كسرى لم يكتف بتطاوله على رسالة النبي ﷺ، وإنما أرسل إلى عامله على اليمن باذان أن يرسل رجلين إلى النبي ﷺ ويأخذه إلى كسرى في المدائن، فأرسل باذان رجلين إلى النبي ﷺ. فلما جاء الرجلان بكتاب باذان، إلى النبي ﷺ، أخرهما النبي ﷺ إلى الغد، فلما أتيا إليه في الصباح، قال لهما: اذهبا إلى باذان، وقولا له: إن ربي قتل ربه بالأمس، وقولا: إن ديني سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، فإن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك.

وكان الوحي قد جاء إلى النبي ﷺ يخبره أن ابن كسرى قام على أبيه وقتله، فلما بلغ الخبر باذان مع صاحبيه، تعجب، وانتظر، فإذا بالخبر يأتيه بأن شيرويه بن كسرى قد قام بقتل أبيه، فكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومَنْ معه من الفرس في اليمن⁽١⁾.

وأرسل النبي ﷺ إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة من أرض نجد يدعوه إلى الإسلام، كما أرسل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، وكتب كتاباً إلى جيفر بن الجلندي ملكِ عمان وأخيه عبدٍ الجلندي، وأرسل كتاباً إلى المنذر بن ساوي ملك البحرين.

---

(١) القصة بتمامها رواها الحافظ ابن كثير بالبداية والنهاية / ٤٨٥ إلى ٤٩١/ ٦، وكذلك رواها الحافظ ابن حجر بفتح الباري بشرح صحيح البخاري / باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى (ح:٤١٦٢).

كتاب النبي ﷺ إلى أهل البحرين:

كتب النبي ﷺ كتاباً إلى المنذر بن ساوي التميمي يدعوه إلى الإسلام، وكان رجلاً نصرانياً، وبعث إليه الكتاب مع العلاء بن الحضرمي يدعوه إلى الإسلام.

فأكرم المنذر العلاء بن الحضرمي، وأسلم، ودعا الناس إلى الإسلام، وبعث إلى النبي ﷺ كتاباً جاء فيه:

أما بعد: يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحْدِث إلي في ذلك أمرك والسلام.

فكتب إليه النبي ﷺ كتاباً جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإني أذكرك الله عز وجل؛ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبعْ أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفَّعتك في قومك، فاتركْ للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية.

فدخل بذلك أهل البحرين في الإسلام مستجيبين لله ورسوله إذا دعاهم لما يحيهم، ولقد وفدت على النبي ﷺ وفودهم بعد ذلك مع الوفود التي أتت من بلاد العرب، وقد زاد عددها سبعين وفداً، وكان أشهرَها وفدُ البحرين.

وفد البحرين من بني عبد القيس:

وفد على النبي ﷺ وفدان من قبيلة عبد القيس ما بين السنة الخامسة إلى السنة التاسعة كما قال الحافظ ابنُ حجر في الفتح، وقد جاءت قصة الوفدين في جمع من كتب السنة الصحيحة، ومن ذلك: الصحيحان للبخاري ومسلم، وعند الإمام أحمد في مسنده، وفي سنن البيهقي، ومسند أبي داود الطيالسي، وابن حبان، وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية.

وسوف أسوق القصة من خلال مروياتهم مجتمعة:

الوفد الأول:

كان وفداً تجارياً يزور المدينة، وكان هذا الوفد قبل فتح مكة في سنة خمس أو قبلها، وكان من بين الوفد رجل من عبد القيس يدعى: المنقذ بن حيان، وأسلم بين يدي النبي ﷺ، ودفع إليه رسول الله ﷺ كتاباً إلى قومه فأسلموا، فوفد إليه وفدٌ مع كبيرهم أشجِّ عبدِ القيس⁽¹⁾.

وروى الحافظ ابن حجر في الإصابة: أن الأشجَّ كان صديقاً لراهبٍ نصراني بدارين بالبحرين، فكان يلقاه في كل عام، فلقيه مرة بقرية يقال لها: الزارة، فأخبر الأشجَّ أن نبياً يخرج بمكة يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه علامة، يظهره الله على الأديان.

ثم مات الراهب، فبعث الأشجُّ ابنَ أختٍ له من بني عامر يقال له: عمرو بن عبد القيس زوج ابنته أمامةَ بنتِ الأشجّ، وبعث معه تمراً ليبيعه وملاحف، فأتى مكةَ العام الذي هاجر فيه النبي ﷺ، فلقي النبيَّ ﷺ ، وثبت لديه صحة العلامات التي قالها الراهب لخاله، فأسلم، وعلمه الفاتحة والعَلَق، ثم قال له: ادعوا خالك إلى الإسلام، فلما رجع إلى منزله، دعا امرأته إلى الإسلام، فخرجت لأبيها وقالت له: إن زوجي صبأ، فانتهرها الأشج، وسمع من ابن اخته، فأسلم وكتم ذلك حيناً، ثم خرج في ستة عشر رجلاً من أهل هجر حتى أتى النبي ﷺ في الليلة التي قدموا في صباحها.

---

(١) اختلف في اسمه، وأكثر ما يقال: عبد الله بن عوف أو المنذر بن عائذ بن عوف من بني عبد القيس، قربه النبي ﷺ منه يوم وفد عليه الوفد، وكان الأشج يسأله عن الفقه والقرآن، ويأتي أبي بن كعب فيقرأ عليه القرآن، عاش بالبحرين، ثم نزل إلى البصرة بعد ذلك وأقام بها حتى توفي رضي الله عنه.

بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال لهم: **سيطلع من هاهنا ركبٌ هم خيرُ أهل المشرق**، فقام عمر فتوجه نحوهم، فتلقى ثلاثة عشر راكباً، فقال: من القوم؟ فقالوا: من بني عبد القيس، قال: فما أقدَمكم هذه البلاد – التجارة؟، قالوا: لا، قال: أما إن النبي ﷺ قد ذكركم آنفاً، فقال خيراً، ثم مشوا معه حتى أتوا النبيَّ ﷺ، فقال عمر للقوم: وهذا صاحبكم الذي تريدون، فلما رأى القوم النبي ﷺ، رموا بأنفسهم عن ركائبهم، فمنهم من مشى، ومنهم من هرول، ومنهم من سعى حتى أتوا النبيَّ ﷺ، فأخذوا بيده فقبلوها.

ثم نزل الأشجُّ كبيرُهم، فعقلَ راحلته، وأخرج عَيبته(١) ففتحها، فأخرج ثوبين أبيضين من ثيابه فلبسهما، ثم أتى رواحلهم فعقلها، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال له: يا أشج! إن فيك خصلتين يحبهما الله عز وجل ورسولهُ: الحلمُ، والأناة. فقال: يا رسول الله! تخلقتهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: جبلك الله عليهما، فقال: الحمدُ لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

فقال رجل منهم يقال له الوازع: إن معي خالاً لي مصاباً، فادعُ الله له، فقال: أين هو؟ ايتني به. قال الرجل: فصنعت مثلما صنع الأشج، ألبسته ثوبيه، وأتيته النبيُّ ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ من ورائه يرفعها (أي يده أو ثوب الرجل) حتى رأينا بياض إبطه، ثم ضرب بظهره فقال: أخرجْ عدوَّ الله، فولى وجهه وهو ينظر بنظر رجل صحيح(٢).

فقالوا: يا رسول الله! إن بيننا وبينك هذا الحيَّ من كفار مُضَر(٣)، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فَأْمرْنا بأمرٍ فَصْل نأخذ به، ونأمر به مَنْ وراءنا، وندخل به الجنة، فقال: آمركم بأربع:

آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم.

وأنهاكم عن أربع: **الدباء والحنتم والنقير والمزفَّت(٤)، فاحفظوهنَّ، وادعوا إليهن من**

---

(١) العيبة: وعاء أو حقيبة من الجلد يكون فيها متاع الرجل عند السفر.

(٢) وهذا دليل على أن الرجل كان ممسوساً من الجن، فلما قرأ عليه النبي ﷺ ورفع يديه من خلفه بالدعاء ثم ضربه بظهره خرج منه عدو الله الشيطان.

(٣) كان وفد عبد القيس من ربيعة، وكان بينهم وبين مضر ثارات ومشاحنات، وكانت قبائل مضر تقع فيما بينهم وبين المدينة ولا يأمنون على أنفسهم المرور والترحل إلا في الأشهر الحرم التي تعظمها العرب وتنتهي فيها عن القتال.

(٤) وهذه الأربع: أوان كانوا يشربون بها ويخمر فيها النبيذ، وقد نهى النبي ﷺ في أول الأمر، ثم أباح بعد ذلك الشرب فيها.

وراءكم، قالوا: يا رسول الله! ما علمك بالنقير؟ قال: بلى، جذعٌ تنقرونه، ثم تلقون فيه التمر، ثم تصبون عليه الماء حتى يغلي، فإذا سكن شربتموه، فعسى أحدُكم أن يضرب ابن عمه بالسيف.

وكان في القوم رجل به ضربة كذلك، فقال: كنت أخبئها حياءً من رسول الله ﷺ.

قالوا: ففيما نشرب يا رسول الله ؟ قال: اشربوا من أسقية الأدم التي يلاث على أفواهها، قالوا: يا رسول الله! إن أرضنا كثيرة الجرذان لا تبقى فيها أسقية الأدم. فقال: وإن أكلها الجرذان، مرتين أو ثلاثاً.

وكان الأشج يجلس عن يمين النبي ﷺ، فأخذ يلاطفه ويلاطف قومه، ثم سمَّى لهم قُراهم قريةً قرية، ثم أقبل على الأنصار وقال: يا معشر الأنصار! أكرموا إخوانكم؛ فإنهم أشباهكم في الإسلام، أشبه شيئاً بكم أشعاراً وأبشاراً، أسلموا طائعين غير مكرَهين ولا موتورين، إذ أبى قوم أن يُسلموا حتى قُتلوا(١).

فلما أصبح القوم، سألهم رسول الله ﷺ: كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم، وضيافتهم لكم؟، قالوا: خير إخوان، ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ. فأعجبت كلماتهم النبي ﷺ، وفرح بها، ثم أقبل عليهم رجلاً رجلاً، فعرضوا عليه ما تعلموه فمنهم من تلا التحيات (التشهد)، ومنهم من تلا أم الكتاب، ومنهم من تلا السورة والسورتين والسنن، ثم إن النبي ﷺ لاطفهم، وقال لهم: هل معكم من أزوادكم شيئاً؟ ففرح القوم بذلك، وتنافسوا وابتدروا رحالهم، كل منهم يأتي معه صرة من تمر، فوضعوها على نطع بين يدي النبي ﷺ، فأشار بجريدة في يده، وقال لهم مشيراً إلى التمر: أتسمُّون هذا: التعضوض؟ قالوا: نعم. ثم أشار إلى صرة أخرى فقال: أتسمَّون هذا: الصرفان؟ قالوا: نعم، ثم أشار إلى صرة فقال: أتسمون هذا: البرني؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه خيرُ تمركم وأنفعُه لكم.

فلما عادوا، أكثروا من زراعته، وعظمت رغبتهم فيه، حتى أصبح معظم نخلهم وتمرهم البرني(٢).

---

(١) قريش ومن حاربهم من الأعراب.

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (٧/ ٢٤٦).

الوفد الثاني:

ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح(١) أن الوفد الثاني كان في سنة تسع سنة الوفود، وكانوا أربعين رجلاً، منهم من وفد في الوفد الأول، وكان في وفدهم هذا: الجارود العبدي(٢). ولما رأى النبي ﷺ الوفد قال لهم: مالي أرى ألوانكم تغيرت(٣)؟

فقدم على رسول الله ﷺ الجارودُ بنُ عمرِو بنِ حنش العبديُّ، وكان نصرانياً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: يا محمد! إني كنت على دين، وإني تاركٌ ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا ضامن من أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه، فأسلم، وأسلم أصحابه.

ثم سأل النبيَّ ﷺ الحملانَ، فقال: والله! ما عندي ما أحمِلُكم عليه. فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين بلادنا ضوالَّ من ضوالِّ الناس -الإبلُ الضالةُ عن صاحبها- أفنتبلغ بها؟ قال: لا، تلك حرق النار.

فخرج الجارود راجعاً إلى قومه، وكان حسنَ الإسلام، صُلباً على دينه حتى هلك، وقد أدرك ردةَ العرب، فقام يثبت قومه على الإسلام، ودعا إليه، وقال: يا أيها الناس! إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأكفِّر مَنْ لم يشهد. ثم قال:

رضينا بدين الله من كل حادثٍ   بالله والرحمن نرضى به ربّا

ولقد أخر النبيُّ ﷺ سُنة الظهر البعديةَ بسبب وفد عبد القيس حتى صلاها بعدَ العصر في بيت أم سلمة؛ وكانت أول جمعة جُمعت في مسجدٍ بعدَ مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثى بالبحرين، كما أورده البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهذا دليل على أن أهل البحرين من أوائل من أسلمَ من أهل القرى.

---

(١) فتح الباري (٨/ ١٠٧).

(٢) هو بشر بن عمرو بن حُبيش بن المعلى بن الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة بن عوف بن بكر من بني عبد القيس وأشرافهم، ويكنى بأبي المنذر، وسمي بالجارود لأنه أقام في أخواله من بني شيبان وكانت إبله بها جرب فأعدت إبل أخواله فهلكت، فقال الناس: جردهم بشر، فسمي بالجارود. فقال شاعرهم: جردناهم بالسيف من كل جانب ...... كما جرد الجارود بكر بن وائل.

سكن الجارود بعد حروب الردة بالبصرة، وولد له أولاد كثر، ووجهه الحكم بن أبي العاص والي الأمويين للقتال يوم سهرك، فقتل هناك في عقبة الطين في سنة عشرين هجرية، وسميت بعقبة الجارود.

(٣) دلالة على أن الوفد كانوا يتألفون معظمهم من الذين سبق أن أتوا إلى النبي ﷺ من قبل.

البحرين ولاية إسلامية

تعتبر البحرين من أوائل الولايات الإسلامية في عهد النبي ﷺ؛ إذ أنها دخلت سلماً في دين الله، ومن لم يعتنق الإسلام من أهلها قام بدفع الجزية، وبقي على دينه.

ولقد ولّى النبي ﷺ العلاءَ بنَ الحضرمي ﵁ عاملاً على البحرين، وقد رحب المنذر بن ساوي ﵁ بذلك، وقد توفي المنذر ﵁ قبل حروب الردة في ولاية أبي بكر ﵁، وقد عمل المنذر بن ساوي على جمع الجزية من غير المسلمين، فأرسل إليهما النبي ﷺ أبا عبيدة ﵁ ليأتي بمال البحرين، وهو أكثر الأموال التي جاءت للنبي ﷺ في المدينة.

روى البخاري عن عمرو بن عوف ﵁: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح ﵁ إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ صالحَ أهلَ البحرين، وأمّر عليهم العلاءَ ابنَ الحضرمي ﵁، فقدم أبو عبيدة ﵁ بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ﵁، فوافقت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلّى بهم الفجر، انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم فقال: أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟. فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله! لا الفقرَ أخشى عليكم، ولكنّي أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم(١).

ومن مناقب البحرين: أن البخاري بوب في صحيحه باب: ما أقطع النبي ﷺ من البحرين، وما وعد من مال البحرين، والجزية، ولمن يقسم الفيء والجزية(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٩٩/ ح:٤٠١٥).

(٢) البخاري (٦/ ٣٢٢).

حجة الوداع

كانت حجة الوداع هي المتممة لمسيرة النبي ﷺ لإبلاغ الرسالة والدعوة إلى الله، وقد دعا النبي ﷺ المسلمين للخروج معه لهذه الحجة من أنحاء جزيرة العرب، فقدم المدينة بشرٌ غفير ليأتموا برسول الله ﷺ، فتوجه بهم تلقاء مكة في السنة العاشرة لهجرته ﷺ، وقد بين لهم مناسكهم، وأرشدهم إلى ما ينبغي عليهم في هذه الشعيرة العظيمة، وفي هذا الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد خطبهم النبي ﷺ في مواطنَ متعددةٍ في عرفات، وفي منى، وكرر لهم المواعظ، وكان مما قال في خطبته على عرفات:

أيها الناس! اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً.

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإنَّ كلَّ رِباً موضوعٌ، ولكنْ لكم رؤوسُ أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أَنْ لا رِبا.

أيها الناس! فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس! فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهنَّ عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي؛ فإني قد بلَّغت، وقد تركت فيكم ما إن استعصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً: كتابَ الله، وسنةَ نبيه.

أيها الناس! اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخٌ للمسلم، وأن المسلمين إخوةٌ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم.

اللهمَّ هل بلغت؟ قالوا: اللهمَّ نعم. فقال رسول الله ﷺ: اللهمَّ اشهدْ.

ومما وعظهم به أيضاً:

أيها الناس! إنه لا نبيَّ بعدي، ولا أمة بعدَكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلُّوا خمسَكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبةً بها أنفسُكم، وتحجون بيتَ ربكم، وأطيعوا ولاة أموركم(١) تدخلوا جنة ربكم(٢).

أيها الناس! لا ترجِعوا بعدي ضُلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد، فليبلغِ الشاهدُ الغائبَ، فربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع(٣).

وقد نزل على النبي ﷺ في هذه المواطن الشريفة قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[المائدة:٣]، فلما نزلت، بكى عمر ﵁، فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل؛ فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال: صدقت(٤).

ثم قفل النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة، ليعدّ بعثاً جديداً، ويجهز جيشاً كبيراً في صفر سنة إحدى عشرة هجرية ليردَّ به غطرسة الروم التي بدأت تهدد العرب الذين أسلموا في جنوب بلاد الشام وشمال الجزيرة، وليعيد الثقة في قلوب هؤلاء العرب؛ ليعلم الجميع أن كيد الكنيسة لا سلطان له على المسلمين.

أعد النبي ﷺ الجيش، وجعل على رأسه أسامةَ بنَ زيد بن حارثة رضي الله عنهما، وكان عمره بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة، وقد خرج الجيش إلى مكان يقال له: الجرف ينتظرون أمر النبي ﷺ بالتحرك، غير أن مرض الموت نزل برسول الله ﷺ، فانتظروا حتى يقضي الله بأمره.

---

(١) ويقال أولياء أموركم والمقصود بهم أمراء المسلمين وعلماؤهم.

(٢) رواه ابن جرير وابن عساكر.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن أبي شيبه وابن جرير.

وفاة النبي ﷺ:

نزل بالنبي ﷺ المرضُ الشديد الذي منعه من الخروج ليصلي بالناس، فقال: مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس(١)، وفي هذا إشارة إلى استخلاف أبي بكر على المسلمين في أعظم أمور دينهم، وهي الصلاة.

قال ابن الأثير معلقاً(٢): هذا الحديث دلالة على خلافة أبي بكر ﵁، والنيابة عن النبي ﷺ في إمامة المسلمين العظمى، فأبو بكر أكبرُهم قدراً ومنزلة وعلماً.

وهذا ما فهمه الصحابة ﵃، فلقد جاء عن عليّ والزبير رضي الله عنهما: أنهما قالا: إنا نرى أبا بكر أحقَّ الناس بها -أي: الخلافة- إنه لصاحبُ الغار، وإنا لنعرفُ شرفه وخيره، ولقد أمره الرسول ﷺ بالصلاة وهو حيّ.

جلس النبي ﷺ على المنبر في يوم الأربعاء قبل خمسة أيام من وفاته ليعظ الناس، وكان آخرَ مجلسٍ جلسه النبي ﷺ للناس، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إليَّ، فثابوا إليه، فوعظهم، وكان مما قال: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ(٣). وقال: لا تتخذوا قبري وثناً يعبد.

ثم صلّى بالناس الظهر، ثم عاد مرة أخرى إلى المنبر، وقال: أوصيكم بالأنصار؛ فإنهم كرشي وعَيْبتي، وقد قَضَوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم.

وقال: إن الناس يكثرون وتقلُّ الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضرُّ فيه أحداً أو ينفعُه، فليقبلْ من محسنِهم، ويتجاوزْ عن مسيئهم(٤).

ثم قال: إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه الله من زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فبكى أبو بكر ﵁ وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال أبو سعيد الخدريُّ ﵁: فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبرُ رسولُ الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٢١٤/ ح:٦٨٢)، ومسلم (٤/ ١٢١/ ح:٤٢٠).

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ.

(٣) رواه البخاري / ح: ٣٢١٩.

(٤) رواه البخاري (٧/ ١٥٣/ ح:٣٨٠٠).

من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلَمنا.

ثم قال رسول الله ﷺ: إن من أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غيرَ ربي، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُد، إلا بابَ أبي بكر(١).

الوصايا الأخيرة للنبي ﷺ:

دخل النبي ﷺ بيته بعد هذه المواعظ، ولم يخرج منه بعد ذلك إلى الأبد، وكان الناس يأتون إليه في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، فأوصاهم قبل وفاته بوصايا منها:

١. أنفذوا بَعْثَ أسامة(٢).

٢. ألا لا يموت أحد منكم إلا وهو يُحسن الظنَّ بالله(٣).

٣. لا يبقين دينان بأرض العرب(٤).

٤. ثم كانت آخر وصاياه للأمة: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانُكم، كرر ذلك مراراً(٥).

وكان آخر ما نزل على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨١]، فكانت مناسبة في محلها من سورة البقرة بعد رحلة كفاح ودعوة وصبر وجهاد في سبيل الله، بعد أن وعظ وأرشد، وأنزل عليه القرآن فرغّب ورهّب محذراً بهذا القول العظيم، مذكراً بتقوى الله تعالى التي هي وصية الله لخلقه ولأنبيائه ورسله.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧/ ١٦/ ح:٣٦٥٤)، مسلم (١٥/ ١٢٢/ ح:٢٣٨٢)
نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح عن الخطابي وابن بطال وغيرهما قولهم: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وإشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر، وقد قال بعضهم: إن الباب كناية عن الخلافة، والأمر بالسد كناية عن طلبها، فكأنه قال: لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبو بكر فإنه لا حرج عليه في طلبها، وإلى هذا جنح ابن حبان فقال بعد أن أخرج هذا الحديث: في هذا دليل على أنه الخليفة بعد النبي ﷺ؛ لأنه حسم بقوله: سدوا عني كل خوخة -فتحة أو باب- في المسجد أطماع الناس كلهم عن أن يكونوا خلفاء بعده/ فتح الباري (٧/ ١٩).

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٩٠/ ح:٤٤٦٩).

(٣) رواه مسلم (١٧/ ١٧٢/ ح:٢٨٧٧).

(٤) رواه البخاري (١/ ٦٨٩/ ح:٤٣٧)، مسلم(٣/ ١١/ ح:٥٣٠) واللفظ له.

(٥) رواه أبو داود (٣/ ٩٦٩/ ح:٥١٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩/ ح:٢٦٩٨)، وصححه الألباني.

ثم نزل بالنبي ﷺ ما نزل بمن كان قبله من الأنبياء والرسل، وكل من سبق من الناس وكل من يأتي بعده من الخلق، جاءته رسل الله تعالى لتقبضه ﷺ، وقع ذلك في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول للسنة الحادية عشرة للهجرة النبوية. وكان آخر ما دخل فمه ﷺ ريق أمنا عائشة ﵂؛ إذ أنه استاك بسواكٍ قد رَطَّبته بفمها المبارك ﵂، فرفع إصبعه وشخص بصره إلى الأعلى، وتحركت شفتاه، وقال: مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين. اللهم اغفرْ لي اللهم ارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى.

وكان ذلك آخر ما تكلم به النبي ﷺ⁽¹⁾. ثم مالت يده ﷺ، ولفظ أنفاسه، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فاللهمَّ اجزه عنا خيرَ ما جازيتَ نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته.

توفي النبي ﷺ وقد تم له ثلاث وستون سنة⁽²⁾، فكان ذلك أعظمَ مصيبةٍ حلَّت بالأمة، وأشدَّ بليةٍ نزلت بها، وكلُّ بلية بعدها تهون، فداه أرواحُنا ودماؤنا ﷺ.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، اللهم احشرنا تحت لوائه، وأوردْنا حوضَه، واسقنا من حوضه شربة هنية مريئة لا نظمأ بعدها أبداً، اللهم اجمع بيننا وبينه كما آمنا به ولم نره، ولا تفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٧٩/ ح:٦٣٤٨)، ومسلم (١٥/ ١٦٩/ ح:٢٤٤٤).

(٢)الرحيق المختوم (ص:٤٧٥).

الباب الثاني

البحرين

فِي عَهدِ الخلافةِ الرَّاشِدَةِ

١١هـ - ٤١هـ

يقول الإمام الطحاوي رحمه الله: ونحبُّ أصحابَ رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمان وإحسان، وبغضُهم كفر ونفاق وطغيان، ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً: لأبي بكر الصديق ؓ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب ؓ، ثم لعثمان بن عفان ؓ، ثم لعلي بن أبي طالب ؓ، وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون(١).

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص:٤٦٧.

يعتبر العصر الراشدي أزهى عصور الأمة بعد عصر النبوة، فلقد قام به الأربعة الأئمة الخلفاء خيرُ أصحاب النبي ﷺ، والذين شهد لهم الله تعالى بالرضا عنهم، والقبولِ لهم في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠]، كما شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية والسلامة، وشهد لجيلهم بأنه خير جيل في هذه الأمة، فهم جيل النبوة، وفيهم نزل الوحي، وإلى جوار رسول الله ﷺ جاهدوا في الله حق جهاده، ومن بعده أقاموا شرعته وسنته، وذبوا عنها، وحملوا هذا الدين وبلغوه في الآفاق، رضوان الله عليهم جميعاً.

عن عمرانَ بن حُصَين ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.... الحديث»(١). وعن عبد الله بن مسعود ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢).

وهم الذين أمرنا الله تعالى باتباع آثارهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

كما أمرنا رسول الله ﷺ باتباع سنتهم، والعملِ بها؛ كما في وصيته لأمته من حديث العِرباض بن ساريةَ ﵁، والذي جاء فيه: «فعليكم بسنتي، وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، عضوا عليها بالنواجذ»(٣).

وهذا الثناء والمدح من الله تعالى ومن رسوله ﷺ على الصحابة الكرام والخلفاء الراشدين خاصة يلزمنا بتوقيرهم وتبجيلهم واحترامهم؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وقد اتفق المسلمون على أن أصحاب رسول الله ﷺ خير طباق الأمة(٤).

---

(١) البخاري (٧/ ٦/ ح:٣٦٥١)، ومسلم (١٦/ ٧٢/ ح:٢٥٣٤).

(٢) البخاري (٥/ ٣١٩/ ح:٣٦٥٢)، ومسلم (١٦/ ٧١/ ح:٢٥٣٣).

(٣) رواه أبو داود (٣/ ٨٧١).

(٤) مجموع الفتاوي (٢٤/ ١٨٤).

فالصحابة الكرام هم الأسوة لهذه الأمة بعد نبيها، وهم القدوة، وهم الذين استنقذ الله بهم أقواماً من النار، وهدى بهم سبل السلام، وكفاهم أنهم كانوا أصحاب رسول الله ﷺ نبيِّ هذه الأمة.

قال الآجُرِّيّ رحمه الله(١): قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه، فجعلهم وزراءه وأصهاره وأنصاره، والخلفاءَ من بعده في أمته، وهم المهاجرون والأنصار، الذين نعتهم الله عز وجل في كتابه بأحسن النعت، ووصفهم بأجمل الوصف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثم قال: فأما المهاجرون، فإنهم آمنوا بالله وبرسوله، وصدقوا الإيمان بالعمل، صبروا مع النبي ﷺ في كل شدة، وآثروا الذلَّ في الله عز وجل على العز في غير الله، وآثروا الجوع في الله عز وجل على الشبع في غير الله، عادَوْا في الله عز وجل القريبَ والبعيد، وهاجروا مع الرسول ﷺ، وفارقوا الآباء والأبناء والأهلَ والعشائر، وتركوا الأموال والديار، وخرجوا فقراء، كلُّ ذلك محبة منهم لله تبارك وتعالى، ولرسوله ﷺ، كان الله ورسوله ﷺ آثرَ عندهم من جميع الناس بإيمان صادق، وعقول مؤيدة، وأنفسٍ كريمة، ورأي سديد، وصبر جميل بتوفيق من الله عز وجل: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[المجادلة:٢٢].

وأما الأنصار، فهم قوم اختارهم الله عز وجل لنصرة دينه، واتباعِ نبيه ﷺ، فآمنوا به، وبايعوه، وصدقوا في بيعتهم، فأحبوه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه.

فلما هاجر إليهم، أكرموه وعظموه، وعلموا أن هجرته إليهم نعمة من الله عز وجل عليهم، كما فرحوا بقدوم المهاجرين إليهم، فأكرموهم بأحسن الكرامة، ووسعوا لهم الديار، وآثروهم على الأهل والأولاد، وأحبوهم حباً شديداً، وصاروا إخوة في الله عز وجل، وتألفت القلوب بتوفيق من الله بعد أن كانوا أعداءً. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسين الآجري ـ ت: ٣٦٠هـ/ الشريعة (ص:٧٥٧).

وقال: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾[آل عمران:١٠٣].

فأجمعوا جميعاً على محبة الله عز وجل، ومحبةِ رسوله ﷺ.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً، فهو عند الله سيئ⁽١⁾.

وقال في موطن آخر: من كان مستناً، فليستنَّ بمن قد مات؛ فإن الحي لا يؤمَن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا ـ والله ـ أفضلَ هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم، تمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. ا.هـ⁽٢⁾.

فالصحابة رضي الله عنهم أولى الناس برسولهم ﷺ وسنته فهماً وعملاً، ودعوةً وجهاداً وتأصيلاً، والواجبُ علينا التمسكُ بسبيلهم ومنهجهم؛ لنكون في وصل دائم بسنة النبي ﷺ، وإلا نكون كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن أصول أهل السنة والجماعة: سلامةُ قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[الحشر:١٠]. وطاعةُ النبي ﷺ في قوله: «لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده! لو أن أحدكم أنفق مثلَ أُحدٍ ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه».

---

(١) أحمد بن حنبل / المسند (٦/ ٨٤/ح:٣٦٠٠)

(٢) ابن عبد البر/ جامع بيان العلم وفضله (٩٤٧/٢/ح:١٨١٠)، وفي إسناده ضعف غير أن معناه صحيح مستقر عنده.

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم، ويفضلون من أنفق من قبل الفتح -هو صلح الحديبية- وقاتل، على من أنفق من بعدُ وقاتل، ويفضلون المهاجرين على الأنصار، ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسولُ الله ﷺ، ويُقرون بما تواتر به النقلُ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ وغيره، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربعون بعلي كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة.

ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ، ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ.

وأضاف: ويتولون أزواجَ رسول الله ﷺ أمهاتِ المؤمنين، ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة.

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل.

ويمسكون عمّا شَجَرَ بين الصحابة، فهم إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون.

وهم ـ مع ذلك ـ لا يعتقدون أن أحداً من الصحابة معصومٌ عن كبائر الإثم وصغائره، وأن لهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرةَ ما يصدر منهم إن صدر.

ثم قال: ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما مَنَّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا كان، ولايكون مثلُهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمُها على الله(١).

قال ابن قُدامةَ المقدسي في لمعة الاعتقاد: ومن السنة تولّي أصحابِ رسول الله ﷺ ومحبتُهم، وذكرُ محاسنهم، والترحُّمُ عليهم، والاستغفارُ لهم، والكفُّ عن ذكر مساوئهم، وما شجر بينهم، واعتقادُ فضلهم، ومعرفةُ سابقتهم(٢).

---

(١) العقيدة الواسطية ص:٢٦٠ – ص:٢٧٢، بتصرف.

(٢) لمعة الاعتقاد ص: ١٥٢.

ولقد كانت البحرين ـ بنطاقها القديم والحديث ـ ضمنَ دولة الإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وصار عليها ما صار على الجزيرة العربية من أحوال وآثار في ذلك العهد، كما ساهمت مع غيرها من قبائل الجزيرة العربية في الفتوحات الإسلامية التي استنقذ الله بها شعوباً من ظلمات الشرك والكفر، وهداهم بها إلى صراط مستقيم، سواء كان في فارس، أو الروم، ولستُ هنا بصدد الحديث التفصيلي عن مرحلة الخلفاء الراشدين، وإلا احتجت إلى كتابة كتب متعددة، وليس كتاب واحد، كما أنه لا بد لي أن ألقي الضوء مجملاً أحياناً، وبتفصيل في أحيان أخرى بما يخدم مقصودَ الكتاب، كما ولا بد لي أن أذكرّ بالدور العظيم لهذا الجيل الأول الذي أُمرنا باتباعهم وسلوكِ هداهم.

البحرين
في عهد الخلافة الراشدة
١١هـ ـ ٤١هـ

الفصل الأول

قال الذهبي في «السير»: قال فضيل: عن سالم بن أبي حفصة قال: سألت أبا جعفر ـ يعني: محمدَ (الباقر) ابنَ عليِّ بنِ الحسين بن علي بن أبي طالب، وولدَه جعفر الصادق ـ عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالم! تولَّهما، وابرأ من عدوِّهما؛ فإنهما كانا إمامَي هدى. ثم قال جعفر: يا سالم! أيسبُّ الرجل جدَّه؟ أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما، وأبرأُ من عدوهما(١).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٢)، (٤/ ٤٠٣) - الآجري/ الشريعة (٧٥٧/ ح:١٨٥٦)

الخليفة الراشد الأول
أبو بكر الصديق رضي الله عنه
١١هـ ـ ١٣هـ

اسمه ولقبه ونسبه وقرابته لرسول الله ﷺ:

عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. فهو يلتقي مع النبي ﷺ في جده مرة.

لُقِّب بالصديق صبيحةَ ليلة الإسراء والمعراج، وذلك عندما أنكرت قريش على النبي ﷺ أنه أسري به إلى المسجد الأقصى، فذهب رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس؟! قال: أوقال ذلك؟! قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق(١)، فلذلك سمي بالصديق ﵁.

ولقبه أيضاً النبي ﷺ عَتيقاً، وذلك عندما دخل على رسول الله ﷺ داره، فقال له النبي ﷺ: «أنت عتيق الله من النار»(٢).

أول خلفاء رسول الله ﷺ، وأفضل الأمة بعد نبيها ﷺ، وخليفته ومؤنسه في الغار، وصديقه الأشفق، ووزيره الأحزم، ووالدُ أحبّ أزواجه إليه أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵂، ووالد ذات النطاقين أسماءَ زوجةِ الزبير بن العوام ﵁ ابنِ عمة النبي ﷺ صفيةَ رضي الله عنها، وجد العابد الزاهد عبدِ الله بن الزبير ﵁، وجد التابعي الجليل جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من جهة أمه، فأم جعفر هي أم فروة بنتُ القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان يقول جعفر: ولدني أبو بكر الصديق مرتين، وكان يغضب ممن ينال من أبي بكر، ويمقتُه.

ولد في السنة الثانية من سنة الفيل، وكان صديقاً للنبي ﷺ منذ الصغر، ولما بُعث النبي ﷺ كان أول من أسلم من الرجال، وعمل على نشر الدعوة، وأسلم على يديه عدد كبير من السابقين من أكابر الصحابة.

اشتغل بالتجارة، ونال منها الربح الوفير، وأنفق الكثير من ماله في سبيل الله، واشتهر بشجاعته، وشارك في الغزوات، ولم يتخلف عن أي منها، اشتهر بتواضعه، وكان فصيح اللسان، قوي الحجة إذا خاطب الناس.

---

(١) فتح الباري مختصراً، والحديث بطوله رواه الحاكم (٨١/ ٣/ح:٤٤٥٨)، والآجري في الشريعة (٤٢٤/ح:١٠٣٠).

(٢) رواه الترمذي/ باب مناقب أبي بكر (٣/ ٢٠٢/ح:٢٩٠١و٣٩٣٨).

فضائله:

ورد في فضل أبي بكر ﵁ نصوص وآثار عديدة، ومن ذلك:

- **نزل الوحي فيه قرآناً يتلى :**

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة:٤٠].

نزلت في النبي ﷺ وصاحبه ليلة الهجرة عندما أتى المشركون للبحث عنهما، فصعدوا الجبل الذي فيه الغار، وسمع أبوبكر أصواتهم، فأقبل عليه الهم والحزن ، فعند ذلك قال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»، ثم دعا النبيُّ ﷺ، فنزلت عليه السكينة(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (١٧) ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٠) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴾[الليل:١٧-٢١].

قال الحافظ ابن كثير: ذكر غيرُ واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكرٍ الصديق، حتى إن بعضهم حكى الإجماعَ من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل بها، وأَولى الأمة بعمومها؛ فإن لفظها لفظ العموم ، ولكنه مقدَّمُ الأمة وسابقُهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم.

﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:٣٣].

قال القرطبي: واختُلف بالذي جاء بالصدق وصدق به، وقال عليٌّ ﵁ : والذي جاء بالصدق: النبيُّ، وصدق به: أبو بكر ﵁(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٧٥٩/ح:٣٦١٥).

(٢) القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٦٧).

- **جاء في فضله جملة من الأحاديث النبوية الصحيحة** تدل على مكانته وشرفه في هذه الأمة. ومن ذلك:
  - عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت له: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: عائشة، فقلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً(١).
  - عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه : «ادعي لي أبا بكرٍ، وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكرٍ»(٢).
- **أسلم على يديه، واستجاب لدعوة النبي ﷺ** جمعٌ من أجلِّ الصحابة السابقين الأولين في الإسلام، منهم خمسةٌ من العشرة المبشرين بالجنة. وهم: عثمان بن عفان، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.
- **أعتق أبو بكر رضي الله عنه سبعة ممن كانوا يعذَّبون في الله**، وهم بلالُ رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة رضي الله عنه، وزنيرة رضي الله عنها، والنهدية وابنتها رضي الله عنهما، وجارية بنت المؤمل رضي الله عنها، وأم عبيس رضي الله عنها.

وهؤلاء كانت قريش تخصهم بألوان مختلفة من العذاب دون غيرهم.

- **شهد جميعَ المشاهد ـ الغزوات ـ مع رسول الله ﷺ**، ولم يتخلف عن غزوة واحدة، وثبت في أُحد وحُنين مع النبي ﷺ، حينما فر من حوله الناس، وفي غزوة تبوك سلمه النبي ﷺ الراية، وساهم بجميع أمواله في تجهيز جيش العسرة.
- **أشد الناس ملازمةً لرسول الله ﷺ**، وغيرةً على دينه وعلى شخصه ﷺ، فكان كالوزير له، حتى إن رسول الله ﷺ كان يستشيره في غالب أموره.
- **ولعل من تمام فضائله اختيار النبي ﷺ له لخلافته في أعظم أمور المسلمين، وهي الصلاة،** عندما اشتد بالنبي ﷺ المرض.

---

(١) رواه الشيخان، البخاري (٧/ ٢٤/ ح:٣٦٦٢)، واللفظ له، ،مسلم (٨/ ١٢٥/ ح:٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٨/ ١٢٦/ ح:٢٣٨٧).

عن عائشة أم المؤمنين ﵂: أن النبي ﷺ قال في مرضه: «مُروا أبا بكرٍ يصلي بالناس»، قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناسَ من البكاء، فمُر عمرَ فليصلِّ للناس، فقالت عائشة: فَقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكرٍ إذا قام في مقامك لم يُسمع الناسَ من البكاء، فمُر عمر، فليصلِّ للناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: «مَه، إنَّكن لأنتن صواحبُ يوسف، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ للناس»، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأُصيبَ منكِ خيراً(١).

قال ابن الأثير معلقاً: فيه نوع دلالة على خلافة أبي بكر ﵁؛ لأن هذا القول يُعلم منه أن المراد به ليس نفي جواز الصلاة خلف عمر ﵁، كيفَ وهي جائزة خلف غيره من آحاد المسلمين ممن هو دون عمر!! وإنما أراد به: الإمامةَ التي هي الخلافة والنيابة عن النبي ﷺ، فلذلك قال فيه: «يأبى الله ذلك والمسلمون»، أن يتقدم في الصلاة أحدٌ على جماعة فيهم أبو بكر، حيث هو أكبرهم قدراً ومنزلةً وعلماً، فإن التقدم عليه في مثل الصلاة التي هي أكبرُ أعمال الإسلام وأشرفُها مما يأباه الله والمسلمون، وهذا صريحٌ في الدلالة(٢).

ولقد فهم الصحابة ﵃ أن استخلاف النبي ﷺ لأبي بكرٍ على هذا الأمر العظيم إنما هو إشارة لاستخلافه على المسلمين في أمر دينهم ودنياهم.

فعن عاصم عن زِرٍّ عن عبد الله قال: لما قُبض رسولُ الله ﷺ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، قالوا: بلى، قال: فأيكم يطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟ قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

قال علي والزبير رضي الله عنهما: إنا نرى أبا بكرٍ أحقَّ الناس بها -أي: الخلافة- إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أَمَره رسول الله ﷺ بالصلاة وهو حيّ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٢١٣/ ح:٦٧٩)، ومسلم (٢/ ١١٥/ ح:٤١٨)، واللفظ للبخاري.

(٢) ابن الأثير / جامع الأصول (٨/ ٥٩٧/ ح:٦٤٢٠)، عون المعبود بشرح سنن أبي داود (٨/ ٥٣/ ح:٤٦٤٨).

(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ٤١٧).

أهمية ولاية العهد والاستخلاف:

ويتبين مما سبق: أن ولاية العهد أمرٌ كائن منذ أن كان الإسلام؛ لما فيه من مصلحة للعباد في دينهم ودنياهم، فكما أشار النبي ﷺ لأبي بكر في استخلافه، قام أبو بكر بأخذ البيعة لعمر في حياته، حتى لا تختلف الأمة من بعده، فقطع دابر الفرقة والاختلاف من أصله.

وكذلك عمر ﵁؛ فإنه لما طُعن من المجوسي، أوصى من بعدِه لأصحاب الشورى الستة، وانتهت لعثمان ﵁، والذي قُتل شهيداً قبل أن يوصي، فانتهت الخلافة لعليّ ﵁ والذي قُتل شهيداً ولم يوصِ، غير أنه في حياته كان يشير لأبنائه بفضل معاويةَ ﵁ ومكانته.

ولما بايع الحسنُ والحسين ابنا عليٍّ ﵃ لمعاويةَ خليفةً على المسلمين، اجتهد معاويةُ ﵁، وأخذ البيعة لولده يزيدَ اجتهاداً منه، وحسماً لمادة الخلاف والحرب بين المسلمين، ثم تتابعت في الأمة ولاية العهد إلى أن ألغيت الخلافة في (سنة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٤م)، وانحصرت ولاية العهد في دول مجلس التعاون الخليجي بما فيها البحرين، وبعض دول العالم الإسلامي الحديثة، وهو الذي أبقى على صورة الإمارة الإسلامية باقيةً، وهذا أمر مسلَّم به في أهميته وبقائه، حتى لدى الأنظمة العلمانية في الشرق والغرب أخذت في نظمها بهذا، فما من رئيس دولة إلا وله نائب ينوب عنه في غيابه، أو عند وفاته، وحتى النظمُ الملكية الغربيةُ والشرقية تأخذ بنظام ولاية العهد، كما في بريطانيا وإسبانيا وتايلند واليابان وغيرها من الدول.

وأما من ترتفع أصواتهم بأن ولاية العهد لا تنبغي، فهؤلاء لا همّ لَهم إلا إحداث الفرقة والفوضى العارمة التي تحقق مآربهم الفاسدة.

بيعته ﵁:

تولى أبو بكرٍ ﵁ قيادة الأمة بعد رسول الله ﷺ، وقد بايعه جميع أصحاب النبي ﷺ في بيعة خاصة يومَ سقيفة بني ساعدة، وأخرى عامة في مسجد رسول الله ﷺ، وقد اتفقوا جميعاً على قيادة أبي بكر للأمة بعد رسول الله ﷺ.

بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي بكر الصديق:

يخطئ بعض المؤرخين أمثال اليعقوبي والمسعودي وغيرهما بنفي بيعة علي رضي الله عنه لأبي بكر، وسيقت روايات لا تليق بمقام الصحابة، وبخاصة أن هذا القول يطعن برجاحة عقل علي رضي الله عنه ودينه وخلقه وأدبه المشهور مع القاصي والداني، فكيف ذلك وهو يعلم مكانة أصحاب النبي ﷺ؟! لقد كان علي رضي الله عنه من أبعد الناس عن زخارف الدنيا وزينتها ومباهجها، ناهيك عن مناصبها.

وكيف لابن عم النبي ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، ووالد الحسنين رضي الله عنهما أن يخالف جماعة المسلمين التي ارتضت بأبي بكر خليفة عليهم، وينفرد هو برأيه دونهم طمعاً في المناصب الدنيوية؟!

لقد سُئل علي رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه فقال: «ذاك امرؤ سماه الله صديقاً على لسان جبريل ومحمد عليهما السلام، كان خليفة رسول الله ﷺ، رضيه لديننا على الصلاة، فرضيناه لدنيانا»(١).

وإننا نرى أن علياً رضي الله عنه أجلُّ وأكرم من أن يتهم بهذا، بل إن النصوص التاريخية الصحيحة تثبت بأنه قد بايع؛ فقد ورد في تاريخ الطبري: أن علياً رضي الله عنه كان جالساً في بيته إذ أتى إليه من قال له: إن أبا بكر قد جلس للبيعة بالمسجد، فخرج علي في قميصه ما عليه الإزار ولا الرداء عَجِلاً كراهيةَ أن يبطئ عنها حتى بايعه ثم جلس معه، وبعث إلى ثوبه من أتاه به، فلبسه ولزم مجلسه(٢).

---

(١) ابن الأثير/ أسد الغابة (٣/ ٣١٠/ ح:٣٧٢٨).

(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣/ ٢٠٨).

أبرز الأعمال التي قام بها في خلافته:

أولاً: إنفاذ بعث أسامة(١): كان رسول الله ﷺ قد استعمل أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما على جيش للتوجه إلى حدود الشام، وعسكرَ جيشُ أسامة بمنطقة الجرف على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، فلما اشتكى رسولُ الله ﷺ قال: أنفذوا بعثَ أسامة، أو جيش أسامة، ثلاث مرات، ثم توفي الرسول ﷺ بعدها بأيام قليلة، ولم يخرج الجيش بعدُ، وارتدَّ كثير من العرب، وظهر النفاق، وامتنع قوم عن أداء الزكاة، واشرأبت أعناق اليهود والنصارى، فعن أم المؤمنين عائشة ﵂ قالت: قال الناس لأبي بكر ﵁ : إن جيش أسامة جندُ المسلمين، فلا ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين، فقال: «والذي نفس أبي بكر بيده! لو ظننت أن السباع تخطفني، لأنفذتُ بعْثَ أسامة، كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»، وفي رواية: «لو خطفتني الكلاب والذئاب، لم أردَّ قضاءً قضى به رسول الله».

ثم شيع الخليفة الجيش وهو ماش وأسامةُ راكب، فقال أسامة: «يا خليفة رسول الله ﷺ! لتركبنَّ أو لأنزلن»، فقال: «والله! لا تنزل، ووالله! لا أركب، وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟»**.**

ثم استأذن أن يترك له عمرَ بالمدينة، فأذن له أسامة.

فكان إنفاذ الجيش من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين؛ فإن العرب قالوا: لو لم يكن بالمسلمين قوة، لما أرسلوا جيشاً لحرب الروم، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون فعلَه، فأقام الجيش أربعين، ورجعوا سالمين غانمين(٢).

ثانياً: القضاء على فتنة المرتدين والمتنبئة ومانعي الزكاة: بعد وفاة النبي ﷺ ظهر في الجزيرة العربية مرتدون في قبائلَ بعينها، ومتنبئةٌ -مدَّعو النبوة- في قبائل بعينها، ومانعو زكاة في

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة، حِبَّ رسول الله ﷺ وابن حبه، صحابي من صغار الصحابة، أبوه زيد بن حارثة من كبار الصحابة، وهو أول من أسلم من الموالي، أمه أم أيمن حاضنة النبي ﷺ، مات بالمدينة سنة ٥٤هـ، له مرويات وأحاديث عن النبي ﷺ.- ابن حجر/ الإصابة (١/ ٢٠٢).

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ٤٢٤).

قبائل بعينها، وقد امتنعت البحرين عن أداء الزكاة مثل باقي أحياء العرب التي منعت، فقيض الله لهم جميعاً الخليفةَ الراشد أبا بكر الصديق، الذي أعد العدة، وأقام الجنودَ على مشارف المدينة خشيةَ الهجوم عليها، فجعل على أنقابها علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف مع الجمع من الصحابة رضوان الله عليهم، ولقد وصفت أم المؤمنين عائشة ﵂ ذلك الحال بقولها: لما قُبض رسول الله ﷺ، ارتدت العرب قاطبة، واشْرَأَبَّ -علا وارتفع- النفاقُ، والله! لقد نزل بي وبأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها -كسرها-، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزى مُطَيَّرَة في حُشّ في ليلة مَطيرةٍ بأرضٍ مُسْبعة(١).

فكان ما توقع، وجاءت بعض قبائل العرب المرتدة، فتصدى لهم الصحابة، وردوهم على أعقابهم، ثم عبأ الخليفة جيشاً من الصحابة الباقين بالمدينة، وخرج إلى ذي القصة، وهاجم هؤلاء، فأنزل بهم هزيمة نكراء، وكان نصراً فرح به المسلمون، بالرغم من قلتهم وطمعِ العرب فيهم. وبعد أن رجع جيش أسامة، واستراح، أعلن النفير العام، وتعبئة العامة لمحاربة المرتدين، فجيَّش الجيوش إلى أحد عشر لواءً، وعيّن على كل لواء قائداً، وعين لكل قائد الجهة التي يمضي إليها، وكان من هؤلاء القادة: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، والمهاجر بن أبي أمية، وعمرو بن العاص، والعلاء بن الحضرمي، وشرحبيل بن حسنة ﵃. ووجه رسالة واحدة إلى جميع المرتدين مع كل قائد قبل بدء قتالهم، دعاهم فيها إلى لزوم الطاعة، والعودةِ إلى الجماعة، وذكَّرهم بالله ورسوله، فمن استجاب منهم كف عن قتاله، ومن أبى قاتله. وكان من أهم المعارك التي خاضتها الجيوش: معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وأربعين ألفاً معه، وكان قائد المسلمين خالد بن الوليد ﵁، الذي قاد الجيش إلى معركة حاسمة سقط فيها الآلاف من أتباع مسيلمة قتلى، قبل أن يتحصن بحديقة الموت التي لقي فيها حتفه على يد الصحابة الأطهار، فَقُضي على تلك الفتنة.

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية (٩/ ٤٢٣).

والمقصود أن هذه الماعز في عمى وحيرة في تلك الليلة المطيرة الشاتية المظلمة وفي ذلك المكان الضيق، وفي تلك الأرض المليئة بالسباع، والحش: البيت الحقير القريب السقف من الأرض.

البحرين والردة:

كان المنذرُ بنُ ساوي التميمي ﵁ أميراً على البحرين، وكان العلاء بن الحضرمي ﵁ عاملَ رسول الله ﷺ عليها، فلما مات المنذر، ارتدّ أهل البحرين، وملّكوا عليهم الغرور، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر، وقال قائلهم: لو كان محمد نبياً ما مات، فما بقي بالبحرين قرية إلا ارتدت، ومنعت الزكاة سوى جواثى، فهي التي أقيمت بها أول جمعة كما أسلفنا، واستعمل الله الجارودَ في تثبيت قومه على الإسلام، فقد قام خطيباً في قومه بعد أن جمعهم وقال: يا معشر عبد القيس! إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتموه، ولا تجيبوني إن لم تعلموه، فقالو: سل.

قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد ﷺ؟ قالوا: نعم. قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا. قال: فإن محمداً ﷺ مات كما ماتوا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالوا: ونحن أيضاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنت أفضلنُا وسيدنا.

فثبتهم الله على إسلامهم بالجارود، وتركوا بقية الناس فيما هم فيه، وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم حتى مُنِعُوا من الأقوات، وجاعوا جوعاً شديداً إلى أن فرج الله عنهم، وقد قال رجل منهم يقال له عبد الله بن حذف أحد بني بكر بن كلاب:

ألا أبلغْ أبا بكرٍ رسولاً   وفتيانَ المدينة أجمعينا
فهل لكمُ إلى قوم كرام   قعودٍ في جواثى محاصَرينا
كأن دماءهم في كل فج   شعاع الشمس يغشى الناظرينا
توكلنا على الرحمن إنا   وجدنا الصبر للمتوكلينا

بعث الخليفة ﵁ العلاء بن الحضرمي ﵁ الذي استطاع أن يرفع عنهم الحصار، وأن يرد المرتدين على أدبارهم، وينتصر عليهم.

ولقد خاض العلاء غمار حروب الردة بالبحرين وجُزرها، وخاض بجيشه لجج البحر غير هيّاب له، قال أبو هريرة ﵁، وهو أحد من كان إلى جوار العلاء في هذه المعارك: لما فر جيش المرتدين عابراً البحر مستخدماً السفن، ولم نكن ندرك عدونا بالسفن، دعا العلاء بن الحضرمي ربه، وأمر الجيش بالعبور، وكان من دعائه: يا أرحم الراحمين، يا حكيم يا كريم، يا أحدُ يا صمد، يا حي يا محيي الموتى يا حي قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت يا ربنا أجرنا من هذا البحر، وأمر الجيوش أن يقولوا ذلك ويقتحموا، ففعلوا، فمشينا على الماء، فو الله! ما ابتلّ لنا قدم ولا حافر(١).

وكان المسلمون قد أوقعوا بالمرتدين هزيمة عظيمة، وغنموا منهم غنيمة جسيمة، وقتلوا فيهم قتلاً عظيماً، وفر منهم من تبقى إلى السفن في البحر إلى دارين، وتبعهم العلاء إلى هناك يمشي بجيشه على الماء كما أسلفنا، فقاتل عدوه وقهره، وغنم منهم غنيمة عظيمة، وكان ذلك كله في يوم واحد، واستاق معه الذراري والأنعام والأموال، ثم قسّم الغنيمة بين الجيش، وكتب إلى الخليفة بما فتح الله عليه، فبعث إليه الصديق رسالة يحمد الله تعالى فيها على توفيقه ونصره.

قال عفيف بن المنذر أحدُ جنود المسلمين:

ألم تـرَ أن الله ذَلَّـل بحـره   وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دَعَوْنا الذي شقَّ البحار فجاءنا   بأعجب من فلق البحار الأوائل

ولقد رأى راهبٌ من أهل هجر هذه الكرامات التي أجراها الله تعالى للعلاء، فأسلمَ، فقيل له: ما دعاك إلى الإسلام؟ فقال: خشيت إن لم أفعل أن يمسخني الله لما شاهدت من الآيات، وقد سمعت في الهواء وقت السحر دعاءً، قالوا: وما هو؟ قال: اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك، والبديع ليس قبلك شيء، والدائم غير الغافل، والحي الذي لا يموت، وخالق ما يُرى ومالا يُرى، وكل يوم أنت في شأن، وعلمت اللهم كل شيء علماً، قال الراهب: فعلمت أن القوم لم يُعانوا بالملائكة إلا وهم على أمر الله.ا.هـ.

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية (٩/ ٤٧٩).

ثالثاً: بدء حركة الفتوح الإسلامية: أرسل الله تعالى رسوله بالهدى ودين الحق للناس كافة، ليخرج الناس من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والتوحيد، وأصحابُه من بعده بل وأمتُه تبع له في ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧]، وقال ﷺ: «بُعثت بين يدَي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(١).

ولذلك فهم الصحابة أنهم عليهم مهمة بلاغ هذا الدين للناس، وفهموا أيضاً أن الجهاد وسيلة لإزاحة العقبات من طريق الدعوة، ولذلك كانوا قبل أي قتال يعرضون الإسلام على أعدائهم، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فالسيف.

وبعد أن أخمد الخليفة أبو بكر بفضل الله تعالى فتنة الجزيرة العربية، بدأ بتجييش الجيوش لغزو أشد قوى الكفر آنذاك، وأكبر القوى العسكرية المادية في زمانهم، وهما: فارس في المشرق، والروم في المغرب.

ولعل الله تعالى ألهم الخليفة هذا الأمر؛ ليشغلَ الأمة فيما ينفعها وينفعُ بها غيرها، ولتنصرفَ فتوة وقوة القبائل في الجزيرة العربية إلى أعداء الأمة الإسلامية، ففي ذلك مصلحة كبرى، وقربى إلى الله تعالى بالجهاد في سبيله، لتتنزلَ عليهم الرحمات، وتُدفع عنهم وبهم اللعنات، ويتعاونوا على البر والتقوى، وتزدادَ بينهم أواصر الأخوة والمحبة والمصاهرات، فينصهروا جميعاً في جسد الأمة الواحدة، إلى جانب دعوتهم لغيرهم من الشعوب المقهورة بطواغيتَ يعيقون المد الإسلامي عنهم، فاستنقذ الله بهؤلاء العرب هذه الشعوب من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ولقد شاركت البحرين بفلذات كبدها وقادتها ورجالها في هذه الفتوحات في المشرق، وبخاصة في بلاد فارس، وبعضهم توجه مع الفاتحين إلى بلاد الشام حتى تم فتح فارس والروم، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

(١) حديث صحيح . رواه أحمد والطبراني - أخرجه الألباني/ صحيح الجامع (١/ ٥٤٥/ح:٢٨٣١).

فكانت بداية الفتوحات على الجبهة الشرقية في بلاد فارس بقيادة المثنى بن حارثة ﵁ الذي استطاع أن يُخضع العربَ على حدود فارس، ثم طلب المثنى مدداً من الخليفة، فأرسل إليه سيفاً سله الله على أعدائه، وهو خالد بن الوليد ﵁، الذي أمره الخليفة أن يتولى إمارة الجند، وأن يقود الفتوحات داخل بلاد فارس، فلما وصل خالد والتقى بالمثنى، نظم الجيش، وأرسل إلى الفرس يعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو القتال، فأبى عُبَّاد النار إلا القتال، فكانت المعارك التالية: ذات السلاسل، معركة المذار، معركة الولجة، معركة أليس -فتح أمغيشيا-، فتح الحيرة، ذات العيون -فتح الأنبار، عين التمر، دومة الجندل، الحصيد -الخنافس-، المُصيخ، معركة الفراض، وانتهت جميعها بهزائم ساحقة للفرس، وانتصارٍ مؤزر للمسلمين بفضل من الله ومنة، كانت بداية للفتوحات الكبرى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وبعد أن أرسل الخليفة خالداً ﵁ إلى فارس، بدأ ينظم أربعة جيوش أخرى لفتح بلاد الروم بقيادة: أبي عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل ابن حسنة ﵃، فلما وصلوا إلى هناك، ورأوا أرض الروم وما بها من الحصون والعتاد، أرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه المدد لمواجهة قوة الروم التي قدرت بـ: مئتين وأربعين ألف مقاتل، فرد عليهم الخليفة بقوله: خالد لها، والله! لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.

ثم أرسل الخليفة إلى خالد ﵁، يأمره بالتوجه إلى المسلمين بالشام على رأس جيشه الذي ذهب به إلى العراق، وهم تسعة آلاف وخمس مئة مقاتل، وأن يترك قيادة الفتوحات بالعراق للمثنى بن حارثة ﵁.

فالتقى المسلمون جميعاً بقيادة خالد بن الوليد ﵁، وعددهم يزيد عن أربعين ألف مقاتل أمام قوة الروم التي تفوقهم عدداً في موقعة اليرموك التي كانت أولى الفتوحات الكبرى التي غيرت وجه التاريخ ببلاد الروم، وانتهت بهزيمةٍ ساحقة للروم، وانتصارٍ مؤيدٍ من الله للمسلمين.

ولم تكتحل عين الخليفة لا بهذا النصر، ولا بسماعِ خبره، إذ أنه لقي ربه قبل بدايات المعركة بأيام قليلة، ولم يدر جند المسلمين شيئاً عن وفاته إلا بعد المعركة.

ولما سمع إمبراطور الروم بخبر الهزيمة، وانتصار المسلمين، قال: أما الشام فلا شام، وويل للروم من المولود المشؤوم، ثم قال لقومه الفارين: ويلكم! أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقْتلونكم، أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟! فقال شيخ من عظمائهم وعقلائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم.

ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، وننهى عما يُرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال هرقل: أنت صدقتني(١).

قلت: وكان رد هذا الشيخ في محله، ولعل المتأمل فيما قال يجد عجباً وتفسيراً لتراجع أمة الإسلام اليوم، فلقد أصبحت تماثلهم وتقلدهم في كل صغيرة وكبيرة، ولا تبالي بولاء وبراء، أو حلال أو حرام، وقد نهانا الله عن ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

فنحن في زماننا تفشت بيننا الأمراض الاجتماعية، والمفاسد الأخلاقية، والجهر والإعلان بالفواحش؛ من أكل الربا وشرب الخمر والزنا، وتعدى ذلك إلى الشذوذ والضلال بسبب الاختلاط والتعري، وكل ذلك باسم الحرية والرقي والتقدم الفكري، وحقيقة ذلك أنها عبودية للهوى والشيطان، والنفسِ الأمارة بالسوء؛ مما أعمى أعيننا عن الحقائق، وغفلْنا وتناسينا أن الأمة الإسلامية لم تتقدم وتحقق أهدافها في السابق إلا بعون من الله تعالى، ونسينا أن هذا العون لا يكون إلا للذين يقيمون الشعائر والشرائع مقبلين على ربهم غيرَ مدبرين عنه، صادقين في معتقدهم وأقوالهم وأفعالهم.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ٥٦٧).

رابعاً: جمع القرآن الكريم: لعل من أجلِّ وأعظم الأعمال التي قام بها الصديق في خلافته، هي جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وكفاه فخراً أن يكون أول من حفظ الله به كتابه من النقص أو التحريف، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:٩]، وكفاه أجراً إن شاء الله تعالى أن يكون له مثل أجر كل قارئ وحافظ بعده إلى ما شاء الله تعالى.

وسبب ذلك: أن القتل قد كثر في القراء يوم اليمامة في حروب الردة، فجاء عمر بن الخطاب ﵁ إلى أبي بكر الصديق ﵁ وقال له: إني لأخشى أن يستحِرَّ القتل -أي يكثر- بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القراء إلا أن يجمعوه، وإني لأرى أن يجمع القرآن، فقال أبو بكر الصديق ﵁: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو ـ والله ـ خير، فلم يزل يراجع أبا بكر حتى شرح الله صدره لهذا العمل الجليل(١).

فانتدب لذلك زيدَ بن ثابت ﵁، فجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب والصدور، فجزاهم الله عن دينهم ونبيهم وأمتهم خير الجزاء، وجزاهم عن كتاب ربهم رفقة نبيهم في الآخرة كما رافقوه في الدنيا، وأن يحشرنا معهم يوم القيامة. وهكذا جمع القرآن الكريم كاملاً في مصحف واحد؛ مما أدّى ألا يقع فيه خلط أو تحريف كما حدث في الكتب السابقة.

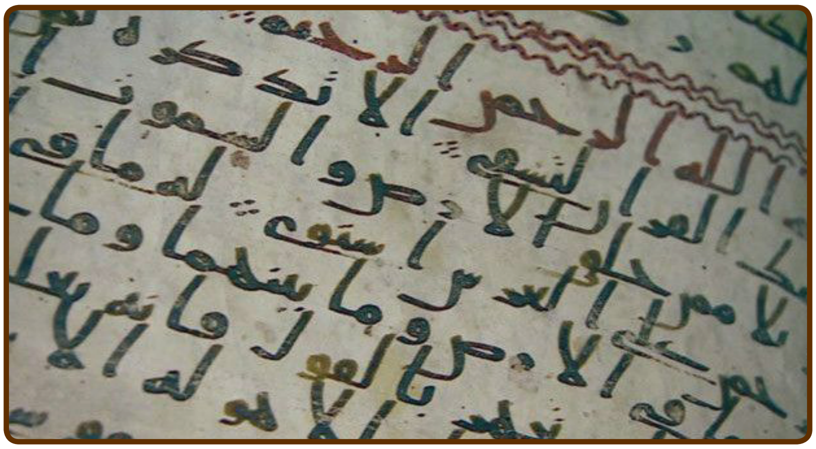

صورة لنسخة قديمة للمصحف الشريف

---

(١) رواه البخاري (٩/ ١٤/ح:٤٩٨٦).

وفاته رضي الله عنه:

مرض أبو بكرٍ ﵁ بالحمى خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة، وأمر عمرَ أن يصلي بالناس.

ولما شعر بدنو الأجل، جمع عدداً من أكابر أصحاب النبي ﷺ، وقال لهم :إنه قد نزل بي ماترون، ولا أظنني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحل عنكم عقدتي، ورد عليكم أمركم، فأمِّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم في حياةٍ مني كان أجدَر ألا تختلفوا بعدي .

فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهِلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، ثم استشار عدداً منهم فى تولية عمر بن الخطاب ﵁ بعده، وكان ممن استشاره: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، وأسيد بن حضير ﵃ فقالوا في عمر خيراً.

ثم كتب الخليفة عهداً للمسلمين يُتلى عليهم في المسجد، ثم أرسل الخليفة العهد إلى الناس، فقرئ عليهم، ثم أشرف عليهم وقال: أترضون بمن استخلفت عليكم؟ فإني مااستخلفت عليكم ذا قرابة ، وإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فإني ـ والله ـ ما آلوتً من جهد الرأي، فإن عدل، فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، فقام عليّ وقال: لا نرضى إلا بعمر.

ثم أرسل إلى عمر فجاءه، فقال له: يا عمر! إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ، فاتقِ الله فيهم وفي أمة محمد ﷺ.

ومما أوصاه به: يا عمر! إن لله حقاً بالليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلةً حتى تُؤدى الفريضة، ألم ترَ يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحُق لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم ترَ يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحُق لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً.

ظل المرض يزداد على الخليفة يوماً بعد يوم إلى أن لقي الله تعالى يوم الإثنين، وكانت تطببه ابنتُه أمُّ المؤمنين عائشةُ ﵂، فلما كان اليوم الذي مات فيه، قالت بقول لَبيد الشاعر:

لَعمرُك ما يغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدر

فنظر إليها كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق:١٩].

ثم قال لها: أما إنّا منذ وُلّينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكنّا قد أكلنا من جريش طعامهم، ولبسنا من خشن ثيابهم (يقصد ما كان يصرف له من بيت مال المسلمين) وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد، وهذا البعير، وهذه القَطيفة (قطعة قماش)، فإذا مِتُّ فابعثي بالجميع إلى عمر، فلما مات، بعثته، فلما رأى عمر ذلك بكى حتى سالت دموعه إلى الأرض، وجعل يقول: رحم الله أبا بكرٍ، لقد أتعب مَنْ بعدَه، ويكرر ذلك⁽١⁾.

وكان آخر ما قال ﵁: «ربِّ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين»⁽٢⁾.

وجاء علي بن أبي طالب ﵁ يوم الوفاة، فوقف بالباب وقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت ـ والله ـ أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غَناءً، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم -أشفقهم وأعطفهم- على الإسلام، وأحناهم على أهله، وأشبههم برسول الله خَلقاً وخُلقاً، وهدياً وسمتاً، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله خيراً، صدَّقت رسولَ الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وأسماك الله فى كتابه صديقاً: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]، يريد محمداً ويريدك، وكنت للإسلام حصناً، وعلى الكافرين عذاباً، لم تقلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف، ولا تزيله القواصف، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى

---

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبرى (٣/ ١٤٦-١٤٧).

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٢/ ٧٦).

بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين، ولم يكن عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقويُّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قويٌّ حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك(١).

وكانت وفاته رضي الله عنه يوم الإثنين ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة، وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، حقق خلاله مالم تحققه الأمم خلال القرون.

رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

---

(١) محمود شاكر/ التاريخ الإسلامي (١٠٦/٣).

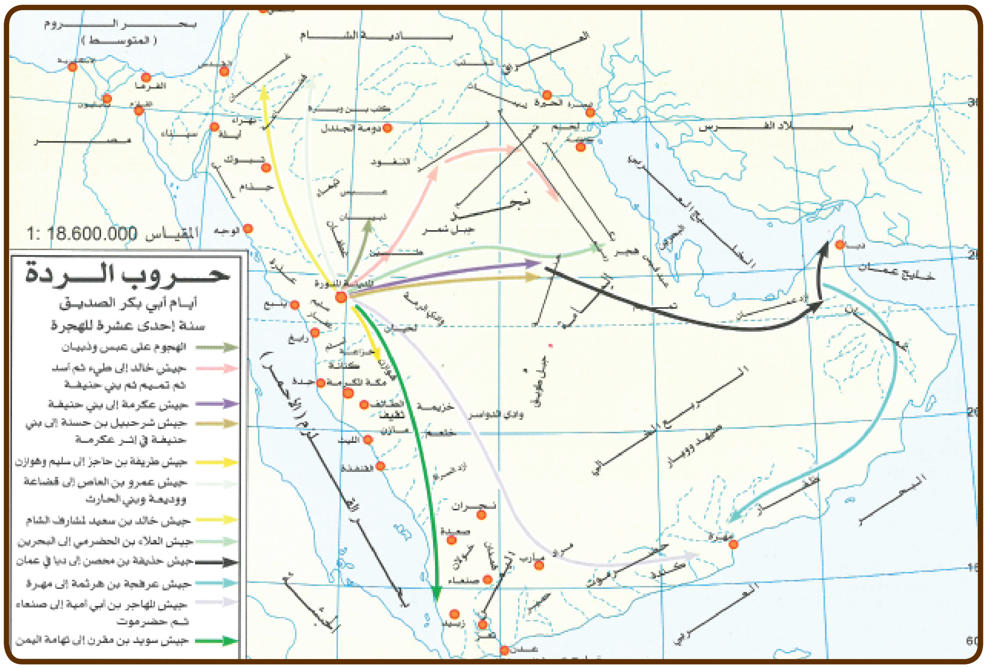
حـــروب الـــردة
أيـام أبي بكر الصديـق
سنة إحدى عشرة للهجرة
الهجوم على عبس وذبيان
جيش خالد إلى طيء ثم أسد ثم تميم ثم بني حنيفة
جيش عكرمة إلى بني حنيفة
جيش شرحبيل بن حسنة إلى بني حنيفة في إثر عكرمة
جيش طريفة بن حاجز إلى سليم وهوازن
جيش عمرو بن العاص إلى قضاعة ووديعة وبني الحارث
جيش خالد بن سعيد لمشارف الشام
جيش العلاء بن الحضرمي إلى البحرين
جيش حذيفة بن محصن إلى دبا في عمان
جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة
جيش للهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء ثـم حضرموت
جيش سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن
المقيـاس 1: 18.600.000
بحـر الـروم (المتوسـط)
باديـة الشـام
مصـر
بلاد الفـرس
نجد
المدينة المنورة
مكة المكرمة
الطائف
تبوك
دومة الجندل
الحيرة
نجران
صنعاء
عدن
مهرة
دبا
خليج عمان

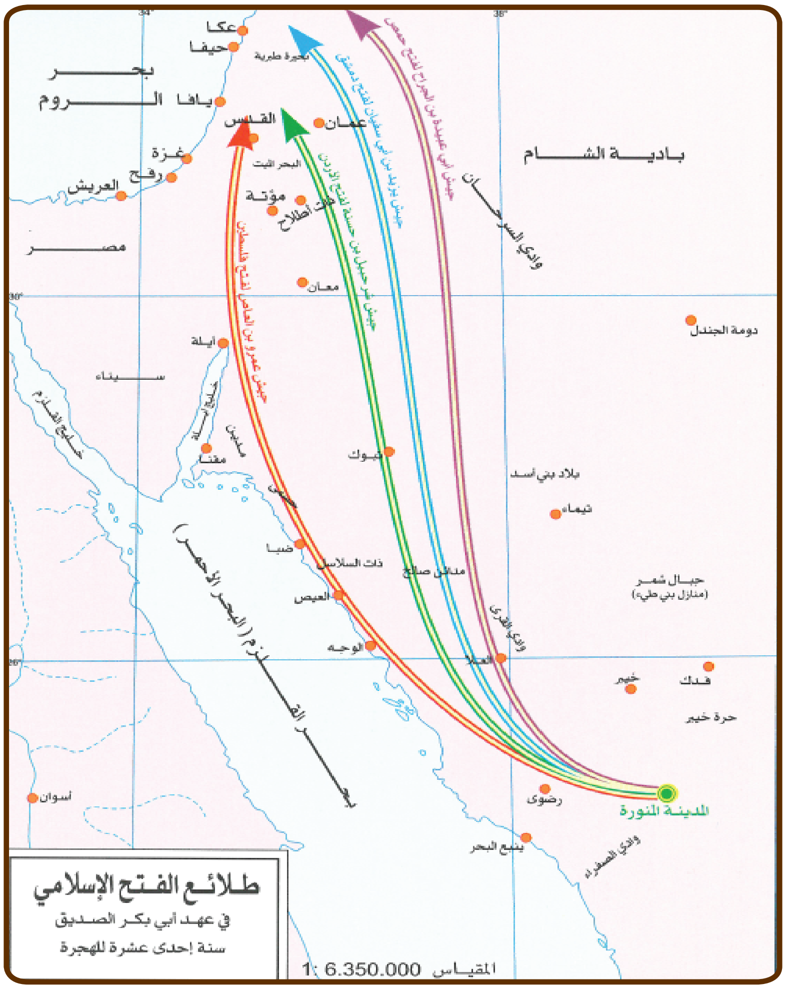
طلائـع الفـتح الإسلامي
في عهـد أبي بكـر الصـديق
سنة إحدى عشرة للهجرة
المقيـاس 1: 6.350.000
بحـر الـروم
باديـة الشـام
مصـر
عكا
حيفا
يافا
القدس
عمان
غزة
رفح
العريش
البحر الميت
مؤتة
ذات أطلاح
معان
دومة الجندل
أيلة
سيناء
تبوك
بلاد بني أسد
تيماء
ذات السلاسل
مدائن صالح
جبال شمر (منازل بني طيء)
العيص
الوجه
العلا
خيبر
فدك
حرة خيبر
رضوى
المدينة المنورة
ينبع البحر
وادي الصفراء
أسوان
بحيرة طبرية
جيش عمرو بن العاص لفتح فلسطين
جيش شرحبيل بن حسنة لفتح الأردن
جيش يزيد بن أبي سفيان لفتح دمشق
جيش أبي عبيدة بن الجراح لفتح حمص

البحرين
في عهد الخلافة الراشدة
١١هـ ـ ٤١هـ

الفصل الثاني

الخليفة الراشد الثاني

عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٣هـ ـ ٢٣هـ

اسمه ولقبه وقرابته لرسول الله ﷺ:

عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزَّى بن رَباح بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عديٍّ ابن كعب بن لؤيٍّ القرشيُّ، يلتقي مع النبي ﷺ في جدِّه كعبٍ.

لُقب بالفاروق عند إسلامه؛ لأن الله تعالى جعل إسلامه فتحاً و نصراً للمسلمين، فرّق به بين الحق والباطل.

عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر، كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم، قاتلهم حتى تركونا فصلينا(١).

تزوج النبي ﷺ **من حفصةَ ابنةِ عمر** ﵁، كما تزوج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنتِ فاطمةَ ابنةِ النبي ﷺ، وأبوها عليٌّ ﵁، فهو صهرٌ للنبي ﷺ من جهة، ونسيبُه من جهة أخرى، وفي هذا منقبة وشرف ومنزلة لعمر ﵁.

روى الذهبي: أن عمر ﵁ لما خطب أم كلثوم بنتَ علي قال له: ما تريد إليها؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كلُّ سبب ونسب منقطعٌ يوم القيامة إلا سببي ونسبي، فأحببت أن يكون لي منكم أهلَ البيت سبب وصهر، فقام علي: فأمر بابنته من فاطمة فزينت، ثم بعث بها إلى أمير المؤمنين(٢).

مولده:

وُلد بمكة بعد سنة الفيل بثلاث عشرة سنة، ونشأ بها، وتعلم القراءة والكتابة، وأصبح واحداً من المتقنين لهما في قريش، ورعى الإبل لأبيه وهو صغير، فنشأ على صفات القوة والحكمة.

له رحلات متعددة للتجارة أكسبته معرفة بالمجتمعات والبلدان المجاورة لجزيرة العرب واليمن؛ مما دفع قريشاً أن تجعل له السفارة في الجاهلية، فكانوا يرسلونه إذا وقعت بينهم وبين قوم حربٌ يفاخر ويفاوض ويحاور عن قريش.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٣/ ح:٣٦٨٤).

(٢) رواه الطبراني في الكبير، وأبو بكر الشافعي في الفوائد، وابن عدي، والخطيب في التاريخ، الألباني/ الصحيحة (٥/ ٥٨/ ح:٢٠٣٦)، ويراجع كلام الشيخ الألباني في الحديث.

إسلامه: أسلم عمر ﵁ بعد الهجرة الثانية إلى الحبشة في السنة السادسة من بعثة النبي ﷺ.

هجرته وجهاده في سبيل الله:

لما أذن الله تعالى لنبيه ﷺ ولأصحابه ﵃ بالهجرة إلى يثرب، كان عمر بن الخطاب ﵁ من أوائل من أجاب لذلك، وخرج مهاجراً في سبيل الله.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، كان عمر ﵁ أحد وزيريه بعد أبي بكر، فكان يستشيرهما ﷺ فيما يستجد من أمور للمسلمين.

ولما شرَّع الله تعالى الجهاد للمسلمين، كان عمر ﵁ من أول المجيبين لذلك، ولم يتخلف عن النبي ﷺ في غزوة من غزواته، بل شهد المشاهد كلها، ولم يغب عن واحدة منها، وأبلى فيها بلاءً حسناً بالرأي وبالسيف.

حج مع النبي ﷺ حجة الوداع، وظل إلى جوار رسول الله ﷺ حتى قُبض ﷺ.

وفي عهد الخليفة أبي بكر الصديق ﵁ كان عمر ﵁ مستشاره الأمين، ووزيره الحاذق المعين له على تسيير أمور المسلمين.

مناقبه وفضائله:

لعمر ﵁ مناقب وفضائل جمَّة رويت بسندٍ صحيح في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة المعتمدة، وكتب التاريخ والسير والتراجم، ومن ذلك:

- **أنه من شهداء هذه الأمة:**

روى البخاري عن أنس بن مالك ﵁ قال: صعد النبي ﷺ أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال: اثبتْ أُحُد، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان.

- **أنه من ملهَمي ومحدَّثي هذه الأمة:**

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون -ملهمون- فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر»(١).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال عمر ﵁: وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر(٢).

وفي رواية للبخاري: اجتمع نساء رسول الله ﷺ في الغَيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت الآية بذلك(٣).

عن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب(٣)».

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلولَ، جاء ابنه عبد الله ابن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أتُصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: (إنما خيَّرني الله فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة» وسأزيد على سبعين) قال: إنه منافق(٤).

فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة:٨٤]، وزاد في رواية: فترك الصلاة عليهم.

وقد ذكر السيوطي في «تاريخ الخلفاء»، والهيثمي في «مجمع الزوائد» كثيراً من الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة في فضل عمر ﵁، وقد فصل السيوطي في بيان موافقات الوحي لكلام عمر فقال: فصل في موافقات عمر ﵁: قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين،

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٣٥/ ح:٢٣٩٩).

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٥٣/ ح:٤٠٢).

(٣)رواه الترمذي (٣/ ٢٠٤/ ح:٣٩٥١)، أخرجه الألباني/ الصحيحة (١/ ٦٤٦/ ح:٣٢٧).

(٤) الحديث بطوله رواه مسلم في صحيحه (٨/ ١٣٦/ ح:٢٤٠٠).

أخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: كان عمر يرى الرأي، فينزل به القرآن، وأخرج ابن عساكر عن علي قال: إن في القرآن لرأياً من رأي عمر(١).

وأخرج عن ابن عمر مرفوعاً: ما قال الناس في شيء، وقال فيه عمر، إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر(٢).

أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربي في أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ (١٢) ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ (١٣) ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٢-١٤]. فلما نزلت، قلت أنا: فتبارك الله أحسنُ الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤](٣).

- **كما ذكر السيوطي** في تاريخ الخلفاء: أنه لما استشار النبي ﷺ أصحابه في قصة الإفك قال عمر: من زوجكها يا رسول الله؟ قال: الله، قال: أفتظن أن ربك دلس عليك فيها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم! فنزلت كذلك(٤).

- **ولقد ذكر أهل العلم** الكثير في هذا الباب، حتى إنهم أفردوا لموافقات عمر للوحي فصولاً خاصة في كتبهم.

عن علي بن أبي طالب ﵁: أن النبي ﷺ قال: «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين»(٥). وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة».

---

(١) السيوطي/ تاريخ الخلفاء (١/ ٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ٢٠٤/ح:٣٩٤٧).

(٣) السيوطي/ تاريخ الخلفاء (١/ ١٠٠).

(٤) أخرجه الألباني/ الصحيحة (٣/ ٤٦٧/ح:٨٢٤).

(٥) أخرجه الألباني/ الصحيحة (٧/ ٦٨١/ح: ٣٢٢٥).

خلافته ﵁ :

سبق أن بينّا أنه عندما نزل بالخليفة الأول أبي بكر مرض الموت، خشي الخليفة على وحدة المسلمين من الفرقة بعده، وجيوشُ الإسلام تخوض غمار الفتوحات في فارس والروم، فاستشار جمعاً من كبار أصحاب النبي ﷺ، أمثال: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأسيد بن حضير رضي الله عنهم، فيمن يولي من بعده خليفة على المسلمين، وعرض عليهم عمر بن الخطاب، فأشاروا عليه به ليكون ثاني الخلفاء الراشدين، وعندما أُعلن ذلك للناس في مسجد رسول الله ﷺ، رضي الناس به خليفة، فلما مات أبو بكر ﵁ ، صعد عمر بن الخطاب المنبر، ثم خطب الناس بعد أن بايعوه خليفة عليهم، وعمر ﵁ هو أول من سمي بأمير المؤمنين.

أبرز الأعمال التي قام بها في خلافته:

أولاً: الفتوحات: استهل الخليفة عمر بن الخطاب عهده باستمرار الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، والتي كان قد بدأها الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﵁ ، حتى استطاع أن يقوِّض ملك فارس والروم بعد أن خاضت الجيوش في عهده غمار معارك متوالية غيرت وجه التاريخ في فترة زمنية وجيزة إذا قيست بغيرها من تاريخ الأمم.

وقد وقع في عهده الغزوات والفتوحات التالية:

فتوحات العراق (فارس):

- معركة الجسر سنة ١٣ هـ.
- معركة البويب سنة ١٣ هـ.
- معركة القادسية سنة ١٥هـ.
- فتح المدائن: سنة ١٦ هـ.
- فتح نهاوند (فتح الفتوح) سنة ٢١ هـ.

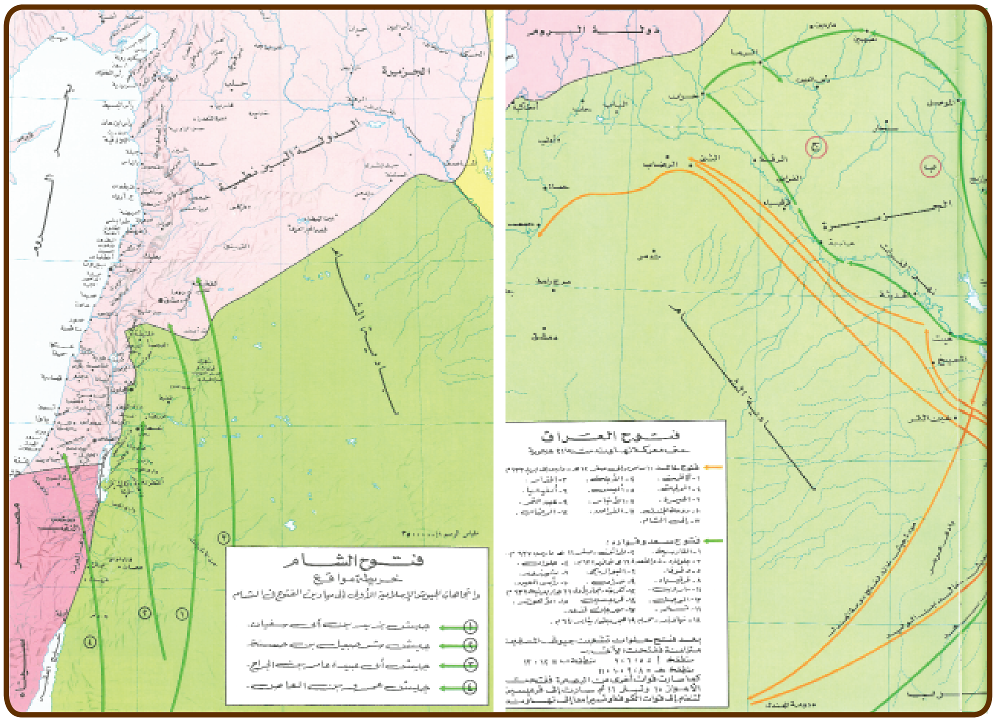

خارطة فتوحات الشام والعراق في عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

وقد مكن الله تعالى لجنده وأوليائه بأن مزق مُلك كسرى على أيدي هؤلاء الفاتحين، وَوُحِّد الله تعالى بعد أن عُبدت النار في تلك المناطق زماناً بعيداً، فلله الحمد والمنة، ولقد قام الصحابة بإنهاء الدور التاريخي إلى الأبد لدولة فارس المجوسية كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده».

ولقد أبلى أهل البحرين في هذه المعارك بلاءً حسناً منذ أن بدأت الفتوحات في فارس، فلقد أمدت البحرين الجيوش الإسلامية بالرجال والأموال والعتاد، وبذلت النفس والنفيس لتحقيق غايات الإسلام العظمى، وهي أن يُعبد الله وحدَه لا شريك له.

ولقد نالت الفتوحات في فارس، وخاصة معركة القادسية، الاهتمامَ الكبير من المسلمين، ولقد سرد المؤرخون أحداث القادسية سرداً دقيقاً؛ لأنها كانت الفاصلة في حروب المسلمين بأرض فارس، ولم تنل معركة في التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ من الاهتمام ما نالته هذه المعركة.

قال الطبري: إن العرب في جميع أنحاء الجزيرة كانوا متعلقين بأخبار هذه المعركة ليعرفوا نتيجتها، حتى إن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية.

ولقد حقق الله تعالى فيها نصراً مؤزراً للمسلمين على الفرس، وغنموا غنيمة عظيمة، وأرسل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قائدُ جيش المسلمين رسالة يبشر فيها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بهذا الفتح، جاء فيها ما يدل على إخلاص الرجال الذين خاضوا معه هذه المعركة، سواء كانوا من البحرين، أو من غيرها، فكلهم انصهروا في بوتقة الإسلام، وقاتلوا تحت رايته، حتى إنهم من شدة إخلاصهم لا يعرف بعضهم إلى الصحابة رضي الله عنهم وإلى قائد الجيش سعد وإلى أمير المؤمنين عمر.

قال سعد في رسالته: إن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل وزلزال شديد، ولقد لقوا المسلمين بعُدة لم ير الراؤون مثل زهائها – مقدارها – ، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعيد بن عبيد القارئ، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم، الله بهم عالم، كانوا يدوّون بالقرآن إذا جن الليل دويّ النحل، وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود، ولم يفضلوا من مضى منهم على من بقي إلا بالشهادة إذ لم تكتب لهم.

وقد واصلت الجيوش الإسلامية فتوحاتها في الجبهة الشرقية، فقامت بفتح المدائن عاصمة الفرس، ثم توجت هذه الفتوحات بفتح الفتوح معركة نهاوند، ثم أتبعتها بفتوحات كان من أهمها:

- فتح إقليم أذربيجان سنة ٢٢هـ.
- فتح باب الأبواب سنة ٢٢هـ، وتسمى اليوم مدينة دربند ضمن جمهورية داغستان في روسيا.
- فتح قومس سنة ٢٢هـ في طبرستان.

- فتح جورجان سنة ٢٢هـ في شمال إيران.
- فتح همذان والرَّي (طهران) سنة ٢٢هـ.
- فتح إقليم أصبهان سنة ٢٢هـ بإيران.
- فتح إقليم ساجستان سنة ٢٢هـ شرقيّ إيران وشمال بلوشستان بين إيران وأفغانستان.
- فتح إقليم مكران سنة ٢٢هـ شرق إيران وغرب باكستان يطل على بحر العرب.
- غزو الترك سنة ٢٢هـ.
- غزو خراسان سنة ٢٢هـ.
- غزو الأكراد سنة ٢٣هـ.

فتوحات الشام:

وأما على الجهة الأخرى، فكانت جيوش المسلمين تخوض غمار حروب متتابعة مع دولة الروم النصرانية، واستطاعت أن تستخلص من يدها بلاد الشام، وذلك بعد عدة معارك كان من أهمها:

- فتح دمشق سنة ١٤ هـ.
- فتح قنسرين سنة ١٥ هـ.
- فتح حلب وأنطاكية سنة ١٥ هـ.
- فتح قيسارية ١٥ هـ.
- فتح سواحل بلاد الشام: (صور- صيدا- بيروت- جبيل- طرابلس- غزة).
- فتح بيت المقدس سنة ١٦ هـ.
- فتح الجزيرة (بين دجلة والفرات) سنة ١٩ هـ.

فتح بيت المقدس:

بعد أن قام عمرو بن العاص بفتح كل من اللدّ ونابلس وبيت جبرين ويافا وغيرها من مدن فلسطين، لم يبق أمام المسلمين سوى بيت المقدس التي حاصرها أبو عبيدة وخالد بن الوليد لمدة أربعة شهور، ولما كتب أبو عبيدة إلى أهل بيت المقدس يدعوهم إلى الإسلام، أو الدخول في طاعة المسلمين ودفع الجزية، رفضوا في البداية، ولكن عندما وجدوا أنفسهم في حصار شديد، وأيقنوا بانقطاع المدد عنهم، وأنهم مأخوذون لا محالة، طلبوا الصلح على أن يباشر ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي توجه إلى بلاد الشام، ودخل بيت المقدس صلحاً بعد أن أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم مقابل دفع الجزية، ومن أبرز شروط الصلح: أن لا يسكن مدينة بيت المقدس اللصوص واليهود.

ومما يذكر في مقدم عمر رضي الله عنه إلى الشام: أنه لما خرج إلى الشام مع أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، أتوا على مخاضة – تجمع ماء كالبحيرة – وعمرُ على ناقة له، فنزل عنها، وخلع خفيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين! أنت تفعل هذا! تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة، ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال عمر رضي الله عنه: أووه، لو يقول ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله(١).

الفتوحات في الغرب:

توجهت الجيوش الفاتحة نحو مصر وشمال إفريقيا، وخاضت عدة معارك مع جيوش الروم كان من أهمها:

- فتح مصر (العريش سنة ١٨هـ – الفرما سنة ١٩هـ – بلبيس سنة ١٩هـ – حصن بابليون سنة ٢٠هـ – فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ).
- فتح برقة (في ليبيا حالياً) سنة ٢٢هـ.
- فتح طرابلس الغرب سنة ٢٣ هـ.

---

(١) رواه الحاكم بسند صحيح (ح:٣٠٧).

وإني أحيل القارئ إلى تفاصيل هذه الفتوحات المباركة والخالدة ـ وبخاصة الشباب الذين هم أحوج ما يكون للوقوف على ما اشتملته هذه الفتوحات من قيم وأهداف نبيلة ـ في كتاب «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير رحمه الله.

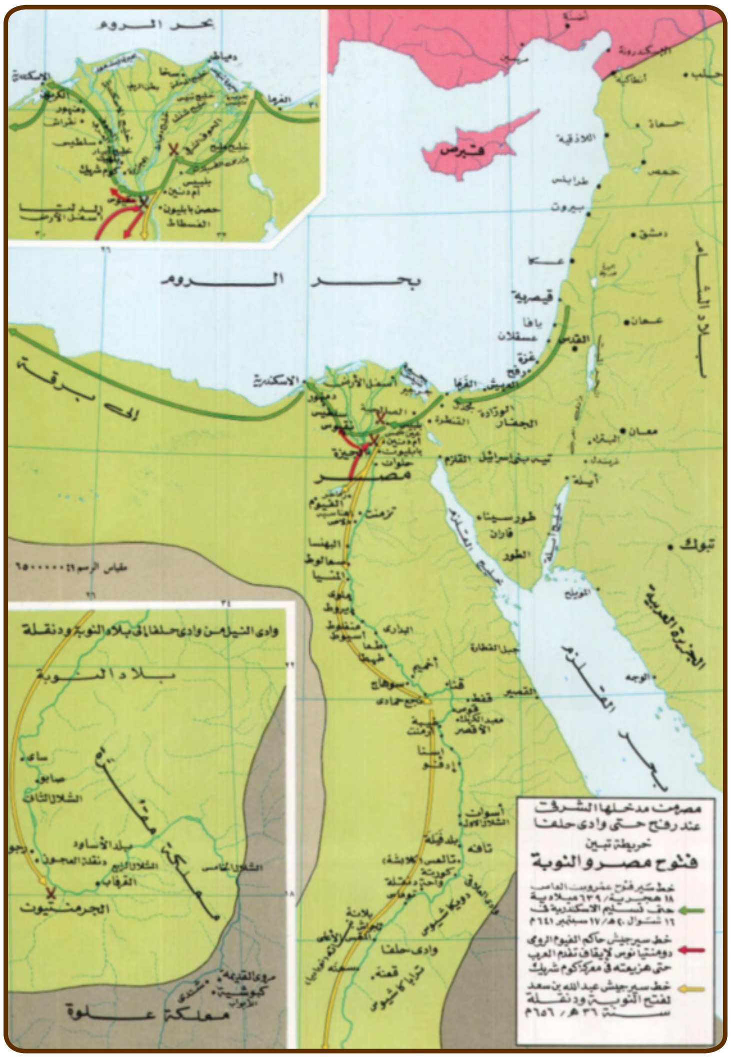
مصر مدخلها الشرقي عند رفح حتى وادي حلفا
خريطة تبين
فتوح مصر والنوبة
خط سير فتوح عمرو بن العاص ١٨ هجرية/ ٦٣٩ ميلادية حتى تسليم الاسكندرية في ١٦ شوال ٢٠ هـ/ ١٧ سبتمبر ٦٤١م
خط سير جيش حاكم الفيوم الرومي دومنتيانوس لإيقاف تقدم العرب حتى هزيمته في معركة كوم شريك
خط سير جيش عبد الله بن سعد لفتح النوبة ودنقلة سنة ٣٦ هـ/ ٦٥٦م
بحر الروم
قبرص
بلاد الشام
مصر
إلى برقة
الجزيرة العربية
البحر الأحمر
وادي النيل من وادي حلفا إلى بلاد النوبة ودنقلة
بلاد النوبة
مملكة علوة
الإسكندرية
الفرما
العريش
غزة
عسقلان
يافا
قيصرية
عكا
بيروت
طرابلس
اللاذقية
أنطاكية
حلب
حماة
حمص
دمشق
عمان
معان
أيلة
تبوك
القلزم
الفيوم
البهنسا
أسيوط
أخميم
قنا
قوص
الأقصر
أسوان
طور سيناء
الطور
القصير

ثانياً: التنظيم الإداري للدولة:

قام الفاروق بتنظيم الدولة تنظيماً إدارياً يليق بالاتساع الجديد لها، فقسَّمها إلى ولايات، وجعل على رأس كل منها والياً مسؤولاً عنها أمام الخليفة.

كما أنشأ الدواوين المختصة لتسيير أمور الدولة، وتنظيم القضاء في الولايات الجديدة، والشؤون المالية للدولة.

وكانت البحرين إحدى هذه الولايات الهامة، وقد تناوب على إمارتها في عهد عمر ﵁ العلاء بن الحضرمي ﵁، فلما توفي، تولّى أبو هريرة ﵁، ثم عثمان بن أبي ثور ﵁، ثم قدامة بن مظعون الجمحي ﵁.

ثالثاً: تأسيس مدن جديدة:

قام الخليفة عمر بن الخطاب بتأسيس مدن جديدة في الأمصار التي قام المسلمون بفتحها، وذلك لتكون معسكراً للجنود، ومقراً لهم ولأهليهم لتنطلق منها الدعوة لأهل البلاد المفتوحة، ومن ذلك: مدينتا الكوفة والبصرة في العراق، والفسطاط في مصر.

كما اهتم الخليفة بعمارة المساجد بتلك المدن، واهتم بتوسعة المسجد الحرام، والمسجد النبوي؛ لاستيعاب القادمين للحج والعمرة.

رابعاً: العمل بالتأريخ الهجري:

وهو من أهم الأعمال التي قام بها الخليفة عمر ﵁؛ إذ أنه أبرز شخصية الأمة بين الأمم، وأخذ بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ ﴾ التوبة.

وذلك بعد أن استشار أكابر أصحاب النبي ﷺ في أن يكون مبتدأ العام من هجرة النبي ﷺ(١) لا من يوم ميلاده، مخالفة للنصارى.

---

(١) وقعت الهجرة في شهر ربيع الأول وليس في شهر المحرم الذي تبتدئ به السنة الهجرية، ولكن الخليفة عمر رضي الله عنه اعتمد ذلك لأن منشأ الهجرة كان في شهر المحرم وليبتدئ العام بشهر حرام ويختم بشهر حرام ويتوسطه شهر حرام.

ولقد أشار عليه الصحابة بذلك؛ لما للتاريخ القمري الهجري من ارتباط وثيق بالوحي والأحكام الشرعية، فعدة المرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها لا تحسب إلا بالتاريخ الهجري، والزكاة لا تحسب زمنياً إلا بالتأريخ الهجري، والصوم لا يكون إلا في شهر رمضان من السنة القمرية الهجرية، والحج لا يكون إلا في ذي الحجة من أشهر السنة الهجرية، وهكذا كثير من الأحكام الشرعية التي لها ارتباط وثيق بالسنة الهجرية، لذلك قام أمير المؤمنين عمر ﵁ بوضع التأريخ الهجري القمري امتثالاً لأمر الله تعالى، وتمييزاً للأمة الإسلامية على سائر الأمم، ولتنظيم الدولة إدارياً.

خامساً: جمع المسلمين على صلاة التراويح:

روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ صلى في المسجد، وصلى بصلاته الناس، ثم صلى القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا الثالثة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان، فتوفي الرسول ﷺ والأمر على ذلك، ثم كان كذلك في خلافة أبي بكر، وصدر من خلافة عمر، حتى جمعهم عمر بن الخطاب على أبيّ بن كعب⁽¹⁾، وكان ذلك أول اجتماع الناس على قارئ واحد في رمضان⁽²⁾.

وروى مالك في الموطأ عن السائب بن يزيد ﵁: أنه قال: أمر عمر بن الخطاب أبيّ بن كعب، وتميماً الداريّ⁽³⁾ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وكان القارئ يقرأ بالمئين⁽⁴⁾، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر.

كان ذلك في شهر رمضان لسنة أربع عشرة من الهجرة النبوية، ولقد كتب عمر إلى سائر الأمصار يأمرهم بالاجتماع في قيام شهر رمضان.

---

(١) أبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار، صحابي جليل سيد القراء، يكنى بأبي المنذر، شهد العقبة وبدراً، وجمع القرآن في حياة النبي ﷺ ونقل عنه علماً مباركاً، وشرفه الله تعالى أن أمر نبيه ﷺ أن يقرأ على أبيّ سورة البينة، قال عنه النبي ﷺ: أقرأ أمتي أبيّ، توفي في خلافة عمر في سنة اثنتين وعشرين بالمدينة، وقال عمر : اليوم مات سيد الناس. الذهبي / سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٩/ ٨٢).

(٢) رواه الشيخان، البخاري (ح:٧٢٩)، ومسلم (ح:٧٦١).

(٣) تميم الداريّ: أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة اللخمي، كان نصرانياً وأسلم، وهوالصحابي الوحيد الذي روى عنه النبي ﷺ قصة الجساسة كما في صحيح مسلم، أسلم سنة ٩هـ، وبقي بالمدينة ثم انتقل منها بعد مقتل عثمان ﵁ ، جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ في عام واحد، مات سنة ٤٠هـ رضي الله عنه وأرضاه. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤٢/ ٨٦)

(٤) المئين هي السور الطوال التي بلغت المئة آية أو ما يقاربها أو زادت كسورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء وسورة المائدة ويونس وهود ويوسف والنحل والإسراء والكهف وطه والمؤمنون والشعراء.

سادساً: تصديه لأهل البدع والأهواء:

اتسعت الدولة ـ كما أسلفنا ـ في عهد عمر رضي الله عنه اتساعاً هائلاً، ودخلت أمم شتى ضمن الدولة الإسلامية، ومنهم من هو حديث عهد بكفر وعقائد منحرفة ممن أسلموا حديثاً، وبرغم ذلك لم يمنع الخليفة أن يوجه الناس، وأن يَئِد ويقضي على البدع والانحرافات في مهدها، فلقد كان رضي الله عنه حازماً في الذود عن حياض الدين، وإغلاق أبواب الفتن والابتداع.

ونلمس ذلك في تصدي عمر بما تعلق به بعض الناس من الآثار والمساجد وتعظيمها مما لم يرد نص صريح بفضلها، ومن ذلك:

١ . عندما علم بأن الناس يذهبون إلى شجرة بيعة الرضوان في الحديبية يصلون تحتها، أمر عمر بقطعها من جذورها خشية الفتنة على الناس، وتعلق قلوبهم بالآثار التي لم يرد في الشرع نص بتفضيلها وتعظيمها(١).

٢ . عندما خرج عمر رضي الله عنه حاجاً رأى الناس في الطريق يبتدرون مكاناً يصلون فيه، فقال: ما شأنهم؟ فقالوا: هذا مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ، فقال في ذلك: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، يتبعون آثار أنبيائهم فيتخذونها كنائس وبِيَعاً، من أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصلِّ، ومن لا فليمضِ ولا يتعمدها(٢).

٣. عندما فُتح بيت المقدس استشار رضي الله عنه كعبَ الأحبار أين يصلي؟ فقال له كعب: إن أخذتَ عني صليتَ خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، لا ولكن أصلي حيث صلى رسولُ الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى رضي الله عنه(٣).

٤ . لما بلغ عمر أن رجلاً يقال له: صبيغ بن عسل التميمي يتكلم في متشابه القرآن، أرسل عمر في طلبه، فلما حضره قام له عمر وضربه بجريد النخل حتى أوجعه ضرباً، وأرسله إلى أبي موسى في العراق، وأمر الناس أن لا يجالسوه، فاشتد ذلك على صبيغ الذي أعلن توبة نصوحاً، فكتب أبو موسى إلى عمر في ذلك، فعندئذ أذن عمر للناس بأن يجالسوه(٤).

---

(١) ابن عثيمين/ القول المفيد على كتاب التوحيد/ باب من تبرك بشجرة وحجر ونحوهما/ ص١٢٠.

(٢) رواه عبد الرزاق (٢/ ١١٨/ ح:٢٧٣٤).

(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ٦٥٦).

(٤) الشاطبي/ الاعتصام (١/ ١٠٩).

٥. بلغ عمر من أحد عماله في الولايات أن هاهنا قوماً يجتمعون فيدعون للمسلمين وللأمير، فكتب إليه عمر أقبِلْ بهم معك، وقد أعد عمر سوطاً، فلما دخلوا عليه، قام عمر بضرب أميرهم بالسوط، فقال: يا أمير المؤمنين! لسنا أولئك الذين يعني – أي: حديث النبي ﷺ في أهل البدع– أولئك قومٌ يأتون من قِبل المشرق. وكان هؤلاء أولَ من أحدث بدعة الدعاء والذكر الجماعي، لذلك أنكر عليهم عمر إنكاراً شديداً.

وفاته رضي الله عنه :

دبر أعداء الإسلام والحاقدون عليه مكيدة ومؤامرة انتهت بمقتل الخليفة على يد أبي لؤلؤة المجوسي الذي قام بطعن الخليفة أثناء تأديته لصلاة الصبح بخنجر مسموم في الثالث والعشرين من ذي الحجة من السنة الثالثة والعشرين لهجرة النبي ﷺ، وطُعن مع الخليفة ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة ممن كانوا خلف أمير المؤمنين في الصلاة.

وتعد هذه أول فتنة وقعت في الأمة بعد وفاة النبي ﷺ، وقد بشر بها في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند عمر رضي الله عنه ، فقال: أيكم يحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، كما قاله.

قال: إنك عليه – أو عليها – لجريء، قلت: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصوم والصدقة والأمر والنهي.

قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر. قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر، قال: إذاً لا يغلق أبداً.

قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما أن دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط.

فهِبْنا أن نسأل حذيفةَ، فأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: الباب عمر(١).

---

(١) رواه الشيخان، البخاري (٢/ ١١/ ح:٥٢٥)، ومسلم (١/ ٣٢٢/ ح:١٤٤)، واللفظ للبخاري.

وصية عمر ﵁:

لما طعن الخليفة دخل عليه الصحابة ﵃ فقالوا: أوصِ يا أمير المؤمنين، استخلِفْ.

قال: ما أجد أحداً أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر، أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمى عثماناً وعلياً والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن بن عوف ﵃.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]، أن يُقبل من محسنهم، وأن يُعفى عن مسيئهم. وأوصيه بأهل الأمصار خيراً؛ فإنهم رده الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو (أي: يغيظون العدو بكثرتهم وقوتهم)، وأن لا يُؤخذ منهم إلا فضلهم (أي: ما زاد عنهم) عن رضاهم.

وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم(١).

وأوصيه بذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفَّوا إلا طاقتَهم(٢).

ثم قُبض ﵁ في يوم السبت آخر أيام ذي الحجة لسنة ٢٣ هجرية ليلة الأحد الأول من المحرم لسنة ٢٤ هجرية وهو اليوم الذي دفن فيه.

وكان عمر ﵁ قبل وفاته يتمثل هذه الأبيات من الشعر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ويفنى المال والولد
لم تغنِ عن هرمزٍ يوماً خزائنُه   والخلدَ قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له   والإنس والجن فيما بينها ترد

---

(١) وفي هذا بيان لفضل العرب وسابقتهم في الإسلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لفظة أعرابي هو في الأصل اسم لبادية العرب، وسائر سكان البوادي لهم حكم الأعراب، والذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفساً وأفضلهم نسباً.

ثم نقل عن الكرماني صاحب الإمام أحمد قوله: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب ولا يقرون بفضلهم فإن قولهم بدعة وخلاف.

ثم أضاف: ومن الناس من يفضل بعض أنواع العجم على العرب، والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع نفاق، إما في الاعتقاد، وإما في العمل المنبعث عن هوى النفس مع شبهات اقتضت ذلك. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ص: ٤١٨-٤٢٢)، بتصرف.

(٢) الحديث بطوله رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٧٦/ ح: ٣٧٠٠).

أين الملوك التي كانت لعزتها   من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب   لا بد من ورده يوماً كما وردوا

آل البيت وعمر رضي الله عنه :

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: لما طعن عمر، جعل يألم، فقال له ابن عباس -وكأنه يجزعه-: يا أمير المؤمنين! لقد صحبتَ رسولَ الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون.

قال: أما ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه، فإنما ذاك من الله تعالى منّ به عليّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه، فإنما ذاك من الله جل ذكره منّ به عليّ، وأما ما ترى من جزعي، فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله! لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديتُ به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه(١).

وعن عبد الله بن عباس قال: وُضِع عمر على سريره، فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يَرُعْني إلا رجل آخذ منكبي، فإذا عليُّ بن أبي طالب، فترحَّم على عمر، وقال: ما خلفت أحداً أحبَّ إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله! إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كنت كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر(٢).

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٥٥/ ح:٣٦٩٢).

(٢) رواه الشيخان، البخاري (٧/ ٥٣/ ح:٣٦٨٥)، ومسلم (٨/ ١٢٩/ ح:٢٣٨٩)، واللفظ للبخاري

البَحرَين

فِي عَهدِ ٱلخِلافَةِ ٱلرَّاشِدَةِ

١١هـ - ٤١هـ

ٱلفَصلُ ٱلثَّالِثُ

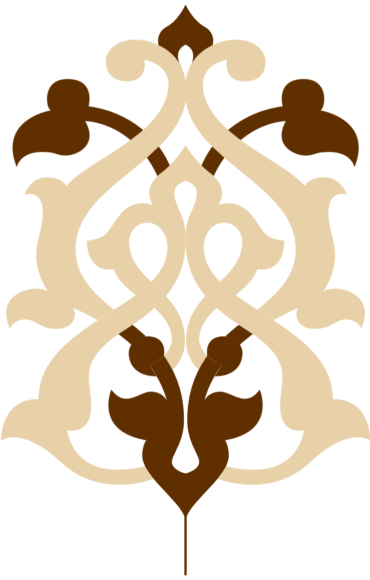

ٱلخَلِيفَةُ ٱلرَّاشِدُ ٱلثَّالِثُ

عُثمَانُ بنُ عَفَّانٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنهُ

٢٣هـ - ٣٥هـ

اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للنبي ﷺ:

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يلتقي مع النبي ﷺ في جده عبد مناف.

أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، فهي تلتقي أيضاً مع النبي ﷺ في عبد مناف من جهة الأب، أما من جهة الأم، فالصلة بالنبي ﷺ أوثق، فأمها البيضاءُ بنت عبد المطلب عمةُ النبي ﷺ، وتوءمة أبيه عبد الله.

تزوج من ابنتَي النبي ﷺ: رقية، وأم كلثوم، ولذلك لقب بذي النورين.

مولده ونشأته:

وُلد بعد عام الفيل بست سنوات، وكان أبوه من تجار قريش، توفي وعثمان ما زال صغيراً، وورث عثمان رضي الله عنه عن أبيه مالاً وفيراً، ونشأ عثمان رضي الله عنه محباً للفطرة، مبتعداً بنفسه عن عبادة الأصنام، وعن مقارفة الفسوق والفواحش وسفك الدماء، وكان محبوباً في قريش حباً كبيراً، حتى إن النساء كن يرقِّصن الصغار وهن يقلن: أحبَّك والرحمن حبَّ قريشٍ لعثمان(١).

إسلامه وجهاده:

من أوائل من أسلم بين يدي النبي ﷺ، فهو أول من أسلم من الرجال بعد أبي بكر رضي الله عنه، ولقي بسبب ذلك عنتاً شديداً من عمه الحكم بن أبي العاص، وكان من أول من كتب الوحي بين يدي النبي ﷺ، وهاجر إلى الحبشة مرتين، وكان أميراً للمهاجرين هناك.

كما شهد جميع الغزوات الكبرى سوى غزوة بدر؛ لأمر النبي ﷺ له بالبقاء في المدينة لرعاية زوجته رقيةَ ابنةِ النبي ﷺ، والتي نزل بها مرض الموت، وتوفيت في يوم نصر المسلمين ببدر، وعدَّه الرسول ﷺ من البدريين، واستخلفه ﷺ على المدينة مرتين.

---

(١) الموسوعة الحديثية / الشبكة الإسلامية.

بذل ﵁ الكثير من ماله في سبيل الله تعالى، وجهز جيش العسرة في يوم تبوك حتى قال النبي ﷺ عنه: «ما ضرَّ عثمانَ ما فعل بعدها»(١).

وبعد وفاة النبي ﷺ صحب عثمان أبا بكر في خلافته، فأحسن صحبته، ثم صحب عمر في خلافته، فأحسن صحبته، ونصَّ عليه عمرُ في أصحاب الشورى الستة، فكان خيرهم، وولي الخلافة من بعده، ففتح الله على يديه الكثير من الأقاليم والأمصار، وتوسعت ديار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها؛ تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[النور:٥٥].

وفي زمانه هلك كسرى وأُنفقت أموال فارس والروم في سبيل الله.

فضائله:

جاءت السنة النبوية بالكثير من الأحاديث في فضله ﵁، ومن ذلك: ما رواه الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه، ومنها:

- عن أبي موسى ﵁: أن النبي ﷺ دخل حائطاً وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجلٌ يستأذن فقال: «ائذن له وبشره بالجنة، فإذا أبو بكر. ثم جاء آخر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فإذا عمر. ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة ثم قال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه، فإذا عثمانُ بن عفان»(٢).
- عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمرَ، ثم عثمانَ، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم(٣).
- عن أنس بن مالك ﵁ قال: صعد النبي ﷺ أُحُداً ومعه أبو بكر وعمرُ وعثمان، فرجفَ، فقال: «اسكن أُحُد -أظنه ضربه برجله- فليس عليك إلا نبي وصِدِّيق وشهيدان»(٤).

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح (٣/ ٢٠٨/ ح:٣٩٦٧).

(٢) رواه الشيخان، البخاري (٧/ ٦٧/ ح:٣٦٩٥)، ومسلم (٨/ ١٣٨/ ح:٢٤٠٣)، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٦٩/ ح:٣٦٩٨).

(٤) رواه البخاري (٧/ ٦٨/ ح:٣٦٩٧).

بيعته وخلافته:

لما فرغ المسلمون من دفن عمر بن الخطاب ﵁ انتقلوا إلى العمل بوصيته وحكمه، فاجتمع الرهط الذين سماهم، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.وذلك ليحصر الانتخاب في ثلاثة بدلاً من ستة، وهذا توفيق من الله تعالى لعبد الرحمن بن عوف أن ألهمه هذا الرأي.

فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف.

فقال عبد الرحمن لعلي وعثمان: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلام؟ - يعني: من منكما يتنازل عن ترشيح نفسه على أن يكون من حقه اختيار أحد الاثنين الآخرين، ويكون اختياره نافذاً؟، فأُسكِت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليّ والله عليّ أن لا آلو عن أفضلكما؟ قالا: نعم.

فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ، والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمّرتك لتعدلنّ؟ ولئن أمّرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعنّ؟

ثم خلا بعثمان فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، وبايع له علي، وولج أهل المسجد فبايعوه⁽¹⁾.

فعقدوها لابن عفان بعد أن أقام عبد الرحمن ثلاثاً - حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم- يشاور السابقين الأولين من المسلمين، وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان؛ إذ روي عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «إني رأيت الناس لا يعدلون بعثمان أحداً، فوليته»⁽²⁾.

فبايعوه عن رأي ومشورة، لا عن رغبة أعطاهم إياها، ولا عن رهبة أخافهم منها، وهو ﵁ بصفة من يصلح للإمامة؛ لما اشتهر من فضله وسابقته وقرابته وجهاده بنفسه وماله، وحفظه وعلمه.

---

(١) رواه البخاري: المناقب؛ باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان، وفيه مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنهما (٧/ ٧٦/ ح:٣٧٠٠).

(٢) الطبري: ٣/ ٢٩٧، وقريب من هذا الكلام في البخاري: الأحكام؛ باب كيف يبايع الإمام الناس؟ (ح ٦٧٨١) ٦/ ٢٦٣٤، وسنن البيهقي الكبرى: ٨/ ١٤٧، مصنف عبد الرزاق:٥/ ٤٧٧.

ولهذا قال الإمام أحمد: «ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان، كانت بإجماعهم»(١).

لأن بيعته ﵁ كانت موثقة لم يشذ في إبرامها أحد من المسلمين، حتى قال غير واحد من السلف والأئمة؛ كأيوب السختياني، وأحمد بن حنبل، والدار قطني، وغيرهم: «من لم يقدّم عثمان على علي، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار»(٢).

فإنهم عقدوها له باختيارهم ورغبتهم ومشورتهم، دالةً عليه أنظارُهم، راضيةً بها أنفسُهم. فاستلمها ﵁ ممهدةَ الأركان، سليمةَ البنيان، واجتهد فيها مقتدياً باللذَين من قبله: أبي بكر، وعمر، كما رسمه لنفسه في أول خطبة له؛ قال ﵁: « ألا وإني متبعٌ ولست بمبتدع».

- **أهم الأعمال التي قام بها في خلافته:**

اختلفت طبيعة المجتمع في زمان عثمان ﵁ عمن سبقه من الخلفاء؛ مما أدى إلى تنوع الأعمال التي قام بها، فلقد اتسعت الدولة، وتنوعت مصادر الثروة، وعمّ الخير؛ مما أتاح الفرصة بأن تعيش الأمة أزهى عصور الرخاء التي لم تر مثله بعد ذلك في تاريخها، وكل ذلك بفضل الله تعالى، ثم بسبب إقامة شرائعه والجهاد في سبيله.

ومن أهم الأعمال التي قام بها الخليفة عثمان ﵁ :

١ .استمرار الفتوحات البرية على الجبهتين الشرقية والغربية:

انقسم الجهاد في عهد الخليفة عثمان ﵁ إلى قسمين:

الأول: إخضاع المناطق المفتوحة سابقاً، والتي نقضت العهد مع المسلمين بعد وفاة الخليفة عمر ﵁ .

الثاني: فتح مناطق جديدة.

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٥٣٢)، والمنتقى(ص:٥٨).

(٢) منهاج السنة (١/ ٣٣٥).

• الفتوحات في الشرق:

- أعاد غزو أذربيجان بعد أن منع أهلها ما صالحوا عليه الخليفة عمر رضي الله عنه سنة ٢٤ هـ.
- فتح أرمينيا سنة ٢٥هـ.
- فتح فرغانة وكابل من بلاد الأفغان سنة ٢٩ هـ.
- فتح طبرستان وجرجان صلحاً سنة ٢٩هـ.
- فتح نيسابور وطوس وأبيورد من خراسان سنة ٣١ هـ.
- فتح الجوزجان وطخارستان سنة ٣٣ هـ.

• الفتوحات في الغرب:

- إعادة فتح الإسكندرية سنة ٢٥ هـ.
- فتح إفريقية (تونس) سنة ٢٧ هـ.
- فتح النوبة (جنوب مصر) سنة ٣١ هـ.

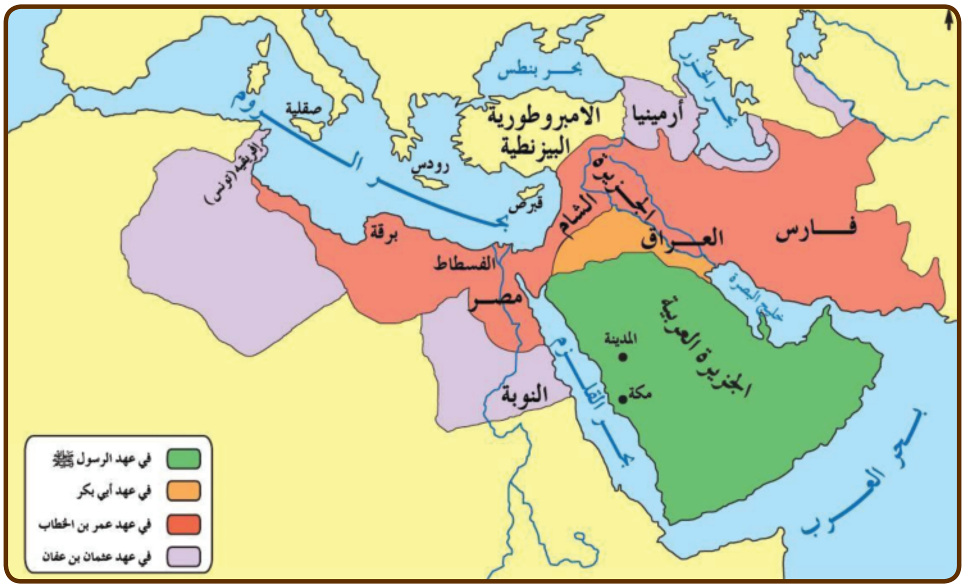
بحر بنطس
بحر الخزر
أرمينيا
الامبروطورية البيزنطية
صقلية
بحر الروم
رودس
قبرص
إفريقية (تونس)
برقة
الفسطاط
مصر
النوبة
الشام
الجزيرة
العراق
فارس
خليج البصرة
الجزيرة العربية
المدينة
مكة
بحر القلزم
بحر العرب
🟩 في عهد الرسول ﷺ
🟧 في عهد أبي بكر
🟥 في عهد عمر بن الخطاب
🟪 في عهد عثمان بن عفان

خريطة الفتوحات الإسلامية حتى عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه

٢. إنشاء البحرية الإسلامية، وبدايةُ الفتوحات البحرية في البحر المتوسط:

قام الخليفة عثمان ﵁ بعمل جليل للأمة الإسلامية؛ إذ أنه أنشأ أول أسطول بحري في تاريخ الإسلام، وكان ذلك بسبب الروم الذين كانت لهم السيادة على البحر المتوسط، واستخدموا جزره مركزاً ومنطلقاً للعمليات العسكرية ضد المسلمين في الشام؛ مما دفع أمير الشام معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن يستأذن الخليفة لركوب البحر، فأمر الخليفة بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام، مستعيناً بمن لهم السبق في ذلك من أهل مصر، فكانت هذه السفن هي النواة الأولى للأسطول الإسلامي الذي خاض غمار المعارك البحرية التي أخضعت البحر المتوسط لسيادة المسلمين، وحولت اسمه من بحر الروم إلى بحر المسلمين(١)، وكان من أهم المعارك والفتوحات البحرية:

- فتح قبرص سنة ٢٨ هـ.
- فتح أرواد سنة ٢٩ هـ.
- فتح صقلية سنة ٣٢ هـ.
- فتح رودس سنة ٣٢ هـ.
- معركة ذات الصواري ٣٤ هـ.

---

(١) كتب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أمير الشام إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ مُلحاً عليه أن يأذن له في ركوب البحر قائلاً: إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم، وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص (يقصد جزيرة قبرص)، فإذا أذنت بركوب البحر.

فأرسل عمر ﵁ إلى والي مصر عمرو بن العاص ﵁ ليصف له البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص ﵁ عن البحر: إني رأيت خلقاً عظيماً، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، الناس فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق، فكتب عمر ﵁ إلى معاوية ﵁ يقول له: لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وأمره ألا يراجعه في ذلك. كما أمره بتحصين الساحل ووضع مراكز مراقبة لحماية المسلمين من أخطار أسطول الروم.

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة استمر معاوية في طلبه حتى وافق عثمان بشرط عدم إكراه المسلمين على ذلك، وقال له: «من اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه».

وأمره أن يستعمل على البحر عبد الله بن قيس، وبعد أن ظفر معاوية بموافقة الخليفة عثمان بدأ بالاستعداد ببناء أول أسطول بحري إسلامي، وذلك بمساعدة عبد الله بن سعد بن أبي السرح الذي خلف عمرو بن العاص على ولاية مصر، فهو الذي بدأ ببناء السفن الأولى التي تكونت منها نواة الأسطول الإسلامي في مصر قبل قيام معاوية في إنشاء دور لصناعة السفن بالشام، ثم بعد ذلك انطلق الأسطول الإسلامي إلى البحر المتوسط لتحقيق أهداف المسلمين بغزو جزر البحر المتوسط التي كانت تشكل خطراً كبيراً على مدن الشام المفتوحة، خاصة جزيرة قبرص التي اتخذها الروم محطة تموين في طريقهم إلى الشام، وملجأ يعتصمون به أثناء إغاراتهم على مدن الشام .

لذلك غزا معاوية هذه الجزيرة، وصالح أهلها على الجزية، وأن يكونوا عوناً للمسلمين، فلا يقدمون للروم أي عون أو مساعدة وكان ذلك سنة ٢٨هـ وقد شارك في هذه الغزوة عدد من الصحابة منهم: المقداد بن عمرو، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام، وكذلك شارك الأسطول الإسلامي من مصر إلى جانب الأسطول الإسلامي من الشام في السيطرة على الجزيرة. وفي سنة ٣٢هـ أخل أهل قبرص بشروط الصلح مما دفع معاوية إلى غزو قبرص سنة ٣٣هـ، وفتحها عنوة، واتخذها قاعدة عسكرية لمراقبة تحركات أسطول الروم في المنطقة. محمود شاكر/ التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٣١).

٣. جمع المسلمين على مصحف ذي رسم واحد، وهو ما يسمى بالمصحف الإمام ذي الرسم العثماني -نسبة إلى عثمان بن عفان ﵁ ، ووزعه في جميع الأمصار الإسلامية، وهذا العمل من أجلِّ وأعظمِ أعمال الخليفة الثالث ﵁ ؛ إذ أنه منع فتنة الاختلاف على كتاب الله تعالى، وقطع الله به الطريق الموصل إلى تحريف القرآن الكريم، واستعمله لخدمة كتابه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩].

وكان ذلك بسبب أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قدم على عثمان، وكان يغزو مع أهل العراق قِبَلَ أرمينيا، واجتمع في ذلك الغزو أهل الشام يقرؤون بقراءة أبيّ بن كعب ﵁ ، وأهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود ﵁ ، فتنازعوا في القرآن حتى سمع حذيفة من اختلافهم ما يكره، ثم إن حذيفة رأى قوماً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم أفضل من قراءة غيرهم، وقد أخذوا القرآن عن المقداد بن عمرو ﵁ ، كما رأى من أهل البصرة قوماً يقولون بقول أهل حمص، غير أنهم أخذوا القرآن عن أبي موسى الأشعري ﵁ .

فما كان من حذيفة إلا أن فزع غيْرةً على كتاب الله تعالى، فركب وتوجه إلى الخليفة، فلقيَه وقال: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلافَ اليهود والنصارى في الكتب، وقص عليه ما رأى وسمع.

ففزع لذلك الخليفة عثمان ﵁ ، فقام واستشار كبار الصحابة، واستقر الرأي على كتابة مصحف ذي رسم واحد لجميع الأمصار.

فأرسل إلى أم المؤمنين حفصةَ بنتِ عمر ﵂ أن ترسل إليه بالصحف التي جمعت في عهد أبي بكر لأول نسخة للمصحف الشريف، والتي انتقلت إلى عمر ﵁ في خلافته، ثم بقيت عند أم المؤمنين حفصة ﵂ .

فأرسلت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بالصحف إليه، فأمر زيدَ بن ثابت، وسعيد ابن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد في عربية، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن إنما نزل بلسانهم.

فقاموا بهذا الأمر أحسن قيام، وكتبوا عدة مصاحف من المصحف الأول، ونسخوها برسم واحد، وأتوا بها إلى الخليفة، فرد الخليفة النسخة الأولى إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها، وأرسل إلى كل ولاية من ولايات المسلمين بمصحف من المصاحف، ومنها: ولاية البحرين، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل إليهم به، فقطع بذلك كل وسيلة أو طريق إلى الزيادة أو النقصان في كتاب الله تعالى.

فكان جمعُه رضي الله عنه للأمة على مصحف واحد مسلكاً راشداً دفع فتنة خطيرة في مهدها، وإنما فعل ذلك رضي الله عنه بعد استشارة الصحابة، ولذلك روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: (لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله! ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، حيث قال عثمان: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً، قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: نِعمَ ما رأيتَ)(١).

وكان مشورته للملأ من الصحابة ضماناً لرتق صفوف المسلمين، ولمّ شؤونهم في أعظم ما يوحدهم ويجمعهم. ولا يخفى ما للقرآن الكريم من دور في حياة الأمة، وما لجمع عثمان رضي الله عنه من فضل على المسلمين في كل وقت وحين(٢)، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لولم يصنعه عثمان لصنعتُه -يقصد بذلك: حرقَ المصاحف-.

٤ . توسعة الحرمين الشريفين وإنارتهما:

قام عثمان رضي الله عنه بتوسعة الحرمين، حيث زادت مساحة المسجد الحرام عما كانت عليه بنحو الربع، كما أمر بإنارة المسجد بقناديل الزيت، وذلك في سنة ٢٦هـ.

وأما المسجد النبوي، فلقد اشترى الدور المحيطة به من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية، وزاد من مساحة المسجد، ووضع به الأعمدة التي وضع داخلها قطعاً من الحديد والرصاص لتقويتها، وبنى سقف المسجد من خشب الساج، وزادت مساحة المسجد بنحو ٥٠٠م٢ وأمر بإنارة المسجد بقناديل الزيت، وكانت هذه هي المرة الأولى لإنارة الحرمين الشريفين لأول مرة في تاريخهما، أضاء الله له قبره بالرحمة والغفران، وآنسه فيه بالقرآن.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٩/ ٢٤).

(٢) قال أبو مجلز ـ واسمه: لاحق بن حمد السدوسي ـ: لولا أن عثمان كتب القرآن، لألفينا الناس يقرؤون الشعر. كتاب المصاحف لأبي داود الصغير (١/ ص١٨٨).

وهذا ليس بغريب عليه، فلقد اشترى في زمان النبي ﷺ قطعة أرض للتوسعة على المسلمين عندما ضاق المسجد بأهله، وقال النبي ﷺ: «من يشتري بقعة آل فلان، فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة؟» فاشتراها ﷺ من صلب ماله، ووسع على المسلمين(١).

- **أهم الأحداث في عهده:**

فتنة السبئية: تنسب السبئية إلى عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وهو يهودي من صنعاء أعلنَ الإسلام وأبطنَ الكفر، وجاء لينفث سمومه بين حديثي العهد بالإسلام، وقد تنقل من أجل نشر فتنته بين أمصار المسلمين، فبدأ بالحجاز ثم البصرة والكوفة ثم الشام ثم مصر، وظل ينشر بين الناس أفكاراً منحرفة بُنيت على تأويل خبيث لآيات الكتاب العزيز، من أجل أن يلبس على الناس أمر دينهم، ومن ذلك:

١. **القول بالرجعة**: والمقصود بذلك: رجعة النبي ﷺ إلى الدنيا مرة أخرى بعد موته، فكان يقول: «عجباً لمن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمداً يرجع، والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص:٨٥]، فمحمد أحقُّ بالعودة والرجوع من عيسى»(٢).

٢. **القول بالوصية**: ويقصد بذلك: أن لكل نبي وصياً، يتولى أمر أمته بعده، فكان يقول: لكل نبي وصي، وعليٌّ هو وصيُّ محمد ﷺ، فمحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء عليهم السلام، وعلي هو خاتم الأوصياء، وهو أحق بالإمرة من عثمان أو غيره(٣) -يُعَرّض بأبي بكر وعمر.

ويرد الحافظ ابن كثير رحمه الله على ذلك الكذب المفترى بقوله: «وأما ما يفتريه كثير من جَهَلة الرافضة والقُصّاص الأغبياء من أنه أوصى إلى عليٍّ بالخلافة، فكذبٌ وبهتان وافتراء عظيم، يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة، وامتناعهم بعده على إنفاذ الوصية

---

(١) الرواية تامة في سنن الترمذي.

(٢) ومن هنا ظهرت فكرة الرجعة عند بعض الطوائف التي تنتسب للإسلام، وهذا تأويل خبيث للآية المباركة يخالف مراد الله عز وجل، إذ أن المعاد المذكور إنما هو مكة كما رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذلك عندما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة، فلما بلغ مكاناً يقال له الجحفة اشتاق إلى مكة شوقاً عظيماً، فنزلت الآية عزاء له، وبشرى بعودته إلى مكة مرة أخرى، وهذا ما وقع في رمضان من السنة الثامنة للهجرة عندما رجع فاتحاً لمكة ﷺ.

يراجع الفصل السابق – البحرين في العهد النبوي.

(٣) محمود شاكر/ التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٤٣).

من إيصالها لمن أوصي إليه، وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يعلم بطلان هذا الافتراء؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء والرسل، وهم خير قرون الأمة» ا.هـ(١).

قلت: وهذا فيه تعدٍّ على الله تعالى؛ لنفيهم العلمَ عنه؛ حيث إنه سبحانه قد ترضى عليهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فكيف يرضى عن خَوَنة خالفوا أمره، وطاعةَ نبيهم ﷺ؟ وهذا أمر يستحيل في حق الله تعالى، كما تستحيل الخيانة في حق الصحابة رضوان الله عليهم، وفيه طعن بعلي بن أبي طالب؛ إذ أنه لم ينفذ وصية النبي ﷺ.

٣. الخروج على إمام المسلمين، والطعن بين أفراد المجتمع الإسلامي: وذلك بالطعن في الخليفة عثمان ؓ وولاته وأمرائه، وأن الخليفة قد قدمهم وولاهم بسبب صلة القرابة والنسب التي تربطهم به، وقام بدعوة الناس للخروج على الخليفة وأمرائه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأثار بشبهاته الغوغاء والجهلة وأصحاب الغايات، وافتتن به بشر كثير من أهل مصر والعراق، وكتب بعضهم إلى بعض، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان.

وقد ظهرت هذه الفتنة أول أمرها في الكوفة(٢) على يد جمع من أصحاب الأهواء والزيغ، وأتباعِ ابنِ سبأ من العوام وأهل البادية، في الوقت الذي كان عبد الله بن سبأ في مصر يذكي نار الفِتنة فيها، ويراسل أتباعه في الأمصار، حتى اتسعت دائرة الفتنة بما لم يتوقعه أحد، ووصل الأمر إلى الخليفة، فجمع أمراء الأمصار في موسم حج ٣٤هـ، وشاورهم في الأمر، فكان رأيهم أن ينفي هؤلاء إلى الثغور، وأن يحرمهم من أعطيات بيت مال المسلمين، ولكن عثمان ؓ رأى أن يعطيهم، ويُؤلف قلوبهم، وأن يتركهم؛ علّهم يرجعون إلى رشدهم.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٤١٨).

(٢) الكوفة مدينة بالعراق، ولما سئل رسول الله ﷺ عن العراق قال: «بها الزلازل والفتن، وفيها يطلع قرن الشيطان» الطبراني في الكبير. وكانت الكوفة هي أول مركز للفتن والطعن على الخليفة عثمان وعلى ولاته، والتقت أهواء أهلها من الطاعنين مع أهواء ومقاصد عبد الله بن سبأ، فعمت الفتنة وطمت، حتى إن الكاتب الشيعي جواد محدثي تكلم عنهم بذلك في موسوعة عاشوراء قائلاً: اشتهر أهل الكوفة تاريخياً بالغدر ونقض العهد، ثم أضاف: وعلى كل حال فإن تاريخ الإسلام لا يحمل نظرة طيبة عن عهد والتزام أهل الكوفة، وقال: ومن جملة الخصائص النفسية والخلقية التي يتصف بها أهل الكوفة: ١. تناقض السلوك. ٢. التحايل والتلون والتمرد على الولاة وسوء الخلق. ٣. الحرص والطمع وتصديق الإشاعات والميول القلبية.
وقد أدت كل هذه الميول والأسباب أن يعاني منهم الإمام علي الأمرين، وواجه الإمام الحسن منهم الغدر، وقتل بينهم مسلم بن عقيل مظلوماً، وقتل الحسين عطشاناً في كربلاء قرب الكوفة، وعلى يد جيش الكوفة. ا.هـ.

ثم جاء وفدهم من مصر يظهرون أنهم يريدون العمرة، ولكنهم قاموا بمناظرة الخليفة الذي ردهم بالحجة والبيان وأفحمهم، فانخسؤوا راجعين إلى مصر، ثم قام الغوغاء ودعاة الفتنة بنشر الكذب بين الناس حتى تأثر البعض بهذه الشائعات، فقام السبئية يحرضون الأمصار على التوجه إلى المدينة، واجتمعوا على أن يكون ذلك في موسم حج سنة ٣٥هـ حتى لا ينكشف أمرهم، فجاء أهل مصر وأميرُهم الغافقيُّ بنُ حرب العكيُّ، وعبد الله بن سبأ، وجاء أهل الكوفة وأميرُهم عمرو بن الأصم، وزيد بن صوحان العبدي، وجاء أهل البصرة، وعليهم حرقوصُ بنُ زهير السعدي، وحكيمُ بن جبلة العبدي.

فواجههم الخليفة، وأظهروا له الطاعة عندما أبطل حججهم، وأوهموا الناس بأنهم قفلوا راجعين إلى أمصارهم.

ثم رجعوا فجأة بعد هذه الخديعة، وحاصروا المدينة ودارَ الخليفة، وعاثوا بها فساداً حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة ﵁ بعد أن حاصروا داره، ومنعوا عنه الماء، فقتل ﵁ وهو صائم يتلو كتاب الله تعالى، وذلك في الثامن عشر من ذي الحجة للسنة الخامسة والثلاثين الهجرية، فوقع بذلك المنكر، وغاب المعروف؛ ليتحقق لأهل الأهواء والزيغ والضلال ولابن سبأ شيءٌ مما كانوا يعملون من أجله، وإليك قصة مقتل عثمان ﵁ موجزة.

مقتل الخليفة عثمان ﵁ :

لما كان شوال سنة خمس وثلاثين؛ خرج دعاة الفتنة وأنصارُهم للحج - فيما يظهر للناس، وهم قاصدون التآمر على خليفة المسلمين. فخرج أهل مصر في أربع فرق على أربعة أمراء - المقلل يقول: ستمئة، والمكثر يقول: ألف - وهم طامعون في تولية علي. وخرج أهل الكوفة في مثل هذا العدد، وهم يشتهون الزبير، وفي مثل عددهم خرج أهل البصرة؛ وفي نيتهم مبايعة طلحة.

فنزل أهل البصرة بذي خُشُب(١)، ونزل أهل الكوفة بالأعوص(٢)، ونزل أهل مصر بذي المروة(٣). وأرسلوا إلى أزواج النبي ﷺ، وعليٍّ وطلحةَ والزبير، وقالوا: «إنما نأتم

---

(١) واد على مسيرة ليلة من المدينة، له ذكر كثير في الحديث و المغازي. معجم البلدان (٢/ ٣٧٣).

(٢) موضع بقرب المدينة، معجم البلدان (٢/ ٣٧٣).

(٣) المروة: واحدة المرو؛ جبل بمكة مائل إلى الحمرة يعطف على الصفا، وذو المرو: قرية بوادي القرى، وقيل: بين خشب ووادي القرى. معجم البلدان (٥/ ١١٦).

هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك»، واستأذنوهم بالدخول، فأبى ذلك الصحابة كلهم، و نهوهم عنه.

وعرض المصريون على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يتولى الأمر، فصاح بهم وطردهم، وقال: «لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة، وذي خشب ملعونون على لسان محمد ﷺ، فارجعوا لا صَحِبَكم الله»(١).

وكذلك كان ردُّ طلحة رضي الله عنه على البصريين، وردُّ الزبير رضي الله عنه على الكوفيين.

وبموقف الصحابة رضوان الله عليهم الحازم أدرك الخارجون أن ليس لهم في الحق نصيب، وأن حجتهم باطلة، فأزالوا عنهم لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأظهروا خبثهم وأهواءهم الدنيئة؛ فقد أوهموا أهل المدينة أنهم سيرجعون من حيث أتوا، فغابوا أياماً ثم رجعوا من جديد، فباغتوا المسلمين في المدينة، وأحاطوا بدار الخليفة رضي الله عنه، فجاءهم أهل المدينة يهرعون إليهم بالتأنيب والنكير، وفيهم عليٌّ وكبار الصحابة رضوان الله عليهم، وسألوهم: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم على رأيكم؟ فاختلق المصريون كذبة؛ قالوا: أخذنا مع البريد كتاباً بقتلنا. وقال البصريون والكوفيون: نحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً.

فقال علي: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا ـ والله ـ أمرٌ أُبرم بالمدينة! قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل؛ ليعتزلنا، وهو في ذلك يصلي بهم، وهم يصلون خلفه(٢).

وبلغت جرأة المارقين أن يسبوا الخليفة، وينزلوه عن المنبر وهو يخطب للجمعة، وثار القوم بأجمعهم، فحصبوا الناسَ بالحصى حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمان حتى سقط على المنبر مغشياً عليه، فاحتُمل إلى داره، وأقام المنحرفون الخارجون رجلاً عليهم بدلاً من عثمان ليصلي بهم هو زعيم المصريين – الغافقي بن حرب العكي – ومنعوا الخليفة من الصلاة بالناس، وشددوا عليه الحصار حتى منعوا عنه الماء، فقال لهم علي رضي الله عنه: أيها الناس! إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن

---

(١) الطبري (٤/ ٣٥٠)، الفتنة ووقعة الجمل (ص:٥٩)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٩)، تاريخ الإسلام للذهبي/ عهد الخلفاء الراشدين (ص:٤٣٩).

(٢) الطبري (٤/ ٣٥١)، الفتنة ووقعة الجمل (ص:٦٠-٦١)، البداية والنهاية(١٠/ ٢٨٠).

هذا الرجل المادة، فإن الروم وفارس لتأسرُ فتطعِم وتسقي، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبما تستحلون حصره وقتله؟! قالوا: لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ويشرب، فرجع علي، وكان عثمان قد منعه أن يتعرض هو والصحابة بسيوفهم لأحد من هؤلاء.

ولم يتورع هؤلاء المارقون عن حفظ حرمة أمهات المؤمنين، فلقد تعرضوا إلى أم المؤمنين أم حبيبة التي قدمت على بغلة لها بماء إلى دار عثمان، فضربوا وجه بغلتها وسبوها، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فمالت راحلتُها، وأخذ الناس أمَّ المؤمنين التي كادت تقتل، فذهبوا بها إلى بيتها(١).

وكان الخليفة قد كتب إلى أهل الأمصار يستمدهم، فساروا إليه على الصعب والذلول(٢).

وكان معاوية قد قال لعثمان قبل أن يصل الأمر إلى هذا الحد: يا أمير المؤمنين! انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به؛ فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا. فقال: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، وإن كان فيه قطعُ خيط عنقي، قال: فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة أو إياك؟ قال: أنا أُقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة؟!!! قال: والله! يا أمير المؤمنين! لتُغتالَنّ، أو لَتُغزّيَن، قال: حسبي الله ونعم الوكيل.

ومنع عثمان الصحابة من مقاتلة الخارجين عن الطاعة احتياطاً منه لدماء المسلمين، وقد كان معه عدد كبير بلغ سبعمئة، كما في رواية ابن سيرين؛ قال: (كان مع عثمان يومئذ في الدار سبعمئة، لو يدعهم لضربوهم حتى يخرجوهم من أقطارها؛ منهم: ابن عمر، والحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير)، غير أنه أقعدهم بقوله: (أعزمُ على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة إلا كفَّ يده وسلاحه؛ فإن أفضلكم عندي غَنَاءً من كفَّ يدَه وسلاحه)(٣).

وقال له أبو هريرة: (اليوم طاب الضرب. فقال: يا أبا هريرة! تحب أنك قتلتني وقتلت

---

(١) ابن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك.

(٢) انظر: الطبري (٤/ ٣٥١)، الفتنة ووقعة الجمل(ص:٦١)، تاريخ الإسلام للذهبي (ص:٤٤٠).

(٣) تاريخ خليفة (ص:١٧٣)، الطبقات (ص:٣/ ٧١)، تاريخ الذهبي/ عهد الخلفاء الراشدين (ص:٤٥٣)، تثبيت الإمامة وترتيب الخلافة (ص:١٦٨).

الناس جميعاً؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً منهم، فكأنك قتلت الناس جميعاً)(١)، وهذا الموقف من الخليفة هو الذي دفع الصحابة أن لا يقاتلوا أو يرفعوا السيوف، وما كانوا يتصورون أن الأمر يبلغ إلى قتل الخليفة.

وما كادت جيوش الأمصار أن تصل حتى استشهد أمير المؤمنين ﵁ بعد حصار شديد خشي معه المارقون أن يباغتهم جند الأمصار، فبادروا إلى قتله؛ مستغلين حلمَ الخليفة ولينَه، وفداءه لدماء المسلمين بنفسه وأهله، وطاعة الصحابة لأميرهم بكف أيديهم كراهة الفتنة.

قال كعب بن مالك ﵁(٢) عن عثمان ﵁:

فكفَّ يديه ثم أغلق بابه   وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوه   عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صبَّ عليهمُ الـ   ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده   عن الناس إدبار النَّعام الجوافل

قال البربهاري في شرح السنة: وكان قتله أول الفرقة، وأول الاختلاف، فتحاربت الأمة، وافترقت، واتبعت الطمعَ والهوى والميل إلى الدنيا.

وبموت الخليفة عثمان ﵁ اتسع الخَرْقُ على الراقع، وانفرط عقدُ جماعة المسلمين، واحتدَّ التنازع والاختلاف في الإسلام، وحل بالمسلمين كرب عظيم، وبلاء مبين امتدت آثاره، واستمرت ذيوله في مستقبل الأمة، ونزل بهم ما حذرهم منه، وأخبرهم به ﵁ لما قال لهم: «فوالله! لئن قتلتموني لا تحابون بعدي أبداً، ولا تُصلّوا بعدي جميعاً أبداً، ولا تقاتلوا بعدي جميعاً عدواً أبداً»(٣)، قال الحسن: «فو الله! إن صلى القوم جميعاً، فإن قلوبهم لمختلفة»(٤).

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (ص:١٧٣)، ابن سعد/ الطبقات (٣/ ٧٠)، الذهبي/ عهد الخلفاء الراشدين (ص:٤٥٣)، ابن عساكر/ تاريخ دمشق (٣٩/ ٣٩٦).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٣٤١).

(٣) الطبري (٤/ ٣٧٢)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٥)، تاريخ خليفة (١٧٠-١٧١)، وهو بلفظ مختلف في الطبقات الكبرى (٣/ ٧٣)، مصنف ابن ابي شيبة (٧/ ٤٤١/ ح:٣٧٠٨٠).

(٤) تاريخ خليفة خياط (ص:١٧١).

قتلوه ولم يثبت ـ بحمد الله تعالى ـ مما ادعوه عليه شيءٌ(١). وما كان يستحق بها ادعوا القتل وانتهاك الحرمة، وشق العصا وتفريق الجماعة. ولو كان مستحقاً لعقاب فليس الحكم به موكولاً إلى أمثال أولئك الأوباش، الذين لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

وقد وقع بالخليفة ﷺ ما بشره به النبي ﷺ أنه شهيد، وأنه من أهل الجنة، وأن بلية تصيبه.

عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه: «وددت أن عندي بعض أصحابي، قلنا: يا رسول الله! ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: نعم، فجاء، فخلا به، فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجهُ عثمان يتغير». قال قيس: حدثني أبو سهلة مولى عثمان: أن عثمان بن عفان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً، فأنا صائر إليه، قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم «أي: الذي قتل فيه عثمان»(٢).

رضي الله عن ذي النورين الخليفةِ إمامِ الهدى عثمانَ بنِ عفان، ولعن من لعنه وآذاه.

---

(١) وكان البغاة الخوارج ادعوا ادعاءات واهية على الخليفة تذرعوا بها للخروج عليه منها:

١. تقديمه لقرابته؛ وإسناد الولايات لهم، وعزل كبار الصحابة، رغم أنهم يعرفون أن معظم الولاة قد تولوا ولايات في زمان النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن النبي ﷺ قد قدم المفضول على الفاضل في بعض الولايات؛ كما قدم عمرو بن العاص في قيادة جيش ذات السلاسل وفي الجيش أبو بكر وعمر، وأيضاً للأمير أن يقدم من يراه أهلاً للولاية دون النظر أو الأخذ برأي الشورى كما فعل أبو بكر يوم أن رفض رأي الصحابة بعدم إنفاذ جيش أسامة، وتحقق للأمة مصلحة عظمى، ورفض أبو بكر مشورة عمر بعزل خالد بن الوليد لأنه يرى أنه أفضل من غيره، وقال: لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين، فتحقق للمسلمين مصلحة كبرى بقيادة خالد العسكرية التي استنقذ الله بها أمماً من النار.

قال علي ﷺ عن عثمان ﷺ: ولم يولِّ إلا رجلاً سوياً عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة.

٢. ادعوا عليه أنه جمع القرآن في مصحف واحد، وهذا أمر قد سبقه إليه أبو بكر الصديق ﷺ خير الأمة بعد نبيها ﷺ، (يراجع جمع المصحف في عهد أبي بكر ونسخه في عهد عثمان).

٣. ادعوا عليه أنه شرع للأمة الأذان الثاني يوم الجمعة، وهذا أمر فعله بسبب اتساع المدينة آنذاك، وعدم سماع الناس للأذان فعين من يؤذن لهم عند السوق حتى يتأهبوا لصلاة الجمعة أذاناً أولاً، ثم إذا جاء الإمام وصعد المنبر أذن للصلاة.

وهذا الأمر تحققت فيه مصلحة شرعية تلزمنا السنة النبوية بها، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود عن العرباض بن سارية قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة...) مما جاء فيها: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ).

٤. ومما ادعاه هؤلاء: أن عثمان خالف السنة وأتم الصلاة بمنى في موسم الحج، روى الشيخان من حديث عبد الله بن عمر قال: صليت مع النبي ﷺ بمنى ركعتين وأبي بكر وعمر، ومع عثمان صدراً من إمارته ثم أتمها.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال الزهري: إنما صلى عثمان بمنى أربعاً؛ لأن الأعراب كانوا كثروا في ذلك العام، فأحب عثمان أن يعلمهم أن الصلاة أربع.

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني (١/ ٢٥/ ح:١١٣).

عن كعب بن عجرة ﵁ قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقرَّبها، فمر رجل مقنع رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا يومئذ على الهدى، فوثبتُ فأخذت بضبعي عثمان، ثم استقبلت رسول الله ﷺ فقلت: هذا؟ قال: هذا(١).

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة، وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي.

فقلت: يا عبد الله! ما سمعت أحداً يقول ما تقول!!! قال: كنت أعطيت الله عهداً إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل، وُضع على سريره في البيت، والناس يجيئون فيصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه، فوجدت خلوة، فرفعت الثوب عن وجهه، فلطمته وسجيته -غطيته-، وقد يبست يميني، قال ابن سيرين: فرأيتها يابسة كأنها عود.

ولقد أحسن من قال في عثمان: هو أميرُ البررة، وقتيلُ الفَجَرة، مخذولٌ من خذله، منصور من نصره.

وبعد مقتله بدأت مرحلة جديدة في حياة الأمة تَحَمَّل أعباءها آخرُ الخلفاء الراشدين عليُّ بن أبي طالب ﵁، ثم تبعها ما تبعها من أحداث أدت إلى ظهور الشيع والأحزاب المنحرفة، والتي لعبت وما زالت تلعب دوراً أساسياً في شق صفوف الأمة وتراجعها عن المسير السويّ في الطريق إلى الله.

روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» عن الحسن قال: أدركت عثمان على ما نقموا عليه، وقلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً: يقال لهم: يا معشر المسلمين! اغدوا على أعطياتكم، فيأخذونها وافرة، ثم يقال لهم: اغدوا على السمن والعسل، والأعطياتُ جارية، والأرزاقُ دارّة، والعدوُّ متّقى، وذات البين حسنٌ، والخير كثير، وما مؤمن يخاف مؤمناً، من لقيه فهو أخوه من كان، أُلْفَتُه ونصيحته ومودته.

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني (١/ ٢٤/ ح:١١١)، وفي هذا الحديث بيان أن عثمان ﵁ كان على الحق وأن على الصحابة والمسلمين إذا نزلت الفتنة أن يلتفوا حول عثمان، وعلى من جاء من بعدهم أن يذكروه بخير، وأن يعرفوا فضله ومقامه ﵁ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠].

البَحرَين

فِي عَهدِ الخِلافَةِ الرَّاشِدَةِ

١١هـ ـ ٤١هـ

الفَصلُ الرَّابِعُ

الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ الرَّابِعُ

عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه

٣٥هـ ـ ٤٠هـ

اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للنبي ﷺ:

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشميُّ القرشيّ، ابنُ عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة، ووالد سبطَي رسول الله ﷺ الحسنِ والحسين، وصهرُه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه زوجُ أم كلثوم بنتِ عليّ رضي الله عنه .

ولد قبل البعثة بعشر سنين، وكفله رسول الله ﷺ وهو صغير، فتربى في بيت النبوة. وهو أول الصبيان إسلاماً(١).

استخلفه النبي ﷺ على أمانات وودائع قريش التي كانت لديه ليلة الهجرة، وبعد أن وفاها كاملة هاجر إلى النبي ﷺ في المدينة.

شهد مع النبي ﷺ بدراً، وكان أحد الثلاثة الذين استفتحوا المعركة بالمبارزة التي أودت بأئمة الكفر الثلاثة: شيبةَ وعتبةَ ابني ربيعة، والوليدِ بن عتبة.

وشهد أُحداً، وكان على ميمنة الجيش، وقد حمل اللواء بعد استشهاد مصعب بن عمير رضي الله عنه ، وقد قاتل يومئذ قتالاً شديداً.

وشهد غزوة الخندق، وقتَلَ يومئذ عمرو بنَ عبد ودّ العامريَّ أحدَ شجعان العرب وفرسانهم المشاهير.

كما شهد بيعة الرضوان، وشهد مع النبي ﷺ الحديبية، وكتب صلحَها بيده بأمر من النبي ﷺ.

وشهد خيبر، وكانت له بها مواقف هائلة، منها: أنه لما وقع منه ترسه، تناول باباً من أبواب الحصن وتترس به، وظل بيده حتى فتح الله عليه الحصن، ثم ألقاه من يده، وقد قتَلَ يومها في المبارزة مرحباً فارسَ اليهود وزعيَمهم الشجاع.

كما شهد عمرة القضاء، وفتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، كما اعتمر مع النبي ﷺ مُهِلاًّ من الجعرانة في عام الفتح.

---

(١)ابن حجر/ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ورواه الترمذي (٣/ ٢١٥/ ح:٤٠٠٠،٣٩٩٩).

ولما خرج النبي ﷺ إلى تبوك استخلفه على أهله بالمدينة، كما بعثه النبي ﷺ أميراً وقاضياً على اليمن، وحج مع النبي ﷺ حجة الوداع، وكان هو الذي ساق الهدي له.

ولما توفي النبي ﷺ كان علي رضي الله عنه في جملة من غسّله وكفّنه وولي دفنه.

وبايع للخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه، وهو مطمئن النفس، ساكن الفؤاد، وقد عرفوا له فضله وعلمه وسابقته ومكانته، فأشركوه معهم في تحمل أعباء الخلافة، وكان أحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة بعده.

فضائل علي رضي الله عنه :

جاءت السنة النبوية بالكثير من الأحاديث في فضله رضي الله عنه ، ومن ذلك:

- روى مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى: خُمّ بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، ثم قال: «أما بعد: ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولاهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله، ورغَّب فيه.

  ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم اللهَ في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي»، فقال له حصين: ومن أهلُ بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال زيد: نساؤه من أهل بيته، ولكن من أهل بيته من حرم الصدقةَ بعده، قال حصين: ومن هم؟ قال: هم آلُ علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كلُّ هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم(١).

- روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتحُ الله على يديه». قال: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها. فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين عليُّ بنُ

---

(١) رواه مسلم بطوله (٨/ ١٤٥/ ح:٢٤٠٨).

أبي طالب؟»، فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله. قال: «فأرسِلوا إليهَ فأْتوني به». فلما جاء، بصق في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟

فقال: «انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيهم، فو الله! لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم»(١).

- روى الشيخان في صحيحيهما عن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: قال النبي ﷺ لعلي ﵁: «أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبيَّ بعدي»(٢).

بيعته ﵁:

بويع لعلي ﵁ بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﵁ في ظروف حرجة للغاية، فالخوارج الذين قتلوا الخليفة يعيثون في الأرض فساداً، ويريدون أن تتم البيعة لخليفة آخر قبل وصول جيوش الأمصار الإسلامية للثأر للخليفة المقتول.

ولقد عرض المصريون منهم الخلافة على علي ﵁ فرفضها، وعرضها الكوفيون على الزبير بن العوام ﵁ فرفضها، وعرضها البصريون على طلحة بن عبيد الله ﵁ فرفضها.

فوقع الخوارج في حيرة شديدة، وكان أميرهم هو الغافقي بن حرب العكي -أمير المصريين-، وهو الذي يدير شؤون المدينة، فأرسلهم ليعرضوها على سعد بن أبي وقاص ﵁ فرفضها، ثم عرضها على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فرفضها أيضاً.

فعندئذ هدد الخارجون أهل المدينة بقتل علي، والزبير، وطلحة، وغيرِهم من الصحابة، إذا لم تتم بيعةٌ لخليفة خلال يومين(٣).

من أجل ذلك اجتمع الصحابة ﵃، وطلبوا من علي ﵁ أن يتولى الخلافة؛ دفعاً للمفسدة والفتنة، فأجابهم لذلك مضطراً.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٨٩/ ح:٣٧٠١).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٩١/ ح:٣٧٠٦)، ورواه مسلم (٨/ ١٤١/ ح:٢٤٠٤) واللفظ له.

(٣) وفي هذا دلالة واضحة على أن هؤلاء الخوارج كانوا متفقين على قتل الخليفة عثمان ﵁، إلا أنهم غير متفقين على من يخلفه.

وفي اليوم الثاني بويع له في مسجد رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وباقي الناس.

وبذلك فَوَّتَ الصحابة رضي الله عنهم الفرصة على السبئية وزعيمهم ابن السوداء الذي كان أملهم أن تكون فتنة وجاهلية تعم أمصار المسلمين، ويندرس بها الإسلام، ولكن الله تعالى من ورائهم محيط.. ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦].

وهنا سؤال: لماذا لم يبايع الخارجون لأميرهم الغافقي بن حرب العكي، أو لرجل منهم؟.

والجواب: أنهم لا يستطيعون ذلك؛ لعلمهم أن الخلافة لا تكون إلا لرجل من قريش، وأن المهاجرين والأنصار لن يقبلوا بذلك.

أهم الأعمال التي قام بها، والأحداث التي وقعت في عهده ﵁ :

١ . محاولة إعادة الأمن إلى المدينة:

رأى علي ﵁ أن أهم الأعمال التي ينبغي القيام بها هو إعادة الأمن إلى المدينة، ولا يمكنه ذلك إلا بإبعاد الخوارج عنها، ولن يتمكن من ذلك بين عشية وضحاها، فكان لابد له من استخدام سياسة مع هؤلاء تعينه على إقناعهم بالعودة لأمصارهم وترك المدينة، حتى يتفرغ هو لإدارة مهام الدولة التي ينبغي للخليفة أن يباشر بها منصبه.

ولكن الصحابة رضي الله عليهم وأهلَ المدينة كان لهم رأي آخر، وهو أن أهم الأعمال التي ينبغي أن يباشرها الخليفة القصاص من قَتَلة عثمان ﵁ ، وقد جاءه الزبير وطلحة رضوان الله عليهما ليكلماه في ذلك، ويطلبا منه التحرك نحو القصاص، فاعتذر لهم علي بأن هؤلاء لهم مدد وعون، والحكمة أن يتم جمع شمل الأمة أولاً، ثم يقتص منهم بعد ذلك.

وقد قال لهم علي ﵁ : «يا إخوتاه! إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟!، ثم أضاف: إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، وإن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور»، ثم أضاف لهم: «إنها فتنة كالنار، كلما سعرت ازدادت واستنارت»⁽¹⁾.

---

(١) قال الإمام الطحاوي: والحق مع علي ﵁ ، فإن عثمان ﵁ لما قُتل كثر الكذب والافتراء على عثمان، وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة؛ كعلي وطلحة والزبير، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال، وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض، ممن بعدت داره، ويحمي الله عثمان أن يظن بالأكابر ظنون سوء، ويبلغه عنهم أخبار، منها ما هو كذب، ومنها ما هو محدَث، ومنها ما لم يُعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء قوم يحبون العلوّ في الأرض. وكان في عسكر علي ﵁ – من أولئك الطغاة الخوارج، الذين قتلوا عثمان– من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم يقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم يُنتصَرْ للشهيد المظلوم، ويُقمعْ أهل الفساد والعدوان، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه. فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم تبعها فتنة صِفِّين لرأي، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من العدل عليهم – وهم كافّون، حتى تجتمع الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلي ﵁ هو الخليفة الراشد المهديّ الذي تجب طاعته، ويجب أن يكونوا مجتمعين عليه، فاعتقَد أن الطاعة والجماعة الواجبتَينْ عليهم تحصل بقتالهم، فاعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلَّفة قلوبهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين بعده مما يِسُوغ، فحمله ما رآه ـ من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة، دون تأليفهم ـ على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر من الصحابة، لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتُها على مصلحتها. ونقول في الجميع بالحسنى: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» الحشر: ١٠، والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا، بمنه وكرمه – شرح العقيدة الطحاوية، (ص: ٤٨٣-٤٨٤/ باب خلافة علي بن أبي طالب).

فاستأذناه للخروج إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما، وتبعهم خلق كثير لم يرتضوا موقف علي من عدم القصاص الفوري.

كان بعض الصحابة عند مقتل عثمان بمكة لأداء الحج، كما لحق بهم بعض الصحابة الآخرين إليها، وكانت بعض أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج، وعندما قَفَلْنَ راجعاتٍ بلغهن في أول الطريق أن الخليفة قد قُتل، فرجعن، وأقمن بمكة، وانتظرن إلى أين تنتهي مجريات الأمور.

٢. وقوع السيف في أمة محمد ﷺ:

لم يطل البقاء بالخليفة الجديد طويلاً بالمدينة؛ إذ أنه توجه للعراق من أجل أن يعالج المشكلات التي ترتبت على مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، ومن ذلك: خروج الصحابة رضي الله عنهم مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى البصرة للإصلاح بين الناس، والذي صوّره أصحاب الفتنة على أنه خروج للقتال، وخروجٌ على الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإحداثٌ للفتنة، رغم أنهم ما خرجوا رضوان الله عليهم إلا بهدف الإصلاح بين الناس، وحث القبائل التي خرج منها قتلة عثمان بالقصاص منهم، وإخماد هذه القضية التي أثيرت في الأمة، وهي القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه.

وقد خرج الصحابة بعد أربعة أشهر من مقتل عثمان رضي الله عنه سالكين الطريق المعتاد إلى البصرة، فلما وصلوا إليها، وجدوها تموج بالفتن والقلاقل والاضرابات، حتى إن أهل البصرة غشوا طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وتعالت أصواتهم وهو يقول لهم: ياأيها الناس! أتنصتون؟ فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فقال: أُفٍّ أُفٍّ، فَرَاشُ نار، وذبانُ طمع(١).

وقد تهجمت على الصحابة طائفة من أهل البصرة من السبئية الذين شاركوا في مقتل عثمان رضي الله عنه، فوقع قتال بين الجانبين انتهى بهزيمة البصريين(٢).

---

(١) الإنصاف/ نقلاً عن ابن جرير الطبري (ص:٣٢١-٣٢٢).

(٢) الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١/ ٣٥/ ترجمة: طلحة بن عبيد الله).

وما كان الصحابة ﵃ يدركون أن أمر الإصلاح في هؤلاء القوم ليس بالأمر الهين، وأن ما يحيط بهم فتنة وشرٌّ عظيم؛ حيث إن الخارجين والسبئية يشعلون نارها، ولا يرضون إلا بوقوع السيف في أمة محمد .

ولما خرج علي ﵁ إلى العراق، خرج إلى الكوفة، ولم يذهب إلى البصرة، وهذا فيه دليل على أنهم لم يخرجوا للقتال، وأن علياً لم يخرج ليتعقبهم لقتالهم، وإنما لينظر ما تؤول إليه الأمور، وليتدخل عند لزوم الأمر.

وقد أرسل علي ﵁ عبد الله بن عباس إلى الزبير وطلحة رضي الله عنهما تأكيداً على أن ما يسود بين الجميع هو الألفة والإخاء، ثم التقاهما بعد ذلك علي في فسطاط بين معسكر الطرفين لثلاثة أيام، وقد اتفق الجميع على وجوب القصاص من قتلة عثمان، وجمع الناس والهدوء والسلم بينهم.

وقد مهد ذلك إلى وقوع الأحداث الكبرى في حياة الخليفة علي بن أبي طالب ﵁ ، وكانت على التوالي:

١. موقعة الجمل.

٢. موقعة صفين.

٣. ظهور الفرق المنحرفة في الإسلام لأول مرة.

٤. موقعة النهروان.

- **موقعة الجمل – القنفذة – جمادى الآخرة ٣٦هـ:**

وقعت هذه الموقعة رغماً عن الصحابة جميعاً بتدبير وتخطيط من السبئية والخارجين ممن شارك في مقتل الخليفة عثمان ﵁ ، أو أعان عليه، ويخشون عودة الهدوء والسلم الاجتماعي، فينالهم سيف القصاص، لذلك دبروا في ليل هذه المؤامرة، والتي قرروها في اجتماع سري بزعامة عبد الله بن سبأ، والأشتر النخعي، وخالد بن ملجم، وكان عددهم يقدر بألفين وخمسمئة، وليس فيهم صحابي واحد.

وقد عقدوا ذلك الاجتماع بسبب الخطبة التي خطبها علي بن أبي طالب ﵁ بذي قار حين أراد التوجه إلى البصرة، وذكر فيها الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، ثم أثنى على الخلفاء من قبله أبي بكر وعمر وعثمان ﵃، ثم ذكر مقتل عثمان وقاتليه، ووصفهم بأنهم طلّاب دنيا، وحسّاد نعمة، وأعداء دين، ثم ختم خطبته بقوله: ألا إني مرتحل غداً، فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عن أنفسهم⁽¹⁾.

فكانت هذه الخطبة المحرك لهؤلاء القوم الذين أيقنوا أن الخليفة عازم على القصاص منهم، فدفعهم ذلك إلى أن وضعوا خطة لإيقاع الفتنة بين الطرفين بإرسال قوة منهم غدراً بأهل البصرة، فلما دافع أهل البصرة عن أنفسهم، فر هؤلاء إلى الكوفة، وخلفهم جيش البصرة الذي كان في حالة الدفاع عن نفسه، فقام جيش الكوفة بمواجهة جيش البصرة؛ ظناً منهم أنهم غدروا بهم، فنشب يومئذ القتال، واشتعلت الحرب بين الطرفين، وكل طائفة تظن ولا تشك أن الأخرى بدأتها بالقتال، فاختلط الأمر اختلاطاً لا يستطيع أحد أن يدفعه، ولم يرفع الصحابة يومئذ سيفاً إلا للدفاع عن أنفسهم؛ مما أراق الدماء يومئذ بغير اختيار من الصحابة رضوان الله عليهم؛ إذ أنه كان شَرَكٌ خدع الفريقين معاً، وكان أول القتلى يومئذ الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله ﵁، والذي شهد له النبي ﷺ بأنه شهيد يمشي على الأرض.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله يقول: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظرْ إلى طلحةَ بنِ عُبيد الله»⁽²⁾.

فوجئ الصحابة بهذا القتال الذي لم يأمروا به، بل على العكس من ذلك أرسل عليٌّ منادياً ينادي: ألا كُفُّوا ألا كفوا، فلا يسمع منهم أحد، والسبئية لا يفترون عن القتل في الناس.

وقد خرج الزبير من بين الناس بعد أن قال لولده عبدِ الله: يا بني! إنه لا يُقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأُقتل اليوم مظلوماً⁽³⁾.

---

(1) ابن كثير / البداية والنهاية / أحداث سنة ٣٦هـ (١٠/ ٤٥١).

(2) رواه الترمذي (٣/ ٢١٦/ح:٤٠٠٤).

(3) الحديث بطوله رواه البخاري (٦/ ٢٧٣/ ح:٣١٢٩).

وقد خرج تاركاً القتال من بين الناس، فقال له عبد الله: وللقتال جئت؟! إنما جئتَ لتصلح بين الناس، ويصلح الله هذا الأمر بك، فتوقف ورجع عن ذلك، حتى إذا اختلف أمر الناس، خرج من بينهم على فرسه، وترك الميدان، فتبعه عمرو بن جرموز، فقتله خديعة وهو يصلي، وقيل: وهو نائم في القيلولة في وادي السباع قريباً من البصرة، ثم رجع ابن جرموز إلى خيمة علي، وقال: قتلتُ الزبير، قتلت الزبير، قتلت الزبير، فقال علي ﵁: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بَشِّرْ قاتلَ ابنِ صفية بالنار، لكل نبي حواريّ، وحواريَّ الزبير.

ولما رأى علي ﵁ سيفَ الزبير ﵁ الذي أتى به ابنُ جرموز، بكى ﵁، وقال: إن هذا السيف طالما فرج الكربَ عن وجه رسول الله ﷺ، فقيل: إن عمرو بن جرموز لما سمع ذلك قتل نفسه(١).

وقد خرجت أم المؤمنين عائشةُ ﵂ في هودجها على الجمل؛ علّ ذلك يُهدئ الفتنة، ويوقف القتال عندما يراها الناس، وذلك بعد أن طلب منها كعب بن سورة قاضي البصرة أن تخرج قائلاً لها: لعل الله يصلح بك، فسارت على الجمل، وأمامها كعب بن سورة يأخذ بخطام البعير، وتقدم بكتاب الله، فاستقبل كعب السبئية بالمصحف، وعليٌّ من خلفهم يكفهم، لكنهم لا يسمعون لأحد، ولا يأتمرون بكتاب الله، بل قتلوا كعباً رحمه الله، وأنشبوا رمي الرماح والسهام في هودج أم المؤمنين عائشة ﵂ حتى أصبح كهيئة القنفذة، وهي تقول: الله الله، اذكروا الله عز وجل والحساب، والسبئية على ما هم عليه من الإقدام.

فقالت عندئذ: أيها الناس! العنوا قتلةَ عثمان وأشياعَهم، فضج أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان وأشياعهم، فلما سمع علي هذه الضجة، فسأل عنها، فقالوا: عائشة تدعو، ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم، فأقبل علي ﵁ يدعو ويقول: اللهم العن قتلة عثمان وأشياعَهم(٢).

---

(١) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٨٢-٤٨٣).

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٢/ ٣٩٣) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٦٢-٤٦٣).

قال القاضي أبو بكر بن العربي[1]: وهكذا اشترك صالحو الفريقين في لعن قتلة عثمان أمير المؤمنين الشهيد المظلوم في الساعة التي كان فيها قتلة عثمان ينشبون القتال بين صالحي المسلمين.

وقد التف حول جمل أم المؤمنين رضي الله عنها الشجعانُ دفاعاً عنها من هجوم السبئية الذين قصدوا وأرادوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقتل سبعون رجلاً بين يديها، كل أخذ بخطام الجمل، كما جرح آخرون، وهنا فطن علي لمقصد هؤلاء القوم، فنادى: اعقروا الجمل، فلما عقر، هدأت الأمور، وتفرق هؤلاء مع قبائلهم، وقد ظنوا أنهم قد تحقق لهم مرادهم.

وجاء علي رضي الله عنه إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وسلم عليها، وقال: كيف أنت يا أماه؟ يغفر الله لنا ولكم، فردت عليه السلام، وقالت: غفر الله لنا ولكم، كما جاء القعقاع بن عمرو فسلم وقال: والله! إنك لأبرُّ أم نعلم، ولكن لم تطاعي.

كما جاء وجوه الناس وأمراؤهم يسلمون ويطمئنون عليها[2]، ثم نزلت مع أخيها محمد ابن أبي بكر في دار عبد الله بن خلف، إلى أن رحلت إلى الحجاز.

وقد حزن الجميع حزناً شديداً على ما وقع، حتى إن علياً رضي الله عنه قال لابنه الحسن: يا حسن! ليت أباك مات منذ عشرين سنة، فقال له الحسن: يا أبتي! قد كنت أنهاك عن هذا، قال علي: يا بني! لم أر أن الأمر يبلغ هذا[3].

وكان علي رضي الله عنه قد رأى طلحة الشهيد **مضرجاً بدمه**، فمسح التراب عن وجهه، وأخذه وضمه إلى صدره، وقال: عزيزٌ عليَّ أبا محمد بأن أراك مجدلاً -صريعاً مطروحاً- في الأودية تحت نجوم السماء[4]، إلى الله أشتكي عُجري وبُجري -سرائري وأحزاني-.

---

[1] القاضي أبو بكر بن العربي/ العواصم من القواصم (ص:١٣١).

[2] ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٧١)، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٢/ ٣٤٥-٣٤٦).

[3] ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٥٦).

[4] الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٧٦).

وفي رواية أنه قال: لهفي عليك أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله! لقد كنتَ كما قال الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر(١)

وأقام علي رضي الله عنه بعد هذه الوقعة ثلاثة أيام في مكان القتال، وترحم على القتلى من الفريقين، وكان يمر بين القتلى حتى مر بمحمدِ بنِ طلحة بن عبيد الله، وقد قتل بين يدي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقال لولده الحسن: يا حسن! محمدِ السجّاد وربِّ الكعبة، لولا بِرُّه بأبيه ما خرج، فقال الحسن: ما كان أغناكَ عن هذا! فقال: مالك يا حسن؟

وصلى علي رضي الله عنه على القتلى جميعاً، ثم أمر بدفنهم.

وجمع ما كان في ساحة المعركة من أموال وثياب وسلاح، وبعث به إلى مسجد البصرة ليأخذ الناس ما لهم في هذا، والذي لا يُعرف له صاحب يوزع بين الناس، ونهى أن يؤخذ شيء منها كغنيمة، وقال: لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء (يقصد: قتلى يوم الجمل).

وهكذا وقع السيف في أمة محمد ﷺ من غير اختيار من أكابرهم، وإنما بالوقيعة والدسائس التي شايعتها النفوس المريضة التي عملت وما زالت تعمل باسم محبة آل البيت، والدفاعِ عنهم لاستباحة الإسلام والمسلمين.

- **موقعة صفين – ذو الحجة سنة ٣٦هـ:**

وقعت موقعة صفين في شهر ذي الحجة من السنة السادسة والثلاثين إلى شهر صفر من سنة سبع وثلاثين للهجرة؛ أي: بعد أشهر قليلة من واقعة الجمل، فكانت فاجعة عظيمة أشد وأخطر من فاجعة الجمل؛ لما ترتب عليها من آثار ما زالت الأمة تعيش أحداثها إلى اليوم وإلى ما شاء الله تعالى.

وقبل أن أخوض في إيجاز الحدث أَلفتُ نظر القارئ الكريم إلى أن جمعاً كبيراً ممن كتب عن هذه الواقعة هم من الحقدة على بني أمية، وخاصة على الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، أو ممن نقل عنهم، فينبغي الحذر مما كتبوه ودسوه في التاريخ من أمور لا تليق بعامة المسلمين، فكيف بما كتبوه عن الصحابة رضوان الله عليهم؟!

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٦٩)، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٢/ ٣٤٦).

غير أن الله تبارك وتعالى قد قيض من ينقل لنا شيئاً من الأخبار الصحيحة التي جرت يوم ذاك فيما كتبه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»، وأحمد في «فضائل الصحابة»، والحاكم في «المستدرك»، وابن أبي شيبة في «مصنفه»، وعبد الرزاق في «المصنف»، والذهبي في ترجمته لأعلام النبلاء، وتعليقات الحافظ ابن حجر في «فتح الباري على شرح صحيح البخاري»، ويمكن من خلال هؤلاء أن نستجمع مادة نقف من خلالها على أصح الأخبار لهذه الموقعة.

وأصل المسألة الخلافُ الذي وقع بين أمير المؤمنين عليّ ﵁، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، والذي بني على قضية القصاص من قتلة عثمان ﵁، فعليٌّ يرى أنه الخليفة، وأن على والي الشام أن ينصاع لأمره، ومعاويةُ ﵁ يرى أنه وليُّ الدم لعثمان، وأنه لا يعطي البيعة لعلي حتى يقتصَّ من قتلة عثمان ﵁.

وكان علي ﵁ قد تهيأ - وهو في المدينة قبل خروجه للعراق - للخروج إلى الشام لقتال معاويةَ وأهل الشام لإدخالهم في حوزة الدولة، ولكن الله أراد أمراً آخر؛ إذ أنه علم بخروج الصحابة - الزبير، وطلحة، وأم المؤمنين عائشة - إلى العراق، ففضل الذهاب إلى العراق لينظر ما تؤول إليه الأمور والأحوال هناك، فلما كان ما كان من الأمر السابق يوم الجمل، استقر علي في الكوفة، وانتقلت إليها حاضرةُ الدولة وعاصمةُ الخلافة، ولم يرجع مرة أخرى للمدينة حتى قتل ﵁.

فلما استقر بالعراق، رأى أن يعيد الكرة على أهل الشام، وأن يخرج إليهم لإرغامهم على الدخول في حوزة الدولة.

روى الذهبي في «السير»: أن أبا مسلم الخولاني⁽¹⁾ جاء مع أناس إلى معاوية ﵁، فقالوا له: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟! فقال معاوية: لا والله! إني لأعلم أن علياً أفضل مني، وإنه لأحقُّ بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنا ابن عمه، وإنما أطلب بدم عثمان؟ فأتوه فقولوا له: فليدفع إليَّ قتلة عثمان، وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه بذلك، فلم يدفعهم إليه⁽²⁾.

---

(١) أبو مسلم الخولاني: عبد الله بن ثوب بن عبد الله الداراني الخولاني سيد التابعين، وزاهد عصره، قدم من اليمن وأسلم في أيام النبي ﷺ ولم يلقَهُ، دخل المدينة في خلافة الصديق ﵁، توفي سنة ٦٢هـ، الذهبي/ سير الأعلام (٤/ ٧).

(٢) الذهبي/ سير الأعلام/ ترجمة معاوية بن أبي سفيان (٣/ ١٤٠)، وقال: رجاله ثقات.

سار علي ﵁ إلى مكان يقال له: صِفِّين على الحدود بين العراق والشام قرب مدينة الرقة، كما سار معاوية بأهل الشام حتى وصلوا أيضاً إلى صفين، ودار بين الفريقين مراسلات، فلم تنته بينهما بشيء، وعندئذ وقع القتال بينهما لأمد طويل لم تعهده الأمة من قبل على هيئة اشتباكات ومبارزات بين الطرفين(١)، حتى إنه عندما تتوقف هذه المبارزات كان الرجال بين المعسكرين يتزاورون دون أن يهابوا الحرب، وكان الطرفان لا يُجْهِزون على جريح، ولا يقتلون موالياً، ولا يسلبون قتيلاً(٢).

وبعد مضي أسبوع من شهر صفر دارت رحى الحرب، ثم استمرت شيئاً فشيئاً، واستمرت يوم الأربعاء التاسع عشر من صفر، ثم الخميس، ولم ينقطع حتى في الليل، واستمرت إلى ضحى يوم الجمعة الحادي والعشرين من صفر، فلما رأى الناس كثرة إراقة الدماء، رأوا أن يوقفوا القتال، وأن يحكموا كتابَ الله تعالى فيما بينهم، وهذا من حكمة الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﵁ الذي رأى أنه لا خير في استمرار القتال، وأنها فتنة أطلت على الجميع، فينبغي إيقافُها، لذا أشار عمرو بن العاص ﵁ على معاوية ﵁ أن يرسل إلى علي ﵁ بالمصحف، وقال له: فلا والله! لا يرده عليك، فجاء به رجل يحمله إلى علي، وينادي: بيننا وبينكم كتاب الله: **﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾**[آل عمران:٢٣].

فقال علي ﵁: نعم بيننا وبينكم كتابُ الله، أنا أولى به منكم، فجاءت الخوارج بأسيافهم على عواتقهم، وكانوا يسمونهم يومئذ بالقراء، فقالوا: يا أمير المؤمنين: لا (لا تقبل) نمشي إلى هؤلاء القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

---

(١) قال ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تَقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة. رواه البخاري (١٣/ ١٠٢/ح:٧١٢١).

قال الحافظ ابن حجر في الفتح تعليقاً على الحديث: والمراد بالفئتين: جماعة علي، وجماعة معاوية، والمراد بالدعوة: الإسلام على الراجح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن سبب قتال أهل الشام إلى جوار معاوية: لظنهم أن عسكر علي فيه ظَلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان ﵁، وأنهم إنما يقاتلون دفعاً لصيالهم عليهم، وقتال الصائل جائز، ولهذا لم يبدؤوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك.

ثم نقل ابن تيمية: أن أبا حنيفة ومالكاً وأحمد وغيرهم قالوا: لم يوجد شرط قتال الطائفة الباغية، وهؤلاء قتلوا ابتداءً قبل أن يبدؤوا بالقتال – منهاج السنة (٤/ ٣٨٣).

(٢) الحاكم / المستدرك (ح:٢٦٦٠)، البيهقي/ السنن الكبرى (ح:١٦٥٣٠).

فقام سهل بن حُنَيف ؓ فقال: أيها الناس! اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم ذكر لهم ما كان من موقف عمر يوم الحديبية من الصلح، فقال علي ؓ: أيها الناس! إن هذا فتح، فقبل علي القضيةَ، ورجع، ورجع الناس⁽¹⁾.

وكان قبول علي ؓ لوقف القتال فتحاً من الله عليه؛ فقد حقن دماء المسلمين، وأوقف القتال بينهم، مع العلم أنه لم يحضر هذه الواقعة سوى القليل من الصحابة الذين لم يبلغوا ثلاثين صحابياً.

فعن محمد بن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحابُ رسول الله ﷺ عشراتُ الألوف، فلم يحضرها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين⁽²⁾.

وهذا من فضل الله تعالى على الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين عصمهم الله تعالى من إيقاع الفتن والخوضِ فيها، بل إن القتال الذي نشب فيها قتال على سبيل الرأي والاجتهاد، فكلا الفريقين شهدت له السنة الصحيحة بالجنة، ولا ينبغي لمزايد أن يزايد على هذا، بل ينبغي لمن أتى بعدهم أن يقول: إن هؤلاء ـ وهم خيرُ الناس بعد الأنبياء والرسل ـ خاضوها باجتهادهم ودمائهم، ولا يحق لنا مَنْ جئنا بعدهم أن نخوض فيها بألسنتنا، أو أن نخطئ فريقاً ونصوب آخر، وإنما نقول كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤].

كما يجب أن نستغفر لهم، وندعو لهم كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح:٥٦٢٩)، وأبو يعلى في مسنده (ح:٤٦٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي وائل شقيق بن سلمة (ح:١٠٤٤٥)، وروى بعضه بألفاظ مختلفة: أحمد في مسنده (ح:١٥٥٤٥)، والنسائي في السنن الكبرى (ح:١١٥٠٤)، كما جاء في الصحيحين شيء منه، البخاري (ح:٤٨٤٤)، ومسلم (ح:١٧٨٥)، ورواه ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٥٤٥-٥٤٦).

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٤٩٠).

ولقد ترتب على قبول عليٍّ ﵁ وقفَ القتال يوم صفين ما يلي:

أولاً: التحكيم:

التحكيم بين الفريقين واحدٌ من المسائل التي نالت التشويه والزيف في التاريخ بما لم ينله غيرُها من الروايات، فلقد دسَّ أصحاب العقائد المنحرفة من الروايات ما يشوهون به الصحابة الكرام، وخاصة أبا موسى الأشعري ﵁، وعمرَو بنَ العاص ﵁، وهذا كله كذب وافتراء عليهما إذا وصفوا أحدهم بالبلاهة، والآخر بالمكر والخديعة، بما لا يليق بمقام الصحابة رضوان الله عليهم، ويتناقض مع عدالتهم وصدقهم وأمانتهم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي عما نقل لنا من روايات التحكيم الفاسدة والمشوهة(١): هذا كله كذب صُراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة، ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع.

والحقيقة أنه اتفق الفريقان على أبي موسى الأشعري ﵁ حكماً ينوب عن علي ﵁، وعمرو ابن العاص ﵁ حكماً ينوب عن معاوية ﵁.

وكُتب بذلك عهد، وأشهد كلُّ فريق منهم عشرةً من فريقه على ذلك العهد.

ولقد أظهر علي ﵁ ومعاوية ﵁ سرورهما بذلك؛ لما فيه من حقن لدماء المسلمين، وتعظيم لكتاب الله وشرعته، وتأليف للقلوب، ووحدة الكلمة.

اجتمع الحكمان بدومة الجندل لينظرا ما يصلح الأمة، وقد أطالا فيما بينهما الأخذ والعطاء، لكنهما لم يتفقا على خلع كل منهما صاحبه، وترك الأمر لمشورة المسلمين، فهذه روايات لا تصدق؛ لأنه لا يصح لعاقل منهما أن يترك الأمة بلا أمير، وأن ينصبا نفسيهما أميرين على الأمة يختاران لها من شاءا، فهما لم يجتمعا لذلك، وإنما اجتمعا من أجل النظر في كيفية فض النزاع بين الفريقين بناءً على مطالبة كل فريق.

عليٌّ يطالب ببيعة أهل الشام وعزل معاوية، ومعاوية وليُّ الدم لعثمان يطالب بالقصاص من قتلة عثمان أولاً، ثم بعدها يعطي البيعة لعلي.

---

(١) العواصم من القواصم (ص:١٤٩).

قال القاضي ابن العربي عن مسألة خلع الحكمين لعلي ومعاوية: معاوية لم يكن يومئذ خليفة، ولم يكن يطالب بالخلافة، فكيف يُخلَع عن شيء لا يمتلكه؟! فهذه هي نقطة المغالطة التي هزئ بها مؤرخو الإفك المفترى، فسخروا بجميع قرّائهم، وأوهموهم بأن هناك خليفتين، أو أميرين للمؤمنين، وأن الاتفاق بين الحكمين كان على خلعهما معاً، وأن أبا موسى الأشعري خلع الخليفتين تنفيذاً للاتفاق، وأن عَمْراً خلع أحدهما، وأبقى الآخر خليفة خلافاً للاتفاق، وهذا كله كذب وإفك وبهتان.

وخلاصة ما يقال في أمر التحكيم: أن الحكمين قد خرجا بعد مداولات دامت لأشهر عديدة(١)، وأنهما لم يتوصلا لأمر إلا أن يبقى الأمر كائناً على ما عليه: عليٌّ أمير للمؤمنين، ومعاوية والٍ على الشام، فالحكمان لم يعزلا، ولم يوليا، ولكن تُرك الأمر لأعيان الصحابة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: فهذا كان بدء الحديث ومنتهاه، فأعرِضوا عن الغاوين، وازجروا العاوين، وعرجوا عن سبيل الناكثين، إلى سنن المهتدين، وأمسِكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين.

وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ، فقد هلك من كان أصحابُ النبي ﷺ خصمَه، ودعوا ما مضى، فقد قضى الله ما قضى، وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقاداً وعملاً، ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما لا يعنيكم مع كل ناعق اتخذ الدين هملاً؛ فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً... فهذا العقل والدين، والكف عن أحوال المسلمين، والتسليم لرب العالمين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدَر فأمسكوا»(٢).

---

(١) لعل الله تعالى تدارك برحمته أمة محمد ﷺ أن أطال المدة بين الحكمين لترتاح الأمة من شر الخوارج المكفرة واستباحة دماء المسلمين، وذلك كرامة للصحابة رضوان الله عليهم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٩٦)، والألباني في الصحيحة (١/ ٣٤).

ثانياً: خروج الخوارج أولِ الفرق المنحرفة عقدياً في الإسلام:

ترتب على قبول علي للتحكيم خروجُ طائفة كبيرة من جيشه زهاء اثني عشر ألفاً كرهوا وقف القتال، وانحازوا إلى أرض يقال لها: حروراء بظاهر الكوفة على بعد ميلين منها، وكانوا قد قالوا لعلي قبل رحيلهم: انسلختَ من قميص ألبسكه الله تعالى، واسم سماك الله تعالى به، ثم انطلقت فحكمت في دين الله، فلا حُكْم إلا لله تعالى، فكانت هذه أول فتنة خروج الفرق المنحرفة عقدياً في الإسلام، وسموا في أول أمرهم بالحرورية نسبةً إلى قرية حروراء التي نزلوا بها، ثم سُموا بعدَ ذلك بالخوارج، وأسسوا لأنفسهم مذاهب عقدية، وتفرقوا إلى جماعات شتى، كانت لها وما زالت الآثار السلبية التي لعبت دوراً خطيراً في تقهقر مسيرة هذه الأمة، ونشر عقيدة تكفير المسلم بالمعصية.

- **أمير المؤمنين علي ﵁ يردُّ على أباطيل الخوارج:**

لما بلغ علياً قولُ هؤلاء القوم، أمر منادياً أن ينادي فيهم: أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، وكان علي قد عزم أن يفند أباطيلهم، وأن يرد عليهم بالحجة الدامغة، فلما أن امتلأ المكان منهم، دعا علي ﵁ بمصحف عظيم، فوضعه بين يديه، وجعل يصكه بيده ويقول: أيها المصحف! حدث الناس!! فقال الناس: يا أمير المؤمنين! ما تسأل عنه؟ إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله، يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴾ [النساء:٣٥]، فأمةُ محمد ﷺ أعظمُ دماً وحرمة من امرأة ورجل(١).

ثم رد عليهم في أنه كاتب معاوية ﵁ في المراسلات التي كانت بينه وبين معاوية في يوم صفين بقوله: من علي بن أبي طالب – دون ذكره أمير المؤمنين.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٥٦٥)، وهذا بيان منه ﵁ بأن حرمة دماء الأمة والتحكيم بينها أولى من السعي والتحكيم بين المرأة وزوجها إذ وقع بينهما الخلاف.

وذكر لهم علي رضي الله عنه رداً على قولهم: إنه انسلخ من قميصٍ ألبسه الله إياه، واسم سماه الله تعالى له – أمير المؤمنين – فقال مذكراً بما كان من ذلك في يوم الحديبية، وأن المسألة ليست مسألة ألقاب قائلاً: جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية حين صالح قريشاً، فكتب رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا تكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: كيف نكتب؟ فقال سهيل: اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ لي: اكتب: باسمك اللهم، ثم قال: اكتب: محمد رسول الله، فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفْك، فكتب: هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً، يقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١](١).

ثم أرسل عليٌّ رضي الله عنه إلى الحرورية عبدَ الله بنَ عباس، فواجههم، وردَّ على أباطيلهم، وظل يناظرهم ثلاثة أيام.

ومما جادلوه فيه: أنهم نقموا على عليٍّ في ثلاث:

الأولى: أنه حكّم الرجال في أمر الله.

الثانية: أنه قاتل ولم يغنم ولم يَسْبِ.

الثالثة: أنه محا عن نفسه لقب أمير المؤمنين.

فأجابهم ابنُ عباس عن الأولى والثالثة بما رد به عليٌّ من قبلُ، أو قريب منه.

وأما الثانية، فقال لهم: أتستبيحون السبي في يوم الجمل؟ أتسبون أمكم عائشة؟ فإن قلتم: إنا نستحل منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا، فقد كفرتم، فأنتم بين ضلالتين، فأتوا منها بمخرج، ثم قال لهم: أفخرجت من هذه، قالوا: نعم(٢).

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٤٠٣/ح:٢٧٣١-٢٧٣٢)، وابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٥٦٦). وكان علي رضي الله عنه في يوم الحديبية هو كاتب النبي ﷺ لوثيقة الصلح مع قريش.

(٢) رواه النسائي/ السنن الكبرى (ح:٧٣٤٦)، الوادعي/ صحيح دلائل النبوة (ح:٢٧٥٠). وابن عباس في هذا يتأول قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، ثم ذهب إليهم علي، فأطاعوه، ودخلوا معه إلى الكوفة، ثم أشاعوا أن علياً تاب من التحكيم، ولذلك رجعوا معه، فأنكر ذلك عليهم، وقام خطيباً في المسجد، فقام أحدهم من جانب المسجد وقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال مثل ذلك، ثم توالى عدد منهم يردد ذلك، فقال علي رضي الله عنه: الله أكبر! كلمةُ حقّ يلتمَس بها باطل، ثم قال لهم: لكم عندنا ثلاثٌ ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمَه، ولا نمنعكم الفيء ما قامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا.

فأجمع هؤلاء على الخروج آحاداً مستخفين، ونزلوا إلى جسر النهروان، وكتبوا لمن على رأيهم في البصرة ليوافوهم في النهروان، فصارت لهم شوكة ومنعة وقوة وشجاعة(١).

بايع الخوارج عبدَ الله بن وهب الراسبي(٢) أميراً عليهم، وفي النهروان بدأت تزيد بدعتهم بتكفير مخالفيهم، واستباحة دمائهم وأموالهم، فروّعوا الآمنين وقطعوا الطريق على المارة ممن خالفهم.

قال ابن كثير: خرجوا يتسللون وحداناً؛ لِئلا يعلم أحد بهم، فيمنعونهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر والذنوب الموبقات، والعظائم والخطيئات، وأنه مما يزينه لهم إبليس الشيطان الرجيم المطرود عن السموات، الذي نصب العداوة لأبينا آدم، ثم لذريته ما دامت أرواحهم في أجسادهم مترددات، وزينته لهم أنفسهم التي هي بالسوء أمارات، والله المسؤول أن يعصمنا منه ومنهم بحوله وقوته إنه مجيب الدعوات(٣).

وقال رحمه الله: وما أحسنَ ما قال بعض السلف في الخوارج: إنهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥]، ثم وصفهم بقوله: هؤلاء الجهلة الضلال، والأشقياء في الأقوال والأفعال.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٥٧٠)

(٢) عبد الله بن وهب الراسبي من بني راسب بن ميدعان من قبيلة الأزد، كان زعيماً للحرورية الخوارج وقادهم في معركة النهروان.

(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٥٨١).

رحم الله الحافظَ ابنَ كثير، فكأنه يعيش بيننا يصف لنا التكفيريين المعاصرين الذين خرجوا على الأمة اليوم ببدعتهم التي سبقهم إليها أسلافهم من الخوارج المتقدمين، فهذا وصف دقيق لكل تكفيري كان وكائن ويكون. والله تعالى أعلم.

ومن عجيب الأمر: أن علياً رضي الله عنه ومن معه لم يكفروا هؤلاء الذين كفروهم، ولم يُجْهِزوا على جريحهم، ولم يغنموا أموالهم أو يسبوهم، بل إنه لما سُئل عن أهل النهروان أهم مشركون؟ قال:من الشرك فروا، قيل: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا(١).

وهذا من إنصاف السلف أهلِ السنة والجماعة لخصومهم.

ثالثاً: قتال الغلاة من شيعته(٢):

أظهر السبئية المندسون في جيش علي الغلوَّ فيه، وأنه معصوم لا يخطئ، بل رفعه بعضهم إلى درجة الألوهية. ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى أن علياً خرج ذات يوم من باب كندة، فسجد له أقوام، فقال: ما هذا؟ فقالوا: أنت هو! قال: من هو؟ قالوا: أنت الله حقاً، فاستتابهم ثلاثاً، فلم يرجعوا، فأمر في اليوم الثالث بأخاديد فخُدَّت، وأضرم فيها

---

(١) ابن أبي شيبة / المصنف (ح:٣٧٢٣٩)، أكرم ضياء العمري/ عصر الخلافة الراشدة (ص:٤٨٦-٤٨٧).

(٢) أنشأ هؤلاء مذاهب منحرفة متباينة فيما بينها، وأفكاراً هدامة أرادوا بها مضاهاة الشريعة، وجمعوا من هاهنا ومن هاهنا من الخرافات الهائلة والكذب البين الواضح الذي طغى عليهم وصدقوه، وادعوا المظلومية من جانب، والسادية (التلذذ بالقسوة) من جانب آخر، حتى لا تجد بينهم إلا حاقداً على الإسلام وأهله، أو راهباً ابتدع ديناً خرافياً تعصب له ولما ورثه عن آبائه ومشايخه وأن ما عاداه باطل لا يقبل.

وإذا وُوجهوا في أي زمان بهذه الحقائق أنكروها؛ لأن دينهم أساسه التقية، وهو أن يظهروا أمراً ويبطنوا آخر، فهي مرادفة للكذب، وادعوا زوراً بأنهم أنصار آل بيت النبي ﷺ، وهم من ألد أعدائهم، إذ أنهم رموا فراش النبي ﷺ الطاهر بالخيانة والفاحشة، فرماهم الله في أعراضهم جميعاً بما استباحوه وشرعوه لأنكحة فاسدة مرادفة للزنا في المعنى وإن خالفتها في المسمى.

ولقد كان هؤلاء على مر التاريخ جسراً يعبر عليه طوعاً منهم كل طامع وغاز لأمة الإسلام، سواء كان من أهل الأهواء والبدع، أو كان من أهل الملل الكفرية، ولقد ظهرت منهم فرق متعددة كان من أسوئها وأخبثها فرق الباطنية.

وقد انقسمت فرقهم إلى فرق متعددة منها السبئية ومنها الكيسانية (المختارية) ومنها الرافضة ومنها الزيدية، وتفرع عنهم فرق كثيرة كلها زعمت نصرة النبي ﷺ، وهم من ألد أعداء السنة النبوية، والحديث عن فرقهم يطول، ومظانه كتب الفرق والعقائد والتاريخ.

ولقد انتشرت نحلتهم هذه بفارس والعراق أرض الشقاق والنفاق، كما وصلت بعض هذه الفرق فراراً من سيف الدولة وسطوتها إلى الهند وباكستان.

ومن عقائدهم الفاسدة عصمة الأئمة عندهم والأوصياء وقولهم بقول ابن سبأ الأول بالرجعة، وأن الصحابة ملعونون وخائنون، وبأن القرآن الكريم الذي بين أيدينا محرف أو ناقص، وغيرها من العقائد المنحرفة.

كما قالوا بالبداء على الله تعالى (أن الله تعالى خلق الخلق ولا يعلم هل يكون فيهم خير أو شر، وأنه بعدما خلقهم بدت له أمور لم يكن يعلمها) - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فهم بذلك ينفون العلم عن الله، وكانوا على مر التاريخ عوناً للأمم الكافرة على أمة الإسلام، وهم اليوم بطولهم وعرضهم وأولهم وآخرهم لا يمثلون أكثر من ثمانية بالمئة من سكان العالم الإسلامي، ولا تطل رؤوسهم على الأمة إلا في فترات الضعف التي يتحينونها في كل زمان ومكان، والتي يحلمون فيها بعودة ملك فارس، وأنى لهم ذلك؛ فقد قال المعصوم ﷺ: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده).

النار، ثم قذفهم فيها وقال:

لما رأيت الأمر أمراً منكرَا　　　أَجَّجتُ ناري ودعوت قنبرَا(١)

روى البخاري عن عكرمة قال: أتى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بزنادقة، فأحرقهم، فبلغ ذلك ابنَ عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لنهي رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم؛ لقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

قال ابن حجر في الفتح: قيل لعلي: إن هنا قوماً على باب المسجد يزعمون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم! ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، قال: ويلكم! إنما أنا عبد مثلكم، آكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا ذلك، فلما كان الغد، غدوا عليه، فجاء قمبر فقال: قد ـ والله ـ رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم، فقالوا كذلك، فلما كان اليوم الثالث، قال: لئن قلتم ذلك، لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك.

فأمر علي أن يخدّ لهم أُخدود بين باب المسجد والقصر، وأمر بالحطب أن يطرح في الأخدود، ويضرم بالنار، ثم قال لهم: إني طارِحُكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم حتى إذا احترقوا قال:

إني إذا رأيت أمراً منكرَا　　　أوقدتُ ناري ودعوت قنبرا

وأضاف ابن حجر: وهذا سند حسن. وزعم أبو المظفر الأسفرايني في الملل والنحل: أن الذين أحرقهم علي رضي الله عنه طائفة من الروافض ادعوا فيه الإلهية، وهم السبئيَّة، وكان كبيرهم عبد الله بن سبأ يهودياً، ثم أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة. ا.هـ.

وقد فر ابن سبأ إلى قرقيسيا، ولم يتمكن منه علي رضي الله عنه ، خاصة بعد أن نال ابن سبأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعلم أن علياً رضي الله عنه توعد بقتله، ففر إلى فارس، وقيل: إلى قرقيسيا.

كما توعد علي رضي الله عنه المفضِّلَة الذين يفضلونه على أبي بكر وعمر بقوله: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حَدَّ المفتري.

---

(١) قنبر بن حمدان: غلام من الموالي كان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يكتب وينطق بالنون وبالميم.

وهؤلاء قد أحدثوا في الإسلام بدعة لم تكن قبلُ قط؛ حيث إنهم زعموا أنهم شيعة -أنصار- آل بيت النبي ﷺ، وأن علياً هو الأحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان، وقد وضعوا لأنفسهم منهجاً عقدياً منحرفاً عن العقيدة الإسلامية الصافية، وكان أكثر أتباعهم من الفرس والموالي الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا المجوسية، وكان كل اهتمامهم هو أن يُحِدثوا أمراً يندرس به الإسلام، وتعود به حضارة فارس البائدة، فزعموا كذباً وزوراً محبة آل البيت؛ ليجذبوا إليهم جماهير المسلمين، ويخدعوهم بزيف قولهم، فيجدوا لهم أنصاراً كلما خرجوا على الدولة الإسلامية؛ كما حدث بعد علي في زمان الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية وتاريخنا المعاصر.

- **معركة النهروان سنة ٣٨هـ:**

تعرض الخوارج لعبد الله بن خباب بنِ الأرتّ فأسروه وامرأته الحامل، فقالوا له: من أنت؟. فقال: أنا عبدُ الله بنُ خبابٍ صاحبِ رسول الله ﷺ، وأنتم قد روعتموني، فقالوا: لا بأس عليك، حدثنا ما سمعت من أبيك، فقال: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة القاعدُ فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي».

فأخذوه من يده، فبينما هو يسير معهم، إذ لقي بعضُهم خنزيراً لبعض أهل الذمة، فضربه بعضهم بسيفه فشق جلده، فقال له آخر: لم فعلت هذا وهو لذمي؟ فذهب إلى ذلك الذمي فاستحله وأرضاه.

وبينما عبد الله معهم، إذ سقطت تمرة من نخلة، فأخذها أحدهم فألقاها في فمه، فقال له آخر: بغير إذن ولا ثمن؟ فألقاها من فمه تورعاً.

وبرغم ما أظهروه من التقوى والورع، قدموا عبدَ الله بنَ خباب رضي الله عنهما فذبحوه ذبح الشاة، وقدموا امرأته للذبح، فقالت: إني امرأة حبلى، ألا تتقون الله عز وجل؟!!! فذبحوها وبقروا بطنها عن ولدها(١).

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٥٨٤)، قلت: سبحان مقلب الليل والنهار الذي أرانا ما فعلته داعش بأهل السنة في الشام والعراق، فهم شر خلف لشر سلف.

فأرسل إليهم علي ﵁ الحارثَ بنَ مرةَ العبديَّ على أثر هذه الحادثة، فقتلوه ولم ينظروه، فأعدَّ عليٌّ ﵁ لهم الجيش، وسار به نحوهم، ثم أرسل إلى الخوارج: أن ادفعوا إلينا قتلة عبد الله بن خباب، ومن قتلتموه من المسلمين لنقتلهم بهم، فأرسلوا إليه: كلنا قتل إخوانكم، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم.

فتقدم إليهم أبو أيوب الأنصاري ﵁، وقيسُ بن سعد بن عبادة يأنبونهم ويوبخونهم فلم ينجع فيهم.

فتقدم إليهم علي ﵁، ووعظهم وخوّفهم، وحذّرهم وأنذرهم، وتهددهم وتوعدهم.

لكنهم تنادوا فيما بينهم أن اثبتوا وتهيؤوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة، وتقدموا فاصطفوا للقتال، وتأهبوا للنزال.

فلقيهم علي بجيشه في ثمانية وستين ألفاً، ووضع راية أمان في مكان، ونادى المنادي: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، لا حاجة لنا في دمائكم إلا فيمن قتل إخواننا، فعندئذ انصرف منهم أقوام، وبقي آخرون مع زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي.

ولم يبدأهم علي القتال حتى بدؤوه، فأقبلوا عليه وهم يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة.

فدارت رحى معركة صار فيها الخوارج صرعى تحت سنابك الخيل، وقتل أمراؤهم واحداً تلو الآخر؛ كعبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن شجرة السلمي، قبحهم الله، ولم يقتل من أصحاب علي إلا سبعة نفر.

وقام علي يمشي بين القتلى وهو يقول: بؤس لكم! لقد ضركم من غركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! ومن غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفسٌ بالسوء أمّارة، غرتهم بالأماني، وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون(١).

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٠/ ٥٨٨)، وهو تأويل صحيح في محله لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥].

ولما انتهت المعركة أمر علي بالجرحى أن يسلَّموا إلى قبائلهم ليداووهم، وقسم ما وجد من سلاح ومتاع لهم بين جنده، وقال الناس: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي قطع دابرهم، فقال علي: كلا والله! إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين، فقلما يقاتلون أحداً إلا ألفوا أن يظهروا عليه.

وكان من بين القتلى من الخوارج رجل يقال له: ذو الثديّة، فلما رآه علي رضي الله عنه، سجد لله شاكراً، ثم ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

ثم أضاف علي رضي الله عنه: لو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لاتكلوا عن العمل، وآية ذلك: أن فيهم رجلاً له عضدٌ ليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض... الحديث(١).

وفي رواية: أن علياً أخبر الناس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن أقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يرجعون فيه أبداً، حتى يرجع السهم على فُوقه، وإن آية ذلك: أن فيهم رجلاً أسودَ مخدجَ اليد، إحدى يديه كثدي المرأة، لها حلمة كحلمة ثدي المرأة، حوله سبع هلبات -شعرات-.

وقال علي رضي الله عنه: التمسوه؛ فإني أراه فيهم، فالتمسوه فوجدوه إلى جانب النهر تحت القتلى، فأخرجوه، فكبر علي فقال: الله أكبر! صدق الله ورسوله، وكبر الناس حين رأوه واستبشروا، وذهب عنهم ما كانوا يجدون من الضيق والغم(٢).

٣. الفتوحات في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

تراجعت الفتوحات تراجعاً ملحوظاً في عهد علي بسبب ما عانته الأمة من فتنة السبئية والخوارج، والتي أحدثت إشغالاً للأمة عن مواجهة أعدائها في الخارج، وعن استمرارية حركة الفتوحات، وهذا كان من أعظم الأمور التي تحققت لأعداء الإسلام على يد هذه الطغمة المنحرفة.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٤٩/ح:١٠٦٦).ف

(٢) تفرد به أحمد (ح:٦٢٧)، ابن كثير / البداية والنهاية (١٠/ ٥٩٥).

غير أنه بقي التصدي للاضطرابات التي وقعت في بلاد فارس في سنة ٣٧هـ أمراً واجباً؛ لذلك أرسل علي رضي الله عنه زيادَ بنَ أبيه إليهم، فحاصرهم، وصالحوه على دفع الجزية.

كما قام مرزبان في مرو عاصمةِ خراسان بجمع الجزية من المدن والقرى هناك، فرفضوا ذلك، وثاروا على المسلمين، فبعث إليهم عليٌّ رضي الله عنه الجعدَ بنَ هبيرة المخزومي، فامتنعوا عليه، فبعث لهم خليدَ بن قرة اليربوعي، فحاصر نيسابور، فصالحوه على الجزية كما صالحه أهل مرو على ذلك، لكن الثورات في هذا الإقليم لم تنته حتى قتل علي رضي الله عنه، مستغلين الاضطربات الداخلية بسبب فتنة السبئية ـ عليهم من الله ما يستحقونه ـ.

كما بعث علي رضي الله عنه الربيعَ بنَ خثيم لغزو بلاد الديلم بفارس في أربعة آلاف، أو خمسة آلاف لغزو هذه المنطقة.

كما توجه الحارثُ بن مرة العبديُّ بإذن من علي مع جمع من المجاهدين إلى حدود الدولة مع بلاد السند، فحقق انتصارات واسعة، وغنم مغانم كثيرة، لكنه في النهاية قُتل هو وعدد كبير من جيشه، ولم ينجُ منهم إلا القليل.

و هكذا كانت الفتنة التي أخرت الفتوحات والغنائم، وحددت الخارطة الإسلامية في إطار الفتوحات في عهد الخلفاء الثلاثة السابقين ـ رضوان الله على الجميع ـ.

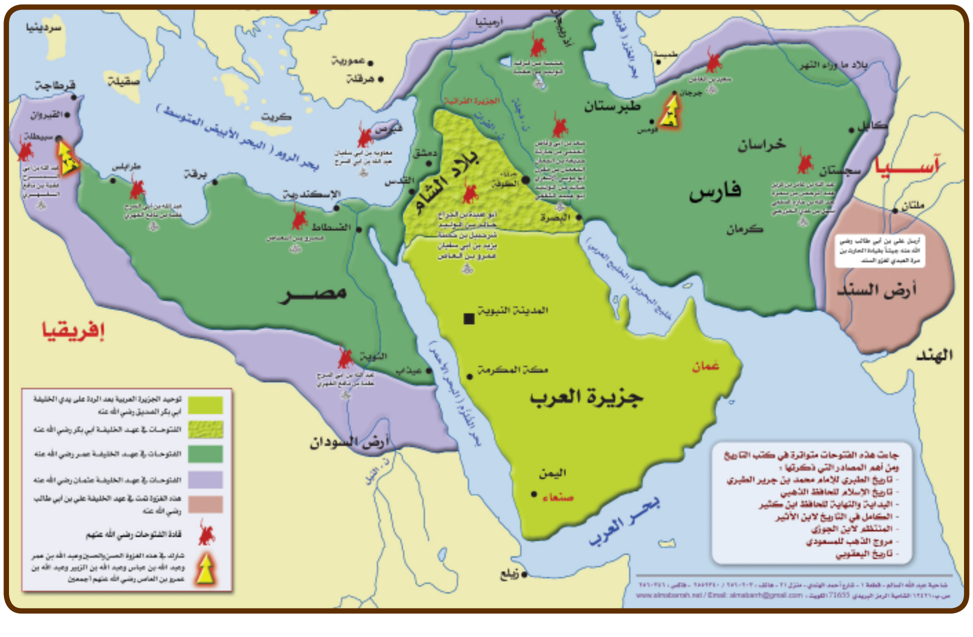
سردينيا
قرطاجة
صقلية
القيروان
سبيطلة
عمورية
هرقلة
كريت
قبرص
طرابلس
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
مصر
إفريقيا
النوبة
عيذاب
أرض السودان
زيلع
أرمينيا
الجزيرة الفراتية
بلاد الشام
دمشق
القدس
الكوفة
البصرة
المدينة النبوية
مكة المكرمة
جزيرة العرب
اليمن
صنعاء
عمان
بحر العرب
طبرستان
خراسان
فارس
كرمان
سجستان
كابل
بلاد ما وراء النهر
آسيا
ملتان
أرض السند
الهند
توحيد الجزيرة العربية بعد الردة على يدي الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه
الفتوحات في عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه
الفتوحات في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه
الفتوحات في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه
هذه الغزوة تمت في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
قادة الفتوحات رضي الله عنهم
شارك في هذه الغزوة الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين
أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه جيشاً بقيادة الحارث بن مرة العبدي لغزو السند
جاءت هذه الفتوحات متواترة في كتب التاريخ ومن أهم المصادر التي ذكرتها :
- تاريخ الطبري للإمام محمد بن جرير الطبري
- تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي
- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير
- الكامل في التاريخ لابن الأثير
- المنتظم لابن الجوزي
- مروج الذهب للمسعودي
- تاريخ اليعقوبي

استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

ظل علي رضي الله عنه يعالج المشكلات التي واجهته في السنوات الخمس التي عاشها في الخلافة، وأكثر ما عانى من أهل الكوفة الذين خدعوه وراوغوه، كلما أراد أن يخرج بهم لقتال أهل الشام يوافقونه ثم يخالفونه في ذلك، حتى خطبهم وقال: اللهم إني سئمتهم وسئموني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحْهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته(١). إشارة إلى ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الطبراني من حديث صهيب، وعن علي نفسه، والذي صححه الألباني: أن علياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسلم، فأقعده إلى جنبه، فقال صلى الله عليه وسلم: يا علي! من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال صلى الله عليه وسلم: عاقر الناقة.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: فمن أشقى الآخرين؟، فقال علي رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم؟ فأهوى بيده صلى الله عليه وسلم إلى لحية علي رضي الله عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم: يا علي! الذي يخضبُ هذه من هذا، ووضع يده على فرعه.

قال أبو هريرة: فوالله! ما أخطأ الموضعَ الذي وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه.

المؤامرة:

اجتمع ثلاثة من الخوارج، وهم: عبدُ الرحمن بن ملجم المرادي، والبُرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي في مكة، وتذاكروا يوم النهروان، وما جرى لأصحابهم، وتباكَوْا عليهم، وتعاهدوا أن يخلصوا الأمة ـ فيما يرونه ـ من أسباب ما وصلت إليه(٢)، وهم يقصدون الصحابةَ الثلاثة: علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص رضوان الله عليهم، فتعاهدوا على قتلهم جميعاً، وقام ابن ملجم لعلي، وقال البرك: أنا لمعاوية، وقال الأخير: أنا أكفيكم عمراً، وتعاهدوا فيما بينهم أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان، وأن لا يخبروا أحداً بما قرروه خشية أن تفشل خطتهم.

---

(١) أكرم ضياء العمري/ عصر الخلافة الراشدة (ص:٤٨٨)، نقلاً عن عبد الرزاق في المصنف (ح:١٨٦٧٠).

(٢) وهؤلاء صدق فيهم قول القائل: رمتني بدائها وانسلت.

فتوجه كل منهم إلى وجهته، فنزل ابن ملجم الكوفة على أصحابه من الخوارج، وكتم عنهم ما قرروه، وزار يوماً نفراً من الخوارج من تيم الرباب، فرأى فتاة يقال لها: قطامِ بنتُ شجنة، وقد كان قتل أبوها وأخوها يوم النهروان، فأعجبته، فتقدم لخطبتها فوافقت بشرط أن يمهرها ثلاثة آلاف درهم، ورأس علي بن أبي طالب، فوافق على الفور، خاصة أنه لم يأت إلا لهذا الغرض، فندبت معه رجلاً من قومها يقال له: وردان معيناً له وردءاً، واستعان هو برجل آخر اسمُه شبيبُ بن بجرة الأشجعي لينفذوا جميعاً الأمر، وجاؤوا ثلاثتهم ليلة الجمعة المتفق عليها معهم سيوفُهم، وجلسوا مقابل المكان الذي يخرج منه علي لصلاة الصبح، فلما خرج علي كعادته ينادي في الناس: أيها الناس! الصلاة الصلاة، تقدموا إليه وهاجموه، وضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه، فسال دمه على لحيته ﵁ (١)، وهرب وردان حتى تتبعه رجل من المسلمين فقتله، ونجا شبيب بنفسه، وقبض على ابن ملجم، وحمل الناس علياً مضرجاً بدمه، وقد أمر جعدة بن هبيرة أن يصلي بالناس الصبح.

وهذا يذكرنا بالمؤامرة الفارسية على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ الذي طعنه الفيروز أبو لؤلؤة المجوسي في صلاة الصبح أيضاً، وأُدخل ابنُ ملجم على علي ﵁ فقال: النفس بالنفس، إنه أسير فأحسنوا نزله، وأكرموا مثواه، فإن بقيتُ، قتلتُ أو عفوت، وإن متُّ فاقتلوه قتلي، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(٢).

ودخل جندب بن عبد الله فقال: يا أمير المؤمنين! إن فقدناك ولا نفقدك، فنبايع الحسن؟ فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

وبقي علي ﵁ الجمعة والسبت، وفي مساء السبت ليلة الأحد توفي ﵁ وعمره ثلاث وستون سنة تزيد قليلاً أو تنقص، وكان قد أوصى قبل وفاته، ثم غسّله الحسن والحسين رضي الله عنهما، وعبدُ الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، وقد دفن ﵁ ليلاً، وكثرت الروايات حول دفنه لكي لا يعلم أحد بقبره حتى لا يخرج الخوارج جثته ويمثلوا بها(٣).

---

(١) وأما معاوية، فأصابه يومها البرك بن عبد الله في إليته، فنجا بعد علاجه، وأما عمرو بن العاص، فلم يخرج يومها للصلاة بسبب مرضه، وكلف مكانه صاحب الشرطة خارجة بن حذافة، فقتله عمرو بن بكر التميمي. ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ١٩-٢٠).

(٢) ابن سعد/ الطبقات الكبرى (٣/ ٢٧).

(٣) قال الحافظ ابن كثير: وما يعتقده كثير من جهلة الروافض من أن قبره في مشهد النجف فلا دليل على ذلك ولا أصل له، ويقال: إنما ذلك قبر المغيرة بن شعبة، وروى الخطيب البغدادي عن أبي نعيم الحافظ عن أبي بكر الطلحي عن محمد بن عبد الله الحضرمي الحافظ: أنه قال: لو علمت الشيعة قبر هذا الذي يعظمونه بالنجف، لرجموه بالحجارة، هذا قبر المغيرة بن شعبة. البداية والنهاية (١١١/ ٢٠-٢١).

وقد قُدم ابن ملجم ـ قبحه الله ـ إلى السَّيَّاف، فأطيح برأسه عن جسده، فأزاحوا ذلك الرأس الخبيث الذي ظن صاحبه بأنه قتل علياً قربة إلى الله، وكم من أمثاله من عبّاد وأتباع الهوى يظنون في أنفسهم خيراً، وأن فيما يفعلونه بالمسلمين خيراً، وأنه قربة إلى الله، وما يدرون أنه مما زينه لهم الشيطان من سوء أعمالهم، وقبيح فعلهم، فكفاه أن يلقى الله عز وجل وهو أشقى الخلق، وكفى علياً رضي الله عنه أن يلقى الله شهيداً تحت راية ابن عمه سيدِ الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم.

وكانت خلافته رضي الله عنه خمس سنين وثلاثة أشهر إلا أربعة عشر يوماً(١).

---

(١) صحيح بن حبان/ كتاب التاريخ (ص:٣٥١/ ح:٦٦٢٣).

البحرين

في عهد الخلافة الراشدة

١١هـ ـ ٤١هـ

الفصل الخامس

ولاة البحرين
في عهد الخلافة الراشدة

استن الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بهدي النبي ﷺ في إدارة الدولة، فاتخذوا الولاة في المناطق المختلفة، وطوروا النظام الإداري شيئاً فشيئاً حتى استقرت الدولة إدارياً. ومن الولايات التي أرسلوا إليها الولاة: البحرين، وأول هؤلاء الولاة:

١. العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه(١):

هو العلاء بن عبد الله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع بن حضرموت، من حلفاء بني أمية، ومن أوائل من أسلم، ومن سادة المهاجرين، روى عن النبي ﷺ أحاديث عدة، وروى عنه من الصحابة: السائبُ بن يزيد، وأبو هريرة رضي الله عنهما.

هو أول من تولى ولاية البحرين بأمر من النبي ﷺ، وجعل له النبي ﷺ جباية الصدقة، وأعطاه كتاباً فيه فرائض الصدقة في بهيمة الأنعام والثمار والأموال.

ولما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر الخلافة، ثَبَّتَ العلاءَ على ولاية البحرين حتى توفي أبو بكر رضي الله عنه .

أرسله أبو بكر في خلافته بجيش لقبائل البحرين التي امتنعت عن أداء الزكاة، وبعض الذين ارتدوا منها، فقاتلهم في جواثا، فلم يفلت منهم أحد، ثم أتى القطيف، فقاتلهم فانهزموا، ونزل على الساحل، فقاتل أهل الساحل فقتلهم وحاصرهم، فطلب أهل الزارة الصلح فصالحهم، ثم قاتل أهل دارين، فقتل المقاتلة، وحوى الذراري، ثم افتتح إحدى الجزر، واتخذ بها مسجداً، فرد الله به ردة من ارتد من أهل البحرين، وأسرع مانعو الزكاة إلى بذل زكاة أموالهم، فانتصر عليهم، وأظهره الله عليهم، فجزاه الله عنهم وعن الإسلام خيراً.

غزا وفتح في أرض فارس سنة ١٧ هـ في إصطخر، وهزمهم، كما يقال: إنه أول من ركب البحر غزواً من المسلمين.

ولما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة، ثبته على ولاية البحرين، ثم كتب إليه أن سرْ إلى عتبة بن غزوان، فقد وليتك عمله(٢) – أي: والياً على البصرة –، واعلم: أنك تقدم على رجل من

---

(١) الذهبي/ سير أعلام النبلاء – ابن سعد/ الطبقات الكبرى– ابن حجر/ الإصابة – ابن عبد البر/ الاستيعاب – الزركلي/ الأعلام.

(٢) عتبة بن غزوان صحابي جليل من السابقين للإسلام، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً والمشاهد كلها، ومن أمراء المجاهدين من الصحابة، وهو الذي اختط البصرة وأنشأها وبنى بها المسجد وأصبح والياً عليها، توفي في سنة ١٧ هـ.الذهبي/ سير أعلام النبلاء.

المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

لم أعزله ألا يكون عفيفاً شديد البأس، ولكنني ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية منه، فاعرف له حقه، وقد وَلّيت قبلك رجلاً مكانه، فمات قبل أن يصل، فإن يرد الله أن تلي وُلّيت، وإن يرد الله أن يلي عتبة، فالخلق والأمر لله رب العالمين.

واعلم: أن أمر الله محفوظٌ بحفظه الذي أنزله، فانظر الذي خلقت له، فاكدح له، ودع ما سواه؛ فإن الدنيا أمد، والآخرة أبد، فلا يشغلنك شيءٌ مدبرٌ خيرُه عن شيء باقٍ شرُّه، واهرب إلى الله من سخطه؛ فإن الله يجمع لمن شاء الفضيلة في حكمه وعلمه، نسأل الله لنا ولك العون على طاعته، والنجاةَ من عذابه.

فخرج العلاء من البحرين في رهط، منهم: أبو هريرة، وأبو بكرة(١)، فلما كانوا في مكان يقال له: الصعاب من أرض بني تميم، مات ﵁، فرجع أبو هريرة إلى البحرين، وقدم أبو بكرة البصرة.

عن أبي هريرة ﵁ قال: رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً (يعني: جعلتني أحبه ما حييت): قطع البحر على فرسه يومَ دارين(٢)، وقدم يريد البحرين، فدعا الله بالدهناء(٣)، فنبع لهم ماءٌ فارتوى، ونسي رجل منهم متاعه هناك، فرجع فلقي المتاع ولم يجد الماء، ومات ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا، فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا، ودفناه، وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة(٤).

---

(١) أبو بكرة الثقفي الطائفي: نفيع بن الحارث، أمه سمية، فهو أخو زياد بن أبيه لأمه، لقب بأبي بكرة لأنه تدلى يوم حصار الطائف من سورها ببكرة وفر إلى النبي ﷺ، فأسلم بين يديه، وأخبره أنه عبد فأعتقه النبي ﷺ، لذا كان مولىً للنبي ﷺ، من فقهاء الصحابة، ،نقل عن النبي ﷺ علماً واسعاً، سكن البصرة، وتوفي بها في خلافة معاوية سنة إحدى وخمسين، وصلى عليه أبو برزة الأسلمي ﵁. الذهبي/ سير أعلام النبلاء.

(٢) وهي قصة مشهورة في كتب السير والتاريخ أنه ﵁ قد عبر الماء على فرسه دون أن تبتل حوافر الخيل، وهذه من معجزات النبي ﷺ في أصحابه، كما عبر سعد بن أبي وقاص بجيشه نهر دجلة على الخيل يوم المدائن، وقد وردت القصة عند الطبراني في الكبير، ومصنف ابن أبي شيبة، ومجمع الزوائد للهيثمي، وتهذيب الكمال للمزي.

(٣) صحراء الدهناء.

(٤) الحافظ المزي/ تهذيب الكمال.

٢. أبو هريرة ﵁:

اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال، أرجحها: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، أسلم عام خيبر، أول السنة السابعة للهجرة، قدم المدينة مهاجراً، وكان من أهل الصفة(١).

سيد الحفاظ الأثبات، حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه لم يلحق في كثرته(٢).

ولم يرو أحد عن النبي ﷺ أكثر منه، لملازمته وخدمته للنبي ﷺ، بلغت مروياته ٥٣٧٤ حديثاً، وحدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين؛ فقد بلغ عدد أصحابه أكثر من ثمان مئة كما قال البخاري(٣).

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: وأبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ، وأدائه لحروفه.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﵁ قال: إنكم تقولون: إن أبا هريرة يُكثر الحديثَ عن رسول الله ﷺ، وتقولون: مابالُ المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق(٤)، وكنت ألزمُ رسولَ الله ﷺ على ملء بطني، فأشهدُ إذا غابوا، وأحفظ إذا نَسُوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصفَّة، أعي حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه: «إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضيَ جميع مقالتي هذه، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول»، فبسطت نمرة عليّ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته، جمعتها إلى صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء. فكان حفظه الخارقُ من معجزات النبوة، قال الحافظ ابن حجر في «الإصابة»: والحديث المذكور من علامات النبوة؛ فإن أبا هريرة كان أحفظَ الناس للأحاديث النبوية في عصره(٥).

---

(١) الصفة: مكان في مؤخرة المسجد النبوي الشريف، ينزل فيه المهاجرون من فقراء الصحابة، والوافدون الذين لا مأوى لهم، فيقل عددهم حيناً، ويكثر أحياناً، وكان النبي ﷺ يتعهدهم ويشاركهم الطعام والشراب لشدة فقرهم، وكان جل عملهم تعلم القرآن والأحكام الشرعية من النبي ﷺ، فإذا دعا داعي الجهاد خرج القادر منهم للغزو، وكان أشهرهم أبو هريرة ﵁.

(٢) الذهبي/ السير.

(٣) ابن عبد البر/ الاستيعاب.

(٤) التجارة والبيع والشراء.

(٥) البخاري (٤/ ٣٦٥/ ح:٢٠٤٧)، ومسلم (٨/ ٤٤/ ح:٢٤٩٢).

روى ابن سعد في «الطبقات» عن أبي هريرة ﷺ قال: لولا آيةٌ في البقرة ما حدثتكم بحديث أبداً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩].

- **إمارته على البحرين:**

تولّى أبو هريرة أميراً على البحرين بعد وفاة واليها العلاء بن الحضرمي في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وبقي عليها حتى عزله عمر ﷺ بسبب إكثاره من النوافل، وانشغاله بها، ولما أراد عمر أن يستعمله مرة أخرى، رفض أبو هريرة ذلك، فقال له عمر ﷺ: تكره العمل، وقد طلبه من كان خيراً منك؛ يوسف! فقال أبو هريرة: يوسف نبي ابنُ نبي، وأنا أبو هريرة ابن أميمة، وإني أخشى أن أقول بغير علم، وأقضي بغير حلم، وأن يُضرَب ظهري، وينتزع مالي، ويُشتم عرضي⁽¹⁾.

ولي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وصلى على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في رمضان سنة ثمان وخمسين للهجرة، وبعدها بقليل نزل به مرض الموت، فأوصى أهله: إذا أنا متّ، فلا تنوحوا عليّ، ولا تتبعوني بمجمرة، وأسرعوا بي.

وكان يقول في مرضه هذا: «اللهم إني أحبُّ لقاءك، فأحبب لقائي». وتوفي ﷺ في خلافة معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبي سفيان.

٣. عياش بن أبي ثور ﷺ:

هو عياش بن عبد الله بن أبي ثور، ولّاه عمر ﷺ على البحرين قبل قدامة ﷺ، ولم يرد ذكره بأكثر من ذلك في كتب التراجم التي وقفت عليها⁽²⁾.

---

(١) الذهبي/ السير.

(٢)ابن عبد البر/ الاستيعاب - ابن حجر/ الإصابة.

٤. قدامة بن مظعون ﵁ (١) :

قدامة بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح القرشيُّ، ويكنى: أبا عمرو، من السابقين الأولين، ومن البدريين، خالُ أم المؤمنين حفصةَ بنتِ عمر، وعبدِ الله بن عمر ﵄، وزوج عمتهما صفيةَ بنتِ الخطاب ﵂ إحدى المهاجرات، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية مع أخويه: عثمان بن مظعون، وعبد الله بن مظعون، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها.

ولّاه عمر بن الخطاب ﵁ على البحرين، وبقي فيها إلى أن شرب الخمر متأولاً قول الله تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[المائدة:٩٣].

فعزله عمر ﵁، وأقام عليه الحد، وقصةُ ذلك رواها عبد الرزاق، والبيهقي، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابنُ حجر في الإصابة: أن الجارود ﵁ قدم على عمر ﵁ من البحرين، فقال: يا أمير المؤمنين! إن قدامة شرب فسكر، ولقد رأيت حداً من حدود الله حقاً عليّ أن أرفعه إليك، فقال عمر: من يشهد معك؟ قال: أبو هريرة. فدعا أبا هريرة، فقال: بم تشهد؟ قال: لم أره يشرب، ولكني رأيته سكران، فقال عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب إلى قدامة أن يقدم إليه من البحرين، فقال الجارود لعمر: أقم على هذا كتاب الله عز وجل، فقال عمر: أخصم أنت أم شهيد؟! قال: بل شهيد، قال: فقد أديت شهادتك، فصمت الجارود حتى غدا على عمر، فقال: أقم على هذا حد الله، فقال عمر: ما أراك إلا خصماً، وما شهد معك إلا رجل.

فقال الجارود: أنشدك الله، فقال عمر: لتمسكن لسانك، أو لأسوءنَّك. فقال الجارود: أما والله ما ذاك من حق أن شرب ابنُ عمك وتسوءُني؟!! فقال أبو هريرة: إن كنت تشك في شهادتنا، فأرسل إلى ابنة الوليد، فسلها، وهي امرأة قدامة، فأرسل عمر إلى هند ابنة الوليد ينشدها، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إني حادُّك،

---

(١) ابن عبد البر / الاستيعاب - الذهبي/ سير الأعلام - ابن سعد/ الطبقات الكبرى - ابن حجر/ الإصابة.

فقال قدامة: لو شربت كما يقولون ما كان لكم أن تجلدوني، فقال عمر: لم؟ قال قدامة: قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:٩٣]، فقال عمر: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت اجتنبت ما حرم الله عليك.

ثم أقبل عمر على الناس فقال: ماذا ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى أن تجلده ما كان مريضاً، فسكت عنه عمر أياماً، ثم أصبح يوماً وقد عزم على جلده، فقال لأصحابه: ماذا ترون في جلد قدامة؟ قالوا: لا نرى أن تجلده ما كان وجعاً -ضعيفاً-، فقال عمر: لأن يلقى الله تحت السياط أحبُّ إلي من أن يلقاه وهو في عنقي، ثم قال: ائتوني بسوط تام، ثم أمر بقدامة فجُلد، فغاضبَ قدامةُ عمرَ وهجره، فحج عمر وقدامة معه مغاضباً له، فلما قفلا من حجهما، ونزل عمر بالسقيا، نام ثم استيقظ من نومه، فقال: عجلوا عليّ بقدامة فأتوني به، فوالله! إني لأرى أن آتياً أتاني في منامي فقال: سالمْ قدامةَ فإنه أخوك، فعجلوا إليّ به، فلما أتوا إلى قدامة، أبى أن يذهب معهم، فأمر به عمر أن يأتي، وإن أبى أن يجروه إليه، فأتى إليه، فكلمه عمر، واستغفر له، فكان ذلك أولَ صلحهما.

ولم يُحد في الخمر من أهل بدر إلا قدامةُ بن مظعون. وتوفي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين للهجرة في أول خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، له من العمر ثمان وستون سنة.

٥. عثمان بن أبي العاص ﵁(١):

هو عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن حطيط بن جثم بن ثقيف.

قال عنه الذهبي في «السير»: الأمير الفاضل المؤتمن، له أحاديث في صحيح مسلم، وفي السنن.

قدم على النبي ﷺ مع وفد ثقيف، وكان أصغرهم سناً، فأخلفوه في رحالهم يتعاهدها لهم، فلما رجعوا من عند رسول الله ﷺ وناموا، ذهب عثمان إلى النبي ﷺ، فأسلم بين يديه قبلهم، وجعل يسأل عن الدين ويستقرئه القرآن، فقرأ سوراً من رسول الله ﷺ، وكان يأتي بعد ذلك، فإذا وجد رسولَ الله ﷺ نائماً، ذهب إلى أبي بكر، فسأله واستقرأه، وإلى أبي ابن كعب، فسأله واستقرأه، فجمع بذلك قرآناً في وقت قصير، فأعجب ذلك النبي ﷺ وأحبه، فلما أسلم الوفد، كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً قاضاهم عليه، فلما هموا بالرجوع لبلادهم قالوا: يا رسول الله! أمّر علينا رجلاً منا، فأمّر عليهم عثمانَ بنَ أبي العاص، وهو أصغرهم، فقال بعضهم لبعض: لا نُغيّر أميراً أمّره رسول الله ﷺ.

استعمله النبي ﷺ على الطائف، وأمره أن يخفف عن الناس الصلاة، و ألا يطيل، وقال له: إذا صليت لنفسك، فأنت وذاك.

ظل عثمان بن أبي العاص عاملاً على الطائف إلى وفاة رسول الله ﷺ، ثم استعمله أبو بكر ﵁ أيضاً على الطائف إلى أن توفي أبو بكر ﵁ ، فاستعمله عمر بن الخطاب ﵁ عاملاً على الطائف.

أراد عمر أن يستعمل على البحرين رجلاً من الصحابة الثقات؛ فذكروا له عثمان بن أبي العاص، فقال: ذاك أمير أمره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله، فقالوا: يا أمير المؤمنين! تأمره أن يستخلف على عمله من أحب، وتستعين به، فكأنك لم تعزله، فقال: أما هذا فنعم.

---

(١) ابن حجر/ الإصابة – الذهبي/ سير أعلام النبلاء – ابن سعد/ الطبقات الكبرى – ابن عبد البر/ الاستيعاب.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن خلف على عملك من أحببت، واقدمْ عليّ، فخلف أخاه الحكمَ بنَ أبي العاص على الطائف، وقدم على عمر، فولاه البحرين، وبقي بها حتى عزل، فأقام مع أهل بيته بالبصرة في الموضع الشهير الذي يقال له: شط عثمان نسبة إليه.

روى الإمام مسلم في صحيحه: أن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(١).

وينسب إليه رضي الله عنه أنه قال: الناكح مُغترِس، فلينظر أين يضع غرسه؛ فإن عرق السوء لابد أن ينزع، ولو بعد حين.

توفي رضي الله عنه في خلافة معاوية سنة إحدى وخمسين للهجرة.

---

(١) رواه مسلم (٧/ ١٥٨/ ح:٢٢٠٢).

٦. الربيع بن زياد بن الربيع الحارثي(١):

الربيع الحارثي من بني الحارث بن كعب، اختُلف في صحبته، قال عنه ابن حجر: أدرك الأيام النبوية، وذكره البخاري في التابعين، كان عاملاً على البحرين لأبي موسى والي العراق، وفد على عمر ولقيه، فأرسل عمر إلى أبي موسى أن يقرَّه على عمله، استخلفه أبو موسى على حرب بلاد مناذر(٢) سنة سبع عشرة، وقيل: تسع عشرة، ففتحها عنوة.

له مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أخبار كثيرة منها: أن عمر ﵁ قال لأصحابه: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا لم يكن بأمير فكأنه أمير، فقالوا: ما نعرفه إلا الربيع بن زياد الحارثي، قال: صدقتم.

عمل له الحسن البصري كاتباً، ثم ولي بعدَ البحرين خراسان بأمر من زياد بن أبيه والي العراق في عهد معاوية ﵁ إلى أن مات.

قال زياد بن أبيه: ما قرأت مثل كتب الربيع بن زياد الحارثي، ما كتب قط إلا في اختيار منفعة، أو دفع مضرة، ولا كان في موكب قط قدم عنانُ دابته عنانَ دابتي، ولا مسَّت ركبته ركبتي.

وفيما قاله زياد دلالة على أدب الربيع بن زياد مع أولياء أمور المسلمين، ولو كانوا دونه.

توفي سنة ثلاث وخمسين للهجرة.

---

(١) ابن حجر / الإصابة - ابن عبد البر/ الاستيعاب - ابن كثير/ البداية والنهاية.

(٢) بلدان بنواحي خوزستان.

٧. عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما(١):

هو عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميُّ القرشي، ربيبُ النبي ﷺ، أمه أم سلمة ابن عبد الأسد أم المؤمنين هندٌ بنتُ أبي أمية رضي الله عنها، ولد ﵁ بالحبشة قبل الهجرة إلى المدينة، فأبواه من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة، روى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، ولعل أشهرها: أن النبي ﷺ قال له: «يا غلام! سَمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»(٢).

كان ولياً لأمه حين تزوجها النبي ﷺ، وشب وتزوج في آخر حياة النبي ﷺ.

تولى البحرين في زمان علي ﵁، وكان قد شهد مع علي واقعة الجمل، وطال عمره ﵁ حتى صار شيخ بني مخزوم، وتوفي في سنة ثلاث وثمانين للهجرة في خلافة عبد الملك بن مروان.

---

(١) ابن حجر/ الإصابة – الذهبي/ السير – ابن كثير/ البداية والنهاية.

(٢) رواه الشيخان، البخاري (٩/ ٦٤٩/ ح:٥٣٧٨)، ومسلم (٧/ ١٦٣/ ح:٢٠٢٢)

الباب الثالث

البَحْرَيْن

فِي عَهْدِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ

٤١هـ ـ ١٣٢هـ

وعهد بني أمية من خير عهود الإسلام، ففيه انتشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وانحصر الكفر وكُبت.

وفيه انتشر العلم والفقه، ودُوِّنَ الحديث النبوي، ودُوِّنَ التفسير، وعمَّ الرخاء أرجاء الدولة الإسلامية، وبلغ الحال بالمسلمين أنهم لم يجدوا في بعض الولايات من الفقراء من يدفعون له زكاة أموالهم، وذلك لغناهم وكفايتهم.

وفيه اتسعت الدولة الإسلامية اتساعاً لم تبلغه بعدهم في دولة من دول الإسلام.

ويشهد لفضلهم -على الجملة- قوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١).

وهم بنو عمومة النبي ﷺ، ويجتمعون معه في نسبه، فكلهم من قريش، وفضل قريش على غيرهم ظاهر.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٣١٩/ ح:٢٦٥٢).

شجرة أنساب الأمويين وعلاقتهم النسبية بالنبي ﷺ

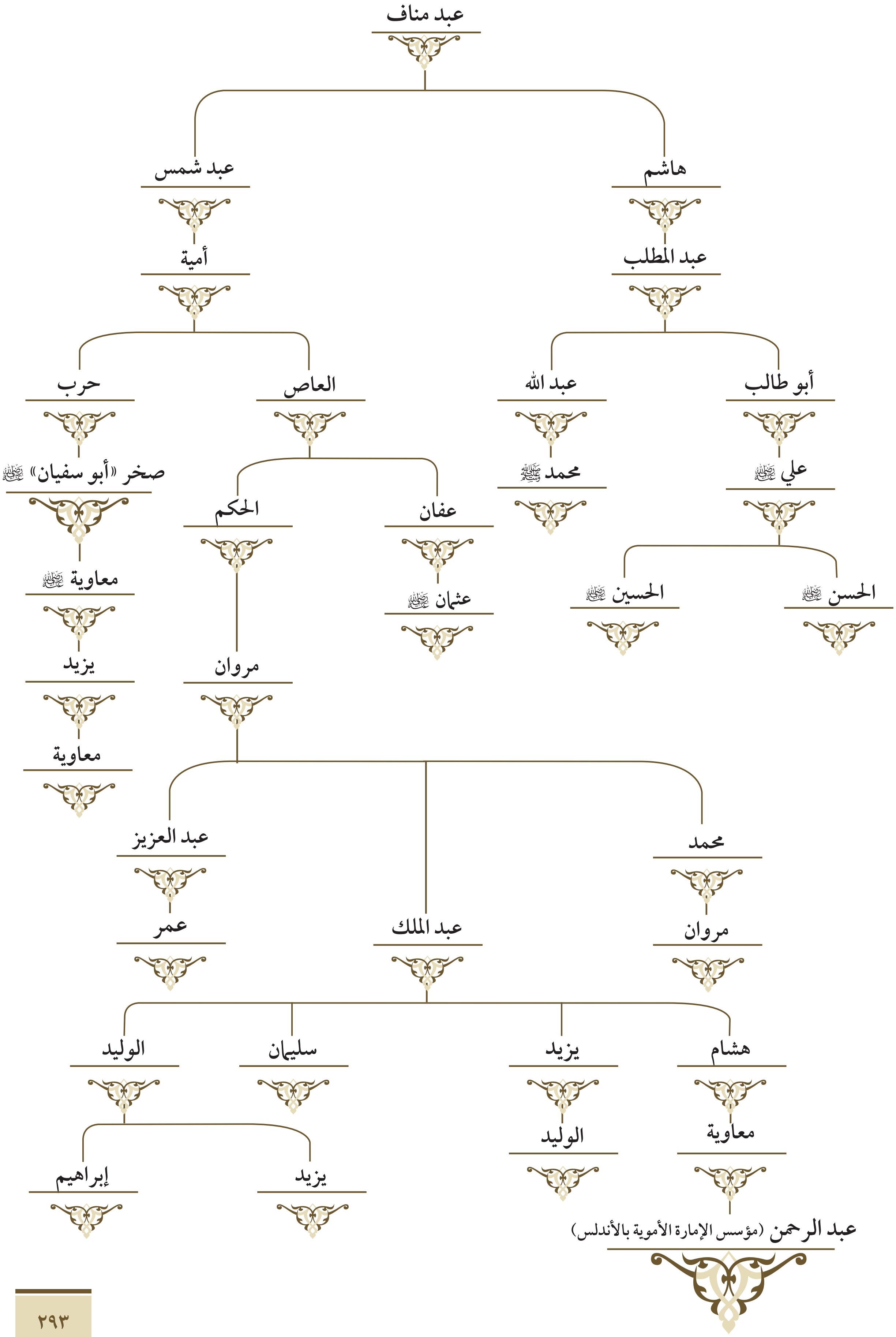
عبد مناف
هاشم
عبد شمس
عبد المطلب
أمية
أبو طالب
عبد الله
العاص
حرب
علي رضي الله عنه
محمد ﷺ
عفان
الحكم
صخر «أبو سفيان» رضي الله عنه
الحسن رضي الله عنه
الحسين رضي الله عنه
عثمان رضي الله عنه
معاوية رضي الله عنه
يزيد
مروان
معاوية
محمد
عبد العزيز
مروان
عبد الملك
عمر
هشام
يزيد
سليمان
الوليد
معاوية
الوليد
يزيد
إبراهيم
عبد الرحمن (مؤسس الإمارة الأموية بالأندلس)

تُنسب الخلافة الأموية إلى أُميّة بن عبد شمس بن عبد مناف أحد سادات قريش في الجاهلية، ويلتقي مع النبي ﷺ في جده عبد مناف، فهو ابن عم جده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فالبيت الأموي أبناء عمومة البيت الهاشمي.

وانحدر من نسله جمعٌ غفيرٌ من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعين، منهم: عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد الثالث، وأبو سفيان بن حرب رضي الله عنه، وولده معاوية ابن أبي سفيان، وولده يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

لقد أظهرالبيت الأموي البطولات الرائعة في الإسلام رغم تأخر بعضهم في الدخول إليه، وكأنما أرادوا أن يعوّضوا ما فاتهم من السبق، فأبلوا بلاءً حسناً في حروب الردة ومانعي الزكاة، كما كانوا سيفاً مشهراً وقوة هائلة في امتداد الإسلام خارج الجزيرة العربية، وخاصة في بلاد الشام.

نشأة الخلافة الأموية:

بعد مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الخارجي الضال عبد الرحمن بن ملجم، اتجه أهل الكوفة إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، فبايعوه خليفةً عليهم، فبقي في الخلافة ستة أشهر على أثر هذه البيعة المحدودة، رأى خلالها تمزق الأمة، وتخاذل أصحابه عنه، وأدرك ضرورة اتفاق الأمة(١)، فآثر الصلح تحقيقاً لنبوءة النبي ﷺ له: «إن ابني هذا سيدٌ، لعل الله يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين»(٢).

لذا دعا الحسن بن علي رضي الله عنهما معاوية رضي الله عنه والي الشام إليه ليصالحه، فأجابه لذلك، ثم بايع الحسن رضي الله عنه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أميراً على الناس، وخليفةً على المسلمين في الخامس والعشرين من ربيع الأول لسنة إحدى وأربعين هجرية، لتنتهي بذلك مدة الخلافة الراشدة، ولتبدأ مرحلة الملك العضود المتوارث كما بشر النبي ﷺ: «الخلافة ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكاً»(٣).

---

(١) قام الحسن فيمن حوله خطيباً فقال: يا أيها الناس! إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة، وإني ناظر لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا علي رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة.

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٧٧/ ح:٧١٠٩).

(٣) رواه الترمذي (٢/ ٢٤٥/ ح:١٨١٣)، والألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٨٢٠/ ح:٤٥٩).

خلفاء الدولة الأموية:

تولى الخلافة في العهد الأموي أربعة عشر خليفة على التوالي:

العدد	الخلفاء	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
١	معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما	٤١هـ	٦٠هـ
٢	يزيد بن معاوية بن أبي سفيان	٦٠هـ	٦٤هـ
٣	معاوية بن يزيد بن معاوية	٦٤هـ	٦٤هـ
٤	مروان بن الحكم بن العاص	٦٤هـ	٦٥هـ
٥	عبد الملك بن مروان بن الحكم	٦٥هـ	٨٦هـ
٦	الوليد بن عبد الملك بن مروان	٨٦هـ	٩٦هـ
٧	سليمان بن عبد الملك بن مروان	٩٦هـ	٩٩هـ
٨	عمر بن عبد العزيز بن مروان	٩٩هـ	١٠١هـ
٩	يزيد بن عبد الملك بن مروان	١٠١هـ	١٠٥هـ
١٠	هشام بن عبد الملك بن مروان	١٠٥هـ	١٢٥هـ
١١	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	١٢٥هـ	١٢٦هـ
١٢	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦هـ	١٢٦هـ
١٣	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦هـ	١٢٧هـ
١٤	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	١٢٧هـ	١٣٢هـ

أبرز الأعمال التي قامت بها الخلافة الأموية

١ . إعادة الأمن إلى المجتمع الإسلامي:

استطاعت الخلافة الأموية أن تنشر الأمن، وخاصة في عهد الخليفة الأول معاوية بن أبي سفيان ﵁، حيث إنه اهتم بنظام الشرطة، وتأمين الدولة من الداخل والخارج؛ مما أسهم في انتشار الأمن والأمان في المجتمع الإسلامي، وانعكس ذلك بدوره على التنمية البشرية في المجتمع الإسلامي.

٢. تطوير نظام الإدارة والحكم بسبب اتساع الدولة، واستحداث دواوين جديدة مثل: ديوان الخاتم، وديوان الرسائل، وديوان الخراج، وديوان البريد، كما قام الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين كاملة، وتوسعوا في نظام الشرط، وتوسعوا في توطيد حدود الدولة بإقامة الثغور، وبناء الحصون الجديدة، وترميم الحصون الساحلية.

٣. اتخذت من دمشق الشام عاصمة لها بعد تحويلها من الكوفة بالعراق.

تعتبر دمشق واحدة من أقدم المدن في التاريخ، بل هي أقدم عاصمة في التاريخ، وتتوسط الطريق بين الجزيرة العربية وبين آسيا الصغرى، فهي تقع في موقع جغرافي متميز بالنسبة إلى موقع الدولة الإسلامية زمان الأمويين؛ لذلك كان هذا الموقع أحد الدوافع التي جعلت الخليفة معاوية ﵁ يتخذها عاصمة للدولة، وبخاصة أن دمشق كانت مستقراً له منذ أن أصبح أميراً على الشام في عهد عمر ﵁ إلى أن تولى الخلافة.

٤ . عودة الفتوحات الإسلامية:

أسهم تحقيق الأمن في عودة الحياة الطبيعية للمسلمين قبل حدوث الفتن؛ مما أدى إلى إعادة الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، والاهتمام أكثر بالبحرية الإسلامية لتأمين حدود الدولة، ولنشر الإسلام وبخاصة في جزر البحر المتوسط الذي تحول اسمه إلى بحر المسلمين، واشتهرت حروبهم مع الروم باسم: حرب الثغور، وكانت تخرج

حملات المسلمين على بلاد الروم في الصيف والشتاء، وسميت بالصوائف والشواتي، واستطاعت البحرية الإسلامية في زمن معاوية ﵁ بسط سيادتها على جزيرة صقلية سنة ٤٨هـ، وجزيرتي كريت وردوس سنة ٥٢هـ، كما تم حصار القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية البيزنطية ثلاث مرات.

كما واصلت الخلافة الأموية الفتوحات في شمال إفريقيا بقيادة قادة عظام، من أشهرهم: عقبة بن نافع(١) الذي استطاع ولأول مرة الوصول إلى طنجة على المحيط الأطلسي، وأبو المهاجر دينار(٢)، وزهير بن قيس البلوي(٣)، وحسان بن النعمان الغساني(٤)، وموسى بن نصير(٥) والذي استطاع أن يسير الحملات التي قامت بفتح الأندلس على يد القائد طارق بن زياد(٦) في سنة ٩٢هـ.

---

(١) عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي، ولد في عهد النبي ﷺ، اُختلف فيه هل يُعد صحابياً أو تابعياً، والصحيح أنه لم تكن له صحبة، بل كان من كبار التابعين، قيل: إن خاله عمرو بن العاص ﵁، وشهد معه فتح مصر، قاد الجيش الإسلامي لفتح شمال إفريقيا في عهد معاوية وولده يزيد، أسس مدينة القيروان، أسلم على يديه خلق كثير من البربر، وأصبحت القيروان القاعدة الحربية للمسلمين لفتح شمال إفريقيا،استطاع الوصول بجيشه حتى بلغ طنجة على المحيط الأطلسي – بحر الظلمات – فلما وصل إلى ساحل المحيط نزل بأقدام خيله في الماء وقال لجيشه: ارفعوا أيديكم، وقال: اللهم إنا نشهدك أننا لم نخرج بطراً وأشراً، وإنما خرجنا اتباعاً للسبب الذي اتبعه عبدك ذو القرنين، أن تُعبد وحدك، اللهم إنك تعلم أني لو أعلم أن خلف هذا البحر أحداً يُعبد دونك لخضت إليه لكي تُعبد وحدك. الذهبي/ السير (١٥/ ٥١٦).

قضى عقبة بن نافع ما تبقى من حياته في الفتوحات في شمال إفريقيا حتى قُتل في مباغتة من البربر والروم له، نحسبه عند الله شهيداً في سنة ٦٣هـ رحمه الله رحمةً واسعة.

(٢) أبو المهاجر دينار: مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري، تولى مكان عقبة عند عزله، ودخل المغرب الأوسط، وجعل مدينة بسكرة قاعدة له، واستطاع أن يحقق انتصارات، وعند عودة عقبة والياً مرة أخرى أصبح أبو المهاجر دينار معه، وذهب معه في حروبه، والتي انتهت بمقتلهما بعد أن أبليا بلاءً حسناً في معركة تهودة سنة ٦٢هـ. الموسوعة الحرة بالشبكة.

(٣) زهير بن قيس البلوي: ينسب إلى قبيلة قضاعة، ويكنى بأبي شداد، قيل: إن له صحبة، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ﵁، واستخلفه عقبة بن نافع على القيروان، ولاه عبد الملك بن مروان ولاية إفريقيا سنة ٦٥هـ، واستطاع أن ينتصر على الروم والبربر في عدة معارك، وأحرز انتصارات باهرة، وكان تقياً ورعاً حتى قضى قتيلاً في واحدة من معاركه على أيدي الروم نحسبه عند الله شهيداً سنة ٦٧هـ، ودفن بمدينة درنة بليبيا حالياً رحمه الله رحمةً واسعة. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٤) حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو الأزدي الغساني المكنى بالشيخ الأمين، ولد بالشام، وأسلم مع الفتح الإسلامي للشام، حفظ القرآن، وبرع في العلوم الشرعية، له مرويات حديثية، ولاه معاوية إفريقيا – تونس – وولاه عبد الملك بن مروان مصر، ثم ضم إليه أفريقية عندما حدثت بها اضطرابات، فتح قرطاجنة، وقضى على الكاهنة زعيمة البربر بعد معركة حاسمة في جبال الأوراس سنة ٨٢هـ، أنشأ مدينة تونس العاصمة حالياً لتونس، وأقام بالقيروان، عزله عبد العزيز بن مروان فعاد إلى الشام، ولم يرجع إليها مرة أخرى، وتوفي بها سنة ٨٦هـ. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٥) موسى بن نصير: أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمي، أحد كبار قادة الفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية، شارك في فتح قبرص في عهد الخليفة عثمان ﵁، ولاه الوليد بن عبد الملك والياً على إفريقيا بعد أن انتشرت بها الاضطربات بين العرب والبربر، فاستطاع بفضل من الله تعالى أن ينهي ويحسم أمرها بحنكة عسكرية عالية حتى استقرت كاملة في ضمن الدولة الإسلامية، وقام بنشر الإسلام بين قبائل البربر، فانضم إلى جيشه الآلاف منهم بعد إسلامهم، وأنشأ داراً لصناعة السفن لغزو الأندلس وجزر البليار، واستطاع أن يفتح عدة جزر بالبحر المتوسط، ثم وجه قائده طارق بن زياد لفتح الأندلس، ثم لحق به، واستطاعا سوياً أن يفتحا الأندلس.

يصفه ابن خلكان بأنه كان عاقلاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى لم يُهزم له جيش قط، وقد توفي رحمه الله وهو بصحبة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك في رحلة حج سنة ٩٧هـ في الطريق بوادي القرى، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك ودفن هناك رحمه الله. الذهبي/ السير (٤/ ٤٩٦).

(٦) طارق بن زياد بن عبد الله، أحد قادة الفتح الإسلامي الأموي، اُختلف في أصله، والراجح أنه كان عربياً خالصاً، وليس بربرياً، كلفه موسى بن نصير الوالي على إفريقيا بقيادة جيش الفتح للأندلس – شبه جزيرة أيبيريا – سنة ٩٢هـ، فاستطاع أن ينتصر على القوط ملوك إسبانيا بقيادة لذريق في معركة وادي لكة سنة ٩٢هـ، يُنسب إليه المضيق والجبل في غرب البحر المتوسط والمسمى بمضيق جبل طارق، توفي رحمه الله سنة ١٠١هـ. الذهبي/ السير (٤/ ٥٠٠).

كما امتدت حروب المسلمين في أوروبا إلى جنوب فرنسا، حيث قام السمح بن مالك الخولاني(١) الوالي على الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز بالزحف على جنوب فرنسا، ووقعت معارك هناك جنوب نهر اللوار قتل فيها السمح الخولاني، وتولى من بعده عبد الرحمن الغافقي(٢) الذي استطاع أن يغزو بلاد الغال - فرنسا -، ووصل إلى حوض الرون حتى بلغ مدينة ليون، وبعدها في (سنة ١١٤هـ) كانت معركة بلاط الشهداء بين المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي، والفرنجة بقيادة شارل مارتل ملك فرنسا، ودارت رحى معركة أطلق عليها الفرنجة: تور بواتيه نسبة للمكان الذي نزلت فيه الجيوش، وقد تحقق النصر في بدايتها للمسلمين، لكن المعركة انتهت بمقتل الغافقي رحمه الله، وكانت هذه آخر النقاط التي وصل إليها المسلمون في جنوب فرنسا.

واصلت الدولة الأموية الفتوحات في المشرق؛ مما ساعد في استنقاذ الكثير من الشعوب من براثن الشرك والكفر، ودخلت في دين الله أفواجاً، كما اتسعت الدولة اتساعاً كبيراً هناك، فلقد تم فتح خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر؛ كبخارى (سنة ٩٠هـ)، وسمرقند (سنة ٩٣هـ)، وفرغانة وطشقند (سنة ٩٥هـ)، حتى بلغت الفتوحات الصين على يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي(٣) رحمه الله.

---

(١) السمح بن مالك الخولاني، أحد قادة الجيش الإسلامي الأموي، ولاه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولاية الأندلس، فأصبح الوالي الخامس لها (سنة ١٠٠هـ)، ويعتبر هو أول والٍ للأندلس يعين من قبل الخليفة مباشرة بعد أن كانت تابعة لولاية إفريقيا، قام بإصلاحات كبيرة في الأندلس، وبتكليف من الخليفة قام بمسح أراضي الأندلس الزراعية، وتقدير خمس خراجاها، ظل والياً على الأندلس يقود الجيوش لفتح الشمال وجنوب فرنسا إلى أن قضى في المعارك في التاسع من ذي الحجة (سنة ١٠٢هـ)، نحسبه عند الله شهيداً. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٢) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي العكي المكنى بأبي سعيد، تولى الأندلس لمرتين، الأولى عندما تأمر على أهلها برغبة منهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني حتى جاء الوالي الأموي الجديد عنبسة بن سحيم الكلبي، وتولى في المرة الثانية بتكليف من والي إفريقيا عبيد الله بن الحبحاب (سنة ١١٣هـ)، فبقي والياً لمدة سنة استطاع فيها أن يقوم بأعمال جليلة للمسلمين في الأندلس، وعلى رأسها نزع فتيل الخلاف بين القبائل العربية هناك، وأخمد تمرد البربر في الولايات الشمالية من الأندلس، تقدم بجيوشه في جنوب فرنسا، فاستطاع فتح ليون وعبر اللوار متوجهاً إلى عاصمة الفرنج، وغنم مغانم كثيرة، إلا أنه واجه الفرنجة بقيادة شارل مارتل في موقعة بلاط الشهداء، والتي قضى فيها عبد الرحمن رحمه الله في رمضان سنة ١١٤هـ، نحسبه عند الله من الشهداء. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٣) قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن أبي حفص الباهلي، أشهر وأكبر قادة الفتوحات الإسلامية في التاريخ، ويطلق عليه: فاتح آسيا الوسطى، فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وبلخ حتى وصل إلى الصين بعد أن أخضع قبائل الترك في طريقه إلى الصين، وأرغم إمبراطور الصين على دفع الجزية،، قُتل رحمه الله بسبب الخلاف الذي وقع بينه وبين الخليفة سليمان بن عبد الملك في (سنة ٩٦هـ) بمنطقة فرغانة، فخسر المسلمون قائداً عظيماً من قادة الفتوحات الإسلامية. الذهبي/ السير (٤/ ٤١٠).

كما تم فتح بلاد السند بعد أن واصلت الدولة جهودها المضنية لفتح بوابة الهند -السند-، فلقد غزا المهلب بن أبي صفرة(١) (سنة ٤٤هـ) السند في عهد الخليفة معاوية، كما فتح المسلمون مكران وقندهار، وغزوا البوقان والقيقان، ثم حسم الوليد بن عبد الملك الخليفة أمر فتوحات السند بتولية محمد بن القاسم(٢) قائداً على الجيوش الغازية في (سنة ٨٩هـ)، واستطاع أن يصل إلى الديبل -كراتشي حالياً- ففتحها، ثم استمر حتى وصل إلى نهر السند -نهر مهران-، فواجه الهنود هناك في معركة كبيرة قتل فيها ملك الهندوس، وتغلب المسلمون على بلاد السند، وتوجهوا إلى الشمال، واستطاعوا فتح هذه المناطق بعد أن حاصروا بعض المدن هناك إلى أن وصلوا إلى مدينة الملتان أكبر مدن السند، واستطاعوا السيطرة عليها.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز أقبلت أعداد كبيرة من أهل هذه المناطق على الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجاً، واستمرت الفتوحات للمناطق التي لم تفتح من قبل حتى نهايات الخلافة الأموية.

كما تم فتح جرجان وطبرستان في (سنة ٩٧هـ) في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك، وبذلك استطاعت الخلافة الأموية أن تبلغ مالم تبلغه دولة قبلها ولا بعدها من دول الإسلام فيما وصلته من اتساع هائل؛ حيث إنها استطاعت أن تخضع معظم الشعوب للشريعة الإلهية حتى تركت خلفها دولة مترامية الأطراف.

---

(١) المهلب بن أبي صفرة بن سراء بن صحيح بن كندة، أحد أكبر قادة الفتح الإسلامي في العهد الأموي، تولى على خراسان فقام بفتوحات واسعة في بلاد ما وراء النهر واستطاع أن يفتح جرجان وطبرستان إلى جانب الصغد وخوارزم.
كان سيفاً سله الله على الخوارج، وخاصة الأزارقة منهم والذين واجههم وظل يقاتلهم حتى قضى عليهم بعد أن أفسدوا فساداً عظيماً، كان كريماً حيياً شجاعاً حليماً وقوراً، توفي رحمه الله في خراسان (سنة ٨٢هـ)، وإليه تنسب قصة الاتحاد قوة، حيث إنه جمع أبناءه قبل وفاته وأمرهم بإحضار عدد من السهام فحزمها مع بعضها ثم سألهم: هل تستطيعون كسرها؟ فأجابوه: كلا، فقال: هكذا تكونون عندما تكونون يداً واحدة، لا يستطيع العدو أن يتغلب عليكم، ووعظهم عن الاختلاف والفرقة، وأوصاهم بتلاوة القرآن والالتزام بهدي النبي ﷺ ومنهج الصحابة رضي الله عنهم. الذهبي/ السير (٤/ ٣٨٣)، الزركلي/ الأعلام (٧/ ٣١٥).

(٢) محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر الثقفي، كان أبوه الوالي الأموي على البصرة، ومحمد أحد قادة الفتح الإسلامي في عهد الدولة الأموية، لُقب بفاتح بلاد السند بعد أن عينه ابن عم أبيه الحجاج بن يوسف الثقفي قائداً على جيوش المسلمين لفتح بلاد السند، والتي عجز عن فتحها عدد من القادة، فظهرت عندئذ موهبته القيادية وقدرته على إدارة المعارك برغم أنه كان في السابعة عشرة من عمره، وفتح بلاد السند مدينة تلو مدينة، واستطاع فتحها (سنة ٩٢هـ) بعد أن قُتل ملك السند الراجة داهر في ساحة المعركة، وامتدت فتوحاته إلى جنوب البنجاب حتى وصل إلى الملقان، فامتدت دولة الإسلام في بلاد السند والبنجاب بباكستان حالياً.
عُزل محمد بن القاسم بسبب الوشاية عند الخليفة، والذي أمر بسجنه حتى قُتل تحت التعذيب (سنة ٩٥هـ) في سجن مدينة واسط بالعراق، فخسرت الدولة الإسلامية بيدها بطلاً من أبطالها لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره، رحمه الله رحمة واسعة. الزركلي/ الأعلام (٦/ ٣٣٣).

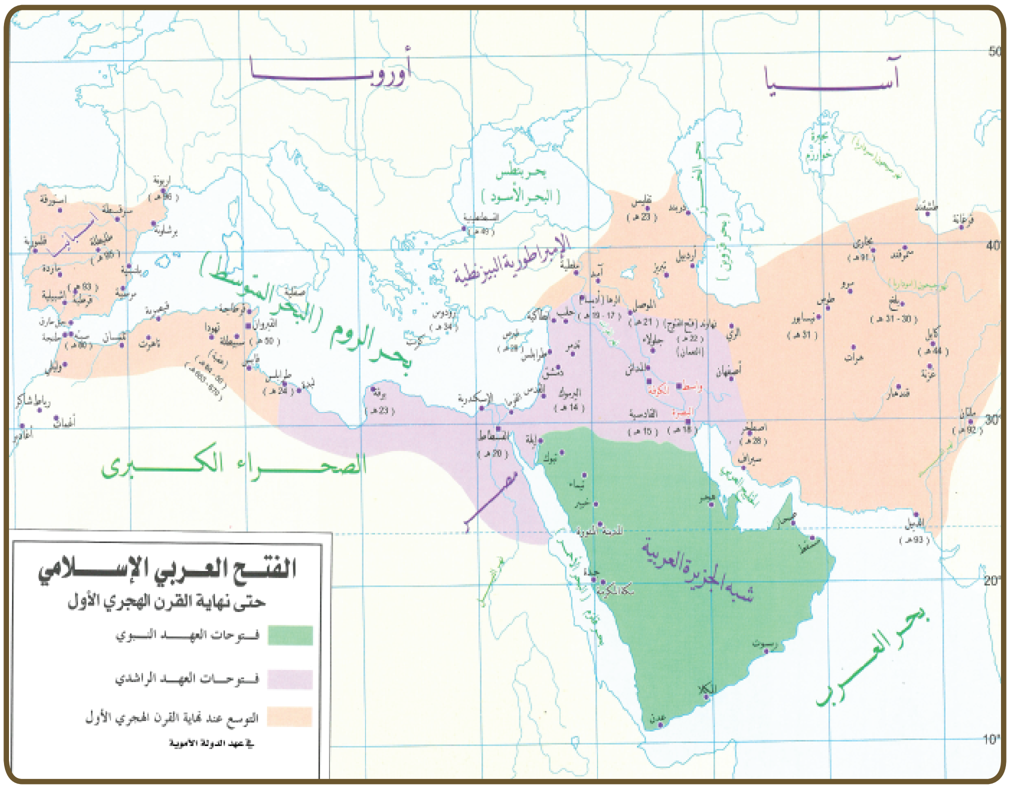
أوروبا
آسيا
الإمبراطورية البيزنطية
بحر الروم (البحر المتوسط)
الصحراء الكبرى
شبه الجزيرة العربية
بحر العرب
الفتح العربي الإسلامي
حتى نهاية القرن الهجري الأول
🟩 فتوحات العهد النبوي
🟪 فتوحات العهد الراشدي
🟧 التوسع عند نهاية القرن الهجري الأول في عهد الدولة الأموية

قال الحافظ ابن كثير(١): كانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطر إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون من الأولياء والعلماء وكبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه، فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم -الصين-، وأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه، وأرسل له هدايا وتحفاً وأموالاً كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته، وكثرة جنده؛ بحيث إن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفاً منه.

ولو عاش الحجاج، لما أقلع عن بلاد الصين، ولم يبق إلا أن يلتقي بملكها، فلما مات الحجاج، رجع الجيش، ثم إن قتيبة بعد ذلك قتل.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ١٠٤) بتصرف.

ومسلمة بن عبد الملك بن مروان، وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم، ويجاهدون بعساكر الشام، حتى وصلوا إلى القسطنطينية، وبنى بها مسلمة جامعاً يعبد الله فيه، وامتلأت قلوب الفرنجة منهم رعباً.

ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند، ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم، وموسى بن نصير يجاهد في بلاد المغرب، ويفتح مدنها وأقاليمها في جيوش الديار المصرية وغيرهم، حتى بلغت جيوشه الأندلس ففتحوها واستنقذوا أهلها من براثن الكفر، والشرك، وعبادة الصليب، وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام، وتركوا عبادة الأوثان.

٥. التطور الاقتصادي والمالي:

تطور المجتمع الإسلامي في عهد الخلافة الأموية تطوراً اقتصادياً ملحوظاً، فلقد اهتمت الدولة بالزراعة، وإحياء الأرض الموات واستصلاحها، وقاموا بحفر القنوات والترع، وأدخلوا أساليب مختلفة للري، كما أقاموا الجسور والقناطر، كما اهتموا بعلوم الزراعة، وعرفوا من خلالها التلقيح وتطعيم الأشجار من بعضها البعض للحصول على أصناف جديدة، وعملوا على إدخال سلالات جديدة.

كما اهتمت الدولة بالصناعة، وخاصة صناعة الأسلحة، وسباكة المعادن، والنسيج، واستخراج الزيوت والعطور، وقد عملت الدولة على تنظيم طرق المواصلات وتأمينها، وتأمين طرق التجارة البرية والبحرية، كما أنشأت الموانئ الجديدة لازدهار حركة التجارة البحرية.

وتتويجاً للاهتمام الاقتصادي والمالي من خلفاء بني أمية قام الخليفة عبد الملك بن مروان بصك العملة الإسلامية، فلقد ظهر في زمانه الدينار من الذهب، والدرهم من الفضة بدلاً من العملة الرومية، وقد نقشت عليه عبارة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

لقد أسهمت كل هذه الاهتمامات من الدولة في ازدهار الحياة الاقتصادية، وتطور التجارة في الدولة الإسلامية آنذاك.

دينار من الذهب ضرب في دمشق (سنة ٦٨ هـ)

في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان يبلغ قطرة ١,٩ سم(١)

٦. التطور العلمي والأدبي:

اهتمت الخلافة الأموية بالتعليم بشقيه الديني والكوني، فتوسع في عهدهم الاهتمام بتفسير القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وكان على رأس المهتمين بذلك الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي كان يعد أحد فقهاء المدينة النبوية قبل توليه الخلافة.

كما اهتم الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله بجمع السنة النبوية، وكلف بذلك الإمام الزهري رحمه الله(٢).

كما اهتم الخلفاء بتدوين الأيام النبوية، والتواريخ الإسلامية منذ عهد الخليفة الأول معاوية ﷺ، وتم في زمانهم تنقيط المصحف لتصحيح قراءته.

واهتم الأمويون بالعلوم الكونية والفنون، وحققوا في ذلك تقدماً ملحوظاً في فنون الهندسة والعمارة والطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والجغرافيا وغيرها من

---

(١) أطلس تاريخ الحضارات (٣/ ٧٠).

(٢) الإمام الزهري: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، حافظ زمانه أبو بكر القرشي الزهري المدني نزيل الشام، روى عن جمع من الصحابة، كلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبها وجمعها، ويعد واحداً من كبار المحدثين في زمانه، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، نزل الشام واستقر بها، وتوفي في (سنة ١٢٤هـ). الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٦) – الزركلي/ الأعلام (٨/ ٩٧).

العلوم الكونية.

ولقد أصبحت مدن الدولة الإسلامية ـ ومنها الأندلس خاصة ـ محط أنظار طلاب أوروبا، والذين قاموا بالالتحاق بالمعاهد العلمية في الأندلس، ونقلوا ما درسوه إلى أوروبا التي استفادت من هذه العلوم التي كانت الأساس الذي قامت عليه حضارة أوروبا والإنسانية الحالية.

٧. العمارة في العهد الأموي:

ظهر في العهد الأموي حركة عمرانية واسعة على جميع المستويات تتواءم مع طبيعة القيم الإسلامية، ولقد أنشأت الدولة عدداً من المساجد التي تميزت في بنائها، وظلت محتفظة بشخصيتها العمرانية إلى يومنا هذا؛ مثل: المسجد الأموي في دمشق، ومسجد قبة الصخرة في بيت المقدس، والمسجد الأقصى شرفه الله، ومسجد القيروان والزيتونة، ومسجد الخميس بجزيرة أوال -البحرين-، ومساجد الأندلس، وقصور الحكم التي ما زالت شاهدة حتى اليوم في إسبانيا والبرتغال على ذلك التاريخ، كما قامت بإعادة توسعة الحرمين الشريفين لاستيعاب أعداد الحجاج.

كما أنها أنشأت مدناً إسلامية عديدة، وحصوناً حربية كثيرة، كما اهتمت ببناء المستشفيات التي يعالج فيها المرضى.

مسجد بني أمية بدمشق

المسجد الأقصى بفلسطين

البَحْرَيْنُ

فِي عَهْدِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ

٤١هـ ـ ١٣٢هـ

الفَصْلُ الأَوَّلُ

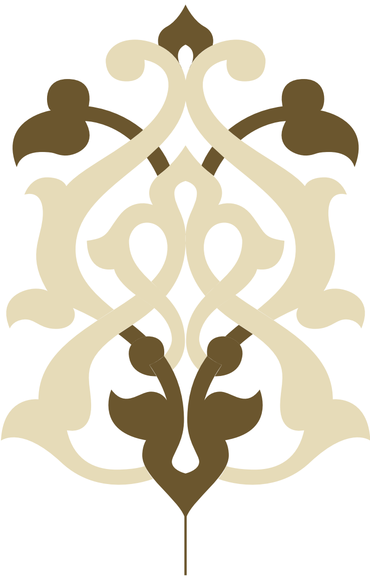

خُلَفَاءُ المُسْلِمِينَ
فِي العَهْدِ الأُمَوِيِّ
(البَيْتُ السُّفْيَانِيُّ)

خلفاء المسلمين في العهد الأموي
(البيت السفياني)

الخليفة الأول: معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١هـ: ٦٠ هـ).

١ . اسمه ونسبه وقرابته لرسول الله ﷺ:

معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد مناف، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف، ولد في مكة قبل البعثة النبوية لخمس سنين، وعاش في كنف أبيه وأمه، ونشأ نشأةً راقية، وتعلم الكتابة والقراءة والفروسية.

إسلامه:

أسلم يوم عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، وكتم إسلامه، ثم أعلنه يوم الفتح.

فضائله:

كان من كتاب الوحي بين يدي النبي ﷺ، وروى عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما بلغت ستة وثلاثين ومئة حديث، وروى عنه من الصحابة: عبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، والنعمان بن بشير، وجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنهم .

لقب بخال المؤمنين، فهو أخو أم المؤمنين رملةَ بنتِ أبي سفيان (أم حبيبة) رضي الله عنها .

هو آخر أمراء المسلمين من الصحابة رضي الله عنهم ، فهو ستر وغطاء لمن سبقه، فمن أراده بسوء ونال منه إنما أراد بذلك النيل من الصحابة رضوان الله عليهم الذين هم باب الإسلام، ومن نال منهم إنما هو ينال من الإسلام.

ولقد دعا له النبي ﷺ في الحديث الصحيح بقوله: «اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهدِ به»(١)، وفي قوله: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب»(٢).

---

(١) رواه الألباني/ السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٥/ ح:١٩٦٩).

(٢) رواه الألباني/ السلسلة الصحيحة (٧/ ٦٨٧/ ح:٣٢٢٧).

كما شهد له النبي ﷺ بالجنة، ولولده يزيد بالمغفرة، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أنس ﵁، وعن أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا⁽¹⁾، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»⁽²⁾.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المهلب: وفي هذا الحديث منقبة لمعاوية ﵁؛ لأنه أول من غزا البحر في يوم قبرص، ومنقبة لولده يزيد؛ لأنه أول من غزا القسطنطينية مدينة قيصر⁽³⁾.

وكان ﵁ متواضعاً، يعمل بالسنة في غير مراء ولا جدال، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود وأحمد عن أبي مجلز قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ أن يتمثلَ له الرجالُ قياماً، فليتبوأ مقعدَه من النار»⁽⁴⁾.

قال عبد الله بن عباس: ما رأيت رجلاً كان أخلقَ بالملك من معاوية، كان الناس يردون على أرجاءِ وادٍ رحب⁽⁵⁾.

وكان ممن يَفِدُ عليه في كل عام: الحسين بن علي رضي الله عنهما، فيعطيه ويكرمه، وينزله منزلته، وذلك بعد وفاة أخيه الحسن ﵁.

روى الآجري في الشريعة بإسناد صحيح: أن معاوية ﵁ كان إذا لقي الحسين بن علي ﵁ قال: مرحباً بابن رسول الله ﷺ وأهلاً، ويأمر له بثلاثمئة ألف⁽⁶⁾.

---

(١) أي: وجبت لهم الجنة.

(٢) الحديث بطوله رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٥/ ح:٢٩٢٤).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٢٥).

(٤) رواه أبو داود (ح:٥٢٢٩)، وأحمد (ح:١٦٨٣٠)، والترمذي (ح:٢٧٥٥)، قال الحافظ في الفتح: إن القيام على سبيل الإعظام مكروه، وعلى سبيل البر والإكرام لا يكره. (١١/ ٦٥) شرح حديث (٦٢٦٢) نقلاً عن الغزالي.

(٥) أبو بكر الخلال (ح:٤٤٠)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ٤٣٩).

(٦) ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ٤٤٤).

وسُئل الإمام أحمد: أيهما أفضل: معاوية، أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لَغبارٌ لحق بأنف جوادِ معاويةَ بين يدَي رسول الله ﷺ خيرٌ من عمر بن عبد العزيز، رضي الله عن معاوية، وأماتنا على محبته(١).

وروى الأعمش عن مجاهد قال: لو رأيتم معاوية، لقلتم: هذا المهديّ(٢).

٢. جهاده وولايته:

شهد مع النبي ﷺ غزوة حنين، وشهد اليمامة من حروب الردة، كما شهد فتوحات الشام، وولاَّه عمر بن الخطاب ﵁ والياً على الشام خلفاً لأخيه يزيد بن أبي سفيان، وظلَّ والياً عليها إلى أن بويع بالخلافة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي(٣): وأما معاوية، فعمر ولّاه، وجمع له الشاماتِ كلْهَا، وأقره عثمان، بل إنما ولّاه أبو بكر الصديق ﵁؛ لأنه ولّى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقره عمر لتعلقه بولاية أبي بكر، وتعلق عثمان بعمر وأقره، فانظروا إلى هذه السلسلة ما أوثق عراها، وأندرَ سردَها، ولن يأتي بعدها مثلها أبداً.

وقع بينه وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ خلاف وقتال بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان ﵁ على سبيل الاجتهاد والرأي ومصلحة الأمة، وذلك كله بسبب فتنة السبئية، وعليٌّ ﵁ محقٌّ ومعاويةُ ﵁ معذورٌ، ولقد شهدت السنة الصحيحة بالإيمان للفريقين(٤).

---

(١) ابن العماد الحنبلي/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٢٧٠).

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ٤٣٨)، أبو بكر الخلال/ السنة (ح:٦٦٩).

(٣) العواصم من القواصم (ص:٤٩)/ أبو بكر بن العربي: محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المشهور بالقاضي ابن العربي المالكي، أحد علماء الأندلس الأفذاذ، ولد في أشبيليه ٤٦٨هـ، وتوفي بفاس ٥٤٣هـ، له مؤلفات عديدة نافعة منها: كتابه العواصم من القواصم بتحقيق مواقف الصحابة، وكتاب أحكام القرآن، وغيرها من المؤلفات النافعة.

(٤) لم يعترض معاوية ﵁ على شخص علي ﵁ للخلافة كما يزعم البعض أو يظن، فهو يعرف مكانته وأنه أهل لها وله السبق في الإسلام، وإنما رفض معاوية وأهل الشام أن يعطوا البيعة لعلي حتى يقتص من قتلة عثمان ﵁، وهذا ما نطق به معاوية عندما سأل عن ذلك حيث قال: فليقدنا من قتلة عثمان، ثم أنا أول من يبايعه من أهل الشام.

وقال: إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه والطالب بدمه، فأتوه فقولوا له: فليدفع إلي بقتلة عثمان، وأسلم له. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠) - ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ٤٢٥).

تولى إمارة المؤمنين في (سنة ٤١هـ) بعد أن بايعه الحسن بن علي رضي الله عنهما أميراً على الأمة، وقد سمي هذا العام بعام الجماعة؛ لاجتماع المسلمين فيه على خليفة واحد منذ مقتل عثمان ﵁، وقد رحل بعدها الحسن والحسين إلى المدينة النبوية، واستقرا هناك، ثم ما لبث الحسن أن توفي ﵁.

وكانت خلافة معاوية خيراً للمسلمين؛ إذ استقرت البلاد، وعاد إليها الأمن، وعادت الفتوحات، ورفعت رايات الجهاد، ونَعِمَت الدولة بالكثير من الإصلاحات الإدارية والاقتصادية، كما أنشأ دوراً لصناعة السفن، وأعاد بناء الحصون، ووضع نظام البريد، واستحدث دواوين جديدة؛ كديوان الخاتم.

استطاع معاوية ﵁ أن يكسر شوكة الخوارج في عهده، فلقد خرجوا في أول عهده بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، واستطاع أن يقاتلهم بأهل الكوفة، ثم خرجوا مرة أخرى بالكوفة في سنة ٤٣هـ بقيادة حيان بن ظبيان السلمي، وقرروا حرب معاوية، واختاروا رجلاً يقال له: المستورد بن علفة التيمي قائداً عليهم، فلما علم المغيرة بن شعبة ﵁ والي الكوفة، استطاع أن يقبض عليهم، وأن يسجنهم قريباً من سنة، ثم قاتلهم معقل بن قيس قائد المغيرة في معركة المذار، فقتلهم قتلاً ذريعاً، ولم يبقَ منهم إلا القليل.

أيقن معاوية أن العراق تحتاج إلى وال شديد الحزم والدهاء، لذلك ولّاها لأخيه زياد الشهير بزياد بن أبيه، والذي استطاع أن يضبط العراق منذ أن دخلها، فقد وقف في مسجد البصرة، وخطب في الناس خطبته الشهيرة بالبتراء(١) التي استطاع من خلالها

---

(١) سميت بالبتراء؛ لأنه استخدم أسلوباً تستخدمه العرب في التهديد والوعيد، والترغيب والترهيب، لذا لم يستفتحها بالحمد والثناء على الله تعالى، ولا الصلاة على النبي ﷺ، وهي من روائع البيان والخطب في تاريخ العرب، وقيل: إن البتراء التي لا نظير لها في بديع ما جاء فيها، ولعلها كانت كذلك لأنها جاءت في روايات بالحمد والثناء على الله، ومما جاء فيها: إن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفُجر الموقد لأهله النار، الباقي عليهم سعيرها، ما يأتي سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام - وكان أهل البصرة أهل فساد وفسوق ظاهر فاحش - ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآي الله، ولم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟!.

ثم أضاف متوعداً ومهدداً: إني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنجُ سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم.

ثم زادهم: وإياكم ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي وأذاي.

وختم خطبته بقسمه: وايم الله! إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي. ابن الاثير/ الكامل في التاريخ (٢/ ٤٧٢-٤٧٤).

قولاً أن يضبط أهل العراق، ثم ترجمها إلى الفعل، واستطاع أن يُضعف الخوارج، إلا أنهم ثاروا عليه في سنة ست وأربعين للهجرة، فاستطاع أن يخمد ثورتهم.

ثم خرجوا مرة أخرى سنة خمسين في البصرة في شهر رمضان، وقتلوا عدداً كبيراً من أهل البصرة ومن شرطتها، فتوعدهم زياد، وأخرج لهم أهل البصرة الذين قاتلوهم حتى انتصروا عليهم.

ولم تنته ثورات وخروج الحرورية الخوارج بعد ذلك، بل ظلت تتوالى في مناطق مختلفة حتى استطاع زياد أن يستأصل شأفة كل من خرج عليه، فلما توفي زياد في رمضان (سنة ٥٣هـ) تخلص الخوارج من عدو لدود لهم.

قال ابن الأثير في الكامل(١): وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرد سيفه، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه، وأدر العطاء، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشرط أربعة آلاف.اهـ.

ثم خرج الخوارج مرة أخرى في عهد عبيد الله بن زياد الوالي الأموي على البصرة، ودعوا لقتل عبيد الله بن زياد الذي استطاع أن يتغلب عليهم في نهاية الأمر، وقتل جماعة كثيرة، وسجن منهم خلقاً كثيراً.

فتحت في عهد معاوية ﵁ بلاد كثيرة، حتى بلغت الدولة اتساعاً كبيراً من بلاد الهند والسند شرقاً إلى أفريقية -تونس- غرباً، وبلغت جيوشه طنجة على المحيط الأطلسي غزواً، وفتحت في عهده جزر البحر المتوسط: قبرص وكريت وصقلية وجربة ورودس، وحاصرت جيوش المسلمين في عهده القسطنطينية مرتين تحقيقاً لبشرى النبي ﷺ في الحديث، فلقد سير أول جيش يغزو مدينة قيصر -القسطنطينية- في السنة الثامنة والأربعين للهجرة بقيادة ولده يزيد، والذي لقب بفتى العرب، وكان في ذلك الجيش

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٧٥).

جمع من أصحاب النبي ﷺ، ومن آل بيته، وعلى رأسهم: أبو أيوب الأنصاري خالدُ بن يزيد ﵁ الذي قضى نحبه هناك، ودفن عند أسوار القسطنطينية، وما زال قبره شاهداً على ذلك التاريخ، وكذلك عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، والحسين بن علي رضي الله عنهما، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وبرغم أن المسلمين لم يتمكنوا من فتح المدينة، لكنهم حاصروها، وأثبتوا للروم أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال من المسلمين.

وفي عهده أيضاً كان الحصار الثاني للقسطنطينية؛ حيث سيّر جيشاً آخر في (سنة ٥٤ هجرية) بقيادة عبد الرحمن بن خالد، يؤازره أسطول بحري، واستطاع المسلمون فتح جزيرة كزيكوس في مياه القسطنطينية، واتخذوها مقراً لإدارة الحملة التي استمرت سبع سنوات، ولم يتمكن المسلمون خلالها من فتح المدينة بسبب حصونها المنيعة، وأسوارها العالية، والبرد القارس.

ثم حاصر المسلمون الحصار الثالث للقسطنطينية في عهد سليمان بن عبد الملك في (سنة ٩٧ هجرية)، ولم يتمكنوا أيضاً من فتحها، فحاصروها بعد ذلك في عهود مختلفة حتى تم فتحها على يد السلطان العثماني محمد الثاني -الفاتح- كما سيأتي إن شاء الله تعالى. كما عزم معاوية ﵁ القضاء على الوجود الرومي في شمال إفريقيا، فسير قائده عقبة بن نافع لفتح شمال إفريقيا، فتحققت الانتصارات المتوالية، وخضع لسلطان المسلمين طرابلس وفزان، كما فتح إفريقية -تونس-، وأسس بها عقبة بن نافع مدينة القيروان، واتخذها قاعدة للفتوحات في شمال إفريقيا.

كان معاوية ﵁ شديد الحرص على أحوال الناس، فكان ينزل بنفسه إلى سوق دمشق ليتفقد أحواله وأسعاره.

بيعة يزيد بن معاوية:

أقدم معاوية ﵁ على تولية ابنه يزيد أميراً للمؤمنين من بعده؛ اجتهاداً منه، ومراعاة لمصلحة الأمة خوفاً من وقوعها في الفتن وسفك الدماء بعد أن توحدت أركان الدولة(١)،

---

(١) ولقد وقع ما كان يظنه معاوية، إذ أنه بعد وفاة يزيد أصبحت العراق والحجاز لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، والشام لمروان، ثم لولده عبد الملك، ووقعت حروب وسالت دماء حتى تغلب عبد الملك بن مروان على ابن الزبير رضي الله عنهما.

فأخذ يطلب البيعة من الناس في حياته بعد أن استشار أهل الحل والعقد بالشام من الصحابة وغيرهم من الفضلاء من أهل الحكمة والرأي، فتغيرت من يومها طريقة تولي الحكم من نظام التنوع إلى نظام الوراثة.

قال ابن خلدون(١): والذي دعا معاويةَ ﵁ لإيثار ابنه يزيدَ بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية؛ إذ بنو أمية يومئذ لا يرضَوْنَ سواه، وهم عصابة قريش، وأهلُ الغلَب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول؛ حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع الحكيم، وإن كان لا يظن بمعاوية ﵁ غير هذا؛ لعدالته وصحبته، وحضورُ أكابر الصحابة وسكوتُهم عنه دليل على انتفاء الريب، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح(٢): وكان رأي معاوية في الخلافة تقديم الفاضل في القوة والرأي والمعرفة، على الفاضل في السبق إلى الإسلام والدين والعبادة، فلهذا أطلق أنه أحق، ورأي ابن عمر رضي الله عنهما بخلاف ذلك، وأنه لا يبايع المفضول إلا إذا خشي الفتنة، ولهذا بايع بعد ذلك معاوية، ثم ابنه يزيد، ونهى بنيه عن نقض بيعته، وبايع بعد ذلك لعبد الملك بن مروان.

قال الشيخ محمد الخضري بك(٣): إن هذه الطريقة كانت لازمة في هذه المرحلة لصلاح أمر المسلمين ولمّ شعثهم؛ فإن الطامعين في الخلافة كثيرون، وبعضهم جدير بها، بالإضافة إلى اتساع المملكة الإسلامية، وصعوبة المواصلات بين أطرافها، وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب، فإن الاختلاف لابد واقع... وأضاف: فلو رضي الناس عن أسرة، ودانوا لها بالطاعة، واعترفوا باستحقاق الولاية، لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين.

---

(١) ابن خلدون/ المقدمة (ص:٢١٠-٢١١).

(٢) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري (٧/ ٥٠٤/ شرح حديث:٤١٠٨).

(٣) محمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالشيخ الخضري، باحث وخطيب من علماء الشريعة والأدب وتاريخ الإسلام، ولد بمصر (سنة ١٢٨٩هـ) وأقام بحي الزيتون من ضواحي القاهرة، تخرج من مدرسة دار العلوم وعمل قاضياً شرعياً ثم مدرساً في مدرسة القضاء الشرعي للجامعة المصرية فوكيلاً لها، ثم عمل مفتشاً بوزارة المعارف، له مؤلفات عديدة لعلوم مختلفة، توفي بالقاهرة (سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م) رحمه الله. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

ثم أضاف: إن أعظم من ينتقد معاوية في تولية ابنه هم الشيعة، مع أنهم يرون انحصار الأمر في آل علي ، ويسوقون الخلافة في بنيه يتركها الأب منهم للابن.

وبنو العباس أنفسهُم وهم من بني هاشم ساروا على هذه الخطة، فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم، لا يعدوهم إليها غيرهم، والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لابد منه مع الحال التي كانت عليها الأمة الإسلامية.ا.هـ(١).

٣. وفاته ﵁ :

ظل معاوية ﵁ في حاجة الأمة الإسلامية حتى أدركته المنية، فلما نزل به الموت، دعا يزيدَ فأوصاه، وكان من ذلك: انظر حسينَ بنَ علي، ابنَ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ؛ فإنه أحبُّ الناس إلى الناس، فصِلْ رحِمَهُ، وارفقْ به، يصلُحْ لكَ أمرُهُ، فإن يكن منه شيء؛ فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه(٢).

فلما أدركه الموت في رجب سنة ستين هجرية بكى وقال: اللهم اجعلني في من تشاء أن تغفر له، ثم أضاف: اللهم أقِلِ العثرةَ، واعْفُ عن الزلةِ، وتجاوز بحلمكَ عن جهلِ من لم يرج غيركَ؛ فإنك واسعُ المغفرةِ، ليس لذي خطيئةٍ مهربٌ إلا إليك.

ثم أغمي عليه.... ثم أفاق فقال لأهله: اتقوا الله؛ فإن الله تعالى يقي من اتقاه، ولا يقي من لا يتقيه.

فلما توفي ﵁ ، قام الضحاكُ بن قيس(٣) ﵁ قائدُ شرطة معاوية، وصعد المنبر فخطب الناس، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس! إن معاوية الذي كان سورَ العربِ وعونَهم وجدهم، قطع الله به الفتنةَ، وملكه على العباد، وفتح به البلاد، إلا أنه قد مات»(٤) رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس مأواه.

---

(١) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية.

(٢) شاء الله سبحانه أن يستجيب لرجاء معاوية؛ فلقد كان أهل العراق أرض الزلازل والفتن سبباً في قتل الحسين كما قتلوا أباه وطعنوا أخاه.

(٣) الضحاك بن قيس الفهري القرشي صحابي من صغار الصحابة، ولد في السنة الرابعة للهجرة، وقتل سنة أربع وستين للهجرة، وله أحاديث، شهد فتح دمشق، وهو غير الضحاك بن قيس الشيباني الحروري الخارجي الذي خرج على الدولة الأموية في نهاياتها. الذهبي/ السير (٣/ ٢٤١).

(٤) ابن كثير/ البداية والنهاية (١١/ ٤٥٨).

الخليفة الثاني: يزيد بن معاوية (٦٠هـ:٦٤ هـ).

ثاني خلفاء بني أمية، ولد سنة خمس أو ست أو سبع وعشرين للهجرة، وقيل: بعد ذلك، بويع له بالخلافة في حياة أبيه، فكان ولياً لعهده، وروى عن أبيه بعضاً من أحاديث النبي ﷺ، وقد ذكره أبو زُرعة الدمشقي(١) في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي العليا، وقال: له أحاديث، وكان أول من غزا القسطنطينية، غزاها في خلافة أبيه.

قال الحافظ ابن كثير(٢): كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال، حسنَ المعاشرة.

بويع له بالخلافة في رجب (سنة ٦٠ هـ) بعد وفاة أبيه مرة أخرى تأكيداً للبيعة الأولى التي أخذها له معاوية، وامتنع عنها أربعة من كبار أبناء الصحابة، وهم: الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم. وقد عقدت البيعة كاملة من كل الأمصار، ولا يطعن عدمُ بيعة هؤلاء الصحابة في بيعة الأمة ليزيد.

وقد ترتب على ذلك فاجعة مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، والتي استغلها البعض ليشق بها صف المسلمين، ويخرج عليهم منذ أن كانت إلى زماننا هذا.

ولما بايع الناس مرة أخرى، بايع معهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأوصى الناس بالاجتماع على يزيد قائلاً: تقولون: إن يزيد بن معاوية ليس بخير أمة محمد ﷺ، لا أفقهها فيها فقهاً، ولا أعظمها فيها شرفاً، وأنا أقول ذلك، ولكن والله لأن تجتمع أمة محمد ﷺ أحبُّ عليَّ من أن تفترق.

فلما سئل عن ذلك قال عن يزيد: إن كان خيراً رضينا، وإن كان شراً صبرنا.

---

(١) أبو زرعة الدمشقي: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري، توفي (٢٨٠ هـ) بدمشق، وهو من أئمة الحديث، ومن أكابر العلماء. الزركلي/ الأعلام (٣/ ٣٢٠).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٦).

قلت: وفي هذا فقه قلما نجده عند الناس، رضي الله عن عبد الله بن عمر الذي كان يُغلّب المصلحة العامة على المكاسب الشخصية، فلو أن كل مسلم أخذ بطريقته، وغلَّبَ مصلحة الأمة على منفعته الشخصية، لظلت الأمة في صدارة الأمم، ولما وقع فيها ما وقع من الفتن والخروج على الحكام، والثورات المفسدة للمجتمعات، والتي عشناها في زماننا، وتجرعنا مرارها وشرها.

من أهم الأحداث في عهده:

- **مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما(١):**

كان مقتله ﵁ في العاشر من المحرم لسنة إحدى وستين للهجرة في يوم عاشوراء، وكان سبب ذلك: أهل الكوفة الذين كانت عادتهم المروق من كل عهد وبيعة بعد أن أعطوا البيعة ليزيد في عهد أبيه، واجتمع الناس عليه، كتبوا إلى الحسين بن علي في الحجاز الرسائل يحثونه على القدوم إليهم ليبايعوه خليفة على المسلمين، وكان مما قالوا: إنا لا نرضى بيزيد، وقد نقضنا بيعته، وجيشنا أنفسَنا عليك، فاقدم علينا، فأرسل الحسين من طرفه ابن عمه مسلمَ بنَ عقيل بن أبي طالب ليستوثق من بيعته، فأظهر أهل الكوفة لمسلم الولاء والبيعة للحسين، وتجمع له جمع غفير بلغ اثني عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً؛ مما دفعه أن يرسل إلى الحسين﵁ بالقدوم إليه قائلاً: اقدم فإن الأمر قد تهيأ، فخرج الحسين ﵁ في يوم التروية من موسم حج سنة ٦٠هـ(٢)، وحاول الصحابة أن يمنعوه من ذلك؛ لعلمهم المسبق بغدر أهل الكوفة، قال له عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لولا أن يزري بي وبك الناس، لشبثت يدي في رأسك فلم أتركك تذهب. وقال له: إن كان أهل الكوفة قد دعوك بعدما قتلوا أميرهم، ونفوا عدوهم، وضبطوا بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستنفروا إليك الناس، ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك.

---

(١) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية - ابن تيمية/ منهاج السنة - محمد الخضري بك/ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية - موسوعة التاريخ الإسلامي/ فريق البحوث والدراسات الإسلامية (فدا) / (بتصرف).

(٢) قُلت: سبحان الله لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يمنع أقدار الله تعالى، حتى لو أن الحسين ﵁ انتظر وحج في هذا العام لنفذت مقادير الله تعالى.

ثم دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما في الغد، وقال له: يا بن عم! إني أتصبر ولا أصبر، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قوم غدر، فلا تغترن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوهم، ثم اقدم عليهم، وإلا فسر إلى اليمن؛ فإن به حصوناً وشعاباً، ولأبيك به شيعة - أي: أنصاراً -.

ولما رأى ابن عباس رضي الله عنهما الإصرار من الحسين ﵁ للمسير، قال له: إن كنت ولابد سائراً، فلا تسر بنسائك وصبيتك، فوالله! إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ﵁، ونساؤه وولده ينظرون إليه⁽١⁾.

ولما بلغ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن الحسين قد توجه إلى العراق، سار خلفه فلحقه على مسيرة ثلاث ليال، فقال له: أين تريد؟ قال: العراق. وأخرج له كتب أهل العراق وبيعتهم. فقال: لا تأتهم، فأبى. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إني محدثك حديثاً: إن جبريل ﵇ أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى الحسين ﵁ أن يرجع معه، فاعتنقه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

وقال عبد الله بن الزبير ﵁ عندما علم بخروجه: أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك، وطعنوا أخاك!.

وقال له أبو سعيد الخدري ﵁ : يا أبا عبد الله! إني لكم ناصح، وإني عليكم مشفق، وقد بلغني أنه كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج؛ فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله! لقد مللتهم وأبغضتهم، وملوني وأبغضوني، وما يكون منهم وفاء، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب، والله! ما لهم ثبات ولا عزم على أمر، ولا صبر على السيف.

وقال له جابر بن عبد الله ﵁ : اتق الله، ولا تضرب الناسَ بعضَهم ببعض، فوالله! ما حمدتم ما صنعتم.

---

(١) ما أعظمها وأغلاها من نصيحة لحريص على الإسلام وأهله وعلى حرمات الله تعالى وبيت النبوة.

وكتب إليه المسور بن مخرمة ﵁ : إياك أن تغتر بكتب أهل العراق، وإياك أن تبرح الحرم؛ فإنهم إن كانت لهم بك حاجة، فسيضربون إليك آباط الإبل حتى يوافوك فتخرج في قوة وعدة.

كما نصحه غيرهم من أبناء الصحابة والتابعين.

ولما خرج الحسين ﵁ يوم التروية ما كان يدري بما جرى لمسلم الذي غدر به أهل الكوفة، وتفرقوا عنه، وأسلموه إلى والي الكوفة والبصرة عبيد الله بن زياد، والذي قتله في يوم عرفة، وكان قد أرسل إلى الحسين ﵁ قبل أن يقتل أن ارجعْ بأهلك، ولا يغرنك أهل الكوفة؛ فإن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني، وليس لكاذب رأي.

وقد بلغ الحسينَ ﵁ خبرُ مقتل مسلم بن عقيل عندما اقترب من العراق، فهمّ أن يرجع، فمنعه أبناء مسلم أخذاً لثأر أبيهم، فاضطر أن ينزل على رأيهم، فسار الحسين ﵁ بمن معه لقدره بقدميه.

وكان عبيد الله بن زياد أميرُ العراق(١) قد أرسل جيشاً من ألف رجل يمنع الحسين من دخول الكوفة، فلما لقيه الحسين ﵁ ، تكلم مع أمير الجيش، وهو الحر بن يزيد التميمي(٢)، والذي قال للحسين ﵁ : إلى أين يا بن بنت رسول الله ﷺ؟! قال: إلى العراق، قال: فإني آمرك أن ترجع، وألا يبتليني الله بك، ارجع من حيث أتيت، أو اذهب إلى الشام إلى حيث يزيد، لا تقدم إلى الكوفة، فأبى الحسين ﵁ ذلك، وأصر على أن يستمر، لكن الجيش منعه ذلك، فسأل الحسين ﵁ عن المكان الذي نزل به، فقالوا: كربلاء، فقال: كربٌ وبلاء.

---

(١) عبيد الله بن زياد بن أبيه أبو حفص أحد الشجعان الجبابرة، خطيب مفوه، والي العراق ليزيد بن معاوية، وكان قد تولى البصرة (سنة ٥٥هـ)، كما تولى خراسان، وكان في الثانية والعشرين من عمره، أمر بقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما، وقتل في (سنة ٦٧هـ) على يد الأشتر النخعي عليه من الله ما يستحقه. الزركلي/ الأعلام (٤/ ١٩٣) – الذهبي/ السير (٣/ ٥٤٥).

(٢) الحر بن يزيد بن ناجية بن قعنة بن عتاب التميمي أحد قادة عبيد الله بن زياد والي العراق الأموي، وأحد شجعان العرب وهو من أشراف تميم، أرسله الحصين بن نمير التميمي في ألف فارس من القادسية لاعتراض الحسين بن علي رضي الله عنهما حتى لا يدخل إلى الكوفة، فلما أقبلت خيل الكوفة تريد قتل الحسين وأصحابه، رفض الحر أن يكون معهم، بل قاتل مع الحسين قتالاً شديداً حتى قُتل رحمه الله. الزركلي/ الأعلام (٢/ ١٧٢).

وكان جيش آخر بقيادة عمر بن سعد(١)، ويتكون من أربعة آلاف مقاتل قد وصل ليمنع الحسين ﵁ من تحقيق مأربه، وأمر عمر بن سعد الحسين ﵁ أن يذهب معه إلى الكوفة حيث عبيد الله بن زياد، فأبى الحسين ﵁ ذلك.

ولما شعر الحسين ﵁ بأن الجيش لن يبرح مكانه، وأن الأمر جداً خطير، اجتمع بعمر بن سعد، وعرض عليه واحدة من ثلاث: أن يذهب إلى يزيد بالشام، أو يتركه يرجع إلى الحجاز، أو يذهب إلى بعض الثغور فيقاتل الترك.

كتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بالكوفة بذلك، فقال عبيد الله: قد وافقت على ما قاله الحسين، ولكن كان إلى جواره شيطان من الإنس يقال له: شَمِر بن ذي الجَوشَن(٢) فقال: لا والله حتى ينزل على حكمك هو وأصحابه، فاستحسن ابن زياد هذا الكلام، وقال له: نعمَ ما رأيتَ، ثم بعث شمر بن ذي الجوشن، وقال له: اذهب، فإن جاء حسين وأصحابه، فعلى حكمي، فإن أبوا، فأمر عمر بن سعد أن يقاتله، فإن تباطأ عن ذلك، فاضرب عنقه، ثم أنت الأمير على الناس.

فذهب إلى عمر بن سعد بكتاب عبيد الله، فقال له عمر: أبعدَ الله دارك، وقبحَ ما جئت به، والله! إني لأظنك الذي صرفته عن الذي عرضت عليه من الأمور الثلاثة التي طلبها الحسين، فقال له شمر: فأخبرني ما أنت صانع؟ أتقاتلهم أنت، أو تاركي وإياهم؟ فقال له عمر: لا ولا كرامة لك، أنا أتولى ذلك.

فكانت المأساة حيث التف الجيش حول الحسين ﵁ ومن معه وأرسلوا إلى الحسين ﵁ بأنه جاء أمر الأمير إما أن تأتوا على حكمه، وإما أن نقاتلكم، فقال الحسين ﵁: أمهلوني حتى أنظر في أمري هذه الليلة وأصلي لربي، وأوصى الحسين في هذه الليلة إلى أهله، وقال

---

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص الزهري المدني، ولد (سنة ٢٣هـ)، أمير من أمراء الجيش الأموي، سكن الكوفة، وأتمر بأمر عبيد الله بن زياد على أربعة آلاف لقتال الديلم، فلما علم ابن زياد بقدوم الحسين ﵁ إلى العراق كتب إلى عمر بن سعد أن يرجع بمن معه، وأن يواجه الحسين، فطلب منه عمر أن يعفيه عن هذه المهمة، فهدده، وتولى الأمر في وجوده شمر بن ذي الجوشن الذي قاد الناس لقتال الحسين ﵁.

اختلف عمر مع أبيه، ولم يسمع لنصحه بترك الفتن، فوقع فيها، وبعد مقتل الحسين خرج المختار الثقفي يتتبع قتلة الحسين ﵁، فبعث إليه من قتله بالكوفة (سنة ٦٦هـ). الذهبي/ السير (٤/ ٣٤٩).

(٢) شمر بن ذي الجوشن: شرحبيل بن قرط الضبابي الكلابي، يكنى بأبي السابغة، كان ممن بايع علي بن أبي طالب وشارك في معركة صفين، ثم خرج عليه متمرداً مع الحرورية، رأس الفتنة في مقتل الحسين، بل قيل إنه هو الذي قتله، أرسله عبيد الله بن زياد إلى الخليفة يزيد بن معاوية ليخبره الخبر.

أكثر الناس بغضاً من أهل السنة والجماعة، قتله المختار بن عبيد الله الثقفي، وألقيت جثته للكلاب في (سنة ٦٦هـ). الزركلي/ الأعلام (٣/ ١٧٥).

لأصحابه: من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له؛ فإن القوم إنما يريدونني.

فبقي معه أصحابه، وبات طوال هذه الليلة يصلي ويستغفر، ويدعو ويتضرع، وكان مجموع من مع الحسين ﵁ من الفرسان اثنين وسبعين فارساً؛ ومن عجائب الأمور أن هؤلاء الذين مع الحسين والجيش الذي جاء ليقاتلهم كانوا يصلون خلف الحسين الصلوات مقتدين به إماماً ﵁ في الصلاة.

وفي صباح يوم الجمعة أبى الحسين أن يذهب لعبيد الله بن زياد، فوقع القتال بين فريقين غير متكافئين،حتى فنى من مع الحسين من الفرسان جميعاً، ولم يبق إلا الحسينُ ﵁، وابنُه عليٌّ بن الحسين⁽١⁾ الذي كان مريضاً، وأدخل في خيمة النساء، وظل الحسين ﵁ ينتظر أن يقدم إليه، أو يتجرأ عليه أحد لقتله، فخشي كل منهم أن يُبتلى بقتله، حتى جاء شيطانهم شمرُ بن ذي الجوشن، فصاح بهم أن يتقدموا إليه ويقتلوه، فحاصروه ثم تقدموا إليه، وكان شجاعاً ﵁، فقتل منهم من قتل، فأحكموا حصاره، وتقدم إليه سنان بن أنس النخعي، فقتل الحسين وحز رأسه، وقيل: إن من فعل ذلك شمرُ بن ذي الجوشن، عليهم من الله ما يستحقونه.

لعن الله من قتل الحسين، ومن أعان على قتله، ومن رضي بقتله.

---

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي الملقب بزين العابدين، ويقال له: علي الأصغر؛ للتمييز بينه وبين أخيه علي الأكبر، والذي قُتل بين يدي أبيه الحسين ﵁ في يوم كربلاء.

كان سخياً كريماً حتى إنه أُحصي بعد موته عدد من كان يقوتهم سراً فكانوا نحو مئة بيت، حتى قال أهل المدينة: ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت زين العابدين، ويعتبر هو الابن الوحيد للحسين الذي حُفظ نسل الحسين به.

ولد وعاش ومات بالمدينة، كان مع أبيه يوم كربلاء ولكنه كان مريضاً وأُدخل إلى خيمة النساء ليطببوه، ورد مع أهل الحسين ﵁ إلى دمشق ثم إلى المدينة.

له روايات حديثية عن أم المؤمنين عائشة وصفية وعن أبي هريرة في الصحيحين، كما له روايات عن أبي رافع وعن عمه الحسن وعن عبد الله بن عباس وعن مروان بن الحكم وعمرو بن عثمان بن عفان، وحدث عنه أبناؤه كما حدث عنه الزهري وعمرو بن دينار وزيد بن أسلم وغيرهم من أئمة التابعين،

قال عنه الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين.

كان من أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعة، وأحبهم إلى مروان وإلى عبد الملك.

وعن يحيى بن سعيد قال: سمعت علي بن الحسين يقول لأهل العراق: يا أيها الناس! أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً، وفي رواية: ولا تحبونا حب الأصنام، فما زال بنا حبكم حتى صار علينا شيناً.

وقال ابن أبي شيبة: أصح الأسانيد كلها: الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب.

وكان رحمه الله تقياً ورعاً، ولقد لُقب بزين العابدين لكثرة عبادته؛ وجاء رجل إليه يسأله فقال: أخبرني عن أبي بكر؟ قال: عن الصديق تسأل؟ قال: وتسميه الصديق؟! قال: ثكلتك أمك، قد سماه صديقاً من هو خير مني رسولُ الله ﷺ، والمهاجرون، والأنصار، فمن لم يسمه صديقاً فلا صدق الله قوله، اذهب فأحب أبا بكر وعمر وتولهما، فما كان من أمر ففي عنقي.

توفي رحمه الله (سنة ٩٤هـ)، رحمه الله رحمةً واسعة وأسكنه فسيح جناته. الذهبي/ السير (٤/ ٣٨٦).

وعاشت الأمة منذ مقتله رضي الله عنه إلى زماننا هذه المأساة التي يتخذها البعض ذريعة لبث الفرقة والفتنة، واستباحة الدماء بين المسلمين في أمر لم نحضره، ولم يحضروه، وإنما أمرُ من فعل وفُعل به إلى الله كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[البقرة:١٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: لم يكن في خروجه رضي الله عنه مصلحة لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من الفساد مالم يحصل لو قعد في بلده، فإن قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء، بل زاد الشر بخروجه وقتله.

قال الشيخ محمد الخضري[٢]: بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر في عواقب الأمور؛ فإن الحسين ضرب بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط، وظن بأهل العراق خيراً، وهم أصحاب أبيه، فقد كان أبوه خيراً منه، وأكثر عند الناس وجاهة، وكانت له بيعة في الأعناق، ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم، أما الحسين، فلم تكن له بيعة، ولا كان في العراق عمّال وأمراء، فاغتر ببعض كتب كَتَبَها دعاة الفتن ومحبو الشر، فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد، وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه؟ هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب ﵁؟ وعلى الجملة: فإن الحسين ﵁ أخطأ خطأً عظيماً في خروجه هذا الذي جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا، وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها.

غاية ما في الأمر: أن الحسين ﵁ طلب أمراً لم يتهيأ له، ولم يُعدَّ له عدَّته، فحِيل بينه وبين ما يشتهي، وقتل دونه، وقبل ذلك قتل أبوه، فلم يجد من أقلام الكاتبين من ينصره، أو يبشع أمر قتله.

لقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا، والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة، وهي:

---

(١) منهاج السنة (٤/ ٥٣٠).

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية.

أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح، أو يقرب من ذلك، كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة، بأن يكون هناك جور ظاهر لا يحتمل، وعسف شديد ينوء الناس بحمله، أما الحسين، فإنه خرج على يزيد وقد بايعه الناس، ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار الخلاف.

وكما أسلفنا فإن الناصحين من الصحابة وأهل العلم قد ناصحوا الحسين، لكنه لم يأخذ باجتهادهم، ومضى إلى قدره شهيداً وسيداً لشباب أهل الجنة مع أخيه الحسن رضي الله عنهما، ومضى قاتلُه إلى لعن الأمة له، وإلى مصيره في الآخرة وقد باء بدم الحسين ﵁ .

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: غلبنا حسين بن علي رضي الله عنهما بالخروج، ولعمري! لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى من الفتنة وخذلان الناس لهما ما كان ينبغي له ألا يتحرك ما عاش، وأن يدخل في صالح ما دخل فيه الناس، فإن الجماعة خير.

قلت: لفظة – الجماعة خير – قول يكتب بماء الذهب، وينقش في صدور الصغار ليشبوا على محبة الدين الذي يحث على وحدة الأمة الإسلامية، والتي لن تتحقق إلا بتحقق التوحيد الخالص لله تعالى، فكلمة التوحيد هي الأصل الذي يجتمع عليه المسلمون، وليس توحيد الكلمة بين فرق متباينة ومتناحرة اتبعت أهواءها ولم تهتد بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فمقولة توحيد الكلمة قبل كلمة التوحيد مقولة باطلة، وإنما الصحيح كلمة التوحيد هي الطريق لتوحيد الكلمة.

ولقد قام يزيد بأمر الخلافة برغم ما واجهه من مشكلات داخلية؛ فقد استمرت الفتوحات في عهده في بعض المناطق في الشرق، واستطاع أن يُخضع خوارزم، كما أنه كانت الفتوحات في المغرب بقيادة عقبة بن نافع الذي عزل في آخر أيام معاوية، ثم أعاده يزيد، وقد كان عقبة أحد القادة الكبار الذين استطاعوا أن يحققوا النصر على أعدائهم في مواطن عدة حتى وصل إلى طنجة على المحيط الأطلسي.

وقعة الحَرَّة، وموقفُ آل البيت والصحابة منها:

عندما قُتل الحسين بن علي ﵁، وعاد آل الحسين إلى المدينة، أمر الخليفة يزيدُ بن معاوية الوليدَ بن عتبة بن أبي سفيان(١) أن يتأمر على الحجاز، فحاول الوليد مراراً أن ينال من عبد الله بن الزبير، فلم يتمكن منه، فعزله الخليفة يزيد، وولى مكانه عثمانَ بن محمد بن أبي سفيان(٢)، فلم يحسن عثمان إلى أهل المدينة الذين خلعوا إمرة يزيد بن معاوية، وولوا عليهم عبدَ الله بن مطيع القرشي(٣)، وعبدَ الله بنَ حنظلة بن أبي عامر من الأنصار(٤)، كما قاموا بإخراج عثمان بن محمد بن أبي سفيان عاملِ يزيد.

كما أرادوا إجلاء بني أمية عن المدينة، وكانت فتنة عظيمة اضطرت الأمويين أن يجتمعوا في دار الحكم بن مروان، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم من كل جانب، ولم يستمعوا ويتأسوا بعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وعلي زين العابدين بن الحسين اللذين لم يخلعا يزيد، ولم يأتمر بأمرهما إلا آلُ بيتهما من بني عبد المطلب وآل الخطاب.

وكان يزيد هيناً ليناً مع خصومه، تارة حازماً، وتارة أخرى، وقد خرج أهل المدينة عليه، ونزعوا أيديهم من طاعته، وأجمعوا أمرهم على خلعه باستثناء عبد الله بن عمر، وعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد بن الحنفية(٥)، وبني عبد المطلب، فحاصروا بني أمية

---

(١) الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب الأموي، أمير من رجالات بني أمية، فصاحة، وحلماً، وكرماً، ولي المدينة النبوية (سنة ٥٧هـ) لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، كتب إليه يزيد أن يأخذ البيعة له من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ﵄ فاستمهلهما حتى خرجا من المدينة إلى مكة، فلام مروان بن الحكم الوليد على تركه إياهما، فقال الوليد: ما كنت لأسفك دماءهما، ولا لأقطع أرحامهما، فعزله يزيد (سنة ٦٠هـ)، واستقدمه إليه وجعله من رجال مشورته، ثم أعاده (سنة ٦١هـ) مع بدايات ثورة ابن الزبير، ثم عزله مرة أخرى وولى عثمان بن محمد، وبقي الوليد بالمدينة، وحج بالناس (سنة ٦٢هـ)، وتوفي بالطاعون. الزركلي/ الأعلام (٨/ ١٢١).

(٢) عثمان بن محمد بن أبي سفيان ابن عم يزيد وواليه على الحجاز بعد عزل الوليد بن عتبة، كان فتى غراً، حدثاً غمراً، لم يمارس الأمور، ولم تعلمه التجارب، فأساء ولم يحسن التصرف. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية).

(٣) عبد الله بن مطيع بن الأسود بن حارثة بن نضلة بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، ولد في حياة رسول الله ﷺ، وروى عن أبيه، وروى عنه ابناه إبراهيم ومحمد، كما روى عنه الشعبي وعيسى بن طلحة ومحمد بن أبي موسى، كان من رجال قريش جلداً، وشجاعةً، وكان أميراً على قريش يوم الحرة، واستعمله ابن الزبير على الكوفة، فأخرجه المختار بن أبي عبيد منها. قال ابن حبان: له صحبة. قُتل مع ابن الزبير بمكة. الزركلي/ الأعلام (٤/ ١٣٩).

(٤) عبد الله بن حنظلة الغسّيل بن أبي عامر الراهب بن صيفي بن النعمان، من صغار الصحابة، قُتل أبوه في يوم أحد، وسمي بغسيل الملائكة، كان عابداً تقياً، قتل يوم الحرة في السابع والعشرين من ذي الحجة من سنة ثلاث وستين. الذهبي/ السير (٣/ ٣٢١).

(٥) محمد بن علي بن أبي طالب، اشتهر بمحمد بن الحنفية فأمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة، يكنى بأبي القاسم، ولد في خلافة عمر ﵁ سنة إحدى وعشرين هجرية، كان ورعاً واسع العلم ثقة له أحاديث في الصحيحين. توفي في سنة إحدى وثمانين للهجرة، وقيل: سنة سبع وستين، كان رجلاً صالحاً في نفسه وممن نصح أخاه الحسين ألا يخرج على يزيد وألا يذهب إلى العراق. ادعى عليه المختار بأنه أرسله للأخذ بثأر الحسين، وما كان محمد يقبل بذلك ولا يرضاه؛ إذ أنه كان يدعو للجماعة وعدم الفرقة؛ وقام بزيارة يزيد في الشام من قبل. الذهبي/ السير (٤/ ١١٠).

في دار مروان بالمدينة، وأحدثوا فتنة وبلبلة؛ مما أدى إلى وقعة الحرة سنة ٦٣هـ، ولما نقض أهل المدينة البيعة ليزيد، والذي ترتب عليه وقعة الحرة، رفض عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يحذو حذوهم، وأن ينهج نهجهم، وجمع حشمه وولده وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُنصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل، ثم يُنصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه»(١).

بل بلغ بعبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن ذهب إلى عبد الله بن مطيع أحدِ مثيري الفتنة، فلما ذهب إليه، قال ابن مطيع: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال ابن عمر: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدث حديثاً سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة الجاهلية»(٢).

ولقد حاول المتسببون في هذه الفتنة أن يجرّوا آل بيت النبي ﷺ إلى نقض بيعة يزيد، فأبوا عليهم ذلك، كما قال محمد الباقر: لم يخرج أحد من آل أبي طالب، ولا من بني عبد المطلب في وقعة الحرة، ولما قدم مسلم بن عقبةأمير جيش يزيد أكرم أبي (أي: علي زين العابدين)، وأدنى مجلسه، وأعطاه كتاب أمان(٣).

ولما ذهب هؤلاء إلى محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) أرادوا منه أن يخلع يزيد، فلما سألهم عن ذلك قالوا: إن يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب، فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظباً على الصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنة.

قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعاً لك، فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟! أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن أطلعكم على ذلك إنكم شركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم، فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم نكن رأيناه (وهذا دليل على كذبهم وبهتانهم ليزيد).

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ٨٦/ح:٧١١١).

(٢) رواه مسلم (٦/ ٢٠١/ ١٨٥١)..

(٣) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ٦٥٤).

فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، ولست من أمركم في شيء، قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا(١).

قال: ما أستحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً، قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال: جيئوني بمثل أبي أقاتل على ما قاتل عليه.

قالوا: فمر ابنيك بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت.

قالوا: فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال، قال: سبحان الله!!! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه، إذاً ما نصحت لله في عباده!!!.

قالوا: إذن نُكرهك، قال: إذن آمر الناس بتقوى الله، ولا يُرضون المخلوق بسخط الخالق.

ثم تركهم وخرج عنهم إلى مكة(٢).

وأما عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فإنه اعتزل كل هذه الفتن، وخاصة بعد وفاة يزيد، ولم يتفق مع عبد الله بن الزبير، وغادر مكة إلى الطائف، وأقام بها إلى أن توفي بالطائف (سنة ٦٨هـ).

بلغ خبر بني أمية وحصارهم، وما هم فيه من الحصر والإهانة إلى الخليفة يزيد، فبعث إليهم قوة بقيادة مسلم بن عقبة المري(٣)، ومعه الحصين بن نمير السكوني(٤)، وحاول مسلم ابن عقبة أن يستميل أهل المدينة إليه ضد عبد الله بن الزبير، فأبوا عليه ذلك، فوقع بينه وبينهم القتال، فكانت مأساء يوم الحرة، مما أوغر صدور الناس على يزيد وجيشه، وازدادوا بغضاً له ونقمة عليه، وبعد أن تمكن مسلم بن عقبة من المدينة، بدأ يتوجه إلى مكة لقتال عبد الله ابن الزبير في موسم الحج، الذي حج فيه عبدُ الله بن الزبير بالناس أميراً عليهم.

---

(١) تأمل التلون الذي هم عليه.

(٢) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ٦٥٣-٦٥٤).

(٣) مسلم بن عقبة بن رباح المري، أبو عقبة أحد القادة الدهاة والقساة في العهد الأموي، أدرك النبي ﷺ، وشهد صفين قائداً على الرجالة في جيش معاوية، مات سنة ثلاث وستين. الزركلي/ الأعلام (٧/ ٢٢٢).

(٤) الحصين بن نمير بن نائل أبو عبد الرحمن الكندي السكوني من أهل حمص من أشد القادة الأمويين، أحد الذين رموا الكعبة بالمنجنيق، قُتل مع عبيد الله بن زياد على مقربة من الموصل. الزركلي/ الأعلام (٢/ ٢٦٣).

توفي مسلم بن عقبة وهو في طريقه إلى مكة، واستخلف قبل وفاته الحصينَ بن نمير السكوني، وأوصاه ألا يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، فلما وصل الحصين بن نمير إلى ظهر مكة، خرج إليه ابن الزبير بمن معه، واقتتلوا قتالاً شديداً كاد أن يقتل فيه عبد الله بن الزبير، ثم عاد ابن الزبير، ونظم صفوفه، وظلت الحرب بينهم بقية شهر المحرم وصفر بكامله، ثم لما كان الثالث من ربيع الأول سنة أربع وستين، نصب جيشُ الحصين المجانيق على الكعبة، ورموها بالنار، فاحترق جدار البيت في ذلك اليوم، وحوصر ابن الزبير ومن معه بالبيت، واستمر ذلك إلى بدايات ربيع الثاني؛ حيث بلغهم نعيُ يزيدَ بنِ معاوية رحمه الله، فوقفت الحرب، ورُفع الحصار.

ثم التقى عبد الله بن الزبير بالحصين بن النمير، فاستأذن الحصين من ابن الزبير أن يطوف بالبيت هو ومن معه من أهل الشام، فأذن لهم، وطافوا وارتحلوا من حيث أتوا، ولما اجتازوا المدينة، خرج معهم بنو أمية إلى الشام، ووصلوا دمشق وقد تولى الخلافةَ فيها معاويةُ بن يزيد بن معاوية.

ولكثرة ما كتب عن يزيد من قدح، وطعن، وغمز، ولمز، جعل الناس تبغض يزيد، وهذا من شأن العامة الذين يتأثرون بروايات القصّاص، وأما المسلم المتثبت المتروي، فإنه يتحقق من صحة ما نُسب إلى أي مسلم قبل أن يخوض في عرضه.

يقول ابن الصلاح: إن الناس ذهبوا في يزيد ثلاث فرق: فرقة تحبه وتتولاه، وفرقة تسبه وتلعنه، وفرقة متوسطة في ذلك، لا تتولاه ولا تلعنه. ثم أضاف: وهذه الفرقة هي المصيبة، ومذهبها هو اللائق لمن يعرف سير الماضين، ويعلم قواعد الشريعة الطاهرة.

وخلاصة القول: أن الناس قربوا وبعدوا في يزيد بأهوائهم، وكأن الأمة لا يوجد في تاريخها إلا يزيد، ونحن لا نقول فيه إلا كما قال الله عز وجل: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[البقرة:١٤١].

الخليفة الثالث: معاوية بن يزيد - معاوية الثاني.

بعد موت يزيد وقعت بيعتان: إحداهما بمكة لعبد الله بن الزبير، والثانية لمعاوية بن يزيد في الشام. ولكن معاوية بن يزيد كان رجلاً صالحاً ضعيفاً في الإمارة، فتنحى عن الخلافة، ثم مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته، واجتمع أغلب الأمراء على مبايعة عبد الله بن الزبير، والذي تولى معه في آن واحد مروانُ بنُ الحكم، وبويع له خليفةً على الشام.

وكان مما قاله معاوية بن يزيد للناس: إني قد ضعفت عن أمركم، فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، فاختاروا له من أحببتم.

- **دور عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:**

لما بويع لمعاوية بن يزيد بن معاوية في دمشق الشام بالخلافة بعد وفاة أبيه يزيد، ولم يبقَ في الخلافة إلا فترة بسيطة، فقد لحق بأبيه بعد أقل من شهرين، وترك الأمر شورى بين الناس كما أسلفنا، فانصرفت بعض الأمصار نحو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لتبايعه أميراً على المسلمين، وكان قد بويع له بعد وفاة يزيد في الحجاز والعراق، وما خلفه، ويتبعه من بلاد المشرق، وفي مصر وما خلفها، وما يتبعها من بلاد المغرب، كما بويع له في بعض مناطق الشام، وأصبح في نظر البعض الخليفة الشرعي الذي ينبغي أن يسمع له ويطاع، وكانت بيعته في النصف الأول من رجب سنة أربع وستين للهجرة، وبقي على ذلك حتى احتدم الصراع بينه وبين الدول الأموية، وانتهى بمقتله يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

غير أن الأسرة الأموية في دمشق قد بايعت لمروان بن الحكم خليفة على المسلمين، واستخلف مروان من بعده ابنه عبدَ الملك بن مروان، وتتابع الخلفاء الأمويون إلى نهاية العهد الأموي من نسل مروان بن الحكم (سنة ١٣٢هـ).

البَحْرَيْنُ

فِي عَهْدِ الخِلَافَةِ الأُمَوِيَّةِ

٤١هـ ـ ١٣٢هـ

الفَصْلُ الثَّانِي

إِمَارَةُ

عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا

- **عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:**

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد، أبوه ابن عمة النبي ﷺ صفيةَ بنتِ عبد المطلب رضي الله عنها، وعمةُ أبيه أمُّ المؤمنين خديجةُ بنت خويلد رضي الله عنها أول زوجات النبي ﷺ، وخالته زوجُ النبي ﷺ أم المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها، وأمه أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنها، وجده لأمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

صحابي جليل من صغار الصحابة، وهو أول مولود في الإسلام بالمدينة النبوية للمهاجرين، ولما ولد، أتت به أمه أسماء إلى رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها ﷺ، ثم تفل في فيه، فكان أولَ ما دخل في جوفه ريقُ رسول الله ﷺ، ثم حنّكه، ثم دعا له، وتبرك عليه (١).

وقد كان عبد الله بن الزبير كثير الولوج والتردد على النبي ﷺ؛ لكونه يزور خالته عائشة رضي الله عنها، ولم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول الله ﷺ من أبي بكر، وبعده عبد الله ابن الزبير، ولذا كانت تكنى به بأم عبد الله.

وكان عبد الله رضي الله عنه هو أكبر أبناء الزبير رضي الله عنه، ونشأ على محبة الإسلام، وعلى الشجاعة، يخوض غمار الحرب، فارساً لا يبارى في هذا الميدان، وقد صحب أباه في خلافة جده الصديق إلى بلاد الشام، حيث الجهاد وقتال الروم، فشهد معه معركة اليرموك، وقد كان يومئذ على فرس يقاتل عليها.

كما خرج مع أبيه مرة أخرى إلى الشام مع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، دعماً لأبي عبيدة عامر ابن الجراح رضي الله عنه، وخرج مع أبيه مرة ثالثة إلى مصر دعماً لعمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر.

وحين سار عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيشه باتجاه الغرب، وفتحت طرابلس على أيديهم، أرسل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه على رأس جيش من الفرسان لفتح مدينة مصراتة، فاستطاع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ومن معه أن يفتحوا هذه المدينة، وأن يغنموا مغانم كثيرة، حتى وصلهم عمرو بن العاص رضي الله عنه بعد أن بُشر بالفتح.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ١٨٦).

ثم عاد مرة أخرى إلى شمال إفريقيا مع الحسن والحسين ابني علي، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص ﵃، مدداً للجيوش التي تتولى عملية فتح سبيطلة.

فلما وصل ذلك المدد، كثر صياحُ الجيش وتكبيره، ولقد كان هذا المدد المبارك قوة فَتَّتْ عضُد جيش الروم الذي انهزم بعد مقتل قائده على يد عبد الله بن الزبير ﵁، وقد أرسله عبد الله بن أبي السرح ﵁ والي مصر إلى الخليفة عثمان بن عفان ﵁ ليبشره بالفتح، فلما رآه عثمان ﵁، أمره أن يخطب، فلما خطب، قال عثمان ﵁: كأنه أبو بكر الصديق ﵁.

ولقد كان عبد الله بن الزبير ﵁ أحدَ الصحابة الذين ذبوا عن عثمان ﵁، وقاتلوا الخوارج والثوار أمام داره، فجُرح ﵁ بضعة عشر جُرحاً، وكان يضع يده على هذه الجراح ويقول: أرجو أن تكون خير أعمالي.

وعندما وقعت فتنة السبئية في زمان علي ﵁، وقف إلى جوار خالته أم المؤمنين عائشة ﵂ يذبّ عنها في يوم الجمل، ثم اعتزل القتال بين أمير المؤمنين علي ﵁ وأمير الشام معاوية ﵁ في يوم صفين؛ حرصاً على جمع كلمة المسلمين ووحدتهم.

ولما تولى معاوية بن أبي سفيان ﵁ الخلافة، بايع عبد الله بن الزبير ﵁ لمعاوية، ووفد عليه، فلقيه معاوية ﵁، وقال له: مرحباً بابن عمة رسول الله ﷺ، وابنِ حواريِّ رسولِ الله ﷺ؛ وكان يفسح له في مجلسه، وكان يأمر له بالعطايا، وقيل: إنه كان يعطيه مئة ألف.

ولقد أبلى عبد الله بن الزبير ﵁ بلاءً حسناً في الفتوحات الإسلامية بشمال إفريقيا كما سبق الإشارة إليه في عهد الخلفاء، وكذلك في عهد معاوية ﵁، كما كان أحد المجاهدين في جيش يزيد بن معاوية عند حصار القسطنطينية الأول إلى جوار عدد من الصحابة، منهم: أبو أيوب الأنصاري، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله ابن عباس، وغيرهم من الصحابة ﵃.

بداية الافتراق والخلاف:

بدأ الخلاف بين عبد الله بن الزبير ﵁ وبين معاوية بن أبي سفيان ﵁ عندما أخذ معاوية البيعة لولده يزيد ولياً لعهده في سنة ست وخمسين للهجرة، فاجتمع الناس على البيعة إلا خمسة رجال هم: الحسين بن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس ﵃، فقد امتنع هؤلاء عن البيعة ليزيد اعتراضاً منهم على مخالفة نهج الخلفاء السابقين في البيعة.

التقى معاوية ﵁ بهؤلاء الرجال الخمسة في المدينة واحداً واحداً، غير أنهم لم يوافقوا معاوية على البيعة ليزيد الذي اتسقت له البيعة في سائر البلاد، ووفدت له الوفود من سائر الأقاليم.

ويخطئ البعض في فهم هذا الأمر من جانب، ويستغله آخرون في الطعن في البيت الأموي من جانب آخر؛ حيث إنهم يصورون الحدث على أنه اعتراض على شخصية يزيد، وهذا خطأ فاحش؛ إذ أن هؤلاء قاتلوا تحت راية يزيد في حصار القسطنطينية الأول، ولم يجدوا فيه ما يعترضون به على شخصه، وإلا لما قاتلوا تحت رايته، بل رأوا منه شجاعةً وإقداماً، في خلال سنتين هما عمر الحصار الأول، عاشروه، ووقفوا على أخلاقه في سفره، وحله، وترحاله، وراحته وقتاله، كان يؤمهم بالصلاة، ويخطبهم بالجمع والأعياد، فلم يروا منه نقصاً في الفقه، أو قلة في العلم، أو انحرافاً في المعتقد، أو عدم القدرة على القيادة.

وإنما كان اعتراضهم على مسألة توريث الحكم التي استحدثها معاوية ﵁، وهو أمر لم يعرفه المسلمون من قبل، فكان هذا هو اعتراضهم.

وتوفي عبد الرحمن بن أبي بكر ﵁ في حياة معاوية ﵁، وبقي الأربعة من الصحابة على موقفهم إلى أن توفي معاوية ﵁، وتمت البيعة مرة أخرى ليزيد، وأصبح خليفة للمسلمين، وقد بايع بعد ذلك عبد الله بن عمر ﵁، وعبد الله بن عباس ﵁، وخرج الحسين ﵁ وعبد الله ابن الزبير ﵁ من المدينة إلى مكة، ولم يبايعا؛ مما أدى إلى تطور الأحداث والأمور التي سبق ذكرها.

ـ أهم الأحداث التي وقعت في عهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما:

١ـ إعادة بناء الكعبة:

تحدثنا فيما مضى أن جدار الكعبة قد أصابه حرق المنجنيق في أثناء حصار الحصين بن نمير، وقد مال ذلك الجدار، مما دفع عبد الله بن الزبير إلى هدمه حتى وصل إلى الأحجار الخضراء قواعدِ أبينا إبراهيم عليه السلام، وأعاد بناء الكعبة على الشكل الذي بناها عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والذي ثبت في الحديث الصحيح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال لها: «لولا حدثانُ قومك بكفر، لنقضتُ الكعبة، ولأدخلتُ فيها الحِجْر(١)؛ فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلتُ لها باباً شرقياً، وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما، ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض؛ فإن قومك رفعوا بابها ليُدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا»(٢).

فقام ابن الزبير رضي الله عنهما ببنائها على ما أخبرت به خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعندما غلبه جيش الأمويين بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ثلاث وسبعين، هُدم الحائط الشمالي، فأعاد الأمويون بناء الكعبة على ما بنته قريش، وهي الهيئة التي عليها الكعبة إلى الآن، وذلك بأمر عبد الملك بن مروان، الذي لم يكن يعلم بالحديث، فلما بلغه الحديث، حزن وقال: وددنا أنا تركناها على ما هي عليه.

وفي خلافة المهدي بن المنصور العباسي رأى أن يعيد بناءها كما فعل ابن الزبير، فاستشار الإمامَ مالكَ بنَ أنس الأصبحي(٣) في ذلك، فأبى مالكٌ عليه ذلك وقال: إني أكره أن يتخذها الملوك لعبة، فانتهى المهدي، وبقيت الكعبة على ما عليه إلى الآن.

---

(١) هو حجر إسماعيل، ويسمى بالحطيم، وهو البناء المستدير الفارغ خلف الكعبة والذي يؤمه عامة الناس لصلاة النافلة فيه، ولا تُصف فيه صفوف المصلين للفريضة خلف الإمام.

(٢) رواه الشيخان، البخاري (٣/ ٥٥٥/ ١٥٨٥)، ومسلم (٥/ ٧٥/ ح:١٣٣٣) واللفظ له.

(٣) الإمام مالك: مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، ولد (سنة ٩٣هـ) بالمدينة النبوية، إمام دار الهجرة، وأحد أئمة الفقه الأربعة المتبوعين عند أهل السنة، وإليه ينسب الفقه المالكي، صاحب كتاب الموطأ، ورسالة الرد على القدرية، توفي رحمه الله (سنة ١٧٩هـ). الذهبي/ السير (٨/ ٤٨).

٢ـ ظهور المختارية:

التفَّ جماعة من الخوارج حول عبد الله بن الزبير في صراعه مع الأمويين، على رأسهم نافع بن الأزرق(١)، وعبد الله بن أباض(٢)، ثم اختلفوا معه بسبب رأيه في عثمان بن عفان ﵁، وتفرقوا عنه، وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا في المشرق يبثون دعوتهم الفاسدة.

كما وقف إلى جوار عبد الله بن الزبير المختارُ بن أبي عبيد الثقفي(٣)، وأظهر ولاءه الشديد له، في الوقت الذي كان يرى المختار فيه أن محمد بن الحنفية هو الأولى بالإمارة من أي أحد.

استأذن المختار عبدَ الله بن الزبير ليقيم في العراق، فأذن له، فلما وصل المختار إلى العراق، بدأ يدعو لمحمد بن الحنفية في ظاهر أمره، ولكنه في الحقيقة كان يتخذ من هذه الدعوة مطية للوصول إلى الإمارة، فأعلن الخروج على عبد الله بن الزبير؛ مما أدى به إلى الصدام معه، حتى انتهى الأمر بمقتل المختار في العراق (سنة ٦٨هـ).

---

(١) نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري، رأس الأزارقة من الخوارج وأميرهم، وإليه تنسب طائفة الأزارقة، من أهل البصرة؛ كان جباراً فتاكاً، فلقد أثخن القتل في الناس حتى النساء والصبيان بالأهواز وهو يتلو قول الله تعالى: «لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً»، وارتاع أهل البصرة منه.

صحب عبد الله بن عباس في أول أمره ثم نكص على عقبيه، وكان من الذين خرجوا وألبوا على الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁، وقف إلى جوار الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ﵁ وبايعه، ثم انقلب عليه بعد التحكيم، وذهب مع بعض أصحابه للالتفاف حول ابن الزبير في صراعه مع الخلافة الأموية، ثم انقلب عليه بسبب موقف ابن الزبير من عثمان بن عفان ﵁ وثنائه عليه، وإجابته عندما سألوه عنه بقوله: أنا أشهدكم ومن حضرني أني ولي لابن عفان، وعدوٌ لأعدائه.

قُتل يوم دولاب على مقربة من الأهواز في جمادى الآخرة سنة خمس وستين. ابن حجر/ لسان الميزان (٨/ ٢٤٦) - الزركلي/ الأعلام(٧/ ٣٥١)

(٢) هو عبد الله بن أباض المقاعسي المري التميمي، زعيم الإباضية وإليه نسبتهم، وهم من تبقى من طوائف الخوارج القديمة في عمان، وشرقي إفريقيا، والجزائر وتونس وليبيا، أصله من بلدة أباض باليمامة وتوفي سنة ست وثمانين. الزركلي/ الأعلام (٤/ ٦١).

(٣) المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي الكذاب، كان أول أمره ناصبياً يبغض علياً بغضاً شديداً، انضم إلى ابن الزبير وقاتل معه قتالاً شديداً، ثم سار إلى العراق، وكان يظهر مدح ابن الزبير في الظاهر، ويسبه سراً، زعم محبة محمد بن الحنفية، واستطاع الاستيلاء على الكوفة بدعوى الأخذ بثأر الحسين، والتف حوله الكثير من المتلونين، واجهه نواب ابن الزبير على الكوفة، لكنه استطاع أن يخرجهم، تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء وقتل خلقاً كثيراً منهم ومن كبرائهم؛ كعمر بن سعد، وشمر بن ذي الجوشن، وسنان ابن أبي أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وقتل رجاله عبيد الله بن زياد، واستطاعوا الانتصار عليه وقتله في يوم عاشوراء (سنة ٦٧هـ)، اكتشف ابن الزبير خداع المختار، وأنه أراد ملك العراق، فبعث إليه أخاه مصعباً أميراً على العراق، فلم يتم سرور المختار إذ أن الله جل وعلا أمكن منه، واستطاع مصعب أن يقتله واحتز رأسه وأمر بصلب كفه على باب المسجد، فزالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها، قال الحافظ ابن كثير: وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً وكاهناً، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه. الذهبي/ السير (٣/ ٥٣٨) - الزركلي/ الأعلام (٧/ ١٩٢).

٣ـ انقسام المسلمين:

لقد بلغت الفرقة بين المسلمين بسبب الصراع على الخلافة أن شهد موقف عرفات بالحج أربع رايات متباينة: الأولى: راية لمحمد بن الحنفية في أصحابه.

والثانية: لنجدةَ بنِ عامرٍ الخارجيِّ وأصحابِه(١).

والثالثة: للخلافة الأموية.

والرابعة: لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

مما يُظهر الحالةَ التي آلت إليها أمور الدولة بسبب الصراع على الإمارة، والانقسام الذي كاد أن يطيح بالدولة الإسلامية، لولا تداركُ الله تعالى لأمة الإسلام لقضي عليها بسبب تلك الصراعات فيما بينها، فلقد قيض الله تعالى للخلافة الأموية عبدَ الملك بن مروان، الذي استطاع أن يُخضع الأمصار لدولته، وأن يسلمها لولده من بعده الوليدِ بنِ عبد الملك متماسكةَ الأركان.

٤ـ الصراع مع الخلافة الأموية، ومقتل ابن الزبير رضي الله عنهما:

استطاعت الدولة الأموية أن تحصر عبد الله بن الزبير في الحجاز، وفي مكة بعينها بعد أن سيطرت على كل ما تحت يديه من أمصار، وخاصة العراق، ثم أرسلت الحجاج بن يوسف الثقفي(٢) بجيش كثيف إلى أهل مكة، كما أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان مع الحجاج كتاب أمان لأهل مكة إن هم أطاعوا واستسلموا.

---

(١) نجدة بن عامر الحروري بن عمير الحنفي اليمامي، من بني حنيفة، من بكر بن وائل، رأس فرقة النجدية من الخوارج، وإليه ينسبون، زائغ عن الحق، ويقال عنهم أيضاً: النجدات، من الثوار المقبوحين، له آراء شاذة انحرف بها حتى عن منهج الخوارج أنفسهم، كان في أول أمره مع نافع بن الأزرق، ثم فارقه لإحداثه مذهبه الجديد، واستقل باليمامة (سنة ٦٦هـ) أيام ابن الزبير في جماعة كبيرة، ثم جاء البحرين واستقر بها وتسمى بأمير المؤمنين.

وجه إليه ابن الزبير أخاه مصعب بن الزبير، فانتصر عليه نجدة، مما مكن له أكثر، فأقام عماله بالبحرين، واليمامة، وعمان، وهجر لخمس سنين، ثم نقم عليه أصحابه أموراً متعددة، فخلعوه، ثم قتلوه، وقيل: قتله أصحاب ابن الزبير. ابن حجر/ لسان الميزان (٨/ ٢٥٢) - الزركلي/ الأعلام (٨/ ١٠).

(٢) الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي الأمير الشهير، ولد (سنة ٤٥هـ) بالطائف، ونشأ بها، وكان أبوه من رجال بني أمية، عمل الحجاج كمؤدِب كتاب لتحفيظ الناشئة القرآن الكريم، وإليه ينسب تنقيط المصحف وتقسيمه إلى أرباع وأحزاب وأجزاء، وكان حافظاً متقناً، ثم لحق بعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وحضر معه قتل مصعب بن الزبير، ثم انتدب لقتال عبد الله بن الزبير بمكة، وكان أميراً على الجيش، وحاصر مكة، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وقاتل ابن الزبير ﵁ حتى قتله.

ولاه عبد الملك الحرمين مدة، ثم ولاه الكوفة، ثم جمع له العراقين، فسار بالناس سيرةً جائرة أخضعت أهل العراق نحو عشرين سنة، كان فصيحاً بليغاً فقيهاً، وكان يقول: إن طاعة الخليفة فرض على الناس في كل ما يرومه، واستطاع أن يخمد ثورات الخوارج والمتلونين من الشيعة، وخرج عليه ابن الأشعث فحاربه حتى قتله، وقيل: إنه قتل نحو مئة ألف وعشرين ألفاً من خصومه، وكان أشهرهم التابعي الجليل سعيد بن جبير رحمه الله. قالت له أسماء بنت أبي بكر: أنت المبير الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ. أرسل الحجاج قادته للفتوح في بلاد السند وفي وسط آسيا، وأنشأ مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، ومات بها (سنة ٩٥هـ). ابن حجر العسقلاني/ تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٣) - الذهبي/ السير (١٢/ ٣٠١).

وصل الحجاج وجيشه إلى الطائف، فأرسل ابنُ الزبير ﵄ جيشاً ليواجه الحجاج، فَهُزِمَ ذلك الجيش، وكلما أرسل عبد الله بن الزبير خيلاً إلى الحجاج ظفر بهم وانتصر عليهم، فكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في محاصرة ابن الزبير ﵄، وأن يدخل إلى الحرم، فأذن له، فحاصرَ ابنَ الزبير بالمسجد، ولما دخل شهر ذي الحجة، حج بالناس الحجاجُ، وعليه وعلى أصحابه السلاح، وهم وقوف بعرفات والمشاعر(١)، ولم يتمكن ابن الزبير ﵄ من الخروج من المسجد للوقوف بالمشاعر.

وهذا من عجائب الأمور التي ترتبت على الفرقة والخلاف والصراع والانقسام ومخالفة أمر الله عز وجل في نبذ الخلاف والفرقة، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[إبراهيم:٤٦].

أراد الحجاج في أثناء الحصار أن يفض زعماء مكة عن ابن الزبير ﵄، فاتصل بهم، وطلبهم أن يبايعوا لعبد الملك بن مروان؛ ليجتمع الناس على خليفة واحد من جانب، ومن جانب آخر لإضعاف شأن ابن الزبير﵄.

وممن راسلهم: محمدُ بن الحنفية، فردَّ عليه بأنه في امتناع لبيعة ابن الزبير ﵄، أو عبد الملك، حتى يجتمع الناس على أحدهما، وأنه ليس من أهل الخلاف، بل أنه متى رأى الناس اختلفوا، اعتزلهم حتى يجتمعوا، وأخبر بأنه إذا قضي على ابن الزبير ﵄، واجتمع الناس على عبد الملك، بايعتُ له.

اشتد الحصار على عبد الله بن الزبير ﵄ بعد انقضاء موسم الحج، فلقد نصب الحجاج المنجنيق على مكة تشديداً على أهلها، حتى يخرجوا إلى طلب الأمان، والطاعة لعبد الملك.

ولقد أصيب خلق كثير من أهل مكة بسبب ما ترميه المجانيق الخمسة(٢) التي كانت مع الحجاج على أهل مكة، كما منع عنهم دخول الطعام والميرة.

---

(١) كتب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف أن يأتم بعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في أداء المناسك.

(٢) من طرائف السير والتاريخ: قيل: إنه لما رمى الحجاج مكة بالمنجنيق، جاءت أصوات البروق والرعود شديدة حتى علت على صوت المنجنيق، ونزلت صاعقة فأصابت اثني عشر رجلاً من جيش الحجاج، مما جعل الجيش يضعف عن المحاصرة، فخاطبهم الحجاج مشجعاً بقوله: إنني خبير بهذه البلاد، هذه بروق تهامة ورعودها وصواعقها، وإن القوم يصيبهم مثل الذي يصيبكم، فجاءت صاعقة فقتلت جماعة من أصحاب عبد الله بن الزبير، فسر الحجاج وقال لجيشه: ألم أخبركم قبل بذلك أنهم يصيبهم ما أصابكم، فأنتم على الطاعة وهم على المخالفة، ثم نزلت صاعقة على المنجنيق فأحرقته، فتراجع الجيش الأموي عن الرمي والمحاصرة، فوقف الحجاج خطيباً فيهم وقال: أيها الناس! ويحكم! ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا، فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم؟! فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته، فعاد الجيش إلى الحصار. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ١٧٨).

ولقد قاتل عبد الله بن الزبير ﵄ في قلة قليلة الجنودَ الأمويين عندما كروا عليه عند باب بني شيبه، وقتل منهم جماعة، وقد قيل لابن الزبير ﵄ : ألا تكلمهم في الصلح؟ فأبى ذلك قائلاً: والله! لو وجدوكم في جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً، والله! لا أسألهم صلحاً أبداً.

لما نزل بأهل مكة هذا الموقف الخانق بدؤوا بالخروج للحجاج بالأمان جماعات تلو جماعات حتى خرج له ما يقرب من عشرة آلاف نفس، فأمنهم الحجاج.

وعلى النقيض قلَّ أصحابُ عبد الله بن الزبير ﵄ ، وانفضَّ معظم الناس من حوله، يخرجون إلى الحجاج، حتى خرج حمزة وخبيب ابنا عبد الله بن الزبير ﵄ ، فأخذا الأمان من الحجاج، وهنا دخل عبد الله بن الزبير ﵄ إلى أمه أسماء بنت أبي بكر ﵄ ، فشكا إليها خذلانَ الناس له، حتى إن أقرب الناس إليه قد تركوه وحده، وقال: أماه! خذلني الناس حتى أهلي وولدي، وإنه لم يبق معي إلا اليسير من جندي، ولم يبق لهم صبر ساعة، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت: يا بني! أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فاصبر عليه؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكِّنْ من رقبتك غلمانَ بني أمية، وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكتَ نفسك وأهلكت من قُتل معك، وإن كنت على حق، فما وهن الدين.

ثم أضافت: وكم خلودُك في الدنيا؟ القتلُ أحسن. فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا ـ والله ـ رأيي، ولكن أحببت رأيك.

ثم قال: والله! ما رَكَنْتُ إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستَحَل حُرمته، ولكني أحببت أن أعلمَ رأيكِ، فزدتيني بصيرةَ مع بصيرتي، فانظري يا أماه؛ فإني مقتول في يومي هذا، فلا يشتدَّ حزنك، وسلمي الأمر لله.

ثم تكلم بكلام، ثم دعت له أسماء وقالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام، وذلك النحيب، والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبِرَّه بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فقابلني في عبد الله بن الزبير ﵄ بثواب الصابرين الشاكرين.

ثم أخذته إليها، فاحتضنته لتودعه، واعتنقها ليودعها، وكانت قد عميت في آخر عمرها، فتحسسته فوجدته يلبس درعاً من حديد، ثم أخذت تذكره بأبيه الزبير ﵁، وجدِّه أبي بكر الصدِّيق ﵁، وجدَّته صفيةَ بنتِ عبد المطلب ﵂، وخالته أم المؤمنين عائشة ﵂، وترجيه القدوم عليهم إذا هو قُتل شهيداً، فخرج من عندها، فكان ذلك آخر عهده بها رضي الله عنهم جميعاً⁽¹⁾.

خرج ابن الزبير ﵁، وواجه القوم، وقاتل قتال الأسود، فقد كان رضي الله عنه شجاعاً مقداماً، حتى جعل الناس يتعجبون من إقدامه وشجاعته، فلما كانت ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى للسنة الثالثة والسبعين، قام ابن الزبير ﵁ يصلي طوال ليلته، ورجالُه عند الأبواب، فأغفى بعد أن فرغ من صلاته قليلاً، ثم انتبه مع الفجر، ثم قال: أَذِّنْ يا سعد، فأَذَّن عند المقام وتوضأ ابن الزبير ﵁، وصلى تسبيحة الصبح، ثم أقيمت الصلاة، فصلى بالناس الصبحَ، وقرأ من سورة نون بعد الفاتحة، ثم سلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال لأصحابه: ما أراني اليوم إلا مقتولاً، فإني رأيت في منامي كأن السماء فرجت لي - فتحت- فدخلتُها، وإني ـ والله ـ قد مللت الحياة، وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أُحبُّ لقاءك، فأَحِبَّ لقائي.

ثم قال: اكشفوا عن وجوهكم حتى أنظر إليكم، وكان عليهم المغافر، فكشفوا، فحرضهم وحثهم على القتال والصبر، فحمل بهم حملة على جيش الحجاج حتى كشفهم إلى الحجون، وهو ينشد:

أسماء يا أسماء لا تبكيني ... لم يبقَ إلا حسبي وديني ... وصارمٌ لانت به يمني.

فجاءه حجر أُلقي من بعيد، فأصابه في وجهه إصابةً بليغة حتى وجد سخونة الدم يسيل على وجهه، فتمثل ببيت شعر للحصين بن الحمام المريّ، وقال:

فلسنا على الأعقاب تَدْمى كُلُومُنَا ... ولكن على أقدامنا تَقْطُرُ الدما

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ١٨٠/ ١٨١).

ثم أصابه حجر آخر من ضربات المنجنيق، فوقع إلى الأرض على وجهه، فهمَّ بالقيام فلم يستطع من شدة ألم الحجر، فشد عليه رجل من جيش الحجاج، فضربه بالسيف حتى قطع رجليه، ثم تكاثروا عليه فابتدروه بالسيوف فقتلوه، رضي الله عنه، وعن أبيه، وعن أمه، وعن جده، وعن جدته، وعن خالته، وعن خاله، وعن جدته لأبيه.

فلما بلغ الحجاجَ الخبرُ، خر ساجداً ـ قبحه الله ـ، وانطلق نحو جثمان ابن الزبير ﵁ ومعه طارق بن عمرو⁽¹⁾، فلما وقفا عليه وهو صريع قال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا، فقال الحجاج: تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذر لنا، إنا محاصروه وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة ينتصف منا، بل يُفضل علينا في كل موقف. فلما بلغ ذلك عبدَ الملك بن مروان، صوبَ رأيَ طارق.

ولقد ارتجت مكة بكاءً على عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.

ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير ﵁، فصُلبت على ثنية كداء عند الحجون حتى مر عليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: رحمةُ الله عليك يا أبا خبيب، أما والله! لقد كنت صواماً قواماً، ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فبعث الحجاج من ينزله عن الجذع، ثم دفن هناك رضي الله عنه.

وقام الحجاج خطيباً في أهل مكة، وأخذ منهم البيعة لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فاستقر الحجاز واليمامة واليمن في حوزة الدولة الأموية.

---

(١) طارق بن عمرو الأموي المكي، مولى عثمان بن عفان، قاضي مكة، ويقال: قاضي المدينة، قائد من الولاة جهزه عبد الملك بن مروان في ستة آلاف لقتال من في المدينة من أنصار ابن الزبير، فدخلها، فولاه إياها (سنة ٧٣هـ). المزي / تهذيب الكمال (٣/ ٤٩٣).

البحرين
في عهدِ الخلافةِ الأُمويّةِ
٤١هـ ـ ١٣٢هـ

الفصلُ الثّالِثُ

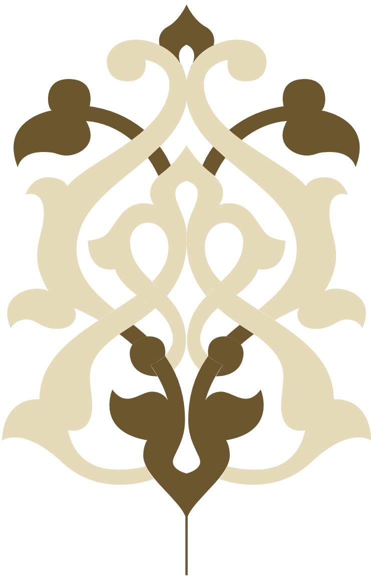

الخُلفاءُ المسلمين
في العهدِ الأمويّ
(البيتُ المرواني)

الخليفة الرابع: مروان بن الحكم بن العاص (٦٤هـ : ٦٥هـ):

بويع له بالخلافة بالشام بعد وفاة معاوية بن يزيد رحمه الله، في الوقت الذي كان يهمُّ بالسير إلى عبد الله بن الزبير ﵁ ليبايعه، فأثناه عن ذلك عبيد الله بن زياد، والذي كان يخشى القصاص منه لقتله الحسينَ بنَ علي ﵁، وأقنعه بالعدول عن ذلك، وبويع له بالخلافة في دمشق، وبقي في الحكم تسعة أشهر، وتوفي في (سنة ٦٥هـ).

قال القاضي أبو بكر بن العربي[١] عن مروان بن الحكم: رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء، فيقولون فيه على أقدارهم.

لم تُجمع الأمة عليه، بل بويع لعبد الله بن الزبير ﵁ كما أسلفنا، ولقد استطاع مروان أن يفرض سيطرته على الشام إلى أن توفي، لتبدأ مرحلة البيت المرواني من بعده بولده عبدِ الملك بن مروان.

الخليفة الخامس: عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ:٨٦ هـ):

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولد بالمدينة سنة ست وعشرين للهجرة، تولى على المدينة من قبل معاوية ﵁ وله من العمر ستة عشر عاماً، غزا مع المسلمين بلاد الروم وإفريقية -تونس-، قدم إلى الشام مع أبيه بعد بيعة عبد الله بن الزبير ﵁ خليفة على الحجاز، بويع له بالخلافة سنة خمس وستين في حياة أبيه، وبقي على الشام ومصر مدة سبع سنين، وعبد الله بن الزبير ﵁ على باقي البلاد، جددت له البيعة بدمشق ومصر بعد وفاة أبيه، واستقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل عبد الله بن الزبير ﵁ (سنة ٧٣هـ).

كان عبد الملك بن مروان من الفقهاء العباد التالين للقرآن، الملازمين للمسجد، وكان يسمى: حمامةَ المسجد قبل توليه الخلافة.

---

[١] العواصم من القواصم (ص:٢٩).

قال الشعبي(١): ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبدَ الملك بن مروان، فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني منه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

قال الأعمش(٢): عن أبي الزناد(٣): كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب(٤)، وعروة ابن الزبير(٥)، وقَبيصة بن ذُؤَيب(٦)، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة.

---

(١) الشعبي عامر بن شراحيل بن الشعبي الحميري أحد كبار التابعين يضرب المثل بحفظه، ولد (سنة ١٩ هـ) وتوفي في (سنة ١٠٣ هـ) بالكوفة، وهو من أئمة الحديث الثقات. المزي/ تهذيب الكمال (٤/ ٢٧).

(٢) سلميان بن مهران الأسدي أصله من بلاد الري، ونشأ وتوفي بالكوفة، كان من علماء القرآن والحديث والفرائض، ولد (سنة ٦١ هـ)، وتوفي (سنة ١٤٨هـ). المزي/ تهذيب الكمال (٣/ ٣٠٠) - الذهبي/ السير (٦/ ٢٢٦).

(٣) عبد الله بن ذكوان القرشي المدني من كبار المحدثين، كان سفيان الثوري يسميه: أمير المؤمنين في الحديث، ولد (سنة٦٥ هـ)، وتوفي بالمدينة (سنة ١٣١هـ). المزي/ تهذيب الكمال (٤/ ١٢٥) - الذهبي/ السير (٥/ ٤٤٥).

(٤) سعيد بن المسيب بن حزَن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة القرشي المخزومي، سيد التابعين في زمانه، وعالم أهل المدينة، إمام علم، ولد سنة (١٥هـ)، روى عن خلق كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم: عمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وحكيم بن حزام، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، وأبيه المسيب، وأبي ذر، وأبي الدرداء، وحسان بن ثابت، وزيد بن ثابت، وأبي قتادة، وأبي موسى، وأبي سعيد، وأبي هريرة، وكان زوج ابنته؛ وعن أم المؤمنين عائشة، وأسماء بنت عميس، وخولة بنت حكيم، وفاطمة بنت قيس، وأم سلمة، رضوان الله عليهم، وغيرهم خلق كثير، وروى عنه خلق كثير من أئمة التابعين.

كان فقيهاً عالماً جهبذاً، قال عنه ابن المديني: لا أعلم بالتابعين أوسع علماً من سعيد بن المسيب، وقال: هو عندي أجلُّ التابعين، كان ورعاً تقياً لم تفته الصلاة في الجماعة أربعين سنة، وكان يسرد الصوم، وقد حج أكثر من أربعين حجة،، توفي رحمه الله (سنة ٩٤هـ). ابن حجر العسقلاني/ تهذيب التهذيب (٢/ ٤٣) - المزي/ تهذيب الكمال (٣/ ١٩٨) - الذهبي/ السير (٤/ ٢١٧).

(٥) عروة بن الزبير بن العوام، ابن حواري رسول الله ﷺ، أبو عبد الله القرشي، وأمه أسماء بنت أبي بكر، ولد سنة ثلاث وعشرين، أحد فقهاء المدينة السبعة في زمن التابعين، وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان ابن يسار، واختلف في السابع، وقيل: ابن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وقيل: سالم بن عبد الله بن عمر، حدث عن أبيه وعن أمه وعن خالته أم المؤمنين عائشة ﵂، ولازمها، وتفقه عليها، كما حدث عن جمع من الصحابة، منهم: علي بن أبي طالب، وسعيد بن زيد، وجابر بن عبد الله، والحسن والحسين ابنا علي، وأبو هريرة، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب الأنصاري والمغيرة بن شعبة، وأسامة بن زيد، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، رضوان الله عليهم، وخلق سواهم كثير، كما روى عنه خلق كثير من التابعين.

له أخبار كثيرة ذكرت في كتب التاريخ والرجال، توفي رحمه الله بقرب المدينة ليلة الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وتسعين للهجرة، ومات وهو صائم، رحمه الله رحمة واسعة. الذهبي / سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٢١) - المزي/ تهذيب التهذيب (٣/ ٩٢).

(٦) قبيصة بن ذئيب: أبو سعيد الخزاعي المدني ثم الدمشقي، ولد عام الفتح سنة ثمان، مات أبوه في آخر أيام النبي ﷺ فأُتي بقبيصة إلى النبي ﷺ فدعا له، وكان عالماً جليلاً فقيهاً ورعاً أحد أئمة الدين في زمانه، روى عن جمع كبير من الصحابة، منهم: أبو بكر ، وعمر، وأبو الدرداء، وبلال، وعبد الرحمن بن عوف، وتميم الداري، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وغيرهم كثير، كما حدث عنه جمع من كبار التابعين.

ولاه عبد الملك بن مروان ديوان الخاتم والبريد، وكان ثقة مأموناً كثير الحديث، توفي سنة ست أو سبع وثمانين، رحمه الله رحمةً واسعة. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٨٢) - المزي/ تهذيب الكمال (٦/ ٩٤).

- **أهم الأحداث التي وقعت في خلافته:**

قام عبد الملك بن مروان بأعمال جليلة ظلت خالدة على مر التاريخ، منها: تعريب الدواوين، وصَكّ الدنانير الإسلامية، وكان الناس من قبلُ يتعاملون ويبتاعون ويشترون بالدينار الرومي من الذهب، والدرهم الفارسي من الفضة(١).

كما تم في زمانه فتوحات بلاد ما وراء النهر، وفتوحات بعض بلاد الروم، وفتوح في إفريقيا، وظل يرسل الجيوش، فتتابعت الفتوحات في عهده إلى أن توفي رحمه الله في شوال سنة ٨٦هـ.

ولقد شهدت الفترة من وفاة يزيد بن معاوية رحمه الله، وحتى قرب نهاية حكم عبد الملك ابن مروان سنة أربع وثمانين للهجرة، قلاقلَ، وثوراتٍ، وخروجاً وصداماً مع الدولة، مما أدى إلى تأخر الفتوحات في بعض الأحيان، بل بلغ الأمر بالخليفة عبد الملك بن مروان أن يصالح الروم على إتاوة يدفعها سنوياً في سنة سبعين هجرية لردِّ شرِّهم.

وكان من أشهر هذه الثورات:

١ـ ثورة التوابين في ربيع الأول سنة ٦٤هـ:

التوابون هم الجماعة الذين استحثوا الحسين بن علي للقدوم إليهم بالكوفة ثم خذلوه، ثم ندموا على فعلهم هذا حين لا ينفع الندم، وجيشوا أنفسهم، وأطلقوا اسماً يميزهم بين الناس باسم التوابين، قادهم إلى ذلك سليمان بن صرد الخزرجي رضي الله عنه(٢)، وقضي عليه وعلى أتباعه في سنة ٦٥هـ في موقعة عين الوردة.

٢ـ ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي في ربيع الأول سنة ٦٦هـ:

ويطلق على المختار: رجل الفتنة الكبرى؛ فقد زعم كذباً أن محمد بن علي بن أبي طالب

---

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك (٦/ ٢٥٦)، الماوردي/ الأحكام السلطانية (ص:١٣٩)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٣).

(٢) سليمان بن صرد الخزرجي: أبو مطرف الخزاعي الكوفي، كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحسين رضي الله عنه، وساروا للطلب بدمه، وسموا بجيش التوابين، حارب عبيد الله بن زياد في معركة عين الوردة، ويقال عنها: رأس العين سنة خمس وستين، وقُتل فيها. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٤) - المزي/ تهذيب الكمال (٣/ ٢٨٤).

أرسله للأخذ بثأر أخيه الحسين، وأطلق على محمد بن الحنفية لقب المهدي لأول مرة، واستطاع أن يضم إليه بالحيل إبراهيم بن الأشتر(١) الذي كانت له مكانة عند الناس، وقد وثبوا جميعاً وغلبوا على الكوفة، وكان نداؤهم لأول مرة **يالثارات الحسين**، وجاء أهل الكوفة يبايعون على الطلب بدماء أهل البيت وقتال المُحلّين، والدفع عن الضعفاء، وقد تتبع المختار قتلة الحسين بالكوفة، فقتلهم قتلاً ذريعاً، ومنهم: عمر بن سعد، ثم دخلت البصرة في بيعته، وأرسل جيشاً بقيادة إبراهيم بن الأشتر لملاقاة جيش الشام الذي كان يقوده عبيد الله بن زياد، فدارت رحى موقعة هائلة على نهر الخازر انتهت بانتصار إبراهيم بن الأشتر على عبيد الله بن زياد الذي قتل في هذه المعركة، في الوقت الذي أرسل فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أخاه مصعباً(٢) عاملاً على العراق، فواجه فيها المختار بجيشه، واستطاع أن يقضي عليه وعلى ثورته.

وبرغم القضاء عليه لم يُقضَ على فتنة التشيع المجوسي في بلاد العراق، بل ظل التشيع كامناً ينتظر من يثيره لينتفع منه في كل زمان انتفاع المصالح الضالة.

استقر العراق لابن الزبير رضي الله عنه، والذي لم يهنأ به كثيراً؛ حيث توجه إليه الأمويون وهزموه، واستطاعوا أن يخضعوا العراق لهم، وقتلوا مصعب بن الزبير.

٣ـ ثورات الخوارج:

قام الخوارج بثورات هائلة انتهت كلها بالقضاء عليها، وكان قائد جيش الخلافة في معظمها المهلب بن أبي صفرة، والذي استطاع أن يقضي على قوة الخوارج، ويكسر

---

(١) إبراهيم بن مالك بن الأشتر بن الحارث النخعي، أحد أصحاب الفتنة، وأحد قادة جيش المختار الثقفي، وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد، كان أبوه أحد قادة جيش علي رضي الله عنه، واتهم بأنه أحد قتلة عثمان رضي الله عنه. شهد إبراهيم مع المختار وقائعه ومعاركه، وقاد جيوشه في معارك كثيرة، وكان المختار يثق فيه كثيراً ويعتمد عليه، قُتل (سنة ٧١هـ) بعد معركة مع الأمويين انتهت بهزيمته ومقتله. الذهبي/ السير (٤/ ٣٥).

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي أبو عبد الله، ولد (سنة ٢٦هـ)، أمير العراقين لأخيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (سنة ٦٧هـ)، أمه الرباب بنت أُنيف من قبيلة كلب، تابعي جليل فارسٌ شجاع يتصف بصفات الكرم والسخاء حتى سمي لسخائه آنية النحل، تزوج من سكينة بنت الحسين رضي الله عنه.

واجه المختار الثقفي في معارك كثيرة حتى استطاع أن يقتله ويجز رأسه، ثم أعاد النظام إلى العراق بعد فوضى المتلونين دعاة التشيع لآل البيت، وحركات الخوارج المختلفة.

عزله عبد الله بن الزبير رضي الله عنه عن البصرة، ثم أعاده مرة أخرى، وفي (سنة ٧٢هـ) قام عبد الملك بن مروان لإنهاء دخول العراق في حوزته، فقام إليه مصعب، غير أن أهل العراق من البصريين خذلوه كعادتهم، ورغم ذلك خرج مصعب بن الزبير، ودارت رحى الحرب، وعند لقاء الجيشين خذله أهل العراق، وما بقي معه إلا إبراهيم بن الأشتر وقلة قليلة قُتل منهم من قُتل، وفر منهم من فر، وقد قُتل مصعبٌ برمح، ثم احتزوا رأسه، فبكاه عبد الملك بن مروان الخليفة، وقال: والله! ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حبي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم، ثم قال: متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بدفنه. قال عنه الشعبي: ما رأيت أميراً على منبر قط أحسن منه. ابن كثير – البداية والنهاية / الموسوعة العربية. الذهبي/ السير (٤/ ١٤٠).

شوكتهم في مواطن عدة، كما وقعت واحدة من أشد المعارك (سنة ٧٧هـ) استطاع فيها جيش الأمويين أن يقضي على فتنة شبيب بن يزيد الشيباني أبي الضحاك⁽¹⁾ قائد جيش الخوارج، في واحدة من أشد المعارك (سنة ٧٧هـ)، والذي أنزل عدة هزائم ببني أمية، لكنه في النهاية قضي عليه غرقاً.

ظل هؤلاء الخوارج شوكة في جنب الدولة، وبقيت حروبهم متواصلة، وظل المهلب يواجههم حتى استطاع أن يخمد فتنتهم بعد جهد جهيد.

٤ـ ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢ هـ:

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، أحد قادة وأمراء الأمويين، من أشراف أهل الكوفة، وصاحب أشهر ثورة ضد الأمويين في زمانه، لم ترُق له إمارة الحجاج، وفسدت الصلة بينهما، وأدى ذلك إلى خروج عبد الرحمن على الدولة بعد ذلك.

بعثه الحجاج إلى سجستان، فغزا بلاد الترك، فعرض عليه رتبيل ملكُ الترك الجزية، فأبى محمد بن الأشعث ذلك، وظل يقاتل حتى ضم أجزاءً كبيرة من بلاد الترك، وعلم الحجاج بذلك، فأبى على ابن الأشعث فعله، وأمره أن يوقف القتال، وأن يأتمر بأمره، فرفض ابن الأشعث ذلك.

هدد الحجاج ابن الأشعث بعزله وتولية أخيه إسحاق بن محمد الكندي أميراً على الناس، فتشاور ابن الأشعث مع قادة جنده الذين أيدوه، ودعوه إلى خلع الحجاج الذي لقبوه بعدو الله، فعندئذ وقعت ثورة ابن الأشعث، والتي كانت من أشد الثورات على الأمويين؛ مما دفع الخليفة عبدَ الملك بن مروان أن يرسل الجيوش مدداً للحجاج، واستطاع ابن

---

(١) شبيب بن يزيد بن أبي نعيم الشيباني يكنى بأبي الضحاك، رأس الخوارج بالجزيرة الفراتية، فارس زمانه، أرسل إليه الحجاج خمسة قواد بجيوشهم فقتلهم واحداً بعد واحد، ثم سار إلى الكوفة وحاصر الحجاج فاستطاع الحجاج أن يرده عنه، وقتله بعد ذلك بنفسه، وقتل مصاد أخا شبيب، وقتل زوجته غزالة والتي كانت تشهد معه الحروب، فلما دخل الليل، تقهقر شبيب حتى استطاع أن يفر، ثم انتهى به الأمر أن مات غريقاً (سنة ٧٧هـ) وعليه الحديد الذي كان يتقي به في المعارك.

قال الذهبي: وألقاه الماء إلى الساحل ميتاً، وحمل إلى الحجاج فشق جوفه وأخرج قلبه، فإذا داخله قلب آخر. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٦).

وقد قُتلت معه في هذه المعركة أمه التي كانت تقاتل إلى جواره، وزوجته غزالة، وكانت امرأة شديدة البأس خارجية تقاتل قتالاً يعجز عنه الأبطال من الرجال، وكان الحجاج مع هيبته يخاف منها أشد الخوف، حتى قال فيه عمران بن حطان الشاعر :

أسد عليَّ وفي الحروب نعـــامةٌ فتخـاء تنفر من صفير الصافر
هلّا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحيّ طائر

ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ٢٧٦).

الأشعث أن يواجه جيش الأمويين، واقتحم البصرة وهمذان، وبايعه أهلها، وانضم إليه كبار القراء والتابعين، وعلى رأسهم سعيد بن جبير، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، فعظم شأن ابن الأشعث؛ مما دفع الخليفة أن يهدد بخلع الحجاج، وتولية ابن الأشعث مكانه.

دفع ذلك الحجاج أن يواجه ابن الأشعث في معارك كثيرة بلغت أكثر من ثمانين معركة، منها: معركة الزاوية في المحرم (سنة ٨٢ هـ) بالبصرة، والتي انهزم فيها ابن الأشعث، وفر إلى الكوفة، فاستقبله أهلها وبايعوه⁽¹⁾ على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان، فاشتدت شوكته، وظل يناجز الدولة إلى أن كانت آخر معاركه دير الجماجم في شعبان (سنة ٨٢هـ)، وهي معركة عظيمة طال أمدُها حتى انسلخت السنة وهم على قتالهم وحالهم، وكانت نهايتها أن انهزم أصحاب ابن الأشعث، وفروا في كل وجهة، كما فر ابن الأشعث إلى بلاد الترك، وبقي عند ملكها الذي أرسل إليه الحجاج في طلب ابن الأشعث، فغدر رتبيل ملكُ الترك بابن الأشعث، وقيده مع ثلاثين من أتباعه بالحديد، وبعثهم مع رسل الحجاج إليه، فلما كانوا في الطريق، صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفر، فألقى ابن الأشعث بنفسه من ذلك القصر، وسقط معه الرجل فماتا سوياً، وقام رسول الحجاج إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه، وقتل من معه من أصحابه، وأرسل الرؤوس بين يديه إلى الحجاج الذي أمر بأن يطاف بها في العراق، ثم بعثها إلى أمير المؤمنين عبد الملك، فأمر أن يطاف بها في الشام، ثم بعث برأس ابن الأشعث إلى أخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر، فطيف برأسه هناك، ثم دفن بعد أن أحدث فتنة ذهب ضحيتها أكثر من مئة وثلاثين ألف نفس، ووقع فيها علماء وفقهاء وقراء، فأخمد الله بوفاته فتنة عظيمة تبقى عبرة لنا⁽²⁾.

وقام الحجاج بعد ذلك ببناء مدينة واسط⁽³⁾ بين الكوفة والبصرة، واتخذها قاعدة للعراق.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالإمارة وليس من قريش، وإنما هو كنْدي من اليمن، وقد اجتمع الصحابة يوم السقيفة على أن الإمارة لا تكون إلا في قريش، واحتج عليهم الصديق رضي الله عنه بالحديث في ذلك، فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين، فيعزلونه وهو من صليبة قريش – أصل قريش –، ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟!
ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير هلك فيه خلق كثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون. البداية والنهاية: (١٢/ ٣٥٥).

(٢) أحداث سنة اثنتين وثمانين: ابن كثير/ البداية والنهاية – ابن الأثير / الكامل في التاريخ.

(٣) وإليها تنسب العقيدة الواسطية التي كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية طلباً من قاضيها في زمانه رضي الدين الواسطي الشافعي لتكون عمدة له ولأهله.

وهكذا مضت عشرون سنة من حياة الأمة لا تهنأ فيها بالاستقرار والأمن بسبب فتنة الخوارج ومقتل الحسين، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أمد الخليفة عبد الملك بالعزيمة، وثبات النفس، لسارت الأمور إلى أمور أخرى، لقد ولي أمر الأمة وهي في اضطراب واختلاف، فما زال بها حتى جمعها على خليفة واحد، وتركها لولده الوليد على هدوء وطمأنينة بقدر ما استطاع، ولكن كبار الرجال وقادة الأمة الذين أقدموا على عظائم الأمور لم يسلموا من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم، فلكل جواد كبوة، ولكل صارم نبوة.

٥ـ القضاء على فتنة الزنديق المتنبئ الحارث بن سعيد الدمشقي(١):

حدثت فتنة عظيمة أشغلت كثيراً من الناس في زمان الخليفة عبد الملك بن مروان رحمه الله في دمشق الشام، حيث ادعى رجل يُدعى: الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي أنه نبي مرسل من عند الله، وقد أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تفاصيل هذه الفتنة بما ملخصه التالي:

كان الحارث من أهل منطقة يقال لها: الحولة، ونزل وأقام بدمشق الشام، وانشغل بالتعبد والتنسك والزهد، وانخلع من زينة الحياة الدنيا، حتى قيل: إنه لو لبس جبة من ذهب لرُئيت عليه الزهادة والعبادة من شدة تنسكه، وكان إذا أخذ في التحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده، ولا أحسن من كلامه، وكان يجيء لأهل المسجد يريهم الأعاجيب، ومن ذلك: أنه كان ينقر رخامة المسجد الحمراء بيده، فتسبح تسبيحاً بليغاً حتى يضج منه الحاضرون، وكان يطعم الناس فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، ويأمر الناس بالخروج من المسجد قائلاً: سأريكم الملائكة، فيريهم رجالاً على خيل، وذلك بسبب أن زهده وتنسكه على غير هدي النبوة آل به أن رجع القهقرى على عقبه، وانسلخ من آيات الله تعالى، وفارق المسلمين، حزب الناجين، وأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، ولم يزل به يزخ في قفاه حتى أخسره دينه ودنياه، وأخزاه فيهما وأشقاه.

ففُتن به كثير من الناس، وفشا أمره في مسجد دمشق الجامع، وكثر أصحابه وأتباعه.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ٢٨٥-٢٩٠).

ولما بلغ أمره إلى الخليفة عبد الملك بن مروان، أمر بإحضاره بين يديه، غير أن الحارث اختفى منه، وتوجه إلى بيت المقدس، فأرسل الخليفة في أثره، وكتب إلى نائبه على بيت المقدس أن يعين من أرسلهم للقبض على ذلك الدعيّ، فتتبعوا أثره حتى قبضوا عليه، وأخذوه وربطوه وانتهوا به إلى الخليفة، فأمر بحبسه، وأرسل إليه في سجنه جمعاً من العلماء والفقهاء ليعظوه، فأبى الحارث أن يقبل منهم.

ولما يئس الخليفة من عودة الحارث للإسلام، أمر بصلبه، ثم أمر رجلاً يطعنه بحربته، فانثنت تلك الحربة في ضلع من أضلاعه!!!!

فقال الخليفة للرجل: ويحك! أذكرتَ اسم الله حين طعنته؟ قال: نسيت، فقال: ويحك! سَمِّ الله، ثم اطعنه، ففعل الرجل، فأنفذ السهم في جسد الدعيّ ومات، وارتاح الناس من فتنة عظيمة اتبع صاحبها الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٢].. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ [الجن:٦].قال العلاء بن زياد العدوي: ما غبطت عبد الملك بشيء من ولايته إلا بقتله حارثاً، فلقد حُدِّثت أن رسول الله قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، فمن قاله فاقتلوه، ومن قتل منهم أحداً فله الجنة»(١).

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله». وروايات الحديث تترى رواها غير واحد من أئمة السنة.

- **تنقيط المصحف:**

لعل من أجلّ ما قام به عبد الملك بن مروان في خلافته أنه أمر الحجاج بن يوسف أن يشكل لجنة برئاسته لضبط المصحف الشريف، وذلك بسبب كثرة اللحن من العجم في تلاوة القرآن، فقام الحجاج وجمع إليه يحيى بن يعمر⁽١⁾ وتلميذه نصر بن عاصم⁽٢⁾ ثم وضعوا جميعاً نقط الإعجام لأحرف القرآن الكريم، كما قاموا بتقسيم القرآن إلى ثلاثين جزءاً والجزء إلى حزبين والحزب من أربعة أرباع.

وكان أبو الأسود الدؤلي⁽٣⁾ قد قام من قبل بتنقيط المصحف نقط الإعراب، فكان يجعل نقطة أمام الحرف علامة على الضمة وفوقه علامة للفتحة وتحته للكسرة، ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد⁽٤⁾ فوضع علامات الإعراب - تشكيل الأحرف بالحركات - على هيئة إشارة فوق الحرف تدل على الفتحة وتحته تدل على الكسرة ومن فوقه واو صغيرة تدل على الضمة، ثم وضع علامات التنوين وغيرها من العلامات التي استقر عليها المصحف إلى زماننا هذا، فجزاهم الله عن كتابه وعن المسلمين خيراً.

---

(١) أبو سليمان يحيى بن يعمر العدواني البصري، من أعلام التابعين، قارئ من فضلاء الناس وعلمائهم، حدث عن جمع من الصحابة منهم: عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأبو هريرة ﷺ، كان أحد فصحاء العرب، وأخذ العربية وقرأ القرآن على أبي الأسود الدؤلي، توفي في خراسان سنة ١٢٩هـ. المزي/ تهذيب الكمال (٨/ ١٠٧).

(٢) هو نصر بن عاصم الليثي من قبيلة كنانة، كان فقيهاً فصيحاً عالماً بالعربية أخذها عن أبي الأسود الدؤلي، يعد من علماء النحو المبرزين في زمانه، ويقال: إنه أول من نقط الحروف في اللغة العربية، وينسب إليه ترتيب الحروف الهجائية العربية لتسعة وعشرين حرفاً ونقطها ليفرق بين المتماثلات، وقد رتبها بحسب تشابهها في الرسم، وكان ذلك بأمر من الحجاج، توفي في سنة تسعين هجرية. ابن حجر/ تهذيب التهذيب (٤/ ٢١٧).

(٣) ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني، من سادات التابعين وفقهائهم نحوي عالم، وضع علم النحو وقواعد اللغة العربية، وقام بتنقيط المصحف نقط الإعراب، توفي (سنة ٩٦هـ). الذهبي/ السير (٤/ ٨١).

(٤) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، من أئمة اللغة والأدب، وضع علم العروض ولد في سنة مئة بالبصرة، تلقى على يديه العلم العديد من العلماء، منهم: سيبويه، والأصمعي، والكسائي، وحدث عن أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، توفي (١٧٣هـ) بالبصرة. الذهبي/ السير (٧/ ٤٢٩).

الخليفة السادس: الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ: ٩٦ هـ):

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة خمسين للهجرة، من أشهر ما وقع في عهده: الإصلاحات العظيمة التي قام بها في شؤون الدولة المختلفة، وكانت خلافته غرة في جبين الدهر، وكان يميل إلى العمران، فاهتم بإصلاح الطرق في أنحاء الدولة، وبخاصة في الحجاز، كما قام بحفر الآبار، وقام ببناء جامع دمشق الكبير الأموي، وقام ببناء مسجد قبة الصخرة ببيت المقدس، وقام بتوسعة الحرمين الشريفين، وأنشأ المستشفيات، وحجر على المجذومين سؤال الناس، وجعل لهم العطايا من بيت المال، ومنح كل مُقعدٍ خادماً، وكل ضرير أعمى قائداً، فكان محسناً إلى رعيته، متواضعاً، باذلاً لهم العطايا، حافظاً لهم عهدهم.

وقد اشتهر في زمانه أربعة قواد عظام من قادة هذه الأمة كان لهم الأثر العظيم في الفتوحات الإسلامية، وهم: محمد بن القاسم الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، ومَسلَمَة بن عبد الملك بن مروان⁽١⁾.

فتتابعت الفتوحات في عهده، وبلغت الأندلس غرباً على يد موسى بن نصير وطارق ابن زياد، واستنقذ الله بهم شعوباً من الكفر، وأدخلهم الإسلام، كما فتحت بلاد ما وراء النهر والترك حتى بلغت جيوشه الصين التي استطاع قتيبة بن مسلم القائد الأموي من دخولها، وبلغ أرض كاشغر، وأرسل إلى ملك الصين يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال، وانتهى الأمر بدفع الجزية⁽٢⁾.

---

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ولد (سنة ٦٦هـ)، أحد أمراء بني أمية وقادتها العظام، كان يلقب بفارس بني أمية، كان أبوه عبد الملك من أبرز خلفاء المسلمين، وكان ولده مسلمة من أكثر الناس تأثراً به، قاد غزوات وفتوحات مختلفة وخاصة مع الروم في حصن مصيصة فتح حصوناً عدة منها: حصن عمورية، وافتتح هرقلة، وقمونية، كما غزا بلاد الترك حتى بلغ باب الأبواب ناحية داغستان، وظل كذلك في غزواته في بلاد الترك والروم حتى افتتح حصن سندرة قريباً من القسطنطينية، وهو من أعظم حصون الروم.

ثم توج جهاده بغزو القسطنطينية بعد أن ولاه أخوه سليمان بن عبدا لملك الخليفة قائداً على جيوش الفتح، فسار إليها وافتتح المدن التي كانت في طريقه إلى القسطنطينية حتى وصل إلى هناك، فظل محاصراً لها لسنوات حتى توفي الخليفة سليمان بن عبد المك وتولى عمر بن عبد العزيز من بعده، فأرسل إلى مسلمة أن يرجع بالجيش، وأن يرفع الحصار بعد أن استعصت عليه حصونها.

ظل مسلمة بن عبد الملك قائداً وغازياً طوال حياته حتى توفي في سنة إحدى وعشرين ومئة هجرية بالشام، ودفن في موضع يقال له: الحانوت عن عمر ناهز الرابعة والخمسين. الموسوعة الحرة - الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية (١٣/ ١٠١-١٠٥).

(٢) ذكر ابن الأثير أن ملك الصين كتب يسأل قتيبة أن يبعث إليه رجلاً من أشراف قومه ليحدثه عن العرب ودينهم، فأرسل له قتيبة عشرة رجال ممن تتوافر فيهم البلاغة والعقل والصلاح، وأوصاهم أن يخبروا ملك الصين بأنه - أي قتيبة - أقسم بأن لا ينصرف عن بلادهم إلا بعد إخضاعها للمسلمين، وأن يعترف ملوكهم بالسيطرة الإسلامية، وأن يدفعوا الجزية، وقد أتم الرسل المهمة، ومضى قتيبة بن مسلم قدماً حتى وصل إلى حدود الصين (٩٦هـ) على رأس جيش كبير، ولكن وهو في الطريق وصله نبأ وفاة الوليد بن عبد الملك، فلم يتراجع عن مواصلة الغزو حتى أصبح على مقربة من الصين، ودارت =

كما بلغت جيوشه الهند، فكانت أولى المحاولات لفتحها في (سنة ٩٣هـ) على يد القائد الأموي محمد بن القاسم، كما تم استقرار شمال أفريقية.

الخليفة السابع: سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ: ٩٩ هـ):

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة أربع وخمسين للهجرة، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد بن عبد الملك، واستهل خلافته باستمرار الفتوحات في عهده، وقد أرسل جيشاً عدده مئة وعشرون ألفاً من جهة البر، ومئة وعشرون ألفاً من جهة البحر، وثمان مئة سفينة حربية، أرسلهم بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ليحاصر القسطنطينية الحصار الثالث في (سنة ٩٧هـ).

وقد تابع سليمان بنفسه هذه المحاولة، واتخذ من مدينة دابق شمالي الشام مركزاً له حتى يكون قريباً، وأقسم ألا يعود حتى تفتح القسطنطينية، أو يتوفاه الله.

حاصر الجيش مدينة القسطنطينية، فاستعصت عليه بحصونها الحصينة، واشتد البرد على الجيش، كما ساهمت النار الإغريقية التي استعملها الروم في حرق معظم سفن المسلمين، فلما توفي الخليفة، وبويع لخلفه عمر بن عبد العزيز، أرسل إلى الجيش أن يعود إلى الشام، فكانت هذه آخر محاولات فتح القسطنطينية في العهد الأموي.

وكان سليمان بن عبد الملك قد عهد بالخلافة قبل وفاته لعمر بن عبد العزيز، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتوفي بمدينة دابق باراً بقسمه، يوم الجمعة من شهر صفر لسنة (٩٩هـ).

= بينه وبين ملك الصين مراسلات، وقد قال ملك الصين للوفد الذي أرسله قتيبة: انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له لينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه.

فقال له هبيرة-أحد رجال الوفد من المسلمين- : كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أولَ خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون (يقصد الأندلس)؟ وكيف يكون حريصاً من خلَّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها الله بالقتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فأجابه ملك الصين: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال هبيرة: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطى الجزية، فقال الملك: فإننا نخرجه من يمينه: أبعث إليه بتراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها. ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة، فقبلَ الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب ثم عاد إلى مرو.

وقد قُتل قتيبة (سنة ٩٦هـ) وكان ذلك خسارة كبرى للمسلمين، فهو يُعد من أعظم قوَّاد الفتح الإسلامي. الكامل في التاريخ (ص:٢٣٠-٢٣١).

الخليفة الثامن: عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ: ١٠١ هـ):

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان، ولد سنة اثنتين وستين للهجرة، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

استهل خلافته بخطبة جاء فيها بعد أن حمِد الله وأثنى عليه: أيها الناس! من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فليفارقنا:

١ـ يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها. ٢ـ ويعيننا على الخير بجهده.

٣ـ ويدلنا من الخير على مالا نهتدي إليه. ٤ـ ولا يغتابنّ عندنا أحداً.

٥ـ ولا يعرضن في ما لا يعنيه.

فلما سمع الناس منه ذلك، انصرف عنه الشعراء، وثبت معه العلماء والفقهاء.

كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله صالحاً في نفسه وفي رعيته، وأخذ الناسَ بالرفق والموعظة، وكان قدوة حسنة، وقد اجتهد في مدة ولايته برغم قصرها بردِّ المظالم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وأعطى المسلمين ولم يمنعهم، وانتشر العدل في زمانه، حتى قيل عنه: خامس الخلفاء الراشدين، وكان يكتب المواعظ إلى عمّاله، ومنها: أنه كان يأمرهم باجتناب الانشغال بالأعمال عند حضور الصلاة، فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أضيعُ.

كما أمر ببناء المساجد وتعهدها والاهتمام بها، ومن ذلك: مسجد سوق الخميس ذي المنارتين بجزيرة أوال بالبحرين⁽¹⁾.

وكان العلماء من السلف ـ ومنهم أحمد بن حنبل ـ يرون فيه أنه المجدد الذي بعثه الله على رأس المئة الثانية لهذه الأمة، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يجددُ لها دينها»⁽²⁾.

---

(١) خليفة النبهاني/ التحفة النبهانية (ص:٦١).

(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة بسند صحيح (٣/ ٨٠٩/ ح:٤٢٩١)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٤٨/ ح:٥٩٩).

وفي عهده كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام، وكانت سيرته الحسنة قد بلغتهم، فأسلموا، وتسمَّوا بأسماء العرب.

وحضرته الوفاة في الخامس والعشرين من رجب سنة إحدى ومئة للهجرة. رحمه الله رحمةً واسعة.

الخليفة التاسع: يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ: ١٠٥ هـ):

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة خمس وستين للهجرة، وعهد إليه أخوه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز، فلما توفي عمر، بويع له، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة.

وقع في زمانه ثورة يزيد بن المهلب (سنة ١٠١هـ)(١)، ولجأ إلى أهل العراق الذين لا همَّ لهم إلا التحمسُ مع الثوار، وإذا رأوا من خصومهم قوة انفضوا عنهم، وهذا الذي جرى معه، إذ أن مسلمة بن عبد الملك جاءه على رأس جيش عظيم قوامه مئة وعشرون ألف مقاتل، دارت بينه وبين يزيد رحى الحرب، فلما رأى أهل العراق، وهم غالبُ جيش يزيد بن المهلب أن كفة الأمور في صالح الجيش الأموي، فروا عن يزيد الذي قتل في النهاية، وحملت رأسه إلى الخليفة.

ويعتبر القضاء على ثورة يزيد بن المهلب هي أهم الإنجازات في عهد يزيد بن عبد الملك.

---

(١) يزيد بن المهلب بن أبي صفرة: أبو خالد، ولد زمن معاوية سنة ثلاث وخمسين، أحد قادة الدولة الأموية الكبار، ولي المشرق بعد أبيه، ثم ولي البصرة لسليمان بن عبد الملك، له أخبار في السخاء والشجاعة، تزوج الحجاج من أخته، وطلبه عمر بن عبد العزيز ورده من إمارة خراسان وسجنه حتى مات عمر.

كان سخياً للغاية، وفي نفسه كبر وتيه، وهو الذي رآه مطرف بن الشخير رضي الله عنه يسحب حلته، فقال له: إن هذه مشية يبغضها الله. قال: أوما تعرفني؟!. قال: بلى: أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة.

وكان الحسن البصري يقول في فتنة يزيد بن المهلب: هذا عدو الله يزيد بن المهلب؛ قُتل عن تسع وأربعين سنة.

قال الذهبي: ما زال يحمل نفسه في الألوف، وقاتل قتالاً عظيماً، لا لجهاد، بل شجاعة وحمية، نعوذ بالله من هذه القتلة الجاهلية. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٣).

الخليفة العاشر: هشام بن عبد الملك (١٠٥ هـ:١٢٥ هـ):

هو هشام بن عبد الملك بن مروان، عاشرُ الأمويين، وسابعُ المروانيين، ولد بدمشق سنة اثنتين وسبعين للهجرة.

اتسعت الدولة في عهده اتساعاً عظيماً، حارب البيزنطيين، ووصلت جيوشه إلى بواتيه جنوب فرنسا، ففي عهده كانت معركة بلاط الشهداء.

انتشرت في عهده فتن وثورات في مناطق متعددة من الدولة(١)، وكعادتهم قام الخوارج من ناحية، والشيعة من ناحية، والبربر في المغرب، واضطربت الأحوال في بلاد ما وراء النهر، فوفقه الله للقضاء على ذلك جميعاً.

اتخذ هشام من مدينة الرصافة مقراً صيفياً لعاصمة الخلافة على نهر الفرات، كما اهتم بالدواوين، وقرَّب العلماء، وقام بتجديد الإصلاحات الزراعية، وزادت مساحة الأرض الزراعية على ضفاف الأنهار في جميع أنحاء الدولة، كما أن عهده يعتبر عهدَ أمان وأمن في بلاد الشام.

قال عنه الحافظ ابن كثير: تولى أمر الخلافة، فقام بأمر الخلافة أتم قيام.

كان يستعمل أبناءه في الجهاد بأرض الروم، وخاصة معاوية، وسليمان، كما استعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك في الجهاد، فكانت له صولات وجولات تذكر بالرعيل الأول، وقد منع الأعطيات عن بني مروان حتى يجاهدوا في سبيل الله.

قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس: جمعت دواوين بني أمية، فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة من ديوان هشام، ويقصد بذلك: ديوان الخراج.

وكان نقش خاتمه: الحكم للحكم الحكيم، ويعتبر هو آخر الخلفاء الأقوياء في بني أمية.

---

(١) وكانت أشهر الثورات ثورة زيد بن علي بن الحسين الذي لم يأخذ العبرة مما حدث مع جده الحسين رضي الله عنه، وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة أهل غدر ولا يعتمد عليهم، فلم يأخذ بنصح الناصحين، وبلغت الأخبار يوسف بن عمر الثقفي الوالي على العراق، فتهيأ للأمر، فلما علم أهل الكوفة بذلك أرادوا أن يتملصوا من عهدهم مع زيد، فأتوا إليه وسألوه: ما قولك في أبي بكر وعمر؟ قال: رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً، وقد عدلوا في الناس، وعملوا بالكتاب والسنة، فعندئذ فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام، يعنون: محمداً الباقر، وكان قد مات، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسماهم زيد: الرافضة، ولم يأته في الليلة التي اتفقوا معه على الخروج فيها أكثر من مئتي نفس، وانتهى الأمر بقتل زيد، وإليه تنسب الشيعة الزيدية.

قال الحافظ ابن كثير(١): لما مات هشام بن عبد الملك، مات ملك بني أمية، وتولى وأدبر أمرُ الجهاد في سبيل الله، واضطرب أمرهم جداً، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحو سبع سنين.

الخليفة الحادي عشر: الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ هـ: ١٢٦ هـ):

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، ولد سنة تسعين للهجرة، ويلقب بالوليد الثاني، وأيضاً بأبي العباس، تولى بعد عمه هشام بن عبد الملك.

قيل فيه أقوال كثيرة، وقد مقته الناس لفسقه، وتأثموا من السكوت عنه، وخرجوا عليه، ولم يصح عنه كفر ولا زندقة، واشتهر بشربه للخمر، ولم يبق في الخلافة سوى سنة وشهرين، وقتل وعمره ستٌّ وثلاثون سنة في (سنة ١٢٦هـ)، ونقل أعداء الأمويين كالمسعودي واليعقوبي عنه أخباراً سيئة كعادتهم مع أهل السنة.

ولا شك أنه كان أحد الأسباب التي أدت في النهاية إلى زوال ملك بني أمية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦].

الخليفة الثاني عشر: يزيد بن الوليد بن عبد الملك (١٢٦ هـ:١٢٦ هـ):

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة ثمانين للهجرة، أمه أم ولد – جارية – اسمها: شاه آفرد بنت فيروز بن يزدجرد بن شهريار(٢).

اشتد في زمانه الخلاف والشقاق بالشام، وكان الأمر أشد من ذلك بالعراق والمشرق، ووقعت العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب: اليمانية، والنزارية، وأصبحت بلاد خراسان مرعى لدعاة بني العباس، ولم يكن عند يزيد بن الوليد ما يمكنه من سد هذه الثلمة المؤذنة بانحلال الدولة.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (٩/ ٣٨٧).

(٢) ذكر الذهبي في السير أن قتيبة بن مسلم غزا ما وراء النهر، فظفر بابنتي فيروز ابن كسرى يزدجرد، فبعث بهما إلى الحجاج، فبعث منهما بشاه آفرد إلى الوليد، فولدت له يزيد، وجدة فيروز هي بنت خاقان ملك الترك، وأم أمه ابنة قيصر عظيم الروم، وأم شيراويه هي بنت خاقان ملك الترك فكان يفتخر ويقول: أنا ابن كسرى وأبي مروان...... وقيصر جدي وجدي خاقان، ولعل هذه هي القصة الحقيقية المشهورة لبنات كسرى يزدجرد، لا القصة التي اختلقها الرافضة عما يسمى بشهربانو، وأن الحسين رضي الله عنه تزوج منها وأنجبت له علياً زين العابدين. (٥/ ٣٧٥).

اشتهر يزيد هذا بالصلاح، ولكنه اختلفت عليه كلمة بني مروان برغم أنه أراد أن يسير فيهم بسيرة عمر بن عبد العزيز، وقد خطبهم قائلاً عندما قتل الوليد: إني ـ والله ـ ما خرجت أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي، ولكن خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين درست معالم الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار المستحلُّ للحرمة، والراكب البدعة ـ يقصد: الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ، فأشفقت إذ غشيتكم ظلمة ألا يقلع عنكم من ذنوبكم، وأشفقت أن يدعو أناساً إلى ما هو عليه، فاستخرت الله، ودعوت من أجابني، فأراح الله منه البلاد والعباد.

ذكر الذهبي في السير أن يزيد قال يوماً للناس: يا بني أمية! إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وينوب عن الخمر.

لم تدم دولة يزيد ستة أشهر حتى انتشر الطاعون بدمشق، فتوفي في يوم الأضحى لسنة ست وعشرين ومئة بدمشق، ودفن بها.

الخليفة الثالث عشر: إبراهيم بن الوليد (١٢٦هـ: ١٢٧ هـ):

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، المكنى بأبي إسحاق الأموي، تولى من بعد أخيه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، والذي بقي يسلم عليه تارة بالخلافة، وتارة بالإمارة لسبعين ليلة، ثم خُلع؛ لذا لا يعده بعض المؤرخين خليفة حقيقياً.

عاش إلى (سنة ١٣٢هـ) في السجن بعد أن أقبل مروان بن محمد في ثمانين ألفاً وخلعه، وقد قتل إبراهيم في يوم الزاب الذي انقضى فيه مُلك بني أمية على يد بني العباس.

الخليفة الرابع عشر: مروان بن محمد (١٢٧ هـ: ١٣٢ هـ):

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وأمه أم ولد كردية، ولد سنة سبعين هجرية، كان والياً على الجزيرة وأرمينيا، ولقبه الناس بالجعدي؛ لأن مؤدبه الجعدَ بنَ درهم علمه القول بالقدر وخلق القرآن.

بويع له بالخلافة بعد انتصاره على إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك (سنة ١٢٧هـ)، وكانت فترة حكمه كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ أن بويع إلى أن قتل، ولقد صمد لكثير منها، وخاض معارك متعددة، لذا لقب بالحمار لشدة تحمله في الحروب.

خرج عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً إلى نفسه(١)، وقد تخلى أيضاً عنه أهل الكوفة، فنفاه والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز عن العراق.

كما انتفض على مروان أهل حمص، فحاربهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وخالفه أيضاً أهلُ الغوطة، وثاروا عليه، فحاربهم وانتصر عليهم.

كما خرج عليه أهل فلسطين، فصال وجال معهم في وقائع عدة انتصر في نهايتها.

وثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، والذي أراد خلع مروان، وسار بإخوته ومواليه لخلع مروان، ووقعت بينهم حرب ضروس انهزم فيها سليمان وجنده، وأسر مروان منهم عدداً كبيراً وقتلهم، ووصل سليمان إلى حمص، فاجتمعت عليه الفلول، وقصده مروان، فترك حمص وسار إلى تدمر وأقام بها، وأما مروان فأتى إلى حمص واستولى عليها.

واستغل الخوارج كعادتهم الفرصة لإظهار مافي أنفسهم، وانحاز إليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وتزوج من أخت شيبان بن عبد العزيز اليشكري أحدِ قادتهم.

---

(١) اشتهر بعبد الله الطالبي، خرج على بني أمية بالكوفة، وطلب الخلافة وبايع له بعض أهلها وخلعوا طاعة بني أمية، كما أرسل إليه أهل المدائن بيعتهم.
كان شجاعاً وشاعراً اتهم بالزندقة، انتهى أمره بالقتل بأمر أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين في (سنة ١٣١هـ).
وهو صاحب البيت المشهور: وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا. الزركلي / الأعلام.
وشاء الله تعالى أن ينتصر عليه القائد الأموي عامر بن ضبارة، وأن يأسر من أصحابه أربعين ألفاً كان منهم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، فقال له ابن ضبارة: ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لأمير المؤمنين مروان؟ فقال:كان علي دَيْنٌ فأتيته، ثم استعلم ابن ضبارة منه عن أخبار ابن معاوية، فذمه عبد الله ورماه هو وأصحابه باللواط، وجيء من الأسارى بمئة غلام عليهم الثياب المصبغة المزركشة كثياب النساء. فبعثه ابن ضبارة إلى الخليفة مروان، فأخبره عبد الله بذلك. وقد كتب الله عز وجل أن زوال ملك مروان وبنيه يكون على يد هذا الرجل - أي: عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس -، ولا يشعر واحدٌ منهما بذلك. ابن كثير/ البداية والنهاية/ بتصرف (١٣/ ٢٣٣).

تولى أمر الخوارج سعيدُ بن بهدل الشيباني(١) ـ وكان معه الضحاكُ بن قيس الشيباني(٢) ـ بعد مقتل الوليد بن يزيد، وقصد العراق، فمات في طريقه قبل أن يستفحل أمره، وتولى من بعده الضحاك بن قيس الشيباني، وأتى الكوفة، واستولى عليها من يد أميرها عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز الذي فر إلى واسط، فتبعوه، واضطر أن يستسلم إلى الضحاك، ثم مضى الضحاك، ودخل الموصلَ في الوقت الذي كان مروان محاصراً لحمص، فكتب إلى ولده عبد الله والي الجزيرة أن يسير بمن معه ليمنع الضحاك، فسار إليه في سبعة آلاف، وسار إليه الضحاك في مئة ألف، ولما انتهى مروان من أمر حمص، سار بنفسه للضحاك، فوقع بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك.

بايع الخوارج من بعد الضحاك لرجل يقال له: الخيبري، والذي حمل على مروان في معسكره، واستطاع أن يحقق نصراً مؤقتاً، غير أن الأمر لم يدم له؛ إذ أن عبيد ورجال مروان تمكنوا من قتل الخيبري ورجاله، وانتهت بذلك فتنة الضحاك والخيبري.

لم تنتهِ فتنة الخوارج عند هذا الحد؛ إذ أنهم بايعوا لشيبانَ بنِ عبد العزيز اليشكري(٣) والذي أعاد ترتيب الصفوف، واستمع إلى نصيحة صهره سليمان بن هشام أن ينحاز إلى الموصل، ويجمع أهلها لمواجهة مروان، فأرسل مروان إلى قائده يزيد بن عمر بن هبيرة(٤) يأمره أن يسير بمن معه من الجيش من قرقيسيا إلى العراق، وأن يخضعه للدولة، ويستنقذه من أيدي الخوارج الذين تولوا عليه، فخاض ابن هبيرة معارك عدة بالعراق مع قادة الخوارج في المناطق المختلفة حتى استطاع أن يخضع العراق له، ثم سيّر جيشاً

---

(١) سعيد بن بهدل الشيباني، ثائر خارجي من الحرورية، خرج في مئتين من أهل الجزيرة الفراتية بينهم الضحاك بن قيس الشيباني بعد مقتل الوليد بن يزيد (سنة ١٢٦هـ)، وقصد العراق، فمات في طريقه قبل أن يستفحل أمره. ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (حوادث ١٢٧هـ/ ٤٤٠) - الزركلي/ الأعلام (٣/ ٩٢).

(٢) الضحاك بن قيس الشيباني، زعيم خارجي حروري من الشجعان الدهاة، خرج على الدولة مع سعيد بن بهدل (سنة ١٢٦هـ)، ولما توفي سعيد خلفه الضحاك في قيادة الخوارج، وبايعوا له، كان من علماء الخوارج، وسمي بملك العراق، قتله مروان بن محمد (سنة ١٢٨هـ) الخليفة الأموي. ابن الأثير/ الكامل (٣/ ٤٤٠-٤٤١) - الزركلي/ الأعلام(٣/ ٢١٤).

(٣)شيبان بن عبد العزيز اليشكري الحروري: من أمراء الخوارج وشجعانهم، تولى الإمارة فيهم سنة (١٢٨هـ)، واجه مروان بن محمد في مردين، وكان معه أربعون ألفاً، ثم انصرف إلى الموصل، وانضم أهلها إليه، فتبعه مروان بن محمد، ففر الخوارج إلى البصرة والبحرين وعمان بعد عدة معارك، وقد قتل شيبان في عمان (سنة ١٣٤هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٣/ ٤٥٠) - الزركلي/ الأعلام (٣/ ١٨٠)، محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: السفاح (ص:٩٨).

(٤) يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، يكنى بأبي خالد، كان من فرسان بني أمية الشجعان وأمرائهم كما كان أبوه كذلك؛ تولى قنسرين أيام الوليد بن يزيد، وتولى على العراق لمروان بن محمد، واجه الخوارج في معارك عدة وانتصر عليهم، كما حارب أنصار العباسيين، غير أنه هُزم من قواتهم وتحصن بواسط ولم يتمكن العباسيون من هزيمته، فكتب إليه بالأمان والصلح، ثم نقض الخليفة السفاح ذلك العهد، وقتلوه (سنة ١٣٢هـ). الذهبي/ السير (٦/ ٢٠٧).

بقيادة عامر بن ضبارة المري(١) إلى شيبان، فبلغ الخبر إلى شيبان، فسار بجيشه نحو فارس، فلحق به شيبان، والتقى بهم في مكان يقال له: جيرفت، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة فر على إثرها شيبان مع بعض خاصته إلى ساجستان حيث هلك بها (سنة ١٣٠هـ).

كما خرج على مروان المختارُ بن عوف الأزديُّ الشهير بأبي حمزة(٢)، وذلك في (سنة ١٢٩هـ) حيث الناس وقوفٌ بعرفة، إذ خرجت عليهم أعلامٌ وعمائمُ سود على رؤوس الرماح، مما أفزع الناس، ووقفوا بعرفة، ثم استولوا على مكة والمدينة، وكانوا قد أقبلوا في أعداد من اليمن.

ثم بعد أن استقر الأمر لأبي حمزة بالمدينة سار نحو الشام، فسير له مروان جيشاً في أربعة آلاف فارس بقيادة عبد الملك بن محمد السعدي(٣) الذي سار حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى، فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه، ثم سار إلى المدينة، فأقام بها شهراً، ثم سار إلى اليمن ليقضي على عبد الله بن يحيى(٤) حليفِ أبي حمزة، فقتله وحمل رأسه إلى الشام.

كل هذه الفتن بالشام والحجاز شغلت الخليفة مروان عما كان يجري في خراسان من الدعوة لملك بني العباس، ولقد استطاع داعية بني العباس مولاهم أبو مسلم الخراساني(٥) أن

---

(١) عامر بن ضبارة أبو الهدام الغطفاني ثم المري من أهل حوران، قائد أموي من شجعان العرب وفرسانهم وفتاكهم، أحد قادة الدولة الأموية في زمان الخليفة مروان بن محمد، قاتل في معارك متعددة ضد الخوارج كما استطاع أن ينتصر على عبد الله بن معاوية بن جعفر، وقُتل في رجب (سنة ١٣١هـ) على يد الثوار العباسيين في أصبهان. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٢) المختار أبو حمزة الخارجي: المختار بن عوف بن عبد الله بن يحيى بن مازن السليمي الأزدي العماني الشاري، من أعلام الإباضية الخوارج، يكنى بأبي حمزة الشاري، ولد بقرية مجز بعمان، وانتقل إلى البصرة، ودرس على يد أبي عبيدة مسلم والذي أرسله مدداً لعبد الله بن يحيى في اليمن، فأفسد في الأرض كثيراً، ومر بمكة فدخلها في يوم عرفة، ودخل المدينة، حتى قُتل عند مواجهته لقائد الأمويين عبد الملك بن محمد السعدي بوادي القرى، فكانت نهايته (سنة ١٣٠هـ). الحافظ ابن كثير - البداية والنهاية / محمود شاكر - تاريخ الإسلام - الزركلي/ الأعلام (٧/ ١٩٢).

(٣) عبد الملك بن محمد بن عطية بن عروة السعدي من بني ملان بالناصرة، أحد قادة الأمويين، قاتل الخوارج في عهد مروان بن محمد، وانتصر عليهم في مكة، ثم توجه إلى اليمن لقتال عبد الله بن يحيى الحضرمي وانتصر عليه وأرسل رأسه إلى مروان وقضى على فتنتهم، ومكث بصنعاء زمناً حتى أمره الخليفة مروان بتولي إمارة الحج، فسار إلى مكة ومعه أربعون ألف دينار واثنا عشر من أصحابه، فخرج عليه في الطريق قوم من مراد، وقتلوه ومن معه وأخذوا ما معه من المال. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٤) عبد الله بن يحيى بن عمرو الكندي، ولد في حضر موت، وأصله من قبيلة كندة، فقيه وقاضٍ، وأحد علماء الخوارج الإباضية باليمن، خرج على الأمويين فلقبه الخوارج بالإمام طالب الحق، قام بثورة عظيمة في اليمن على الوالي الأموي إبراهيمٍ بن جبلة الكندي، وحبسه ونهب أموال بيت مال المسلمين، ثم توجه إلى الحجاز (سنة ١٢٨هـ) وبسط سيطرته عليها وعلى اليمن إلى أن أرسل إليه مروان بن محمد جيشاً استطاع أن يواجهه، وقُتل بالطائف (سنة ١٣٠هـ)، ويعد أول أئمة الخوارج الإباضية في اليمن. الزركلي/ الأعلام (٤/ ١٤٤).

(٥) أبو مسلم الخراساني: عبد الرحمن بن مسلم، ويقال عبد الرحمن بن عثمان بن يسار الخراساني، كان ذا شأن عجيب ونبأ غريب، ذهب على حمار من الشام وعمره تسعة عشر عاماً داعية لبني العباس في خراسان، فملكها بعد تسعة أعوام، وعاد منها بكتائب أمثال الجبال ليقلب دولة بني أمية ويقيم دولة بني العباس بقدر الله تعالى.

فارسي الأصل ولد في سنة مئة هجرية، واختلف في مكان مولده، وأكثر ما قيل إنه ولد بالبصرة،كان من موالي العباسيين وموضع ثقتهم، أرسلوه إلى خراسان داعية لهم، فحقق نجاحاً واسعاً، قتل في (سنة ١٣٧هـ) على يد أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٦/ ٤٨).

يأخذ البيعة من أهل خراسان لبني العباس، وشيئاً فشيئاً امتد سلطانهم حتى استطاعوا أن يسيطروا على العراق، وفي شهر ربيع الأول (سنة ١٣٢هـ) بويع لأبي العباس السفاح كأول خليفة للدولة العباسية بالكوفة التي كانت وما زالت مأوى للدسائس والفتن، وشرّاً وبليةً على أمة الإسلام، وتقدم مروان ليقضي على هذه الفتنة، ولكنه لم يلبث أن أدرك جيشاً لبني العباس على رأسه عبدُ الله بن علي عمُّ السفاح(١)، فدارت بينهما رحى معركة الزاب، وكانت موقعة عظمى بين الفريقين، والتي انتهت بهزيمة الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد، والتي قُتِل فيها من جنده عددٌ كبيرٌ، وصار مروان ينتقل من مكان إلى آخر والعباسيون يتبعونه، فلما جاز أرض الشام قاصداً مصر، ظفروا به هناك فقتلوه في ذي الحجة (سنة ١٣٢هـ)، وحُزَّت رأسه وحُملت للخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح، وقد مضت معه أيام تلك الدولة العظيمة التي كانت غرةً على جبين الدهر.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران:٢٦].

---

(١) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور، من مؤسسي الدولة العباسية ودهاة قريش، كان بطلاً شجاعاً مهيباً جباراً سفاكاً للدماء، انتصر على مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، واستطاع أن يخضع الشام للعباسيين، وأصبح أميراً عليها كأول وال عباسي لها، توفي في (سنة ١٤٧هـ). الذهبي / السير (٦/ ١٦١).

البَحْرَيْنُ

فِي عَهْدِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ

٤١هـ ـ ١٣٢هـ

ٱلْفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

سُقُوط
ٱلْخِلَافَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ

أسباب سقوط الخلافة الأموية

١ـ الصراعات والثورات والحركات المناوئة للأمويين:

عانت الخلافة الأموية من الصراع مع الجماعات والفرق المنحرفة التي بث بذرتها عبد الله بن سبأ، وتعاظمت في مراحل مختلفة من تاريخ هذه الأمة، فلقد وقعت وقائع عظام داخل الدولة من الخوارج، وممن يطالب بأحقية البيت الهاشمي بالخلافة، بل لا يكاد يخلو عصرُ خليفةٍ أموي من صراعات داخلية، إلا عصر الوليد بن عبد الملك، وعمر ابن عبد العزيز، وبرغم ذلك تماسكت الدولة الإسلامية الأموية التي تميزت بأنها دولة حربية، استطاعت برغم الصراعات الداخلية أن تستمر في الفتوحات بالشرق والغرب، حتى بلغت دولة الإسلام في عهدهم مالم تبلغه في عهد دولة أخرى، ولا شك أن ذلك بفضل الله تعالى، ثم بحسن تدبير الخلفاء لأمور الدولة، واختيارهم قادة عظاماً خاضوا تلك المعارك، والذين استطاعوا في فترتهم أن يجعلوا للدولة هيبة، غير أنها بدأت تنهار شيئاً فشيئاً عند نهايتها، وذلك لأسباب عدة، منها: هذا الصراع مع الفرق المنحرفة، والحركات الثورية، سواء من الخوارج، أو من حركات فردية كحركة الكرماني(١)، وحركة الحارث بن سريج(٢)، وحركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، بدعوى أحقية آل البيت بالخلافة.

٢ـ تعلق بعض الولاة بالحياة الدنيا، والانغماس في حياة الترف، والانصراف إلى المباحات والتوسع فيها، وكان ذلك من بعضهم في بعض المناطق مثل خراسان.

---

(١) جديع بن علي شيخ خراسان أحد الدهاة، ولد بكرمان، وإليها نسب، كانت له طموحات في الملك أدت به أن سجنه نصر بن سيار الوالي الأموي على خراسان، ثم استطاع أن يفر من السجن، فاجتمع له ثلاثة آلاف، وتغلب على مرو، واتفق مع أبي مسلم الخراساني داعية العباسيين لقتال نصر بن سيار، فكتب نصر إلى الكرماني يدعوه إلى الصلح، فلما خرج الكرماني إلى نصر بن سيار قام جنود نصر بقتل الكرماني ليقضوا على فتنته. الأعلام/ الزركلي (٢/ ١٤٤).

(٢) الحارث بن سريج: ثائر من سكان خراسان خرج على أميرها (سنة ١١٦هـ) ولبس السواد، وخلع طاعة هشام بن عبد الملك، استولى على بلخ والجزجان والطالقان ومرو، وقيل: إن أمره غلب، وبلغ عدد جيشه ستين ألفاً، وقاتل على أبواب مرو حتى هزم ومُزّق معظم جيشه، ولم يبق معه إلا ثلاثة آلاف، فانصرف إلى بلاد الترك، فأقام بها إحدى عشرة سنة، ثم عاد إلى خراسان بعد أن أمنه الخليفة يزيد بن الوليد على لسان واليه نصر بن سيار في (سنة ١٢٧هـ)، ثم أعاد الكرة وخرج من مرو مرة أخرى ودعا الناس إليه، فخرج له ثلاثة آلاف، وأشعل فتنة انتهت بمقتله أمام سور مرو. الزركلي/ الأعلام (٢/ ١٥٤).

٣ـ ولاية العهد لمن بعد ولي العهد (ولي ولي العهد):

اشتهر ذلك الأمر في البيت المرواني، وهو تعيين ولي العهد ومَنْ بعدَه في حياة الخليفة، وأول من قام بذلك مروان بن الحكم، الذي أعطى ولاية العهد لولده عبد الملك، ثم لأخيه عبد العزيز من بعده، فعندما تولى الخلافة عبدُ الملك، كاد أن يشق البيت الأموي برغبته في تحويل ولاية العهد إلى ابنه الوليد وعزل أخيه، وقد لطف الله بهذه الأمة أن قُبض عبد العزيز قبل ذلك ورأب الصدع، وبرغم ذلك لم يستفد عبد الملك من هذه الأزمة التي كادت أن تعصف بالبيت الأموي، وكرر المأساة نفسها، فعهد بعده للوليد، وبعده لسليمان، فلما تولى الوليد، أراد أن يغير سليمان، ويولي ابنه عبدَ العزيز، ودعا الناس لذلك، ولم يجبه إلا الحجاج، وقتيبةُ بن مسلم، فلطف الله مرة أخرى بهذه الأمة، وتوفي الوليد قبل أن يغير سليمان، وأدى ذلك إلى انقلاب سليمان على الحجاج وقتيبة عندما تولى الخلافة.

كما أن سليمان بن عبد الملك لم يستفد أيضاً من هذا، فولّى لولاية عهده عمرَ بن عبد العزيز، ثم يزيدَ بن عبد الملك، وكذلك لما تولى يزيد أعاد نفس الخطأ، ولم يعتبر بما مضى، فولى لولاية عهده أخاه هشاماً، ثم ولده الوليد بن يزيد، فلما تولى هشام، أراد أن يخلع الوليد بن يزيد، وعمل على ذلك؛ مما أوقع الفرقة بين قادة الدولة، فلما توفي هشام، ولم يتمكن مما أراد، تولى الوليد بن يزيد الذي أخذ ينتقم ممن والى هشاماً في رأيه، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته، فكان ذلك بداية النهاية للدولة.

ولقد أدت روح الانتقام عند بعض الخلفاء ممن خالفهم إلى حرمان الأمة من جهود قادة عظام؛ كمحمد بن القاسم، وقتيبة بن مسلم، وقد أطاح بهما سليمان بن عبد الملك، فلم ينظر لمصلحة الأمة، ولا ما قدم هؤلاء من خدمة للإسلام والمسلمين، وكما فعل يزيد بن عبد الملك مع آل المهلب بن أبي صفرة، وهم أسرة خدمت الدولة الإسلامية خدمات جليلة.

فكانت هذه الأفعال من الخلفاء حصادها ملأ قلوب خصومهم بالكراهية والبغض، وانتظار ساعة الانتقام من بني أمية.

قال الشيخ الخضري: والأمة التي ينتقم خلفها من عمال السلف؛ لأنهم كانوا على وفاق معهم، تفقد صالح الأعوان، وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء، فلا يختمر لها رأي، ولا ينضج لها عمل، تمر عليها الأمم سائرة إلى الأمام، وهي في موقفها، ولها حركة لا تتبين فيها مواقع أقدامها، فلا تكاد تخرج من مزلة إلا صادفتها أخرى، حتى تهتدي إلى عبرة فتعتبر، أو تساق إلى الفناء، فتكون عبرة من العبر.ا.هـ.

٤ـ العصبية الجاهلية:

نهى الإسلام السمح عن العصبية القومية والقبلية، سواء في الكتاب، أو في السنة، وحث على اجتماع الأمة، ونبذ الخلافات والعنصرية والشعوبية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

وجاء في السنة الصحيحة عن نبذ النبي ﷺ ونهيه عن الدعوة للعصبية الجاهلية؛ حيث قال: «دعوها فإنها منتنة»(١).

وقال ﷺ في حجة الوداع تأكيداً على هذا الأمر: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»(٢).

وقال ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عُبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٨٣٠/ح:٤٩٠٧).

(٢) رواه أحمد (ح:٢٢٩٧٨)، والألباني/ السلسلة الصحيحة (٦/ ٤٤٩/ح:٢٧٠٠).

(٣) رواه الألباني/ صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٦٧/ح:١٧٨٧).

ظهرت هذه العصبيات في الدولة الأموية بسبب ما أذكاه دعاة الفتنة من أمراء الفرق الضالة المنحرفة التي عملت على تصدع وحدة الأمة، وتوسيع دائرة النزاع والخلاف فيها، وخاصة في العراق، وفي خراسان، والتي انقسم العرب فيها انقساماً شديداً؛ مما أدى في النهاية إلى إضعاف سلطان الدولة، وتغلبِ العجم على بعض مناطقها، حتى كان منهم ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند الحديث عن الخلافة العباسية.

٥ـ الانحراف العقدي الذي وقع فيه آخر خلفاء بني أُمية مروان بن محمد، حيث كان يقول بأقوال الجهمية(١) الذين ينفون صفات الله تعالى، وذلك بسبب أن مؤدبه هو الجعد ابن درهم، ولذا كان يكنى بمروان الجعدي.

والجعد بن درهم(٢) قُتِل على يد الوالي الأموي بالعراق خالدِ بن عبد الله القسري، وذلك في يوم عيد الأضحى؛ حيث خطب الناس، وقال: أيها الناس! ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم؛ لأنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل وذبحه.

٦ـ الانقسام في البيت الأموي بعد وفاة هشام بن عبد الملك (سنة ١٢٥هـ) والذي سبق وذكرناه.

٧ـ تصيد خصوم بني أمية هذا الوضع، فأشاعوا الإشاعات بين الناس؛ مما أدى إلى ظهور الانقسام في المجتمع الإسلامي.

---

(١) الجهمية: تنسب إلى الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم، والذي نقل عنه الضلالات إلى الناس، ظهرت في المئة الثانية من الهجرة وهم أول من ابتدع القول بخلق القرآن وتعطيل صفات الله تعالى، ومعظم أفكارهم تقوم على البدع الكلامية والموازين العقلية الفاسدة، وانتشر أمرهم في أول الأمر في خراسان.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنهم أصل مقالة التعطيل حيث قال: ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين وضلال الصابئين، وأضاف في موطن آخر: أصل الجهل والضلال والزندقة والنفاق والإلحاد والكفر والتعطيل هو ما اشتركت فيه الدهرية والجهمية من التكذيب والنفي والجحود من صفات الله تعالى بلا برهان.

ومن عقائدهم إنكار جميع الأسماء والصفات لله تعالى، القول بالجبر والإرجاء، إنكار الكثير من أمور الدار الآخرة كالصراط والميزان ورؤية الله تعالى وعذاب القبر، ويقولون بفناء الجنة والنار، كما أنهم قالوا بخلق القرآن، ونفوا الكلام عن الله تعالى، كما نفوا عنه أن يكون سبحانه في جهة العلو، وأنه موجود بذاته في كل مكان، وهذا المذهب الذي بنى عليه أهل الاتحاد والحلول دينهم، ولقد ذهب الكثير من علماءالسلف إلى تكفيرهم وإخراجهم من أهل القبلة، كالإمام الدارمي في كتابه الرد على الجهمية، وكذلك عبد الله بن المبارك والبخاري وغيرهم من أئمة السلف.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: كان الجعد بن درهم من أهل الشام، وهو مؤدب مروان الحمار، ولهذا يقال: مروان الجعدي، فنسب إليه، وهو شيخ الجهم بن صفوان الذي تنسب إليه الطائفة الجهمية الذين يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، كما يقولون بخلق القرآن، وأن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، كما أنهم ينكرون بعض صفات الله تعالى.

كما قال الحافظ الذهبي في السير وأضاف : قال المدائني: كان زنديقاً. البداية والنهاية (١٣/ ١٩٩).

البحرين

في عهد الخلافة الأموية

٤١هـ ـ ١٣٢هـ

الفصل الخامس

الولاة على البحرين
في عهد الخلافة الأموية

الولايات في عهد الدولة الأموية

اتبعت الدولة الأموية في تقسيمها الإداري للدولة ما كان معمولاً به في عهد الخلافة الراشدة، وقامت بتطوير ذلك تطويراً يليق باتساع الدولة ومكانتها بين الأمم، فقسمت الدولة إلى ولايات، وكانت هذه الولايات تتغير حدودها وولاتها بحسب المصلحة العامة التي يراها الخليفة، وكان على رأس كل ولاية والٍ يقوم بأمرها، له سلطات واسعة، إذ أنه يقوم مقام الخليفة في ولايته، لذا كان اختيار الولاة يتم بدقة، وبما يتواءم مع طبيعة كل ولاية، وكان معظم هؤلاء الولاة من العرب.

واشتهر من الولاة في العهد الأموي الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي كان والياً على مصر، والتي تولاها من قبل في عهد الخلافة الراشدة، كما تولى أيضاً الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنهما ولاية الكوفة.

وكان من أهم المهام التي يقوم بها الوالي: إمامة الصلاة، وقيادة الجيوش، وإعلان الجهاد، والإشراف على الدواوين، وتعيين وعزل من يقوم بأمرها، والنظر في أمور بيت المال، وتوزيع الأعطيات، والإشراف على القضاء.

- **الولايات والأقاليم في الدولة الأموية:**

١. **ولاية الشام:** وتشمل مناطق أجناد - مناطق دمشق وحمص وقنسرين وفلسطين والبلقاء، بما تشمله اليوم بلاد الشام سوريا ولبنان وفلسطين والأردن.

٢. **ولاية العراق:** وهي أكبر الولايات وأعظمها مساحة وأكثرها سكاناً، وتشمل البصرة والكوفة وواسط، ومناطق فارس، وكرمان، وخراسان، وساجستان، وأصبهان، والأهواز، وقزوين، وجرجان، وطبرستان، والري، وقومس، ونهاوند، وبلاد ما وراء النهر (بخارى وسمرقند وطشقند وخوارزم)، إلى حدود الصين، والبحرين.

٣. **ولاية الجزيرة الفراتية:** ويقصد بها: الجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات في غرب العراق والشمال الشرقي لسوريا، وتشمل: أذربيجان، وأرمينيا، والموصل، والثغور في أسيا الصغرى ـ تركيا، وحران.

٤. **ولاية الحجاز:** وتشمل: المدن التي كانت مهداً للدعوة الإسلامية، ولم تتزعزع مع حركة الردة، وهي: مكة، والمدينة، والطائف، وكان يتبعها إقليم اليمامة أحياناً.

٥. **ولاية اليمن:** وتشمل: صنعاء، وحضر موت.

٦. **ولاية مصر:** وتشمل: مصر العليا، وهي الصعيد والنوبة، ومصر السفلى، وتشتمل على أراضي الدلتا والإسكندرية والقلزم - السويس.

٧. **ولاية المغرب:** وتشمل: المناطق من غرب مصر إلى برقة في ليبيا، ومنها إلى طنجة على المحيط الأطلسي، ومركزها مدينة القيروان، وكانت المغرب تتبع الوالي في مصر، واستقرت كولاية في عهد يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني.

٨. **ولاية الأندلس:** وتشمل: المساحات الشاسعة الممتدة في هضبة إيبيريا فيما يسمى اليوم: إسبانيا والبرتغال إلى جنوب فرنسا، وكانت تتبع في أول عهدها ولاية المغرب، ثم أصبحت ولاية مستقلة في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

- **ولاة البحرين في العهد الأموي:**

كانت البحرين بجزرها تتبع - غالباً - ولايةَ البصرة التابعة لولاية العراق، ويضاف إليها أحياناً: عمان، واليمامة، وخراسان، وأحياناً أخرى تصبح تحت مسؤولية والي الكوفة، وقلما كانت ولاية مستقلة في العصور التي تلت الخلافة الراشدة، سوى ما كان من خروج الخوارج واستقلالهم بها لفترات عن دولة بني أمية، الذين دخلوا في صراع مع الخوارج انتهى بسيطرتهم على البحرين.

أيضاً: لم تستقل البحرين بوالٍ خاص بها؛ لأنها جزء من جزيرة العرب، التي هي مهد الإسلام، وموطن الدعوة، ومحاطة من كل جانب ببقية أقاليم الدولة الإسلامية، وبولاياتها، وبالبحار التابعة لها، فكان يكتفى بالوالي في العراق أو اليمامة لفرض ولايته على تلك المناطق.

وقد تولى البحرين في العهد الأموي جمع من الولاة، بعضهم انفرد بولاية البحرين وحدها، وبعضهم كان والياً على البصرة والبحرين وعمان، ومن هؤلاء(١):

١. **الولاة في عهد معاوية ﵁:** عمر بن أبي سلمة ﵁(٢)، وقدامة بن العجلان ﵁، والنعمان بن العجلان الأنصاري ﵁، وكانوا قد تولوا أيضاً في زمان علي ﵁، والأحوص بن عبد أمية، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة ﵁(٣)، وزياد بن أبيه(٤)، والنعمان بن بشير ﵁(٥)، والضحاك بن قيس الفهري ﵁(٦).

٢. **الولاة في عهد يزيد بن معاوية:** سعيد بن حارث الأنصاري.

٣. **الولاة في عهد عبد الملك بن مروان:** أسيد بن الأخنس بن شريق الثقفي، وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلي، وموسى بن سنان، وسعيد بن حسان الأسيدي، وزياد بن الربيع الحارثي، وعبد الملك بن عبد الله العودي، وسفيان بن عمر العقيلي، وعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن صعصعة الكلابي، وقطن بن زياد بن الربيع الحارثي.

٤. **الولاة في عهد سليمان بن عبد الملك:** الأشعث بن عبد الله بن الجارود.

٥. **الولاة في عهد عمر بن عبد العزيز:** سلط بن حريث، وعبد الكريم بن المغيرة.

---

(١) وتراجم هؤلاء الولاة شحيحة وفقيرة في كتب التراجم سوى الصحابة منهم، وقد ترجم لهم: الذهبي/ أنساب الأشراف، تاريخ خليفة بن خياط، ابن كثير/ البداية والنهاية، ابن حجر/ الإصابة في تمييز الصحابة، المزي/ تهذيب الكمال، ابن الأثير/ المختار من مناقب الأخيار، ابن سعد/ الطبقات الكبرى، سير أعلام النبلاء/ الذهبي.

(٢) سبق ترجمته في ولاة البحرين في عهد الخلافة الراشدة.

(٣) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب الأمير أبو عيسى وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من كبار الصحابة ﵃، شهد بيعة الرضوان، روى عن النبي ﷺ أحاديث عدة بعضها في الصحيحين، توفي سنة خمسين عن سبعين سنة.

(٤) زياد بن أبي سفيان، وقيل: ابن عبيد الثقفي، ولد عام الهجرة وأسلم زمن الصديق ﵁ وهو أخو أبي بكرة الثقفي ﵁ لأمه، عمل كاتباً لأبي موسى الأشعري زمن إمرته على البصرة، كان صاحب دهاء وفطنة، وكان يضرب به المثل في النبل، كان خطيباً مفوهاً، توفي (سنة ٥٣هـ) وقيل غير ذلك.

(٥) سبق ترجمته.في المقدمة ص:١٠.

(٦) الضحاك بن قيس بن خالد، يصل نسبه إلى فهر بن مالك القرشي، يُكنى بأبي أُنيس، وقيل يُكنى بأبي عبد الرحمن الفهري، أخو فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وكانت تكبره بعشر سنين، وأمها أميمة بنت ربيعة القرشية، روى عن النبي ﷺ ، وعن حبيب بن مسلمة الفهري، وعن عمر بن الخطاب، روى عنه جمع من كبار التابعين، كالحسن البصري، وسعيد بن جبير، وسماك بن حرب، وعروة بن الزبير.

شهد فتح دمشق وسكنها إلى أن توفي بها، شهد مع معاوية ﵁ صفين، دعا إلى بيعة ابن الزبير، ثم دعا إلى نفسه، وقُتل بمرج راهط بدمشق عند قتاله لمروان ابن الحكم سنة أربع أو خمس وستين للهجرة.

٦. **الولاة في عهد يزيد بن عبد الملك**: إبراهيم بن عربي.

٧. **الولاة في عهد هشام بن عبد الملك**: محمد بن زياد بن جرير بن عبد الله البجلي، وهزاز بن سعيد، ويحيى بن إسماعيل، ويحيى بن زياد بن الحارث، وعبد الله بن شريك النميري، ومحمد بن حسان بن سعد الأسيدي، والمهاجر بن عبد الله الكلابي.

٨. **الولاة في عهد الوليد بن يزيد**: محمد بن حسان بن سعيد الأزدي.

٩. **الولاة في عهد مروان بن محمد**: بشر بن سلام العبدي.

كما ذكر خليفة بن خياط من ولاة البحرين أيضاً: قطن بن مدركة الكلابي، وبلج بن المثنى، وحسان بن سعد الأسيدي. كما وليها لعبد الله بن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، ومصعب بن الزبير.

دور الخوارج في البحرين

تمهيد:

الخوارج أول الفرق التي ظهرت في الإسلام بآرائها الاعتقادية المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة؛ تحقيقاً لحديث الفرق الذي يعدُّ من دلائل نبوة النبي ﷺ، والذي رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ، فقال: «ألا إن مَنْ قبلَكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة: وهي الجماعة».

وقد خرجت هذه الفرقة في زمان علي رضي الله عنه، وبدأت تنتشر وتتسع كشوكة في ظهر الأمة كلما تمكنت من الخروج على الخلافة الإسلامية منذ ظهورها إلى نهايات الخلافة، وما زالت باقية إلى زماننا هذا، وقد لعبت دوراً كبيراً في تراجع الأمة وإنهاك مواردها الاقتصادية والعسكرية، وتعطيلها عن التنمية، وتراجعها عن الفتوحات في بعض الأزمنة بسبب ما اشتغلته الدولة الإسلامية بهؤلاء لفترات طويلة من الزمن، وقد تعددت أسماء الخوارج، ومن ذلك: الحرورية، والشراة، والنواصب، والمارقة، والمُحكِّمة(١)، وفي زماننا باسم التكفير والهجرة، والقاعدة، وتنظيم الجهاد الدولي، وداعش، وغيرها من الأسماء المعاصرة.

وقد أسسوا لأنفسهم مذهباً اعتقادياً يقوم على التكفير بالمعصية للمسلم، وأن مرتكب الكبيرة كافر حتى يتوب منها، وإن مات ولم يتب يخلد في النار، كما كانت لهم آراء وشروط في الخليفة، ويؤولون الآيات والأحاديث بحسب ما يرونه؛ مما جعل نظرتهم للإمامة العظمى معقدة؛ مما برروا به الخروج على الأئمة(٢).

كما تعددت فرق الخوارج تعدداً كبيراً، أشهرها: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والإباضية، والثعالبة(٣)، وتفرقوا فيما بينهم، وهذا من لطف الله تعالى بأمة محمد ﷺ؛ لأنهم لو كانوا على قلب رجل واحد، لكانوا خطراً أكبر مما هم فيه على

---

(١) د. غالب العواجي/ فرق معاصرة (١/ ٢٢٩).

(٢) د. غالب العواجي/ فرق معاصرة (١/ ٢٨٥).

(٣) عبد القادر شيبة الحمد/ الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (ص:١٦٨).

الإسلام والمسلمين، فهم بطبيعتهم يختلفون على أتفه الأسباب، ويتفرقون بأرائهم إلى فرق متعددة اختلف أهل العلم في عددها، فمنهم من يقول أربعة، ومنهم من يقول ثمانية، ومنهم من يقول خمس وعشرون فرقة، ومنهم من يقول ثلاثون فرقة، والواقع أن الخوارج بسبب أنهم صداميون، ومزاجيون، ولقلة ما كتب من أئمتهم أو أخفوه، فإننا لا نستطيع أن نقطع بعدد هذه الفرق.

وقد قامت للخوارج دولٌ بالتاريخ الإسلامي؛ كالدولة الرستمية، ودولة بني مدرار في شمال إفريقيا، وأيضاً زنجبار في شرق إفريقيا، كما في عمان وحضر موت في جزيرة العرب، وأشهر فرق الخوارج من الماضي إلى الآن: الإباضية الذين ينتسبون إلى عبد الله بن يحيى ابن إباض المري التميمي، يرجع نسبه إلى إباض، وهي قرية باليمامة، وتوفي في آخر أيام عبد الملك بن مروان، وقد نسبت الإباضية له بسبب مواقفه العقدية، ولم يتسمَّوا باسمه في أول الأمر، بل كانوا يطلقون على أنفسهم: جماعةَ المسلمين، أو أهلَ الحق والاستقامة، غير أنهم عندما كثرت فرقهم، أرادوا أن يفرقوا بينهم وبين غيرهم من فرق الخوارج، فتسموا بالإباضية في القرن الثالث الهجري، والإباضية يكثرون اليوم في شمال وشرق إفريقيا، وفي عُمان وحضرموت.

والإباضية نفسها انقسمت إلى فرق متعددة؛ كالحفصية، والحارثية، والنكار، والنفاثية، والخلفية، والحسينية، والسكاكية، والفرثية، ولهذه الفرق من الآراء والمعتقدات ما يدفع البعض بالحكم بكفرهم ومروقهم عن الدين، وقد وقع بين هذه الفرق خلافات شديدة ومناوشات حربية بنيت على أساس الخلاف في الرأي.

وقد ظهر في زماننا من يحمل أفكار الخوارج المتقدمين من التكفير بالمعصية، وتكفير المجتمعات الإسلامية، واتهامها بالجاهلية، والدعوة إلى الصدام مع الحكومات القائمة في الدول الإسلامية من غير روية ولا بصيرة؛ مما أنشأ جماعات تكفيرية نحت نحواً بعيداً عن جوهر العقيدة الصافية، وأزهقت أنفساً بريئة، وأهدرت ثرواتٍ عظيمة، وأرهقت الأمة، وعملت على زوال الأمن والأمان، حتى بلغ بهم الأمر أن سعوا لترويع الحجاج والمعتمرين في الحرمين الشريفين، عليهم من الله ما يستحقونه.

ولقد لعب الخوارج دوراً سياسياً لفترة من الزمان بالبحرين، وحاولوا إنشاء دولة لهم تنازلُ دولةَ الخلافة الأموية، غير أنهم لم يستمروا طويلاً، بل كانت فترتهم سجالاً لحكم البحرين بينهم وبين الخلافة الأموية التي استطاعت في النهاية أن تعيد سيطرتها على البحرين كاملة، ومن هذه الأدوار:

- **دور نجدة الحروري «٦٧هـ - ٧٢هـ»**[١]:

نجدة بن عامر بن عبد الله بن ساد بن المُفَرِّج الحنفي الحروري، من بني حنيفة من بكر بن وائل، أحد رؤوس الخوارج، ونسبت إليه واحدةٌ من أكبر فرقهم، وهي النجدات العذرية[٢].

كان من أصحاب نافع بن الأزرق، وعبدِ الله بن إباض التميمي، وعبدِ الله بن الصفار السعدي، وعطيةَ بنِ الأسود الحنفي، وأبي طالوت، وأبي فديك، وعبيدة بن هلال اليشكري، ومعظم هؤلاء تفرقوا واختلفوا، وأسسوا فرقاً نسبت إليهم؛ كالأزارقة، والإباضية، والصفرية.

وقف هؤلاء في أول أمرهم إلى جوار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في مواجهة الأمويين بمكة، وأرادوا اختبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما حين انسحاب جيش بني أمية، فسألوه عن الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فأثنى عليهما خيراً، فقالوا له: أصبت، ثم سألوه عن عثمان ﵁، وقالوا: لقد فعل وفعل حتى قام إليه رجال فقتلوه، فنحن لقتلَته أولياء، ومن عثمان وأوليائه براء، فما تقول أنت يابن الزبير؟ قال: والله! ما أعلم مكان أحد من خلق الله اليوم أعلم بابن عفان وأمره مني، كنت معه حينما نقموا عليه واستعتبوه، فلم يدع شيئاً إلا أعتبهم وردَّ عليهم، فتفرقوا، ثم رجعوا إليه بكتاب يزعمون أنه يأمر فيه بقتلهم، فقال لهم عثمان ﵁: ما كتبته، فإن شئتم فهاتوا بينتكم، فإن لم تكن لكم بينة، حلفتُ لكم، فوالله! ما جاؤوا ببينة، ولا استحلفوه، ثم وثبوا عليه فقتلوه. وإني أُشهدكم ومَنْ حضرني أني وليٌّ لابن عفان، وعدوٌّ لأعدائه، فبرئ الله منكم.

---

(١) ابن الأثير/ الكامل (٤/ ٧٨)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ١٦٤)، ابن حجر العسقلاني/ لسان الميزان (٦/ ١٤٨)، ابن العماد/ شذرات الذهب (١/ ٧٦)، الزركلي / الأعلام (٨/ ١٠)، عبد القادر شيبة الحمد/ الأديان والفرق (ص: ١٧٧-١٨٠).

(٢) سميت بذلك نسبة إلى قول نجدة بالأخذ بالعذر بالجهل.

فلما سمعوا منه ذلك، تفرقوا عنه وتركوه، وتوجه معظمهم إلى البصرة، وبعضهم إلى اليمامة، أما نجدة بن عامر فكان ممن انصرف إلى اليمامة تحت راية أبي طالوت، فلما وصلها، قام الخوارج وخلعوا أبا طالوت، وبايعوا نجدة، وسموه: أمير المؤمنين، وهو ابن ثلاثين سنة، فاضطر أبو طالوت أن يبايعه، وقيل: إن نجدة قد قتله، فكان هذا أول ظهور نجدة.

ثم غزا ما حول اليمامة، وأعمل السيف في تلك المناطق حتى خضعت له، ثم انطلق إلى البحرين، وواجه بني عبد القيس في القطيف، وقتلهم قتلاً ذريعاً، وسبى من قدر عليه منهم، وجعل البحرين قاعدة له، وواجه من خلالها جيوش ابن الزبير وخيوله لمرات عديدة، واستطاع أن ينتصر على تلك الجيوش، وأرسل عماله إلى المناطق المختلفة باليمامة وعُمان وهَجَر، وأصبح له شوكة وقوة.

وفي سنة تسع وستين توجه إلى البيت الحرام في موسم الحج في ألفي رجل، وقيل: أقل من ذلك، وصالح ابن الزبير على أن يصلي كل منهم بأصحابه، ويتأمر عليهم في المشاهد بالحج، ويكف بعضهم عن بعض.

فلما فرغ من الحج، تطلع أن يسيطر على المدينة، فسار إليها، واستعد أهلُها لقتاله، وفيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الذي تقلد سيفه، فلما علم نجدة بذلك، تراجع إلى الطائف، وأصاب بعضَ السبي منهم ابنةٌ لعبد الله بن عمرِو بن عثمان بن عفان، كانت عند أقارب لها، فكتب إليه عبد الملك بن مروان، أو عبد الله بن الزبير: أن يُطْلِقَهَا، فاشتراها من أصحابه بمئة ألف درهم، وبعث بها إلى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، فكان هذا أول خلافه مع أصحابه.

وكانت هذه هي طبيعة الخوارج، يختلفون على أتفه الأسباب، ويكفِّر بعضهم بعضاً على ما يسوغ فيه الخلاف بين المسلمين، كما نراهم اليوم في مجتمعاتنا المعاصرة، وكذلك كان نجدة في أول أمره حينما اختلف مع نافع بن الأزرق(١).

---

(١) اختلف نجدة مع نافع على أمور، منها: أن نافعاً قال: التقية لا تحل، والقعود عن القتال كفر، فخالفه نجدة بقوله: التقية جائزة محتجاً بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال: القعود عن القتال جائز، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٩٥]. الزركلي/ الأعلام (٨/ ١٠).

لما اختلف أصحاب نجدة معه، أنكروا عليه أموراً عدة، وخرجوا عليه، وتوعدوه، ففر منهم بعد أن ولّوا عليهم أبا فديك الحروري الذي سعى في طلب نجدة حتى تتهيأ وتستقر له أمور البحرين.

وكان نجدة قد استخفى منهم في قرية، إلا أنهم ظفروا به في نهاية الأمر وقتلوه، وانتهى دوره في (سنة ٧٢هـ).

- **دور أبي فُديك الخارجي**(١):

عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة بن تغلب، كان من أتباع نافع بن الأزرق، غير أنه خالفه، وسار مع نجدة بن عامر، أحدُ رؤوس الخوارج، وتنسب إليه جماعةُ الفدكية، تولى على الخوارج بعد النزاع مع نجدة الحروري، وتصديرِ الخوارج له أميراً عليهم.

لم يهنأ بالبقاء أميراً على الخوارج في البحربن لأكثر من سنة؛ حيث إنه لما بدأ يظهر أمره، أرسل إليه والي البصرة الأموي خالدُ بن عبد الله القسري جيشاً على رأسه أخوه أميةُ ابن عبد الله القسري، فتمكن منه أبو فديك وهزمه، مما دفع الخلافة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان أن تنتدب الناس مع أهل الكوفة والبصرة لقتاله تحت إمرة أحد شجعان العرب عمرَ بنِ عبيد الله بن معمر، فساروا حتى انتهوا إلى البحرين في عشرة آلاف مقاتل، فالتقوا بأبي فديك في معركة شرسة انتصر فيها عمر بن عبيد الله، وقُتل أبو فديك، وقُتل معه ستة آلاف من رجاله، وأُسر ثمان مئة.

- **دور مسعود بن أبي زينب المحاربي**(٢):

مسعود بن أبي زينب المحاربي، من بني عبد القيس، بسط سيطرته على البحرين في بداية عهد الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦هـ) إلى بداية عهد هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥هـ)، وانتهى الأمر بمقتله على يد الوالي الأموي سفيانَ بن عمر العقيلي، عندما تقدم مسعود لغزو اليمامة، وكانت هذه واحدة من ثورات الخوارج التي خرجوا بها على الأمة بالبحرين في عهد الخلافة الأموية.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٢/ ١٦٤)، الزركلي / الأعلام (٤/ ٧٦).

(٢) الزركلي/ الأعلام (٧/ ٢١٧).

الباب الرابع

البحرين

فِي عَهدِ الخِلَافَةِ العَبّاسِيّةِ فِي العِرَاقِ

١٣٢هـ _ ٦٥٦هـ

مدخل

تنسب الخلافة العباسية للعباس بن عبد المطلب عمّ النبي ﷺ، وقد توفي العباس ﵁ في رجب سنة ٣٢هـ في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁، وكان من أشهر أبنائه عبدالله ابن العباس ﵁ حبرُ الأمة وعالمها الجليل، والذي اعتزل الفتن، وأقام بالطائف كما أسلفنا إلى أن توفي، وكان قد أوصى ولده علي بن عبد الله أن يأتي الشام، ويتنحى عن الفتن، وأن يلحق بعبد الملك بن مروان، فعمل علي بوصيته، وحمل معه البيت العباسي إلى الشام، ونزل بمكان يقال له: الحُميمة بالبلقاء؛ ليكون بعيداً عن فتن الناس وأهل الوشاية والوقيعة، وظلت صلته بالخليفة عبد الملك بن مروان طيبة لا يكدرها شيء حتى توفي عبد الملك.

ثم بدأت العلاقة تنحو نحواً آخر في عهد الوليد بن عبد الملك، والذي بلغه أن علي بن عبد الله بن العباس يدَّعي أن الخلافة ستكون في ولده من البيت العباسي، كما بلغه أن علياً يعمل على زوال ملك بني أمية، فوقع الخلاف بينهما، وأساء الوليد معاملة علي إلى أن مات، ثم تولى سليمان بن عبد الملك، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم هشام بن عبد الملك، وقد أكرم كل منهم علياً، وعرف له مكانه إلى أن توفي (سنة ١١٨هـ) في خلافة هشام بن عبد الملك، وآل أمر البيت العباسي لأكبر أبنائه محمد بن علي أبي الخلفاء العباسيين، وأكبر إخوته الاثنين وعشرين ذكراً دون الإناث، والذي عايش الأحداث والخلافات بين أبيه وبين الوليد بن عبد الملك.

وحدث يوماً أن قام عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب(١) الملقب بأبي هاشم بزيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك في دمشق، وعند عودته نزل ضيفاً على أبناء عمومته من بني العباس، فاستقبله محمد بن علي أحسن استقبال، خاصة أن محمداً كان ممن تتلمذ على يد أبي هاشم في المدينة وهو صغير.

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، المعروف والده بابن الحنفية، وقد توفي ابن الحنفية (سنة ٨١هـ)، وانقسم الغلاة في ابن الحنفية من أتباع المختار ابن عبيد الثقفي صاحب الفتنة الشهيرة إلى فرق متعددة، وقد كانوا يجتمعون على معتقد بأنه الإمام المعصوم، فلما مات وتفرقوا، خرجت منهم فرقة قالت بأن الإمامة انتقلت إلى ابنه عبد الله بن محمد المكنى بأبي هاشم، وسموا بالهاشمية، والتفوا حوله، وعملوا على بث دعوتهم في الأمصار يدعون بتوليه الخلافة والخروج على بني أمية، فوجدت هذه الدعوة في نفسه مكاناً؛ حيث إنه عمل بسرية تامة على بثها بين شيعة آل البيت، فلما توفي بالحُميمة، بايعوا لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس الذي أوصى له أبو هاشم. الذهبي/ السير (٤/ ١٢٩).

وعند إقامة أبي هاشم بالحُميمة شعر بدنو أجله، وأن ساعته قد حانت، وظن البعض أن الخليفة قد دس له السم؛ لما كان يشاع من أن أبا هاشم يعمل على زوال ملك بني أمية، ويدعو لنفسه بالخلافة(١)، لذلك وضع أبو هاشم أسرار دعوته وأسماء دعاته لدى محمد ابن علي، وأوصى له بإمارة الدعوة من بعده، وأرسل الرسائل إلى دعاته ليخبرهم بذلك، وأن عليهم الالتفافَ حول محمد بن علي إن هو مات.

وبالفعل توفي، وانتقلت الإمامة لمحمد بن علي العباسي، والذي بدأ يهيئ الأمر تهيئة تليق بخطورة المسؤولية بعد أن قرأ واقع الأمور قراءة صحيحة ومناسبة لقدراته، وقام من أجل ذلك بتأسيس حركة سرية منظمة تدعم دعاة أبي هاشم من جهة، وتدعو للخروج على بني أمية، وتولي آل البيت للحكم من جهة أخرى، واختار قادة يقومون بهذا الأمر، واتخذ إجراءات تنبي عن واقع الدولة الأموية، وموقع شيعة آل البيت فيها، لذلك عمل بسرية تامة، وأخفى عن الناس اسم الشخص الذي يُدعى له، وأسماه: الرضا من آل محمد؛ ليحقق بذلك عدة أهداف:

أولاً: جمع شيعة آل البيت على داعٍ من آل البيت هو الرضا من آل محمد دون إعلان اسمه، فجمعهم جميعاً على اختلاف فرقهم وأهوائهم، وهم يجهلون من هو الرضا من آل محمد.

ثانياً: ضمان استمرارية الدعوة، حتى ولو توفي الإمام غير المعروف لديهم.

ثالثاً: ليتجاوز الصدام والانتقام من بني أمية إن هم كُشف لهم أمر الدعوة، أو عرفوا شخص الداعي.

كما أنه استخدم أسلوب التنظيم العنقودي الهرمي في دعوته؛ حتى لا يقع فيما وقع فيه من سبقه، واستطاع بهذا ألا يتعرف الأتباعُ من الناس على القادة الذين هم أعلى إلا بعد مرحلة معينة، ويأتي في النهاية الإمامُ على رأس الهرم، والذي ـ كما أسلفنا ـ لا يُعرف إلا للنقباء وكبار الدعاة.

---

(١) وقصة السم هذه لا نستطيع أن نقف على رواية صحيحة فيها.

وقد اختار اثني عشر نقيباً، واختار لهم مساعدين أو نظراء لتولي منصبهم في حال تعطيل دور النقيب بالموت أو القتل أو المرض، وجعل أسفلهم سبعين داعية(١)، وأسفل منهم مجموعات تعرف بدعاة الدعاة، وأسفلهم خلايا ومجموعات سرية، وهكذا اتخذ محمد ابن علي الاحتياطات التي تضمن عدم افتضاح أمر الدعوة السرية.

أصبحت الدعوة بأحقية الخلافة والحكم للرضا من آل البيت أنشودة يتغنى بها كل من خرج على الخلافة الأموية، وخاصة ممن زعم أنه من شيعة آل البيت، وأكثرهم من أهل الغدر لآل البيت، بل لعلي نفسه ولأبنائه، وعلى رأس هؤلاء: أهلُ الكوفة الدعاةُ لكل بدعة: والواقفون وراء كل فتنة.

لذا عملت الأسرة العباسية، والتي على رأسها محمد بن علي بن عبد الله بن عباس على بث الدعوة بين أهل الكوفة وخراسان(٢)، خاصة أن خراسان متأهلة لقبول الثورة على الأمويين، فذوو الوجهين أصحابُ التقية ـ الذين أبطنوا المجوسية، وأظهروا محبة آل البيت من الفرس ـ كانوا ينتظرون الفرصة ليثبوا على بني أمية، ويتخلصوا من دولتهم، ووجدوا في الدعوة إلى غير بني أمية إضعافاً للدولة العربية الإسلامية، وظنوا بوقوفهم إلى جوار الدعوة الجديدة أن يجدوا فرصة ليستعيدوا بها دولتهم الشركية التي أزالها المسلمون العرب.

إلى جانب أن خراسان بعيدة في موقعها عن حاضرة الدولة دمشق، وبها من العرب المنقسمين على أنفسهم بين المضرية واليمنية الكثير.

ولذلك أصبحت المراكز الرئيسة للدعوة لبني العباس هي الكوفة وخراسان، فبثت الأسرة العباسية رجالاً ودعاة إلى هذه المناطق، فقاموا بالدعوة إلى أحقية آل البيت

---

(١) لا شك أن محمد بن علي أراد باختيار هذه الأرقام الاثني عشر والسبعين لعدد الصحابة الذين بايعوا في العقبة الثانية ونقبائهم ليظهر التزامه بالمنهج النبوي، ولقد أخذت بهذا التنظيم العنقودي بعض الجماعات المعاصرة التي تنتسب للإسلام من أجل العمل للوصول إلى الحكم بدعوى إقامة الشريعة الإسلامية، ولو كانو صادقين لطبقوها على أنفسهم أولاً، فالمتأمل والناظر لحال تلك الجماعات السرية يعي جيداً أن هؤلاء لا هم لهم ولا طائل إلا الوصول لسدة الحكم والصدارة، مما أدى أن تدفع الأمة ثمناً غالياً من دماء الأبرياء من أبنائها، وبقيت هذه الجماعات بقادتها أدوات ووسائل ضغط يستغلها أعداء الإسلام، فلا هم أقاموا الإسلام، ولا حافظوا على ما تبقى منه عند الناس.

(٢) واحدة من أهم الولايات الشرقية في الدولة الإسلامية، دخلت اليوم في أفغانستان وإيران وتركستان فهي تمتد من شمال أفغانستان إلى نهر جيحون في أوزبكستان ويدخل في ذلك مدن بلخ وهرات كما تصل إلى الجزء الشمالي الشرقي من إيران، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس، وتصل إلى الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان، وبها مدن مرو، وبيهق، وأبيورد، ونسا، وكانت مرو عاصمة لها.

بالخلافة، وقد توفي خلال هذه المرحلة محمد بن علي في (سنة ١٢٥هـ)، وتولى الأمر من بعده ابنه إبراهيم، والذي تصدر لتدبير الأمور، والمحافظة على استمرارية الدعوة، وانتقل بها من مرحلة السرية تدريجياً إلى مرحلة الصدام مع الدولة الأموية، بعد أن شعر أن الأجواء والأحوال قد تهيأت لذلك، فعهد إلى أبي مسلم الخراساني بقيادة الدعوة في خراسان.

وكانت بين إبراهيم وبين أبي مسلم كتب ومراسلات وقعت إحداها بيد الخليفة مروان ابن محمد، الذي استشاط غضباً عندما قرأ ما فيها، فأرسل على الفور الأمر بالقبض على إبراهيم بن محمد بن علي العباسي، الذي لم يتمكن من الخروج من الحُميمة، فأوصى إلى أخيه أبي العباس عبد الله، وأمر أهله جميعاً بالسير إلى الكوفة، والسمع والطاعة لأبي العباس، وأما إبراهيم، فقد تم القبض عليه، وسجن في حران إلى أن مات.

ولما تهيأت الأسباب للجهر بالدعوة، واستخدام القوة في مرحلة نهاية الخلافة الأموية، ظهر الصدامُ المسلح بقيادة أبي مسلم الخراساني فَي خراسان، وذلك بسبب العوامل التي ذكرناها من قبل.

وكان أبو مسلم الخراساني قد تمكن من إرسال قواده ليستولوا على البلاد من عمال نصر بن سيّار(١) الوالي الأموي على خراسان، وكان أبو مسلم قد أحدث فتنة عظيمة في خراسان فرق بها كلمةَ العرب، وبدأ يأخذ البيعة لبني العباس حتى صفت خراسانُ كلها له بعد عدة معارك مع عمال الأمويين، وانتهى الأمر بنصر بن سيّار أن مرض بالري ومات بها، فأقبل عمال أبي مسلم إلى الري، واستولوا عليها وعلى همذان، ثم نهاوند، ثم شهرزور، حتى بلغوا العراق؛ حيث اصطدموا مع ابن هبيرة أمير العراق الأموي، وانهزم جيش ابن هبيرة الأموي في عدة مواطن، حتى دخل جيش العباسيين الكوفة في المحرم (سنة ١٣٢هـ) وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال(٢) الذي اشتهر بوزير آل محمد، والذي وجه الجيوش لقتال الأمويين في كل مكان، في الوقت الذي كانت فيه الفتنة مشتعلة بالحجاز والشام.

---

(١) نصر بن سيار الليثي الكناني، آخر ولاة الأمويين على خراسان، ينتمي إلى قبيلة كنانة، وكان من خيرة ولاة بني أمية، ولكن الفتنة في زمانه استعرت في خراسان بسبب دعاة العباسيين وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني والذي نازله، وكان سبباً في تقهقره إلى الري التي مات بها في الثاني عشر من ربيع الأول (سنة ١٣١هـ) وهو في الخامسة والثمانين من عمره، قال عنه الذهبي: كان من رجال الدهر سؤدداً وكفاءةً. الذهبي/ السير (٥/ ٤٦٣).

(٢) أبو سلمة الخلال: حفص بن سليمان الخلال، لقب بذلك لسكناه بدرب الخلالين بالكوفة، كان من رجال الدعوة العباسية، وأنفق في سبيلها أموالاً كثيرة، كان في حديثه إمتاع وأدب، وكان ذا علم بالسياسة وتدبير الأمور، استوزره السفاح، لذا قيل عنه: وزير آل محمد، قتله أبو مسلم الخراساني بأمر من السفاح في (سنة ١٣٢هـ). الذهبي/ السير (٦/ ٧).

كل ذلك ولم يُفصح دعاةُ العباسيين عن دعوتهم لشخص بعينه، ولا يعلم هذا الشخص إلا النقباء والدعاة، وأما عامتهم، فإنهم لا يعرفون سوى أنهم يدعون لرجل من آل البيت.

استطاعت الأسرة العباسية أن تصل إلى الكوفة في صفر (سنة ١٣٢هـ)، وكان على القوم هناك أبو سلمة الخلال، الذي أخفى وجودهم أربعين ليلة، وأراد أن يعدل عن بيعتهم إلى بني علي بن أبي طالب، فأرسل أولاً إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر(١)، فأبى ذلك، وأحرق كتاب أبي سلمة الخلال له، فأرسل أبو سلمة بكتاب إلى عبد الله المحض بن حسن بن حسن(٢)، فلما قرأه، ذهب به إلى جعفر الصادق، فنصحه ألا يفعل، وألا يجيبهم لأي أمر، فأرسل أبو سلمة الخلال إلى عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين(٣)، فرد الكتاب كما فعل صاحبيه.

وفي هذا دلالة على أن أبناء البيت العلوي من العلماء الصالحين ما كانوا ليخرجوا على الدولة، أو ينزعوا يداً من طاعة، غير أن الكذَبة والقُصَّاص افترَوا عليهم في التاريخ افتراءات كثيرة.

ولما أحس بعض قواد أبي سلمة بالأمر، أرادوا أن يُحبطوا فعله، فذهبوا إلى الكوفة، وقابلوا أبا العباس عبدَ الله بنَ محمد، وسلموا عليه بالخلافة، ودخل بعدهم أبو سلمة، ففعل كما فعلوا، وبقي هذا المخطط في نفس أبي العباس الذي كتم أمر أبي سلمة إلى أن واتته الفرصة، فكان أول من تخلص منهم من دعاة العباسيين انتقاماً منه على فعله.

---

(١) جعفر الصادق: جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، أبوه محمد الباقر، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان يقول: ولدني أبو بكر الصديق مرتين، وكان يغضب من الرافضة، ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر؛ لأنهم قوم قد هوى بهم الهوى في الهاوية فبعداً لهم، وكان يقول: برئ الله ممن تبرأ من أبي بكر وعمر.

قال الذهبي تعليقاً على هذا: وأشهد بالله إنه لبار في قوله، غير منافق لأحد، قبح الله الرافضة.

ولد سنة ثمانين للهجرة، وأدرك بعض الصحابة، حدث عن أبيه محمد، وعروة بن الزبير، وعطاء بن أبي رباح، وله روايات في مسلم، كما روى له البخاري في كتاب الأدب وغيره؛ من علماء أهل السنة والجماعة، وحدث عنه ابنه موسى، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأبو حنيفة، وابن جريج، وابن إسحاق، وسفيان، وشعبة، ومالك، ويحيى القطان، وخلق كثير.

مات رحمه الله بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومئة فيكون عمره ثمان وستين سنة رحمه الله رحمة واسعة. الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٥).

(٢) عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمية القرشية، تابعي من التابعين، خرج على أبي جعفر المنصور العباسي، سجنه المنصور بالهاشمية، وقُتل في سجنه، وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره. الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

(٣) عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يُكنى بالأشرف، وبأبي حفص، من التابعين.

قام أبو العباس عبدُ الله بن محمد في يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول لسنة اثنتين وثلاثين ومئة هجرية على منبر الكوفة، فخطب الناس، وبعد أن حمِد الله وأثنى عليه، تحدث عن قرابته من النبي ﷺ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين، وأثنى عليهم، ثم طعن في بني أمية، وكان مما قال بعد ذلك: يا أهل الكوفة! أنتم محل محبتنا، ومنزلُ مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يَثنكم عنه تحاملُ أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا، وأتاكم بدولتنا، فأنتم أسعدُ الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مئة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

ولذا لقب بعد هذه الخطبة بالسفاح.

ثم قام بعده عمه داود بن علي(١)، فأعلن أن الذي صعِد المنبر قبلَه هو خليفة رسول الله ﷺ، وقال لهم: إن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وبعد الخطبتين خرج السفاح إلى القصر، وكان مريضاً، وترك أخاه أبا جعفر المنصور ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، وبذلك تمت له البيعة في الكوفة(٢).

ثم أرسل الجيش بقيادة عمه عبد الله بن علي إلى الخليفة الأموي الأخير مروان بن محمد، والتقى الجيشان على نهر الزاب، فكانت الواقعة التي ذهبت بدولة بني أمية في جمادى الآخرة (سنة ١٣٢هـ) والتي صمد فيها مروان صموداً شديداً، لكنه في النهاية هُزم في المعركة، ففر بأهله وولده من مكان إلى مكان، وعبدُ الله بن علي يتتبعه حتى وصل إلى قرية بوصير ببني سويف بصعيد مصر، والتي كانت منيته فيها، وقُتل، وحُملت رأسه إلى السفاح في الكوفة ليقوم بأمر الخلافة دولة جديدة بعد الأمويين، هي دولة العباسيين، والتي تسلمت ملكاً عريضاً، ودولة مترامية الأطراف، بدأها النبي ﷺ في جزيرة العرب، ثم كانت خارجَها في عهد الخلفاء الراشدين، ثم اتسعت اتساعاً هائلاً في عهد بني أمية.

---

(١) داود بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي القرشي، عمّ الخليفة السفاح، أول خلفاء العباسيين، والمنصور ثاني خلفاء العباسيين.
كان ذا بأس وسطوة، وهيبة وجبروت وبلاغة، مات في ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومئة بعد أن أُقيمت دولة بني العباس، وعاش اثنتين وأربعين سنة.
الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٤٤).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢٤٩).

قامت دولة بني العباس على أساس الدعوة بأحقية آل البيت في الخلافة، وهو الأمر الذي لم يقم عليه دليل من الشرع، والذي تسبب وما زال في إراقة الدماء، واتساع الهوة والفرقة بين أبناء الأمة الإسلامية، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

خلفاء الدولة العباسية:

ولقد مرت الدولة العباسية بمرحلتين بارزتين:

الأولى: مرحلة الخلافة بالعراق: من ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ.

أي: منذ زوال الخلافة الأموية إلى زوال الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول، وهي المرحلة التي كانت الخلافة فيها قوية في القرن الأول منها، ثم سيطرت عليها بعد ذلك القوى العسكرية التي كانت أحد العوامل المباشرة لضعفها وزوالها من بغداد.

تولى سبعة وثلاثون خليفة، أولهُم السفاح عبدُ الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وانتهت بالمستعصم بالله بنِ المستنصر.

الثانية: الخلافة بمصر: من ٦٥٩هـ إلى ٩٢٣هـ.

وهي المرحلة التي انفصلت فيها الخلافة عن إدارة البلاد الفعلية، وقام بإدارتها سلاطين المماليك بعد أن فصلوا سلطة الخليفة الدينية عن سلطتهم الزمنية، وكان ذلك من سنة ٦٥٩هـ:٩٢٣هـ؛ أي: إلى دخول سليم الأول العثماني مصر، ثم تنازل المتوكل الثالث آخر خلفاء العباسيين في مصر له عن الخلافة، فانتقلت بذلك إلى آل عثمان من الترك العجم، ولأول مرة تخرج من قريش إلى غيرهم كما سيأتي ذكره في الفصل الخامس.

خلفاء الدولة العباسية بالعراق:

العدد	الخلفـــــــــاء	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
١	عبد الله بن محمد بن علي السفاح	١٣٢ هـ	١٣٦ هـ
٢	أبو جعفر المنصور بن محمد بن علي	١٣٦ هـ	١٥٨ هـ
٣	المهدي بن أبي جعفر بن محمد	١٥٨ هـ	١٦٩ هـ
٤	الهادي بن المهدي بن المنصور	١٦٩ هـ	١٧٠ هـ
٥	هارون بن المهدي بن المنصور	١٧٠ هـ	١٩٣ هـ
٦	الأمين بن هارون بن المهدي	١٩٣ هـ	١٩٨ هـ
٧	المأمون بن هارون بن المهدي	١٩٨ هـ	٢١٨ هـ
٨	المعتصم بن هارون بن المهدي	٢١٨ هـ	٢٢٧ هـ
٩	الواثق بن المعتصم بن هارون	٢٢٧ هـ	٢٣٢ هـ
١٠	المتوكل بن المعتصم بن هارون	٢٣٢ هـ	٢٤٧ هـ
١١	المنتصر بن المتوكل بن المعتصم	٢٤٧ هـ	٢٤٨ هـ
١٢	المستعين بن المعتصم بن هارون	٢٤٨ هـ	٢٥٢ هـ
١٣	المعتز بن المتوكل بن المعتصم	٢٥٢ هـ	٢٥٥ هـ
١٤	المهتدي بن الواثق بن المعتصم	٢٥٥ هـ	٢٥٦ هـ
١٥	المعتمد بن المتوكل بن المعتصم	٢٥٦ هـ	٢٧٩ هـ
١٦	المعتضد بن الموفق بن المتوكل	٢٧٩ هـ	٢٨٩ هـ
١٧	المكتفي بن المعتضد بن الموفق	٢٨٩ هـ	٢٩٥ هـ
١٨	المقتدر بن المعتضد بن الموفق	٢٩٥ هـ	٣٢٠ هـ
١٩	القاهر بن المعتضد بن الموفق	٣٢٠ هـ	٣٢٢ هـ

العدد	الخلفـــــــــــاء	ولاية الخلافة	نهاية الخلافة
٢٠	الراضي بن المقتدر بن المعتضد	٣٢٢ هـ	٣٢٩ هـ
٢١	المتقي بن المقتدر بن المعتضد	٣٢٩ هـ	٣٣٣ هـ
٢٢	المستكفي بن المكتفي بن المعتضد	٣٣٣ هـ	٣٣٤ هـ
٢٣	المطيع بن المقتدر بن المعتضد	٣٣٤ هـ	٣٦٣ هـ
٢٤	الطائع بن المطيع بن المقتدر	٣٦٣ هـ	٣٨١ هـ
٢٥	القادر بن إسحاق بن المقتدر	٣٨١ هـ	٤٢٢ هـ
٢٦	القائم بن القادر بن إسحاق	٤٢٢ هـ	٤٦٧ هـ
٢٧	المقتدي بن محمد بن القائم	٤٦٧ هـ	٤٨٧ هـ
٢٨	المستظهر بن المقتدي بن محمد	٤٨٧ هـ	٥١٢ هـ
٢٩	المسترشد بن المستظهر بن المقتدي	٥١٢ هـ	٥٢٩ هـ
٣٠	الراشد بن المسترشد بن المستظهر	٥٢٩ هـ	٥٣٠ هـ
٣١	المقتفي بن المستظهر بن المقتدي	٥٣٠ هـ	٥٥٥هـ
٣٢	المستنجد بن المقتفي بن المستظهر	٥٥٥ هـ	٥٦٦ هـ
٣٣	المستضيء بن المستنجد بن المقتفي	٥٦٦ هـ	٥٧٥ هـ
٣٤	الناصر بن المستضيء بن المستنجد	٥٧٥ هـ	٦٢٢ هـ
٣٥	الظاهر بن الناصر بن المستضيء	٦٢٢ هـ	٦٢٣ هـ
٣٦	المستنصر بن الظاهر بن الناصر	٦٢٣ هـ	٦٤٠ هـ
٣٧	المستعصم بن المستنصر بن الظاهر	٦٤٠ هـ	٦٥٦ هـ

الخلافة العباسية في العراق

نشأت الخلافة العباسية على القوة والصدام مع خصومها بأشد أنواع القسوة ونقض العهود، ويبرز ذلك جلياً في أول خطبة لأول خلفائها عبد الله بن محمد أبي العباس كما أسلفنا، بل إنهم لم يتوانَوا في استعمال كل الأساليب الشريفة وغيرها في تمكين ملكهم، وقيام دولتهم.

قال الشيخ محمد الخضري: ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم، وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم، وفي بدء إسلامهم، وفي فتوحاتهم؛ فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم، ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة، فلما دخل بينهم هؤلاء الأغتام(١)، سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته.

ولعل ذلك كان بسبب خشيتهم على ضياع ملكهم في أوله وزواله، وأرادوا بذلك التمكينَ، واستقرارَ البلاد في أيديهم.

وكان من أبرز مظاهر الخلافة العباسية في العراق:

- **نقل عاصمة الخلافة من الشام إلى العراق:**

وذلك بسبب وجود شيعة العباسيين، إلى جانب القرب من الولايات الشرقية دائمة الفتن، ولذلك كان جلّ اهتمام الخلفاء بهذه الولايات الشرقية، ومنها المناطق التي يسكنها الفرس الذين يحلمون بعودة ملك فارس، ويحاولون الوثوب على الدولة الإسلامية كلما تمكنوا من ذلك.

وعلى العكس من اهتمام العباسيين بالولايات الشرقية لم يكن اهتمامهم بالولايات الغربية التي أُهمل بعضها لأسباب متعددة كان على رأسها انشغال العباسيين بإخماد الثورات في الولايات الشرقية، ومما أتاح لغيرهم هذه الفرصة لتكوين دولٍ وإمارات مستقلة عن الخلافة العباسية.

---

(١) الأغتام جمع غتم وهو العجمي الذي لا يحسن الفصاحة، ويقصد الشيخ بذلك: العجم من الفرس الموالي الذين زعموا محبة آل البيت بألسنتهم، وأبغضوهم بقلوبهم، وكانوا دائماً وراء كل غائلة صدر أو انتقام للخلفاء العباسيين من خصومهم.

- **الاهتمام بتنمية موارد الدولة المالية:**

ورث العباسيون من الأمويين دولة مترامية الأطراف، متنوعةَ المناخ والموارد الزراعية، والحاصلات التجارية، فهيؤوا طرقاً جديدة للتجارة، وجعلوا من البصرة ميناءً تجارياً هاماً، كما اهتموا بالزراعة اهتماماً ملحوظاً؛ مما أثرى اقتصاديات الدولة في عهدهم.

- **تراجع حركة الفتوح الإسلامية:**

تراجعت الفتوحات في عهد الخلافة العباسية عمَّا كانت عليه زمن الخلافة الأموية، وذلك للأسباب التالية:

١. **سعة الدولة التي ورثوها من الأمويين**، فاهتموا بتوطيد الأمن والحماية للدولة وخاصة مناطق الثغور - الحدود - مع الدولة البيزنطية.

٢. **كثرة الفتن والثورات والحركات الباطنية** والمؤامرات من أصحاب العقائد المنحرفة؛ كالخوارج، والمتلونين، ومدعي محبة آل البيت، والمجوس، والزنادقة، وهم أنفسُهم الذين خرجوا على الخلافة الأموية وأضعفوها، وكانوا أحد عوامل سقوطها.

مما أدى إلى عدم الاهتمام بمزيد من الفتوحات، بل لعبت دوراً هاماً في تراجع الدولة وضعفها، والتآمر عليها، والتعاون مع أعدائها؛ مما أدى إلى سقوطها في بغداد ٦٥٦هـ.

ومما هو جدير بالذكر أن تراجع حركة الفتوح لم يمنع الدولة العباسية من الأخذ بنظام الصوائف والشواتي الذي كان معمولاً به زمن الأمويين لمحاربة الدولة البيزنطية، فلقد كانت الدولة العباسية تتعامل بكل قوة مع محاولات الاعتداء على حدودها، كما حدث في عهد المعتصم، ونتج عنه فتح عمورية، وفي نفس الوقت لم تتخل الدولة عن جهاد الطلب، كما حدث في عهد المهدي، والرشيد، حيث دفع حكام الدولة البيزنطية الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

• ظهور أصحاب منهج الاعتزال المنحرف لفترة من الزمان(١):

اشتدت شوكة فرقة المعتزلة إحدى فرق الكلام والفلسفة في زمن الخليفة العباسي المأمون، الذي ناصرهم بكل ما لديه من قوة، وحمل الناس على اعتناق مذهبهم، وقرَّب إمامهم أحمدَ بنَ أبي دؤاد إليه، وجعله كاتبه ووزيره، وصاحب السلطان في دولته، وقد لقي المسلمون عنتاً شديداً منه، وفُتن كثير من الناس، وأوذي كثير من العلماء الأجلاء من أهل السنة، حتى كان زمان الخليفة المتوكل رحمه الله، فقرب أهل السنة وأَجَلَّهم، وأبطل القول بخلق القرآن، وأبطل المحاكمات التي عقدت للناس وللعلماء لمخالفتهم مذهب المعتزلة، وبذلك نصر المحدّثين نصراً مؤزراً، فأصبح القول بالاعتزال يُتحدث به سراً بعد أن لعب دوراً علنياً لفترة من تاريخ الأمة، واجهها أئمة عظام ثبتوا في محنتها وفتنتها، حتى أجرى الله تعالى الخير على أيديهم، وخرجوا بالأمة من الظلمات إلى النور، وكان أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله، إمام أهل السنة الذي عانى أشد المعاناة في محنةٍ اشتُهِرت في التاريخ باسم «محنة خلق القرآن»، ومحمد بن نوح رحمه الله الذي جمعت قيوده مع الإمام أحمد، وأرسلا إلى الخليفة المأمون الذي مات قبل أن يصلا إليه، فأُعيدا مرة أخرى، وفي طريق العودة مات محمد بن نوح رحمه الله.

ولقد أساء المأمون بتقريب هؤلاء، وتبعه في ذلك أخوه المعتصم الذي اشتدت في زمانه المحنة؛ لأنه لم يكن رجل علْم، بل كان رجلَ سيف لا يضعه عن عاتقه، فترك أمر المحنة إلى ابن أبي دؤاد يفعل بأهل السنة ما شاء، ثم تبعهما الواثق بن المعتصم الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، فسار سيرة أبيه وعمه، فامتحن العلماء، وسجنهم، وقتلهم؛ فقد حُمل إليه أبو يعقوب البويطي(٢) مع عدد من علماء مصر مقيدين في الأغلال، وامتنع أبو يعقوب

---

(١) المعتزلة : فرقة كلامية عقلانية انتسبت للإسلام ، واعتمدت على العقل المجرد أساساً لعقائدها وأفكارها، فخلطوا بين الشرعيات والفلسفات العقلية في كثير من مسائل العقيدة ، وقد افترقت إلى فرق وطوائف بلغت حوالي اثنتين وعشرين فرقة، وقد نشأت في نهاية القرن الهجري الأول بزعامة واصل بن عطاء الذي اختلف مع أستاذه الحسن البصري رحمه الله في حكم مرتكب الكبيرة.

وقد أسس المعتزلة لأنفسهم خمسة أصول يعتقدونها – التوحيد (على طريقة الجهمية)، العدل (على طريقة القدرية)، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (على طريقة الخوارج). وقد تأثروا بفلسفة اليونان والرومان القدماء وكتبهم التي وصفها أحد علماء اليونان بأنها ما دخلت بلداً إلا أفسدت أهله. د.غالب العواجي/ فرق تنتسب للإسلام.

(٢) يوسف بن يحيى البويطي، ولد بقرية بويط بمحافظة أسيوط مركز ساحل سليم، طلب العلم مبكراً وصاحب الإمام الشافعي، وتتلمذ عليه، وتصدر حلقته من بعده، له مؤلفات في الفقه الشافعي منها: كتاب المختصر. أخرج من مصر إلى بغداد في محنة خلق القرآن، وثبت على رأيه، فسجن ومات في سجنه سنة (٢٣١هـ) رحمه الله رحمة واسعة.

عن القول بخلق القرآن وقال: «إنما خلق الله الخلق بكن، فإذا كانت كن مخلوقة، فكأن مخلوقاً خلق مخلوقاً!!، والله! لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم، ثم سُجن، فكان يمشي كلما سمع نداء الصلاة، وخاصة يوم الجمعة، ويأتي إلى باب السجن، فيقول له السجان: ارجع رحمك الله!! فيقول: اللهم أجبت دعوتك فمنعوني، حتى مات في سجنه رحمه الله.

وقد قام الواثق بقتل أحمد بن نصر الخزاعي بيده وهو يتلو كلام الله عز وجل صابراً محتسباً. وظل الأمر كذلك حتى مات الواثق، وتولى المتوكل الذي رفع الله على يديه المحنة.

وهذه الفتنة لم يكن لها ظهور سابق قبل المأمون على يد أحد من خلفاء الدولة العباسية، بل كان الأمر عكس ذلك، فلقد أنكر أبو جعفر المنصور مقالة الجهم: «القرآن مخلوق»، وتوعد من يقول بها بالقتل، بل بلغه أن رجلاً قال هذه المقالة، وأقرّ بها أمام القاضي، فكتب المنصور للقاضي: «إن هو رجع وإلا فاضرب عنقه، فتاب الرجل ورجع عن قوله. وقد تصدى الرشيد رحمه الله لرجل قال بنفس المقالة، فأمر بضرب عنقه، وخاطب الناس بقوله: «قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، أبتغي بذلك التقرب إلى الله تعالى».

وبلغه خوض بشر المريسي في القول بخلق القرآن، فغضب وقال: لئن ظفرت به لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً قبله، فظل بشرٌ مستخفياً مدة خلافته، وذلك نحو عشرين سنة.

وأنكر الأمين على رجل قال بخلق القرآن واستدعاه وهدده إن هو قالها بعد ذلك، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان يقول: «إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره بدعة خلق القرآن على فلان»(١).

---

(١) معرفة الثقات (١/ ٢٢).

- **ظهور المصادر والمدونات والمراجع العلمية:**

ظهرت حركة علمية واسعة النطاق في العالم الإسلامي تمثلت في انتشار المجالس العلمية، والمدارس التي نتج عنها ثمرة عظيمة، منها: حركة التأليف والتدوين للعلوم الشرعية، ومن ذلك:

١. **المدونات الكبرى التي تعد مصادر أصيلة للمسلمين:** كموطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي ـ ت: ١٧٩هـ ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ـ ت: ٢٤١هـ ، ومسند أبي بكر ابن أبي شيبة ـ ت: ٢٣٥هـ، ومسند بقية بن مخلد ـ ت: ٢٧٦هـ.

كما ظهرت الكتب الستة الشهيرة، وعلى رأسها: صحيح الإمام البخاري محمد بن إسماعيل البخاري ـ ت: ٢٥٦هـ ، وصحيح الإمام مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري ـ ت: ٢٦١هـ، وسنن أبي داود للإمام أبي داود السجستاني ـ ت: ٢٧٥هـ، وسنن الترمذي للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ـ ت: ٢٧٩هـ، وسنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي ـ ت: ٣٠٣هـ، وسنن ابن ماجه أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه ـ ت: ٢٧٣هـ.

كما ظهرت كتب متعددة للسنة النبوية؛ كصحيح ابن خزيمة ـ ت: ٣١١هـ، وصحيح ابن حبان ـ ت: ٣٥٤هـ، وصحيح ابن السكن ـ ت: ٣٥٣هـ، وسنن الدارقطني ـ ت: ٣٨٥هـ، ومستدرك الحاكم ـ ت: ٤٠٥هـ، وسنن البيهقي ـ ت: ٤٥٨هـ.

كما ظهرت الكتب التي قامت بخدمة السنة في بيان حال الرجال، والكتب التي تعد قواعد علوم الحديث؛ ككتب المصطلح، مثل كتاب: المحدث الفاصل لأبي محمد الرامهرمزي ـ ت: ٣٦٠هـ، وكتاب معرفة علوم الحديث لأبي عبد الله الحاكم ـ ت: ٤٠٥هـ.

كما ظهرت كتب المستخرجات مثل: معاجم الطبراني رحمه الله ـ ت: ٣٦٠هـ، والعلل للدارقطني.

٢. **مدونات العقائد، سواءٌ عقيدة أهل السنة والجماعة، أو العقائد المنحرفة عنها ـ الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة في منهجها ـ.**

٣. **مدونات تفسير القرآن العظيم**: وعلى رأسها: تفسير الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله، شيخ المفسرين والمؤرخين.

٤. **مدونات الفقه الإسلامي**: خاصة بعد ظهور المذاهب الفقهية الأربعة: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، من مؤلفاتهم ومدوناتهم الأصيلة.

٥. **مدونات التاريخ والسير**: وأشهرها: تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، والكامل لابن الأثير.

٦. **مدونات الفنون والعلوم الكونية**: لم يقتصر تأليف وتدوين المسلمين على العلوم الشرعية فقط، بل تعدى ذلك إلى الفنون والعلوم الكونية؛ كالطب والعمارة والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم التي تعد أحد الركائز التي اعتمدت عليها حركة التطور العلمي الحديثة.

كما استخرج المسلمون من دراستهم لعلوم الشريعة الأصول الراقية للعلوم الإنسانية، ووضعوا لها كتباً ميزتها عن الأمم الأخرى.

- **سيطرة القوى العسكرية على الخلافة في بغداد:**

يعتبر القرن الأول من حياة الدولة العباسية ـ كما أسلفنا ـ هو عصر القوة لهذه الخلافة، ومنذ مقتل الخليفة المتوكل رحمه الله (سنة ٢٤٧هـ) بدأت الأمور تنحى إلى الضعف بسبب عوامل متعددة ومتداخلة أدت إلى سيطرة بعض القوى على مركز الخلافة في بغداد، ووجهت الأمور بها، وأصبحت لها الغلبة والسيطرة على الخليفة أحياناً كثيرة، مما أدى إلى ضعف مركز الخلافة، وسيطرة أصحاب الأهواء والبدع والمصالح الشخصية؛ مما فتَّ وأضعفَ عضدَ الدولة، وأدى إلى انهيارها وسقوطها في بغداد على يد المغول (سنة ٦٥٦هـ).

ٱلبَحْرَيْن

فِي عَهْدِ ٱلخِلَافَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ فِي ٱلعِرَاقِ

١٣٢هـ ـ ٦٥٦هـ

ٱلفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

ٱلخُلَفَاءُ ٱلعَبَّاسِيِّين
فِي عَصْرِ ٱلقُوَّةِ

شجرة النسب العباسي والخلفاء العباسيين في عصر القوة بالقرن الأول (١٣٢هـ -٢٤٧هـ)

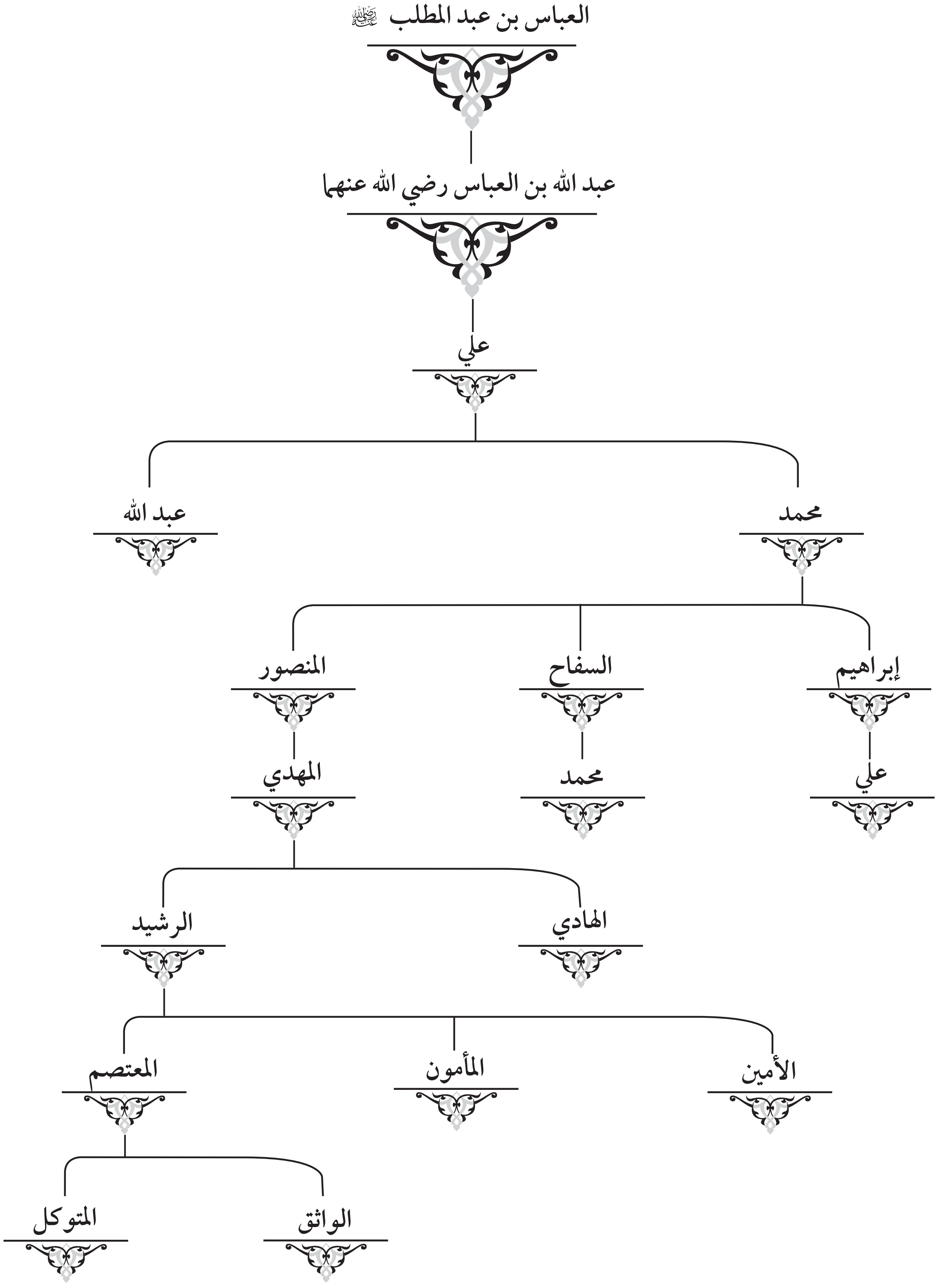
العباس بن عبد المطلب ﵁
عبد الله بن العباس رضي الله عنهما
علي
محمد
عبد الله
إبراهيم
السفاح
المنصور
علي
محمد
المهدي
الهادي
الرشيد
الأمين
المأمون
المعتصم
الواثق
المتوكل

الخليفة الأول: أبو العباس السفاح (١٣٢هـ - ١٣٦هـ):

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشيُّ الهاشميّ العباسيّ، ولد بالحُمَيمة (سنة ١٠٥هـ)، بويع له بالخلافة في يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول (سنة ١٣٢هـ).

اشتهر بالسفاح، ولعل ذلك بسبب مما أُريق من دماء في عهده، أو لأنه قال: «أنا السفاح المبيح، والثائر المبير» في خطبته الأولى.

والواضح أن المنحرفين عقَدياً في فارس والعراق، وما كتبوه من روايات تاريخية منحرفة مثلهم استغلوا هذه الكلمة استغلالاً واسعاً، ووصفوه بأنه شخصية قميئة، وأنه أتى بعجائب في الإسلام، بالرغم من أنهم هم الذين وطؤوا له، وأيدوه في قيام الخلافة العباسية، وكل ذلك من أجل أن يُنظر إلى تاريخ الخلفاء المسلمين نظرة قبيحة، ولقد كان هؤلاء ـ وما زالوا ـ داء ووباء وجرثومة في جسد الأمة الإسلامية، لا يقبلون أبداً أن تستقر الأمور في أرض الإسلام، ولا في مجتمعاته، فهم دائماً وراء كل فتنة منذ مقتل عثمان ﷺ إلى زماننا، فلقد ثبت أنهم كانوا يحرضون الخلفاء العباسيين على قتل الناس والغدر بهم، وهم الذين كانوا ينبشون قبور بني أمية، وأخرجوا الموتى، وأحرقوا ما تبقى من الجثث، وصلبوا بعضها.

وينبغي للمنصف العاقل أن يقارن بين مواقف العباسيين التي تُحسَب لهم، وبين ما يحسب عليهم.

لا شك أننا في حاجة إلى دراسة هذا التاريخ ـ وهذه المرحلة خاصة ـ دراسة متأنية، نقف من خلالها على حقائق الأمور، أو نقترب منها، فلا زال الأمر يحتاج إلى جهد جهيد من الدارسين والباحثين لبيان الحقائق والوقوف عليها.

عمل الخليفة الأول على التمكين للخلافة العباسية، فقام بإرسال عمه عبد الله بن علي لمحاربة آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، فاستطاع الانتصار عليه في موقعة الزاب كما سبق، ثم تتبعه حتى قضى عليه وقتله، وحُملت رأسه للخليفة بالعراق، كما استطاع

أن يقضي على مقاومة الأمويين بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة، والذي استسلم له بعد أن أمّنه الخليفة، ثم غدر به وأمر بقتله بعد أن علم أنه يدعو إلى تمكين البيت الطالبي بدلاً من العباسي، ودعا إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب(١)، وكتب إليه بذلك.

وقيل: إنه كان بإيعاز من أبي مسلم الخراساني الذي كان الخليفة يثق به ثقة تامة، ويأخذ برأيه فيما يجِدُّ له من أمور، حتى إنه كان لا يقطع أمراً دون مشورته.

كما أنه وقع في زمانه القتل والتنكيل ببني أمية، واستعمل في ذلك عمه عبد الله بن علي الذي قتل عدداً كبيراً منهم في دمشق، وفي فلسطين بعد أن أمّنهم ثم غدر بهم.

كما قام الخليفة بالانتقام من أبي سلمة الخلال وزيرِ آل محمد في رجب (سنة ١٣٢هـ)، فكان ذلك فتحاً لباب التخلص من قادة الثورة العباسية الذين لم ينالوا ثقة العباسيين، كما قام بتولية الولايات لعمال جدد، ومعظمهُم من أهل بيته العباسي، وخاصة الولايات المحيطة بالعراق، وانتقل الخليفة من الكوفة إلى الأنبار، فأقام بجوارها مدينة عرفت بهاشمية الأنبار اتخذها داراً للخلافة، وظلت عاصمة للدولة إلى أن تحولت إلى بغداد.

لم يطل البقاء بالخليفة العباسي الأول؛ إذ أنه أصيب بالجدَري، وتوفي في ذي الحجة (سنة ١٣٦هـ) ولم يدم بقاؤه أكثر من أربع سنوات، فكانت خلافته أربع سنوات إلا أربعة عشر يوماً من مقتل مروان بن محمد إلى وفاته.

ولم تخرج جيوش المسلمين في هذه الفترة للجهاد إلا القليل، وتوقفت الفتوحات حتى تستقر الدولة في يد بني العباس، فأعادوا الفتوحات وتأمين حدود الدولة بعد ذلك.

وقد استغل الخوارج هذا التغيير، فقاموا بنشاط موسَّع بالبحرين ـ وخاصة في جزيرة ابن كاوان ـ بقيادة أميرهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري(٢)، فأرسل إليهم الخليفة جيشاً

---

(١) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي الملقب بالنفس الزكية، ولد (سنة ١٠٠هـ)، كان ممن خرج على بني العباس مع أخيه إبراهيم مدة خلافة أبي العباس السفاح، خرج أخوه إبراهيم إلى البصرة في عهد المنصور، وخرج هو في المدينة، فأرسل المنصور إلى قتاله جيشاً تمكن من محمد وقتلوه واحتزوا رأسه يوم الإثنين ليلة الخامس عشر من رمضان (سنة ١٤٥هـ)، ودفن بالبقيع، وكان عمره خمساً وأربعين سنة. الذهبي/ السير (٦/ ٢١٠).

(٢) سبق تخريجه.

بقيادة خازم بن خزيمة(١) إلى جزيرة ابن كاوان(٢)، فقاتلهم قتالاً شديداً مما اضطرهم أن يفروا في السفن إلى عُمان، فواجههم هناك الجلندي أميرُ عمان الإباضيُّ الخارجي(٣)، واقتتلوا قتالاً شديداً، قُتل فيه شيبان ومن معه، وسار خازم بن خزيمة إلى عمان، فلقي الجلندي وأصحابه، وقاتلهم قتالاً شديداً، واستطاعوا قتل الجلندي وعشرة آلاف ممن معه، ودانت عمان والبحرين للخليفة الأول.

وفي عهد الخليفة الأول استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك(٤) أن يفر من وجه العباسيين عن طريق مصر، وواصل سيره إلى أخواله في مدينة طنجة، ومن هناك أعد العدة لدخول الأندلس وتولي الحكم فيها.

وقبل أن يتوفى الخليفة عهد بعهد قُرئ على الناس بولاية الخلافة لأخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي(٥)، وكان أخوه أبو جعفر المنصور أميراً على الحج، وفي طريق عودته بلغه الخبر وهو بذات عرق، وكان عمه عبد الله بن علي أميراً على الشام، وقد وكل إليه أمر غزو الروم الذين هددوا الدولة في ذلك الوقت.

فلما توفي أبو العباس، قام عيسى بن موسى فأخذ البيعةَ للمنصور من أهل العراق، وأرسل إلى القادة والأمراء بذلك، فبايع أبو مسلم للمنصور الذي وصل إلى الكوفة فصلى الجمعة بها، وخطب في أهلها، وأخبرهم بأنه راحل إلى الأنبار.

---

(١) خازم بن خزيمة بن عبد الله بن حنظلة النهشلي التميمي، أحد النقباء السبعين المشاهير في دولة بني العباس، من بيت معظّم عند العباسيين، استعملته الدولة العباسية هو وولده خزيمة في القضاء على الكثير من حركات الخوارج وثوراتهم، فكان بمثابة قوة ضاربة للدولة عند قيامها، من كبار قادة الدولة العباسية، ومن الثورات التي قضى عليها: ثورة الإباضية في عمان (سنة ١٣٤ هـ)، وثورة الروانديه (١٤١ هـ)، وثورة ملبد بن حرملة بالجزيرة، وثورة عبد الجبار الأزدي، وثورة أستاذ سيس، وثورة بسام بن إبراهيم المدائني، توفي رحمه الله في بغداد، وسار في جنازته الخليفة المنصور. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: هارون الرشيد (ص:٤١).

(٢) جزيرة ابن كاوان: جزيرة عظيمة بالبحر بين عمان والبحرين، افتتحها عثمان بن أبي العاص الثقفي ﵁ في أيام عمر بن الخطاب ﵁، وكانت من أجلّ جزائر البحر، عامرة بأهلها، وبها قرى ومزارع.

وسميت بابن كاوان نسبة للحارث بن امرئ القيس بن حجر بن عامر بن مالك بن زياد والذي يصل نسبه إلى عبد القيس، ويقال عنها: جزيرة لافيت. ياقوت الحموي/ معجم البلدان (٢/ ١٦١).

(٣) الجلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي الأزدي أمير عمان وعظيم الأزد، كان خارجياً إباضياً قتل في (سنة ١٣٤هـ). محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: السفاح (ص:٩٩).

(٤) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي الملقب بصقر قريش، والذي لقبه بذلك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور لشجاعته، وأيضاً لقب بعبد الرحمن الداخل؛ لدخوله الأندلس بعد زوال الخلافة الأموية في دمشق، فاتحاً لها فتحاً ثانياً بعد زوال الخلافة الأموية في دمشق، وأصبح أميراً عليها من (سنة ١٣٨هـ إلى ١٧٢هـ)، ولد بالشام في قنسرين (سنة ١١٣هـ)، وتوفي بقرطبة في الأندلس (سنة ١٧٢هـ)، وهو يعتبر مؤسس الإمارة الأموية في الأندلس. الذهبي/ السير (٨/ ٢٤٤).

(٥) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحُميمة (سنة ١٠٢هـ) ونشأ بها، وكان من فرسان بني العباس، ولقبوه بشيخ الدولة، ولاه الخليفة ولاية الكوفة، وهو الذي قضى على حركة محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم، استطاع المنصور عزله عن الكوفة في خلافته، وأرضاه بمال كثير ليؤخره عن ولاية العهد، وقدّم عليه ولده محمد المهدي بن المنصور على أن يبقى عيسى ولي عهد للمهدي، فقبل عيسى بن موسى ذلك، لكن لما ولي المهدي الخلافة خلعه المهدي من ولاية العهد، توفي بالكوفة (سنة ١٦٨هـ) وعمره ٦٥ سنة في خلافة المهدي. الذهبي/ السير (٧/ ٤٣٤).

الخليفة الثاني: أبو جعفر المنصور (١٣٦هـ - ١٥٨هـ):

أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشميُّ العباسيُّ، ولد (سنة ٩٥هـ)، تولى الخلافة بعد أخيه أبي العباس السفاح، يعتبر المؤسس الفعلي للخلافة العباسية، وبانيَ مجدها وقوتها، واستطاع أن يثبت أركان الدولة والحكم بالتخلص من كثير من خصوم العباسيين، فقضى على فتنة عمه عبد الله بن علي العباس(١)، والذي ادعى لنفسه الخلافة بعد وفاة السفاح، كما قضى على نفوذ المعارضين للدولة، الذين لعب بعضهم دوراً رئيساً في قيام الدولة؛ أمثال أبي مسلم الخراساني(٢)، وبذلك تخلص من نفوذ الفرس.

كما قضى أيضاً على فتنة العلويين التي مَثَّلَها محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب «بالنفس الزكية»، والذي أخذ البيعة لنفسه من جماعة من أهل الحجاز، وذلك في آخر عهد الخلافة الأموية، وكان من جملة من بايعه أبو جعفر المنصور، فلما صارت الدولة لبني العباس، خاف المنصور من خروجه عليه، فتتبعه حتى تمكن منه وقتله في الحجاز، وتمكن أيضاً من قتل أخيه إبراهيم بن حسن بن الحسن الذي ثار بالبصرة.

كما قضى على حركة سنباذ(٣) الذي اعتبر نفسه ولياً لدم أبي مسلم الخراساني، وخرج على الدولة غضباً لمقتل أبي مسلم الخراساني.

---

(١) ادعى عبد الله بن علي أنه الخليفة بعد السفاح، فلما بويع للمنصور خلعه وأعلن البيعة لنفسه في الشام، فاستطاع المنصور أن يضرب عصفورين بحجر واحد؛ إذ أنه رمى عمه بأبي مسلم الخراساني ليتخلص من أحدهما بيد الآخر، أو يتخلص منهما معاً، فأيهما زال فقد زال من طريقه، واستطاع أبو مسلم أن ينتصر على عبد الله بن علي بعد عدة معارك في الشام فر بعدها عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد إلى العراق، فمضى عبد الله بن علي إلى أخيه سليمان في البصرة والذي أعطاه الأمان، ونزل عبد الصمد على ابن أخيه عيسى بن موسى في الكوفة فأمنه، فانتهت بذلك فتنة عبد الله بن علي.

(٢) وقع الخلاف بين الخليفة وأبي مسلم الخراساني بعد معاركه في الشام، وظن أبو مسلم أنه أقوى رجل في الدولة، ورفض تولية الخليفة له الشام ومصر بدلاً من خراسان، ودارت بينهما مراسلات انتهت باستدراج الخليفة لأبي مسلم وقتله بالمدائن في (سنة ١٣٧هـ) وتخلص من فتنته.

(٣) خرج سنباذ الفارسي في (سنة ١٣٧هـ) على أثر مقتل أبي مسلم في نيسابور، وكان دينه المجوسية، وهو رجل من صنيعة أبي مسلم الذي كان معظم أتباعه في نيسابور وخراسان دينهم المجوسية، ولكنهم كانوا يظهرون الإسلام تقية، استطاع سنباذ أن يخرج مع جيش كبير سيطر به على نيسابور وقومس والري (طهران)، وأخذ خزائن أبي مسلم بالري، وأحدث فتنة عظيمة، وأظهر وجهه القبيح الحقيقي بأنها ثورة مجوسية قومية تدعو إلى عودة ملك كسرى، فوجه إليه أبو جعفر قوة تتألف من عشرة آلاف مقاتل بقيادة جهور بن مرار العجلي الذي واجه سنباذ في معركة شرسة اقتتلوا فيها قتالاً شديداً، وهزم فيها سنباذ وقتل من أصحابه نحو ستين ألفاً، وسبيت ذراريهم ونساؤهم، ثم قتل سنباذ، بعد أن كانت فتنته سبعين ليلة من مخرجه إلى مقتله. ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (أحداث سنة ١٣٧).

كما قضى على الراوندية(١) الذين خرجوا عليه في خراسان واستفحل أمرهم في (سنة ١٤١هـ) مطالبين أيضاً بالثأر لأبي مسلم الخراساني، كما قام بالقضاء على حركة أستاذ سيس(٢) في (سنة ١٥٠هـ) وكان قد خرج على الدولة في خراسان، فواجهته الدولة وقضت عليه.

كما ظهرت في أيامه الإمارة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك، وقد لقبه المنصور بصقر قريش تعبيراً عن إعجابه به، ولم يتمكن المنصور من إرسال جيش إلى الأندلس من أجل أن يضمها للعباسيين بسبب بعد المسافة بينه وبينها، كما قامت في عهده الدولةُ الرستمية الخارجية في تاهرت بشمال إفريقيا بالمغرب الأوسط -الجزائر- بقيادة عبد الرحمن بن رستم(٣)، كما قامت إمارة بني مدرار الصفرية الخارجية في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى(٤).

وبذلك استقرت الدولة في عهد المنصور الذي قام ببناء بغداد ليتخذها عاصمة للدولة، والتي أصبحت بعد ذلك حاضرة الدنيا، يفد إليها التجار وطلاب العلم من كل مكان لزمن طويل زاد على خمسة قرون.

توفي أبو جعفر المنصور رحمه الله وهو في طريق ذهابه إلى الحج في شهر ذي الحجة (سنة ١٥٨هـ) وترك من خلفه دولة قوية لولده المهدي.

---

(١) الراوندية كانوا جزءاً من شيعة العباسيين في خراسان، ولما قامت الدولة أظهروا التمرد عليها وخالفوها، وظهرت منهم آراء متطرفة في العباسيين؛ كما قالوا بتناسخ الأرواح، ورأوا في أنفسهم أنهم أولى الناس بالثأر لأبي مسلم الخراساني، واشتد أمرهم في (سنة ١٤١هـ) حيث بلغوا مدينة الهاشمية وداروا حول قصر الخلافة فعلم أبو جعفر مقصدهم، فأمرهم ألا يجتمعوا وألا يعظموه ويغالوا فيه، فأبوا ذلك وقاموا حول قصره يطوفون ويقولون: (قصر مولانا)، فأرسل أبو جعفر بالقبض على مئتين من رؤسائهم وحبسهم فتجرؤوا واقتحموا السجن وأخرجوا أصحابهم ثم قصدوا قصر الخلافة وهم يومئذ ستمئة رجل بعد أن أغلقوا أبواب المدينة، فخرج إليهم المنصور بنفسه وقاتلهم حتى قضى عليهم جميعاً.

(٢) خرج أستاذ سيس على الدولة في (سنة ١٥٠هـ) وهو رجل من الكفرة، خرج في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها ومعه يومئذ ثلاثمئة ألف، وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وسبوا خلقاً كثيراً، وأحدثوا فساداً عظيماً، وتفاقم أمرهم، فوجه إليهم المنصور جيشاً من أربعين ألفاً بقيادة خازم بن خزيمة الذي أخذ يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة حتى فاجأهم بالحرب وواجههم بالضرب فقتل منهم نحو سبعين ألفاً وأسر أربعة عشر ألفاً، وهرب ملكهم أستاذ سيس لكنهم استطاعوا أن يقبضوا عليه وأخذوه إلى المنصور حيث ضرب عنقه هناك، كما ضرب أعناق أصحابه جميعاً من الأسرى في خراسان. ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (أحداث سنة ١٥٠).

(٣) الدولة الرستمية دولة خارجية أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي الأصل بين (سنة ١٤٠هـ إلى ١٦٠هـ) في تاهرت بالمغرب الأوسط -الجزائر- وقد توفي في (سنة ١٧١هـ) وبويع لابنه عبد الوهاب أميراً عليهم وانحرف عن جادة الصواب وأسس منهجاً منحرفاً ينسب إليه، أطلق عليه العلماء: الوهبية أو الوهابية، وبقيت هذه الدولة قائمة إلى أن قضى عليها عبيد الله الفاطمي الشيعي مدعي الفاطمية (سنة ٢٩٦هـ)./ راجع الدول المستقلة بالكتاب.

(٤) فرقة تنسب إلى زياد بن الأصفر نشأت بالعراق، وقامت لهم دولة في المغرب الأدنى، وتأثر بهم البربر كثيراً، واستطاعوا أن يسيطروا على سلجماسة، وأسسوا بها دولة بني مدرار، وكان من أبرز قادتها ميسرة المطغري، وهم ممن خالفوا فرق الخوارج الأخرى كالأزارقة والنجدات والبيهسية في بعض معتقداتهم، وكفّر بعضهم بعضاً، واصطدموا مع الدولة الأموية التي كانت للخوارج بالمرصاد؛ كما أنهم لا تختلف عقائدهم كثيراً عن عقائد الإباضية، وكذلك اصطدموا مع الدولة العباسية، ثم هادنوها، مثلهم مثل الإباضية.

الخليفة الثالث: محمد المهدي (١٥٨هـ - ١٦٩هـ):

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولد في الحُميمة (سنة ١٢٦هـ)، تولى الخلافة بعهدٍ من أبيه أبي جعفر المنصور بعد أن أرضى عيسى بن موسى الذي عهد له السفاح بعد المنصور.

أعدَّه والده إعداداً قوياً لتولي الخلافة، وبعد وفاة المنصور بويع للمهدي مرة أخرى بالخلافة صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده.

تولى المهدي الدولة والولاياتُ بها في حالة من الهدوء سوى ولايتي الجزيرة وخراسان، فالخوارج في الجزيرة دائمو الشغب والخروج على الدولة.

وأما خراسان، فكانت تمثل قاعدة للذين أبطنوا المجوسية وأظهروا الإسلام تقيةً في سبيل سلامتهم، وهم في الحقيقة يبغضون الإسلام، ويحقدون عليه، وكلما تهيأت الفرصة لهم حاولوا الوثوب على الدولة من أجل عودة ملك فارس، تحت مظلة أنهم قاموا محبة لآل بيت النبي ﷺ، وهي دعوة ينظرون إليها على أنها السبيل لبقائهم واستمرار نشاطهم، وكسباً لأعوان جدد في العالم الإسلامي، وهم في الحقيقة من أشد الناس بغضاً لرسول الله ﷺ ولآله ولأصحابه، وقد دلل على ذلك مواقفهم المخزية من دعوى أحقية آل البيت بالخلافة، فهل العباسيون من خارج آل بيت النبي ﷺ؟! أليسوا أبناء عمومته؟!

لقد فُضحوا بخروج سنباذ على الدولة وإظهاره المجوسية علناً بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، وظهرت حقيقتهم عارية وإن ادعوا غير ذلك⁽¹⁾.

ولقد تنبهت الخلافة العباسية لذلك، فكانوا تارة يعالجونه بالقوة، وتارة باللين والموادعة والعطاء الجزيل؛ لتبقى جسور خراسان مرتبطة بالدولة، عسى أن يرجعوا عما هم عليه من الأفكار المنحرفة، ولكن ذلك من الصعب للغاية، إذ أن الراسخ في النفوس والثابت من العقائد في القلوب لا يغيره إلا الله، ثم الإطاحة بالرؤوس.

---

(١) يقول الأستاذ محمود شاكر في سلسلة الخلفاء: وأما خراسان فهي قاعدة المتلونين الذين يظهرون الإسلام في سبيل سلامتهم، ويحقدون عليه حقيقة، ويبطنون المجوسية ويحلمون بعودتها بعد ضعف المسلمين نتيجة تخطيطهم وتآمرهم.

ويضيف: بل إذا قامت جماعة ذات جذور غريبة وأفكار شاذة ادعت محبتها لآل النبي ﷺ وانتماءها إليهم لتكسب العطف، فتنسب في المجتمع على أنها من أتباع المتلونين، ثم أضاف: هذه الحركات كلها تظهر في شرقي ديار الإسلام، ومعظمها في خراسان، ولهذا معناه البعيد فيجب الانتباه.

ولقد تتابعت الحركات الطائفية الثورية على الدولة خاصة في هاتين الولايتين، وحيثما تجد مكاناً فيه الخوارج، أو مدعي محبة آل البيت، تجد القلاقل، وزعزعة الأمن والاضطرابات، والعقائد المنحرفة، والدعوى للخروج الدائم على السلطة، ولقد وقع في زمان المهدي من هذه الحركات الكثير، منها:

حركة يوسف البرم:

كما أسلفنا كانت خراسان مسرحاً لأصحاب النفوس المريضة، فقد خرج في (سنة ١٦٠هـ) يوسفُ بن إبراهيم الذي يقال له: يوسف البرم ملتفاً حوله عددٌ كثير، وتغلب على مرو والطالقان والجزجان، فأرسل إليه المهدي جيشاً بقيادة يزيد بن مزيد⁽¹⁾، فاقتتل مع جيش البرم قتالاً شديداً انتهى بهزيمة يوسف البرم الذي وقع أسيراً مع عدد من كبار أصحابه، فأرسلهم يزيد إلى الخليفة الذي أمر بضرب أعناقهم.

حركة اليشكري:

كما قام الخوارج في قنسرين (سنة ١٦٢هـ) بحركة قادها عبد السلام بن هاشم اليشكري⁽²⁾، وتبعه خلق كثير، وأصبح له مكانة في الناس، فقاتله جمع من الأمراء إلا أنه استطاع أن ينتصر عليهم عدة مرات، فأرسل إليه المهدي جيوشاً أنفق عليها أموالاً جزيلة حتى استطاعوا أن يقضوا عليه وعلى فتنته.

حركة المُحَمِّرَة:

وخرجت في العام نفسه (سنة ١٦٢هـ) في جرجان طائفة لبسوا الثياب الحمراء، وسُموا بالمحمرة، وأميرهم رجل يقال له: عبد القهار، فأرسل إليه المهدي جيشاً من طبرستان بقيادة عمر بن العلاء⁽³⁾ عاملِ الخليفة على طبرستان، واستطاع أن يكسر عبد القهار وجماعته، وتمكن من قتله.

---

(١) يزيد بن مزيد بن زائد الشيباني، يكنى بأبي خالد، أمير من القادة الشجعان، ولي أرمينيا وآذربيجان كما ولي اليمن، وفي عهد هارون الرشيد قاتل الخوارج، توفي (سنة ١٨٥هـ) في آذربيجان. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: محمد المهدي (ص:٤١).

(٢) عبد السلام بن هاشم اليشكري، ثائر خارجي، خرج بالجزيرة أيام المهدي العباسي، واشتدت شوكته، وكثر أتباعه، وخاض معارك مع جيش المهدي انتصر في بعضها إلى أن تمكن جيش المهدي من قتله في (سنة ١٦٢هـ). محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: محمد المهدي (ص:٤٥).

(٣) عمر بن العلاء من الموالي من أهل الري – طهران – وقف في وجه سنباذ عند خروجه، وأبلى بلاء حسناً في مواجهته فجعله المنصور من جملة القادة، ولي طبرستان، وقتل بها في خلافة المهدي (سنة ١٦٥هـ) نحسبه عند الله شهيداً. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: محمد المهدي (ص:٤٣).

حركة المُقَنَّع:

وبعدها بعام وقعت حركة المقنع الخراساني، واسمه عطاء، كان من مشعوذي أهل مرو، وادعى الربوبيةَ وتناسخَ الأرواح، وزعم أنها انتقلت إليه من أبي مسلم الخراساني، وكان المقنع مشوه الوجه والجسم، فاتخذ قناعاً من الذهب، وادعى هو وأصحابه أنه على صورة القمر إذا خرج إلى الناس ظل ضوءُه يراه الناس من مسيرة شهرين ثم يغيب عنهم، وهذه الدعوة استهوت كثيراً من البشر، حتى قوي أمره ووصل إلى بلاد ما وراء النهر، فأرسل إليه الخليفة جيشاً بقيادة سعيد الحرشي، فتوجه إلى المقنع الذي تحصن بقلعة كش، وبدأ يجمع ويخزن الطعام والشراب والعتاد ليواجه حصار جيش الخلافة، وبالفعل اشتد حصار سعيد الحرشي للقلعة، فلما أحس المقنع أنه هالك، قال لمن معه ولنسائه: «إني صاعد إلى السماء»، فأسقى أهله ونساءه سماً، ثم شرب هو السم، فماتوا جميعاً، ودخل المسلمون هذه القلعة، وقتلوا من تبقى بها حياً، وانتهت فتنته في (سنة ١٦٣هـ).

حركة الفتوحات في عهد المهدي:

وفي عهد المهدي خرجت الجيوش في أوقات محددة بالصيف والشتاء -الصوائف والشواتي- منطلقة للجهاد في مواجهة الروم في آسيا الصغرى على مدى خلافته، حتى استطاع أن يحمي ثغور الدولة وحدودها، ويمنع الروم من الوصول إلى بغيتهم.

كما وجّه جيوشه نحو المشرق لحماية الدولة من جهة، ولفتح مناطق جديدة من جهة أخرى.

كما وجّه عن طريق البحر جيشاً آخر (سنة ١٥٩هـ) إلى الهند، ففتحت لهم من جهة الساحل، ورجعوا بعدها بالسبي الذي كان فيه ابنة أحد ملوك الهند، كما أرسل غزواً آخر إلى الهند (سنة ١٦١هـ).

من أهم أعماله:

كان المهدي رحمه الله ممن يُقبل على الله تعالى كثيراً، وخاصة في مواسم الحج، فقد حج في (سنة ١٦٠هـ) ونزع كسوة الكعبة المتراكمة بعضها على بعض أزماناً كثيرة، بعد أن

أخبره حجبة الكعبة أنهم يخافون عليها من كثرة ما عليها من الكسوة، فأصدر أمره بكشف ما عليها من الكسوة حتى تجردت الكعبة، ثم طلا البيت كله بأطيب الطيب رحمه الله، وذكر أنهم لما بلغوا إلى كسوة هشام بن عبد الملك، وجدوها ديباجاً ثخيناً جيداً.

وقد كانت عطاياه في هذا الحج من أبلغ العطايا للمسلمين، كما أنه أمر ببناء القصور في طريق مكة، كما أمر باتخاذ المصانع، وهي أحواض الماء المسقوفة حرصاً على طهارة الماء ونظافته وبرودته، كما يذكر التاريخ أنه أول من حُمل إليه الثلج في مكة من الخلفاء.

وفي عهد المهدي زادت مساحة المسجد الحرام بعد أن أدخل فيه دوراً كثيرة، كما زاد مساحةَ مسجد رسول الله ﷺ أيضاً، وأمر بإقامة البريد بين المدينة النبوية ومكة واليمن.

وتوفي المهدي في (سنة ١٦٩هـ) وهو في طريقه إلى ولده موسى الهادي بجرجان، وقد مات في مكان يقال له: ماسبذان في شهر محرم. رحمه الله.

وكان قد عهد لولده موسى الهادي، ومن بعدِه لولده هارون، وقد بلغ عمره يوم وفاته ٤٣ سنة، وصلّى عليه ابنه هارون.

الخليفة الرابع: موسى الهادي (١٦٩هـ - ١٧٠هـ):

هو موسى بن محمد المهدي بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولد بالري -طهران- (سنة ١٤٧هـ)، وكان أخاً شقيقاً لهارون الرشيد.

عهد إليه المهدي بالخلافة من بعده، ولأخيه هارون الرشيد من بعده، لكن بدا له أن يعزله ويقدم الرشيد عليه؛ لما رآه في الرشيد من الصلاح لمنصب الخلافة، فأرسل إلى الهادي وهو في جرجان، فلم يأت إليه، فخرج المهدي بنفسه مع الرشيد، وتوفي بالطريق كما تقدم، وبقي الهادي ولياً للعهد؛ لذا بويع بالخلافة، وأرسل هارون بعد دفن أبيه إلى الأمصار، وأخذ بيعتهم لأخيه موسى الهادي، وله بولاية العهد من بعده، أدار الهادي أمر الخلافة من بغداد التي عاد إليها، ولم يكمل الثانية والعشرين من عمره.

وقد حدثت ثورات مع بداية عهده كما هي العادةُ من مدعي محبة آل البيت، والزنادقة، فاشتد الهادي بحزم في طلب الزنادقة المنحرفين عقدياً، فقتل جماعة منهم، وكان من أهم الثورات:

ثورة الحسين بن علي بن الحسن:

كان الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يعيش ببغداد، وعندما تولى موسى الهادي خرج منها قاصداً الكوفة، فجاءه أهل البلاء كعادتهم في كل زمان من أزمنة الإسلام، الذين ادعوا زوراً محبة آل البيت، وفعلوا معه كما فعلوا بأجداده، إذ أنهم أثاروه، وحرضوه، وزينوا له الخروج على الخليفة الهادي، وبايعوه، وواعدوه موسم الحج للثورة مع أهل مكة، وراسلوا أهل خراسان والمشرق ليستحثوهم على ذلك.

وبعد أن تمت بيعتهم له، عاد الحسين إلى المدينة، ووقع بينه وبين أمير المدينة عمر بن عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب خلاف شديد، وكان الحسين قد تواعد مع يحيى بن عبد الله ابن الحسن(١) أن يخرجوا ويخلعوا طاعة موسى الهادي بمكة في موسم الحج.

فخرج يحيى بن عبد الله مع جماعة من أعوانه، وهاجم دار الإمارة التي لم يكن الأمير بها، فذهبوا إلى منزله فلم يجدوه أيضاً، ثم اقتحموا المسجد في صلاة الصبح، وبعد أن صلى الصبح جاءه الناس يبايعونه للمرتضى من آل محمد.

نهض أمير المدينة عمر بن عبد العزيز مع الجند المقيمين بالمدينة، والتقى بأتباع الحسين بن علي، فجرى بينهم مقتلة، قُتل على أثرها قائد الجند العباسيين خالد البربري، قتله يحيى ابن عبد الله وأخوه إدريس بن عبد الله، ثم حملوا على الجند فانهزموا، وغادر عمر بن

---

(١) يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، من كبار البيت العلوي في زمان موسى الهادي وهارون الرشيد، نشأ في المدينة وتفقه وتلقى العلم على يد جعفر بن محمد بن علي بن الحسين -جعفر الصادق-، نجا في يوم معركة فخ، وفر إلى اليمن، وبايعه جمع من أهل الحرمين واليمن، وذهب إلى مصر وأخذ البيعة من بعض أهلها، ثم ذهب إلى المغرب، ثم عاد إلى المشرق، ودخل العراق متنكراً، ومنها إلى مواطن الفتن إلى الري وخراسان وإلى بلاد ما وراء النهر، وكان ذلك في خلافة الرشيد الذي أرسل في طلبه واشتد في ذلك، فانصرف يحيى إلى ملك الترك ومعه ما يقرب من مئة وسبعين رجلاً من أعوانه، فأقام سنتين ونصفاً؛ وخرج إلى طبرستان والديلم، فأعلن دعوته (سنة ١٧٥هـ) فالتف حوله مثيرو الفتن، فأرسل الرشيد خمسين ألفاً بقيادة الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، وعندئذ خاف يحيى بن عبد الله من غدر ملك الديلم، فأرسل يطلب الأمان من الرشيد فأمنه، واستقدمه إلى بغداد، وأغدق عليه العطايا، لكنه قابل ذلك بالدعوى لنفسه سراً في العراق، ومراسلة أهل الفتن في خراسان وفارس، فحبسه الرشيد عند الفضل بن يحيى البرمكي الذي أطلق سراحه بعد مدة قصيرة بدون إذن الرشيد، فلما علم الرشيد، نقم على البرامكة، وأرسل في طلب يحيى، فقبض عليه وسجنه في سرداب، وأوكل به سيافه مسروراً، وكان كثيراً ما يدعوه الرشيد ويناظره، لكنه لم يخرجه من سجنه بعفو إلى أن مات بالسجن (سنة ١٨٠هـ).

عبد العزيز المدينة، وبعد أحد عشر يوماً توجه الحسين إلى مكة للوفاء بالموعد مع أهل الكوفة الذين واعدوه في موسم الحج.

وقد بلغ الخبر الخليفةَ، فأرسل بعد موسم الحج رجالاً، فلقُوا الحسينَ في معركة فخ التي قتل فيها الحسين، وانهزم جندُه، واختلطوا بالحُجاج، فنودي بالأمان، وفر ابن عمه يحيى، وأخوه إدريس من القتال، وأسس إدريس دولة الأدراسة في المغرب (سنة ١٧٢هـ) والتي بقيت إلى سنة ٣٧٥هـ(١).

موقف الروم:

استغل الروم صغر سن الخليفة في نظرهم، والثورات الداخلية في الدولة العباسية، فأقبلوا إلى مناطق الثغور، ودخلوا إلى ثغر الحَدث(٢)، فقام المسلمون بالردّ عليهم بقيادة معيوف بن يحيى أحدِ قادة الجند بالدخول إلى أرض العدو، وبلغوا مدينة أشنتة، وأصابوا غنائم كثيرة، وسبوا وأسروا الكثير تأديباً لهم.

ولاية العهد:

أراد الهادي أن يخلع أخاه هارون الرشيد من ولاية العهد، وأن يأخذ البيعة لابنه جعفرِ ابنِ موسى الصغير الذي لم يبلغ الحلم، فأيده على ذلك بعضُ خاصته من القادة، فخلعوا هارون، وبايعوا لجعفر، وأوعزوا لأعوانهم ولجندهم أن يحذوا حذوهم، فأبوا عليهم ذلك.

وكان موسى الهادي رجلاً عاقلاً، إذا نُصح انتصح، فنصحه يحيى بن خالد ألا يفعل ذلك، وأن يقر الأمر على حاله الأول، ففعل، وقال: نبهتني يا يحيى، فكان يحيى يقول: ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى.

وما لبث موسى الهادي أن مرض، وبعد ثلاثة أيام من مرضه توفي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع الأول (سنة ١٧٠هـ)، ولم يمكث في الخلافة سوى سنة وشهرين رحمه الله، فصلى عليه أخوه هارون.

---

(١) راجع الدول المستقلة في العهد العباسي بالكتاب.

(٢) الحدث: قلعة حصينة تقع على البعد من حلب جهة الشمال بمئتين وخمسين كيلو متر، ويقال لها الحمراء؛ لأن تربتها حمراء، وحصنها من الحصون التي فتحت في زمان عمر بن الخطاب ﵁، وكان الأمويون يسمون درب الحدث بدرب السلامة من باب التفاؤل. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: موسى الهادي (ص:١٤٩).

الخليفة الخامس: هارون الرشيد (١٧٠هـ - ١٩٣هـ):

هو هارون بن محمد المهدي بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ولد بالري (سنة ١٤٩هـ)، وكان الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي قد ولد قبله بسبعة أيام(١)، فقامت أم الفضل بإرضاع الرشيد، وقامت الخيزران أم الرشيد بإرضاع الفضل.

نشأ في كنف جده الخليفة أبي جعفر المنصور، وفي حجر والده محمد المهدي، وبويع له بالخلافة ليلة الجمعة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي، وكان عمر الرشيد اثنتين وعشرين سنة(٢)، ويعد الرشيد من أصلح وأقوى خلفاء بني العباس، بلغت الدولة عظمتها وأوجها في زمانه، وانكسرت شوكة الروم، ودفعت له الجزية، وانتظمت الصوائف والشواتي في الجهاد.

كان الرشيد رحمه الله تقياً ورعاً يخشى الله ويُقبل عليه، وليس كما صُوّر لنا على أنه صاحب شهوات -خمر ونساء وموسيقا وغناء-، لا همَّ له إلا اللهو ومتابعة الشهوات، هذا ما صورته أجهزة الإعلام فيما عرضوه للناس كذباً وزوراً، الهدف من ذلك ـ كعادتهم ـ تشويهُ صورة خلفاء الإسلام وأبطاله وقادته؛ إمعاناً في الحرب الفكرية المُسْتَعِرَة، والغزو العقَدي الحديث؛ إذ أن تشويه الكبار إسقاط لهم، وقطع صلاتِ المسلمين بمجدهم.

لقد حج الرشيد تسع مرات في سنوات خلافته، وكان يجزل العطاء في كل مرة لأهل الحرمين الشريفين، ولا يمنع سائلاً له من العطاء، ولقد استفتح خلافته بالحج، وختمها بأن مات وهو في طريقه للغزو.

---

(١) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، أخو جعفر البرمكي، وابن يحيى البرمكي الذي كان يدعوه الرشيد بيا أبت، وجده خالد بن برمك الذي كان يتهم بالمجوسية.

كان الفضل رضيع هارون الرشيد، وولاه الرشيد أعمالاً جليلة بخراسان وغيرها، ولقد سُجن الفضل مع أبيه يحيى في فتنة البرامكة التي قتل فيها جعفر البرمكي، وقد قيل في هذه الفتنة أقوال كثيرة، منها: أن الرشيد نكل بالبرامكة لأنهم أرادوا إبطال خلافته وإظهار الزندقة والمجوسية مرة أخرى، وذكر ابن الجوزي أن الرشيد سُئل عن سبب قتله البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي (ثوبي) يعلم ذلك لأحرقته. الذهبي/ السير (٩/ ٩١).

(٢) وقد أخذ الرشيد البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد الأمين (سنة ١٨٣هـ)، قال ابن الأثير في الكامل: وهذا من العجائب فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه، وجده المنصور بعيسى بن موسى، حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هو يبايع للمأمون بعد الأمين، وحبك الشيء يعمي ويصم.

وكان يغشى مجلسَه العلماء والفقهاء، والوعاظ والناصحون، وكان يبكي عند المواعظ كثيراً(١)، كما كان يغشى مجلسه الشعراء وأهل الأدب(٢) ، وقد وعظه أبو العتاهية(٣) الشاعر يوماً بقوله:

عِشْ ما بدا لك سالماً   في ظلِّ شاهقةِ القصورْ

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا ؟ فقال أبو العتاهية:

يسعى عليك بما اشتهيت   لدى الرواحِ وفي البكور

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا ؟ فقال أبو العتاهية:

فإذا النفوس تقعقعت   في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً   ما كنت إلا في غرور

---

(١) قال ابن السماك يوماً لهارون وهو أمير للمؤمنين: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين تزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال.

فظل الرشيد يبكي وينشج حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد لابن السماك: يابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة.

وقد وعظ الفضيل بن عياض الرشيد بمكة، وكان مما قاله له: يا صبيح الوجه! إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

ثم قال: حدثنا ليث عن مجاهد: الأسباب: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا، فبكى الرشيد حتى جعل يشهق.

والأمثلة يطول ذكرها في رقة قلب الرشيد وتأثره بالمواعظ من أهل العلم. الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٣٧-٣٨).

وكان من أشهر الشعراء في زمانه رجل يقال له: السيد الحُميري، غير أن الرشيد كان يأبى أن يغشى مجلسه هو وأمثاله؛ لأنه كان رافضياً جلداً يهجو الصحابة في شعره ، قال الحافظ ابن كثير: وممن مات في زمان الرشيد (سنة ١٧٨هـ) السيد الحميري الشاعر الرافضي إسماعيل بن محمد بن زيد بن ربيعة، أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد.

(٢) وكان من الشعراء المشهورين والبارزين في هذه الصناعة المفوهين، ولكنه كان رافضياً خبيثاً وشيعياً غثيثاً، كان ممن يشرب الخمر، ويقول بالرجعة. وكان قبحه الله يسب الصحابة في شعره، ويشتم الخيّرة، ولا سيما الشيخين وابنتيهما رضي الله عنهم، ولعنه وأسحقه.

قال الأصمعي: ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته، وقد أورد ابن الجوزي شيئاً من شعره في ذلك كرهت كتابته، وقد اسود وجهه قبل موته، وأصابه كرب شديد جداً، ولما مات لم يدفنوه لسبه للصحابة. البداية والنهاية (١٣/ ٥٩٨-٥٩٩).

(٣) أبو العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، أبو إسحاق، ولد في عين التمر (سنة ١٣٠هـ)، ثم انتقل إلى الكوفة وكان بائعاً للجرار، عمل بالعلم والأدب، ونظم الشعر حتى نبغ فيه، انتقل إلى بغداد، واتصل بالخلفاء، فمدح المهدي والهادي والرشيد، اشتهر بقصائد الزهد والمديح، وكانت كنيته أبو العتاهية لأنه كان فيه مجون وحب للهو في صغره، ثم مال في آخر حياته إلى الزهد وانصرف عن مشاغل الملذات والشهوات، ودعا الناس إلى التزود من دار الفناء إلى دار البقاء، توفي في بغداد سنة ٢١٣هـ.

ومن شعره:

بكيت على الشباب بدمع عيني   فلم يغن البكاء ولا النحيبُ
فيا أسفاً أسفت على شباب   نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكنت غضاً   كما يعرى من الورق القضيب
فياليت الشباب يعود يوماً   فأخبره بما فعل المشيب

الذهبي/ السير (١٠/ ١٩٥).

فبكى الرشيد بكاءً كان له نشيج، فقال الفضل بن يحيى لأبي العتاهية: بعث إليك أمير المؤمنين لتسرّه فأحزنته! فقال الرشيد: دعه؛ فإنه رآنا في عمى، فكره أن يزيدنا.

ولقد كان الرشيد واصلاً لبني هاشم جميعاً دون تفرقة، فلقد أمر بسهم ذوي القربى من الغنائم والفيء أن يقسم فيهم على السواء.

ومما يؤثَر عنه: أنه كان يطيل الصلاة في الليل، وإذا أصبح كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم، وإذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أرسل ثلاثمئة للحج على نفقته الخاصة، ويجزل لهم العطاء والكسوة(١).

- **أهم الأحداث في عصره:**

أولاً: حركات الخارجين على الخلافة في عهد هارون:

تنوعت وتباينت أعداد وأفكار الخارجين على هارون الرشيد بين الخوارج ومدعي محبة آل البيت والزنادقة والمجوس المارقة، فتتبع هارون الزنادقة من أول عهده، وقتل منهم أعداداً كبيرة، كما تتابع خروج الخوارج على الدولة في مواطن كثيرة، فمنذ أن تصدَّر الرشيد للخلافة، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يخرجون عليه وعلى الدولة، سواء في الولايات الشرقية أو الغربية، ومن هذه الحركات:

١. خروج الإباضية في جبال باجة بشمال إفريقيا (سنة ١٧٠هـ).
٢. حركة العلوي إبراهيم بن إسماعيل طبا طبا، وعلي بن الحسين بن إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب (سنة ١٧٠هـ).
٣. حركة الصحصح الخارجي بالجزيرة (سنة ١٧٠هـ) والتي انتهت بمقتله.
٤. خروج محمد بن فروخ في الجزيرة (سنة ١٧١هـ) ثم مقتله.
٥. حركة الخوارج بقيادة الفضل بن سعيد الحروري (سنة ١٧١هـ) ومقتله.
٦. حركة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم (سنة ١٧٥هـ).
٧. حركة حصين الخارجي بخراسان (سنة ١٧٥هـ) إلى أن قتل (سنة ١٧٧هـ).

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ١٩).

٨. حركة الفضل الخارجي بنصيبين في الجزيرة (سنة ١٧٦هـ) ومقتله.

٩. خروج العطاف بن سفيان الأزدي على الرشيد (سنة ١٧٧هـ)، وسار الرشيد إليه بنفسه، وهدم سور الموصل، وفر العطاف في (سنة ١٨٠هـ) إلى أرمينيا، ثم اتخذ من الرَّقة وطناً له.

١٠. حركة الوليد بن طريف الخارجي (سنة ١٧٨هـ - ١٧٩هـ) ومقتله، واعتمار الرشيد في رمضان (سنة ١٧٩هـ) شكراً لله تعالى على قتل الوليد بن طريف، وعاد إلى المدينة، فأقام بها إلى وقت الحج، وحج بالناس، ومشى من مكة إلى منى، ثم إلى عرفات، وشهد المشاعر كلها ماشياً.

١١. حركة حمزة بن أترك السجستاني (سنة ١٧٩هـ - ١٩٢هـ).

١٢. حركة حراشة الشيباني بالجزيرة (سنة ١٨٠هـ) ومقتله.

١٤. حركة المحمرة بجرجان بقيادة عمرو بن محمد العمركي (سنة ١٨٠هـ) ومقتله، ثم خروجهم مرة أخرى في جرجان (سنة ١٨٢هـ).

١٤. قيام دولة الأغالبة في تونس (سنة ١٨٤هـ إلى ٢٩٦هـ)(١).

١٥. خروج الخزر من باب الأبواب (سنة ١٨٣هـ).

١٦. حركة أبو خصيب النسائي بخراسان (سنة ١٨٣هـ)، وحربه وقتله وسبي نسائه وذراريه، والقضاء على الفتنة في خراسان (سنة ١٨٦هـ).

١٧. حركة أبي عمرو الشاري في كابل وقندهار، ومقتلُه (سنة ١٨٤هـ).

١٨. حركة أبان بن قحطبة الخارجي، ومقتلُه (سنة ١٨٥هـ).

١٩. حركة عبد السلام الخارجي في آمد (سنة ١٨٧هـ) ومقتله.

٢٠. حركة الخوارج بقيادة سيف بن بكير ومقتلُه بعين النورة (سنة ١٩٠هـ).

٢١. حركة الخارجي ثروان بن سيف الحروري بالبصرة (سنة ١٩١هـ، وسنة ١٩٢هـ).

٢٢. حركة أبي النداء بالشام (سنة ١٩١هـ).

٢٣. حركة هيصم الكناني -اليماني- (سنة ١٩١هـ)، ومقتله في (١٩٢هـ).

٢٤. حركة الخرمية بأذربيجان (سنة ١٩٢هـ).

٢٥. خروج حمزة بن أترك السجستاني مرة أخرى في خراسان (سنة ١٩٢هـ).

---

(١) راجع الدول المستقلة في العهد العباسي بالكتاب.

٢٦. حركة رافع بن ليث بن نصر بن سيار في سمرقند (سنة ١٩٠هـ)، وخروج الرشيد لرافع بن الليث بخراسان (سنة ١٩٢هـ)، والقضاء على فتنته وقتله.

ولما سار الرشيد لحرب رافع بخراسان، نزل به مرض الموت، فلما دخل إلى طوس، تثاقل عن الحركة، فَسَيَّر ابنه المأمون إلى خراسان، وسير معه القادة، ثم أمر بحفر قبر له، فلما اشتد به الأمر، ذكر الله تعالى، وجالت أنفاسه، ومات رحمه الله، فلما مات، قال الفضيل بن عياض(١): ما من نفس أشد علي موتاً من هارون الرشيد، ولوددتُ أن الله زاد من عمري في عمره.

فعظُم ذلك القول على أصحابه، فلما مات الفضيل، وظهرت الفتن، وحمل المأمونُ الناس على القول بخلق القرآن، قالوا: الشيخ أعلمُ بما تكلم به.

ثانياً: الجهاد في عهد الرشيد:

برغم خروج الخوارج وغيرهم من حركات مناوئةٍ على الدولة، إلا أن الجهاد بقي قائماً في عهد الرشيد، متمثلاً في الصوائف والشواتي التي كان يرسلها الرشيد على الجبهات الشمالية لتأديب دولة الروم، وقد حاولت أن تقتنص فرصة الثورات الداخلية في الدولة لتنقض عليها، غير أنه استطاع تأديبهم وغزوَ أرضهم أكثر من مرة، كما غزا من قبل في عهد أبيه المهدي أرضَ الروم (سنة ١٦٥هـ)، حتى بلغ خليج القسطنطينية، مما اضطر إيرن أو ريني -أغسطا- إمبراطورة الروم أن تدفع الجزية هي ونصارى الروم عن يدٍ وهم صاغرون. وقد وقع الصلح بينهما على تسعين ألف دينار تؤديها في كل عام، وتسليم جميع أسارى المسلمين.

وظلت غزوات المسلمين بأرض الروم متوالية، تمنعهم من الوصول إلى داخل الدولة الإسلامية.

---

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي، أحد صلحاء الدنيا وعُبّادها، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد في (سنة ١٠٣هـ) تقريباً، كتب الحديث بالكوفة، وتحول إلى مكة فسكنها ومات بها في (سنة ١٨٧هـ)، وكان عمره يقارب ثمانين سنة رحمه الله تعالى.
له مواقف مع الرشيد شهيرة في كتب القصاص والتاريخ، ولا يصح سنداً عند المحدثين إلا القليل منها. الذهبي/ السير (٨/ ٤٢١).

وفي (سنة ١٨٣هـ) خرج الخزر(١) إلى أرض المسلمين في أرمينيا من باب الأبواب(٢)، وكانوا في جيش جرار مكون من مئة ألف، وهزموا القوة الإسلامية هناك، وأفسدوا في الأرض، واعتدوا على أعراض المسلمات، وبقوا نحو سبعين يوماً، فأرسل الرشيد إليهم جيشاً جراراً بقيادة خزيمة بن خازم بن خزيمة، ويزيد بن مزيد، فاستطاع الجيش أن يؤدب الخزر، وأن يقتل منهم عدداً كبيراً، وأن يخرجوهم من أرض المسلمين، وأن يسدوا ذلك الثغر.

وفي (سنة ١٨٦هـ) استطاع الروم أن يخلعوا إيرن الإمبراطورة عليهم، وأقاموا مكانها نقفور الذي ادعى أن أصوله من أبناء جفنة من غسان عرب الشام، فكتب نقفور إلى الرشيد قائلاً:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق(٣)، فحملتْ إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت فاردد ما حُصل قِبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

لما قرأ الرشيد الرسالة، غضب غضباً لا يستطيع أحد ممن حوله أن يخاطبه في ذلك، ودعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلبِ الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه.

فخرج بنفسه على رأس جيشه حتى وصل إلى هرقلةَ بأرض الروم، ففتح وغنم، وأسر وسبى، وخرب وحرق، وبلغ الخبر إلى نقفور، فطلب على الفور موادعة المسلمين على خراج يؤديه في كل سنة، ودَفع الجزية عن يد وهو صاغر، فأجابه الرشيد إلى ذلك، فلما سار الرشيد، نقض نقفور العهد.

---

(١) الخزر: شعوب تترية ظهرت دولتهم في شمال القوقاز، وامتدت من السواحل الشمالية للبحر الأسود وبحر قزوين إلى الآرال، وغرباً باتجاه كييف، كانت عاصمتهم بلنجر، ثم تحولت إلى إتيل في دلتا الفولجا، وكانت شعوب الخزر تعتنق الوثنية، ثم اعتنقوا اليهودية، ثم اعتنق بعضهم النصرانية، وتعاونوا مع البيزنطينين ضد المسلمين، زال ملكهم عندما هزمهم دوق كييف في (سنة ٩٦٥م).

(٢) باب الأبواب: هي مدينة ديربنت من دولة داغستان المسلمة والمحتلة من روسيا منذ (سنة ١٣٣٩هـ - ١٩٢١م)، وقد فتحت صلحاً من قبل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﵁، ومنها اتجهت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الخزر وأرمينيا.

(٣) الرخ: طائر خرافي كبير عند الروم، والبيدق عصفور صغير عند الروم.

فرجع الرشيد إلى أرض الروم برغم البرد الشديد القارس، وبقي هناك حتى بلغ ما أراد، فأرسل نقفور له بالاعتذار بعد أن فعل الرشيد ببلاد الروم الأفاعيل.

وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب　　من الملكِ الموفقِ بالصواب
غدا هارونُ يُرعد بالمنايا　　ويُبرق بالمذكَّرة القِضاب
وراياتٍ يحل النصر فيها　　تمرُّ كأنها قطع السحاب
أميرَ المؤمنين ظفرتَ فاسلمْ　　وأبشرْ بالغنيمة والإياب

كما عاد الرشيد في (سنة ١٩٠هـ) ليغزو الصائفة، ففتح هرقلة، وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم، ثم خرب هرقلة، وسبى أهلها بعد أن أقام بها شهراً كاملاً.

كما أعاد في هذا العام فتح قبرص، وسبى المسلمون من أهلها ستة عشر ألفاً، وبعث نقفور بالخراج والجزية، وأرسل رسالة مع اثنين من كبار قادته من أجل فك أسر فتاة من سبي هرقلة، وقد ذكر فيها اسم أمير المؤمنين هارون الرشيد قبل اسمه: لعبد الله هارون أمير المؤمنين، من نقفور ملك الروم، سلام عليكم، أما بعد: أيها الملك! فإن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنتُ قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كما طلب أن يرسل الرشيد إليه طيباً من أفخر أنواع الطيب الذي يملكه، فكان رد الرشيد أن أحضرَ الجارية، وأمر بها أن تزين، وأجلسها على سرير في مكانه الذي كان نازلاً فيه، ثم أمر بتسليم الجارية، وبما في المكان من الآنية والمتاع إلى رسولَي نقفور، مع طيب فاخر، وتمور وزبيب وأنواع مختلفة من الهدايا، واشترط عليه الرشيد أن لا يعمر هرقلة، وأن يحمل نقفور ثلاثمئة ألف دينار إلى الرشيد(١).

وكما أسلفنا بأن الرشيد توفي وهو في طريقه للغزو، فلما توفي بويع لابنه الأمين أميراً على المؤمنين في (سنة ١٩٣هـ) في جمادى الآخرة الليلة التي توفي فيها أبوه، وصلى الأمين بالناس

---

(١) ابن جرير الطبري/ تاريخ الأمم والملوك (٥/ ٢٠٤).

الجمعة، ثم صعِد المنبرَ ونعى الرشيد، وعزا نفسه والناس، ووعدهم الخير، وأمن الأبيض والأسود، وفرق في الجند الذين ببغداد رزق أربعة وعشرين شهراً، وتمت له البيعة.

الخليفة السادس: الأمين بن هارون الرشيد (١٩٣هـ - ١٩٨هـ):

ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد ليلة الجمعة في الثالث عشر من شوال (سنة ١٧٠هـ)، وهو ثاني أبناء هارون الرشيد بعد المأمون الذي ولد ليلة الجمعة في الخامس عشر من ربيع الأول (سنة ١٧٠هـ)، فهو أكبر من الأمين بنحو سبعة أشهر، غير أن المأمون أمه جارية، وأما الأمين فأمه زبيدة بنت جعفر حفيدة أبي جعفر المنصور(١)، وقام بتأديبه الإمام الكسائي القارئ، وقرأ عليه الأمين القرآن الكريم.

قدمه الرشيد على المأمون في تولي الخلافة؛ مما كان سبباً في أن يقوم أهل الفتن في إثارة الخلاف بين الأخوين، فأحدث ذلك نزاعاً بينهما انتهى بمقتل الأمين، وتولي المأمون للخلافة بعد أن بقي بها الأمين أربع سنوات وثمانية أشهر.

ومن المؤسف أن شهوة الحكم أحياناً تعمي بصيرة الأمراء، فتجعلهم يخالفون الشريعة الغراء، ويسفكون دماء الآباء والإخوة من أجل شهوة زائلة، فمهما بقي من يؤول إليه الإمارة والسلطة فإنه زائل، وسبحان من يرث الأرض ومَنْ عليها، فكم من الملوك الذين كانوا وسادوا وشادوا، ثم غيبهم الموت في القبور، وسيقفون بين يدي الملك الديان يوم لا ينفعهم ملكهم ولا مالهم ولا جنودهم ولا جيوشهم، قال عمر بن المظفر الشهير بابن الوردي رحمه الله(٢) في لاميته:

---

(١) زبيدة بنت جعفر: اسمها أمة العزيز بنت جعفر، زوجة هارون الرشيد، وكانت تكنى بزبيدة لشدة بياضها وجمالها، من خيرة نساء العرب في زمانها، كريمة سخية، جوادة معطاءة، قامت ببناء أحواض السقاية للحجيج على طول الطريق من بغداد إلى مكة، حتى عرف الطريق باسم درب زبيدة، وبقيت عين زبيدة في مكة المكرمة تحمل اسمها تخليداً لذكراها، بقيت بعد وفاة زوجها الرشيد اثنين وثلاثين عاماً وتوفيت في بغداد (سنة ٢١٦هـ)، وظل الناس إلى يومنا هذا يتندرون بأخبارها وأخلاقها ومكانتها رحمها الله رحمة واسعة. الذهبي/ السير (١٠/ ٢٤١).

(٢) عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المولود (٦٩١هـ) بمعرة النعمان غرب حلب، قاضي حلب وفقيهها وشاعرها له تصانيف عدة منها: تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، وكتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب في الجغرافيا، كما وضع خارطة لأقاليم العالم عرفت بخريطة ابن الوردي، وكتاب المنح والمسائل المذهبية وله أيضاً كتب في اللغة والنحو والشعر، وله مقامات شهيرة أشهرها المقامة الدمشقية، توفي (سنة ٧٤٩هـ) بحلب.

كُتب الموتُ على الخلق فكم　　فَلَّ من جيش وأفنى من دول
أين نمرود وكنعان ومن　　ملك الأرض وولى وعزل
أين عاد أين فرعون ومن　　رفع الأهرام من يسمع يخل
أين من سادوا وشادوا وبنوا　　هلك الكل ولم تغنِ القلل(١)
أين أرباب الحجا أهلِ النهى　　أين أهل العلم والقوم الأول
سيعيد الله كلاً منهم　　وسيجزي فاعلاً ما قد فعل

الخليفة السابع: المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨هـ - ٢١٨هـ):

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، ولد ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول (سنة ١٧٠هـ)، أمه أم ولد فارسية(١)، ولد في الليلة التي مات فيها عمه الخليفة موسى الهادي، وبويع في صبيحتها لأبيه هارون الرشيد بالخلافة.

لما قتل محمد الأمين تولى المأمون الخلافة في محرم (سنة ١٩٨هـ) حتى رجب (سنة ٢١٨هـ)، فهدأت الأوضاع، وبايعه الناس، وبدأ المأمون يدير أمر الخلافة من مرو عاصمة خراسان، مما أدى إلى وقوع حركات متتابعة من الطالبيين والخوارج وبعض الأمصار كما سيأتي، حتى إن الفساد استشرى في بغداد بسبب اللصوص والفسّاق، واستبيحت الأعراض والأموال (سنة ٢٠١هـ)، فلما حدث ذلك، راود أهلُ بغداد منصورَ بنَ المهدي عمَّ المأمون أن يبايعوه خليفة، فرفض ذلك، فراودوه أن يكون نائباً للمأمون، فوافقهم على ذلك، بعد أن أخرجوا علي بن هشام نائبَ الحسن بن سهل(٢) والي المأمون على العراق.

وفي شوال من السنة نفسها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد، وصالح جندها وأهلها، وعزل عم الخليفة منصورَ بن المهدي ومن معه من أمراء بني العباس عن مناصبهم.

---

(١) المقصود بالقلل خزائن الأموال.

(٢) أمه جارية تدعى مراجل تنسب إلى بلدة تسمى باذغيس وقد ماتت في نفاسها بالمأمون. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء: المأمون (ص:١٥١).

(٣) أبو محمد الحسن بن سهل السرخسي أخو الفضل بن سهل، من وزراء الخليفة المأمون وولاته وقواده، وكان له مقام عند المجوس، استعمله المأمون وزيراً له وعاملاً على ولايات الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن، فبقي فيها من (سنة ١٩٩هـ) إلى (سنة ٢٠٤هـ)، وقد حدثت في هذه الفترة فتن عظيمة واضطرابات جسيمة، لم ينجح الحسن بن سهل بإخمادها مما أحدث فتناً أعظم في بغداد، استوزره المأمون على سائر الدولة، وتزوج من ابنته بوران في (سنة ٢١٠هـ)، توفي في خلافة المتوكل بسرخس بذي القعدة (سنة ٢٣٦هـ)، وعاشت ابنته بوران إلى سنة (٢٧٠هـ). الذهبي/ السير (١١/ ١٧١).

ثم فاجأ الخليفة الجميع أن اختار علي بن موسى بن جعفر(١) ولياً لعهده ليكون خليفة من بعده، وأطلق عليه: الرضا من آل محمد ﷺ، ثم أمر جنده أن يغيروا شعارَ السواد الذي كان لبني العباس، وأن يرفعوا شعار الخضرة الذي كان للطالبيين، وكتب بذلك إلى الأمصار.

وتذرع المأمون باختياره ذلك لأنه لم يجد أحداً من بني هاشم أفضل ولا أورع ولا أتقى ولا أعلم منه.

ولما بلغ ذلك بني العباس، اجتمع بعضهم إلى بعض، وقرروا خلع المأمون، وتقليد إبراهيم بن محمد المهدي(٢) للخلافة، فبايعوه في أول يوم من المحرم (سنة ٢٠١هـ) وخلعوا المأمون، وبايعوا من بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي.

فأصبح إبراهيم المهدي خليفة للناس في بغداد، وأصبحت هذه البيعة فتنة بين العباسيين وبين المأمون الذي هو في مرو، وبايع لأحد الطالبيين إرضاءً لدعاة الفتنة الذين عملوا على إثارة الخلاف دائماً، لا من أجل الطالبيين، ولا من أجل العباسيين، فالكل عندهم واحد، وهدفهم هو ضرب هؤلاء بهؤلاء للقضاء على الإسلام والمسلمين.

عندئذٍ كتب المأمون إلى الحسن بن سهل أن يتقدم إلى بغداد ويحاصرها، فتوجه إلى بغداد من جهة، وقائدهُ حميد بن عبد الحميد من جهة أخرى، وكانوا قد لبسوا ثيابهم باللون الأخضر، ورفعوا الشعار الأخضر، الذي هو شعار الطالبيين والشعار الجديد للمأمون، ووقعت مناوشات بين الطرفين، وقتال حول بغداد والكوفة وواسط، ولم تنتهِ هذه الفتنة والاقتتال إلا بعد أن أخبر علي الرضا بن موسى بن جعفر -ولي العهد- المأمون بما كان الفضل بن سهل(٣) وزيره الأمين يخفي عنه من الأخبار، وأن العباسيين ما نقموا عليه

---

(١) علي المكنى بالرضا بن موسى المكنى بالكاظم بن جعفر المكنى بالصادق بن محمد المكنى بالباقر بن علي المكنى بزين العابدين بن حسين بن علي بن أبي طالب، ولد بالمدينة (سنة ١٤٨هـ)، وهو العام الذي توفي فيه جده جعفر الصادق، أمه من بلاد النوبة اسمها سكينة، سمع من أبيه ومن أعمامه العلم، زوجه المأمون ابنته أم حبيب، كما زوج ابنه محمد بن علي بن موسى ابنته الأخرى أم الفضل وذلك (سنة ٢٠٢هـ) الذهبي/ السير (٩/ ٣٨٧).

(٢) إبراهيم بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور أبو إسحاق: أخو الرشيد، ولد ببغداد (سنة ١٦٢هـ)، وتأدب وتربى بها، كان والياً على دمشق زمن الرشيد. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:١٨٠).

(٣) الفضل بن سهل السرخسي بن زاذا نفروخ، سليل ملوك المجوس، وقيل كان يهودياً دخل الإسلام حديثاً، كان أبوه على اتصال بيحيى بن خالد البرمكي، استوزره الخليفة المأمون في خراسان وكان مستشاره الخاص خلال الفتنة بينه وبين الأمين، لقب بذي الرياستين، كان يظهر الفضل التشيع، وكان منجماً، أخفى عن المأمون الكثير من أخبار الدولة وعما آلت إليه الأمور في بغداد، تخلص منه المأمون بسبب ذلك عند عودته إلى بغداد غيلة وأظهر أنه حزين لقتله. الذهبي/ السير (٩/ ٢٢٢).

إلا بسببه، وهذا ما دفعهم أن يبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة، وأخبره بأن الفضل ابن سهل قد كذبه وغشّه، وأن الحرب قائمة هناك، والفتنة شديدة، وأن الناس ينقمون عليه وعلى الحسن بن سهل أخي الفضل.

فلما استوثق المأمون من هذه الأخبار، اجتمع بقادته، وسألهم عن حقيقة الفضل والحسن ابنَي سهل، فطلبوا منه أن يعطيهم الأمان أولاً، فأمنهم، فعندئذٍ أكدوا له ما قاله علي بن موسى له، وأخبروه بغضب آل العباس ومواليه وقواده عليه في أشياء كثيرة، وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة من يده ومن أهل بيته، وحثوه على الخروج إلى بغداد في بني هاشم والقادة، فإن الجند لو رأوا القوة التي هو فيها سكنوا إليها، وأقروا بالطاعة.

فأعد المأمون العدة، وأمر بالرحيل من مرو، وفي خلال الطريق قُتل وزيره الفضلُ بن سهل وهو في الحمام، وذلك في شعبان (سنة ٢٠٢هـ).

ثم تتبع المأمون القتلَة وقتلهم، وكانو أربعة، وأرسل برؤوسهم إلى الحسن بن سهل في واسط ليخبره بما حل به من المصيبة في أخيه، وأنه جعله في مكانه، وكان هذا دهاءً من المأمون من أجل أن لا يترك الشك للحظة واحدة في نفس الحسن بن سهل فيفر من لقاء المأمون.

ولما ارتحل المأمون من سرخس إلى طوس في طريقه إلى بغداد، أقام في طوس عدة أيام عند قبر هارون الرشيد، ومات علي بن موسى بن جعفر الطالبي ولي العهد فجأة، وذلك في آخر صفر (سنة ٢٠٣هـ)، فصلى عليه المأمون، ودفنه عند قبر الرشيد، وكان صهراً للمأمون، فقامت إلى جوار قبره مدينة مشهد التي حلت محل مدينة طوس القديمة، وهي من أقدس المدن عند أدعياء محبة آل البيت، وأشيع أن علياً الرضا -ولي العهد- مات مسموماً، والله أعلم بحقيقة هذه الأمور.

ورجع المأمون إلى بغداد في يوم السبت الرابع عشر من شهر صفر (سنة ٢٠٤هـ)، وقد اختفى منها عمه إبراهيم بن المهدي، والتقى ببني هاشم وولد العباس وصالحهم، وخاطبوه في لباس آبائه وأهل بيته ودولته، فرجع المأمون إلى رأيهم، ولبس السواد شعار

العباسيين، وأمر بالقبض على إبراهيم بن المهدي، وبعد أن قُبض عليه عفا عنه المأمون، وبدأت الدولة تتعافى وتستعيد هيبتها بعد أن استغل أعداؤها الفرصة في سنوات الخلاف السابقة، وخططوا وعملوا من أجل أن يستفحل الأمر، وتنتشر الفتنة بين بني العباس، وتضيع هيبة الدولة، ولكن الأمر جاء على غير ما يشتهون؛ فقد عادت الدولة إلى ما كانت عليه من الهيبة، ووقفت أمام أي محاولة لإثارة الفتنة.

ولعل السبب الذي جعل مواقف المأمون مواقف متناقضة بقاؤه في مرو بين أخواله وأنسابه الفرس، وهم الذين يزعمون دائماً محبة آل البيت، وبعدُ مرو عن بلاد العرب، وإخفاءُ وزيره الفضل بن سهل حقائق الأمور عنه، كل ذلك عمل على هذه التناقضات والاضطرابات.

- **أهم الأحداث في عصره:**

أولاً: الثورات والحركات المناهضة للدولة:

١. حركة الحسن الهِرش(١) (سنة ١٩٨هـ):

خرج الحسن الهِرش بالكوفة في ذي الحجة (سنة ١٩٨هـ)، يدعو إلى الرضا من آل محمد، فتبعه على ذلك غالب أهل الكوفة وأعرابهم كعادتهم، فجبى الأموال، وانتهب الأنعام، وعاث في الأرض فساداً، فأرسلت له الدولة جيشاً بقيادة زهير بن المسيب استطاع أن يخمد فتنته، وأن يقضي عليه في المحرم (سنة ١٩٩هـ).

٢. حركة نصر بن شبث(٢) (سنة ١٩٨هـ):

كان نصر مقيماً في كيسوم بشمال حلب، ولما حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون، وقتل الأمين، امتنع نصر عن بيعة المأمون، وخرج على الدولة في كيسوم، واستطاع السيطرة على ما حولها من البلاد، وازداد قوة باجتماع الكثير من الأعراب حوله، فجرّأه ذلك أن يعبر نهر الفرات إلى الشرق، وحاصر حرّان، وجاءه بعض الطالبيين ليعينوه على بني العباس، ونصحوه أن

---

(١) الحسن الهِرش: أحد العيارين المتنفعين من دعوى التشيع لآل البيت. الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ١١٠).

(٢) نصر بن شبث العقيلي من بني عقيل بن كعب بن ربيعة، أسلافه من رجال بني أمية. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:١٨٣).

يبايع لخليفة منهم، فأبى ذلك، وبقي أميراً على ما تحت يديه من البلاد، حتى أرسل إليه المأمون جيشاً على رأسه عبد الله بن طاهر[1] (سنة ٢٠٦هـ)، فقام الجيش بتضييق الخناق على نصر بن شبث، ثم أرسل المأمون إليه رسولاً يدعوه إلى الطاعة ولزوم الجماعة، ووعده بالعفو عنه إن هو أذعن لذلك، فقبل نصر بشرط أن لا يدخل على المأمون، فرفض المأمون ذلك، وأمر عبد الله بن طاهر أن يحاربه ويحاصره حتى استسلم نصر بن شبث، فأخذه عبد الله بن طاهر وسيره إلى المأمون في بغداد في شهر صفر (سنة ٢١٠هـ).

٣. حركة ابن طباطبا (سنة ١٩٩هـ) للدعوة إلى الرضا من آل محمد:

محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الشهير بابن طبا طبا، ولد بالمدينة النبوية (سنة ١٧٣هـ)، حج (سنة ١٩٦هـ) والخلاف بين الأمين والمأمون قائم، فاجتمع به أحد أصحاب الفتنة، ويدعى: نصر بن شبيب، فحرضه على الخروج على بني العباس مستغلاً هذه الخلافات، ووعده بالتأييد والدعم، ومناه بأن أهل الكوفة معه، وأنهم على رأي زيد بن علي زين العابدين، فلما انقضى الموسم، ذهب محمد إلى نصر بن شبيب في الجزيرة ليخرجوا سوياً مع الناس على الخلافة العباسية، فاعتذر له نصر عن الخروج، فرجع محمد إلى المدينة، والتقى بأبي السريا في الطريق، فبايعه ورجع معه إلى الكوفة، ودعا ابن طبا طبا للرضا من آل محمد من المدينة إلى الكوفة بدعوة من أبي السريا السّري بن منصور الشيباني[2]، فحضر معه جماعة الأشراف وشيعتهم، فبايعه أبو السريا وأهل الكوفة من الزيدية في جمادى الآخرة (سنة ١٩٩هـ) بالكوفة، فقام ابن طبا طبا ببث دعاته في سائر النواحي، وجعل أبا السريا الشيباني أميراً

---

(١) عبد الله بن طاهر الخراساني عهد إليه المأمون بولاية خراسان خلفاً لأبيه، واستطاع أن يقضي على واحدة من أخطر حركات التمرد والعصيان في عهد الدولة العباسية هي حركة نصر بن شبث، ثم استعملته الدولة وأرسلته بجيشه إلى مصر في (سنة ٢١١هـ)، وكانت آنذاك تموج بالفتن، فاستطاع أن يخمد ما فيها من الفتن وأصبح والياً عليها، فأعاد إليها الأمن والهدوء، وشهدت العديد من مظاهر العمران، واشتهرت ولايته بالعدل والنزاهة وحسن السيرة، ثم بعد ذلك أرسل إليه الخليفة واستقبله في بغداد ثم أرسله للقضاء على حركة بابك الخرمي والتي اشتدت على المسلمين بعد عدة محاولات من الدولة للقضاء عليها، فذهب إليهم عبد الله بن طاهر سنة ٢١٣هـ وحاصره حصاراً شديداً غير أنه فر إلى الجبال مما دفع ابن طاهر للعودة إلى خراسان ، كما تصدى لحركة المازبار في طبرستان في عهد الخليفة المعتصم سنة (٢١٨هـ)، وكان المازبار مزدكياً يهزأ بالإسلام والمسلمين، فاستطاع عبد الله أن يقضي على فتنته، واستمر عبد الله بن طاهر يخدم أمته ودولته لنحو أربعة عقود من الزمان حتى توفي رحمه الله في ربيع الأول (سنة ٢٣٠هـ). الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٨٤).

(٢) أبو السريا: السري بن منصور يقال أنه من ولد هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود من بني شيبان، كان من قطاع الطرق، ولحق بيزيد بن مزيد الشيباني بأرمينيا، فجعله قائداً واشتهر بشجاعته، ثم عاد إلى العراق ومعه نحو ألفي مقاتل، فخاطبوه بالأمير وكان من عسكر هرثمة بن أعين، فلما قتل الأمين خرج أبو السريا على الدولة، وحاصر عامل عين التمر بالجزيرة، وأخذ ما معه من المال ووزعه على أصحابه، ثم استولى على الأنبار ثم على الرقة، وكثر جمعه، والتقى مع ابن طباطبا، وكان هو مقدمة جيشه، وسبب فتنته التي وقعت. محود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:١٦٦).

على جيشه، وهبَّ له أهل الكوفة وأعرابها كعادتهم من كل حدب وصوب، فواجهتهم الدولة بعشرة آلاف مقاتل بقيادة زهير بن المسيب الذي صال وجال، ثم هُزم في أول معركة أمام أبي السريا، وفي صبيحة تلك المعركة توفي فجأة ابن طباطبا، وأشيع أن أبا السريا هو الذي وضع له سماً بسبب خلاف معه، وأقام مكانه غلاماً حدثاً أمرد يقال له: محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(١).

فأعاد زهير بن المسيب الكرة على جيش العلويين بعد أن وصله مدد من أربعة آلاف مقاتل، لكنه هُزم مرة أخرى، مما ساهم في انتشار الفتنة في تلك النواحي، وانفرد أبو السريا بالمنطقة، فضرب الدراهم والدنانير باسمه، وعلى وجهها: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وعلى طوق الوجه: بسم الله، وضرب هذا الدرهم(٢) بالكوفة سنة تسع وتسعين ومئة.

وكُتب على طوق الظهر: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وفي مركز الظهر: فاطمي - محمد - رسول - الله - الأصفر.

ويشير هذا إلى خلعه للخلافة العباسية برمتها، وإلى لقب أبي السريا فاطمي والأصفر، وفاطمي تعني: انتسابه لشيعة آل البيت من أبناء فاطمة، وأنه ما خرج إلا للمطالبة بحقهم في الخلافة، ولقب الأصفر هو شعاره ولون رايته التي دخل بها الكوفة يومئذ(٣)، وقد بعث بعد ذلك بكسوة للكعبة عليها اسمه ولقبه فاطمي، لونها أصفر كما سيأتي. كما لم يذكر على الدراهم والدنانير اسم طبا طبا، ولا الذي تولى من بعده محمد بن محمد، وهذا يدل على أن أبا السريا إنما استغل زوراً الإعلان لآل البيت من أجل أن يحقق غرضه بالخروج على الدولة؛ لأنه لو خرج داعياً لنفسه ما تبعه أحد.

أرسل أبو السريا جيشه إلى البصرة والمدائن وواسط، واستطاع أن يسيطر على هذه المناطق بعد أن انتصر على من فيها، ودخلها جيشه قهراً، وأصبحوا ينازلون الدولة، وكان ذلك كله بسبب أن الخليفة المأمون كان مقيماً بمرو في أقصى الشرق من الدولة منذ أيام هارون الرشيد، ولم يرجع إلى بغداد إلا بعد ذلك.

---

(١) محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي، نصبه أبو السريا ولقبه بالمؤيد ووقع أسيراً وأُخذ إلى المأمون فتعجب لصغر سنه، فعفا عنه وأبقاه في خراسان، وتوفي بمرو (سنة ٢٠٢هـ) وهو ابن عشرين سنة. محود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:١٦٧).

(٢) مما هو جدير بالذكر أن دراهم أبي السريا يوجد عدد منها في متحف قطر الوطني، ومتحف إحدى الجمعيات الأمريكية في نيويورك، ومتحف الطوبقابيه بإسطنبول بتركيا.

(٣) ولعل اللون الأصفر لراية أبي السريا توقفنا على ما نراه اليوم من اتخاذ فصائل وجماعات شيعية في لبنان وغيرها في العراق الرايات الصفر.

تنبه المأمون إلى خطر هذه الدعوة على الدولة، فأرسل جيشاً بقيادة هرثمة بن أَعين(١) ليقضي على هذه الفتنة العظيمة، وخاض عدة معارك مع أبي السريا، وانتصر عليه؛ مما دفع أبا السريا أن يتقهقر إلى الكوفة، وقام الغوغائيون ودعاة الفتن بالكوفة بنهب دور بني العباس، وتخريب ضياعهم، وقاموا بأعمال قبيحة وشنيعة.

أرسل أبو السريا يستعين بأهل المدينة النبوية باسم النصرة لآل البيت على العباسيين، وكأن العباسيين ليسوا من بني هاشم، مما يدل على أن أبا السريا وأمثاله من دعاة الفتن والشبهات كان همهم الأول هو تحقيق مآربهم كلٌّ بحسبه، عن طريق إحداث الفوضى والثورات والشبهات عند الناس؛ لتسقط هيبة الدولة، وتندرس قوتها، فيثبوا عليها، وينال كلٌّ منهم غرضه.

استجاب الطالبيون لدعوة أبي السريا، ثم أرسل أبو السريا قبلَ موسم الحج حسينَ بن الحسن بن حسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أميراً على موسم الحج من جانبه، ضارباً بالوالي العباسي عرض الحائط، فتهيب حسين بن الحسن أن يدخل مكة جهاراً، لكن خبر قدومه وصل إلى نائب العباسيين على مكة داود بن عيسى، فخرج من مكة إلى أرض العراق، وربأ بنفسه أن يقاتل في الحرم، وبقي الناس بلا إمام هناك، فلما بلغ الخبر إلى ابن الأفطس، دخل مكة مع عشرة من أتباعه، وطاف بالبيت، ثم وقف بعرفة، وصلى بالناس، وأقام بهم بقية المناسك.

ثم في أول يوم من (سنة ٢٠٠هـ) جلس خلف المقام، وأمر بتجريد الكعبة مما عليها من كساوات بني العباس، وقال: نطهرها من كساويهم!!، وكساها بالملاءات الصفراء التي عليها لقب أبي السريا، وانتهب ما في كنز الكعبة من أموال، وسار في الناس بسيرة سيئة، فهربوا منه إلى الجبال، وقام أتباعه بخلع شبابيك المسجد الحرام، وأخذوا ما فيه من البسط وباعوها بأثمان بخسة، وأساء السيرة في أهل مكة. قال الذهبي في «تاريخ

---

(١) هرثمة بن أعين أمير من قادة الدولة العباسية الشجعان، ولاه الرشيد مصر (سنة ١٧٨هـ)، ثم إفريقية -تونس- وشمال إفريقيا للقضاء على الثورات هناك، فأطاعته القبائل بعد قتال طويل، وعاد إلى القيروان، وبنى فيها قصر المنستير، كما بنى سور مدينة طرابلس الغرب في ليبيا، وانتقل بعد ذلك إلى خراسان والياً عليها، وكان يتولى قيادة الجيش أحياناً، فلقد غزا الصائفة (سنة ١٩١هـ)، ولما كانت الفتنة بين الأمين والمأمون انحاز إلى المأمون، وكان المأمون يثق به إلى أن وقعت الوشاية بينه وبين المأمون، فحبسه ودس له من يقتله في السجن، وقيل: سم بالسجن، أو مات (سنة ٢٠٠هـ). الموسوعة الحرة/ الشبكة العنكبوتية.

الإسلام»: وأما حسين بن حسن الأفطس، فبدّع بمكة، فهدم دورها، وأخذ أبناءها، ونهبوا الذهب، وبلغ به أن وثب على امرأة قرشية بارعة الحسن، فأخذها قهراً من بيت زوجها، وبقيت عنده أياماً، ثم هربت.

استطاع هرثمة القائدُ العباسي أن يواجه أبا السريا مع جيشه في الكوفة، ودخلها ومعه منصور بن المهدي عمُّ الخليفة، فأمّنوا أهلها، ولم يتعرضوا لأحد منهم(١)، وفر أبو السريا بمن معه إلى القادسية، فاعترضهم جيش آخر للمأمون، فهزموهم، وجرح أبو السريا وهرب يريد داره بالجزيرة، لكنه وقع في الأسر، وانتهى الأمر به أن ضربت عنقه، وشطروا جسده نصفين، وأخذت رأسه ووضعت على جسر بغداد، وكان بين خروجه ومقتله عشرة أشهر أحدثَ فيها من الفتن ما اللهُ به عليم.

ووقع في الأسر زيد بن موسى الذي كان على البصرة من الطالبيين(٢)، ثم أَمَّنَه العباسيون.

ولما بلغ خبر مقتل أبي السريا إلى مكة، اجتمع الطالبيون إلى محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٣)، وبايعوه خليفة عليهم، فأجابهم لذلك في العشر الأول من شهر ربيع الآخر، وسمّوه بأمير المؤمنين.

فأقام على ذلك أشهراً إقامة اسمية، وأما المتصرف في الأمر، فهو ولده علي بن محمد، مع حسين بن حسن الأفطس، وقد أساؤوا السيرة للغاية، حتى أقبل عليهم إسحاق بن موسى القائد والوالي العباسي على اليمن، فهزمهم، ثم فر محمد بن جعفر، وجاء بجموع من جهينة إلى المدينة، ووقع بينه وبين والي المدينة هارون بن المسيب عدة حروب انتهت بهزيمة محمد بن جعفر، وقتل من أصحابه جمع كبير، ثم طلب الأمان من والي الدولة العباسية، فأعطي الأمان، وأقام بمكة في أواخر شهر ذي الحجة (سنة ٢٠٠هـ).

ثم أُتي به، فوقف على المنبر في مكة ليخلع نفسه من أي بيعة تمت له، وخطب بالناس

---

(١) وشتان بين موقف الخلافة العباسية من خصومها في الكوفة ورأفتهم بهم، وموقف أهل الزور ودعاة الفتنة في مكة من أهلها في بيت الله الحرام من الشدة والقسوة، وإفسادهم وعبثهم بمقتنيات البيت الحرام.

(٢) زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يقال له: زيد النار لكثرة ما حرّق من البيوت في البصرة.

(٣) محمد بن جعفر الصادق، أبو جعفر من علماء العلويين وأعيانهم. الذهبي/ السير (١٠/ ١٠٤).

خطبة طويلة بين فيها أنه ظن صحة الخبر الذي جاءه بوفاة أمير المؤمنين المأمون، وما كان يدري أنه كذب، وقال: إني أستغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعتُ نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها كما خلعتُ خاتمي هذا من إصبعي.

ثم نزل، فأخذه العباسيون إلى العراق، ومنها أرسلوه إلى المأمون في مرو، فأكرمه وأبقاه معه إلى أن توفي بجرجان (سنة ٢٠٣هـ)، فكان المأمون أحد الذين صلوا عليه.

٤. حركة إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق باليمن (سنة ٢٠٠هـ):

كان إبراهيم بن موسى[1] يقيم بمكة، فلما علم بحركة ابن طبا طبا، وظهور قائده أبى السريا في الكوفة، خرج إلى اليمن من أجل أن يتقوى بأنصاره لإقامة دولة له، وكان على اليمن إسحاق بن موسى من أمراء العباسيين، فترك له صنعاء، وتوجه إلى مكة، وأبى أن يقاتل إبراهيم بن موسى.

واستولى إبراهيم بن موسى على اليمن، وأفسد في أهلها فساداً عظيماً، وقتل كثيراً منهم، واستباح أموالهم، وبعد أن أمسك بزمام الأمور في اليمن عاد إلى مكة، ودخلها عنوة، وقتل أميرها العباسي يزيدَ بنَ حنظلة المخزومي، ثم أقره المأمون بعد ذلك والياً عليها من قبله.

٥. حركة مهدي بن علوان الحروري (سنة ٢٠٢هـ):

خرج مهدي بن علوان الخارجي الحروري في بغداد، فقام له جيش بقيادة المعتصم بن الرشيد، فكسره ورد كيده، وقُضِيَ على حركته.

٦. حركة عبد الرحمن بن أحمد باليمن (سنة ٢٠٧هـ):

خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب في بلاد عك في اليمن، وبايعه الناس، فخرج يدعو إلى الرضا من آل محمد، فوجه إليه المأمون جيشاً

---

[1] هو إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يقال له: الجزار؛ لاستباحته القتل في أهل اليمن، وهو أخو زيد بن موسى الشهير بزيد النار، وهو جد الشريف الرضي، والشريف المرتضي. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:١٨٠).

كثيفاً على رأسه دينار بن عبد الله، وأرسل معه كتاباً بأمان عبد الرحمن إن هو رجع عما هو عليه، فوصل دينار إلى اليمن، وأرسل إليه الكتاب، فقبل عبد الرحمن الأمان، فخرج به إلى المأمون، وانتهى الأمر بذلك.

٧. الحركات في مصر (سنة ٢١٠هـ):

كانت مصر في اضطرابات دائمة منذ الخلاف بين الأمين والمأمون، وتغلب عليها عبيد الله ابن السري بن الحكم(١)، كما تغلب على الإسكندرية جماعة من الأندلسيين الذين نزلوا بها.

فأرسل المأمون عبدَ الله بن طاهر الذي استطاع أن ينتصر على عبيد الله بن السري، ويتغلب عليه، ثم أعطاه الأمان في (سنة ٢١٠هـ).

ثم توجه عبد الله بن طاهر إلى الإسكندرية، وهدد الخارجين بالحرب إن لم يعلنوا الطاعة، فطلبوا منه أن يخرجوا إلى جزيرة إقريطش - كريت - إحدى مناطق الروم ليقيموا فيها، فأذن لهم، واستقروا بها بعد أن غلبوا على أهلها، وذلك في (سنة ٢١١هـ).

وبعد أن استقرت مصر، خرج فيها رجلان هما: عبد السلام، وابن جليس، وخلعا طاعة المأمون، وثارت معهما العرب القيسية واليمنية، وقتلوا عامل الخليفة ابنَ عميرة بن الوليد البذاغيسي في ربيع الأول (سنة ٢١٤هـ)، فسار المعتصم بن هارون أخو الخليفة بنفسه إليهما وقتلهما، واستقامت أمور مصر بعد ذلك في عهد الخلافة العباسية.

٨. حركة بلال الضبابي بالجبال (سنة٢١٤هـ):

خرج بلال الضبابي في ولاية الجبال ببلاد فارس، فوجه إليه المأمون ابنه العباس مع بعض القادة، واستطاعوا أن يقتلوا بلالاً الضبابي، ويقضوا على حركته.

٩. حركة بابك الخرمي في أذربيجان (سنة٢٠٤هـ):

بابك الخرمي المجهول النسب، كان راعياً، وأهانه سيده؛ مما جعله يضمر الحقد في نفسه

---

(١) عبيد الله بن السري بن الحكم بن يوسف، أصله من بلخ في أفغانستان، كان جندياً من جنود والي مصر العباسي الليث بن فضل، استقل بمصر فترة الاضطرابات بين الأمين والمأمون، وصك العملة باسمه، وتوفي في جمادى الأولى (سنة ٢٠٥هـ). الموسوعة الحرة.

والكراهية على الناس، ثم عمل خادماً عند أحد المجوس، واسمه: جاويذان بن سهرك، وأخذ عنه أصول الديانة المجوسية، وعند وفاة سيده أصبح بابك علماً في المجوسية، خاصة بعد أن ضحت زوجة جاويذان بنفسها من أجل ديانتها المنحرفة، وتزوجت من بابك ليكون عوناً على نشر المجوسية من جديد، والتي أخذ يدعو لها.

واستطاع بابك أن يقود مَنْ على شاكلته، ثم انطلق يناجز الدولة، واستطاع أن يحرز تقدماً، واستولى على بعض القلاع، وأصبح أميراً هناك.

عندما رجع المأمون إلى بغداد في (سنة ٢٠٤هـ) أرسل إلى بابك الخرمي جيشاً بقيادة يحيى بن معاذ الذي ناجزَ بابك، ولم ينته أمره بعد، وتوفي يحيى بن معاذ (سنة ٢٠٥هـ)، فعهد المأمون إلى عيسى بن محمد واليه على أرمينيا وأذربيجان بقتال بابك الخرمي، لكنه هزم أمام بابك.

ولّى المأمون بعد ذلك زريق بن علي بن صدقة الأزديَّ على أرمينيا وأذربيجان، فسير زريق إلى بابك جيشاً بقيادة أحمد بن الجنيد في (سنة ٢٠٩هـ)، فتمكن بابك من هزيمة الجيش، وأسر أحمد بن الجنيد.

عاد المأمون فأرسل والياً جديداً على أرمينيا وأذربيجان هو إبراهيم بن الفضل التجيبي، فلم يستطع تجاه بابك شيئاً.

ثم أرسل المأمون (سنة ٢١٢هـ) محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك، فتمكن بابك من محمد بن حميد (سنة ٢١٤هـ) بعد حروب دامت لسنتين، وقُتِلَ محمد بن حميد، حتى إن المأمون أعظم قتله للغاية، وكذلك المسلمون أعظموا قتله، ورثاه الشعراء.

وبقيت حركة بابك الخرمي إلى عصر المعتصم كما سيأتي.

ثانياً: خليفة المسلمين يتبنى الانحراف العقدي منهجاً لأول مرة:

أشيع أن المأمون كان يغلب عليه التشيع والاعتزال، والبعض أنكر ذلك، غير أن وقائع التاريخ أثبتت أن المأمون هو أول من رفع وأظهر أصحاب العقائد المنحرفة من المعتزلة علناً، وبخاصة أنه كان شغوفاً بالمناظرات العقلية، وقد عظّم أصحاب الفتنة في مجلسه

عليَّ بن أبي طالب ﵁ دون غيره من الصحابة، كما عظّموا العباسَ جد العباسيين، وعمّ عليّ ﵁، فعظُم ذلك في نفس المأمون، وأصبح يفضل علياً على بقية الصحابة جميعاً، مخالفاً بذلك إجماع المسلمين بتفضيل من سبق علياً من الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان ﵃.

كما أُديرت في مجالسه مناظرات عقلية فلسفية بسبب الكتب التي ترجمت من اليونانية إلى العربية التي كانت لأرسطو طاليس وسقراط وأفلاطون، وهي كتب شر تحدثت في ماهية الخالق والمخلوق، وقد أخذت فرقة المعتزلة بالكثير من أصول الفلسفة والمقاييس العقلية(١)، ولذلك قالوا بأن القرآن مخلوق، وليس بكلام الله، وتأثر المأمون بقولهم هذا، وتعصب له، وعادى ووالى عليه.

ثم امتحن العلماء والفقهاء والمحدثين والقضاة بهذا القول، وكانت محنة طويلة للعلماء، وفتنة عظيمة من فتن الشبهات التي أشغلت الأمة الإسلامية من (سنة ٢١٢هـ إلى ٢٣٤هـ)، ثبّت الله فيها من ثبت على عقيدة أهل السنة والجماعة، وهلك فيها من هلك من أهل الزيغ والضلال، فلقد قام إسحاق بن إبراهيم(٢) الوالي على بغداد بأمر المأمون بامتحان العلماء في هذه البدعة التي لم يتكلم بها أحد قط قبل هذا.

وسجن عليها أفراداً، وعذّب من أجلها أفراداً، حتى أجابه جميع من امتحن سوى أحمد ابن حنبل، ومحمد بن نوح، فأمر إسحاق بن إبراهيم أن يُشدوا في الحديد، وأن يُساقوا إلى طرسوس(٣)، حيث كان الخليفة آنذاك، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يهلك المأمون

---

(١) الفرق بين المبتدعة وبين أهل السنة والجماعة في الفهم: أن أهل السنة والجماعة يُعْمِلُونَ عقولهم لفهم ما جاء في النصوص الشرعية ليصلوا إلى مراد الله تعالى، فإذا عجزوا عن ذلك قالوا: آمنا به كل من عند ربنا.

وأما أصحاب المنهج العقلي والمبتدعة فإنهم يُعْمِلُونَ العقول لفهم النقول، فإن عجزت العقول عن الفهم الصحيح للنقول أولوها بما يتواءم مع فهمهم الخاطئ، وعقولهم السقيمة، وقد فضحهم الله تعالى عند حديثه عنهم في القرآن الكريم من سورة آل عمران بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٥]. نسأل الله العصمة من الزلل.

(٢) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي، أمير بغداد لثلاثين سنة، كان جواداً صاحب معرفة ودهاء، وصارماً في عمله، غلب عليه منهج الاعتزال، فقدم العقل على النقل، وكلام الرجال على الكتاب والسنة، توفي (سنة ٢٣٥هـ) وتولى من بعده ابنه محمد ولاية بغداد. الذهبي/ السير (١١/ ١٧١).

(٣) طرسوس مدينة حدودية أنشأها المسلمون في عهد الخلافة الأموية وتطورت في عهد العباسيين، وكانت أحد الثغور الهامة للمسلمين، ضمت حديثاً إلى دولة تركيا، وتتبع محافظة مرسين برغم أنها قبل ذلك كانت تعتبر من بلاد الشام، ولكنها خضعت مع غيرها من مدن الشمال في الشام لتركيا بموجب معاهدة سيفر بين تركيا وفرنسا وبريطانيا والتي بموجبها دخلت مناطق أضنة، ومرسين، ومرعش، وماردين، وجزيرة ابن عمر، وأورفا، وديار، بكر، وعنتاب، وكلس، إلى دولة تركيا. الحموي/ معجم البلدان (٤/ ٣١).

ويموت وهما في الطريق مع الجند، فوجهوهم إلى الرقة، ثم أعادوهم إلى بغداد، فأمرهم إسحاق بن إبراهيم بلزوم منازلهم، ولكن المحنة لم تنتهِ عند هذا الحد؛ إذ أنها استمرت بعد ذلك في زمان المعتصم، والواثق - كما سيأتي -، فقد فتح هؤلاء المنحرفون باباً جديداً على الأمة يلجون منه لبث انحرافاتهم وعقائدهم الفاسدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

برغم أن المأمون كان حافظاً لكتاب الله تعالى، تالياً له، فقد تأدب منذ صغره على يد اليزيدي النحوي العالم(١)، وجمعٍ من الفقهاء الأكارم، فبرع في علوم الفقه واللغة والتاريخ، كما سمع الحديث من أبيه الرشيد، وعبّاد بن العوام، وحجاج بن الأعور، غير أنه لما تقدم به العمر اهتم بعلوم الفلسفة وتتبعها حتى مهر فيها، فجرّه ذلك إلى العقيدة المنحرفة التي عليها المعتزلة، وذلك أنه اجتمع بجماعة منهم: بشر المريسي(٢)، وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، فراج عنده في مجلسه كلام أهل الباطل، وكانت له بصيرة بعلوم الآلة؛ كالنحو والأصول، كما اهتم بالطب والشعر وعلم النجوم، وكان بارعاً في علم الفرائض.

ومما يؤثَر عنه: أنه جمع العلماء وجلس للناس، فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين! مات أخي، وخلف ستمئة دينار، أعطوني منها ديناراً واحداً، وقالوا: هذا نصيبك، فتفكر المأمون، وحسب أمراً في رأسه، ثم قال لها: هذا نصيبك، فقال العلماء: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الرجل خلف ابنتين؟ قالت: نعم، قال: فلهن الثلثان مما ترك، أربعمئة، وخلف والدة؟ قالت: نعم، قال: فلها السدس، مئة دينار، وخلف زوجة؟ قالت: نعم، قال: فلها الثمن مما ترك، خمسة وسبعون ديناراً، ثم قال لها: بالله ألك اثنا عشر أخاً؟ قالت: نعم، قال: أصابهم ديناران ديناران، وأصابك دينار واحد.

ودخل عليه رجل من الخوارج، فقال له المأمون: ما حملك على خلافنا؟ قال: آية في كتاب الله، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) يحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي النحوي، عُرف باليزيدي لاتصاله بالأمير يزيد بن منصور خال المهدي، شيخ القراء ثقة حجة في القراءة، ألف كتاب النوادر، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الشكل، وكتاب النحو، ولد في (سنة ١٢٨هـ) وتوفي (سنة ٢٠٢هـ). الذهبي/ السير (٩/ ٥٦٢).

(٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة، أبو عبد الرحمن المريسي، شيخ المتكلمة من المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، نظر أولاً في شيء من الفقه أخذه عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة، ثم نظر في كتب الكلام فغلبت عليه الفلسفة والمقياس العقلي، وقد نهاه الشافعي رحمه الله عن تعلم ذلك وتعاطيه، فلم يقبل منه.

قال الشافعي: لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ما عدا الشرك بالله أحبُّ إلي من أن يلقاه بعلم الكلام. توفي بشر في أول خلافة المعتصم (سنة ١١٨هـ). الذهبي/ السير (١٠/ ١٩٩).

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤]. قال: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم، قال: وما دليلك؟ قال: إجماع الأمة، قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل، فارضَ بإجماعهم بالتأويل، قال: صدقت، السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وكان المأمون خطيباً مفوهاً، موجزاً في خطبته، مؤثراً في موعظته، ومن ذلك: أنه صعد المنبر يوم عيد، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ، ثم قال: عباد الله! عظم أمر الدارين، وارتفع جزاء العالمين، وطالت مدة الفريقين، فوالله! إنه للجد لا اللعب، وإنه للحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والحساب، والفصل والميزان والصراط، ثم العقاب أو الثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

وكان المأمون قد مرض في سنة مئتين وثماني عشرة للهجرة، فعهد لأخيه أبي إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بالخلافة من بعده، وأخذ له البيعة من الأمصار.

لما تماثل المأمون للشفاء، خرج بجيشه في جمادى الآخرة (سنة ٢١٨هـ) إلى بلاد الروم عن طريق طرسوس، فأصيب بالحمى هناك، فلما شعر بدنو الأجل، أوصى وأشهد الحضور من الأمراء والقضاة(١)، وأوصى الخليفة من بعده، ثم لفظ أنفاسه، وتوفي يوم الخميس الثاني عشر من شهر رجب (سنة ٢١٨هـ) عن عمر ناهز الثامنة والأربعين عاماً، وكانت مدة خلافته تزيد عن عشرين سنة ونصف، فحملوه إلى طرسوس، وصلى عليه المعتصم، ثم دفنوه هناك، نسأل الله تعالى العفو وحسن الخاتمة، وأن يتجاوز عن أهل الإيمان، وأن يعفو عنهم.

---

(١) أشهدهم وأوصاهم بأنه يشهد أن الله عز وجل وحده لا شريك له في ملكه ولا مدبر لأمره غيره، وأنه خالق وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن أن يكون له شيء مثل – أي كذلك مخلوق –، ولا شيء مثله تبارك وتعالى، وأن الموت حق، والبعث حق، وثواب المحسن الجنة، وعقاب المسيء النار، وأن محمداً ﷺ قد بلغ عن ربه شرائع دينه، وأدى نصيحته إلى أمته حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه أفضل صلاة صلاها على أحد من ملائكته المقربين، وأنبيائه والمرسلين، وإني مقر مذنب، أرجو وأخاف، إلا أنني إذا ذكرت عفو الله رجوته،فإذا أنا مت فوجهوني وغمضوني، وأسبغوا وضوئي وطهوري، وأجيدوا كفني، ثم أكثروا حمد الله على الإسلام، ومعرفة حقه عليكم في محمد عليه الصلاة والسلام إذ جعلنا من أمته المرحومة، ثم أضجعوني على سريري ثم عجلوا بي، فإذا أنتم وضعتموني للصلاة، فليتقدم بها من هو أقربكم بي نسباً، وأكبركم سناً... إلى آخر ما قال في وصيته المشهورة.

وهكذا ظل المأمون على عقيدته المنحرفة حين قال: (ولا يخلو القرآن أن يكون له شيء مثل) وأشهد الناس على ذلك قبل وفاته مما أغرى من جاء بعده بتبني هذه العقائد الفاسدة، وانقطع عمله من الدنيا ولم يرجع عنه. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المأمون (ص:٣٣٥).

الخليفة الثامن: محمد المعتصم بن هارون (٢١٨ هـ - ٢٢٧ هـ):

الخليفة العباسي المعتصم أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، ولد في شهر شعبان (سنة ١٨٠هـ)، وأمه أم ولد تركية(١) كسائر إخوانه التسعة كلهم من أمهات ولد سوى محمد الأمين الذي كانت أمه عربية وابنةَ عم أبيه كما تقدم.

يكنى بالمُثَمَّن، وذلك أنه ثامنُ ولد العباس في الخلافة، وثامن ولد العباس في الذرية، وفتح ثمان فتوحات، وقتل ثمانية من ألد أعداء الأمة، وأقام في الخلافة ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وأنه ولد (سنة ١٨٠هـ) في شعبان الشهر الثامن من السنة الهجرية، وأنه توفي وله من العمر ثمانية وأربعون سنة، وأنه خلف ثمانية بنين، وثمان بنات، وأنه دخل بغداد خليفة في مستهل رمضان (سنة ٢١٨هـ) بعد استكمال ثمانية أشهر من السنة.

قيل: إنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وذلك بسبب أنه كان يتردد إلى الكتّاب مع غلام، فمات الغلام، فقال له أبوه الرشيد: ما فعل غلامك؟ قال: مات واستراح من الكتاب، فقال له أبوه: وقد بلغ منك كراهة الكتّاب إلى أن تجعل الموت راحة منه؟!! والله! يا بني لا تذهب للكتّاب بعد هذا، فتركوه، فكان أمياً، وقيل: إنه كان يكتب كتابة ضعيفة، وكان يقول عن نفسه: قد علمتُ أني دون إخوتي في الأدب؛ لحب أمير المؤمنين لي، وميلي إلى اللعب وأنا حدَث، فلم أنل ما نالوا(٢).

كان المعتصم رجل سيف وحرب لا يضع سيفَه عن عاتقه، ولذا لم ينشغل كثيراً بتلقي العلوم، عمل والياً على مصر في عهد المأمون، واستطاع أن يقيم أمر مصر بعد الثورات التي كانت بها.

ثم عاد وبقي إلى جوار أخيه المأمون الذي كان يعهد إليه بكثير من مهام الخلافة، ثم ولي عهد المأمون، وبويع له في اليوم الذي توفي فيه الخليفة المأمون، وممن بايعه: العباس بن المأمون عن رضاً منه وامتثالاً لعهد أبيه، غير أن أصحاب الفتنة المندسين في جيش الدولة أرادوا إيقاع الخلاف والنزاع بين المعتصم وابن أخيه العباس، فثاروا وطلبوا العباس،

---

(١) أصلها من بلاد الصغد في طشقند في أوزبكستان، وتدعى: مارده، كانت لها مكانة وحظوة عند الرشيد لجمالها وأدبها.

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٢٨٤).

ونادوا باسمه خليفة دون علم منه ولا رغبة؛ مما دفع العباس أن يخرج إليهم، ويعلن لهم أنه بايع لعمه، وأن الأمر تم بالخير والبركة، مما كسر هؤلاء القوم مضمري الشر، غير أن الفتنة ظلت في نفوسهم إلى حين انكشفت أوراق هؤلاء القوم وما يسعون إليه من أول يوم للمعتصم، لذا بدأ يعمل على تصفيتهم والوقوف في وجههم.

استعان المعتصم بأخواله من الترك(١) في أعمال الجندية بناءً على رغبة أخيه المأمون في آخر خلافته، وذلك للتخلص من سيطرة العنصر الفارسي الذي كان دائماً يسعى بالفتنة بين بني هاشم، ويحاول دائماً القضاء على الخلافة، وأكثر المعتصم منهم حتى ضجت بهم بغداد، وكانت فيهم جلافة وقسوة طبع، فشكا الناس في بغداد إلى الخليفة المعتصم، فقرر أن يخرجهم من بين عامة الناس في بغداد، فأنشأ مدينة سُرَّمن رأى -سامراء- على نهر دجلة من الشمال من بغداد، ونقل إليها جنده من الترك، كما جعلها عاصمة الخلافة، وبقيت كذلك إلى (سنة ٢٨٩هـ) عندما تركها الخليفة المعتضد بالله، ورجع إلى بغداد، فبقيت سامراء عاصمة إلى ما يقرب من خمس وستين سنة.

ولقد قام المعتصم بتولية الأتراك إمارة الجيش، فلقد كان قادته على رأس جيشه: الأفشين(٢)، وإيتاخ(٣)، وأشناس(٤)، ووصيف(٥)، وبغا(٦)، وغيرهم من القادة الأتراك

---

(١) جلبهم المعتصم من سمرقند وبلاد ما وراء النهر، والصغد -طشقند-، وفرغانة، أتى بجنود وكذلك موالي ومماليك.

(٢) الأفشين: حيدر بن كاوس وقيل: صدر بن كاوس، أصله من بلاد أشروسنة من سلالة ملكية عريقة، وهو من أحفاد الأكاسرة، يلقب بالأفشين، وهو لقب ورثه عن أبيه يلقب به كل من حكم أشروسنة، كان آخر ملوك عائلته، مجوسي الديانة، اعتنق الإسلام نفاقاً، وكان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، استطاع لشجاعته أن يكون من خواص الخليفة المعتصم،كان المعتصم يثق به ثقة عمياء، وأصبح الأفشين اليد اليمنى للمعتصم، وله المكانة العليا، لكنه في النهاية انكشف أمره، وانقلب عليه المعتصم وحاكمه وسجنه ومات في سجنه (سنة ٢٢٦هـ). الموسوعة الحرة.

(٣) إيتاخ التركي: من كبار قادة الدولة العباسية من المماليك الترك؛ غلام خزري كان يعمل طباخاً، اشتراه المعتصم (سنة ١٩٩هـ)، وبقي عنده وكان ذا بأس وفطنة؛ لذا استعمله المعتصم قائداً على مجموعة من الجيش الأتراك في سامراء وعُيِّنَ بعد مقتل أشناس والياً على الشام، لُقب بسيف النقمة لأنه كان ذراعاً للخلفاء المعتصم والواثق ويُعد من رجالات الدولة العباسية، قُبض عليه بأمر الخليفة المتوكل، وكُبل بالحديد إلى أن هلك في سجنه عطشاً (سنة ٢٣٥هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٣١٣).

(٤) أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ثم قلده منصب المشرف العام على الجيش في سامراء، قُتل (سنة ٢٣٠هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٢٩٦).

(٥) وصيف: الأمير التركي وصيف أصله مملوكٌ لشيخ من أهل قم، اشتراه وأحسن تربيته، فلما شبّ عمل بالسلاح وتوجه مع بعض الجند إلى خراسان، ثم دارت به الحياة إلى أن اتصل بالمتوكل، ولما تولى وصيف على فارس ومنها قم، طلب الشيخ سيده الأول وأستاذه، واعترف له بالرق، فأنكر الرجل ذلك، فقال له: أنا مملوك فلان، فعرفه وأحله من الرق، فدفع إليه وصيف بالهدايا والدواب والطيب، وأمر لابنه بعشرة آلاف درهم، كما بعث لزوجة الرجل وبناته مالاً كثيراً، ثم قال: يا أهل قم! ما على وجه الأرض أحد أوجب حقاً علي منكم، إلا أني أخالفكم في التشيع. قلت: وهذا من تمام إنصاف أهل السنة حتى مع خصومهم، من أصحاب العقائد المنحرفة.

كان وصيف من كبار الأمراء، وكان المتوكل قد قلص صلاحيات وصيفا وبغا، فتآمروا مع ولده المنتصر على قتله وتمكنوا من ذلك، ثم استولى على الخليفة المعتز واصطفى لنفسه ذخائر وأموالاً نفيسة، فشغبت عليه الجند وطالبوه بالأرزاق -الرواتب-، فقال: مالكم عندنا إلا التراب، فوثبوا عليه وقتلوه بالدبابيس وقطعوا رأسه ونصبوه على رمح في (سنة ٢٥٣هـ). الموسوعة الحرة.

(٦) بغا التركي الصغير المعروف ببغا الشرابي من كبار قادة المتوكل، وأحد المتآمرين عليه، خرج على الخليفة المعتز ونهب من الخزائن مئتي ألف دينار واختلف عليه أصحابه وفارقه عسكره فهرب في زورق فأخذه الجند وقتلوه ونصب رأسه ببغداد وأعطي قاتله عشرة آلاف دينار، وكان ذلك في (سنة ٢٥٤هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٣٩٨).

الذين اختارهم المعتصم لشجاعتهم، وسلَّمهم قيادة ملك آبائه من العرب، ونحَّى العرب عن قيادة الجيش، فكان أول من جعل الفرصة للعجم من العسكر، ليكون لهم السلطان على الدولة، مما كان له آثاره السلبية بعد ذلك لأكثر من قرن من الزمان تصرف فيها الأتراك وكأنهم ملوك الدولة.

- **أهم الأحداث في عصره:**

أولاً: استمرار محنة العلماء:

أخذ المعتصم بوصية أخيه المأمون، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، وتقديمه المعتزلة على أهل السنة والجماعة، ولقد أساء في ذلك؛ إذ أنه ترتب عليه معاناة بعض العلماء، فلقد عانى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أشد المعاناة مع المعتصم، حيث إنه أمر به فأُتي به في مجلسه وعنده قادته ووزراؤه من رؤوس الاعتزال، وظل الإمام أحمد بن حنبل يناظرهم أمام المعتصم الذي عَظُمَ في عينه الإمام أحمد، وظل المعتصم يتلطف بالإمام أحمد وهو يقول له: أجبني إلى القول بخلق القرآن، والإمام أحمد يجيبه بقوله: يأتوني بآية من كتاب الله، أو سنة عن رسول الله ﷺ حتى أجيبهم إليها.

فلما بطلت حججهم، وشعروا بالحرج، قام إسحاق بن إبراهيم نائبُ بغداد فألقى كلمة استشاط بسببها المعتصم غضباً، حيث قال: يا أمير المؤمنين! ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيل أحمد بن حنبل، ويغلب خليفتين، فغضب المعتصم عندئذ غضباً شديداً(١)، فقال لأحمد: لعنك الله، طمعتُ فيك أن تجيبني فلم تجبني، ثم أمر به أن يؤخذ من أمامه، وأن يضرب بالسياط بعد أن يجردوه من ثيابه، فظلوا يضربونه حتى أغمي عليه مراراً، كل ذلك والمعتصم يشاهد، ويدعوه إلى القول بخلق القرآن، والقوم يقولون له: ويحك! الخليفة على رأسك، فلم يجبهم، وظلوا يضربونه حتى بلغ لحالة أرعبتهم، ولم يشعر إلا وهو في بيته، وقد أطلقوا القيود عن رجله في الخامس والعشرين من رمضان سنة (٢٢١هـ).

---

(١) كان أولى بالمعتصم وحري به أن يغضب لله تعالى ولعقيدة أهل السنة والجماعة بدلاً من أن يغضب لنفسه ولمكانته.

فلما رجع إلى منزله جاءه الطبيب، فقطع عنه لحماً ميتاً من جسده، وأخذ يداويه، والنائبُ يسأل عنه في كل وقت بأمر من الخليفة، ذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندماً كثيراً، وخاصة لعنه؛ فإن المسلم ليس بلعانٍ ولا طعان، ولا بذيء ولا فاحش، وأحمدُ بن حنبل نحسبه من أئمة التقى والورع والهدى، فلما عافاه الله، بلغ المعتصم ذلك، ففرح، وفرح الناس بشفاء أحمد، وجعل أحمد كلَّ من آذاه في حِلّ إلا أهلَ البدعة.

وكانت هذه المحنة كلها بسبب الانحراف العقدي الذي أظهره المأمون بما تعلمه من بِشرٍ المريسي، وتبعه عليه أخوه المعتصم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانياً: الفتنة بين العباس والمعتصم:

عاد أصحاب الفتنة للوقيعة بين المعتصم وابن أخيه العباس، وخاصة بعد أن وثقوا أن المعتصم كشف أمرهم، وأصبح خصماً لهم، فأخذوا يُثنون على العباس وعلى المأمون، ويغمزون ويلمزون في المعتصم، مما أوقع الفتنة بين العباس وبين عمه المعتصم.

انطلق المعتصم في (سنة ٢٢٣هـ) للجهاد في أرض الروم لفتح عمورية، فانتهز أصحاب الفتنة الفرصة، وأثاروا حفيظة العباس بأنه إذا تخلص من عمه، فإنهم خلفه مبايعون له خليفة على المسلمين، فوافقهم العباس على ذلك، وأراد قتل عمه، وجهز لذلك من يقوم بقتل الخليفة، وقد أعد الأمر عند العودة من عمورية بعد فتحها، وانشغال الناس بالمغانم، وما يدري أن المعتصم فطن لأمره، واستدعى الرجل الموكل من قبل العباس بالقتل، واسمه: الحارث السمرقندي، فاستقره المعتصم، فأقر له بالمؤامرة، وذكر له أسماء الأمراء الذين بايعوا للعباس سراً، فأمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فوضع في السجن، وشُدّ عليه وعُذب، ولم يتحمل العباس ذلك، فمات بعد فترة قصيرة، وأمر المعتصم بالأمراء المبايعين فقتلوا جميعاً، وانتهت بذلك هذه الفتنة.

ثالثاً: فتح عمورية (سنة ٢٢٣هـ):

كان بابك الخرمي قبل هلاكه يراسل ملك الروم توفيل بن ميخائيل، ويستحثه على الخروج لحرب العباسيين، لكن ملك الروم تقاعس إلى أن هلك بابك، فخرج بعد ذلك يغزو ثغور المسلمين في ملاطيا وطرسوس، فوقع المسلمون في ملحمة عظيمة

قُتل فيها خلق كثير، وأُسر خلق أكثر، من جملتهم ألفُ امرأة مسلمة، ثم مثل بالأسرى، فقطع آذانهم، وأنوفهم، وسمل أعينهم وهم أحياء، وتركهم حتى ماتوا، وأعانه على ذلك المحمِّرة من فرق الباطنية الذين كانوا قد خرجوا في إقليم الجبال، وساروا معه إلى زبطرة، وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، وأسروا من حريمها نساءً كثراً(١)، وبلغ المعتصمَ ذلك، فانزعج وصرخ في قصره بالنفير، ونهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش، ثم أمر بالقضاة والفقهاء، فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثُه صدقة، وثلثُه لولده، وثلثه لمواليه.

سار المعتصم على رأس الجيش يوم الإثنين الثاني من جمادى الأولى (٢٢٣هـ)، وأرسل بين يديه بعض قادته بجيوشهم إعانة سريعة لأهل زبطرة، فأسرعوا في سيرهم، فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل، وقفل إلى بلاده راجعاً، فرجعوا إلى الخليفة وأخبروه بالأمر، فقال لهم: أيُّ بلاد الروم أمنعُ؟ قالوا: عمورية، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرفُ عندهم من القسطنطينية، وهي أصل النصرانية، فقال المعتصم: تفتح إن شاء الله عمورية(٢).

وسار إليها وحاصرها بجيشه في السادس من شهر رمضان (سنة ٢٢٣هـ)، ولمدة خمسة وخمسين يوماً، حتى استطاع فتحها ودكها، واستنقاذ حريم المسلمين ومن تبقى من أسراهم، وقد خلد أبو تمام الشاعر(٣) ذلك في قصيدة مشهورة قائلاً في صدرها:

السيف أصدق إنباءً من الكـتب   في حده الحدُّ بين الجِدِّ واللعب

ثم أضاف:

يا يوم وقعة عمورية انصرفتْ   عنكِ المنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبَ
أبقيتَ جدَّ بني الإسلام في صُعُد   والمشركين ودارَ الشرك في صَبَبِ

---

(١) ذكر ابن خلدون في العبر: أن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم وقالت: وامعتصماه، فبلغه الخبر وهو على سريره، فقال: لبيك لبيك، ونادى بالنفير العام ونهض من ساعته. (٢/ ٧٤٥).

(٢) جاء المنجمون وهتافة التهريج وأصحاب الفتن إلى المعتصم يقولون: لقد أبدت لنا النجوم أن هذا ليس وقتاً لفتح عمورية، ولن تفتح إلا في وقت نضج التين والعنب، لكن المعتصم ألقى بأراجيفهم هذه وتخاريفهم عرض الحائط وخرج إلى عمورية.

(٣) أبو تمام الشاعر: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي أحد كبار الشعراء في العصر العباسي، من قرى حوران بالشام، رحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، وقدمه على شعراء عصره، تولى بريد الموصل، وتوفي بها في (سنة ٢٨١هـ)، له قصائد شعرية منها: فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ونقائض جرير والأخطل، ومختار أشعار القبائل. الموسوعة الحرة.

رابعاً: الثورات على الخلافة في عهد المعتصم:

١. الخرمية:

تحدثنا فيما سبق عن فتنة بابك الخرمي في عهد المأمون، وأنه لم يتمكن من القضاء عليه، وقد أحدث فتنة عظيمة في بلاد أذربيجان وأرمينيا، وخرج إليه الكثير ممن أخفى المجوسية وأظهر الإسلام تقية(١)، وظنوا أنهم إذا التفوا حول بابك الخرمي سيعيدون مجد الحضارة الفارسية مرة أخرى، لذلك تجمع بعضهم في همذان، فأرسل إليهم الخليفة المعتصم جيشاً بقيادة إسحاق بن إبراهيم في ذي القعدة (سنة ٢١٨هـ)، فاستطاع أن يكسرهم في همذان، وقتل منهم مئة ألف، وهرب الباقون إلى بلاد الروم.

رجع إسحاق بن إبراهيم ومعه أسرى من الخرمية، وكان قد أرسل قبل عودته بكتاب يبشر فيه الخليفة بهذا الفتح، فقُرئ ذلك الكتاب في يوم التروية الثامن من ذي الحجة (٢١٨هـ)، فسر الناس بذلك سروراً عظيماً، فهي أول معركة ينكسر فيها الخرمية.

ثم ولّى المعتصم قائده الأفشين حيدر بن كاوس على إقليم الجبال، وأمره أن يعد العدة للقضاء على بابك الخرمي وفتنته، في جمادى الآخرة (سنة ٢٢٠هـ).

قام الأفشين بتدبير أمر الحرب تدبيراً ذكياً، ووضع الخطط، وضبط ما تحت يده، وأمسك بالطرق التي توصل إلى بابك وتأتي من عنده، ليظهر للخلافة مدى حرصه على الدولة.

وأرسل المعتصم عطاءً ونفقة كبيرة للجند، ووقعت أحداث متوالية، ومناوشات كثيرة خلال عامين متتاليين، حتى سار الأفشين بجيش المسلمين إلى بلدة (البذ) بلدة بابك الخرمي حتى استطاع دخولها، ووافاه الجند من كل جانب بمعركة سريعة، وصعد الناس بالأعلام والرايات فوق قصور بابك، وامتلأت شوارع (البذ) بالناس، وخرجت لهم كمائن بابك الخرمي، فظل يقاتل على أبواب القصور، فقام جند المسلمين بإحراق الدور وهدم القصور، وأفنوا جيش الخرمية الذي كان في هذه المواقع، وأخذ الأفشين أولاد بابك ومن كان معهم من عيالهم في (البذ)، وأمر الناس بالانصراف فانصرفوا.

---

(١) كان هؤلاء القوم يربون أبناءهم على ذلك، وما زالوا يورثونهم هذه العقيدة المنحرفة عقيدة التقية حتى ثبتت في نفوسهم وترسخت في عقولهم لتصبح حقيقة يجب العمل بها، وعقيدة يموتون عليها، ويرضى عنهم إله النور حسب معتقدهم.

ثم رجع في اليوم الثاني، فهدم ما لم يهدَم، وأحرق ما ينبغي حرقه، وقد فر منه بابك مع بعض أصحابه حتى استطاع الأفشين في النهاية أن يقبض عليه، وأن يأتي به هو وأخوه، وأرسل إلى المعتصم يعلمه بأسرهما، فأمره المعتصم بالقدوم بهما عليه، ووصلوا ليلة الخميس الثالث من صفر (سنة ٢٢٣هـ)، فأمر المعتصم بذبح بابك، وإرسال رأسه إلى خراسان، وأن يصلب البدنُ عند العقبة بسامراء، وكذلك فُعل بأخيه على يد إسحاق بن إبراهيم في بغداد ليعلم الجميع أنهما قد قتلا.

وانتهت فتنة بابك الخرمي، والتي بدأت من سنة (٢٠١هـ إلى ٢٢٢هـ)، وقد قُتل فيها من المسلمين مئتان وخمسة وخمسون ألفاً، كما ذهب عدد من القادة قتلى، وكان قد أسر مع بابك ثلاثة آلاف وثلاثمئة وتسعة من أتباعه، كما استطاع جيش المسلمين أن يفك أسر من كان في يده من المسلمات وأولادهن، وكان عددهم جميعاً سبعة آلاف وستمئة، كما وقع في أسر المسلمين من أسرة بابك سبعة عشر رجلاً وثلاث وعشرون امرأة.

وتعالت الفرحة والدعوات والحمد والشكر لله رب العالمين في بلاد المسلمين على ما مكنهم من القضاء على بابك وفتنته، كما توج المعتصم قائده الأفشين، وألبسه وشاحين، وأعطاه عطية ضخمة يوزعها على العسكر، وجعله والياً على السند، وذلك يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر (سنة ٢٢٣هـ).

٢. حركة محمد بن القاسم الطالبي(١):

قام بدعوته في بلاد خراسان إلى الرضا من آل محمد، فاجتمع إليه أتباع كثر، ووقع بينه وبين الدولة حروب ومشاحنات، فهزم، وفر هارباً إلى بعض قرى خراسان، إلى أن قُبض عليه وجيء به إلى المعتصم (سنة ٢١٩هـ)، فأمر بحبسه في سامراء، ثم لما كانت ليلة عيد الفطر، واشتغل الناس، هرب من حبسه ذلك، ولم يعرف له مكان، أو إلى أين صار.

---

(١) محمد بن القاسم بن عمر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر من أهل الكوفة، كان يلقب بالصوفي للبسه الصوف الأبيض. كان من زهاد البيت الطالبي، وكان يقول بقول الزيدية الجارودية الذين ذهبت بعض طوائفهم إلى القول عند اختفائه -محمد بن القاسم- حي لم يمت وأنه سيخرج يوماً ما لأنه مهدي هذه الأمة وسيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وأكثر من كان يقول بذلك أقوام من طبرستان والديلم وقرى خراسان، وطائفة الجارودية الزيدية نسبة إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمذاني الخراساني، مات سنة (١٥٠هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٢٣٣-٢٣٤).

٣. ثورة الزط (الغجر):

الزط: أقوام من بلاد السند والهند وباكستان، لونهم أسمر داكن، عملوا بالبصرة في الشرطة وحراسة السجون، كما عملوا بالملاحة البحرية، وبعضهم في الزراعة.

استغل هؤلاء الفوضى التي حلت في بعض مناطق الدولة بسبب الخلاف بين الأمين والمأمون، واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على بعض المناطق التي تحت أيديهم، وعند تولي المعتصم للخلافة عاثوا في الأرض فساداً، وقطعوا الطريق الموصلة إلى البصرة، ونهبوا الغلات، وأخافوا الناس؛ مما دفع الخليفة المعتصم أن يوجه إليهم جيشاً بقيادة عجيف بن عمبسة(١) في جمادى الآخرة (سنة ٢١٩هـ).

استطاع عجيف أن ينتصر عليهم في عدة معارك استمرت لتسعة أشهر، حتى طلبوا منه الأمان، فأخرجهم، وكان عددهم سبعة وعشرين ألفاً، وساقهم إلى بغداد يوم عاشوراء (سنة ٢٢٠هـ)، ثم ساقوهم بأهليهم وأبنائهم جميعاً إلى حدود الدولة مع الروم بثغر يقال له: عين زربة، ليكتفوا من شرهم، وتأديباً لهم حتى يعودوا إلى الانضباط والالتزام بالولاء للدولة، وظن الروم أن الزط جاؤوا للإغارة عليهم، فشدوا عليهم، وقضوا على كثير منهم(٢).

٤. حركة مازيار بن قارن بن وندا هرمز بطبرستان (سنة ٢٢٤هـ):

كان مازيار(٣) يدفع الخراج إلى والي خراسان، ثم امتنع عن دفع الخراج، وأظهر المخالفة للدولة وخاصة أنه كان ممن يعين بابك الخرمي ويعدُه بالنصر ويمنيه.

فأرسل إليه المعتصم جيشاً بقيادة محمد بن إبراهيم، فجرت بينه وبين مازيار حروب

---

(١) عجيف بن عمبسة الليثي الكناني من بني جندع بن ليث بن بكر بن عبد مناة، كان أحد قادة الدولة العباسية، استعمله الخليفة المعتصم (سنة ٢١٩هـ) للقضاء على ثورة الزط، قُتل مع العباس بن المأمون على يد المعتصم عندما طالب العباس بالخلافة لنفسه (سنة ٢٢٣هـ). الموسوعة الحرة.

(٢) وقيل: إن الروم لم يقضوا عليهم جميعاً، بل بقي منهم من انطلق داخل دولة الروم مكونين شعوب الغجر التي ما زالت تنتشر في آسيا وأوروبا، كما أن بعض الزط من الذين بقوا في العراق كونوا بعد ذلك جموعاً واعتقدوا ما تقول به القرامطة بقيادة رجل يقال له: أبو حاتم الزطي (سنة ٢٥٩هـ)، وكانت له آراء مخالفة لشريعة الله سبحانه وتعالى.

(٣) المازيار بن قارن بن وندا بن يزدا هرمز، أظهر ثورة على الخلافة العباسية، وكان يكاتب بابك الخرمي، وانتهى الأمر به أن قُبض عليه ومات وهو يُضرب بالسياط بأمر الخليفة المعتصم (سنة ٢٢٥هـ). ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٤/ ٢٧٥).

طويلة انتهت بأسره وإرساله إلى المعتصم، ومعه أمواله التي اصطفاها من الذهب والجوهر والثياب، فأمر الخليفة بضربه بالسياط حتى مات وهو يضرب، فقاموا بصلبه إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد، وأمر المعتصم بقتل قادته وأتباعه الذين أرسلوا معه، وكان ذلك في ذي القعدة (سنة ٢٢٥هـ).

وكان المازيار قد أقر في أثناء ضربه أن الأفشين كان يكاتبه ويمنيه، ويحثه على خلع الطاعة والخروج على الدولة؛ مما دفع المعتصم بعد ذلك أن يحاسب الأفشين حساباً عسيراً كما سيأتي.

٥. حركة منكجور الأشروسني (سنة ٢٢٤هـ):

كان منكجور من أقرباء الأفشين، وقد ولاه أذربيجان بعد أن قضى الأفشين على فتنة بابك الخرمي، فظفر منكجور ببعض كنوز بابك الخرمي التي بها أموال عظيمة، فاحتجزه لنفسه، وأخفاه عن الأفشين وعن الخليفة، واطلع على هذا الأمر عبد الله بن عبد الرحمن صاحبُ بريد أذربيجان من قبل الخليفة، فأرسل عبدُ الله إلى الخليفة بذلك، وأرسل منكجور إلى الخليفة يُكّذب ذلك، حتى هَمّ منكجور بقتل عبد الله بن عبد الرحمن، فامتنع عبد الله منه بأهل منطقة أردبيل، وأرسل المعتصم قائده بغا الكبير⁽¹⁾، فحاربه وأسره، وجاء به إلى الخليفة (سنة ٢٢٥هـ)، فأمر المعتصم بسجنه.

- **محاكمة الأفشين وقتله:**

عندما تكون النفوس مريضة، ولا تقنع بما قسمه الله لها، تطمع إلى حد عدم الرضا، ولو حازت الدنيا بأجمعها، وبرغم أن الإنسان منا يرى فيمن سبقه أنه خرج من الدنيا ولم يحمل معه شيئاً إلا عمله كما قال الشاعر:

وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير الحنط والكفن؟!!

كان من هؤلاء القائدُ الأفشين، الذي قربه المعتصم إليه، وجعله محل ثقته، حتى أصبح

---

(١) بغا الكبير: أبو موسى التركي، من أكبر قادة الترك، له فتوحات ووقائع، كان مملوكاً للوزير الحسن بن سهل، لكنه كان به حمق وجهل في رأيه، فهو مقاتل من الدرجة الأولى، وباشر عدة حروب ولم يجرح قط في معركة واحدة، كان ظاهره التدين والتمسك بالإسلام، توفي في (سنة ٢٤٨هـ) وقيل: (٢٥٠هـ). الموسوعة الحرة.

الرجلَ الثاني في الخلافة بعد المعتصم، وكأنه كان يطمح في أمر آخر، جعل بعض الدارسين يفسر من خلال ذلك إطالة الفترة بحربه لبابك الخرمي، وكان يرغب في ولاية خراسان، ويرى فيها أنها قاعدة يمكن أن يحقق أهدافه من خلالها.

وكان الأفشين كلما جاءه مال، أو وقع في يده، أرسله إلى أشروسنة(١)، وهي بلدته في منطقة ما وراء النهر بين نهر سيحون وسمرقند، وقد ثبت لدى المعتصم خيانة الأفشين، وخاصة بعد أن ضبطت الرسائل التي كان يتبادلها مع مازيار؛ مما دفع المعتصم أن يحذره، وأن يهيئ له ما يقضي به عليه.

فلما واتت الفرصة المعتصم، قبض عليه، ثم ناظره في مجلس تحقيق كان فيه قاضيه أحمد ابن أبي دؤاد المعتزلي(٢)، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات المعتزلي(٣)، ونائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم، وقد اتُّهم الأفشين بأشياء تدل على بقائه على المجوسية، وأنه أبطن الكفر وأعلن الإسلام، ومن ذلك:

- أنه غير مختتن، فأجاب بأنه يخاف ألم الاختتان، فقيل له: أنت تطاعن بالرماح في الحروب، ولا تخاف من طعنها، وتخاف من قطع قلفة من بدنك؟!.
- كما واجه القومُ الأفشينَ بأنه ضرب رجلين، أحدهما إمامٌ، والآخر مؤذنٌ ألف سوط لكل منهما، لأنهما هدما بيت أصنام، واتخذاه مسجداً، فلما أنكر، ادخلا عليه الرجلين، فقال: ما فعلت ذلك إلا بسبب أن بيني وبين ملوك الصغد (طشقند) عهداً وشرطاً، أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه.
- وأيضاً: أنه عنده كتاب كليلة ودمنة، وفيه الكفر(٤)، وقد زين الكتاب بالذهب والجواهر والديباج، وأيضاً كتاب مزدك.

---

(١) أشروسنة: هي منطقة تاريخية جغرافية تقع في بلاد ما وراء النهر بين فرغانة وخوجندة.

(٢) أحمد بن أبي دؤاد: هو فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد بن سلام بن عبد هند بن عبد لخم المعتزلي، يصل نسبه إلى نزار بن معد بن عدنان، ولد (سنة ١٦٠ هـ)، أصله من بلاد قنسرين، ولي رئاسة القضاء للمعتصم، ثم الواثق، جهمي المذهب، وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، اشتغل بالعلم وطلبه، وصحب هياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء زعيم المعتزلة، فأخذ عنه هذا المنهج الفاسد، توفي يوم السبت السابع من المحرم (سنة ٢٤٠هـ). محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ الواثق (ص:٣٧).

(٣) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات، ولد (سنة ١٧٣ هـ)، استوزره المعتصم إلى أن مات، واستوزره الواثق من بعده، وهلك في زمان المتوكل (١٣٣هـ)، ويعد من رؤوس المعتزلة البلغاء، عالم باللغة والشعرِ. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ المعتصم بالله (ص:١٠٦).

(٤) قلت: ماذا لو أنهم رأوا المكتبات الخاصة قبل العامة اليوم وهي تعج بحِكَم الفرس والفلاسفة من اليونان والرومان، بل بأشعار الكفر وقصص المجون والإباحية، التي تزيد آلاف المرات عما في كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلةَ، نسأل الله العفو والعصمة من الزلل، وشر الانتكاسة.

- ومما اتهم به أيضاً: أن قومه من العجم يكاتبونه بقولهم: إلى إله الآلهة من عبيده، وأنه يقرهم على ذلك، وواجه بالمرزبان بن تركش شاهداً عليه، فقال معتذراً بأنه أجراهم على ما كانوا يكاتبون به آباءه وأجداده، فقالوا له: ويحك! فماذا أبقيت لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى؟.
- ثم واجهوه بالرسائل التي كان يكتبها إلى المازيار، والتي جاء فيها أنه يحثه على الخروج على الطاعة، وأنه في ضيق حتى ينصرَ دين المجوس الذي كان قديماً، ويُظهِرَه على دين العرب.
- كما اتهم بأنه كان يستطيب المنخنقة من الأنعام على المذبوحة، وأنه كان في كل يوم أربعاء يؤتى بشاة سوداء، فيشطرها بالسيف نصفين، ويمشي بينهما ثم يأكلها، وكان الشاهدَ عليه في ذلك رجل يقال له: الموبذ.
- وكان مما واجهوه به، وهي قاصمة الظهر: أن أحضروا له المرزبان بن تركش أحد ملوك الصغد، فقالوا للأفشين: هل تعرف هذا؟ قال: لا، فقيل للمرزبان: هل تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا الأفشين.
- ثم أدخلوا عليه المازيار صاحبَ طبرستان ليقيم عليه الحجة بكفره عندما كان الأفشين يكاتبه بقوله: إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك، فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن أوقعه فيما وقع فيه، ثم أضاف أنه قال: إن العربي بمنزلة الكلب، اطرحْ له كسرة خبز، ثم اضرب رأسه بالدبوس.

وبعد أن وُوجه الأفشين بهذه الأمور، أمر المعتصم أن يحصى جميعُ مافي دار الأفشين من مال وغيره، وأمر قائده بغا الكبير أن يسجنه مهاناً ذليلاً، فقال لهم الأفشين: إني كنت أتوقع منكم ذلك، فهلك في حبسه في شعبان (سنة ٢٢٦هـ)، فأمر به المعتصم فصُلب لأيام، ثم أمر بحرقه وذري رماده في نهر دجلة، ولما أمر المعتصم بجمع أمواله وحواصله، وجد فيها أصناماً مكللة بذهب وجواهر، وكتباً في فضل دين المجوس، ورسائل كثيرة كان يتهم بها، تدل على كفره وزندقته، وأنه على دين آبائه المجوس لعنهم الله(١).

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٢٧٢).

فقال أبو تمام قصيدة طويلة يمدح المعتصم فيها، ويذكر حرقَ الأفشين، مما جاء فيها:

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه　　حتى اصطلى سرَّ الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها　　لهب كما عصفرتُ شقَّ إزاري
لله من نار رأيت ضياءها　　ضاق الفضاء به على النظّار
مشبوبة رفعتٍ لأعظم مشرك　　ما كان يُرفَع ضوءُها للساري

٦. حركة المبرقع اليماني:

أبو حرب المبرقع اليماني من أهل الغور من أرض فلسطين بالشام، وكان يعمل بفلاحة الأرض، دعا لنفسه وخلع طاعة الخليفة بسبب اعتداء رجل من الجند على منزله في غيبته، فتعرضت له امرأته لمنعه، فضربها الجندي على يدها فأثرت الضربة في معصمها، فلما عاد وعلم بالأمر، توجه إلى الجندي وضربه بسيفه فقتله، ثم تحصن بالجبال وهو مبرقع يلبس على وجهه شيئاً، وينزل أحياناً يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاتبعه خلق كثير من الفلاحين، وقالوا عنه: هو السفياني الذي يملك الشام، والذي جاء في الحديث⁽¹⁾، وانتشر أمره واستفحل حتى بلغ جيشه مئة ألف مقاتل، فأرسل إليه المعتصم وهو في مرض موته جيشاً من ألف مقاتل، فلما رأوا ما عليه ذلك الرجل من قوة انتظر الجيش حتى جاء وقت حرث الأراضي، وانشغال جيشه بحصاد المحصود، فعندئذٍ تقدموا إليه وأسروه، وحمله أمير السرية رجاءُ بن أيوب حتى قدم به على المعتصم.

٧. جعفر بن المهرجش:

قبل وفاة المعتصم ظهر رجل يقال له: جعفر بن مهرجش الكردي في (سنة ٢٢٧هـ)، فبعث إليه المعتصم في المحرم قائده إيتاخ، وانتهى الأمر بمقتل جعفر.

- **وفاة المعتصم:**

توفي المعتصم رحمه الله في صبيحة يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول (سنة ٢٢٧هـ)

---

(١) الحديث رواه الحاكم عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج رجل يقال له السفياني في عمق دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء، أو يقتل الصبيان، فتجمع لهم قيس فيقتلها، حتى لا يمنع ذَنَب تلعة، ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرة فيبلغ السفياني، فيبعث إليه جنداً من جنده فيهزمهم، فيسير إليه السفياني بمن معه، حتى إذا صار ببيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم». حديث ضعيف لا يصح.
قال الألباني: حديث منكر أخرجه الحاكم - السلسلة الضعيفة: (٦٥٢٠).

عن ثمان وأربعين سنة، وكان قد عهد بالخلافة من بعده لولده هارون الواثق بالله، ولما حضرته الوفاة جعل يقول: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[الأنعام:٤٤]، ومات وصُلي عليه ودفن بسُرَّ من رأى.

الخليفة التاسع: الواثق هارون بن محمد المعتصم (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ):

الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو جعفر، تولى الخلافة بعد أبيه المعتصم في ربيع الأول (سنة ٢٢٧هـ)، ولد في شعبان (سنة ١٩٦هـ) في خلافة الأمين، وأمه جارية رومية تدعى: قراطيس(١).

- **أهم الأحداث في عصره:**

أولاً: ازدياد نفوذ الترك:

ازداد نفوذ الترك في عهد الخليفة الواثق، وتوطدت أقدامهم، وأصبح لهم نفوذ عظيم، وكان على رأس هؤلاء: أشناس القائد التركي، الذي قربه الواثق وأكرمه وألبسه وشاحين من الجوهر في رمضان (سنة ٢٢٨هـ).

ثانياً: اتساع نفوذ المنهج الاعتزالي:

سار الخليفة الواثق على نهج أبيه المعتصم، وعمِّه المأمون في التمسك بمنهج الاعتزال، وبالغ في ذلك مبالغة عظيمة، وقدّم أئمة المعتزلة وقربهم منه.

كما قام بامتحان أهل الثغور ببدعة خلق القرآن، فأجابوا جميعاً بما يريد سوى أربعة نفر، فأمر الواثق بضرب أعناقهم، وتعصّب تعصباً شديداً لهذا القول، وارتكب أعمالاً لا تليق من أجل هذا المعتقد الفاسد، وأعاد امتحان العلماء مرة أخرى، ومنهم: الإمام أحمد ابن نصر بن مالك الخزاعي العالم الجليل الرباني الذي كان من أئمة السُنّة(٢).

---

(١) خرجت قراطيس للحج في أول سنة من خلافة ابنها الواثق، وهي سنة (٢٢٧هـ)، وكان أمير الحج جعفر المتوكل ابن المعتصم أخو ولدها، فأدركتها المنية وهي بالحيرة في اليوم الرابع من ذي القعدة ودفنت بالكوفة.

(٢) أحمد بن نصر الخزاعي: من العلماء العاملين، سمع الحديث من كبار التابعين أمثال: حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس، ولقد حدث عنه يحيى بن معين، وذكره يوماً فترحم عليه وقال: لقد ختم الله له بالشهادة، ويقول: أنا لست أهلاً لذلك، وأحسن عليه الثناء جداً، وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوماً فقال: رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه له. الذهبي/ السير (١١/ ١٦٦).

وقبض الواثق على أحمد بن نصر (سنة ٢٣١هـ)، فاستعد أحمد، ولبس وشد على عورته وتحنط استعداداً للموت، ثم جيء به للخليفة الذي استعد لذلك بإحضار جماعة من الأعيان، منهم: القاضي أحمد بن أبي دؤاد ليشهدوا ما يدور بينه وبين أحمد بن نصر، ودار بينهما الحديث التالي حين سأله الواثق: ما تقول في خلق القرآن؟

فأجابه أحمد بن نصر: هو كلام الله.

الواثق: أمخلوق هو؟

أحمد: هو كلام الله.

الواثق: ما تقول في ربك؟ أتراه يوم القيامة؟

أحمد: يا أمير المؤمنين! قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته»(١)، فنحن على الخبر.

فرد عليه الواثق غاضباً: ويحك! أيُرى كما يُرى المحدود المتجسم؟! ويحويه مكان الناظر؟! أنا أكفرُ بربٍّ هذه صفته(٢).

أحمد: حدثني سفيان، بحديث يرفعه: أن قلب ابن آدم بأصبعين من أصابع الله يقلبه كيف شاء، وكان النبي ﷺ يقول: يا مقلب القلوب والأبصار ثبتْ قلبي على دينك.

وهنا تدخل إسحاق بن إبراهيم فقال: يا أحمد ويحك! انظر ما تقول!!

أحمد: أنت أمرتني بذلك.

فقال له إسحاق وقد أشفق من ذلك: أنا أمرتك؟!

أحمد: نعم أنت أمرتني أن أنصح له(٣).

فخاطب الواثق مَنْ حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟

فأكثر القولَ فيه هتافةُ التهريج، حاشيةُ السلطان، علماء السوء.

فقال رجل يدعى عبد الرحمن بن إسحاق: يا أمير المؤمنين! هو حلال الدم.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٤٥/ ح:٥٥٤) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١١٣/ ح:٦٣٣).

(٢) قال ابن كثير: ما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم ولا يرد هذا الخبر. البداية والنهاية (١٤/ ٣١٣).

(٣) قال ذلك أحمد بن نصر لأنه كان رأس القضاة في بغداد والدولة العباسية، وكان إسحاق بن إبراهيم والياً على بغداد، وقد طلب من أحمد بن نصر عند تعيينه أن ينصح للخليفة، فلذلك قال له: أنت أمرتني بذلك.

وقال أبو عبد الله الأرمني صاحبُ القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي: اسقني دمه يا أمير المؤمنين.

فأجابه الواثق: لابد أن تأتي ما تريد.

أحمد بن دؤاد: هو كافر يُستتاب؛ لعل به عاهةً أو نقصَ عقل.

قال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه، فلا يقومن أحد معي؛ فإني أحتسبُ خُطاي، ثم نهض إليه وفي يده الصمصامة(١)، فلما انتهى إليه، ضربه على عاتقه، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه بها في بطنه، فسقط صريعاً. فإنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وعفا عنه.

ثم قام له السياف فضرب عنقه، وحز رأسه، وحمل جسده إلى حظيرة ليصلب هناك، وفي رجليه قيود، وعليه سراويل وقمص، وحُمل رأسه إلى بغداد فنصُب في الجانب الشرقي أياماً، وفي الجانب الغربي أياماً، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر الخزاعي، ممن قتل على يدي عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه!!!.

ثم أمر الواثق بتتبع رؤوس أصحابه، فأخذ منهم نحو تسعة وعشرين رجلاً، فأُودِعوا في السجون، وسُمُّوا: الظّلمة، ومُنعوا أن يزورهم أحد، وقيدوا بالحديد، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين، وهذا ظلم عظيم.

قال جعفر بن محمد الصائغ: بصرت عيناي وإلا فُقِئَتا، وسمعت أذناي وإلا فصُمَّتا، أحمدَ بنَ نصر الخزاعي حين ضُربت عنقه يقول رأسه: لا إله إلا الله، وقد سمع بعض الناس من رأسه وهي تقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، قال: فاقشعر جلدي.

ولقد رآه بعضهم في النوم، فقال له: ما فعل بك ربك؟ قال: ما كانت بي إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل فضحك لي.

---

(١) سيفٌ لعمرو بن معد يكرب وهي عبارة عن صفيحة أسفلها مسمور بمسامير.

ورأى آخرُ في الرؤيا رسول الله ﷺ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر، فلما جاوزوه، أعرض رسولُ الله ﷺ بوجهه الكريم عنه، فقيل له: يا رسول الله! مالك أعرضت عن أحمد بن نصر؟ فقال: أعرضت عنه استحياء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتي⁽¹⁾.

وهكذا دفع علماء أهل السنة أرواحهم ثمناً لما يعتقدون من الحق غيرَ مبالين إلا بما عند الله من الجزاء والأجر العظيم لأوليائه، فقد استعملهم الله تعالى في الوقوف في وجه طغيان الانحراف العقدي، الذي زينه الشيطان لأتباعه، فضلوا وأضلوا خلقاً كثيراً، وبقيت هذه الثلة القليلة من أئمة الدين؛ أمثال: أحمد بن نصر الخزاعي، وأحمد بن حنبل، وأبي يعقوب البويطي، يواجهون أهل البدع ويقارعونهم الحجة بالحجة، والبيان بالبيان، مزلزلين عروش الاعتقاد المنحرف الذي طغى، وما زال يطغى في بعض مناطق العالم الإسلامي.

وفي هذا العام (٢٣١هـ) كان الواثق قد عزم على الحج، واستعد لذلك، فذُكر له أن الماء بالطريق قليل، فترك الحج، ومات في ذلك العام.

ثالثاً: الثورات على الخلافة في عهد الواثق:

١. ظهر بعض الخوارج ببلاد ربيعة في (سنة ٢٣١هـ)، فواجههم نائب الموصل، وكسرَ صاحبهم وهزمهم.

٢. واجهت الدولة ثورة الأكراد (سنة ٢٣١هـ) الذين أفسدوا في الطرقات وقطعوها، فواجههم القائد وصيف، وكسرهم، وأسر منهم خمسمئة ساقهم في قيودهم إلى الخليفة.

٣. خرجت قبيلة يقال لها: بنو نمير في اليمامة، وعاثوا في الأرض فساداً، فأرسل إليهم الخليفة قائده بغا الكبير، فحاربهم، وقتل منهم جماعة، وأسر منهم آخرين، وذلك (سنة ٢٣٢هـ).

٤. واجهت الدولة على يد قائدها بغا الكبير بني تميم، ووقع بينه وبينهم حروب طويلة انتهت بنصره عليهم، وذلك في النصف من جمادى الآخرة (سنة ٢٣٢هـ).

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٣١٠).

- **وفاة الخليفة أبي جعفر الواثق هارون بن المعتصم:**

أصيب الواثق بمرض الاستسقاء(١) والذي كان سبباً في وفاته في السادس من ذي الحجة (سنة ٢٣٢هـ) وهو ابن ست وثلاثين سنة، وكانت وفاته بسرمن رأى، وصلى عليه أخوه جعفر المتوكلُ على الله الذي بويع له خليفة من بعده.

الخليفة العاشر: المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ هـ - ٢٤٧هـ):

آخر خلفاء الدولة العباسية في العراق في عصر القوة المتوكلُ جعفرُ بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٠٧هـ) في خلافة عمه المأمون بن هارون، أمه جارية اسمها: شجاع.

لم يكن للمتوكل دور ظاهر قبل توليه الخلافة، حتى إنه لما توفي الواثق قام قادة الدولة من المعتزلة والعسكر أمثال: أحمد بن أبي دؤاد، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وعمر بن فرج، وأحمد بن خالد، وإيتاخ، ووصيف، وعزموا على البيعة لمحمد ابن الخليفة الواثق وهو غلام صغير(٢)، فألبسوه ثياباً، فإذا هو قصير جداً!! فقال لهم القائد وصيف: أما تتقون الله، تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة!! فاجتمعوا على المتوكل، وبايعوه بالخلافة في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة مئتين واثنتين وثلاثين، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة.

نشأ المتوكل مثل جميع إخوانه نشأة تربى فيها على العلوم الشرعية التي أكسبته سلوكاً راقياً، وأدباً رفيعاً، وقد روى الحديث النبوي الشريف، وقد روى الخطيب البغدادي من طريقه، عن يحيى بن أكثم، عن محمد بن عبد الوهاب، عن سفيان، عن الأعمش، عن موسى بن عبد الله بن يزيد، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «من حُرم الرفق حُرم الخير».

ولقد كان متواضعاً، حيياً، سخياً، محبباً إلى رعيته، قائماً بالسنة فيهم، وقد شبهه بعضهم بالصديق رضي الله عنه في رده على أهل الردة، حتى رجعوا إلى الدين، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية.

---

(١) هو مرض تتراكم فيه السوائل وتتأثر به المعدة وتصبح منتفخة، ويكون التنفس غير طبيعي، وخفقان القلب سريع، وتورم في القدم، وزيادة سريعة في الوزن، وتليف في الكبد.

(٢) محمد بن الواثق: ولد (سنة ٢٢٢هـ) في خلافة جده المعتصم، ثم أصبح خليفة بعد ذلك في (سنة ٢٥٥هـ) بعد خلع المعتز بالله.

والمتوكل رحمه الله هو الذي أظهر السنة بعد البدعة التي أفشاها الجهمية والمعتزلة، بعد أن انتشرت وعمّت وطمّت.

- **أهم الأحداث في عصره:**

١. رفع محنة العلماء وتقريب أهل السُّنَّة والجماعة:

شاء الله أن تُرفع المحنة وتزول هذه الفتنة التي تسبب فيها هؤلاء القوم، والتي ترتب عليها امتحان العلماء، فلقد أمر المتوكل رحمه الله بإبعاد المعتزلة وأصحاب العقائد المنحرفة، وقرّب أهل السنة، وأحسن لهم الصنيع.

وقد دخل عليه يوماً عبد العزيز بن يحيى الكناني(١) صاحبُ كتاب الحيدة، فقال له: يا أمير المؤمنين! ما رأيت أعجب من أمر الواثق، قتل أحمد بن نصر، وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن..!! فوجل المتوكل من كلامه، وساءه ما سمع في أخيه الواثق.

فلما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات قال له المتوكل: في قلبي شيء من قتل أحمد بن نصر!! فقال: يا أمير المؤمنين! أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً.

ودخل عليه هرثمة، فقال له في ذلك، فقال هرثمة: قطعني الله إرباً إرباً إن قتله الواثق إلا كافراً.

ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي داؤد المعتزلي، فقال له مثل ذلك، فقال: ضربني الله بالفالج(٢) إن قتله الواثق إلا كافراً.

قال المتوكل: فأما ابن الزيات، فأنا أحرقته بالنار، وأما هرثمة، فإنه هرب فاجتاز بقبيلة خزاعة، فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة! هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر، فقطِّعوه، فقطَّعوه إرباً إرباً.

---

(١) عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، أحد أصحاب الشافعي، أخذ عنه وطالت صحبته واتباعه له، وخرج معه إلى اليمن، ناظر بشراً المريسي وأفحمه بالرد على قوله إن القرآن مخلوق، وكتب بذلك كتاب الحيدة، كما أن له مصنفات عدة، فهو من أهل العلم والفضل، توفي رحمه الله في (سنة ٢٤٠هـ). الموسوعة الحرة.

(٢) الشلل النصفي الذي يصيب أعضاء الإنسان، أو الشلل الكامل يسمى بالفالج.

وأما ابن أبي داؤد، فقد سجنه الله في جلده -الفالج- ضربه الله به قبل موته بأربع سنين(١).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

وقد أظهر المتوكل نصرة السنة وأهلها، فلقد استقدم أهلَ الحديث وعلماءه إلى سامراء، وأكرمهم، وأجزل لهم العطايا، وأمرهم أن يحدثوا بالسنة التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية.

وتصدر العلماء من أهل السنة في زمانه مجالس العلم بالمساجد، وكان على رأسهم مصعبُ بن عبد الله الزبيري(٢)، وإسحاق بن أبي إسرائيل(٣)، وأبو بكر بن أبي شيبة(٤)، وعثمان بن أبي شيبة(٥)، وقد جلس أبو بكر بن أبي شيبة متصدراً لحلقة العلم في جامع الرصافة، وجلس عثمان في جامع المنصور، فاجتمع لكل منهما نحو ثلاثين ألف رجل يستمعون لحديثهم.

وقد حرص المتوكل على إكرام إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، وقد بالغ في إكرامه وإكرام علماء أهل السنة.

ولقد بالغ الناس في الدعاء للمتوكل، وفي الثناء والتعظيم له، بإحيائه السنة، وإماتته التجهم والبدعة، حتى قال أبو بكر بن الخبازة في ذلك:

وبعد فإن السُّنَّة اليوم أصبحت   معززةً حتى كأنْ لم تذلَّلِ
تصول وتسطو إذ أقيم منارُها   وحُطَّ منارُ الإفك والزور من عَلِ
وولى أخو الإبداع في الدين هارباً   إلى النار يهوي مدبراً غير مقبلِ

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٣١٨).

(٢) مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، ولد (سنة ١٥٦هـ) بالمدينة، وكان نسابةً إخبارياً فصيحاً، من نبلاء القوم ووجهاء قريش، ومن ذوي المروءة والعلم والبيان، ذو شرف ووجاهة وقدر، ثقة في الحديث، سمع من أبيه، ومالك بن أنس، والضحاك بن عثمان، وسفيان بن عيينة وغيرهم، كما حدث عنه ابن ماجه، والزبير بن بكار، وأبو يعلى الموصلي، وموسى بن هارون، وأبو القاسم البغوي، وقد روى عنه مسلم وأبو داود في غير كتابيهما، سكن مصعب بغداد، وتوفي بها (سنة ٢٣٦هـ). الذهبي/ السير (١١/ ٣٠).

(٣) إسحاق ابن أبي إسرائيل إبراهيم، إمام حافظ ثقة، ولد (سنة ١٥٠هـ)، حدث عنه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، وأبو بكر المروزي، وغيرهم من أئمة الحديث، توفي بسامراء في شعبان (سنة ٢٤٥هـ). الذهبي/ السير (١١/ ٤٧٦).

(٤) أبو بكر بن أبي شيبة: هو عبد الله بن محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان، سيد الحفاظ في زمانه، وصاحب المصنف والمسند والتفسير، طلب العلم وهو صبي، وهو من أقران أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، في السن والمولد والحفظ، حدث عنه الشيخان، وأبو داود، وابن ماجه، وروى النسائي عن أصحابه، ولد في (سنة ١٥٩هـ) وتوفي في (سنة ٢٣٥هـ). الذهبي/ السير (١١/ ١٢٢).

(٥) عثمان بن أبي شيبة أخو أبي بكر بن أبي شيبة، وهو أسن وأكبر من أبي بكر، ولد في (سنة ١٥٦هـ)، له مصنفات عديدة، وتوفي (سنة ٢٣٩هـ). الذهبي/ السير (١١/ ١٥١).

شفا الله منهم بالخليفة جعفر … خليفته ذي السنَّة المتوكّلِ
خليفةُ ربي وابنُ عمٍّ نبيه … وخيرُ بني العباس من منهم ولي
وجامعُ شملِ الدين بعد تشتتٍ … وفاري رؤوس المارقين بمنصلِ

ولقد قام المتوكل بأمر السنة خير قيام، حتى إن البعض اتهمه أنه ناصبي يعادي آل البيت، وهذا اتهام فاسد، فكيف يعادي بيتاً هو منه؟! وكان ذلك الاتهام بسبب أنه في (سنة ٢٣٦هـ) أمر بهدم ما يسمى بقبر الحسين في كربلاء، وهدم ما حوله من الدور، وزرع ما حوله، ومنع الناس من زيارته، وهذا من تمام إقامة التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ الذي قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١)، وقال ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢).

فإذا كان اللعن حلَّ على اليهود والنصارى لإقامة قبور الأنبياء، والصلاةِ عندها، فكيف بمن هو دون الأنبياء والرسل؛ كالحسين بن علي رضي الله عنهما، وهذا دأب أهل الضلال والزيغ في كل زمان ومكان؛ حيث إنهم يتهمون كل من أحيا السنة وقمعَ البدعة بأنه ناصبيٌّ معادٍ لآل البيت، وهي تهمة العامة تبطل بالأدلة عندما يتكلم العلماء.

كما اتهم المتوكل بذلك؛ لأنه واجه رجلاً يقال له: عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم في بغداد قام بشتم الصحابة، وشهد عليه الناس أنه شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم.

فأمر المتوكل أن يضرب عيسى بالسياط، وإذا مات وهو يضرب يرمى في نهر دجلة، ولا تسلم جيفته إلى أهله من غير صلاة عليه؛ لكونه ألحد في الدين، وخرج من جماعة المسلمين، ولما تم تنفيذ الأمر فيه، ضُرب ثم تُرك في الشمس حتى مات، ثم رمي به في دجلة.

وفي هذا الفعل نصرة لله ولرسوله ولأوليائه، وذلك يُغضب أعداء الله من المنافقين وأصحاب كل بلية ورزية، لذلك اتهموا المتوكل بأنه ناصبي، وهذا دأبهم في كل زمان

---

(١) رواه مالك في الموطأ (ح:٥٩٣).
(٢) رواه البخاري (١/ ٦٨٨/ ح:٤٣٥-٤٣٦)، ومسلم (٣/ ١٠/ ح:٥٢٦).

مع أهل السنة، فقلما ينجو من اتهامهم أحد من علماء السنة الذين قمعوا البدعة، وردوا عليهم ضلالاتهم بالحجة والبيان، وزلزلوا كيان عروشهم الفكرية الفاسدة.

٢. فتنة محمد بن البُعيث:

وقعت فتنة محمد بن البعيث في أذربيجان في موضع يقال له: مرند(١)، واجتمع إليه أهل الفتن من كل ناحية، حتى أصبح في ألفين ومئتي رجل، ونازل العباسيين في عدة معارك إلى أن أرسل إليه المتوكل قائده بُغا الصغير الذي استطاع أن ينتصر على محمد بن البعيث، ويقبض عليه، ويأتي به إلى سامراء مع مئة وثمانين رجلاً من الأسرى، فأمر المتوكل بسجنهم جميعاً، ومات ابن البعيث بعدها بنحو شهر، وانتهت فتنته.

٣. تمييز أهل الذمة بثياب خاصة:

كان الخلفاء المتقدمون يميزون أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس بثياب وشارات خاصة، حتى لا تؤخذ أفعالهم على المسلمين، فيظن العامة أن هذا من الإسلام.

ولما تساهل بعض الخلفاء العباسيين في هذا الأمر، اختلط أهل الذمة بالمسلمين، وأتوا بأفعال ليست من الإسلام، فأمر المتوكل في (سنة ٢٣٥هـ) أن يلبس أهل الذمة من النصارى وغيرهم الطيالس العسلية والزنانير(٢)، كما أمرهم بوضع شارات معينة على سروج الدواب، ولبس القلنسوة المخالفة لقلنسوة المسلمين، كما أمر النساء من أهل الذمة أن يرتدين الجلباب والإزار العسلي، وأمر أن يوضع على دور أهل الذمة شارات وعلامات تفرق بين منازلهم وبين منازل المسلمين، كما نهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، كما نهى أن يُظهروا صلبانهم واحتفالاتهم، كما أمر بغير ذلك من الأمور التي تميزهم في هيئتهم عن المسلمين في الدولة.

وكتب إلى عماله في كل مكان بذلك، وأمرهم بإنفاذه على كل أهل الذمة في الدولة العباسية.

---

(١) واحدة من أشهر مدن أذربيجان حصنها البعيث والد محمد، وأقام بها محمد قصراً هدمه بغا الصغير القائد العباسي. الحموي/ معجم البلدان (٥/ ١٢٩).

(٢) وهي الثياب ذات اللون العسلي، والتي تربط عليها الأحزمة في وسطها - زنار، وما زال بعض قساوسة العراق والشام وتركيا يرتدونه إلى الآن.

٤. حركة يحيى بن عمر الطالبي[١]:

خرج يحيى بن عمر في جماعة من شيعته، واتجه إلى خراسان حيث دعاةُ الفتنة، فتصدى له طاهر بن عبد الله بن طاهر، فتفرقت جماعة يحيى، وقُبض عليه، وحُمل إلى بغداد، ثم أمر المتوكل بسجنه لفترة من الزمان، انتقل بعدها يحيى إلى الكوفة في أيام المستعين بالله، وأحدث فتنة عظيمة، وناصره أهل الفتنة في الكوفة، فلما واجهتهم الدولة، تفرق عنه أهلها من شيعة آل البيت كعادتهم، وبقي هو وحده في قلة من أصحابه، وتعثر به فرسه، فقُتل وانتهت فتنته في زمان المستعين.

٥. حركة بقراط بن أشوط بأرمينيا:

قام أهل أرمينيا بقيادة بطريارق يدعى: بقراط بن أشوط، ينادون بالإمرة لبقراط، وخلعِ الوالي العباسي يوسف بن محمد، فاستطاع يوسف بن محمد أن يواجههم، وأن يقبض على بقراط، وأرسله إلى سامراء، فأظهر بقراط الإسلام، وكذلك ابنه الذي أُسر معه، غير أن أهل أرمينيا قاموا مرة أخرى بقيادة ابن أخي بقراط، وخرجوا على الوالي وحاصروه، واستطاعوا أن يقتلوه ومن معه.

ولما وصلت الأنباء إلى الخليفة المتوكل، أرسل إلى أرمينيا جيشاً بقيادة بُغا الشرابي -بُغا الصغير- فقاتل أهل أرمينيا، وظفر بهم، وقتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، وسبى منهم خلقاً كثيراً، ثم استمر بُغا في سيره داخل أرمينيا حتى استطاع أن يخضعها بعد حروب كثيرة.

٦. غزو الروم:

لقد أظهر المتوكل قوة الدولة بإرساله في كل عام القادة والعسكر لغزو بلاد الروم فيما يسمى بالصائفة، وظلت الحرب سجالاً بين المسلمين والروم في مناطق الثغور وبعض السواحل، كما كانت الهدنة تقع أيضاً بين المسلمين، والروم أحياناً من أجل تبادل الأسرى فيما بينهم.

---

(١) يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

- **ولاية العهد:**

كان المتوكل رحمه الله قد عهد بولاية العهد لابنه المنتصر، ثم المعتز، ثم المؤيد، غير أنه رأى أن يقدم المعتز على المنتصر، وطلب من المنتصر أن يتنازل عن ولاية العهد لأخيه المعتز، فأبى المنتصر ذلك.

في الوقت الذي كان الترك قد خالفوا المتوكل بعد أن خلع قائدهم وصيفاً، وأخذ ضياعه في أصفهان والجبل، وأعطاها للفتح بن خاقان(١)، مما دفع الترك بقيادة وصيف أن يضمروا شراً للمتوكل، ووجدوا في المنتصر الفرصة للانتقام من المتوكل فيما بينه وبينهم، حتى انتهى الأمر بمقتل المتوكل هو ووزيره الفتح بن خاقان في ليلة الأربعاء الخامس من شوال (سنة ٢٤٧هـ) على يد الأتراك في مؤامرة أدارها بُغا الشرابي قائدُ المتوكل، وكان عمر المتوكل رحمه الله اثنتين وأربعين سنة، وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً، وقد رثاه الشاعر البحتري في قصيدة طويلة مشهورة، رحمه الله رحمة واسعة، وأفسح له في قبره، وأفاض عليه من عفوه ومغفرته.

---

(١) الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، فارسي الأصل من أبناء الملوك، اتخذه المتوكل أخاً ووزيراً، كانت له خزانة من الكتب العظيمة، كما كان كاتباً وشاعراً فصيحاً، وله مؤلفات عدة. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ جعفر المتوكل (ص:١٣١).

البَحْرَيْن

فِي عَهْدِ ٱلخِلَافَةِ ٱلعَبَّاسِيَّةِ فِي ٱلعِرَاقِ

١٣٢هـ - ٦٥٦هـ

ٱلفَصْلُ ٱلثَّانِي

ٱلخُلَفَاءُ ٱلعَبَّاسِيِّين
فِي عَصْرِ ٱلضَّعْفِ

عصر ضعف الخلافة العباسية في العراق، وسيطرة القوى العسكرية

(٢٤٧هـ - ٦٥٦هـ)

يبدأ عصر الضعف للخلافة العباسية في العراق من تولي محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم- للخلافة، بعد أن دبّر مؤامرة قتل أبيه، فبدأت من هنا سيطرة القوى العسكرية على الخلافة حتى زوالها من بغداد (سنة ٦٥٦هـ) في عهد الخليفة المستعصم، آخر الخلفاء العباسيين في العراق، ولقد تتابع عليها في هذه المرحلة سبعة وعشرون خليفة(١)، بعضهم كان قوياً، وأكثرهم كان ضعيفاً، غير أن قوة الخليفة الفرد أصبحت لا تجدي مع سيطرة القوى العسكرية، ولذلك تراجع أمر الخلافة في مقابل القوى العسكرية.

- **سيطرة القوى العسكرية على الخلافة:**

١. الأتراك: (٢٤٧هـ - ٣٣٤هـ):

تحدثنا فيما مضى أن الخليفة العباسي المأمون عندما شعر أن بعض قادة الجيش من الفرس أصبح لهم نفوذ، ولم يعد بالإمكان الحدُّ من نفوذهم، طلب من أخيه المعتصم أن يجلب الترك من بلاد ما وراء النهر في وسط آسيا ليعتمد عليهم كقوة عسكرية بيد الخليفة، يحمي بهم الثغور، ويضرب بهم خصوم الدولة في الداخل والخارج، وفي عهد المعتصم الذي تولى الخلافة بعد وفاة المأمون اشتد طلب المعتصم لهم، وأكثر من جلبهم، حتى ضج سكان بغداد من أفواج الترك؛ لذا قام المعتصم بإنشاء مدينة سامراء -سُرَّ من رأى- حتى تستوعب الترك الذين استطاعوا أن يثبتوا مكانتهم، ويحوزوا على ثقة المعتصم.

وقد زاد نفوذهم في الدولة مع مرور الزمن، حتى بلغ بهم الأمر أن يتآمروا مع المنتصر بن المتوكل(٢) على قتل أبيه؛ لتطوى بذلك مرحلة عصر القوة للخلافة العباسية.

---

(١) راجع جدول الخلفاء العباسيين بالعراق في الكتاب.

(٢) المنتصر بن المتوكل قاتل أبيه، نودي له بالخلافة بعد مقتل أبيه، وكان الناس يقولون حين ولي الأمر: إنه لا يمكث بالخلافة سوى ستة أشهر كما مكث شيرويه بن كسرى حين قتل أباه لأجل المُلك.

وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض فقد كان ذلك سواء، فلم يهنأ بالخلافة يوماً واحداً، إذ أنه مرض مرضاً شديداً مات بعده.

وكان قبل مرضه قد اغتر بالملك ظناً منه أنه خالد، ولو دام لغيره ما وصل إليه، مما دعاه أن يطيع أمراء الأتراك بخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد والمناداة بها لابنه عبد الوهاب، وقد كتب بذلك إلى الآفاق والأقاليم، قال ابن كثير: والله غالب على أمره، فأراد أن يسلبهما الملك ويجعله في عقبه، والأقدار تكذبه وتخالفه، وذلك أنه لم يستكمل بعد قتل أبيه سوى ستة أشهر. البداية والنهاية (١٤/ ٤٦١).

وقد تقلد بعض الترك مناصب قيادية في الجيش، ومكانة في الدولة أمثال: بُغا، ووصيف، حتى كان زمن الخليفة الراضي الذي استدعى زعيم الترك أبا بكر محمد بن رائق(١) إلى بغداد، وقلّده إمارة الجيش، وجعله أمير الأمراء على الأجناد والعسكر.

ومع مجيء قادة الترك إلى السلطة أصبحت الأمور بأيديهم، وبقي الخليفة اسماً وصورةً في قصره، ليس عليه سوى التوقيع على التعليمات في كثير من الأحيان، أو إصدار الأوامر حسب رأي القادة، حتى وصف أحد الشعراء الخليفة(٢) بقوله:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

واستمرت سيطرة الترك ما يقرب من قرن من الزمان (٢٤٧هـ - ٣٣٤هـ) حيث ظهر نفوذ جنس وطائفة أخرى هم الفرس بعد أن ضعف أمر الأتراك لسنة الله في خلقه، وهو القائل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

- **الخلفاء في عصر القوة العسكرية للأتراك:**

١ . المنتصر بن المتوكل بن المعتصم: ٢٤٧ هـ - ٢٤٨ هـ.

٢ . المستعين بن المعتصم بن هارون: ٢٤٨ هـ - ٢٥٢ هـ.

٣. المعتز بن المتوكل بن المعتصم: ٢٥٢ هـ - ٢٥٥ هـ.

٤ . المهتدي بن الواثق بن المعتصم: ٢٥٥ هـ - ٢٥٦ هـ.

٥ . المعتمد بن المتوكل بن المعتصم: ٢٥٦ هـ - ٢٧٩ هـ.

٦ . المعتضد بن الموفق بن المتوكل: ٢٧٩ هـ - ٢٨٩ هـ.

٧. المكتفي بن المعتضد بن الموفق: ٢٨٩ هـ - ٢٩٥ هـ.

---

(١) محمد بن رائق، أصله من بلاد الخزر، بدأ حياته قائداً عسكرياً في عهد الخليفة المعتمد، وعمل كرئيس للشرطة وحاجب في عهد المقتدر، ثم عُزل، وكانت أيامه أقل من سنتين وولّى مكانه بجكم، فانتقم ابن رائق لنفسه، واغتنم سفر الخليفة خارج بغداد، واستعان بألف من القرامطة، ودخل بهم بغداد، فأكثر فيها الفساد، ولما علم أن الخليفة وبجكم قررا الانتقام منه، طلب المصالحة والعفو عما فعل، فعفا عنه الخليفة، ورحل ابن رائق عن بغداد. الموسوعة الحرة.

(٢) الذهبي/ تاريخ الاسلام/ الطبقة السادسة والعشرون(بغا التركي المعروف بالشرابي).

٨. المقتدر بن المعتضد بن الموفق: ٢٩٥ هـ - ٣٢٠ هـ.

٩. القاهر بن المعتضد بن الموفق: ٣٢٠ هـ - ٣٢٢ هـ.

١٠. الراضي بن المقتدر بن المعتضد: ٣٢٢ هـ - ٣٢٩ هـ.

١١. المتقي بن المقتدر بن المعتضد: ٣٢٩ هـ - ٣٣٣ هـ.

١٢. المستكفي بن المكتفي بن المعتضد: ٣٣٣ هـ - ٣٣٤ هـ.

- **أهم الوقائع والمظاهر للخلافة في عصر سيطرة قوى الأتراك العسكرية:**

أصبح الخليفة مظهراً تتم به سلطة الدولة في غالب الأحيان؛ حيث لم تكن لغالب الخلفاء في هذه المرحلة كلمة مسموعة، بل وتطاولت القوى العسكرية على بعض الخلفاء، وضربوهم وخلعوهم بالقوة، أو تخلصوا منهم بالقتل، كما فُعل بأول خلفاء هذا العصر؛ حيث أصبحت السيطرة عليه من القوى العسكرية كاملة، ولا يزال يؤنب نفسه على فعلته مع أبيه، وكان يبكي بالليل والنهار حتى وافته المنية في الخامس من ربيع الآخر (سنة ٢٤٨هـ).

وتولى من بعده المستعين بالله أحمدُ بن محمد المعتصم(١)، عينته قوى الأتراك العسكرية، وتولى في زمانه أتامش(٢) أحدُ أكبر قواد الأتراك في الوزارة؛ مما أوقع الخلاف بين قادة الترك، وانشغلت الدولة بالخلافات الداخلية، ولا شك أن هذه الخلافات أثرت على البلاد داخلياً وخارجياً؛ مما جعل الروم يتقدمون نحو الدولة، وينُزلون بها بعض الهزائم، كما قتلوا قائدين عظيمين للمسلمين من قادة الثغور: عمر بن عبد الله الأقطع(٣)، وعلي بن يحيى الأرمني(٤).

---

(١) أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٢١هـ) وأمه أم ولد اسمها: مخارق، وهو أخو المتوكل، بويع له بالخلافة يوم وفاة المنتصر، بايعه عموم الناس، خلع المستعين نفسه، وبايع لابن أخيه أبي عبد الله المعتز بن جعفر المتوكل يوم الجمعة الخامس من المحرم (سنة ٢٥٢هـ) بعد فتنة عظيمة انتهت بتولي المعتز. الذهبي/ السير (١٢/ ٤٦).

(٢) أتامش جعلان التركي، فوضه الخليفة المستعين في التصرف بأموال بيت المال مع شاهك الخازن، وأم الخليفة، فأسرف في صرف الأموال حتى لم يبقِ شيئاً في بيت المال، مما أوقع الفتنة بين الأتراك الذين ثاروا عليه وقتلوه وانتهبوا أمواله. ابن الأثير/ الكامل (٤/ ٣٥٩).

(٣) عمر بن عبد الله بن مروان الأقطع السلمي، لُقب بالأقطع أو ذو اليد الواحدة لأن يده كانت مقطوعة، أحد قادة الدولة العباسية الكبار من قادة الثغور، كان أميراً على ملاطيا، وشارك في فتح عمورية كما هاجم الروم وألحق بهم هزيمة كبيرة ، واستطاع ضبط الثغور معهم، وعندما هاجم الروم الثغور مرة أخرى استطاع صدهم، كما شن غارات كبيرة على الأناضول وصلت إلى ميناء سينوب على البحر الأسود، ورجع بغنائم من الماشية كثيرة، غير أنه قُتل في إحدى المعارك إلى جوار القائد الشهير علي بن يحيى الأرمني، فخسرت الخلافة العباسية اثنين من قادتها الكبار. الموسوعة الحرة.

(٤) علي بن يحيى الأرمني، أحد قادة الخلافة العباسية، من قادة الثغور، كان والياً على طرسوس، من شجعان القادة، قام بصد الروم مرات عديدة، وضبط الثغور إلى جوار عمر بن عبد الله الأقطع حتى قُتل معه في قتال الروم في نفس المعركة. الموسوعة الحرة.

وفي عهده قامت الدولة الزيدية التي استمرت مدة خمسين سنة تقريباً، وبقيت من سنة (٢٥٠هـ إلى ٣٠٠هـ)(١).

ثم خلع المستعينُ نفسه من الخلافة بعد فتنة عظيمة وقعت بين قادة الترك، آثر فيها المستعين السلامة، وبايع لابن أخيه المعتز بن المتوكل بالخلافة في المحرم (سنة ٢٥٢هـ).

وتولى المعتز بن المتوكل(٢) الخلافة في وسط هذه الأحوال المضطربة، والصراعات بين القادة الترك، فلم تكن له كلمة مسموعة، بل تطاولوا عليه وضربوه، وجروه من رجله وأخرجوه وقميصُه ملطخ بالدم، وجعلوه في وسط دار الخلافة، وظلوا يلطمونه وهم يقولون: اخلعها - أي: الخلافة - ثم حبسوه في غرفة، وظلوا يعذبونه حتى خلع نفسه عن الخلافة، وولي بعده المهتدي بالله، ولقد قام للأتراك في عهده دولة أخرى هي الدولة الطولونية(٣) في مصر والشام.

وبرغم ذلك لم يسلم أن ساموه سوء العذاب، ومنعوا عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب منهم شربة ماء فلم يسقوه، ثم أدخلوه محلاً فيه الجير، ووضعوه فيه، فأصبح ميتاً، ثم حملوا جماعة من الأعيان أن يشهدوا بأنه مات طبيعياً، وكان ذلك في رجب (٢٥٥هـ).

وأما الخليفة الذي أتى بعده، وهو المهتدي بالله(٤)، فكان من صالح بني العباس، وكان يكره الظلم، وكان له مجلس تحت قبة سماها: قبة المظالم، وجلس فيها للعام والخاص من الناس، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وحرّم الشراب، ونهى عن القيان ـ الجارية التي تغني ـ والطرب، وكان فيه ديانة وتقوى وتقشف؛ مما دفع الترك أن يخرجوا عليه، ووقعت وقائع متعددة انتهت بأن قُبض على الخليفة، وحمله الترك مهاناً في الرابع عشر

---

(١) راجع الدول المستقلة في العهد العباسي في الكتاب.

(٢) المعتز بالله محمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد (سنة ٢٣٢هـ)، أمه أم ولد رومية تسمى: قبيحة، تولى الخلافة وعمره تسع عشرة سنة، توفي في شعبان (سنة ٢٥٥هـ). الذهبي/ السير (١٢/ ٥٣٢).

(٣) راجع الدول المستقلة في الكتاب.

(٤) المهتدي بالله محمد أبو عبد الله بن هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، أمه أم ولد تسمى: وردة، ولد (سنة ٢٢٢هـ) بسامراء، وبويع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، توفي (سنة ٢٥٦هـ). الذهبي/ السير (١٢/ ٥٣٥).

من رجب (سنة ٢٥٦هـ)، ثم خلعوه من الخلافة بعد أن أبى أن يخلع نفسه، ثم ما لبث أن مات في الثامن عشر من رجب (سنة ٢٥٦هـ)، يعني: بعد أربعة أيام من حبسه.

- **ثورة الزنج**(١):

في عهد المهتدي سنة ٢٥٥هـ خرج بالبصرة رجل زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان كاذباً في دعواه هذا النسب، وحقيقة أمره أنه كان أجيراً في بني عبد القيس، واسمه: علي بن محمد بن عبد الرحيم، وأمه قرة بنت علي بن رحيب من بني أسد بن خزيمة، أصله من قرى الري، وكان أول خروجه بالبحرين (سنة ٢٤٩هـ)، وادعى أنه من البيت الطالبي، ودعا الناس إلى طاعته، وكان ذلك بهجر -الأحساء- قاعدة البحرين، فالتف حوله جماعة من أهلها، ووقع بسببه فساد وفتن كبيرة وقتال.

ثم توجه بعد ذلك إلى البادية، ثم إلى البصرة (سنة ٢٥٤هـ)، ثم ذهب إلى بغداد، وبقي بها عاماً كاملاً يدعو الناس سراً لشخصه، ثم رجع إلى البصرة، فالتف حوله جمع كبير من الزنج الذين جلبوا من القرن الإفريقي -الصومال- ويعملون في حمل سباخ الأرض، وهم كثيرو العدد، وكان معظمهم من العبيد ذوي البشرة السوداء، ولذا سميت حركته بثورة الزنج.

وقد ادعى عليٌّ هذا أنه يُخاطَب من السماء، وأنه يعلم مافي ضمائر الناس، فتبعه على ذلك جهلة الناس، وطائفة من رعاعهم، فأرسلت الخلافة له جيشاً إلى البصرة، فخاض عدة معارك معه انتهت بهزيمة الجيش العباسي، ثم أعادت الخلافة الكرة، فانهزم أصحابه في بعض الحروب، وتراجعوا واجتمعوا حوله، ثم كر وأصحابه على أهل البصرة، وقتلوا منهم خلقاً، وأسروا آخرين، وأنزلوا الرعب بأهل البصرة، فأرسل الخليفة إليهم جيشاً بقي بخارج البصرة حتى يأتيه أمر الخليفة، فإذا بوزير الدولة أبي أحمد الموفق يقود الجيش

---

(١) قال الأستاذ محمود شاكر رحمه الله: رأى المتلونون أن أعداداً كبيرة من أهالي الصومال يعملون في سواد العراق، وخاصة في منطقة البصرة، وأن هؤلاء الزنوج يعيشون بعيداً عن أهليهم، وحالتهم المادية ضعيفة، لذا يجب كسب هؤلاء للثورة على الدولة بدعوى تأمين الأموال لهم وتأمين الزواج، ولابد أن يحركهم رجل يعلن أنه من آل البيت، فيكون في قوله الصدق، وليس فيه مخالفة شرعية، بل في اتباعه فضل، وله في النفس محبة، لذا يكون الإخلاص عند اللقاء، وتكون التضحية، والأهم أن يتحقق هدف المتلونين من تهديمٍ في المجتمع، وبث أفكار معادية للإسلام وإضعاف الأمة. (بتصرف)/ محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ خلفاء العصر العباسي الثاني.

بنفسه، وتطوع أناس كثر في هذا الجيش لحرب ذلك الدعي، واستمر القتال بين الجيش وبين ذلك الدعي لسنوات، حتى استطاع الموفق وزير الدولة أن يقضي على فتنة علي بن محمد الدعي، وأن يقتله، وحُملت رأس الخبيث إلى الوزير الموفق، حتى إذا وصلت إليه رأسه، خر لله ساجداً، وأُعلن الخبر الذي سر المسلمون وفرحوا به في المشارق والمغارب في صفر (سنة ٢٧٠هـ) في فتنة بقية أربع عشرة سنة في عهد المعتمد.

ثم تولى من بعد المهتدي أحمد المعتمد على الله بن المتوكل(١) وهو أول خليفة عاد بعاصمة الخلافة إلى بغداد من سامراء منذ عهد جده المعتصم، وولى أخاه أبا أحمد طلحة الموفَّق بن المتوكل رئاسة الجيش بطلب من الأتراك؛ لما كان بينهم من الخلاف، فأصبحت السلطة الفعلية لأبي أحمد لا للخليفة، وأصبحت له الكلمة على الأتراك، مما أظهر شيئاً من استقرار الأمور في الدولة، غير أن الخليفة لا يملك التصرف بشيء دون إمرة أخيه.

وقد كثرت حركات الخوارج على الدولة في أيامه، مستغلين صراع القادة الأتراك من ناحية، وقلة حيلة الخليفة من ناحية أخرى، فلقد ظهر في الكوفة علي بن زيد الطالبي(٢)، كما تغلب أخوه الحسن بن زيد الطالبي(٣) على الري، كما ظهر في فارس محمد بن واصل ابن إبراهيم التميمي، وغلب على إقليم فارس، وظل كذلك إلى (سنة ٢٧١هـ) حيث عاد إلى طاعة السلطان في (سنة ٢٥٨هـ)، لكنه لم يلبث أن عاد إلى ما كان عليه، وخلع طاعة الدولة (سنة ٢٦١هـ)، ثم هُزم أمام يعقوب بن الليث الصفار(٤)، ففر من فارس (سنة ٢٦٢هـ).

---

(١) أحمد بن المتوكل: هو أبو العباس أحمد المعتمد بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم، ولد (سنة ٢٢٩هـ)، وأمه أم ولد رومية تسمى: فتيان، بويع له بالخلافة في رجب (سنة ٢٥٦هـ)، توفي (سنة ٢٧٩هـ). الذهبي/ السير (١٢/ ٥٤٠).

(٢) علي بن زيد العلوي الطالبي، ظهر بالكوفة، واستولى عليها، ثم انهزم واستردت الدولة منه الكوفة، تمكن من دخول الري بعد أن فر إليها. محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ خلفاء العصر العباسي الثاني/ المعتمد (ص:١٥٠).

(٣) الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل الحسني العلوي، مؤسس الدولة الزيدية في طبرستان، ودامت إمرته تسعين عاماً كانت كلها حروباً ومعارك، وانتهى أمره بوفاته بطبرستان (سنة ٢٧٠هـ). الزركلي/ الأعلام (٢/ ١٩١).

(٤) يعقوب الصفار: أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار، لُقب بالصفار نسبة للمهنة التي كان يعمل بها وهي تصفير النحاس، كان يتطوع في جيش الدولة لقتال الخوارج، اشتهر يعقوب بالشجاعة الفائقة، فجمع حوله جمعاً كبيراً من المتطوعين مثله حتى صار أميراً عليهم، وأوقع بالخوارج هزائم كبيرة قضت على شوكتهم في سجستان، فاختاره الناس أميراً عليهم في (سنة ٢٤٧هـ)، فخرج على أمير سجستان المُعين من الخلافة، ومد سلطانه على كرمان، وواجه هناك علي بن الحسين وانتصر عليه وانتزع منه فارس، ثم استماله الخليفة إليه في (سنة ٢٥٨هـ) وضم إليه ولاية بلخ وطخارستان، واستطاع يعقوب أن يقضي على حكم الطاهريين (سنة ٢٥٩هـ) عندما دخل نيسابور مهاجماً محمد بن طاهر والي خراسان، مما أطمعه للزحف إلى بغداد ليتولى القوى العسكرية هناك، فواجهته الخلافة في معركة قادها الخليفة المعتمد بنفسه في دير العقول قريباً من بغداد (سنة ٢٦٢هـ)، فهُزم شر هزيمة، وعاد متقهقراً إلى فارس وكرمان وخراسان وسجستان، وظل محتفظاً بها إلى موته، وتوفي في نيسابور (سنة ٢٦٥هـ) وبويع لأخيه عمرو بن الليث. الزركلي/ الأعلام (٨/ ٢٠١).

وخرج في دمشق ثائراً ابنُ عيسى بن الشيخ، ووقعت بينه وبين جيش الخلافة حروب، وانتهت بهزيمة ابن عيسى، ثم رضي عنه الخليفة، وعينه نائباً على أرمينيا.

كما أُحدثت فتنة بالمدينة النبوية بسبب دخول محمد وعلي ابني الحسين بن جعفر بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فلقد قتلا جماعة من أهلها، وانقطعت الجماعة والجمعة في المساجد لشهر كامل بسببهما في شهر صفر (سنة ٢٧١هـ).

كما سيطر يعقوب بن الليث الصفار على كرمان، ثم دخل فارس، وأرسل إليه الخليفة يستميله أن ينصرف عن فارس مقابل ولايته على بلخ وطخارستان، وقبل الصفار ذلك، وانصرف عن فارس.

كما سيطر الخوارج على مدينة هرات، وأعلن زعيمهم عبدُ الرحمن الخارجي الخلافة مدة ثلاثين سنة حتى قُتل (سنة ٢٥٩هـ).

كما استطاع مساور بن عبد الحميد البجلي الخارجي(١) السيطرة على الموصل (سنة ٢٥٢هـ)، وحقق انتصارات متتالية على كل من قاومه من جيوش الخلافة حتى توفي (سنة ٢٦٣هـ).

وفي (سنة ٢٦٧هـ) استولى أحمد بن عبد الله السجستاني الخارجي على خراسان، وانتهى أمره أن قُتل على يد أحد جنوده بسبب خلاف بينهما، وقضي على حركته في نفس العام.

وفي عهده استفحل أمر الزنج، وقُضي على ثورتهم ـ كما أسلفنا ـ كما ظهرت الدولة السامانية(٢) (سنة ٢٦١هـ)، وظهرت الدعوات الباطنية(٣)؛ كدعوة القرامطة(٤) بالبحرين والعراق والشام، وبدايات الدعوة الفاطمية(٥) في شمال إفريقيا، وكأن الدعاة للباطنية

---

(١) مساور بن عبد الحميد بن مساور الشاري، أحد الثوار الخوارج من أهل الموصل، استغل اضطرابات الدولة، فثار وخرج عليها (سنة ٢٥٢هـ)، وأقام قرب تكريت، والتف حوله جمع من الأعراب والأكراد، وواجه عسكر الخلافة فهزمهم، وقصده أمير الموصل، فهزمه مساور، واستقر بالموصل (سنة ٢٥٥هـ) ثم فارقها إلى الحديثة، واستطاع أن ينتصر على عسكر الخليفة بمعركة أخرى، واستولى على كثير من بقاع العراق، فخافه الناس، وأصبح الخراج له، مما ضيق على أرزاق الدولة، وقتل والي خراسان (سنة ٢٦١هـ) فقصده الموفق العباسي الخليفة، فرحل مساور بعيداً دون أن يواجهه، وظل على دأبه حتى مات في طريقه في مواجهة عسكر الخليفة (سنة ٢٦٣هـ). الزركلي / الأعلام (٧/ ٢١٣).

(٢) (٣)(٤) (٥) راجع الدول المستقلة في العهد العباسي في الكتاب.

والإسماعيلية منهم رتبوا أن يظهروا جميعاً في آن واحد بجميع البلاد حتى لا تستطيع الدولة أن تواجههم، وتوفي المعتمد في التاسع من رجب (سنة ٢٧٩هـ).

تولى من بعده المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفَّق طلحة بن المتوكل(١)، ويعتبر من خيرة خلفاء بني العباس، إذ أنه لما ولي الخلافة، أقام شعارها، ورفع منارها، وشيد دعائمها وحيطانها، ووطّد أركانها.

كان المعتضد شجاعاً فاضلاً من رجالات قريش حزماً وجرأةً وغزواً وعزاً وإقداماً وحرمةً(٢)، كما كان أبوه أبو أحمد في رئاسته للجند، وَرَدَ في ذكره أخبار طويلة عن صلاحه وعدله، وأدبه وشِعره(٣).

يقول الحافظ ابن كثير(٤): لما ولي المعتضد الخلافة، كان بيت المال صفراً من المال، وكانت الأحوال فاسدة، والأمراض تعيث في الأرض فساداً من كل جهة، فلم يزل برأيه وتسديده حتى كثرت الأموال في بيت المال، وصلحت الأحوال في سائر الأقاليم والآفاق والمحال.

لقي الحروب، وقام بأمر الدولة أحسن قيام، وكانت أيامه طيبة، وانتشر في عهده الأمن والأمان، ولقبه الناس بالسفاح الثاني؛ لأنه جدد ملكَ بني العباس، وكان يلتزم السنة، ويمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها، واشتد في ذلك، كما منع القصاص والمنجمين، وكان يمنع نفقات الدولة في غير محلها.

---

(١) أبو العباس أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٤٢هـ)، أمه أم ولد تسمى: صواب، توفي (سنة ٢٨٩هـ). الذهبي/ السير (١٣/ ٤٦٣).

(٢) قال عجيف السمرقندي حاجبُ المعتضد: كنت مع مولاي المعتضد في بعض متصيداته، وقد انقطع عن العسكر، وليس معه غيري، إذ خرج علينا أسد فقصدنا، فقال لي المعتضد: يا عجيف! أفيك خير اليوم؟ قلت: لا والله، قال: ولا أن تمسك فرسي وأنزل أنا؟ فقلت: بلى، قال: فنزل عن فرسه، وغرز أطراف ثيابه في منطقته، واستل سيفه ورمى بقرابه إليّ، ثم تقدم إلى الأسد، فوثب الأسد عليه، فضربه بالسيف، فأطار يده، فاشتغل الأسد بيده، فضربه ثانية على هامته ففلقها، فخر الأسد صريعاً، فدنا منه ومسح سيفه في صوفه، ثم أقبل إلي فأغمد سيفه في قرابه، ثم ركب فرسه فذهبنا إلى العسكر، فصحبته إلى أن مات، فما سمعته ذكر ذلك لأحد، فما أدري من أي شيء أعجب؟ من شجاعته؟ أم من عدم احتفاله بذلك حيث لم يذكره لأحد؟ أم من عدم عتبه علي حيث ضننت بنفسي عنه، والله! ما عاتبني في ذلك قط. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٧٠٣).

(٣) يراجع: البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، والكامل لابن الأثير، الخليفة المعتضد بالله.

(٤) البداية والنهاية (١٤/ ٧٠٩).

واجه المعتضد الخوارج سنة (٢٨٣هـ) بعد أن أعلنوا الخروج بقيادة هارون الشاري بن عبد الله في الموصل(١)، واستطاع أن يكسرهم، وفي عهده عاد الغزو إلى بلاد الروم بعد أن انقطع لفترة من الزمن.

توفي رحمه الله ولم يتم الخمسين عاماً من عمره في الثاني والعشرين من ربيع الأول (سنة ٢٨٩هـ)، وقبل وفاته جدد البيعة لولده المكتفي بالله، وكان في ذلك خير كثير أن بويع لولده في حياته، وكان حين حضرته الوفاة يعظ نفسه بقصيدة أنشأها لنفسه أولها:

تمتع من الدنيا فإنك لا تبقى … وخذ صفوها إن صفت وخذ الرنقا(٢)

ثم تولى من بعده ولده المكتفي بالله(٣)، وفي عهده لم تكن البلاد على ما كانت عليه في زمان أبيه بسبب صراعات النفوذ على الدولة.

واجه المكتفي القرامطة، واستطاع أن يطهر مناطق الشام منهم في محرم (سنة ٢٩١هـ)، لكنه لم يتمكن من القضاء عليهم ويبيدهم.

وفي أيامه أعيد فتح أنطاكية، وفُرّج عن أسرى المسلمين الذين كانوا بها، وهم جمع غفير، وغنمت الدولة غنائم عظيمة، ولما حضرته الوفاة، عهد بالخلافة من بعده لأخيه أبي الفضل جعفر بن المعتضد، ولقبه بالمقتدر بالله، واشتد به المرض المسمى بداء الخنازير(٤)، ثم توفي في الثالث عشر من ذي القعدة (سنة ٢٩٥هـ) عن ٣٢ سنة.

---

(١) هارون بن عبد الله الشاري الصفري، رأس الصفرية في أيام الخليفة المعتمد والخليفة المعتضد، خرج في أطراف الموصل، فواجهه المعتضد (سنة ٢٨٢هـ) فانهزم هارون، وفر مع قلة من أصحابه إلى البرية، فتعقبه الحسين بن حمدان التغلبي أحد رجال الدولة العباسية، فأسره وجاء به إلى الخليفة المعتضد، فقتله ثم صلبه. الزركلي/ الأعلام (٨/ ٦١).

(٢) الرنق: الماء الكدر.

(٣) المكتفي بالله أبو محمد علي بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد في غرة شهر ربيع الآخر (سنة ٢٦٤هـ)، أمه أم ولد تركية اسمها: جيجيك، بويع له بالخلافة في ربيع الثاني (سنة ٢٨٩هـ) بعد وفاة أبيه المعتضد، وتوفي شاباً وعمره اثنتان وثلاثون سنة. الذهبي/ السير (١٣/ ٤٧٩).

(٤) لعله أنفلونزا الخنازير المعاصرة.

تولى من بعده أخوه المقتدر بالله جعفر بن المعتضد[1]، وكان صغيراً للغاية؛ إذ كان عمره ثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة أحد قبله أصغر سناً منه، وبسبب ذلك ضاعت هيبة الخلافة، فتدخلت النساء في تسيير شؤون البلاد، فكانت لأمه ولجواريه اليد الطولى في فساد الحكم، وانتشرت الرشوة على منصب الوزارة، فقد تولى في عهده اثنا عشر وزيراً.

وقد أطمع ذلك القرامطة أن يثبوا بقوة في البحرين، ثم اشتد نفوذهم، وفي عهده قامت الدولة العبيدية الباطنية الفاطمية، كما قامت في عهده الدولة الحمدانية، ولكنها كانت في بداياتها، فاجتمعت أصحاب العقائد المنحرفة، وأقامت لنفسها دولاً عند غفلة أهل السنة والجماعة، واتباع الشهوات، والصراع على الدنيا كما قال الله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٢٧].

كل ذلك والخليفة الصغير لاهٍ عن توجيه الأمور التوجيهَ الصحيح، وقد تفرغ لتبديد الأموال والجواهر في حظاياه وأصحابه.

وقد تسلم الدولة وفي بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار -خمسة عشر مليون دينار ذهب، وفي بيت مال العامة ستمئة ألف دينار وزيادة، كما كانت الجواهر الثمينة يحتفظ بها من زمان بني أمية وبني العباس، فأضاعها كلها مالاً وجواهر، وكان الجيش في عهده يتكون من مئة وستين ألفاً ما بين فارس وراجل.

ولقد جمع هذا الخليفة بين متناقضات، إذ أنه كان كريماً للغاية، يميل إلى العفو، يكثر من الصلاة وصيام التطوع، وكان كثير الصدقة والوقف والإحسان، وخاصة للحرمين الشريفين وأهلهما، وبرغم ذلك عنده ميل كما أسلفنا إلى اللهو وإنفاق المال في غير محله، كما أطلق المساجين الذين لا يجوز إطلاقهم من حبسهم، وحاول بعض القادة والجند خلعه في (سنة ٢٩٦هـ) لكن انتهى الأمر بهم إلى القبض عليهم، وقتل أكثرهم.

---

[1] المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد في رمضان (سنة ٢٨٢هـ)، أمه أم ولد تركية يقال لها: شغب، ويقال: غريب، عهد إليه أخوه المكتفي بالخلافة، فبويع له، وعندما توفي المكتفي، غسله المقتدر، وصلى عليه ودفنه، توفي (سنة ٣٢٠هـ) حيث قام بقتله القائد مؤنس الخادم. الذهبي/ السير (١٥/ ٤٣).

وانتهى الأمر بقتله على يد أكبر قادة عصره مؤنس الخادم الملقب بالمظفّر(١) في الثامن والعشرين من شوال لسنة (٣٢٠هـ)، وله من العمر ثمان وثلاثون سنة.

ثم تبعه أخوه القاهر بالله بن المعتضد(٢) الذي بويع له بالخلافة باختيار من قاتل المقتدر مؤنس الخادم، ورضا منه بما فَعل بالمقتدر، وكان القاهر نفسه تميل إلى الشر، إذ كان أول أمره أن بدأ بإحضار أم المقتدر وتعذيبها وهي مريضة، ليعرف منها الطريق إلى مالها وجواهرها، واستلب ذلك كله منها.

وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض، يرفع أقواماً ويضع آخرين، إذ أن القاهر غدر بكل من أوصلوه إلى الخلافة، وعلى رأسهم مؤنس الخادم، وأمر بالقبض عليهم وقتلهم جميعاً، فأضمر بقية الجند في نفوسهم التخلص من القاهر، واستطاعوا ذلك، فقبضوا عليه وهو مخمور، وسملوا عينيه، وخلعوه، وكل ذلك بتخطيط من وزيره ابن مقلة(٣)، وعلم الناس بذلك، فاضطربت بغداد ونُهبت.

وفعل الجند بالقاهر الأفاعيل، ثم تركوه حتى افتقر فقراً شديداً، حتى إنه وقف يوماً ما بجامع المنصور يسأل الناس، وتوفي في (سنة ٣٣٩هـ).

وتولى من بعده (سنة ٣٢٢هـ) الراضي بالله أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل(٤).

---

(١) مؤنس الخادم الملقب بالمظفر المعتضدي، ولد (سنة ٢٣١هـ) كان أحد الخدام الذين بلغوا رتبة الملوك، عمل خادماً للخليفة المعتضد، وكان فارساً شجاعاً من الساسة الدهاة، بقي أميراً لستين سنة، ونُدب لحرب العبيديين الفاطميين، وولي دمشق للخليفة المقتدر ثم حاربه، وقُتل المقتدر وخلفه أخوه القاهر بالله، فلما تمكن القاهر قتله (سنة ٣٢١هـ).الموسوعة الحرة.

(٢) القاهر بالله أبو منصور محمد بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٨٧هـ)، وتوفي في (سنة ٣٣٣هـ). الذهبي/ السير (١٥/ ٩٨).

(٣) أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة، من أشهر من كتب الخط في العهد العباسي، ولد (سنة ٢٧٢هـ)، وتوفي (سنة ٣٢٨هـ) في حبسه من قبل ابن رائق، تولى الوزارة في عهد ثلاثة من الخلفاء: المقتدر والقاهر والراضي، وعزل ثلاث مرات، قطعت يده ولسانه في آخر عمره، وقد بنى له داراً في زمان وزارته، وجمع عند بنيانها خلقاً من المنجمين فاختاروا له وقتاً بعينه ليبني فيها الجدران، فبعد أن أتم بناءها أحرقت وخربت وصارت كومة، وقد كتب بعض الناس على جدران داره:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت   ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها   وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فكان الجزاء من جنس العمل، إذ أنه دبر وتآمر وأحرق وقتل فدعا عليه بعض المظلومين فكانت الدائرة كما قال هو:

تحالف الناس والزمان   فحيث كان الزمان كانوا
عادني الدهر نصف يوم   فانكشف الناس لي وبانوا

الذهبي/ السير (١٥/ ٢٢٤).

(٤) الراضي بالله أبو العباس محمد بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٩٧هـ)، وأمه أم ولد رومية تدعى: ظلوم، كان عمره يوم قتل أبوه المقتدر ثلاثاً وعشرين سنة، فعزم مؤنس على توليته بعد أبيه ليطيب قلب أم المقتدر، غير أن الأمراء لم يوافقوا على ذلك، وأحضروا محمد بن المعتضد عم الراضي، وبايعوه ولقبوه، القاهر بالله. =

تم اختياره من قبل القادة، وأقاموه في الخلافة، وكانت الكلمة المسموعة آنذاك للوزير ابن مقلة، ولحاجبه محمد بن ياقوت، ثم لما تمكن الراضي، انقلب عليهما، فسجن ابن ياقوت ومات في سجنه، ثم سجن ابن مقلة، وأقام محمدَ بنَ رائق(١) مقام الوزير، ولقبه: أمير الأمراء، فصارت أمور الدولة في يده، وصارت الأموال تُحمل إليه، فينفق منها كيف يشاء دون العودة إلى الخليفة؛ إذ أن الخليفة نفسه كان ينتظر منه الأعطيات، وبطل بيت المال، وأصبحت من ذلك الزمان وظيفة أمير الأمراء، والتي قام بها جمع كلهم حَذَوا حَذْوَ ابن رائق مع الخلفاء الذين تولوا بعد ذلك.

ودارت الصراعات والنزاعات على منصب أمير الأمراء، ولم يدم طويلاً لابن رائق؛ حيث عزله الخليفة، وأتى ببجكم(٢) مكانه.

وفي زمانه هلك أبو محمد عبيد الله الملقب بالمهدي أول من دعا للخلافة الفاطمية(٣)، وخرج الناس للحج في (سنة ٣٢٧هـ) في زمانه بعد أن منعوا منه بسبب القرامطة من (سنة ٣١٧هـ) عن طريق بغداد.

وفي زمانه بدأ ظهور البويهيين من الديالمة، واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على بعض المناطق، وعلى مدينة أصفهان، ثم علا شأنهم بعد ذلك كما سيأتي، وفي زمانه أيضاً قامت الدولة الإخشيدية في مصر (سنة ٣٢٤هـ).

= ولقد نال الراضي في خلافة القاهر عداءً شديداً من الخليفة، هو وإخوته، غير أن القاهر صادر أموالهم وحبسهم، وبقوا في حبسهم حتى خلع القاهر، ثم تولى الخلافة الراضي، وتوفي (سنة ٣٢٩هـ). الذهبي/ السير (١٥/ ١٠٣).

(١) محمد بن رائق الأمير الكبير أبو بكر، كان أبوه من أجل مماليك المعتضد وأدينهم، تولى محمد بن رائق الشرطة للخليفة المقتدر ببغداد فكان شهماً عالي الهمة مقداماً، وهو أول من نودي له بأمير الأمراء في الخلافة العباسية، وتولى واسط والبصرة، وولاه الخليفة الراضي بالله إمرة الأمراء (سنة ٣٢٤هـ)، ثم قام عليه بجكم التركي بالعصيان، فتوجه محمد إلى الشام ودخل دمشق مدعياً أن الخليفة ولاه عليها، ثم توجه ليأخذ مصر، فواجهه محمد بن طغج الأخشيدي وهزمه في ملحمة كبيرة بالعريش، وبقي بدمشق وأقام بها لأكثر من سنة، فبلغه مصرع بجكم، فرجع إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة المتقي خلعة الملك، وغدر به أمير الموصل فقتله في رجب (سنة ٣٣٠هـ). الذهبي/ سير أعلام النبلاء(١٥/ ٣٢٥).

(٢) بجكم التركي: أمير الأمراء ببغداد قبل ابن بويه، كان في أول أمره مملوكاً تركياً وتورط مع جماعة من الأتراك في قتل سيدهم، وفارق أصفهان إلى إقليم الجبال، ورشحه أصحابه رئيساً لهم، ثم كاتب الخليفة الراضي للقدوم إلى بغداد والدخول في طاعته، فأذن له الخليفة بذلك، فتمكن بسياسته وبراعته أن يصبح أميراً للأمراء.

وكان بجكم عاقلاً يفهم العربية ولا يتكلم بها، يقول: أخاف أن أخطئ والخطأ من الرئيس قبيح، وكان يحب العلم والعلماء، وكان كثير الأموال والصدقات، كما دفن أموالاً كثيرة في الصحراء، فلما مات لم يُدر أين هي، توفي في رجب (سنة ٣٢٩هـ) وكانت إمرته على بغداد نحو ثلاث سنوات. الموسوعة الحرة.

(٣) راجع الدول المستقلة عن الخلافة العباسية في الكتاب.

وفي (سنة ٣٢٩هـ) توفي الخليفة الراضي بالله، وكانت وفاته في ليلة السادس عشر من ربيع الأول، وبويع من بعده لأخيه المتقي لله أبي إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله، وكان قد أراد أن يعهد لابنه قبل وفاته، لكنه لم يتمكن من ذلك.

كان المتقي(١) رجلاً كثير الصلاة والصيام والتعبد، عُين تعييناً من قبل أمير الأمراء بجكم بعد أن جمع القضاة والأعيان، واتفق رأيهم عليه، وكان ذلك (سنة ٣٢٩هـ).

وأبى هذا الخليفة أن يكون له جلساء وندماء، وقال: حسبي المصحف، لا أريد نديماً غيره(٢)، فالتف الناس على بجكم يجالسونه وينشدونه الأشعار، فكان لا يفهم شيئاً لعجمته، وأصبحت الأمور في يد بجكم، فظهر الصراع على منصب أمير الأمراء بين الأتراك، حتى تردى أمر الخلافة تردياً شديداً؛ مما أطمع الروم في مهاجمة أرض المسلمين حتى وصلوا إلى نصيبين، وفعلوا هناك الأفاعيل، فقتلوا وسبوا أعداداً من المسلمين والمسلمات، وانتهى الأمر أن تولى إمرة الأمراء رجل يقال له: توزون(٣) الذي غدر بالخليفة المتقي، وخلعه من الخلافة، وسمل عينيه، وولى مكانه المستكفي بالله (سنة ٣٣٣هـ)، وقد توفي المتقي في (سنة ٣٥٧هـ) بعد أن لزم بيته منذ أن خلع رحمه الله، ودفن في داره التي كان فيها عن ستين سنة.

تولى المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد(٤) (سنة ٣٣٣هـ)، وكان عمره إحدى وأربعين سنة.

---

(١) المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٩٥هـ)، وأمه تدعى: خلوب، وقيل: زهرة، وهو أكبر سناً من أخيه الراضي، لما توفي الراضي انتظر الناس أمر بجكم أمير الأمراء فيمن يعين خليفة، فتم الاتفاق على المتقي، وبايعه الناس كافة، فلم؟ على أحد، ولم يغدر بأحد، خُلع في (سنة ٣٣٣هـ) وتوفي سنة (٣٥٧هـ). الذهبي/ السير (١٥/ ١٠٤)

(٢) لا شك أن تلاوة القرآن أمر فيه تزكية للنفوس، ولكنه كما هو معلوم لابد من تطبيق ما جاء فيه من أحكام، وإنفاذ ما فيه من التشريعات والأوامر الإلهية، ولذا يؤخذ على الخليفة انقطاعه عن تدبير أمور الملك، وانصرافه عنها إلى أمر أشبه بالرهبنة، وقد يكون ذلك بسبب تحكم العسكر في الدولة فأراد أن يأخذ بالمثل القائل: -انج سعد فقد هلك سعيد-.

(٣) كان توزون من أصحاب بجكم الذين قتلوا سيدهم، وتولى بعد ذلك عدة مهام عسكرية، وخدم في جيش بعض الأمراء وتولى أخيراً منصب أمير الأمراء في شوال (سنة ٣٣١هـ).

(٤) المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن علي المكتفي بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٢٩٢هـ)، وأمه أم ولد اسمها: غصن، بويع بالخلافة وعمره إحدى وأربعون سنة، وهو ابن عم المتقي لله، بايعه توزون أمير الأمراء خليفة، وأطلق عليه لقب المستكفي، توفي (سنة ٣٣٨هـ). الذهبي/ السير (١٥/ ١١١).

وفي عهده شاء الله تعالى أن يهلك توزون في داره ببغداد في المحرم صدر (سنة ٣٣٤هـ)؛ مما أطمع القادة في لقب أمير الأمراء، واضطربت الأجناد، في الوقت الذي كان أحمد بن بويه بدأ يتوجه بجيشه نحو بغداد ليستولي عليها، فبعث إليه الخليفة بالهدايا والخُلع والتحف، ودخل أحمد بن بويه بغداد في الحادي عشر من جمادى الأولى (سنة ٣٣٤هـ)، ودخل على الخليفة فبايعه، ولقبه المستكفي بمعز الدولة.

كما لقب أخويه علياً بعماد الدولة، والحسن بركن الدولة، وأمر بنقش ذلك على الدراهم والدنانير؛ لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الأمة الإسلامية لم تعهدها قبل قط، وكأني بمن عاش زمان الأتراك وزمان البويهيين يقول: ربَّ يومٍ بكيت منه، فلما تركته وصرت في غيره بكيتُ عليه.

فكان المستكفي آخرَ الخلفاء في عهد أولى القوى العسكرية التي تحكمت في بغداد لنحو تسعين سنة، وهم الأتراك، وأولَ الخلفاء في عهد القوى العسكرية الفارسية المنحرفة.

٢. البويهيون (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ):

شاء الله عز وجل فتحَ بلاد فارس، ودخل كثير من الناس الإسلام، كان منهم طائفة من الدهاقنة(١) وأبناء الأمراء، دخلوا في الإسلام ظاهر الأمر، وأبطنوا كل حقد وغل عليه في قلوبهم، وقد بدا ذلك واضحاً جلياً في مواقفهم على مر التاريخ، وقد بحث هؤلاء عن مدخل يوجهون من خلاله سهامهم للدولة الإسلامية في زمن الأمويين، فلم يجدوا أفضل من ادّعائهم محبة آل البيت الهاشمي ومناصرتهم، وبهذه الدعوة حاربوا الدولة الأموية، وبها أيضاً فُضِحُوا عند ممارسة عدائهم مع الدولة العباسية الهاشمية، وبها يستغلون عواطف العامة من المسلمين، ويخدعونهم في كل زمان، وكلما تيسر لهم ذلك.

يقول الأستاذ محمود شاكر: ما تسلم العباسيون منصب الخلافة حتى صوبت عليهم السهام التي كانت توجه للأمويين من قبل، وما وجهت إلا لأنهم خلفاء الإسلام، والهجوم عليهم ضربة في القلب، وطعنة في مقتل، فلا يهمهم أمية، ولا يبالون بهاشم،

---

(١) كهنة نار المجوس.

فأمية وهاشم عاشا في الجاهلية، وأما أبناؤهم فقد دخلوا في الإسلام، وصاروا من أهله، ومن الدعاة إليه، والمجاهدين في سبيله، بل تصدروا هذا كله، وأقربُ سبيلٍ للأعداء إنما هو ضرب هؤلاء بأولئك، ونشر الفتنة؛ لتفرق الكلمة، وتتجزأ الصفوف.

فاستُغِلَّ بنو العباس، بل واستُغِلَّ آل البيت في تحقيق مآرب المتلونين من خلفهم من أجل تحقيق أهدافهم، ولم تمر فترة طويلة حتى اكتشف الخليفة المنصور بعضاً من هذه المؤامرات، لذا قام بالتخلص من أحد أكبر دعاة الدولة العباسية أبي مسلم الخراساني، والذي كان يُظهر الولاء للعباسيين، ويميل بقلبه للفرس؛ كما ظهر ذلك جلياً في مواقفه عند اختلافه مع الخليفة؛ لأنه لم يولِّه خراسان(١).

وكان هؤلاء البويهيون يزعمون أنهم انحدروا من نسل أكاسرة فارس كما يزعم أحمد بن بويه(٢) الذي أسس سلطنتهم في بغداد، وزعم أنه ينتهي نسبه إلى كسرى يزدجرد بن سابور(٣).

وأصل البويهيين من الفرس الذين انتقلوا إلى بلاد الديلم التي تقع في الجنوب الغربي من بحر الخزر، وكانت إحدى الولايات الفارسية، ولأن الديالمة كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى من العنصر الفارسي نسباً، أرادت الأسرة البويهية أن تخفي نفسها في هؤلاء القوم؛ لتكسب المكانة العليا اجتماعياً، ولعل أصول الديالمة من الميديين إحدى أكبر القبائل التي سكنت شبه الهضبة الإيرانية(٤)، وقد فتحت بلادهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، وبقي معظم من فيها على وثنيته، لكنهم كانوا يؤدون ما عليهم من الجزية والخراج، وظل الوضع على ما هو عليه إلى (سنة ٢٥٠هـ) في عهد المستعين بالله الذي ولى محمد بن طاهر على هذه الأقاليم، فأعلن أهلُ طبرستان العصيان، وجعلوا عليهم الحسنَ بنَ زيد مؤسسَ الدولة الزيدية، وقد عاونهم في مواجهة الدولة العباسية أثناء عصيانهم الديالمة، وأثناء حكم الدولة الزيدية أعلن معظمُ الديالمة إسلامهم على طريقة التشيع لآل البيت.

---

(١) محمود شاكر/ سلسلة الخلفاء/ أبو جعفر المنصور.

(٢) أحمد بن بويه: ولد (سنة ٣٠٣هـ)، تولى في صباه كرمان وسجستان والأهواز، أصبح أمير الأمراء ببغداد، فامتلكها في خلافة المستكفي، ودام ملكه حوالي ٢٢ سنة، وتوفي ببغداد (سنة ٣٥٦هـ)، وكان سريع الغضب، بذيء اللسان، يسب وزراءه وعماله وخدمه، ويفتري عليهم. الذهبي/ السير (١٦/ ١٨٩).

(٣) ذكر الأستاذ محمود شاكر نقلاً عن الأمير أبي نصر بن ماكولا نسب هؤلاء أنهم أبناء أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر ابن شيركيده بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شرويه بن سيسان شاه بن سيس بن فيروز بن شيرزيل بن سنباذ بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك ابن سابور الملك بن سابور ذي الأكتاف الفارسي.

(٤) راجع ما سبق عن الفرس في التمهيد.

ثم مع مرور الأيام أصبح لعلي بن بويه وأخويه أحمد والحسن السيطرة على الري ومناطق الديالمة -ومنها أذربيجان الإيرانية-(١)، واستطاع علي بن بويه أن يرسل أخاه أحمد إلى الأهواز والعراق، فخضعت الأهواز له بعد عدة حروب مع بجكم أمير الأمراء الذي هُزم أمامهم وفر إلى واسط، ثم راسل أحمد بن بويه الخليفة في بغداد، وأنه قادم إليه، فرد عليه المستكفي بالقبول والهدايا والتحف كما سبق وبينا، وبايع لأحمد المستكفي بالخلافة، ونودي بأحمد بن بويه بإمارة الأمراء و السلطنة.

- **أهم مظاهر عصر البويهيين:**

لقي سكان بغداد من هؤلاء البويهيين ضيقاً شديداً، وقد شعر الخليفة المستكفي نفسه بذلك، فلما وجد البويهيون ذلك عنده، ساقوه ماشياً إلى دار أحمد بن بويه، فاعتُقِلَ بها، وأحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر المطيع لله فبويع بالخلافة، وسُمِلت -فُقِئَت- عينا المستكفي بالله، وأُودع السجنَ، فلم يزل به حتى كانت وفاته (سنة ٣٣٨هـ)(٢).

وقد أحدث البويهيون من الفتن والانحرافات العقدية ما اللهُ به عليم مما يخالف الشريعة الغراء، ومن ذلك: أن أحمد بن بويه كان يأمر في مطلع كل عام هجري أن تُغلق الأسواق، وأن تلبس النساء المسوح، وأن يخرجن للأسواق كاشفاتٍ عن وجوههن، ناشراتٍ شعورَهن، يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب، ولم يمكن لأهل العلم أن يمنعوهم من ذلك؛ لغلبتهم وتسلطهم، وكثرة التفاف الجهمية والغوغائيين حولهم(٣)، ويصحب هذا كتابةُ عبارات على المساجد تلعن الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ولعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأُول بالكناية لا بالتقرير.

---

(١) ومما هو جدير بالذكر: أن الشاه إسماعيل الصفوي الذي ادعى أيضاً أنه من نسل الأكاسرة في القرن العاشر الهجري كان من تلك المناطق، وأيضاً بعض قادة إيران المعاصرين.

(٢) رحم الله المستكفي كان هذا جزاءه ممن أحسن إليهم وصدقهم؛ فإن هؤلاء يقولون بأفواههم ما ليس في صدورهم، فهم أهل غدر، متعطشون للدماء في كل زمان ومكان، والمتأمل لحال أحفادهم في أيامنا عند دخولهم إلى بغداد بعد سقوط نظام البعث وصدام حسين، وما فعلوه ويفعلونه في سوريا ولبنان فيه عبرة وعظة لمن كان له مسكة عقل، قال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة:٨-١٠].

(٣) وهذا دأب كل أعداء التوحيد، فأصحاب العقائد المنحرفة وإن اختلفت أسماؤهم فهم يتكاتفون ويتآزرون فيما بينهم على أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فها نحن نرى التحالفات العلنية والخفية بين هؤلاء ممن يدعي زوراً انتسابه للإسلام مع اليهود والنصارى والعلمانيين والليبراليين والماسونيين وغيرهم ممن يحمل كل حقد على الإسلام والمسلمين.

وأمر أحمد بن بويه بأن تقام الاحتفالات، وتُضاء الأنوار، وتظهر الزينة في يوم يُسمى: -غدير خم-(١) في الثامن عشر من ذي الحجة من كل عام.

وامتلأت البلاد بسب الصحابة، والطعن فيهم، والعلماء لا قوة لهم بدفع ذلك، ويعتبر أحمد بن بويه هو أول من شرّع ضرب القامات، وشق الهامات، وإسالة الدماء نوحاً على الحسين بن علي رضي الله عنهما مما كان له آثاره في التاريخ.

ولقد أحدثت هذه البدع الكراهية والبغض بين الناس، مما ترتب عليها آثار جرت فيها حروب ودماء، وما زال هذا الشر باقياً بسبب الذي انتحله أحمد بن بويه، وادعاه كذباً وزوراً، فمنذ أن أعلن وأظهر النياحة والندب على الحسين بن علي رضي الله عنهما والناسُ فيما هم فيه من الشر، كما وضع لهم الاحتفال بما يسمى بعيد الغدير.

ولقد أرخ لذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» لعدة سنوات، يستفتح بقوله(٢): ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمئة، في عاشر المحرم من هذه السنة أمر معز الدولة ابن بويه ـ قبحه الله ـ أن تُغلق الأسواق، وأن تَلبس النساء المسوح من الشعر -لباس من الشعر-، وأن يخرجن حاسراتٍ عن وجوههن، ناشرات شعورهن في الأسواق، يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي، ولم يمكن لأهل السنة منع ذلك؛ لكثرة الشيعة - مدعي محبة آل البيت -، وكون السلطان معهم(٣).

---

(١) غدير خم: مكان في الطريق إلى المدينة، نزل به النبي ﷺ وأصحابه عند عودته من حجة الوداع، وخطب الناس ووعظهم كما في حديث زيد بن أرقم الذي رواه الإمام مسلم: «أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتابُ الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» قال زيد: فحث على كتاب الله، ورغب فيه» ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» (ح: ٢٤٠٨). وفي رواية: أخذ بيد علي وقال: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فهذا ولي من أنا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاداه، وقد فعل النبي ﷺ ذلك؛ لأن علياً تكلم فيه بعض من كان معه في جيش المسلمين باليمن قبل أن يلحق بالنبي ﷺ في حجة الوداع، فأراد النبي ﷺ بذلك أن يبين قدره ومكانته ومكانة آل بيت النبي ﷺ.

قال ابن كثير: إن علياً رضي الله عنه لما كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش بسبب منعه إياهم استعمال إبل الصدقة، واسترجاعه منهم الحلل التي أعطاها لهم نائبه، من أجل ذلك برأ النبي ﷺ ساحة علي، ورفع من قدره ونبه على فضله ليزيل ما وقر في قلوب كثير من الناس. (٥/ ١٢٣).

ولم يفهم الصحابة رضي الله عنهم، ومنهم علي من هذا الحديث أنه استخلاف له على المسلمين بعد رسول الله ﷺ، بل بايع لمن سبقه من الخلفاء الثلاثة جميعاً وهو في تمام الرضا كما سبق.

(٢) كتب الحافظ ابن كثير عن هذه البدعة الشنيعة منذ هذه السنة (٣٥٢هـ) يستفتح بها كل عام في كتابه البداية والنهاية حتى (سنة ٣٦٣هـ)، وقد تمكنت هذه البدعة وأصبحت واقعاً في حياة هؤلاء القوم، يعيقون بها الدعوة إلى الإسلام، ويشوهون صورته الحسنة عند غير المسلمين.

(٢) والكثرة يقصد بها: السلطة العسكرية البويهية التي انتشرت جيوشها في بغداد، وأما السلطان فهو أحمد بن بويه.

وفي ثامن عشر ذي الحجة من السنة نفسها أمر معز الدولة بإظهار الزينة ببغداد، وأن تفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تضرب الدبابات والبوقات، وأن تشعل النيران بأبواب الأمراء، وعند الشُرَط؛ فرحاً بعيد الغدير، فكان وقتاً عجيباً، ويوماً مشهوداً، وبدعة ظاهرة منكرة. ا.هـ.

وأصبح ما قاله الحافظ ابن كثير رحمه الله هو ما يستفتح به في كل عام هجري؛ مما أدى إلى القتال بين أهل السنة وبين مدعي محبة آل البيت، فجرت دماء، ونُهبت أموال في بغداد وفي غيرها، وما زال هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه كلما تمكن دعاة الفتنة من بثها بين المسلمين.

وهذا من البدع والتعدي على شريعة الله، فلو كان هذا الأمر محموداً، لفعله صدرُ هذه الأمة وخيرتها؛ إذ لو كان خيراً لسبقونا إليه، والمسلمون يقتدون ويتأسون ولا يبتدعون، نسأل الله أن يرد ضالهم، وأن يهديه سواء السبيل.

كان أحمد بن بويه في شهر المحرم (سنة ٣٥٠هـ) قد مرض بانحصار البول، وعانى منه أشد المعاناة، حتى ظن أنه الهلاك، ثم عوفي منه، فانتقل إلى الأهواز لاعتقاده أن ما أصابه بسبب هواء وماء بغداد، واستقر بها لفترة من الزمان، ثم ابتُلي في آخر أيامه بأنه لا يبقى شيء في معدته أبداً، فلما حضره الموت، أظهر التوبة والإنابة⁽¹⁾، وأوصى لولده بختيار من بعده، فاشتغل بختيار باللعب واللهو والنساء، وتبديد أموال الدولة في ذلك، حتى إنه لما أغار الرومُ على الدولة من جهة الجزيرة الفراتية، وقتلوا خلقاً كثيراً، جاء أهل الجزيرة للخليفة يستنجدونه، فأرسل إلى بختيار الذي كان في رحلة صيد، فأرسل إلى الخليفة أن أرسل إليَّ الأموال أُجَهِّز الجيوش بها، فأرسل إليه الخليفة المطيع لله قائلاً: لو كان الخراج يأتي إليَّ، لدفعت منه، ولكنه يأتي إليك، ودارت بينهم الرسل والرسائل، وأغلظ بختيار القول للخليفة وهدده، مما اضطر الخليفة إلى بيع بعض ثيابه وأثاث بيته وبعض زخارف سقوف داره، ليجهز الجيش، ويمده بالعتاد والمال.

---

(١) ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله: أن أحمد بن بويه اجتمع بأحد علماء أهل السنة قبل وفاته، وأخبره أن علياً ﷺ زوّج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: والله ما سمعت بهذا قط، ورجع إلى السنة ومتابعتها ، فالله تعالى أعلم.

وقد استمر حكم البويهيين نحو قرن من الزمان، عمّت فيه الفوضى العلمية، وساد الفساد والمنكرات والبدع، وكثر الخلاف الطائفي، الذي كان ولا يزال له أكبر الأثر على مسيرة الدولة الإسلامية والمسلمين.

وقد كانت الإمارة في عهد آل بويه على الترتيب التالي:

١. أحمد بن بويه (من سنة ٣٣٤هـ إلى ٣٥٦هـ) (معز الدولة).

٢. بختيار بن أحمد بن بويه (من سنة ٣٥٦هـ إلى ٣٦٧هـ) (عز الدولة).

٣. فناخسرو بن الحسن بن بويه (من سنة ٣٦٧هـ إلى ٣٧٢هـ) (عضد الدولة).

٤. كاليجار بن فناخسرو (من سنة ٣٧٢هـ إلى ٣٧٦هـ) (صمام الدولة).

٥. أبو الفوارس فيروز بن فناخسرو (من سنة ٣٧٦هـ إلى ٣٧٩هـ) (شرف الدولة).

٦. أبو نصر فيروز بن فناخسرو (من سنة ٣٧٩هـ إلى ٤٠٣هـ) (بهاء الدولة).

٧. أبو شجاع بن فيروز بن فناخسرو (من سنة ٤٠٣هـ إلى ٤١٢هـ) (سلطان الدولة).

٨. أبو علي بن فيروز بن فناخسرو (من سنة ٤١٢هـ إلى ٤١٦هـ) (مشرف الدولة).

٩. أبو الطاهر بن فيروز بن فناخسرو (من سنة ٤١٦هـ إلى ٤٢٦هـ) (جلال الدولة).

١٠. المرزبان محيي الدين بن أبي شجاع (من سنة ٤٢٦هـ إلى ٤٤٠هـ).

١١. خسرو فيروز بن المرزبان (من سنة ٤٤٠هـ إلى ٤٤٧هـ) (الملك الرحيم).

والمتأمل في أسماء الأمراء البويهيين يجدها أسماء عجمية لا عروبة فيها، بل هي من أسماء المجوس القديمة، لكنهم أخفوها في ألقابهم؛ مما يدل على ما يعتقدونه من التقيّة، والعداء للعقيدة الإسلامية السمحة.

ولقد كانت أسماء أبنائهم كلها على أسماء ملوك وقادة الفرس القدامى؛ كبختيار - فناخسرو - فيروز - كليجار - رستم - المرزبان - خسرو - كيخسرو - أسفنديار - كامرو - بهران - شرزن - سولار - سابور - أزدشير.

وقد شجع هذا على نشر الأسماء الجاهلية بين أبناء الأسر العجمية، سواءٌ كانوا من الفرس، أو الأتراك، أو الديالمة، فلقد كانت أسماء القيادات العسكرية معظمها أسماءً عجمية؛ مثل: شنكير - بستون - سبكتكين - الفتكين - بجكم - سيماجور- توجتكين - خجخج - توزون - نوشتكين - صيغون - كورتكين.

وهذا يدل على أن قيادات الدولة السياسية والعسكرية أُبعد عنها العربُ مادةُ الإسلام، بتخطيط من هؤلاء العجم المتآمرين على الخلافة العباسية.

ولما كانت سنّةُ الله في خلقه ماضية ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ [يس:٦٨]، انتهى حكم البويهيين حكماً سياسياً وعسكرياً، إلا أن فسادهم العقدي استشرى، وظل باقياً إلى عهد الصفويين الذين نهجوا نهجهم.

ثم امتد إلى عصرنا؛ حيث ظن أحفادهم أنهم قادرون أن يقيموا لأنفسهم دولة على ما كان عليه أجدادهم من العقيدة الفاسدة بادعاء محبة آل البيت؛ ليخدعوا جماهير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فيسلموا لهم الراية والقيادة، ويعود لهم ملك فارس المجوسي مرة أخرى، وهذا لن يكون أبداً إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

- **الخلفاء في عصر السيطرة البويهية:**

١. المطيع بن المقتدر بن المعتضد: (٣٣٤ هـ - ٣٦٣ هـ).

٢. الطائع بن المطيع بن المقتدر: (٣٦٣ هـ - ٣٨١ هـ).

٣. القادر بن إسحاق بن المقتدر: (٣٨١ هـ - ٤٢٢ هـ).

٤. القائم بن القادر بن إسحاق: (٤٢٢ هـ - ٤٦٧ هـ).

عندما دخل أحمد بن بويه بغداد في الحادي عشر من جمادى الأولى (سنة ٣٣٤هـ)، ودخل على الخليفة، بايعه، ولقبه المستكفي بمعز الدولة، كما لقب أخويه علياً بعماد الدولة، والحسن بركن الدولة، وأمر بنقش ذلك على الدراهم والدنانير، وقد استفتح البويهيون أمرهم بعزل الخليفة المستكفي بالله، وسملِ عينيه وإيداعه في السجن كما ذكرنا، فظل مسجوناً حتى وفاته (سنة ٣٣٨هـ)، وله من العمر ست وأربعون سنة.

لكن البويهيين أقاموا مكان المستكفي المطيعَ لله(١) خليفةً على المسلمين إلى (سنة ٣٦٣هـ)؛ حيث اعتزل بعد أن أصبح لا قيمة له ولا قرار له في الحكم، وابتليت الأمة في عهده بقيام دولة جديدة في المغرب إلى جوار الفاطميين، هي دولة بني زيري(٢).

وتولى من بعده ولدهُ الطائعُ لله عبدُ الكريم بن المطيع بن المقتدر(٣) إلى أن خُلع في (سنة ٣٨١هـ)، والذي ظهرت في زمانه الدولة الغزنوية (سنة ٣٦٦هـ)(٤)، **ثم أقام آل بويه القادر بالله أحمدَ بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد**(٥)، فبقي خليفة اسماً حتى توفي في (سنة ٤٢٢هـ) عن سبع وثمانين سنة، ولم يعمرَّ أحد من الخلفاء قبله هذا العمر ولا بعده، وقد كان محباً لأهل العلم والدين والصلاح، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان على طريقة السلف في الاعتقاد، وقد صنف في ذلك مصنفات قرئت على الناس، وكان الناس يحبونه حباً شديداً، لكنه لم يكن بيده شيءٌ من أمر السلطة.

---

(١) المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٣٠١هـ) في أيام خلافة أبيه المقتدر، وأمه أم ولد تدعى: شغلة، عين تعييناً من قبل أحمد بن بويه، ولقب بالمطيع بالله، وبايعه الأمراء والأعيان والعامة، وضعف في زمانه أمر الخلافة إلى حد متردٍّ لم يبق للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير، وإنما كاتبٌ على إقطاعاته فقط، وكل أمور الدولة راجعة إلى أحمد بن بويه، وذلك بسبب حنق البويهيين الشديد على العباسيين.

أصيب المطيع بالفالج (الشلل) وثقل لسانه في (سنة ٣٦٣هـ) فتنازل عن الخلافة لولده عبد الكريم الطائع لله، وذلك يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي القعدة (سنة ٣٦٣هـ)، فكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان يعرف بعد خلعه بالشيخ الفاضل، وتوفي بعد ذلك بقليل في المحرم من (سنة ٣٦٤هـ) وعمره ثلاث وستون سنة. الذهبي/ السير (١٥/ ١١٣).

(٢) راجع الدول المستقلة في العهد العباسي في الكتاب.

(٣) الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٣١٥هـ)، وأمه أم ولد تدعى: غيث، وقيل: هزار، تولى الخلافة وعمره ثمان وأربعون سنة في حياة أبويه (سنة ٣٦٤)، ثم خُلع بمؤامرة من البويهيين، ونهبوا ماله وما في دار الخليفة، فولي من بعده القادر، وبقي عنده الطائع إلى أن توفي (٣٩٣هـ) ليلة عيد الفطر، وصلى عليه القادر بالله، وكان عمره عند وفاته ثماني وسبعين سنة. الذهبي/ السير (١٥/ ١١٨).

(٤) راجع: الدول المستقلة في العهد العباسي في الكتاب.

(٥) القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولد (سنة ٣٦٣هـ)، وأمه أم ولد اسمها: تمني، وقيل: يمنى، بويع له بعد خلع الخليفة الطائع الذي هو ابن عم له، ودخل دار الخلافة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة (٣٨١هـ) وبايعه بهاء الدولة البويهي والقادة والعامة، كان القادر صاحب ديانة مداوماً على الصدقات كثير التهجد، مرض الخليفة القادر بالله، فعهد إلى ولده عبد الله بن أبي جعفر القائم بأمر الله من بعده، وتوفي القادر ليلة الإثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة (سنة ٤٢٢هـ)، وصلى عليه ابنه القائم بأمر الله، فكان عمره سبعاً وثمانين سنة، قضى بالخلافة منها إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر. الذهبي/ السير (١٥/ ١٢٧).

فتولى من بعده القائم بالله أبو جعفر عبدُ الله بن أحمد القادر بالله(١)، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، هو الذي في زمانه ضعفت الخلافة والسلطنة، ووقع الصراع بين الأتراك والديلم البويهيين، وقد حسم الخليفة هذا الصراع بمراسلة طغرل بك زعيم السلاجقة، وأذن له بالدخول إلى بغداد لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة السلاجقة الأترَاك، وقد أحسن صنعاً بذلك؛ إذ أن الله تعالى أراد أن تزول هذه الطغمة البويهية، والتي تركت آثاراً سيئة ضربت بجذورها في أعماق التاريخ منذ أن كانت إلى زماننا.

فرحم الله الخليفة القائم بالله الذي فعل ذلك، وكان آخر الخلفاء في عهد البويهيين، وأول الخلفاء في عهد السلاجقة الأتراك.

---

(١) القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد، ولد في النصف من شهر ذي القعدة (سنة ٣٩١هـ)، وأمه أم ولد أرمنية تسمى: بدر الدجى، وقيل: قطر الندى، بويع له بالخلافة يوم الأربعاء الثاني عشر من ذي الحجة، وكان عمره يوم ذاك إحدى وثلاثين سنة.

مرض الخليفة في (سنة ٤٦٧هـ) فاستدعى حفيدَه وولّىَّ عهده من بعده عدةَ الدين أبا القاسم عبدَ الله بن محمد بن القائم، وأحضر إليه القادة والنقباء، وأشهدهم على توليته العهد مرة ثانية، فشهدوا، وكانت وفاته ليلة الخميس الثاني عشر من شعبان عن أربع وسبعين سنة وثمانية أشهر، وكانت مدة خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر، فلم يبلغ أحد من العباسيين قبله هذه المدة، وغسله الشريف أبو جعفر الحنبلي، وصُلي عليه صبيحة يوم الخميس المذكور، وحزن الناس عليه حزناً شديداً كما حزنوا على أبيه من قبل؛ إذ كانا من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة، رحمهما الله رحمة واسعة. الذهبي/ السير (١٥/ ١٣٨).

- **حال العالم الإسلامي في أثناء العهد البويهي:**

مع قدوم البويهيين كانت حالة القوى في الدولة العباسية على النحو التالي:

١. **خراسان**: وما وراء النهر للدولة السامانية، وعاصمُتهم بخارى يتبعون الخلافة اسماً.

٢. **الجبل والري**: وهي المناطق التي تشمل: الدينور وهمذان ونهاوند والصامغان وأذربيجان وأرمينيا، يملكها حسن بن بويه الملقب بركن الدولة، ويتبع الخلافة اسماً.

٣. **جرجان وطبرستان**: متنازَع عليها بين الدولة السامانية، وبين ركن الدولة البويهي.

٤. **فارس والأهواز**: عليها علي بن بويه الملقب بعماد الدولة، ويتبع الخلافة اسماً.

٥. **العراق والديلم**: سلطانها وأمير أمرائها أحمدُ بن بويه الملقب بمعز الدولة، وهي عاصمة الخلافة، ويخطب فيها باسم الخليفة العباسي.

٦. **البحرين وعمان واليمن وبادية البصرة** للقرامطة، ويتبعون الدولة الفاطمية، يخطبون باسم عبيد الله الباطني الفاطمي.

٧. **حلب والثغور** -حدود الدولة مع الروم- للدولة الحمدانية، ويتبعون الخليفة اسماً.

٨. **مصر والشام** ويحكمها الإخشيديون، ويتبعون اسماً للخليفة العباسي، ثم بعد ذلك للدولة الفاطمية العبيدية.

٩. **المغرب الأقصى** يحكمه الأدارسة، ولا يتبعون الدولة ولا غيرها.

١٠. **إفريقية -تونس-** ويحكمها الفاطميون العبيديون الباطنيون.

١١. **الأندلس**، وعليها الأمراء الأمويون، وكان الحاكم آنذاك عبد الرحمن الناصر.

والمتأمل لهذا الحال، وخارطة ذلك الزمان، يجد أن المسلم العربي لم يبقَ له شيء من الملك الفعلي سوى إمارة الأندلس الأموية، والدولة الحمدانية، ولكنها مع الأسف كانت منحرفة الاعتقاد، متأثرة بمدعي محبة آل البيت، وكانت البلاد حولهم لقادة من الأتراك يسيطر عليهم أحمد بن بويه، والذي حدث بينه وبين الدولة الحمدانية حروب

كثيرة منطلقاً فيها أحمد بن بويه من خلال عنصرية وشعوبية ضد العرب، مما أنهك قوة الحمدانيين الذين ضعفوا أمام الروم، وخسرت الدولة الإسلامية أمامهم جميع الثغور -الحدود-، حتى أصبح الحمدانيون كقطرة في بحر متلاطم، والجزاء من جنس العمل.

وكذلك فإن المتأمل أيضاً يجد أن المنحرفين عقدياً الذين كانوا ينخرون في جسد الدولة من زمان الخليفة عثمان رضي الله عنه ، وتسببوا في الأحداث المؤلمة والمفجعة للأمة على مر تاريخها، قد أصبح لهم عدة دول قامت باسم أحقية آل البيت في الخلافة، ولو كانوا صادقين، لاتفقوا فيما بينهم، بل الواقع أنهم ناصبوا العداء بعضهم لبعض، ولم يتفقوا على قيام دولة واحدة تتبع خليفة واحداً للملمة شعث الأمة المتناثر، بل واقعهم أنهم عملوا على زيادة الفرقة في المجتمعات الإسلامية، وإذكاء نار الفتنة بين المسلمين، وهو أحد أهدافهم الكبرى، ولو كانوا يبكون على الإسلام لفعلوا، ولكن من الإسلام بكوا.

ويؤكد ذلك جلياً: عزمُ أحمد بن بويه على تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين، واستشار أصحابه في ذلك، وكلهم أشار عليه بذلك، إلا رجلاً من أصحابه قال له: لا أرى لك هذا، فقال ابن بويه: ولم ذاك؟ قال: لأن هذا خليفة نرى أنه غير صحيح الإمارة، فمتى أمرت بقتله قتلناه، ولو وليت رجلاً من العلويين، لكنت أنت وأصحابك تعتقدون صحة ولايته، فلو أمر بقتلك، لقتلك أصحابُك، فانصرف أحمد بن بويه عن فكرته للدنيا، لا لله عز وجل، ولا نصرة لآل البيت كما يزعمون.

ولله في خلقه شؤون، يرفع أقواماً، ويضع آخرين، فكلما انحرفت الأمة عن المسار الصحيح، ازدادت الفرقة، وطمع فيها أعداؤها، وهي سنة الله الماضية في خلقه القائل: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٠٣-١٠٥].

٣. عصر نفوذ السلاجقة الأتراك (٤٤٧هـ - ٥٩٠هـ):

ينسب السلاجقة الأتراك إلى سلجوق بن تقاق التركي من عشيرة الغز في بلاد تركستان، والذي توفي عن عمر ناهز مئة وسبعين سنة(١).

ملك السلاجقة معظم بلدان المسلمين في المشرق، وأصبح لهم شأنٌ عظيم في بلاد المسلمين، وقدموا مع زعيمهم طغرل بك إلى بغداد، ورحب بهم الخليفة القائم الذي وجدهم عوناً له على إزالة البويهية الباطنية الذين أفسدوا لأكثر من قرن من الزمان في البلاد فساداً واسعاً، ولقد قدم السلاجقة خدماتٍ وأعمالاً جليلة للأمة الإسلامية، وجاهدوا جهاداً مريراً، وجعلهم الله سوطاً وسيفاً على الباطنيين من القرامطة والعبيدية، كما أزال الله على أيديهم دولة الروم البيزنطيين من الأناضول، وحصروها في القسطنطينية فقط.

ولقد توالى على سلطنة الدولة ركن الدين محمد طغرل بك بن ميكائيل بن تقاق، والذي لم يكن له أبناء، فتولى السلطنة من بعده ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن تقاق(٢).

---

(١) كان سلجوق من خاصة ملك الترك، ثم وقع بينهما خلاف أدى به إلى الهجرة بعشيرته من بلاد الترك إلى ديار الإسلام، واعتنق الإسلام، وصار يشن غارات على بلاد الترك، كما تعاون مع السامانيين في رد غارات الترك عن بلادهم، تولى من بعده أبناؤه وأحفاده السلطان على عشيرته، وأقاموا قرب بخارى، ثم استولوا على مرو ونيسابور وجرجان وطبرستان وخوارزم بقيادة أميرهم طغرل بك الذي صارع البويهيين ودخل أصفهان، ثم صارع الروم وانتصر عليهم وعقد معهم هدنة، واشترط للهدنة أن يُبْنَى مسجد بالقسطنطينية تقام فيه الجمعة والصلوات، فكان أول مسجد يبنى بالقسطنطينية وأقيمت فيه الصلاة والجمعة.

تقاسم قادة السلاجقة البلاد التي في حوزتهم، وانتخبوا طغرل بك ملكاً عليهم جميعاً، واتخذ من الري عاصمة له، كما اتخذ ابن أخيه ألب أرسلان بن داود مساعداً له.

اتصل طغرل بك بالخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد الذي دعاه للمجيء إلى بغداد (سنة ٤٤٧هـ)، ليتخلص من سلطة البويهيين، وليبدأ عهداً جديداً هو عهد السلاجقة الأتراك، والذي استمر إلى سنة ٥٩٠هـ. ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٦/ ٩٥).

(٢) ألب أرسلان: هو محمد بن داود بن ميكائيل بن تقاق، كان صاحب ديانة، كريماً عاقلاً، قريباً من الفقراء، كثير الدعاء والصدقة، عالماً بتاريخ الأمم والملوك وآدابهم، كما كان عالماً بالشريعة، ناصراً للسنة، حرباً على أهل البدع والباطنية.

تولى السلطنة بعد عمه طغرل بك فقام بها أحسن قيام، وكان شوكة في حلوق أعداء الدولة، لقب بعضد الدولة، وبأبي شجاع، ومعنى اسمه باللغة التركية الأسد الباسل، قام بحكم خراسان وبلاد ما وراء النهر بعد أبيه، وكان وزيره الدائم معه نظام الملك.

حارب الفاطميين العبيديين، وأجبر الدولة المراديسية في حلب على إقامة الدعاء للخليفة العباسي بدلاً من الفاطمي العبيدي، واستطاع أن ينتزع الرملة وبيت المقدس من أيدي الفاطميين، وأزال الله على يده دولة الروم البيزنطيين من الأناضول.

أنشأ المجامع العلمية في بغداد والمدارس ومنها المدرسة النظامية التي أمر وزيره نظام الملك بإنشائها ونسبت إليه، والتي تخرج منها عماد الدين الأصفهاني، وبهاء الدين شداد اللذان عملا بعد ذلك إلى جوار السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما درّس بها شيخ الشافعية أبو إسحاق الشيرازي، وكذلك عبد الله بن تومرت مؤسس دولة الموحدين في المغرب. قُتل رحمه الله في مؤامرة من الباطنية عليه، ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه، فخلفه في السلطنة ابنه ملك شاه، وكان ذلك في العاشر من ربيع الأول (سنة ٤٦٥هـ). الذهبي/ السير (١٨/ ٤١٤).

واجه ألب أرسلان الروم في معركة ملاذكرد، ثم تولى بعد وفاته ابنه جلال الدولة ملك شاه بن ألب أرسلان(١)، الذي سار على سير أبيه ، ثم تولى أخوه تتش بن ألب أرسلان، وتولى من بعده ناصر الدين محمود، ثم تولى من بعده ابنه ركن الدين برقياروق على السلاجقة، والذي كان في صراع مع إخوته من أبناء ملك شاه، ثم تولى أخوه غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه، ثم تولى جلال الدين ملك شاه الثاني ابن برقياروق، ثم عودة غياث الدين والدنيا السلطان محمد بن ملك شاه، وتبعه أخوه محمود بن محمد بن ملك شاه، ثم تولى داود بن محمود، ثم تولى مسعود بن محمد بن ملك شاه، وكان آخرهم معز الدين أحمد -سنجر- آخر ملوك السلاطين للدولة الموحدة، ثم تمزقت المملكة بين السلاجقة إلى أن انتهت على أيدي الدولة الخوارزمية(٢)، وكان آخر ملوكهم طغرل بك الثاني، وانتهى معه نفوذ السلاجقة على الخلافة في بغداد.

- **معركة ملاذ كرد «منزكرت» (٤٦٣هـ - ١٠٧١م):**

تولى ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق سلطنة السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل بك، وكان رجلاً قوياً شهماً صاحب ديانة، وكان وزيره نظام الملك رجلاً حكيماً عاقلاً(٣)، واستقرت الدولة في عهده واستطاع أن يصد الروم ويزيل دولتهم، بعد أن ساروا إليه.

ففي (سنة ٤٦٣هـ) أقبل الروم في جحافل من الجنود بلغوا مئتي ألف وزيادة بقيادة ملكهم أرمانّوس، وكان هدفه أن يبيد الإسلام وأهله، وغره شيطانه، فقسم البلاد قبل أن يأتي وملّك عليها البطارقة حتى بغداد، ووضع من قبله والياً عليها، وكل ذلك ليمنّي جيشه وقادته بأنهم قادمون إلى ملكهم، فيقاتلون قتالاً مستميتاً.

---

(١) ملك شاه السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملك شاه ابن السلطان ألب أرسلان محمد بن جغري بك داود السلجوقي، ملك بعد أبيه ألب أرسلان وقام بأمر الدولة بوصية من أبيه (سنة ٤٦٥هـ)، خرج عليه عمه قاورت ملك كرمان واستطاع ملك شاه أن ينتصر عليه، كان حسن السيرة يكثر من العمران وحفر أفرع الأنهار وتشييد القناطر وبناء الأسوار، قام بعمارة بغداد وبنى بها جامعاً كبيراً، تشرف الملك شاه بأن زوج ابنته للخليفة المقتدي (سنة ٤٨٠هـ)، وأنجب منها جعفراً، كما تزوج الخليفة المستظهر بالله من ابنته الأخرى بعد وفاة أبيها، واتخذ ملك شاه من مدينة أصفهان مقراً له، وقدم بغداد مرتين، وفي الثالثة كان مريضاً، وانتقل منها إلى أصفهان حيث توفي ودفن هناك. الذهبي/ السير (١٨/ ٤١٤).

(٢) راجع الدول المستقلة عن الخلافة العباسية في الكتاب.

(٣) نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق، ولد في مدينة طوس (سنة ٤٠٨هـ)، شب وتعلم العربية في طوس التي ينسب إليها، وطاف ببلاد خراسان ثم انتقل إلى غزنة وبقي ببلخ ملازماً لأبي علي بن شاذان والي بلخ لداود والد السلطان ألب أرسلان، ولما حضرت ابن شاذان الوفاة أوصى السلطان ألب أرسلان بنظام الملك، فاعتنى به وجعله ملازماً له حتى أصبح وزيراً له إلى أن مات ألب أرسلان، فكان وزيراً لابنه ملك شاه، كان شافعي المذهب الفقهي، مقلداً للأشاعرة في مذهبه الاعتقادي، وكان يكثر من النوافل والصوم، أسس المدرسة النظامية ببغداد بأمر من ألب أرسلان، ونسبت إليه، كما أسس مثيلاتها في مرو وبلخ وهيرات والبصرة وأصفهان، كما أنشأ بيمارستان (مستشفى) أنفق عليه خمسين ألف دينار. الذهبي/ السير (١٩/ ٩٤).

وسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض، القائل في محكم التنزيل: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، والقائل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤].

وتقدم السلطان ألب أرسلان مع جيشه القريب من عشرين ألفاً في مكان يقال له: الرهوة في ذي القعدة لمواجهة الروم، فلما رأى عددهم، وقع في نفسه شيء، فكلمه الفقيه محمد ابن عبد الملك البخاري بأن يستعين بالله، وأن تكون المعركة في يوم الجمعة بعد الزوال حين يكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين.

فلما تواجه الجمعان، نزل السلطان عن فرسه أمام جنده، وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه في التراب، ثم قام ورفع يديه بالدعاء يستنصر الله تعالى، ثم دارت رحى معركة لم ينسها التاريخ، إذ أن الله تعالى أنزل نصره على المسلمين، ومنحهم أكتاف المشركين، فقتلوا منهم خلقاً لا يحصَوْن لكثرتهم، وأورث الله السلاجقة أموالهم وأرضهم وديارهم وذراريهم، ووقع أرمانّوس المغرور ملكُ الروم في الأسر على يد غلام رومي.

فلما أُوقف أرمانّوس بين يدي الملك ألب أرسلان، ضربه الملك بيده ثلاث مقارع على رأسه، وقال له: لو كنت أنا الأسير بين يديك ماذا كنت تفعل؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بي؟ قال: تقتلني، أو تشهرني في بلادك، وأما العفو وأخذ الفداء، فبعيد عني، فقال ألب أرسلان: ما عزمت على غير العفو والفداء.

فافتدى أرمانّوس نفسه بألف ألف دينار وخسمئة ألف دينار (مليون ونصف مليون دينار ذهب)، وأن يطلق كل أسير مسلم في بلاد الروم، وعلى هدنة خمسين سنة، على أن يحمل فيها الروم عن كل يوم ألف دينار، فقام أرمانّوس بعد هذه الشروط من بين يدي الملك وقبل الأرض بين يديه، ثم توجه نحو الخليفة، وقبل الأرض بين يديه إجلالاً وإكراماً.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

فأعطاه الملك عشرة آلاف دينارٍ ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من أصحابه، وجماعة من البطارقة، وشيّعه لفرسخ كامل، كما أرسل معه جيشاً يخدمونه ويحوطونه ويحفظونه إلى بلاده، معهم رايات مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله(١).

فلما عاد أرمانّوس إلى بلاد الروم، وجدهم قد ملّكوا غيره عليهم، فأرسل إلى السلطان يعتذر إليه، وبعث من الذهب والجواهر ما يقارب ثلاثمئة ألف دينار.

وكان عهد السلاجقة من أزهى العصور بعد فترة انكسرت فيها الخلافة، وقد توفي في عهدهم الخليفة القائم بأمر الله الذي كانت مدة خلافته أربعاً وأربعين سنة وثمانية أشهر وخمسة وعشرين يوماً، فلم يبلغ أحد من العباسيين قبله هذه المدة، وقد جاوزت خلافة أبيه أربعين سنة، فكان مجموع أيامهما خمساً وثمانين سنة وأشهراً، وذلك مقارب لدولة بني أمية كلها، وقد كان القائم من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة، رحمه الله رحمة واسعة.

عاشت الخلافة الإسلامية في أيام السلاجقة الأولى عزاً ومجداً، واستطاعت أن تواجه أعداءها حتى قضوا على فتنة الباطنية في أيامهم.

ثم كانت سنة الله تعالى الماضية في خلقه أن ضعف أمرُ السلاجقة؛ إذ تنازعوا وتصارعوا على الدنيا والملك، وانتهى الأمر بمقتل آخرهم طغرل الثاني (سنة ٥٩٠هـ)، مما أضعف أمر الخلافة العباسية في بغداد، والتي بدا عليها مظاهر التهاوي والضعف، وخاصةً أن أصحاب العقائد المنحرفة كانوا ينتظرون ويتحينون الفرصة للانقضاض على الدولة، وقد تولى أحد كبرائهم الوزارة، وأصبحت السلطة بيدهم في بغداد بعد تولي محمد بن العلقمي وزيراً، وتولي بدر الدين لؤلؤ ولاية الموصل، وكلاهما منحرف حاقد، تآمر مع المغول حتى أسقطوا بغداد في (سنة ٦٥٦هـ).

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ٢٧).

- **الخلفاء في عهد القوة العسكرية السلجوقية:**

١. القائم بن القادر: (٤٢٢ هـ - ٤٦٧ هـ).
٢. المقتدي بن محمد: (٤٦٧ هـ - ٤٨٧ هـ).
٣. المستظهر بن المقتدي: (٤٨٧ هـ - ٥١٢ هـ).
٤. المسترشد بن المستظهر: (٥١٢ هـ - ٥٢٩ هـ).
٥. الراشد بن المسترشد: (٥٢٩ هـ - ٥٣٠ هـ).
٦. المقتفي بن المستظهر: (٥٣٠ هـ - ٥٥٥ هـ).
٧. المستنجد بن المقتفي: (٥٥٥هـ - ٥٦٦ هـ).
٨. المستضيء بن المستنجد: (٥٦٦ هـ - ٥٧٥ هـ).
٩. الناصر بن المستضيء: (٥٧٥ هـ - ٦٢٢ هـ).

تولى الخلافة في عهد السيطرة العسكرية السلجوقية، والممتد من (سنة ٤٤٧هـ إلى سنة ٥٩٠هـ) جمع من الخلفاء، كان على رأسهم القائم بالله، والذي دعاهم ليتخلص بهم من القوة البويهية، والذي كانت خلافته نحو خمس وأربعين سنة، منها خمس وعشرون سنة في عهد البويهيين، وعشرون سنة في عهد السيطرة السلجوقية، وتوفي رحمه الله عن عمر يناهز الرابعة والسبعين بثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان رحمه الله فصيحاً ورعاً زاهداً، أديباً كاتباً بليغاً شاعراً، عادلاً كثير الإحسان إلى الناس، وقد دفن إلى جوار أجداده من الخلفاء، ولقد حزن الناس لموته حزناً شديداً، وغلقت الأسواق بسبب ذلك، وكيف لا يُبْكى على مثله؛ إذ كان من خيار بني العباس ديناً واعتقاداً ودولة، وقضى الله به على فتنة البويهيين التي فتحت على الأمة أبواب شر عظيمة ما زالت تعاني الأمة الإسلامية منها، وما زالت تجتهد في إغلاقها.

وتولى من بعده حفيده المقتدي بأمر الله لعشرين سنة(١)، وقد كان شهماً شجاعاً، أيامه كلها مباركة، والرزق دارٌّ واسع، والخلافة مُعَظَّمَةٌ مُهابَة، وتصاغرت الملوك له، وتضاءلوا بين يديه، وخُطب له بالحرمين الشريفين، وببيت المقدس، وبالشامات كلها، وجاهدت الأمة في زمانه جهاداً عظيماً، استرجعت به الرها وأنطاكية من أيدي العدو، وعُمّرت بغداد وغيرها من البلاد، وكان قضاته ووزراؤه من خيار الناس.

كما أخرج العاهرات الخاطئات من بغداد في أول حكمه، وخرّب دورهن، وألزم الناس الحشمة والوقار، كما نفى عن بغداد المغنيات وأرباب الملاهي والمعاصي، وكان غيوراً على حريم الناس، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حسن السيرة والسريرة(٢)، وكل ذلك من فضل الله، ثم تقوى الخليفة، ثم بعون السلاجقة من أهل السنة له.

وقد توفي رحمه الله في يوم الجمعة الرابع عشر من المحرم (سنة ٤٨٧هـ) وله من العمر نحو تسع وثلاثين سنة، وأخفي موته ثلاثة أيام حتى توطدت البيعة لابنه المستظهر، ثم صُلّي عليه، ودفن في تربتهم.

تولى الخلافة من بعده ابنُه المستظهر لخمس وعشرين سنة، وكان رجلاً حافظاً للقرآن، كريم الأخلاق، فصيحاً بليغاً، شاعراً مطبقاً، ذكياً بارعاً، خيراً فاضلاً، وكانت أيامه ببغداد كأنها الأعياد، وكان راغباً في البر والخيرات، مسارعاً إلى ذلك، لا يردُّ سائلاً، جميل المعاشرة، لا يصغي إلى أقوال الوشاة في الناس، ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعرفها وعلمها، صاحب علم كثير وفضل كبير.

ولقد استوزر المستظهر أبا منصور عميدَ الدولة ابنَ جهير(٣)، فدبر الوزارة له أحسن تدبير، ومهد الأمور أتم تمهيد، وساس الرعايا أحسن سياسة، وكان من خيار الوزراء.

---

(١) أم المقتدي أم ولد أرمنية تسمى: أرجوان، وتدعى: قرة العين، ولعلها كانت دينة خيرة إذ بارك الله لها في ذريتها وعمرها، فأدركت خلافة ابنها المقتدي وخلافة ولده المستظهر وخلافة حفيدها المسترشد. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ٤٩).

(٢) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ١٤١).

(٣) هو محمد بن أبي نصر بن محمد بن جهير الوزير الكبير، أبو منصور الملقب بعميد الدولة، أحد رؤساء الوزراء وسادات الكبراء، خدم ثلاثة من الخلفاء، ووزر لاثنين منهم، كان حليماً قليل العجلة، ولي الوزارة مرات، حُبس بدار الخلافة فلم يخرج من السجن إلا ميتاً في شوال (سنة ٤٩٣هـ). ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ١٧٣).

توفي رحمه الله في السادس عشر من ربيع الآخر (سنة ٥١٢هـ)، وله من العمر إحدى وأربعون سنة، وقد ولي غسله الإمام ابنُ عقيل، والإمام ابنُ السني، وصلّى عليه ولده أبو منصور الفضل، ودفن في حجرة كان يسكنها، رحمه الله رحمة واسعة.

تولى من بعده ولده المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر، وبويع له بالخلافة، وخُطب له على المنابر.

كان المسترشد شجاعاً مقداماً بعيد الهمة، فصيحاً بليغاً عذب الكلام، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وقيل: هو آخر خليفة رآه الناس في بغداد خطيباً.

قام إليه عشرة من الباطنية الخبثاء، ودخلوا عليه خيمته عند عودته إلى بغداد، فقتلوه وقطعوه قطعاً، وقتلوا معه جماعة من أصحابه، وقُبض عليهم فأحرقوا ـ قبحهم الله ـ، فالباطنية شر من ادعى محبة آل البيت، يظهرون الانكسار والضعف والمظلومية، ثم إذا تمكنوا فعلوا الأفاعيل بالناس(١).

وصُلي عليه في يوم عرفة، ودفن رحمه الله، فخرج الناس لصلاة العيد من الغد وهم في غم وحزن شديد على المسترشد رحمه الله، وذلك (سنة ٥٢٩هـ).

بويع من بعده لولده الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد، ولم يبق في الخلافة سوى أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً، إذ خلعه السلطان أمير الأمراء مسعود الذي أتى بعمّ الراشد المقتفي بن المستظهر، فبويع بالخلافة عوضاً عن الراشد (سنة ٥٣٠هـ)، وكان الراشد قد خرج إلى الموصل، واستقر بها عند صاحبها عماد الدين زنكي(٢) رحمه الله.

---

(١) ولعل أبلغ ما يقال في ذلك ما فعله النصيرية في أهل السنة في سوريا على يد الحكام المعاصرين الذين لم يرقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة، وتلذذوا هم وجماعتهم بتعذيب المسلمين وقتلهم والاعتداء على أموالهم وأعراضهم والنيل منهم.

(٢) عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله، أبو المظفر الملك المنصور، قائد عسكري وحاكم مسلم، حكم الموصل وأجزاء من بلاد الشام، واجه الصليبيين في الرها وفي الشام وانتصر عليهم، توفي رحمه الله مقتولاً في (سنة ٥٤١هـ) بعد أن دبر الصليبيون مؤامرة اغتياله مع جمع من الباطنية، ودخلوا عليه خيمته وقتلوه وهو نائم، ودفن بصفين، وخلفه ابنه نور الدين محمود.

قال ابن الأثير رحمه الله: كان شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة.

وقال ابن كثير رحمه الله: كان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة. الذهبي/ السير (٢٠/ ١٨٩).

تولى المقتفي الخلافة بعد ابن أخيه، وبويع له في فتنة واضطراب، لكنه شيئاً فشيئاً استطاع أن يجمع الخلافة، فقد كان شهماً شجاعاً مقداماً، يباشر الأمور بنفسه، ويشاهد الحروب، ويبذل الأموال الكثيرة، وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن السلاطين من أول أيام البويهيين إلى يومه، فتمكن من الخلافة والسلطة، وكانت كلمته نافذة على العسكر والأمراء.

مرض رحمه الله بعد أن بقي في الخلافة لأكثر من أربع وعشرين سنة، وتوفي في الثاني من ربيع الأول من سنة خمسمئة وخمس وخمسين عن ست وستين سنة، فوافق أباه في شهر وفاته.

تولى من بعده الخلافة ولده المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي بن المستظهر، فبقي في الخلافة إحدى عشرة سنة، وكان من خيار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعية، وضع عنهم المكوس والضرائب، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، توفي يوم السبت الثامن من ربيع الآخر عن ثمان وأربعين سنة، وصُلي عليه يوم الأحد، ودفن بدار الخلافة.

تولى من بعده ولده المستضيء أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي، ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسنُ بعد الحسن بن علي رضي الله عنهما غيره، ووافقه في الكنية أيضاً.

بقي في الخلافة تسع سنين، وكان خيّراً، محارباً للبدع، حليماً وقوراً، وفي زمانه هلك آخر ما يسمى بالخلفاء العبيديين الفاطميين، وقطعت دولتهم، وتوفي رحمه الله يوم السبت آخر شوال وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وغُسّل، وصلي عليه من يوم الأحد، ودفن بدار النصر التي بناها ووصى بدفنه فيها (سنة ٥٧٥هـ).

تولى من بعده ولده الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء، فبقي في الخلافة سبعاً وأربعين سنة، فلم يل الخلافة من بني العباس قبله أطول مدة منه، بايعه الأمراء والوزراء والكبراء، والخاصة والعامة، وكان ذكياً شجاعاً مهيباً، وفي زمانه انتهت قوة السلاجقة.

وفي زمانه استطاع صلاح الدين الأيوبي[1] أن ينتصر على الصليبيين في يوم حطين، وأن يسترد منهم بيت المقدس، وتوفي صلاح الدين رحمه الله في (سنة ٥٨٩هـ).

وتولى ملك مصر والشام من بعده أبناؤه، فكانت دمشق من نصيب الأفضل بن صلاح الدين، الذي بعث بهدايا سنية إلى الخليفة في بغداد، فيها تحف شريفة، من ذلك: سلاح أبيه، وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات، كما أرسل إليه أربع جوارٍ من بنات ملوك الفرنجة.

غير أن الخليفة لم يكن صاحب سيرة حسنة، فلقد وقع منه ظلم في رعيته، وفرض رسوماً جائرة على الناس، فخُرّب في أيامه العراق، وتفرق أهله في البلاد، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل أموراً عجيبة، فكان يفعل الشيء وضده، وانصرف في رمي البندق والطيور، وقد ذكر عنه المؤرخون أشياء غريبة وعجيبة، وقد كان عهده بداية النهاية للخلافة في بغداد.

توفي في يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان (سنة ٦٢٢هـ)، وكان آخر خلفاء العباسيين في العهد السلجوقي.

---

[1] يراجع: الدول المستقلة عن الخلافة العباسية في بالكتاب.

• آخر خلفاء العهد العباسي في العراق:

تولى الخليفة الظاهر أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر من بعد أبيه، وكان أبوه قد ولاه للعهد، ولقبه بالظاهر.

بويع له بالخلافة وعمره اثنتان وخمسون سنة، كان عاقلاً وقوراً ديناً عادلاً محسناً، سار في الناس سيرة حسنة حتى شبهوه بعمر بن عبد العزيز في عدله، واختار لمنصب القضاء الشيخ العلامة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي، وكان من خيار المسلمين، ومن خيار القضاة العادلين، رحمهم الله جميعاً.

وبرغم قصر مدته التي لم تتجاوز تسعة أشهر أحبه الناس، إذ أنه أطلق من كان في السجون معتقلاً على الأموال الديوانية، وسد ديون من سجن بدين، وأفرج عنهم، ورخصت الأسعار في أيامه، وكانت من قبل قد زادت في زمان أبيه زيادة عالية، حتى أُكلت الكلاب والسنانير والميتة في أرض الجزيرة والموصل، فزال ذلك في أيامه، وسار في الناس بالعدل والقسط إلى أن توفي رحمه الله يوم الجمعة في ضحى الثالث عشر من رجب (سنة ٦٢٣هـ)، ودعا له الخطباء على المنابر، وصُلي عليه، ودفن بدار الخلافة.

قال الحافظ ابن كثير⁽¹⁾: كان من أجود بني العباس سيرة، وأحسنهم سريرة، وأكثرهم عطاءً، وأحسنهم منظراً ورواءً، ولو طالت مدته، لصلحت الأمة صلاحاً كثيراً على يديه.

وقد قام رحمه الله قبل وفاته بالإحسان إلى العلماء والفقراء، وتولية ذوي الديانة.

بويع بالخلافة من بعده لولده المستنصر بالله بن الظاهر العباسي، وكان عمره يومئذ خمساً وثلاثين سنة، بقي في الخلافة نحو سبع عشرة سنة.

سار بالناس سيرة أبيه الظاهر في الجود والإحسان إلى الرعية، وبنى المدرسة الكبيرة المستنصرية التي لم تبن مدرسة مثلها في الدنيا، إذ أنه ألحق بها داراً للحديث الشريف، وبيمارستاناً -مستشفى-، وحماماً، ودار طب، وأوقف عليها أوقافاً عظيمة، وكتباً نفيسة

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٧/ ٤١٩).

ليس لها في الدنيا نظير، وكانت هذه المدرسة جمالاً لبغداد ولسائر البلاد، وكان رحمه الله من تواضعه وخشوعه يسير على قدميه إلى الجمعة، ويدنو من الإمام، ويستمع الخطبة، وكان منفقاً جواداً، وخاصة في رمضان وفي الأعياد.

قام ببناء الخانات والقناطر، وشق الطرقات في سائر الجهات، وعمل في كل محلة ببغداد داراً لضيافة الفقراء والنزلاء، لا سيما في شهر رمضان عندما تستقبلهم هذه الدور لتناول طعام الإفطار.

وكان يتقصد الجواري اللاتي قد بلغن الأربعين، فيشتريهن ويعتقهن، ويجهزهن ويزوجهن، وأنفق الأموال على ذوي الحاجات والأرامل والأيتام وغيرهم.

توفي رحمه الله يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة (سنة ٦٤٠هـ)(١)، وله من العمر إحدى وخمسون سنة، وصُلي عليه، ودفن إلى جوار آبائه.

ومن عجيب أخباره رحمه الله: أنه كان راكباً يسير في بعض أزقة بغداد قبل غروب الشمس في رمضان، فرأى شيخاً كبيراً معه إناء فيه طعام قد حمله من محلة إلى محلة أخرى، فقال: أيها الشيخ! لم لا تأخذ الطعام من محلتك؟ أو أنت محتاج فتأخذ من المحلتين؟ فقال: لا والله يا سيدي ـ ولم يعرف أنه الخليفة ـ ولكني شيخ كبير، وقد نزل بي الوقت، وأنا أستحي من أهل محلتي أن أزاحمهم وقت الطعام، وأتحين وقت كون الناس في صلاة المغرب، فأدخل بالطعام إلى منزلي حيث لا يراني أحد.

فبكى الخليفة رحمه الله تعالى، وأمر له بألف دينار، فلما دفعت إليه، فرح الشيخ فرحاً شديداً حتى قيل: إنه انشق قلبه من شدة الفرح، ولم يعش بعد ذلك إلا عشرين يوماً، ثم مات، فحملت الألف دينار إلى الخليفة؛ لأنه لم يخلف وارثاً، وقد أنفق منها ديناراً واحداً، فتعجب الخليفة من ذلك، وقال: شيء قد أخرجناه لله لا يعود إلينا، تصدقوا به على فقراء محلته.

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية رحمه الله: وقد احترق في هذه السنة (٦٤٠هـ) المشهد الذي بسامراء المنسوب إلى علي الهادي والحسن العسكري، وقد كان بناه أرسلان البساسيري في أيام تغلبه على تلك النواحي في حدود سنة خمسين وأربعمئة، فأمر الخليفة المستنصر بإعادته إلى ما كان عليه، وقد تكلمت الروافض في الاعتذار عن حريق هذا المشهد بكلام طويل بارد لا حاصل له، وصنفوا فيه أخباراً، وأنشدوا أشعاراً كثيرة لا معنى لها، وهو المشهد الذي يزعمون أنه يخرج منه المهدي المنتظر الذي لا حقيقة له، لا عين ولا أثر، ولو لم يبن لكان أجود، قبح الله من يغلو في أبناء علي، ويُبغض بسببهم من هو أفضل منهم. (بتصرف/ ١٧/ ٢٦٠).

بويع من بعده لولده المستعصم بالله آخرِ خلفاء بني العباس في بغداد، أميرِ المؤمنين الإمام أبي أحمد عبد الله ابن أمير المؤمنين المستنصر بالله، تولى الخلافة وعمره ثلاثون سنة، وكان متقناً للقرآن الكريم حفظاً وتلاوة، متقناً للعربية والخط الحسن وغيرها من الفضائل، وقد تأدب على الشيخ شمس الدين أبي المظفّر علي بن محمد بن النيّار أحد أئمة الشافعية في زمانه.

كان كثير التلاوة، حسن الأداء، طيب الصوت، يظهر عليه خشوع وإنابة، وكان مشهوراً بالخير، مقتدياً بأبيه المستنصر جهدَه وطاقته.

وكان خطؤه الفادح، وطامته الكبرى أنه عيّن وزيراً له من أكثر الناس حقداً على العباسيين، بل على أهل السنة والجماعة أجمعين، هو محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن العلقمي(١)، المشؤوم على نفسه وعلى أهل بغداد، فلم يكن وزيرَ صدق، بل هو الذي أعان هولاكو وجنوده على المسلمين، قبحه الله وإياهم.

وقد عمت الفوضى ديار الخلافة في زمانه، وأصبح المسلمون في إمارات متناحرة، منقسمة بين أبنائها، كلٌّ يسعى إلى دنيا زائلة، كما ضعف أمر الخليفة؛ إذ لا سلطان له إلى جوار سلطان الوزير صاحب الانحراف العقدي الخطير، الذي كان سبباً في كل هذه البلايا والرزايا.

ولقد كانت الإسماعيلية الباطنية على اتصال دائم بالمغول ليعينوهم على المسلمين، وقد فعلوا ذلك من قبل في زمان المستنصر عندما كتبوا إليهم بأحوال الدولة الخوارزمية، وأحوال السلطان جلال الدين، وما آلت معه الأمور؛ مما دفع المغول أن ينتهزوا الفرصة ليقضوا على تلك الدولة، وكاتبَ الإسماعيليةُ المغولَ مرات ومرات؛ ليشجعوهم على دخول ديار الإسلام، ويدلوهم على مناطق الضعف، ويَعِدُوهُم بالمساعدة والدعم.

---

(١) محمد بن محمد بن أحمد بن علي أبو طالب الشهير بابن العلقمي، ولد (سنة ٥٩٣هـ)، تولى الوزارة للمستعصم (سنة ٦٤٢هـ) ووليها أربعة عشر عاماً، كان دينه دين الرافضة والباطنية الذي يقوم على التقية مظهراً الولاء والإسلام للخليفة مخفياً حقده وغله وبغضه للإسلام والخليفة، وثق به المستعصم وترك له زمام أموره فكان سبباً لما حل بالمسلمين من فتنة لم تر الدنيا مثلها منذ أن كانت الخليقة، وسيبقى وزرها بكل ما حملته في رقبته إلى يوم القيامة إن شاء الله، حيث قتل مئات الآلاف، وحرقت المصاحف والكتب، وانتهكت الأعراض، وسبيت الذراري، وسقطت الخلافة، كفاه ذلك أن يأتي مفلساً صفر اليدين من الخير يوم القيامة، ولم يهنأ بأن يتولى الوزارة للمغول، فقد أهانوه ولم يبقوه في منصبه إلا قليلاً فغم ومات في نفس العام الذي دخلوا فيه بغداد (٦٥٦هـ) قبحه الله. الذهبي/ السير (٢٣/ ٣٦١).

كما فعل الوزير ابن العلقمي الخائن الخبيث، إذ أنه أرسل إلى المغول يطمعهم بالمجيء إلى بغداد بعد أن عمل على إضعاف جيش الخلافة بمنعه الأرزاق عن الجند والقادة، وأبعد الكثير منهم عن الجندية، حتى لم يبق في الجيش سوى القلة القليلة التي لا تغني للدفاع عن بغداد، بعد أن كان عدد الجيش مئة ألف أصبح عشرة آلاف، وكان يكتم رسائل المغول إلى الخليفة في الوقت الذي يكتب فيه للمغول يمنيهم بالتقدم إلى بغداد، ولقد التقى ابن العلقمي رسولين من المغول، وكتم خبرهما عن الخليفة.

وكان المغول قد ساروا بجيشهم إلى بلاد ما وراء النهر، واجتاحوا بلاد الدولة الخوارزمية وأسقطوها(١)، ثم سار المغول إلى فارس، واتخذوا من مدينة همذان مقراً لهم، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه أن يترك الخلافة، وأن يتنازل لابنه السلطان، وأن يهدم الحصون، ويردم الخنادق التي في الطريق إلى بغداد، ويحضر الخليفة بشخصه لمقابلة قائدهم هولاكو، الذي هدد في رسالته الخليفة وتوعده.

ويتصف المغول بصفات سيئة من الخيانة والهمجية والقسوة من جانب، ومما يفعلونه في خصومهم ـ وخاصة في ديار الإسلام ـ من جانب آخر، وقد ساروا إليها، وفعلوا بها الأفاعيل، فهم لم يعطوا عهداً إلا نقضوه، وما تركوا قرية ولا بيتاً ولا مسجداً إلا خربوه، حتى إن ابن الأثير صاحب «الكامل» توقف عن الكتابة عن هذا الأمر لسنوات، وذلك بسبب ما هاله من فعل هؤلاء الناس، وما غمّه وأحزنه على المسلمين وديارهم، ثم انطلق بعد ذلك يكتب قائلاً ـ تحت عنوان: باب خروج التتر إلى بلاد الإسلام ـ: لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة؛ استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رِجْلاً وأؤخر أخرى، فمَنْ يسهلُ عليه أن يكتب نعيَ الإسلام والمسلمين، ومن ذا الذي يهون عليه ذكرُ ذلك؟! فياليت أمي لم تلدني، وياليتني متُّ قبل حدوثها وكنت نَسياً منسياً.... إلى أن قال: هذا الفعل الذي يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى

---

(١) كان ذلك بسبب أن خال خوارزم شاه كان نائباً على بلاد ما وراء النهر ومعه عشرون ألف فارس، فتطلعت نفسه إلى أموال التجار من المغول المستأمنين، فاستأذن السلطان للاعتداء عليهم مظهراً أنهم جواسيس وليسوا تجاراً، فأذن له السلطان بذلك، فقبض عليهم وأخذ أموالهم بعد أن أعطاهم الأمان. فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه في ذلك وأن هذا الفعل غدر من خاله والغدر قبيح وهو من سلطان الإسلام أقبح، فإن زعمت أن الذي فعله خالك بغير أمرك فسلمه إلينا وإلا سوف تشاهد مني ما تعرفني به، وبدلاً من أن يعالج خوارزم شاه الموقف بحكمة، أمر بقتل رسل جنكيز خان، فكان ذلك بداية خروج التتر المغول إلى بلاد الإسلام، وهذا كله بسبب سوء التدبير والطمع في الدنيا وتوسيد الأمر لغير أهله.

التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها، لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها(١).

وما كان الخليفة يعلم أن ابن العلقمي من جهة، وبدرَ الدين لؤلؤ(٢) حاكمَ الموصل من جهة أخرى، كلاهما يراسل المغول، ويستحثوهم على القدوم إلى بلاد المسلمين، وكان ابن العلقمي قد أرسل إليهم أن الوقت قد حان لأن يأتوا؛ فإن الخلافة في حال ضعف وتردٍّ.

اجتمع هولاكو بذوي الخبرة ممن ينتمي للإسلام زوراً من الباطنية ومدعي محبة آل بيت النبي ﷺ، واستشارهم فيما يفعل، فأشار عليه حسام الدين الفلكي بعدم التعرض لبغداد أو الخلافة، وشجعه وزيرُه الإسماعيلي الباطني نصيرُ الدين الطوسي(٣)على المضي إلى بغداد، وبالفعل تقدم المغول إلى بغداد بعد أن استوثقوا من الوزير ابن العلقمي من ضعفها وقلةِ حيلتها في المقاومة.

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٧/ ٥٧٠). قلت: رحم الله ابن الأثير؛ فلقد توفي في (سنة ٦٣٠هـ) أي: قبل مصيبة بغداد الكبرى بست وعشرين سنة، ولم ير ما جرى فيها وفي غيرها من عظائم الأمور في زمانهم وزماننا، فماذا يمكن أن يقول لو أنه رأى ذلك؟!.

(٢) بدر الدين لؤلؤ: هو بدر الدين لؤلؤ الأرمني النوري الأتبكي، مملوك السلطان نور الدين أرسلان شاه، أرميني الأصل، اشتراه رجل خياط وهو صغير ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه، فقربه إليه وجعله أستاذاً في داره، حتى أصبحت الكلمة له، خان بدر الدين لؤلؤ أستاذه، وقتل أولاده واحداً بعد واحد لتصفو له الأمور، ويستقل هو بالملك، وقد استطاع تدبير مملكته وتسلطن في (سنة ٦٣٠هـ)، وأصبح من السلاطين الجبابرة الظالمة، وكان يصانع كل من حوله من الملوك، سواء ملوك الإسلام أو التتر، قتل عدة أمراء، عاش قريباً من تسعين سنة، وكان يحتفل مع المجوس والنصارى بأعيادهم، ويحضر المغاني، ويشرب الخمر، تحالف مع هولاكو لغزو بغداد، وسار إليه بعد دخولها، وحمل معه الهدايا، وقدم له تحفاً جليلة، وأعلن له الطاعة والخدمة، فأقره هولاكو والياً من قبله على سلطنته، فلم يلبث بعد خيانته هذه إلا أن عاش قليلاً وتوفي قبحه الله (سنة ٦٥٧هـ)، وبعد مماته تملك ولده الملك إسماعيل، وتزوج بابنة هولاكو، وأغضبها وأغارها، مما كان سبباً في نهاية الأمر أن استباح المغول الموصل. الذهبي/ السير (٢٣/ ٣٥٦).

(٣) نصير الدين الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن، ولد بمدينة طوس بالقرب من نيسابور (سنة ٥٩٧هـ)، عمل بالفلسفة وعلم الكلام والعلوم العقلية والنجوم والفلك وكان له في مدينة مراغا بفارس قبة ومرصد ومنجمون لرصد الكواكب، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، وكان يأتيه العطايا من هولاكو، وكان باطنياً إسماعيلياً حاقداً على الإسلام وأهله، أهلكه الله (سنة ٦٧٢هـ).

قال عنه ابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان: نصير الشرك والكفر، الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو، شفا نفسه من أتباع الرسول ﷺ وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو بقتل الخليفة، والقضاة، والفقهاء، والمحدثين، واستبقى الفلاسفة، والمنجمين، والطبائعيين، والسحرة، ونقل أوقاف المدارس، والمساجد، والرُبط إليهم... إلى أن قال: وأنكر صفات الرب، واتخذ للملاحدة مدارس، وجعل إشارات إمام الملحدين ابن سينا مكان القرآن، وقال: هي قرآن الخواص، وذاك قرآن العوام، وكان ساحراً يعبد الأصنام.

وبالجملة: كان هذا الملحد هو وأتباعه من الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر. الموسوعة الحرة.

- **سقوط بغداد (سنة ٦٥٦هـ):**

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»(١): استهلت هذه السنة وجنودُ التتار قد نزلت بغداد صحبةَ الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكو خان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل - بدر الدين لؤلؤ - يساعدهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعةً لهم ـ قبحهم الله تعالى ـ.

وقد سترت، بغداد ونُصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التي لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد في الأثر: لن يغني حذرٌ من قدرَ. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [نوح:٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد:١١].

وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة حظاياه، وكانت مولدة تسمى: عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك، وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه، فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره، أذهبَ من ذوي العقول عقولهم. فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة. وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها ـ وكانوا نحو مئتي ألف مقاتل- إلى بغداد في ثاني عشر المحرم من هذه السنة، ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم وبقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد.

وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، الذي اشتد حنقه على أهل السنة، و دبّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله.

---

(١) بتصرف من المؤلف (١٧/ ٣٥٦).

ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه، والمثول بين يديه؛ لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن يخرج في سبعمئة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان، حجُبوا عن الخليفة إلا سبعةَ عشر نفساً، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأنزل الباقون عن مراكبهم، ونهبت، وقُتلوا عن آخرهم، وأُحضر الخليفة بين يدي هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت.

ثم عاد إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي - الباطني الإسماعيلي -، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو، أمر بقتله، ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزيرُ ابنُ العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، ، وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو، وتهيب من قتل الخليفة، هون عليه الوزير ذلك، فقتلوه رفساً⁽¹⁾، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه.

فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة، والأكابر والرؤساء والأمراء، وأولي الحلِّ والعقد ببلاده، ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان، والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) أي: ركلاً بأقدامهم والشوم في أيديهم بعد أن وضعوه داخل الجوال وأغلقوا عليه.

وكذلك في المساجد والجوامع والربُط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلِموا وسلِمت أموالُهم.

وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها، كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع، وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مئة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف.

ثم كاتبَ التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه أن يزيل السنَّة بالكلية، وأن يُظهر البدعة الرافضية، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذلّه بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً(١) للتتار، بعد ما كان وزيراً للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير ربِّ الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في عدد من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل: ثمانمئة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمئة ألف، وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً، وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر، وعُفِّي -أخفي- قبرُه.

وكان عمره يومئذ ستاً وأربعين سنة وأربعةَ أشهر، ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام، وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وله خمس وعشرون سنة، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن، وله ثلاث وعشرون سنة، وأسر ولده الأصغر

---

(١) حوشكاشاً: كلمة تعبر عن أنه كان مهاناً وألعوبة بأيديهم ليس له قيمة عندهم، ولقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان، فوقفت إلى جانبه وقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه، وانقطع في داره إلى أن مات كمداً وضغينة وضيقاً وقلة، وقد رأى بعينه من الإهانة من التتار والمسلمين مالا يحد ولا يوصف. الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٧/ ٣٨٠).

مبارك، وأسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل. والله أعلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقُتل أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف بنُ الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان عدو الوزير(١)، وقتل أولاده الثلاثة: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وأكابر الدولة واحداً بعد واحد، منهم: الديودار الصغير مجاهد الدين أيبك، وشهاب الدين سليمان شاه، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد.

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس، فيخرج بأولاده ونسائه، فيذهب به إلى مقبرة الخلال، اتجاه المنظرة، فيذبَح كما تذبح الشاة، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه.

وقتل شيخ الشيوخ مؤدبُ الخليفة صدرُ الدين علي بن النيار، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجُمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمي ـ قبحه الله ـ ولعنه أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد، ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبني للرافضة مدرسة هائلة ينشرون علمهم بها وعليها، فلم يقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته عنه، وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبع به ولده، فلحق بأبيه في نهاية السنة، فاجتمعا ـ والله أعلم ـ بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمر المقدر، وانقضت الأربعون يوماً، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر، فتغيرت صورهم، وأنتنت من جيفهم البلد.

وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) وكيف لا يعاديه إذ أنه أحد أئمة السنة المطاعين المسموع لهم عند الناس، والوزير ابن العلقمي رافضي خبيث، قال تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة:٨-١٠].

ولما نودي ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقني والمقابر كأنهم الموتى إذا نُبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد، فتفانَوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الذي يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

وكان رحيلُ السلطان المسلط هولاكو خان عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر ملكه، وفوض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر، فوض إليه الشحنكية(١) بها، وإلى الوزير ابن العلقمي، فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، في مستهل جمادى الآخرة عن ثلاث وستين سنة، وكان عنده فضيلة في الإنشاء، ولديه فضيلة في الأدب(٢)، ولكنه كان شيعياً جلداً، رافضياً خبيثاً، فمات جهداً وغماً وحزناً وندماً، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم(٣)، فولي بعده الوزارة ولدُه عز الدين بن الفضل محمد، فألحقه الله بأبيه في بقية هذا العام، ولله الحمد والمنة.

وذكر أبو شامة، وشيخُنا أبو عبد الله الذهبي، وقطبُ الدين اليونيني: أنه أصاب الناسَ في هذه السنة بالشام وباء شديد، وذكروا أن سبب ذلك من فساد الهواء والجو، فسد من كثرة القتلى ببلاد العراق، وانتشر حتى تعدى إلى بلاد الشام، فالله أعلم(٤).

ولتقي الدين أبي اليسر قصيدة مشهورة في بغداد والواقعةِ التي حلت بها جاء فيها:

لسائل الدمع عن بغدادَ أخبارُ   فما وقوفُك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تَفِدوا   فما بذاك الحمى والدار دَيَّارُ
تاجُ الخلافة والربع الذي شَرُفت   به المعالمُ قد عافاه إقفارُ
أضحى لعصف البلا في ربعه أثر   وللدموع على الآثار آثار
يا نار قلبي من نار لحرب وغًى   شبت عليه ووافى الربعَ إعصارُ

---

(١) وظيفة يتولاها الشحنة، وهو صاحب الشرطة، أو متولي رئاسة الشرطة.

(٢) قلت: سبحان الله على إنصاف أهل السنة مع أعدائهم، فلم يمنع سوءُ فعلِ ابن العلقمي الحافظَ ابن كثير أن يذكر عنه ما فيه من خصال محمودة.

(٣) جهنم.

(٤) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٧/ ٣٥٦) بتصرف.

وكانت آخر خطبة خطبت في بغداد قال الخطيب في أولها: الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الإعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار.ا.هـ(١).

إن حادثة بغداد، واجتياح التتر لها، واجب على الأمة اليوم، وقد حل بها ما يشبهها من النوازل في العصر الحديث، أن تدرسها دراسة شرعية متأنية، بدلاً من النوح والبكاء على ما كان، فإن التاريخ عبرة لمن أراد الاعتبار، وما جرى إنما هو جراء ما اقترفت أيدي المسلمين من الانحراف الخلقي والانحراف العقدي، والذي فتح أبواب الفتن على الأمة من كل حدب وصوب، حتى اجتمعت عليها الفرق المنحرفة والجماعات الضالة، واستوزرت أعداءها، وأبعدت أبناءها، فَفَتحت الأبواب لكل من هبَّ ودبّ يفعل في بلاد الإسلام ما شاء.

والعرب الذين أُبعدوا عن الصدارة هم مادة الإسلام كما قال عمر بن الخطاب ﵁، به يقومون، وبه يكونون، فلما تعلقوا بغيره، أصبحوا على ما هم عليه في الماضي وفي الحاضر، فلا عرب بلا إسلام، ولا قيام للإسلام إلا بالعرب، وما إخوانهم من مسلمي السنة من العجم إلا عوناً لهم على قيام الملة، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان: «الناس تبع لقريش»(٢)، وفي رواية لأحمد: «الأئمة من قريش»(٣).

قال الإمام النووي رحمه الله: هذا الحديث وأشباهه دليل ظاهر على أن الخلافة مختصة بقريش، لا يجوز عقدُها لأحد غيرِهم، وعلى هذا انعقد الإجماع في زمن الصحابة، فكذلك من بعدهم. ا.هـ(٤).

---

(١) تاريخ الإسلام/ الذهبي (٤٨/ ٣٧).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٦٤٣/ح:٣٤٩٥)، ومسلم (١٢/ ١٦٨/ح:١٨١٨).
(٣) المسند (١٩/ ٣١٨ح:١٢٣٠٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط بمجموع طرقه.
(٤) النووي/ شرح مسلم (١٢/ ١٦٨).

البحرين

في عهد الخلافة العباسية في العراق

١٣٢هـ ـ ٦٥٦هـ

الفصل الثالث

الدول المستقلة

الدول المستقلة عن الخلافة العباسية

نشأت الدول المستقلة نتيجة لما وصلت إليه الخلافة من الضعف وآلت إليه الأمور من التنازع والفرقة، أصبحت الخلافة الإسلامية غير قادرة على السيطرة على كل ما تحت يدها من أراضي الدولة، فانفصلت عنها مجموعات مختلفة ومتباينة الاعتقاد مكونة دولاً في المشرق والمغرب، بعضها تبع الخلافة العباسية اسماً ولم يتبعها فعلاً، ولم تخرج على الدولة العباسية، بل كانت في أحيان كثيرة قوة تستعين بها الدولة العباسية على خصومها، ودولة لم تنفصل عن العباسيين منهجاً واعتقاداً، غير أنها انفصلت عن نظام الحكم العباسي تماماً، وهي دولة الأمويين في الأندلس، ودول انفصلت بالكلية عن الدولة العباسية، بل ونازعتها ونازلتها العداء، وهي الدول التي قامت على أساس عقدي؛ كدول الخوارج والشيعة، وكان هذا نتيجة لمسيرة التخطيط لأصحاب الفتن وأدعياء محبة آل البيت والمنافقين، وعوامل أخرى كثيرة وصلت بالدولة إلى ذلك التشرذم والتمزق؛ مما أطمع أعداءها من الصليبيين في اغتنام الفرصة والهجوم عليها، واحتلال مقدسات المسلمين في حملات منظمة سميت في التاريخ باسم الحملات الصليبية.

ولقد عرضنا هنا لبعض هذه الدول ـ وليس كلها ـ عرضاً موجزاً لبيان دورها الظاهر في عداء الإسلام باسم الإسلام، ولانخداع كثير من الناس بآثار هذه الدول، وبخاصة الدولة الفاطمية التي عاد دعاتها للظهور مرة أخرى في زماننا هذا، منتهزين فرصة الفوضى العلمية، وانشغال الناس في شهواتهم وجهلهم، **فبدؤوا يتصدرون في أجهزة الإعلام المختلفة، متزيين بزي العلماء؛ ليخدعوا الناس ويُلَبِّسوا عليهم دينهم بفتاوى تبيح لهم الشهوات المحرمة، وتشوه حقيقة الإسلام، والغمز واللمز في أعلام الأمة الأوائل، باسم الحرية وحق الرأي الآخر في التعبير، وكأن الإسلام مجموعة أفكار عقلية ووجهات نظر بشرية يمكن الأخذ والرد فيها، ولم يبالوا بها على أنها شريعة إلهية.**

لقد عاد الفاطميون الجدد مع فوضى ما يسمى بالربيع العربي، وأصبحوا شوكة في ظهر الأمة، وعلى العلماء والدعاة وطلبة العلم والوعاظ أن يحذروا الناس من خطرهم، وأن يفضحوا عقائدهم الباطلة، وأن يعرضوا عقائد الإسلام السمحة، وينشروها بين العامة والخاصة لتصحيح مسار الأمة، ولإقامة الحجة والبيان، ولرفع الجهل عن المجتمعات الإسلامية، فالعقيدة هي الأساس الذي تُبنى عليه الديانة، وتتميز بها الأمة، وتحيا بها عزيزة قوية.

وبعد أن عرضنا للدول المستقلة عن الخلافة العباسية، عرضنا للحملات الصليبية الحاقدة المتتابعة التي أتت على الأمة عرضاً موجزاً إكمالاً لبيان الدول المسيطرة على ديار الإسلام في ذلك الزمان، ثم ختمنا بدولة المماليك، والتي تحملت ـ بعد ذلك ـ أعباء الأمة الإسلامية لفترة طويلة من الزمان.

الدولة الأموية
في الأندلس (٩٢هـ - ٨٩٧هـ)

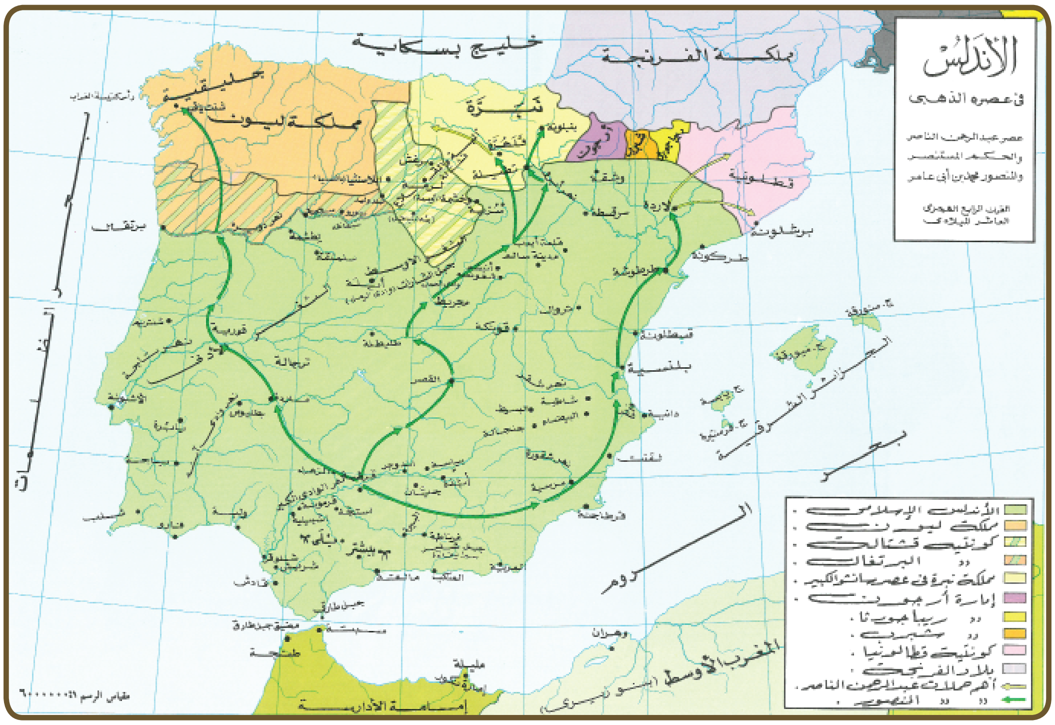
الأندلس
في عصره الذهبي
عصر عبد الرحمن الناصر
والحكم المستنصر
والمنصور محمد بن أبي عامر
القرن الرابع الهجري
العاشر الميلادي
خليج بسكاية
مملكة الفرنجة
جليقية
مملكة ليون
نبرة
قطلونية
برشلونة
بلنسية
الجزائر الشرقية
بحر الروم
المغرب الأوسط
إمارة الأدارسة
طنجة
سبتة
جبل طارق
البحر المحيط
🟩 الأندلس الإسلامي
🟧 مملكة ليون
▨ كونتية قشتالة
▨ ״ البرتغال
🟨 مملكة نبرة في عصر سانشو الكبير
🟪 إمارة أرجون
🟨 ״ ريباجورثا
🟧 ״ شبرب
▭ كونتية قطالونيا
▭ بلاد الفرنجة
← أهم حملات عبد الرحمن الناصر
← ״ ״ المنصور
مقياس الرسم ١ : ٦٠٠٠٠٠٠

تطلق الأندلس على ما يسمى بشبه جزيرة إيبيريا، وتشمل دولتي إسبانيا والبرتغال اليوم، فتحها المسلمون في (سنة ٩٢هـ) واستمروا بها ثمانية قرون في مسيرة طويلة من التاريخ عاشها المسلمون في ربوع تلك البلاد التي ضاعت منهم بسبب تفريطهم في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيهم ﷺ، بانحرافاتهم العقدية والأخلاقية دون أن يأخذوا العبرة من الأمم التي أزالها الله تعالى، فكانت سنة الله الماضية أن زالوا بعدما كانوا، وهانوا على الله تعالى كما هان عليهم دينهم.

ولقد مر تاريخ الأندلس بمراحل متعددة نذكرها بشكل موجز إتماماً للفائدة.

١. مرحلة الفتح الإسلامي للأندلس:

فُتحت الأندلس في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي السادس في (سنة ٩٢هـ)، وذلك بعد أن أرسل موسى بن نصير قائدَه طريفَ بن مالك[١] في رمضان (سنة ٩١هـ) لاستطلاع الأحوال في الأندلس، وقد هيأت رحلة طريف بن مالك الطريق للقائد المسلم طارق بن زياد، الذي أرسله موسى بن نصير على رأس جيش بلغ سبعة آلاف مقاتل لفتح الأندلس، وأمده موسى بن نصير بخمسة آلاف معظمُهم من الفرسان، فكانت موقعة وادي لكة، ويقال لها: شذونة؛ لأنها وقعت قريباً من مدينة شذونة، في الثامن والعشرين من رمضان (سنة ٩٢هـ)، واستمرت لثمانية أيام، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، ومقتل حاكمهم لذريق[٢]، وكانت معركة حاسمة فتحت الطريق إلى الأندلس التي استطاع طارق السيطرة على مدنها الكبرى، ثم تبعه موسى بن نصير إلى الأندلس بعد ذلك بعام في رمضان (سنة ٩٣هـ) في جيش بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً، وظلا يتقدمان في بلاد الأندلس حتى فتح الله على أيديهما أغلب بلادها.

ولم يبق بها إلا الشمال الغربي في جوليقية والتي كان موسى بن نصير مع طارق قد بدأا الفتوحات بها، غير أن رسول الخليفة الوليدِ بن عبد الملك وصل إلى موسى بن نصير ليخبره باستدعاء الخليفة له ولطارق بن زياد، فأوقف ذلك إتمام الفتح الكامل لها، فانحاز القوط إليها، فكانت بعد ذلك شوكة في ظهر المسلمين بالأندلس، ومركزاً للصليبيين حيث انطلقوا منها في حروب سجال مع المسلمين إلى أن استطاعوا السيطرة على الأندلس بعد ثمانية قرون عاش المسلمون فيها.

---

(١) طريف بن مالك المعافري أبو زرعة قائد عسكري أموي، ويعتبر أول قائد مسلم دخل إلى جزيرة إيبيريا، اُختلف في أصله، قيل إنه من البربر، وقيل إنه من العرب، وظاهر اسمه يدل على أنه عربي من النخعيين، وهم بطن مذحج، كان سبباً في فتح الأندلس حيث إنه نزل بموضع عرف بعد ذلك باسم – جزيرة طريف – فحقق بهذا نجاحاً شجع موسى بن نصير على فتح الأندلس.
لعب طريف بن مالك بعد ذلك دوراً كبيراً في الثورة والخروج على الخلافة الأموية حيث اعتنق مذهب الخوارج، وقاد قبائل المنطقة لثورة عارمة، لكن ثورته لم تنجح، غير أن الخوارج من البربر اختاروه أميراً عليهم على جميع بلدانهم إلى أن توفي (سنة ١٤٠هـ)، وتولى الإمارة من بعده ابنه صالح. المقري/ نفح الطيب (١/ ٢٥٤)، البيان المغرب (٢/ ١٠).

(٢) لذُريق: أو رودريك آخر ملوك إسبانيا من القوط، حكم جزءاً من شبه جزيرة إيبيريا، واجه المسلمين في موقعة وادي لكة (سنة ٩٢هـ) فهزم شر هزيمة، وقُتل في المعركة. الصفدي/ الوافي بالوفيات (٢٤/ ٣٠٢).

ولقد تعامل المسلمون مع سكان البلاد معاملة تقوم على أصول الشريعة في السماحة والرحمة، وعدم الإجبار والإكراه على دخول الإسلام، وتركوا لهم كنائسهم، وأبناءهم ونساءهم، ولقد علق وول ديورانت في كتابه «تاريخ الحضارة» على ذلك بقوله: لم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب.

وبعث موسى بشارة الفتح إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي خر ساجداً لله تعالى عندما بلغه الخبر.

ولقد كان هدف موسى بن نصير عبور جبال البرانس، والوصولَ إلى بلاد الفرنجة الغال – فرنسا– والتوجه شرقاً إلى القسطنطينية عاصمة دولة الروم الشرقية البيزنطية لفتحها، ثم الزحف على الأناضول للوصول إلى الخليفة في دمشق.

غير أن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي من هذه الحرب الطويلة أن تفتَّ عزمَ المسلمين، واكتفى بما تحقق من فتح في الأندلس، فاستدعى قائدَي الفتح موسى بنَ نصير، وطارق بن زياد إلى دمشق؛ مما أدى إلى توقف المسلمين عن الزحف نحو بقية أوروبا لتحقيق ذلك فترة من الزمان.

ورحم الله الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين الأموي الذي خشي هذه المغامرة، فلولا أقدار الله تعالى، ثم قراره هذا، لسارت الأمور على غير ما عليه اليوم في أوروبا والعالم، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

٢. مرحلة عصر الولاة:

بعد أن استقرت الأندلس في أيدي المسلمين، اتخذوا من أشبيليه مركزاً للحكم، وتولى عليها عبدُ العزيز بن موسى بن نصير في ذي الحجة (سنة ٩٥هـ)، استخلفه والده على البلاد عند ذهابه إلى الخليفة بدمشق، وقد حكم عبد العزيز الولاية لسنة وعشرة أشهر، واتخذ من أشبيليه قاعدة ومقراً لولايته، واستطاع أن ينظم أحوال البلاد الإدارية والعسكرية، وقام بإتمام الفتح للجيوب المتبقية في بعض المدن، وضبط سلطان المسلمين فيها، وقد قُتل غيلة على يد أحد الجنود لأسباب لا نعرفها، وشبهاتٍ لا نستطيع القطع بها، وبقيت الولاية من بعده بلا والٍ لعدة أشهر.

ثم تولى أيوب بن حبيب اللخمي ابنُ أخت موسى بن نصير(١)، وقد مكث والياً لستة أشهر.

ثم تولى من بعده الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي(٢) في (سنة ٩٧هـ)، وبقي والياً إلى سنة (١٠٠هـ)، فاستطاع تنظيم البلاد، وقيل: إنه قام بنقل عاصمتها من إشبيليه إلى قرطبة، وقيل: إن الذي نقلها هو الوالي الذي سبقه أيوب اللخمي، ويعتبر الحر هو أول من تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ـ فرنسا ـ فسبى وغنم، كما استطاع أن ينازل الصليبي القوطي بلاي الثائر في الشمال الغربي، وانتصر عليه، ثم عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز، وولى السمحَ بنَ مالك الخولاني.

حاول المسلمون بعد ذلك الزحف على بلاد الفرنجة فرنسا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ حيث انطلق الوالي السمحُ بن مالك الخولاني لتهيئة الأمر لذلك، فقام بمسح شامل لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها، وثرواتها الزراعية ومواردها المالية، وتوزيع السكان فيها بناء على أمر الخليفة، كما اهتم بإزالة الفتن والخلافات بين المسلمين، كما اهتم بالعمران، فشيد مسجداً جامعاً في سرقسطة، كما اعتنى بعمارة العاصمة قرطبة لتليق بمركز ولاية الأندلس.

وعمل على إصلاح الجيش وتنظيمه، ثم سار به إلى فرنسا، واستطاع أن يفتح إقليم سبتمانيا في جنوب فرنسا، ثم اتجه غرباً حتى وصل إلى طولوشه عاصمة أكتانيا، فدارت هناك رحى معركة تولوز، قُتل فيها الوالي السمحُ بن مالك الخولاني رحمه الله (سنة ١٠٢هـ)، والذي مازال اسمه يعرفه أهل تلك البلاد؛ حيث كتب اسمه على أحد أكبر شوارع مدينة أربونا في جنوب فرنسا، وكان لمقتله أثر على الجيش الذي انحاز عن طولوشه قاعدة أكتانيا، وعاد إلى الجنوب.

---

(١) أيوب بن حبيب اللخمي: ثالث الولاة الأمويين في الأندلس، خلف ابن عمته عبد العزيز بن موسى بن نصير، من أبرز القادة الذين شاركوا في فتح الأندلس، نصبه الجند أميراً عليهم (سنة ٩٧هـ) لصلاحه وتقواه ومكانته بعد مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير، قام ببناء القلعة الشهيرة التي سميت باسمه قلعة أيوب على ارتفاع شاهق في جنوب سرقسطة، كما قام بنقل قاعدة الأندلس من أشبيليه إلى قرطبة. البيان المغرب (٢/ ٣٢)، المقري/ نفح الطيب (٣/ ١٤).

(٢) الحر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب بن مالك بن حطيط الثقفي، جده عثمان بن عبد الله حامل لواء ثقيف يوم حنين، ويعد الحر بن عبد الرحمن أول عربي مسلم يعبر جبال البرانس (سنة ٩٩هـ)، وهو رابع ولاة الأندلس من قبل الدولة الأموية، عزله عمر بن عبد العزيز بعد أن أمضى نحو ثلاث سنين في الحكم. البيان المغرب (٢/ ٣٢، ٦٧).

تولى عبد الرحمن الغافقي ولاية الأندلس بعد السمح بن مالك لفترة قصيرة، ثم تولى عنبسة بن سحيم الكلبي⁽١⁾ إمارة الأندلس، والتي ظل على رأسها لأربع سنوات، فنظم أمورها، وواصل مع المسلمين حروبهم في فرنسا حتى وصل نهر الرون، وفتح مدن فلنس، وفيني، وليون، وشالون، ثم سيّر جيشاً كبيراً باتجاه ديجون، ولانجر، وسير جيشاً آخر باتجاه أوتون، حتى وصل إلى مدينة سنس، وهي أقصى نقطة وصل إليها المسلمون خارج الأندلس التي تصدت للزحف الإسلامي، فتوقف هناك؛ مما دفع عنبسة للتوقف عن القتال خشية أن يقطع عليه الاتصال بالأندلس وبالإمدادات، فقرر العودة، غير أنه واجه جموعاً كبيرة من جيوش الفرنجة في (سنة ١٠٧هـ)، وقُتل في المعركة التي دارت بينه وبينهم، وعاد جيشه إلى مدينة أربونا.

وبعد مقتل عنبسة تولى عذرةُ بن عبد الله الفهري⁽٢⁾ أحدُ قادته قيادةَ الجيش وأمورَ الولاية، واستطاع أن ينجو بجيش المسلمين بعد أن انسحب بهم إلى سبتمانيا، وتولى أمور الأندلس حتى مجيء الوالي الجديد يحيى بن سلمة الكلبي، والذي تولى من شوال (سنة ١٠٧هـ إلى آخر سنة ١٠٩هـ)، وأخذ في ترتيب الأمور لولاية الأندلس لعامين ونصف لم يغز فيها.

ثم تبعه عثمان بن أبي نسعة الخثعمي في (سنة ١١٠هـ)، واستمر والياً لخمسة أشهر، ثم عُزل من منصبه، ولم يذكر له أيُّ نوع من النشاط الجهادي في أرض فرنسا.

ثم تولى من بعده حذيفة بن الأحوص القيسي الأشجعي (سنة ١١٠هـ)، واستمر لستة أشهر والياً على الأندلس.

تولى بعد ذلك الهيثم بن عبيد الكلابي الكناني في محرم (سنة ١١١هـ)، وبقيت ولايته عشرة أشهر، بذل فيها جهداً في بث الأمن والسكينة في البلاد، وضبط ثغور وحصون

---

(١) عنبسة بن سحيم الكلبي: ولاه على الأندلس بشر بن صفوان الوالي على إفريقيا من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك في (سنة ١٠٣هـ) وظل والياً عليها إلى أن مات متأثراً بجراحه التي أصيب بها في أثناء معركته مع الفرنجة وقد توفي في شعبان (سنة ١٠٧هـ). كان تقياً ورعاً إدارياً وعسكرياً مجاهداً حريصاً أميناً على الدولة الإسلامية وأهلها. البيان المغرب (١/ ٧٨، ٢/ ٣٤، ٣٥)، محمد الحميدي/ جذوة المقتبس (ص:٤٦٧)، الذهبي/ تاريخ الإسلام (٣/ ١٣٤).

(٢) عذرة بن عبد الله الفهري: أحد قادة الأندلس العسكريين من الذين شاركوا عنبسة الكلبي في حملته على بلاد الفرنجة وتولى القيادة من بعده ونجح في الانحياز بالجيش إلى سبتمانيا، وتولى إمارة الأندلس حتى عين الخليفة الأموي هشامُ بن عبد الملك يحيى بنَ سلامة الكلبي والياً على الأندلس في شوال (سنة ١٠٧هـ) البيان المغرب (٢/ ٣٥)، المقَّرِي/ نفح الطيب (١/ ٢٩٩).

الشمال التي يليها القوط، واستطاع أن يغزو منوسة – مقوشة – إحدى البلاد التي تعد إحدى البوابات إلى فرنسا، واستطاع فتحها، وقد قيل: إن منوسة كان حاكماً بربرياً خان المسلمين، وأراد الاستقلال، وإن الهيثم حاربه وانتصر عليه، وهذا كله من الروايات الأوروبية الكنسية الحاقدة التي توسعت في تفصيلات وأوهام لا أساس لها من الصحة، وإنما منوسة هي منطقة من مناطق الفتح.

تولى بعد الهيثم محمدُ بن عبد الله الأشجعي (سنة ١١١هـ) لمدة شهرين، وقد أسهم تتابع الولاة وقصرُ مدتهم في تحقيق إيجابيات أقل بكثير من السلبيات الواسعة التي أدت إلى اضطراب البلاد وتجميد حركة الغزو والفتح إلى أن تولى عبدُ الرحمن الغافقي ولايته الثانية في صفر (سنة ١١٢هـ)، واستمرت لسنتين وثمانية أشهر حتى قُتل في رمضان (سنة ١١٤هـ) على أثر موقعة بلاط الشهداء.

تولى عبد الرحمن الغافقي الولاية الثانية في الأندلس في صفر (سنة ١١٢هـ)، واستطاع أن يضبط الولاية ضبطاً واسعاً، وأن ينظم الجيش، ويعيد أمجاد المسلمين بعودة الجهاد ونشاط الفتح الإسلامي؛ حيث استطاع أن يعد جيشاً كبيراً لمواجهة الفرنجة بقيادة شارل مارتل(١)، وفتح لذلك باب التطوع للجنود من كل مكان حتى بلغ جيشه نحو سبعين إلى مئة ألف مقاتل اتجه بهم نحو فرنسا بعد أن عبر جبال البرانس، واستطاع أن يعيد مدينة أرل التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم توجه إلى أكتانيا، فحقق نصراً حاسماً، واستمر في زحفه إلى مدينة بواتيه، فاستغاث قائد الفرنجة هناك الدوق أودو بشارل مارتل، الذي عمل على إيقاف مد المسلمين بكل قوة، ووضع لذلك خطة، وجمع وجهاء القوم وناقشهم في الأمر، وقرروا مواجهةَ المسلمين ووقْفَ زحفهم على فرنسا.

كان أغلب جيش المسلمين من البربر، وكانوا أقل عدداً من جيش الفرنجة الأخبر بمسالك وطرق البلاد، والأقربِ إلى مصدر التموين والإمداد.

---

(١) شارل مارتل أو قارله كما كان يسميه العرب، قائد عسكري فرنسي، وكان الحاكم الفعلي لإمبراطورية الفرنجة برغم أنه كان يعمل ناظراً للقصر – رئيس البلاط – في عهد كولتيل الرابع وفيودريك الرابع ملك فرنسا، انتصر على المسلمين في معركة بلاط الشهداء. المقري – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. الموسوعة الحرة.

دارت رحى المعركة بالقرب من مدينتي تور وبواتيه في نهايات شهر شعبان، واستمرت إلى شهر رمضان (سنة ١١٤هـ) في مكان عرف بعد ذلك باسم: بَلاط الشهداء، وسميت المعركة به، واستمرت المعركة لمدة عشرة أيام، صبر المسلمون فيها، إلا أنه قد أصاب قائدَهم عبدَ الرحمن الغافقي سهم أودى بحياته؛ مما أدى إلى اضطراب الجيش، فلما حل المساء، وأوقف القتال، انحاز جيش المسلمين إلى الجنوب، وتركوا خلفهم خيامهم ليخدعوا الفرنجة بأنهم باقون فيها، فلما أصبح الفرنجة واقتربوا من الخيام، ظنوا أنها خدعة، وشيئاً فشيئاً اكتشفوا أن المسلمين قد تركوا المكان ورجعوا للجنوب بعد أن كانوا على بعد كيلو مترات معدودة من باريس.

ولقد علق المؤرخون الأوربيون على تلك المعركة بقولهم: لو انتصر العرب في تور بواتيه لتُلي القرآن وفُسِّر في أكسفورد وكامبردج.

ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ليبقى أحفاد شارل مارتل معنا في صراع إلى أن يشاء الله تعالى ليوم يفصل بيننا فيه.

رحم الله عبد الرحمن الغافقي التابعيَّ الجليل صاحبَ الصلاح والسيرة الحسنة والعدل والإقدام على الجهاد في سبيل الله.

تولى عبد الملك بن قطن الفهريُّ ولاية الأندلس بعد عبد الرحمن الغافقي، وبقي فيها لمدة سنتين، وقد عمل على ضبط المناطق الشمالية في الأندلس، غير أنه كان فيه جور وبعد عن العدل والإنصاف، فعزل عن الولاية في رمضان (سنة ١١٦هـ)، ولقد ذكر الـمَقَّري أنه عزل عنها ذمياً في شهر رمضان بسبب أنه كان ظلوماً في سيرته، جائراً في حكومته، حيث عزله عبيد الله بن الحبحاب الوالي الأموي على إفريقيا، والذي كانت تتبعه ولاية الأندلس.

تولى من بعده عقبة بن الحجاج السلولي، وكان رجلاً اشتهر بالصلاح والتقوى والإقبال على الجهاد بشجاعة وعزيمة، كما اشتهر بحسن السيرة والعدل؛ مما جعله مستمراً على ولاية الأندلس لخمس سنوات، بذل منها أكثر وقته في الجهاد في مناطق مختلفة، وخاصة المقاطعات الفرنسية في الجنوب والشمال الشرقي.

استطاع عقبة بن الحجاج أن يعيد نشاط الفتوحات في مقاطعة البروفانس شمال سبتمانية على وادي نهر رودنة ـ الرون ـ كما توجه إلى شمال مقاطعة البروفانس إلى مقاطعة بورغندية حتى قضى نحبه رحمه الله في واحدة من هذه المعارك عند مدينة قرقشونه بسبتمانية في (سنة ١٢٣ هـ) رحمه الله رحمة واسعة؛ وكان من فضائله إذا أسر أسيراً لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام، مبيناً له فضائلَ الإسلام، فأسلم على يديه ألفُ رجل.

قال المَقَّري في نفح الطيب عن عقبة: أقام بالأندلس خمس سنين محمودَ السيرة، مثابراً على الجهاد، فاتحاً للبلاد، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونه، وصار رباطهم على نهر رودنة(١).

ويعتبر عقبة هو خاتمة الولاة الذين قاموا بالجهاد في جنوب فرنسا فيما يسمى بوراء البورت، ثم تبعه ولاة انشغلوا بعد ذلك بأحداث عدة، منها: الخصومات فيما بينهم، في الوقت الذي كانت الدولة الأموية تُحتضَر بالشام والمشرق.

ولقد تولى من بعده عبد الملك بن قطن الفهري ولاية ثانية لسنة واحدة وشهر واحد بعد أن اضطر ابن الحبحاب أن يعينه والياً على الأندلس؛ للظروف التي كانت تمر بها الدولة الأموية.

وتزامن مع ولاية عقبة الثانية ثورةٌ عارمة قام بها البربر في المغرب على ولاة الدولة الأموية، مما اضطر الخليفة هشامَ بنَ عبد الملك أن يرسل جيشاً من جند الشام لمواجهة البربر مواجهة عنيفة، فانهزم جيش الأمويين، وطارده البربر حتى نزل الجيش الأموي بسبتة القريبة من الأندلس، فحاصرهم البربر فيها، مما اضطر بلج بن بشر القشيري قائد الجيش الأموي المحاصر أن يطلب من عبد الملك بن قطن الفهري السماح له للعبور إلى الأندلس بمن بقي معه من الجيش، فلم يأذن عبد الملك خشيةً على ولايته وسلطانه، لكنه لما شعر بخطر البربر وتحركاتهم في شمال الأندلس سمح للمحاصرين في سبتة بالمجيء إلى الأندلس، وأرسل إليهم سفناً تقلهم إلى هناك.

---

(١) المقري/ نفح الطيب (١/ ٢٣٦).

فلما وصلوا إليه، تحالف معهم على قتال جيش البربر قرب طليطلة، واستطاعوا هزيمة البربر، وبعد أن تحقق لعبد الملك النصر، ماطل الجيش الأموي في توفير السفن التي تحملهم إلى إفريقيا، فثاروا عليه، وخلعوه وبايعوا قائدَهم بلجَ بنَ بشر أميراً على الأندلس، وقتلوا عبد الملك بن قطن الفهري.

تولى بلجُ بن بشر بن عياض القشيري ولاية الأندلس في أوائل (سنة ١٢٤هـ)، وبقي في ولايته أقل من عام، ووقع في زمانه صراعات أدت إلى الثورة عليه من عرب الأندلس، فرد عليهم بلجٌ مع جند الشام بقتال ساحق قرب سرقسطة، غير أن بلجاً برغم انتصاره أصيب إصابة بالغة توفي على أثرها بعد يومين، وتولى من بعده ثعلبة بن سلامة العاملي في أواخر (سنة ١٢٤هـ)، وبقي في الحكم عشرة أشهر، وكان أحد قادة الجيش الشامي الذي أتى إلى الأندلس مع بلج، وكان قبل ذلك والياً على البلقاء للخليفة هشام بن عبد الملك.

بدأ ثعلبة ولايته بالتوجه إلى ماردة معقلِ الثوار المتمردين من العرب والبربر، واستطاع في نهاية الصراع بينه وبينهم أن يقتل عدداً كبيراً منهم، وأن يأسر نحو عشرة آلاف من النساء والأطفال، واعتبرهم سبياً، وباعهم كعبيد، مستناً بذلك سُنّةً لم يستنها أحد في تاريخ الإسلام؛ مما دفع أهل الأندلس للاستنجاد بوالي إفريقيا الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي، فأرسل لهم والياً عليهم هو أبو الخطار حسامُ بنُ ضرار الكلبي الذي تولى الولاية في شهر رجب (سنة ١٢٥هـ)، وبقي والياً على الأندلس لثلاث سنوات.

استطاع أبو الخطار توزيعَ جيش الشام بنواحٍ مختلفة في الأندلس، غير أنه لم يستطع وقف الصراعات القبلية بين العرب اليمانية، والعرب المضرية، فانتهى الأمر بالتآمر عليه وخلعه، وتوليةِ ثوابةَ بن سلامة الجذامي والياً على الأندلس، والذي قام بسجن أبي الخطار الكلبي، وبقي في الحكم نحو سنة استطاع خلالها أن يضبط الأندلس بقدر ما استطاع، غير أنه أدركته المنية، وتوفي في المحرم (سنة ١٢٩هـ). ثم عادت البلاد إلى الاضطراب مرة أخرى بعد وفاة ثوابة، وظلت الأندلس لأربعة أشهر دون والٍ عليها، غير أن أهل الأندلس أقاموا عليهم عبدَ الرحمن بن كثير اللخمي والياً مؤقتاً لحين تولية والٍ جديد عليهم.

ثم قام أهل الأندلس بتولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً عليهم في (سنة ١٢٩هـ)، وظلت ولايته لأكثر من تسع سنوات، ويعتبر يوسف بن عبد الرحمن آخر ولاة الأندلس قبل عهد الإمارة، وقد عاصر نهايات الخلافة الأموية، وقيام الخلافة العباسية.

انحدر يوسف بن عبد الرحمن الفهري من بيت له مكانته في الجهاد الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، فجدُّه عقبةُ بن نافع صاحبُ إفريقيا.

حدث في زمانه اضطرابات واسعة، وتعدى النصارى من القوط في الشمال على بعض مناطق المسلمين، واضطربت الولاية بسبب الصراعات القبلية في الأندلس، والتي لم تحسَم إلا بقدر الله تعالى عند وصول عبد الرحمن الداخل (سنة ١٣٨هـ) ليبدأ عهد الإمارة، وليبقى الأندلس للمسلمين وبيد الأمويين لفترة زمنية طويلة، فصدق فيه لقبه صقر قريش الذي لقبه به أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني رحمه الله، لتطوى بذلك صفحة من تاريخ الإسلام في الأندلس، وتبدأ صفحة جديدة هي عصر الإمارة الأموية في الأندلس.

٣. مرحلة عصر الإمارة الأموية في الأندلس:

بدأ عصر الإمارة في الأندلس بعد زوال الخلافة الأموية في دمشق الشام والعالم الإسلامي، وذلك بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم الملقب بصقر قريش، وأيضاً بعبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وتوليه إمرة البلاد، والسيطرة على مقاليد الحكم هناك، وبويع أميراً على الأندلس، وبه ابتدأ عصر الإمارة فيها، وأصبحت إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية.

وقد لقب بعبد الرحمن الداخل؛ لأنه أولُ من دخل الأندلس من بني أمية حاكماً، وسمي عصره بعصر الإمارة؛ لأنه كان يسمى أميراً، ومن تلاه من حكام الأندلس نحوَ أقل من قرنين من الزمان، أي: إلى (سنة ٣١٦هـ)، ولقب بعبد الرحمن الأول؛ تمييزاً له عن غيره من حكام الأندلس الذين حملوا نفس الاسم؛ كعبد الرحمن الثاني الأوسط، والذي حكم في الفترة من (سنة ٢٠٦هـ إلى سنة ٢٣٨هـ)، وعبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله، والذي أعلن نفسه أول خليفة على الأندلس، وحكم إلى (سنة ٣٥٠هـ).

ولقب بصقر قريش، لقبه به أبو جعفر المنصور الخليفةُ العباسي الثاني إعجاباً به؛ لبراعته ووصوله إلى الأندلس بعد أن فر من العباسيين(١).

ويعتبر عصر الإمارة من أبرز العصور التي شهدتها الأندلس؛ إذ أنه قد استقرت كولاية مستقلة قائمة بذاتها استطاعت أن تواجه أعداء الإسلام في مواطن عدة، وخاصة من الأرودمانيين والفايكينج والدنماركيين والسويديين والنرويجيين وشمال فرنسا(٢) والذين كان يطلق عليهم المجوس، وأيضاً النورمان الذين كانوا يسكنون شمال فرنسا، والذين هاجموا الأندلس عدة مرات عن طريق البحر، واستطاع المسلمون أن يكسروهم ويردوهم في عصر الإمارة، والعصرِ الذي تلاه عصرِ الخلافة.

كما واجه عصر الإمارة صدَّ هجوم الأعداء من جهة الشمال، ودحر المعتدي حتى استقرت الأندلس في أيدي أمرائها، كما كان لهم نشاط عسكري بلغ إلى بريطانيا، وهي الجزر البريطانية التي تعرف اليوم بالمملكة المتحدة، وثُبِّت حكم الإسلام في أركان الدولة، وخاصة في عهد أميرها الأول عبد الرحمن الداخل، وبدأت تظهر سمات الدولة، ووجد منصب الوزارة والحجابة، والتنظيمات العسكرية البرية والبحرية، والاعتناء بالثغور والأساطيل البحرية، كما اشتهر في عهدها قادة عظام حافظوا على سلامة الدولة.

كما تميز عصر الإمارة باتساع نطاق التعليم ونشر العلم، وزاد الاهتمام بالتأليف والكتابة في العلوم الشرعية والكونية، كما أقيمت المكتبات في كافة أنحاء الأندلس، وخاصة في قرطبة التي كانت تحتوي على مكتبات عدة، بينما كانت أوروبا لديها مكتبة واحدة هي مكتبة البابوية في الفاتيكان، ولم يقتصر التعليم على الذكور، بل شمل الجنسين بضوابطه الشرعية، حتى غدت مدن الأندلس أحد أهم مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي، ووفد إليها طلاب العلم من كل مكان، وخاصة من أوروبا؛ لينهلوا من معارف وعلوم المسلمين؛ مما كان له الأثر الكبير بعد ذلك على حضارة أوروبا والعالم الحديثة والمعاصرة.

---

(١) قال ابن حيان القرطبي عنه: كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ولا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مفوهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان يلبس البياض، ويعتم به ويؤثره، وكان قد أعطي هيبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز ويصلي عليها، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم. المقَّري/ نفح الطيب (٣/ ٤٩).

(٢) هذا يبين لنا مدى عداء هذه الشعوب للإسلام والمسلمين منذ القدم، وأن اعتداءاتهم اليوم على الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ إنما هي أحقاد دفينة في قلوب سوداء لا تحمل إلا كل العداء للإسلام والمسلمين.

كما اهتمت الإمارة الأندلسية بالعمران على أسس علمية هندسية وفنية في غاية الدقة والإتقان، كما اهتمت بالمنشآت العامة، ورصف الطرق بالأحجار الضخمة التي ما زال بعضها باقياً في مدن إسبانيا، وكان هذا التطور تطوراً عاماً شمل معظم المدن بالأندلس.

كما أن عهد الإمارة اهتم بالحصون وإعادة ترميمها، وإنشاء حصون جديدة، ودور لصناعة السفن، ومرافق عامة، ومساجد، ومتنزهات ما زال بعضها قائماً شاهداً على ذلك التاريخ.

ولعل من أعظم العمارة الإسلامية التي بقيت شاهداً على ذلك: مسجدَ قرطبة الكبير الجامع، والذي بدأ بناءه عبدُ الرحمن الداخل في (سنة ١٧٠هـ)، ثم اهتمت به الدولة بعد ذلك بتوسعته وإتمام بنائه.

كما ظهر في عهد الإمارة العملةُ الإسلامية؛ حيث أنشأ عبد الرحمن الداخل في قرطبة داراً لسك العملة.

وقعت كل هذه المظاهر في عصر عبد الرحمن الداخل ومَنْ تلاه بعد وفاته من الأمراء، وهم على التوالي:

هشام الأول ثاني أمراء الأندلس من الأمويين، حكم بعد وفاة عبد الرحمن الداخل في (سنة ١٧٢هـ)، وبقي إلى (سنة ١٨٠هـ).

الحَكَم الأول ثالثُ أمراء الأندلس من الأمويين، تولى من (سنة ١٨٠هـ إلى سنة ٢٠٦هـ).

عبد الرحمن الثاني - الأوسط - رابعُ أمراء الأندلس من الأمويين، تولى من (سنة ٢٠٦هـ إلى سنة ٢٣٨هـ).

محمد الأول خامسُ أمراء الأندلس من الأمويين، تولى من (سنة ٢٣٨هـ إلى سنة ٢٧٣هـ).

المنذر سادسُ أمراء الأندلس من الأمويين، تولى من (سنة ٢٧٣هـ إلى سنة ٢٧٥هـ).

عبد الله سابعُ أمراء الأندلس من الأمويين، تولى من (سنة ٢٧٥هـ إلى سنة ٣٠٠هـ).

٤. مرحلة إعلان الخلافة في الأندلس:

وهي المرحلة التي ابتدأت بعصر عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، والذي استطاع أن يُخضع البلاد، وأن يقضي على التدهور الذي حل بها مع نهايات عصر الإمارة، ولقد كان الناصر أميراً حازماً عاقلاً ذكياً عادلاً شجاعاً، محباً للإصلاح، استطاع أن يقضي على الثورات، وأن يخضع البلاد، وأن يقود الجيوش بنفسه، أحبه الناس وأخلصوا له، واستطاع أن يعيد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها.

وعندما أعلنت الدولةُ العبيدية الفاطمية المنحرفة الخلافةَ في القاهرة وشمال إفريقيا بسبب ضعف الخلافة العباسية في بغداد، أراد عبد الرحمن الثالث الناصر أن يظهر السلطان الأندلسي بمظهر القوة رداً على هذه الخلافة الفاطمية، ونصرةً لأهل السنة والجماعة، فأعلن قيام الخلافة في الأندلس، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وأصدر أمراً بذلك في ذي الحجة (سنة ٣١٦هـ).

ويعتبر عصر الخلافة من أهم عصور الأندلس التي شهدت تطوراً علمياً عظيماً، وتقدماً ملموساً في نواحي الحياة المختلفة، فلقد أقامت مشاريع عمرانية راقية، وتم في زمانهم توسعة مسجد قرطبة الجامع الكبير، وأنشؤوا عدةَ مدن، وحصوناً منيعة، كما رُصفت الطرق في زمانهم لأميال كثيرة، وأضيئت بالمصابيح العامة، وأنشئت بها الحدائق المزهرة، وخاصة في قرطبة، كما أنهم أنشؤوا مشروعاً يجلب المياه إلى قرطبة وغيرها من المناطق المختلفة عن طريق أنابيب الرصاص المحفوظة داخل قنوات حجرية متقنة.

كما اهتمت بالحياة العلمية أيما اهتمام، فقامت بإنشاء الجامعات ومجالس العلم والمكتبات العامة، بل إن الخليفة الثاني الحَكَم الثاني المستنصر بالله بن الناصر كان أحد العلماء الكبار بالأندلس، فقد أثراها بالكتب المتنوعة من العلوم الشرعية والكونية، وبذل في ذلك أموالاً كثيرة، حتى أصبحت قرطبة مهوى أفئدة طلبة العلم والمعرفة من كل مكان، وقصدها عدد من علماء المشارقة، وطلبةُ العلم من أوروبا الذين وجدوا فيها حسن المقام والوفادة والتقدير والعون، ولقد كانت مكتبة الحكم تضم نحو أربع مئة ألف مجلد، مما أدى إلى منافسة الناس في الاهتمام بإنشاء المكتبات الخاصة في بيوتهم، حتى غدت جزءاً من البيت الأندلسي يتباهى بها الناس.

وتمتعت الأندلس خلال عصر الخلافة بالقوة العسكرية التي وقفت سداً منيعاً لهجوم عُبّاد الصليب من كل الجهات، كما ازدهرت الحياة الاقتصادية بها، فلقد نمت الزراعة والتجارة والصناعة، وخاصة صناعة الورق التي تفوقت فيها على غيرها من مدن العالم.

قال الـمَقَّري في نفح الطيب في وصف الأندلس عن ابن سعيد الأندلسي: وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة، لا تكاد تنقطع من العمارة مابين قرًى ومياهٍ ومزارع(١).

ولا شك أن ذلك كله تم من خلال تطور إداري متقَن للبلاد، استطاع من خلاله الحاكم توجيه دفة الأمور في الدولة.

ولقد تولى في ذلك العهد الخليفةُ الأول عبد الرحمن الناصر، والذي بقي في الحكم نصف قرن من الزمان، بقي ستة عشر عاماً منها أميراً من (سنة ٣٠٠هـ إلى ٣١٦هـ)، ثم أعلن الخلافة (سنة ٣١٦هـ) وتوفي رحمه الله (سنة ٣٥٠هـ).

ومن عجائب ما يروى عن الناصر رحمه الله: أنه وجد بخط يده أن أيام السرور التي صَفَتْ له دون تكدير قد دونها بيوم كذا من شهر كذا من سنة كذا وهكذا، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً.

فتأمل كم هي أعباء الحاكم المخلص لله تعالى، وكم هي الساعات والأيام التي تمر عليه وهو يتابع فيها أحوال دولته، ولا يكون ذلك لأحد من الحكام إلا لمن خشيَ الله تعالى واتقاه.

تولى من بعده ابنُه الحكَم الثاني المستنصرُ بالله بن الناصر، والذي بقي في الحكم من (سنة ٣٥٠هـ إلى سنة ٣٦٦هـ)، واستمر في حكمه على سيرة أبيه في تأمين الأندلس ضد نصارى القوط، فلقد قاد جيشاً بنفسه لتأديبهم عندما هاجموا شمال الأندلس، واستطاع أن يردهم.

كما قام بإتمام المشاريع التي بدأها أبوه، وأنشأ أخرى، ولقد كان الحكَم محباً للعلم؛ مما أدى إلى الازدهار العلمي بالأندلس في زمانه كما أسلفنا.

---

(١) الـمَقَّري/ نفح الطيب (١/ ٢٠٥).

وبعد وفاة الحَكَم تولى ابنه هشام المؤيدُ بالله، والذي بلغ من العمر إحدى عشرة سنة، ولصغر سنه تبدلت الأحوال في الأندلس، وأخذت الأمور مجرًى آخر، وحاول بعض رجال الدولة توليةَ غيره، لكنه بقي في الحكم صورة، وكان الحاكم الفعلي هو محمد بن أبي عامر المعروف بالحاجب المنصور، والذي كان حاجباً للخليفة هشام المؤيد بالله، وقد حكم المنصور باسم هشام، وانفرد بالسلطة ليُنشأ في تاريخ الأندلس ما سمي بالدولة العامرية، أو عهد الوزراء.

ولما توفي المنصور في السابع والعشرين من رمضان (سنة ٣٩٢هـ) تولى من بعده ابنه عبد الملك المظفر مكانه حاجباً للخليفة هشام إلى (سنة ٣٩٩هـ)، وقام بتسيير أمور الدولة فعلياً، وقد توفي عبد الملك في السابع عشر من صفر (سنة ٣٩٩هـ)، فخلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول حاجباً للخليفة هشام المؤيد بالله، ولم يبق لأكثر من خمسة أشهر، حيث قُتل على أثر اضطرابات وخلافات في رجب (سنة ٣٩٩هـ)، وبمقتله انتهى هذا العصر.

وقد اعتبر المؤرخون أن العامريين كانوا امتداداً طبيعياً لعصر الخلافة؛ لأنهم كانوا يحكمون باسمها، ويحتمون بظلها، وكانوا يعتبرون وزراءها.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الخلافة بالأندلس انتهت بموت الحكَم المستنصر، وأن مرحلة الدولة العامرية هي مرحلة سيطرة الوزراء، والتي امتدت من (سنة ٣٦٦هـ إلى سنة ٣٩٩هـ).

مسجد قرطبة

٥. مرحلة عصر الطوائف:

تردَّت الأحوال في الأندلس تردياً مزرياً، وأصبحت من (سنة ٣٩٩هـ إلى سنة ٤٢٢هـ) في حالة من الفوضى ضاعت معها هيبةُ الخلافة، إذ أن الخلفاء قد تعددوا على الدولة، وانصرفوا إلى مالا يعينهم على استقرار الحكم، فعادت في هذه الفترة العنصريةُ المقيتة بشكل كبير، فانقسمت البلاد، وأطمعَ ذلك نصارى أوروبا والقوطَ في شمال الأندلس للنيل من الأندلس.

وفي (سنة ٤٢٢هـ) توفي الخليفة المؤيد بالله، وكان هذا آخر عهد الأمويين بحكم الأندلس، فلقد أعلن الوزير أبو محمد بنُ جَهْوَر انتهاء الخلافة؛ لعدم وجود من يقوم بأمرها، وأن الحكْم سيكون بيد جماعة من الوزراء يديرون البلاد يرأسهم ابنُ جهور، وضمت هذه الحكومة عدة مدن استطاع ابن جهور نشرَ الأمن والطمأنينة فيها لسنوات كثيرة، إلا أنها في النهاية اختفت وانتهت؛ حيث إنها لم تستمر لفترة طويلة؛ مما أدى إلى انقسام البلاد إلى دويلات وإمارات صغيرة مستقلة، أعلن كلُّ حاكم فيها نفسه ملكاً عليها، وهانت على معظمهم مصالحُ الدين والأمة من أجل مصالحهم الذاتية، ودخلوا في صراعات فيما بينهم، وكان أسوأ ما وقع هو استعانُة بعضهم بخصومهم من نصارى الشمال على بعض؛ مما أتاح الفرصة لخصومهم للحصول على امتيازاتٍ ومواقعَ وحصونٍ جديدة ازدادت بها رقعة ولاياتهم النصرانية في الشمال، وباع الأمراء جزءاً من بلادهم لعدوهم المتربص بهم ثمناً لبقائهم في السلطة، وانتقاماً من خصومهم من المسلمين، وانحرفوا عن النهج القويم الذي قامت عليه دولة الإسلام.

استمر عصر ملوك الطوائف من (سنة ٤٢٢هـ إلى سنة ٤٨٣هـ)، ولقد حكم في هذه الفترة نحو عشرين أسرة مستقلة، من أشهرها: بنو النون بطليطلة الذين كانوا أقوى ملوك الطوائف، وبنو عبّاد في إشبيلية، وبنو حمود الأدارسة بمالقة والجزيرة، وبنو زيري بغرناطة، وبنو هود بسرقسطة.

ولقد أصاب الأندلسَ بفعلهم هذا بلاء عظيم؛ إذ أن بعض المدن سقطت في أيدي نصارى

الشَّمال الذين كانوا يوسِّعون رقعة ولاياتهم على حساب الأندلس الإسلامية، وكان من أشهر المدن التي سقطت: طليطلة، ومن المؤسف أنه لم يتحرك أحد من ملوك الطوائف لنجدتها، وكأن الأمر لا يخصهم، ونَسُوا أن عدوهم واحد، وأن تفرقهم سيؤدي في النهاية إلى الانقضاض عليهم جميعاً، ولم يأتمروا بوصية الله فيهم: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولم يقم منهم سوى عمر بن محمد بن الأفطس حاكمِ بطليوس للدفاع عن طليطلة، ولكن فعله قد ينقذه عند الله سبحانه وتعالى، غير أن الأمر كانَ أكبر من حجم تدخله لإنقاذ طليطلة.

ولما سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس، ارتكب فيها الآثام، وفعل بأهلها الأفاعيل، برغم أنه أعطى أهلها الأمان، لكنه نقض العهود، وحول مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسة، وحطم محراب المسجد، وأقام هيكل الكنيسة مكانه، برغم أنه قد وقَّع عهداً من شروطه أن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع.

وقد أعطى سقوط طليطلة لألفونسو الثقةَ بنفسه، والشعورَ بأنه أصبح سيد الأندلس، حتى تسمى بإمبراطور الملتين الإسلامية والنصرانية، وارتفعت مكانته بين ملوك أوروبا، وبدأ يسعى للسيطرة على الأندلس.

أدى ذلك إلى الدعوة من كبراء المسلمين ووجهائهم إلى توحيد المسلمين وجمع شملهم، وكان أشهر من دعا إلى ذلك: القاضي أبو الوليد الباجي، والحاكمُ عمر المتوكل حاكمُ بطليوس.

كما سبقهم إلى هذه الدعوة من قبل سقوط طليطلة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور(١)، الذي اضطر لإنشاء حكومة قرطبة كما أسلفنا، وكذلك ابنُ حزم الأندلسي(٢) العالمُ الفقيه

---

(١) جهور بن محمد بن جهور: أبو الحزم القرطبي الوزير من بيت رئاسة ووزارة، ومن دهاة الرجال وعقلائهم، دبر أمر قرطبة واستولى عليها، وكان على طريقة الرؤساء الصالحين، فاستمر أمر الناس معه مستقيماً إلى أن توفي (سنة ٤٣٥هـ). الذهبي/ السير (١٧/ ١٣٩).

(٢) ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان الأندلسي القرطبي الفقيه الظاهري صاحب التصانيف، ولد بقرطبة (سنة ٣٨٤)، له مؤلفات عدة من أشهرها كتاب المحلى.

قال عنه عز الدين بن عبد السلام: كان أحد المجتهدين، ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى لابن حزم، وكتاب المغني للشيخ موفق الدين.

قال الذهبي: لقد صدق الشيخ عز الدين، وثالثهما: السنن الكبرى للبيهقي، ورابعهما: التمهيد لابن عبد البر، وله أيضاً كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال ١٥ ألف ورقة، وله رسائل عديدة في فنون الشريعة.

توفي (سنة ٤٥٦هـ) عن إحدى وسبعين سنة وشهور. الذهبي/ سير الأعلام (١٨/ ١٨٤).

الظاهريّ، وابن حَيان(١)، وابن العسال(٢) الشاعرُ الطليطلي، وأبو إسحاق الإلبيري(٣) شاعر الحكمة الغرناطي صاحبُ المنظومة الشهيرة، وكذلك أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، وابنه أبو محمد عبد الله، وغيرهم من العلماء والأدباء والشعراء الأجلاء.

لقد كان سقوط طليطلة نذيرَ خطر للجميع؛ إذ أنها لم تسقط وحدها، بل سقط معها كما ذكر المؤرخون ثمانون منبراً بين مدينة وقرية، وكان لسقوطها وقع أليم على نفوس المسلمين في العالم الإسلامي لما بلغهم خبر ذلك، ولقد نُظمت في سقوطها قصائد شعرية عديدة ، منها: ما ذكره الـمَقَّري في «نفح الطيب» لشاعر مجهول يقول:

لثُكْلِك كيف تبتسمُ الثغورُ   سروراً بعدما سُبيت ثغورُ
لقد قُصِمت ظهورٌ حين قالوا   أميرُ الكافرين له ظهور
طليطلةٌ أباح الكفرُ منها   حِماها إنَّ ذا نبأ كبير
مساجدُها كنائسُ أيُّ قلب   على هذا يقرُّ ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزناً   يكررِ ما تكررت الدهورُ
يطول عليَّ لَيلي رُبَّ خطبٍ   يطولُ لهوله الليلُ القصير

وقيل:

وقيلَ تجمَّعوا لفراق شمل   طليطلةٌ تملَّكها الكَفورُ
ولا تجنحْ إلى سلم وحاربْ   عسى أن يُجبر العظمُ الكسيرُ
ونرجو أن يتيح الله نصراً   عليهم إنه نِعْمَ النصيرُ(٤)

---

(١) ابن حيان: حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموي مولاهم القرطبي الإخباري الأديب، ولد (سنة ٣٧٧هـ)، له تصانيف عدة منها: المقتبس في تاريخ الأندلس، وكتاب المبين في تاريخ الأندلس في ٦٠ مجلداً. قال الغساني: كان بارعاً في الآداب، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه. توفي (سنة ٤٦٩هـ) الذهبي/ السير (١٨/ ٣٧٠).

(٢) ابن العسال: أبو محمد عبد الله بن العسال الطليطلي فقيه زاهد، ولد بطليطلة، عمل بالشعر وله قصيدة في رثاء طليطلة كتبها عند سقوطها (سنة ٤٥٦هـ). شكيب أرسلان/ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (٢/ ٣٢)، محمد الأمين المؤدب/ معالم وعوالم (ص: ٨٠).

(٣) الإلبيري: إبراهيم بن مسعود بن سعيد، أبو إسحاق التُّجيبي الإلبيري، شاعر أندلسي، اشتهر بغرناطة، له ديوان مطبوع في الحكم والمواعظ، توفي (سنة ٤٦٠هـ). الزركلي/ الأعلام (١/ ٧٣).

(٤) الـمَقَّرِي/ نفح الطيب (٤/ ٤٨٣).

ولكن الله تبارك وتعالى لم يُجرِ الأمور على هوى ألفونسو، فلقد عصفت به رياح المرابطين في المغرب كاسحة اسمَه، ومطاردة جيشه، فكما يقول ابن بسام في «الذخيرة»: فالحمد لله موهن أيدِه، ومبطل كيده، وجزى الله أمير المسلمين، وناصر الدين أبا يعقوب يوسفَ بنَ تاشُفين، أفضلَ جزاء المحسنين بما بلَّ من رماق، ونفس من خناق، ووصل هذه الجزيرة من حبل، وتجشم إلى تلبية دعائها، واستنقاذ ما بها، من حَزْن وسهل، حتى ثلَّ عروش المشركين، وظهر أمرُ الله وهم كارهون، والحمد لله رب العالمين.

ولولا فضلُ الله تعالى على هذه الأمة بأولئك المخلصين، الذين لا يملكون حيلة تجاه تلك الفتن إلا اللجوءَ إلى الله تعالى، والاستعانةَ به ودعاءه، وهم سُجَّد بين يديه في صلواتهم وفي تهجدهم، وكفى بالله وكيلاً، فلقد قيض الله تعالى دولة المرابطين بالمغرب لإنقاذ الأندلس من زحف الصليبيين عليها، ومن حكم ملوك الطوائف، ومن هذه الانقسامات؛ لتحفظ الإسلام والمسلمين بالأندلس لأربعة قرون أخرى.

٦. مرحلة دولة المرابطين(١) (٤٨٤هـ - ٥٤١هـ):

قامت دولة المرابطين ببلاد المغرب الأقصى تدعو إلى الكتاب والسنة بعد مرحلة مرت بالبلاد انتشرت فيها انحرافات كثيرة، وبدأت دعوتهم تنتشر شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا إقامة دولة شملت بعد ذلك الأندلس، وقد تولى عليهم يوسف بن تاشُفين، وبرغم أنها كانت تتكون عناصرُها من البربر، إلا أنهم أبلَوْا في الإسلام بلاءً حسناً(٢).

اشتهر أمر المرابطين حتى إن أهل الأندلس وجدوا فيهم ضالتهم التي يتخلصون بها من التمزق والفرقة، وهجوم النصارى عليهم، وخاصة بعد سقوط طليطلة، فاستنجدوا بالله، ثم بيوسف بن تاشُفين الذي سرعان ما استجاب لدعوة إخوانه، فجيش الجيوش، وأعد العدة، وعبر بهم إلى الأندلس، ومما يروى هنا: أنه عندما صعد السفينة ليعبر إلى الأندلس هاج البحر، واشتدت الريح على السفن، فوقف يوسف بن تاشُفين يدعو: «اللهم إن

---

(١) راجع دولة المرابطين بالكتاب

(٢) أصل البربر قبائل عربية من حمير هاجرت من اليمن منذ القدم، وتوجهت إلى شمال أفريقيا، وتصاهرت مع سكانها، وكونت هذه قبائل من أشهرها قبيلة لمتونة وجدالة.

كنت تعلم أن في جوازي هذا البحر خيراً وصلاحاً للمسلمين، فسهل عليَّ جوازَ هذا البحر، وإن كان غير ذلك، فصعبه عليَّ حتى لا أجوزه».

فهدأ البحر، وجازت السفن سراعاً، فلما وطِئت قدمُه أرض الأندلس، خر لله ساجداً.

معركة الزلاقة:

استقبل ملوك الطوائف يوسف بن تاشُفين ولم يهدأ، فقد انطلق بجيشه إلى موضع يسمى بالزلاقة في (سنة ٤٧٩هـ) وهذا الموضع قريب من إمارة بطليوس ليلتقي بألفونسو الذي أعد جيشاً في خمسين ألفاً، متباهياً بجيشه وهم في كمال عدتهم قائلاً: بمثل هؤلاء أحارب الشيطان والجن والملائكة(١).

ولكن لله في خلقه عجائبَ تذهل منها العقول، فلم يغنِ عنه جيشه ولا دهاؤه ولا نشوته وفرحه شيئاً من مقادير الله تعالى، فلقد سلط الله عليه مسلمي الأندلس تحت راية ابن تاشُفين، حتى استطاع جيش المسلمين أن يبيد ويفني معظم جيش ألفونسو في منتصف رجب (سنة ٤٧٩هـ).

وقد استطاع المسلمون أن يحوزوا كل الغنائم والأموال التي كانت مع النصارى، ولقد وزعها يوسف بن تاشُفين بين ملوك الأندلس ومقاتليه، لذا أسر قلوبهم وأحبوه، خاصة بعد أن ظهرت منه الخصال الحسنة، والأفعالُ الكريمة التي ذكرتهم بسير السلف الصالح في فتوحاتهم، وفر ألفونسو ومن بقي معه من جيشه الذين لم يتجاوزوا الخمسمئة من الفرسان.

وطني يحميك نارٌ ولظى ... ليس يحميك أغاريدُ وفَنّ

فبالكتاب والسنة، وبمنهج السلف الصالح تستعيد الأمة مجدها، وبالصالحين الذين لا تنحني جباههم إلا لله تعالى ركعاً سجداً بالليل وبالنهار، الذين يستعملهم الله تعالى سِلْماً لأوليائه، حرباً على أعدائه.

---

(١) وقد صدق قول الله فيه وفي أهل الكتاب: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[الكهف:١٠٣ -١٠٦].

ولما عاد يوسف بن تاشُفين مع جيشه إلى إفريقيا في شعبان (سنة ٤٧٩هـ) وقد لقب بأمير المسلمين بعد هذه الوقعة، كان ألفونسو عقب استيلائه على طليطلة قد أرسل قواتٍ إلى شرق الأندلس استولت على منطقة واسعة قرب مُرسية تسمى: لييط - أليدو - ، وابتنى بها حصناً ضخماً ليكون قاعدة للغارات على المسلمين في تلك المناطق وقد وضع فيه حامية كبيرة من ثلاثة عشر ألف مقاتل فيهم ألف فارس.

انتهز النصارى فرصة عودة ابن تاشُفين، فتجمعوا وهجموا على إشبيليه، فاستنجد المعتمد ابن عبّاد ملكُ إشبيليه بابن تاشُفين مرة أخرى لينقذه من هجوم النصارى.

استجاب يوسف بن تاشُفين لدعوة ابن عبّاد مرة أخرى، وعبر إلى الأندلس مرة ثانية (سنة ٤٨١هـ) وتوجه بقواته إلى حصن لييط، واجتمع إليه ملوك الطوائف، وحاصروا معه الحصن حصاراً شديداً، غير أنهم لم يتمكنوا من فتحه، لذا آثر يوسف بن تاشُفين أن ينهي الحصار، ويرجع بعد أن أرعب النصارى، وقد أيقنوا بأن المسلمين في وحدة تامة، لذلك أمر ألفونسو رجال الحصن أن يغادروه بعد أن يقوموا بهدمه في (سنة ٤٨٢هـ).

رجع يوسف بن تاشُفين إلى المغرب بعد أن ترك حامية عسكرية في الأندلس، غير أن ملوك الطوائف انصرفوا إلى ما كانوا عليه من الفرقة والنزاع؛ مما جعل الأندلس مهددة من النصارى تهديداً مباشراً، وقد صرخ فقهاء الأندلس بفقهاء المشرق وعلمائهم بإصدار الفتاوى بوجوب وحدة المسلمين، والدفاع عن الأندلس؛ مما دفع يوسف بن تاشُفين وللمرة الثالثة في (سنة ٤٨٣هـ) أن يتقدم بجيشه، ويعبر إلى الأندلس متوجهاً إلى طليطلة التي اتخذها ألفونسو عاصمة لقشتالة، فلما وجدها ذات حصون منيعة، تركها وتوجه إلى جنوب الأندلس، وضم إليه غرناطة التي استسلم أميرها، وجمع هذه الولايات تحت رايته مما أسعد أهل الأندلس، وفرحوا بهذا فرحاً عظيماً، وعاد ابن تاشُفين إلى المغرب، وترك جيشاً كبيراً على رأسه جمعٌ من قادته الذين استطاعوا أن يضموا قرطبة، وبدؤوا يتوجهون إلى طليطلة، فأرسل إليهم ألفونسو جيشاً من عدة آلاف خاضوا غمار

معركة عنيفة بإشبيلية انتهت بانتصار المرابطين على ذلك الجيش، وضمت إشبيلية إلى دولة المرابطين، وأسر أميرها المعتمد بن عبّاد، ونفي إلى المغرب حيث توفي هناك(١)، كما ضمت بقية المدن الأندلسية؛ كـ: مرية ومرسية وشاطبة.

ثم سطَّر المرابطون بدمائهم وجهادهم في الأندلس صفحة لا تنسى من التاريخ؛ حيث بذلوا جهوداً جبارة لإنقاذ بَلَنسية، واستطاعوا في نهاية الأمر دخولها، وأعادوا فتحها في رجب (سنة ٤٨٥هـ)، ثم دخلت بطليوس في غرب الأندلس إليهم، ثم أشبونه -لشبونه- عبر يوسف بن تاشُفين للأندلس للمرة الرابعة (سنة ٤٩٠هـ)، واستطاع أن يجمع مدن الأندلس وممالكها تحت راية المرابطين، وقد وجه جيشاً إلى طليطلة بقيادة محمد بن الحاج ليواجه ألفونسو الذي هُزم مع جيشه هزيمة نكراء متكبداً خسائر كبيرة (سنة ٤٩١هـ).

ثم أخذ يوسف بن تاشُفين البيعة لابنه أبي الحسن علي ليكون أميراً على الأندلس، واشترط عليه في البيعة أن ينشئ جيشاً نظامياً من المرابطين يوزعه على سائر القواعد.

وبذلك استقرت البلاد في أيدي المرابطين، ونعمت الأندلس لأربعة قرون جديدة في ظل الإسلام، وذلك بفضل الله تعالى، ثم بالمخلصين من أمة محمد ﷺ.

وقد أوصى يوسف بن تاشُفين ابنه ووليَّ عهده بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلس، ثم عاد إلى المغرب، وكان قد قارب المئة سنة من عمره، قضى أكثر من نصفها في جهاد دائم، وسطر للأمة الإسلامية صفحاتٍ ناصعةً في التاريخ، وحقق انتصاراتٍ عظيمةً باهرة، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً، وقد توفي رحمه الله أول المحرم من (سنة ٥٠٠هـ).

---

(١) كان المعتمد بن عباد أمير إشبيلة يتبع سياسة المصلحة والنفعية، ويتعاون مع النصارى تارة، ومع المسلمين تارة أخرى، وهي سياسة متخاذلة أدت به في النهاية إلى أن يتوفى في سجنه.

فلقد استعان بألفونسو خصمِه وخصم المسلمين على المرابطين الذين أتوا لإنقاذ الأندلس بدعوة منه من قبل، غير أن الله أخزاه، ووقع أسيراً في يد المرابطين في رجب (سنة ٤٨٤هـ) حيث قضى أربع سنوات في سجن هناك بعد أن حُمل مع أسرته على السفين، وخرج في مشهد وداع حزين وهم يبكون على مُلْكٍ أضاعوه بأيديهم.

وقعة أُقليش:

تولى علي بن يوسف بن تاشُفين الحكم بعد أبيه، واستأنف الجهاد، فاتجهت جيوش المرابطين إلى مدينة أُقليش شرق مدينة طليطلة، ففتحوها، وفر منه الجيش القشتالي، وتحصنوا في قصبة منيعة، فأمدهم ألفونسو بقيادة ولي عهده وابنه الوحيد شانجة، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وقد سميت هذه المعركة بمعركة الأمراء السبعة؛ حيث رافق شانجة سبعة من كبار قادة جيش ألفونسو الذي فاق في عدده مرات عديدة جيش المسلمين.

ووقعت هذه المعركة الشهيرة في شوال (سنة ٥٠١هـ) صبر فيها المسلمون، وأظهروا بطولات رائعة، فكانت هزيمة ساحقة لجيش ألفونسو، قُتل فيها شانجة ابنُ ألفونسو، وكان يوماً من أيام الله ذكّر بأمجاد المسلمين.

وقد خاضت دولة المرابطين مواجهات عدة، انتصر المرابطون في أكثرها، واستطاعوا أن يحفظوا للأندلس قوتها ووحدتها.

بعد أن استقرت الأندلس وهدأت الأمور بها قسّمها المرابطون إلى ست ولايات هي: إشبيليه وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية وسرقسطة، واتخذوا من قرطبة عاصمة لهم.

وبرغم غلبة الطابع العسكري على المرابطين إلا أن التطور العلمي والصناعي والاقتصادي كان قائماً في كل ميدان، كما استخدموا رجالاً أكفاء في كل ميدان، منهم المرابطي، ومنهم الأندلسي حتى استقرت لهم البلاد، إلى أن كانت سنة الله الماضية في خلقه؛ حيث ظهر الضعف بدولة المرابطين في المغرب والأندلس لعوامل عدة، ليظهر مكانهم دور جديد لدولة الموحِّدين الذين قاموا مقامهم بالأندلس.

٧. مرحلة دولة الموحدين(١) (٥٤١هـ - ٦٣٣هـ):

استطاع الموحدون أن يُخضعوا المغرب لسلطانهم بعد أن قضوا على دولة المرابطين في (سنة ٥٤١هـ)، وعندما اهتز سلطان المسلمين بالأندلس، أرسلوا في طلب النجدة من الموحدين(٢)، فأرسلوا لهم جيشاً في (سنة ٥٤١هـ) استطاع في نحو خمس سنوات أن يُخضع الأندلس في أيدي الموحدين، واتخذوا من إشبيلية عاصمة لهم في الأندلس.

ولقد استطاع الموحدون بعد ذلك أن يحققوا انتصاراً كبيراً على الغزو الصليبي في موقعة الأرك (سنة ٥٩١هـ)، والتي كان النصارى استعدوا فيها استعداداً واسعاً بقيادة الفونس الثامن ملك قشتالة، والذي حشد جموعاً كبيرة من المقاتلين زاد عن خمسة وعشرين ألف فارس، ومئتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدوا أموالاً، فهزمهم الله تعالى(٣)، وقد فرح المسلمون بهذا النصر فرحاً شديداً ذكرهم بيوم انتصار المرابطين في معركة الزلاقة.

ثم توالت الأحداث، وخاض الموحدون غمار معركة عنيفة مع النصارى في (سنة ٦٠٩هـ) سميت بموقعة العقاب، واجهوا فيها جيوش المتطوعين من كل أوروبا، إلا أن المسلمين كان يقودهم الناصرُ بن المنصور بالله، الذي لم يكن بارعاً في القيادة وحسن التدبير، فدارت الدائرة على جيش المسلمين، وفقدوا الكثير من جنودهم، وانتهت المعركة بالهزيمة للموحدين الذين بدأ العد التنازلي لنهاية ملكهم في الأندلس بعد هذه المعركة، فلقد تمكن النصارى من الاستيلاء على عدة مدن بالأندلس، في الوقت الذي ثارت فيه قبائل البربر في شمال أفريقيا على الموحدين، مما أطمع أمراء الأندلس لإزاحتهم عن البلاد، فأعلن ابنُ هود في (سنة ٦٢٦هـ) نفسَه حاكماً على مدن الجنوب بعد أن أزاحوا الموحدين عن الأندلس، ثم تلاه بنو نصر أمراءُ غرناطة حكاماً على ما تبقى من الأندلس في الجنوب.

---

(١) راجع دولة الموحدين بالكتاب

(٢) كان ممن جاء إلى مراكش يستنجد بعبد المؤمن زعيم الموحدين القاضي أبو بكر بن العربي المالكي رحمه الله، وهذا ما دفع البعض أن يثني على عقيدة عبد المؤمن بسبب بيعة ابن العربي لهم، وهذا بلا شك قرينة قوية للاستدلال على صحة معتقد عبد المؤمن، وأنه خرج على عقيدته السابقة التي كان يعتقدها في محمد بن تومرت، ولقد أثنى عليه الذهبي رحمه الله في كتابه «العبر» كما أثنى عليه غير واحد من المؤرخين.

(٣) الضبّي/ بُغية الملتمس (ص:٤٥-٤٦)، د.عبد الرحمن علي الحجي/ التاريخ الأندلسي (ص:٥٢٢).

بدأ الضعف يدب في أجزاء الأندلس حتى استطاع النصارى أن يسيطروا على الكثير من الجزر الشرقية، وكان من أشهر الجزر التي سقطت: جزيرةُ ميورقة، والتي فعل فيها النصارى الأفاعيل بواليها وسكانها؛ حيث قاموا بذبح أربعة وعشرين ألفاً في يوم واحد، وظلوا يعذبون الوالي ابنَ يحيى أشدَّ العذاب لخمسة وأربعين يوماً إلى أن مات، وسبوا الكثير من النساء، وقتلوا الكثير من الأطفال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال المَقَّرِي في «نفح الطيب»: ولما كان يوم الأحد، أُخذ البلد، وأُخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قتلوا على دم واحد، وأُخذ الوالي وعُذب، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً، ومات تحت العذاب.

كما سقطت حاضرة الأندلس الكبرى، وعاصمةُ العلم والعلوم، التي أضاءت ما حولها من المدن نوراً، وكانت محجاً لطلبة العلم قرطبةُ بأيدي النصارى في شوال (سنة ٦٣٣هـ)، تحولت إلى أيدي النصارى، وتحول مسجدها الجامع العظيم إلى كنيسة يشرَك فيها بالله تعالى.

وسقطت بَلَنسية في صفر (سنة ٦٣٦هـ)، التي تعد أكبر قواعد شرقي الأندلس، وأعظمَ الثغور، بعد أن استمرت الجيوش الصليبية في قتالها لسنوات، وخاض المسلمون في مواجهتهم معارك عدة، اشترك فيها جمع كثير من علمائهم، منهم: أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي، والذي قُتل في واحدة من هذه المعارك في (سنة ٦٣٤هـ)، والذي كان كبير علماء الأندلس، ومحدثها الشهير قاضي بلنسية الشاعر صاحب المؤلفات الراقية، قاتل قتالاً مريراً كجندي، تقدم إلى القتال يشحذ الهمم بكل حزم وجرأة وبسالة وإقدام، ولم يزل في مقدمة الصفوف يزحف إلى الكفار، مقبلاً غير مدبر، يحمل راية المسلمين بيده ينادي على الفارين قائلاً: أعنِ الجنة تفرون؟ وظل صابراً محتسباً إلى أن قُتل في المعركة في يوم الخميس في العشرين من ذي الحجة، كما قُتل إلى جواره جماعة من علماء بلنسية وفضلائها وأهل الصلاح فيها، نحسبهم عن الله شهداء.

ثم سقطت إشبيلية مرة أخرى بيد النصارى وملكهم فرناندو الثالث بن ألفونسو التاسع (عام ٦٤٦هـ) بعد عدة معارك لعدة سنوات، وحصار طويل استمر نحو السنة والنصف.

وقد وصف ابن عذاري سقوطَها وحالَ أهلها بقوله(١): جرعوا أهلَها كأس الحِمام، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكلٌّ منهم في بحر المنايا غاصَ وعامَ، ما حل بهم من الآجال والآلام... فسلموا لهم المدينة، وخرج منها الخاصُّ من أهلها والعامّ، وكان ذلك في يوم سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم من هذا العام.

فتجرع أهل إشبيلية كثيراً من الأذى، ونالهم الأسى أشد منه، وأدمى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى، يجللهم النكد، ويفريهم فراق البلد، غادرها من أهلها ما يقدر بأربعمئة ألف، قصدوا مدن الأندلس، أو العدوة الأخرى، وذلك في رمضان من نفس العام، كان ذاك لهم أي عيد، خسروا فيه الحاضر والتليد.

وضاعت إشبيلية كغيرها جزاءً بما اقترفت أيدينا، بعد أن بقيت في ظل الإسلام والمسلمين عَروساً في حُلَّتها، فلطخها النصارى بنجاساتهم، وباعتلاء الصليب على مآذنها، كما قال القائل عنها: عروساً في حلتها، أسيرة لطخت بالدماء، تندب حاميها الطعين، وتزفر من آلامها وهي أرملة ولود.

وانكمشت دولة الإسلام في الأندلس حتى لم يبق بها إلا مملكة غرناطة؛ لتكون المرحلة الأخيرة في حياة الإسلام في الأندلس.

ولقد رثا هذه المدن التي سقطت، ووصف حالَ سقوطها أبو البقاء الرندي(٢) في قصيدته الشهيرة التي قال في مطلعها :

لكل شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ   فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ   من سره زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد   ولا يدوم على حالٍ لها شانُ

---

(١) د.عبد الرحمن علي الحجي – التاريخ الأندلسي.

(١) أبو البقاء الرندي: صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف، أبو الطيب وأبو البقاء الرندي، شاعر أندلسي، وأحد القضاة، وعالم بالحساب والفرائض، كان خاتمة الأدباء بالأندلس، له تآليف أدبية وقصائد زهدية ومقامات في أغراض شتى، ألَّف مختصراً في الفرائض، وألَّف آخر في صَنْعَة الشعر سمّاه: الوافي في علم القوافي (خ). توفي رحمه الله (سنة ٦٨٤هـ). الزركلي/ الأعلام (٣/ ١٩٨).

وأضاف:

فجائعُ الدهر أنــواع منوعة   وللزمان مـسرات وأحـزان
وللحوادث سُلوانٌ يسهلها   وما لما حل بالإسلام سُلوان
دهى الجزيرة أمـرٌ لا عـزاء له   هوى لها أُحُـدٌ وانهدَّ ثهلان
أصابها العين في الإسلام فامتحنت   حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسيةً ما شأنُ مرسيةٍ   وأين شاطبةٌ أم أين جَيَّانُ
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَه   ونهرُها العذب فياض وملآن
قواعدٌ كنَّ أركـان البلاد فما   عسى البقاءُ إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفيةُ البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
على ديـارٍ من الإسـلام خاليةٍ   قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ   مافيهنَّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدة   حتى المنابرُ ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ   إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه   أبعدَ حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ
تلك المصيبة أنسَتْ ما تقدمها   وما لها مع طول الدهر نسيان

ثم أضاف واصفاً حال الأسرى بين أيدي النصارى وقال:

يامن لِـذِلَّـةِ قوم بعد عِزِّهمُ   أحـال حالهم كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم   واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم   عليهمُ من ثياب الذل ألوانُ
ولو رأيتَ بكاهم عند بيعهم   لهانك الأمرُ واستهوتك أحزان
يـارُبَّ أمٍّ وطفلِ حيل بينهما   كما تُـفـرَّقُ أرواحٌ وأبـدانُ

وطفلة مثلِ حسن الشمس إذ طلعت   كأنما هي ياقوتٌ ومرجان
يقودُها العلجُ للمكروه مكرَهَةً   والعينُ باكية والقلبُ حيران
لمثلِ هذا يذوبُ القلب من كَمَدٍ   إن كان في القلب إسـلام وإيمان

٨. مرحلة الأندلس الصغيرة «دولة بني الأحمر»:

انكمشت الدولة الإسلامية انكماشاً كبيراً أمام ضربات الصليبيين، التي وقعت بسبب طغيان الشهوات على المسلمين، والصراع على الملك، والاختلاف والتنازع فيما بينهم دون أن يأبهوا بأمر الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، فأصبحوا وما بقي لهم في الأندلس إلا هذه المناطق الجنوبية المحدودة، وعلى رأسها مملكة غرناطة، أو الأندلس الصغيرة.

أسس مملكة غرناطة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وكان يلقب بالغالب بالله، وأيضاً بالشيخ، وقد نسبت المملكة إليه، وعرفت في التاريخ بمملكة بني الأحمر.

استطاعت دولة ابن الأحمر أن تحتفظ للمسلمين ببعض المناطق في جنوبي الأندلس مشيدة هذه المملكة العظيمة غرناطة، والتي استمرت إلى ما يزيد على قرنين ونصف، وتوالى على حكمها أبناء أسرة الأحمر، والذين اتخذوا شعاراً لهم كتب عليه: «لا غالب إلا الله».

استطاعت مملكة غرناطة أن تواجه وحدَها كل مكائد الصليبيين، وللقارئ أن يتخيل ما كانت عليه من القوة والتطور العلمي الذي استطاعت به أن تواجههم لقرنين ونصف من الزمان حتى أُنهكت وفقدت الكثير من طاقاتها، وضعفت في النهاية، فصارت إلى مصيرها المأسُوف، عليه وإلى مصرعها بأيدي عبّاد الصليب.

فلقد نقلت لنا المصادر التاريخية ما كانت عليه هذه المملكة من القوة العسكرية والبشرية، والعمرانية والاقتصادية والسياسية برغم صغر حجمها، وقلة عدد سكانها.

ولقد شاء الله تعالى لغرناطة أن تتخذ موقعاً جغرافياً متميزاً؛ إذ أن سواحلها تتصل مباشرة بالمسلمين في المغرب التي لم تدخر جهداً في عون إخوانهم في غرناطة، بل أرسلت القوات التي وقفت صفاً واحداً مع أهل غرناطة لمواجهة الصليبيين، وخاصة دولة بني مرين التي نشأت في المغرب بعد دولة الموحدين، فكانت خير معين في لحظات فارقة في التاريخ لإخوانهم المسلمين في غرناطة، بل لقد كان لها قوة عسكرية دائمة البقاء هناك للمرابطة على ثغور غرناطة، غير أن ضعف دولة الموحدين أضعف معه المسلمين في غرناطة، ولو أنه قُدّر أن يقوم مقامها في المغرب دولة قوية، لتغيرت مجريات الأمور في الأندلس، والله أعلم.

ولقد ساهم في تطوير غرناطة وتقدمها أولئك الفارون من الصليبيين من المناطق الأخرى في الأندلس، والذين لاذوا بغرناطة لتحميهم من أعدائهم، فتجمع لغرناطة طاقات مبدعة في كل ميدان من ميادين الحياة آنذاك، كما تجمع لها عددٌ لا بأس به من رجالات الحرب الأشداء، والذين رأوا بأم أعينهم كيف انهارت ممالك المسلمين على أيدي الصليبيين، وقاسَوا من غدر الصليبيين في أنفسهم وأهليهم وممالكهم، لذا كانوا خير معين لغرناطة في وجه الصليبيين.

لقد عملت الممالك النصرانية في الأندلس بكل قوة على إسقاط غرناطة، وتوحدت فيما بينها، كل ذلك من أجل زوال الإسلام والمسلمين من الأندلس لقرنين ونصف من الزمان.

ولقد تولى حكم غرناطة في أواخر أيامها السلطان أبو عبد الله الصغير محمد الحادي عشر بن علي، والذي واجه جيوش قشتالة النصرانية، وانتصر عليهم في (سنة ٨٨٨هـ)، ثم توجه بجيشه نحو قرطبة، واستطاع أن يحقق شيئاً من الانتصارات، غير أنه أُسر في واحدة من هذه المعارك في جنوب شرق قرطبة، فتولى الحكم من بعده عمه أبو عبد الله الزغل محمدُ بنُ سعد.

استطاع نصارى قشتالة أن يصالحوا السلطان الأسير، ويعقدوا معه اتفاقاً لصالحهم في الوقت الذي كان أهل غرناطة قد تفرقوا واختلفوا بين زعامات وقادة جند، فتقدمت

قوات قشتالة عندئذ، وحاصرت مدينة لوشَة التي اضطرت في النهاية للاستسلام للقشتاليين بسبب هذه الخلافات.

ثم وقعت الحرب بين الأمير أبي عبد الله محمد الحادي عشر، وبين عمه محمد بن سعد أبي عبد الله الزغل، والذي تولى على غرناطة عند أسر ابن أخيه، وانتهت هذه الحرب بتقسيم غرناطة؛ مما ترتب عليه تقدمُ النصارى نحوها ونحو مدنها وقراها، واستبسل أهل تلك المناطق استبسالاً عظيماً في الدفاع عن هذه المدن، غير أنه سبق السيف العذل، وعقد العمّ محمدُ بنُ سعد أبو عبد الله الزغل معاهدة مع ملك قشتالة في (سنة ٨٩٥هـ)، ثم اضطر إلى الخروج من الأندلس إلى تلمسان في الجزائر.

ثم تلا ذلك انحدارٌ سريع في الأوضاع بغرناطة، وجاء النصارى بقيادة فرديناند ليحسموا أمر المسلمين الأخير في الأندلس، فحاصروا غرناطة حصاراً شديداً، فلم يجد أبو عبد الله محمد الحادي عشر بداً إلا المفاوضة مع الصليبيين، وقد عارض رأيه قائدُه العسكري موسى آخر أبطال العرب في الأندلس، والذي كان يرى باستمرار المقاومة وعدم التسليم، فخذله الأمير بأن قبل التفاوض مع النصارى المحاصِرين لغرناطة، وتوجه موسى بجواده نحو الأعداء يضرب هذا ويطعن هذا حتى قُتل غريقاً في النهر، مفضلاً القتلَ في سبيل الله على حياة الذل والمهانة في ظل الصليب.

وتقدم الأمير بالموافقة على توقيع معاهدة تسليم غرناطة لملَكي قشتالة وأربونة فرديناند وإيزابيلا، والذي تم بينهما زواج سياسي من أجل القضاء على المسلمين في الأندلس.

وافق بهذا التوقيع محمد الصغير أبو عبد الله على معاهدة تضمنت سبعة وستين شرطاً كما ذكر الـمَقَّرِي في «نفح الطيب»، كان من أهمها:

- تأمين المسلمين صغيرهم وكبيرهم على النفس والأهل والمال، وبقاؤهم في دورهم وعقارهم وضياعهم.
- إقامة شريعة الإسلام بين المسلمين، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته.

- بقاء المساجد والأوقاف الإسلامية على حالها.
- ألا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحداً، ولا يولى على المسلمين إلا مسلم.
- العفو عن جميع أسارى المسلمين، وإطلاقُ سراحهم دون قيد أو شرط.
- حق الخروج من الأندلس إلى إفريقيا لمن شاء بماله وأهله دون أن يتعرض له أحد.

تروي لنا بعض الروايات التاريخية أنه بعد أن وقّع أبو عبد الله محمد الصغير المعاهدة، وقف مع فرسانه بسفح جبل الريحان انتظاراً لمرور موكب فرديناند وإيزابيلا ليقدم لهم مفاتيح المدينة، وذهب بعيداً، ووقف في مكان مازال إلى اليوم، ويسمونه بزفرة العربي الأخيرة، وقف هناك وبكى، ورأته أمه عائشةُ الحرةُ، وكانت امرأة عاقلة، فقالت له: ابكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً لم تحافظ عليه مثلَ الرجال.

ثم هاجر أبو عبد الله محمد الصغير آخرُ أمراء الأندلس إلى المغرب، ونزل بفاس؛ حيث تردت أحواله تردياً شديداً هو وأبناؤه، وعاشوا على سؤال المحسنين، وسبحان المعز المذل، يرفع أقواماً ويضع آخرين، قال تعالى: **﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾** [عمران:٢٦].

وطبيعة الكفر واحدة، فلقد نقض فرديناند وإيزابيلا العهد مع المسلمين، وتنكروا لشروط التسليم، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل بعد فترة قصيرة من هذه المعاهدة، وحملوا المسلمين قسراً على التحول إلى النصرانية، وحولوا المساجد إلى كنائس، وأحرقوا المخطوطات والكتب النفيسة، وقاموا بتعذيب المسلمين بألوان مختلفة من العذاب فيما سمي بعد ذلك بمحاكم التفتيش؛ مما دفع الكثير منهم أن يفر إلى مراكش، وإلى مصر، وإلى الأناضول، وكان ممن ناله أيضاً قسطٌ من العذاب يهودُ الأندلس، الذين استقبلتهم السلطنة العثمانية أحسن استقبال، وأنزلتهم بسيلانيك، وبضواحي القسطنطينية، لكنهم لم يحفظوا العهد لها، وكانوا سبباً في إلغاء الخلافة الإسلامية في نهاية الأمر، وقد سُمُّوا بيهود الدونمة كما سيأتي.

وبمثل هذا الانحراف العقدي والأخلاقي، وركوب الشهوات والتنازع والخلاف والخيانات تهلك الأمم وتضيع وتفشل، ويذهب ريحُها كما أخبرنا ربُّ البرية: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

الدولة الرستمية(١)

(١٦٠هـ - ٢٩٦هـ)

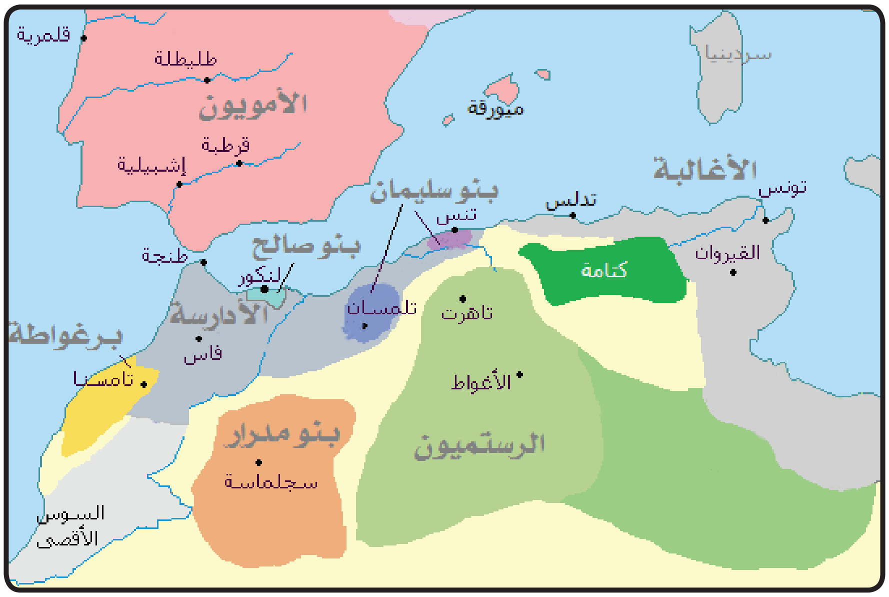
قلمرية
طليطلة
الأمويون
قرطبة
إشبيلية
ميورقة
سردينيا
الأغالبة
تونس
تدلس
بنو سليمان
تنس
القيروان
كتامة
بنو صالح
طنجة
لنكور
الأدارسة
تلمسان
تاهرت
برغواطة
فاس
تامسنا
الأغواط
بنو مدرار
سجلماسة
الرستميون
السوس
الأقصى

الدولة الرستمية

الدولة الرستمية دولة خارجية أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي الأصل بين (سنة ١٤٠هـ إلى ١٦٠هـ) في تاهرت بالمغرب الأوسط -الجزائر، كان أبوه بهرام من موالي عثمان ﷺ، ودرس عبد الرحمن في البصرة حيث الفتن، وانضم إلى عبد الأعلى ابن السمح المعافري أحدِ كبار الخوارج، وذهب معه للمغرب، وأصبح مساعده الأول، وتولى بعد وفاته إمامة الخوارج الإباضية في المغرب، فاختار تاهرت لتكون نواة لإنشاء دولة للإباضية؛ لكونها تقع وسط الجبال، ويصعب وصول العباسيين إليها، وآمنة من الغزو الخارجي، فقام ببناء تاهرت الجديدة على ضفاف نهر عذب المياه، وحصنها بأسوار عالية، وأنشأ بها الدولة التي سميت في التاريخ باسم: الدولة الرستمية.

---

(١) د. غالب بن علي العواجي/ فرق معاصرة تنتسب للإسلام (١/ ٢٥٣ - ٢٥٥)، يوسف بديوي / عصر الدويلات الإسلامية (ص:٤٥ - ٥٢).

كانت هذه أولَ تجربة سياسية جديدة منفصلة عن دولة الخلافة للخوارج الإباضية، خاصة أن ما أنشؤوه في عُمان لم يكن على مستوى الدقة المذهبية التي سار عليها عبد الرحمن بن رستم وأصحابه، فوفد إليها الخوارج من كل شمال إفريقيا، ومن المشرق من الكوفة والبصرة ومصر، وقد توفي في (سنة ١٧١هـ)، وكان قد اختار ستة من شيوخ المذهب ليختاروا من بينهم إماماً لهم، فاختير ابنُه عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً على هؤلاء القوم، فوقعوا فيما أنكروه على الخلفاء من مبدأ التوريث للحكم.

ولقد ترتب على ذلك نشوء فرقة أنكرت هذه الطريقة التي وصل بها عبد الوهاب إلى الحكم، وسميت بفرقة النكارية، المنكرين لإمامة عبد الوهاب، وفي مقابلهم نشأت الفرقة التي أيدت عبد الوهاب لمنصب الإمامة، وسموا بالوهابية، أو الوهبية، ووقع بين الفرقتين صراع بلغ إلى الحرب التي انتهت بمقتل قائد النكارية الذين تفرقوا في القبائل، وكان لهم دور آخر في التاريخ.

كما وقعت حروب كثيرة بين فرق الخوارج عامة في المغرب، وأصيبت جماعتهم بانشقاقات كثيرة، وخاصة بين الوهابية الإباضية، وبين إباضية جبل نفوسة بالمغرب لفترات طويلة أدى إلى انفصال جماعات أخرى إباضية، بعضُها استقر في جزيرة جربة، وبعضها في غدامس، وبعضها في مناطق أخرى مقيمين دولاً إباضية صغيرة مستقلة بأمور نفسها، ما زالت بقاياهم إلى يومنا هذا، خاصة في إقليم الزاب جنوبي الجزائر.

كان آخرَ أئمة الوهابية الإباضية أبو اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، والذي حكم لفترة طويلة بلغت أربعين سنة.

وقد دامت دولتهم قرناً ونصف القرن تقريباً، وانتهت على يد عبيد الله الفاطمي الشيعي مدعي الفاطمية (سنة ٢٩٦هـ)، والذي مر على سجلماسة بتاهرت وخربها، وقضى على آخر بني رستم، وجعل المغرب الأوسط (الجزائر) ولاية فاطمية تابعة له.

دولة الأدارسة [١]

(١٧٢هـ - ٣٧٥هـ)

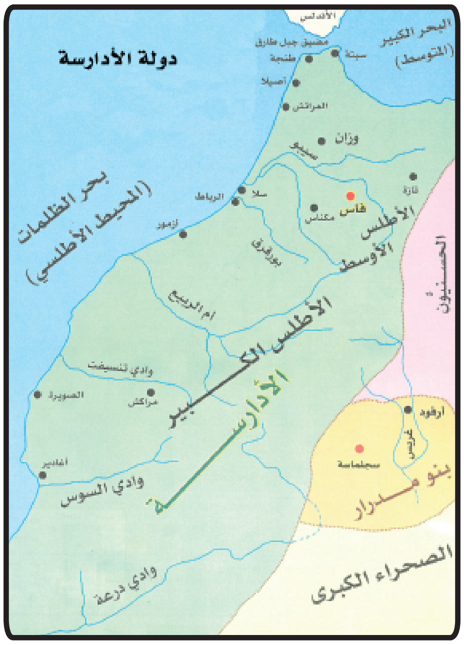
الأندلس
البحر الكبير (المتوسط)
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
دولة الأدارسة
أصيلا
العرائش
وزان
سبو
تازة
فاس
مكناس
سلا
الرباط
بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)
أزمور
بورقرق
الأطلس الأوسط
الحسينيون
أم الربيع
الأطلس الكبير
الأدارسة
وادي تنسيفت
الصويرة
مراكش
أرفود
غريس
سجلماسة
أغادير
بنو مدرار
وادي السوس
وادي درعة
الصحراء الكبرى

دولة الأدارسة

تنسب دولة الأدارسة لإدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، والذي فر ونجا من معركة فخ (سنة ١٦٩هـ) مع مولاه راشد، واتجها إلى مصر، ومنها إلى المغرب، ونزل مدينةَ وليلَى على مقربة من مكناسه تسمى اليوم: (قصر فرعون)، فالتف حوله أهل هذه المناطق المحبين لآل البيت بعد أن اتصل بإسحاق بن محمد بن عبد الحميد زعيم قبيلة أوربة البربرية، فخلع إسحاق طاعة بني العباس بعد أن كان من ولاتهم، وتنازل لإدريس عن الحكم لقرابته من النبي ﷺ.

فقام إدريس بتأسيس أول دولة تنسب للبيت العلوي في التاريخ، ونسبت في اسمها إلى مؤسسها، فسميت بدولة الأدارسة (سنة ١٧٢هـ)، وهي من الدول التي طال عمرها في التاريخ، وعمل على القضاء على نفوذ الخوارج، وظل أميراً حتى توفي مسموماً في سنة (١٧٧هـ)[٢].

---

(١) يراجع تاريخ ابن خلدون/ العبر (ج:٧).

(٢) الزركلي/ الأعلام (١/ ٢٧٩).

وهذه الدولة بقيت قرنين من الزمان، ودخلت في صراعات مع جيرانها، غير أنها بقيت وظلت من أصغر الدول مساحة، ومن أكثرها علماً وحضارة، فلقد ساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك المناطق.

وقد تولى بعد مؤسسها مولاه راشد الذي حكم باسم إدريس الثاني بن إدريس الأول الذي كان لا يزال جنيناً في بطن أمه عندما توفي إدريس الأول، ثم قُتل راشد، فقام أبو خالد العبدي يزيد بن إلياس أحد كبار شيوخ قبائل البربر قام بكفالة إدريس الثاني إلى أن شبَّ إدريس الثاني وعمره أحد عشر عاماً في (سنة ١٨٨هـ)، وباشر الإمارة بنفسه، وبنى مدينة فاس، ومدينة العالية مقابل مدينة فاس، واستمر في الحكم إلى أن توفي في ربيع الأول سنة (٢١٣هـ) في مدينة فاس(١).

وبعد وفاته تولى من بعده ابنه محمد بن إدريس، والذي قسّم الدولة إلى تسعة أقاليم، احتفظ هو فيها بالعاصمة فاس، وأعطى سبعة لإخوته، وواحدة لابن عمه، مما أدى إلى صراع بين هذه الأقاليم، ولذلك عند وفاته في (سنة ٢٢١هـ) ترك الدولة مقسّمة وضعيفة.

تولى من بعده ولدُه عليٌّ الأولُ بن محمد، والذي توفي في (سنة ٢٣٤هـ)، وعهد من بعده لأخيه يحيى الأول بن محمد، والذي كانت الدولة في عهده على قدم وساق، والذي قال عنه ابن خلدون: كان أعلى بني إدريس ملكاً، وأعظمَهم سلطاناً، وكان فقيهاً عارفاً بالحديث، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة.

ثم دارت الأحداث، وتمزقت الدولة شيئاً فشيئاً، وعاشت خلافات شديدة بين أمرائها، ووقع بينهم وبين الخوارج قتالٌ مرير، وعاشت دولة الأدارسة في فوضى واضطراب بسبب هذه الحروب؛ مما أخر الدولة للغاية.

كما خاضت دولة الأدارسة عدة حروب مع الأمويين حكام الأندلس الذين كانوا يطمعون بضم المغرب إليهم، واستطاع الأمويون القبض على الحسن بن القاسم كنون الحجّام الذي يعد آخر الأدارسة، واقتادوه أسيراً إلى قرطبة، وكان ذلك آخر حكمهم

---

(١) الزركلي/ الأعلام (١/ ٢٨).

(سنة ٣٧٥هـ)، وقد توالى عليها عدة خلفاء من الأدارسة بعد أن عمرت أكثر من قرنين من الزمان، كان آخرهم الحسن بن كنون الحجّام، وما زالت آثار عمارتهم باقية إلى اليوم، ولم يكونوا على وفاق مع الخلافة العباسية التي لم تُلق لهم بالاً لكونهم على الإسلام، ثم لبعدهم عن مركز الخلافة، ولاستقرار ملكهم في تلك المناطق التي خضعت لهم.

ويعتبر بعض الباحثين أن دولة الأدارسة هي أول دولة قامت لآل البيت في التاريخ، متناسياً أنها دولة قامت في ظل الخلافة العباسية، والتي قامت بدعوى أحقية آل البيت في الخلافة؛ إذ أن البيت العباسي من بيت النبوة، وهم من أصول آل البيت.

- **مذهب الأدارسة:**

اختلف المؤرخون في حقيقة مذهب الأدارسة، فمنهم من قال: إنها دولة زيدية، ومنهم من قال: إنها دولة سنّية، واستدل على ذلك بأنهم كانوا على المذهب المالكي في الفقه، ولم ينشروا أي عقائد تنزع إلى التشيع، ولقد ناصبهم العبيديون الفاطميون العداء، وحاصروا فاس، واضطروهم أن يبايعوا لعبيد الله المهدي الفاطمي في (سنة ٣٠٣هـ)، ولو كانوا على عقيدة التشيع، لما ناصبهم هؤلاء العداء، ولقد اجتهد الأدارسة اجتهاداً واسعاً في نشر الإسلام بين القبائل في هذه المناطق، وتعريبِ اللسان البربري، كما أسسوا المساجد؛ كالمسجد الجامع لتلسمان في المغرب الأوسط (الجزائر)، كما أسسوا مسجد القرويين الذي ظل منارة للعلم، ويعتبر من أقدم المراكز العلمية في تاريخ الإسلام، وأقاموا حلقات العلم.

دولة الأغالبة(١)

(١٨٤هـ - ٢٩٦هـ)

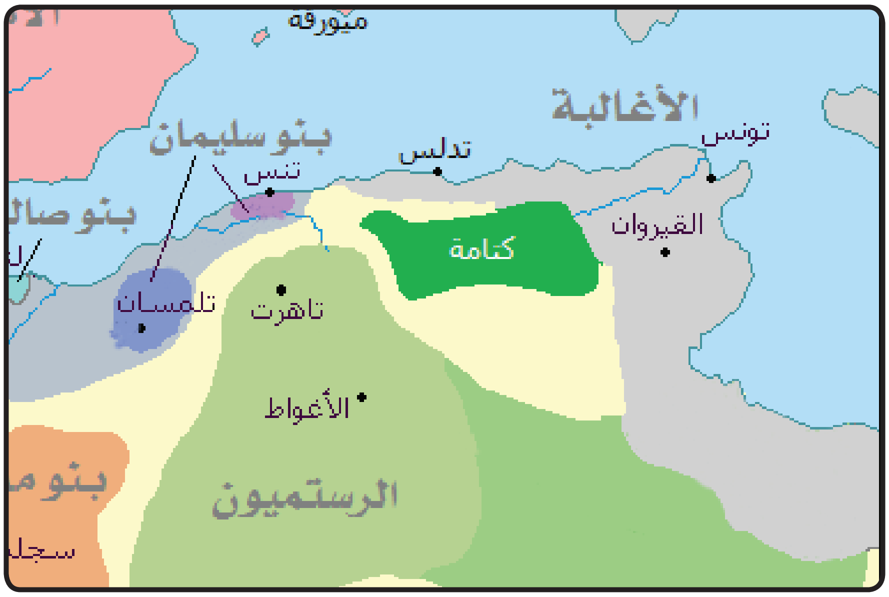
ميورقة
الأغالبة
تونس
بنو سليمان
تدلس
تنس
بنو صال
القيروان
كتامة
تلمسان
تاهرت
الأغواط
بنو م
الرستميون
سجلم

دولة الأغالبة

تنسب دولة الأغالبة إلى الأغلب بن سالم التميمي الوالي العباسي على القيروان، انتقل ولده إبراهيم بن الأغلب وهو ابن عشر سنوات إلى مصر، ودرس فيها العلوم الشرعية، ثم انتقل إلى المغرب، وبقي هناك إلى (سنة ١٧٩هـ) في عهد هرثمة بن أعين الذي أرسله الرشيد والياً على إفريقيا بعد اضطرابات متوالية فيها، فلقيه إبراهيم بن الأغلب بالقيروان، فولاه هرثمة على الزاب.

ثم أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة محمدَ بن مقاتل العكي والياً على إفريقيا، فثار الناس عليه، ومنهم والي تونس تمامُ بنُ تميم التميمي (سنة ١٨٣ هـ)، ووقف إبراهيم بن الأغلب إلى جوار محمد بن مقاتل، ومكّن للجيش العباسي، وساعده، فعزل الرشيدُ محمدَ بن مقاتل عن إفريقيا، وولى في مكانه إبراهيمَ بن الأغلب في (سنة ١٨٤ هـ)، فكانت هذه

---

(١) راجع الذهبي/ سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٧٨-٤٨٨)، تاريخ ابن خلدون/ العبر (ج: ؟).

السنة نقطة التحول في تاريخ إبراهيم بن الأغلب الذي بدأ يؤسس إمارة الأغالبة ودولتهم شيئاً فشيئاً، ولم يصطدم الرشيد مع رغبة ابن الأغلب، بل نظر إليها أنها ستكون رادعاً للثورات في هذه المنطقة البعيدة عن عاصمة الخلافة، والكثيرة الصراعات، وخاصة أن ابن الأغلب لن يكون مستقلاً، بل سيعمل باسم العباسيين، وخاصة أن الرشيد كان مشغولاً بحرب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات الولايات الشرقية، كما أنه أراد أن تكون هناك قوة في الأجزاء الغربية من الدولة موالية للعباسيين تقف في وجه المناوئين لها، خاصة وأن الرشيد لم يكن لديه أسطولٌ بحري قوي يكفي لحماية سواحل البحر المتوسط.

ولقد صدق حدسُ هارون الرشيد؛ إذ أن المغرب الأدنى ثار عليه بقيادة رجل يقال له: الكندي، فاستطاع ابن الأغلب أن يقضي على ثورته، كما ثار أهل طرابلس على أميرهم سفيان بن المهاجر في (سنة ١٨٩هـ)، ولكن ابن الأغلب قضى أيضاً على حركة طرابلس، وفرض سلطانه على المنطقة لفترة من الزمان، وامتدت دولته من طرابلس، شرقاً إلى قسنطينة في المغرب الأوسط (الجزائر) غرباً.

قال ابن عذاري: لم يل إفريقية أحسن سيرة، ولا أحسن سياسة، ولا أرأف برعية، ولا أوفى بعهد، ولا أرعى لحرمة منه⁽¹⁾.

استطاعت هذه الدولة أن تقضي على ثورات متتابعة في المنطقة، وقد اشتهر بعض ولاتها بعدله، وإحسانه للرعية، ومن أشهرهم: إبراهيم الثاني (٢٦١هـ - ٢٨٩هـ) الذي كان يجلس في جامع القيروان ليستمع إلى مظالم العامة، ويفصل بين الناس بالعدل، وقيل: إنه قبل وفاته تصدق بجميع ما يملك، وأوقف أملاكه لله تعالى.

كما أقامت دولة الأغالبة الخطبة لبني العباس على منابرها، وقامت بدفع الخراج المقرر عليها أربعين ألف دينار سنوياً، كما نقشت دولة الأغالبة اسمَ الخليفة على السكة (العملة)، بل قامت الدولة بإنشاء مدينة العباسة (القصر القديم) تمجيداً للخلافة العباسية.

---

(١) الزركلي/ الأعلام (١/ ٣٣).

اشتهرت هذه الدولة بالجهاد، وغزو جزر وسواحل أوروبا على البحر المتوسط، فلقد أعادوا فتح جزيرة صقلية مرة أخرى على يد علم القيروان وقاضيها أسد بن الفرات(١) والذي واجه مئة وخمسين ألفاً مع صاحب صقلية، واستطاع أن ينتصر عليهم ويهزمهم هزيمة نكراء.

وقد أصيب في المعركة، ومرض وهو محاصر صرقوسية أكبر مدن صقلية، وقد مات وهو محاصرها متأثراً بجراحه ومرضه، ودفن هناك في (سنة ٢١٣هـ)، وهو أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، والذي كتب الأسدية تأصيلاً لفقه مالك في شمال إفريقيا، والتي بنى عليها سحنون المدونة في فقه مالك.

كما غزا الإيطاليون سواحل تونس، فخرج إليهم الأمير أحمد بن محمد الوالي على رأس جيش في حملة كبيرة حتى بلغ مدينة روما عاصمة إيطاليا، واستطاعوا أن ينتشروا في ضواحي المدينة، كما قام بالاستيلاء على الحصون حول المدينة، وظلت روما تحت سيطرته لمدة شهرين إلى أن هبت أوروبا بكاملها تمد الطليان بالإمدادات اللازمة، فعندئذ قفل جيش الأغالبة راجعاً بعد أن حقق هدفه، وغنم غنائم كثيرة، وهي المرة الأولى التي حاول فيها المسلمون فتح روما تحقيقاً لنبوءة النبي ﷺ.

---

(١) أسد بن الفرات: أبو عبد الله الحراني ثم المغربي الإمام العلامة القاضي الأمير، مُقدَّمُ المجاهدين، ولد بحران (سنة ١٤٤هـ)، قدم به أبوه فرات بن سنان إلى القيروان وهو صغير حيث نشأ وتعلم بها ودرس على مشايخها، ثم رحل لطلب العلم في (سنة ١٧٢هـ) إلى المدينة النبوية، حيث أدرك الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب، وروى عنه الموطأ، ثم ارتحل إلى العراق والتقى بكبار أصحاب أبي حنيفة، وسمع من أبي يوسف ومحمد بن الحسن.

لقي ابن القاسم في مصر، وعرض عليه مسائل مالك، فدونها أسد وصاغها فيما سمي بالأسدية.

تولى القضاء بالقيروان (سنة ٢٠٤هـ) وكان صاحب عقيدة وديانة، ويتضح ذلك عندما كان يقرأ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ [طه:١٤]. فيقول: ويل أم أهل البدع، يزعمون أن الله خلق كلاماً يقول أنا.

كان مع توسعه في العلم فارساً بطلاً شجاعاً مقداماً، توفي (سنة ٢١٣هـ) متأثراً بجراحه في فتوحات صقلية، رحمه الله وعفا عنه.

الذهبي / السير (١٠/ ٢٢٧-٢٢٨)، الزركلي/ الأعلام (١/ ٢٩٨)، د.عمر سليمان الأشقر / المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي (ص:٢٢٨).

كما أن دولة الأغالبة استطاعت أن تواجه أهل البدع والأهواء بعلماء وفقهاء، ومنهم: الإمام سحنون بن سعيد صاحب المدونة(١)، والذي وقف في وجه أهل الأهواء والبدع، ومنعهم من المسجد الجامع الذي كانوا يجتمعون ويتناظرون فيه من أصحاب الفرق المختلفة كالمعتزلة، والزنادقة، والصفريّة، والإباضية، كما منعهم سحنون من التحدث والمناظرة فيه.

وتعتبر دولة الأغالبة وزمانهم من أزهى فترات التاريخ الإسلامي في شمال أفريقيا، وقد دامت لأكثر من قرن من الزمان تذبُّ وتدافع عن دولة الخلافة، وعن معتقد أهل السنة والجماعة، والوقوف في وجه الخوارج، مما جعل لهذه الدولة شخصية متفردة ومتميزة عن بقية مناطق المغرب؛ حيث حظيت بالنهضة والإنجازات العلمية والعمرانية، ولا تفي هذه العجالة ببيان ما لهذه الدولة من مكانة.

اهتمت دولة الأغالبة بالعمارة الإسلامية، فأنشؤوا جامع الزيتونة، وهو من أعظم العمارة الإسلامية في العالم، كما أعادوا بناء مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وأنشؤوا مدينة رقادة التي حفلت بالقصور والأبنية الفاخرة.

وانتهت هذه الدولة على يد الدولة الفاطمية العبيدية التي ظهرت بعد ذلك، وذلك بعد فرار آخر أمراء الأغالبة زيادة الله الثالث، والذي كان سبباً في ضعفِ الدولة وطيِّ صفحتها من التاريخ.

---

(١) سحنون بن سعيد: أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي، الحمصي الأصل المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة في الفقه المالكي.

ارتحل لطلب العلم، وسمع من سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وهب، وأشهب، وعبد الرحمن بن القاسم، والوليد بن مسلم، ووكيع بن الجراح، وطائفة من العلماء.

ساد أهل المغرب في تحرير المذهب المالكي، وانتهت إليه رئاسة العلم، وتفقه به عدد كثير، ووصف بالعقل والديانة التامة والورع، وكان مشهوراً بالجود والبذل.

وضع المدونة في الفقه المالكي، وأصلها الأسدية التي وضعها أسد بن الفرات، ارتحل بها سحنون وعرضها على ابن القاسم، فأصلح بها كثيراً وأسقط، ورتبها سحنون وبوبها، واحتج لكثير من مسائلها بالآثار والأدلة من مروياته، وهم بتهذيبها ـ أي: المدونة ـ في آخر أيامه غير أنه أدركته المنية رحمه الله قبل ذلك.

ومعنى سُحنون طائر بالمغرب يوصف بالفطنة والتحرز، وينطق بفتح السين وبضمها.

توفي رحمه الله في شهر رجب (سنة ٢٤٠هـ)وله ثمانون سنة. الذهبي/ سير الأعلام (١٢/ ٦٢-٦٩).

الدولة الزيدية (١)

(٢٥٠هـ - ٣٠٠هـ)

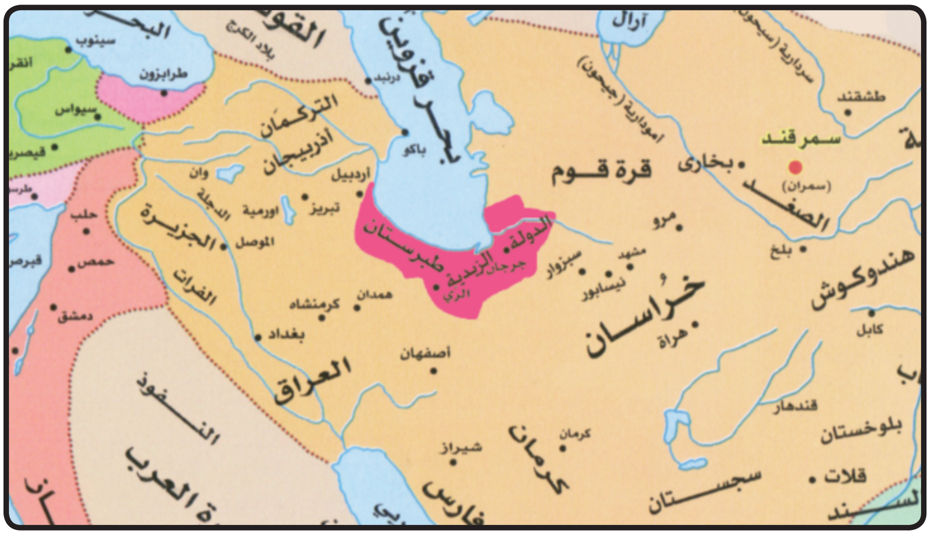
البحر
سينوب
طرابزون
سيواس
قيصرية
القوقاز
بلاد الكرج
دربند
بحر قزوين
باكو
التركمان
أذربيجان
أردبيل
وان
تبريز
أورمية
الموصل
الجزيرة
الفرات
دجلة
حلب
حمص
قبرص
دمشق
بغداد
كرمنشاه
همدان
العراق
أصفهان
الدولة الزيدية طبرستان
جرجان
الري
سبزوار
نيسابور
مشهد
مرو
قرة قوم
بخارى
سمرقند
(سمران)
الصغد
آرال
طشقند
بلخ
هندوكوش
خراسان
هراة
كابل
قندهار
بلوخستان
قلات
سجستان
كرمان
شيراز
فارس
النفود
جزيرة العرب

الدولة الزيدية

تنسب **الدولة الزيدية**(٢) إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنشأها الحسن ابن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي في طبرستان(٣) بعد مقتل يحيى بن عمر بن الحسين بن زيد(٤) بعد أن أرسل إليه أهل طبرستان أن يأتي إليهم

---

(١) راجع ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (ج:٤)، ابن خلدون/ العبر (ج:٧).

(٢) الزيدية: هي إحدى فرق الشيعة ترجع نسبتها إلى زيد بن علي بن الحسين وكان يرى صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، مترضياً على كل الصحابة، مخالفاً بذلك كل عقائد الشيعة في الصحابة ﷺ.

كما خالفوهم في أن الإمامة ليست لديهم بالنص، ويجيزونها في كل أولاد فاطمة من نسل الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، وأنها ليست وراثية.

كما يجيزون وجود أكثر من إمام في وقت واحد وفي أقطار مختلفة، ويقولون بإمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما يميلون إلى الاعتزال في تأويل الصفات والأسماء، ولا يقولون بجواز المتعة بل ينكرونه.

وينتشر اليوم أتباع المذهب الزيدي في اليمن، وقد بدأت اليد الخمينية تمتد إليهم عن طريق الإغراءات المادية؛ ليجعلونهم معهم في صف واحد في مواجهة أهل السنة والجماعة، كما نراهم اليوم في حربهم على المسلمين وهم يرفعون شعار الحوثية.

وتنقسم إلى عدة فرق: ١. الجارودية أصحاب أبي الجارود زياد بن زياد. ٢. الصالحية أصحاب الحسن بن صالح بن حي. ٣. البترية أصحاب كثيّر النوى الأبتر. والأخيرتان متفقتان ومتماثلتان في الآراء، وغيرهم من فرق الزيدية. غالب العواجي/ فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (١/ ٣٣٤).

(٣) طبرستان: تسمى اليوم: مازندران، وتقع في شمال إيران، وهي منطقة جبلية وعرة وعظيمة، وهي بلدان واسعة كثيرة خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه، والغالب عليها الجبال، وعاصمتها آمُل، وهي كثيرة المياه والأشجار والفواكه.

دخلها الصحابة فاتحين لها وفتحوا المدن المتصلة بها في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهما، وفي (سنة ٢٩هـ) غزا سعيد بن العاص طبرستان، وكان معه الحسن والحسين رضي الله عنهما وفتح مدناً كثيرة تتبعها، وتمت فتوحاتها بعد ذلك في عهد الدولتين الأموية والعباسية. ياقوت الحموي/ معجم البلدان (٧٨٤٩/ ٤/ ١٤-١٨) بتصرف.

(٤) كان يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قد خرج بالكوفة على الدولة بعد أن جمع حوله الناس واستطاع أن يستولي على بيت المال، وطرد نواب الخليفة من الكوفة بعد أن أخذ أموالهم واستحوذ عليها، والتف عليها خلق من الزيدية وغيرهم، وواجه بهم جيش =

ليبايعوه عليهم أميراً[1]، وقد خلعوا الطاعة لبني العباس، وكان من قبل يعيش الحسن في مدينة الري التي ولد بها ونشأ فيها، فلما وصل إلى طبرستان التف حوله جماعة من الديلم وأمراء تلك النواحي، ودخل معهم إلى آمُل عاصمةِ طبرستان، وأخذها قهراً، وجبى خراجها، واشتد أمره، خاصة بعد أن وقع بينه وبين والي خراسان محمد بن عبد الله بن طاهر حروب انتصر فيها، ودخل إلى تلك المناطق، واستحوذ على ما بها من الأموال والحواصل، فاجتمع له إمرة طبرستان بكاملها، واستطاع بعد ذلك أن يمتد بنفوذه إلى الري (طهران) إلى حدّ همذان، وقد ساعده إنشغالُ الخلافة العباسية بالعديد من الفتن على أن يستقر بطبرستان، وكذلك طبيعة طبرستان الجغرافية.

وقد جرأ هذا الأمر خروجَ الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب على الخروج بالكوفة (سنة ٢٥١هـ)، وولى عليها من قِبله رجلاً يقال له: محمد بن جعفر بن الحسين بن جعفر بن الحسين بن حسن يكنى: أبا أحمد، فأرسل إليه الخليفة المستعينُ مزاحمَ بنَ خاقان بن أرطوج، فكتب إلى الحسين بن محمد أن يرجع إلى الجماعة، وأن يلزم الطاعة، فهرب الحسين، ودخل مزاحم الكوفة، وسجن عدداً من أصحاب الحسين بن محمد.

ولقد كان الحسن بن زيد على المذهب الزيدي الذي وضعه زيدُ بن علي بن الحسين، والذي رفض فتنة أهل الكوفة ودعوتهم لسبّ الصحابيين الجليلين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وقد قام الحسن بنشر الإسلام بين قبائل الديلم والترك التي لم تدخل الإسلام من قبل، وانتشر فيها التشيعُ على المذهب الزيدي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الغلوِّ في آل البيت العلوي.

= الخلافة، واستطاع أن يهزمهم، ودعا إلى الرضا من آل محمد، وشاع أمره وأتى إليه جماعات أخرى من أهل الكوفة وغيرها، كما أعلن شيعة بغداد ولاءهم له، فبدأ يجمع السلاح ويعد آلات الحرب، وفي شهر رجب من (سنة ٢٥٠هـ) واجهه جيش الخلافة، فاقتتلوا قتالاً شديداً في الليل، واستطاع جيش الخلافة مع الفجر أن يقضي على هذه الفتنة التي قُتل فيها يحيى، وحزت رأسه وحُملت إلى الخليفة، فأمر أن تنصب في سامراء ساعة من النهار، ثم بعثه إلى بغداد لينصب عند الجسر، وأطفأ الله هذه الفتنة.

(١) كان سبب ذلك: أن الخليفة اقتطع لمحمد بن عبد الله بن طاهر الذي قضى على فتنة يحيى بن عمر في الكوفة عدة أراض في طبرستان، فلما أرسل محمد بن طاهر من يتسلم هذه الأراضي، وقعت الخلافات بينهم وبين الوالي العباسي؛ مما دفعهم إلى خلع الطاعة، والالتفاف حول الحسن بن زيد.

وقد ولي الحسن بن زيد أمر تلك البلاد نحو عشرين سنة، حيث توفي في شعبان (سنة ٢٧٠هـ)(١) وتولى من بعده أخوه محمد بن زيد والذي قُتل في سنة ٢٨٧هـ(٢).

ثم تراجعت بعد ذلك الدولة الزيدية بسبب صراعات القوى في المنطقة، وانتهت في سنة (٣٠٠هـ).

---

(١) ابن الأثير/ الكامل (٤/ ٥٣٦).
(٢) ابن الأثير/ الكامل (٤/ ٥٩٥).

الدولة الطولونية (١)

(٢٥٤هـ - ٢٩٢هـ)

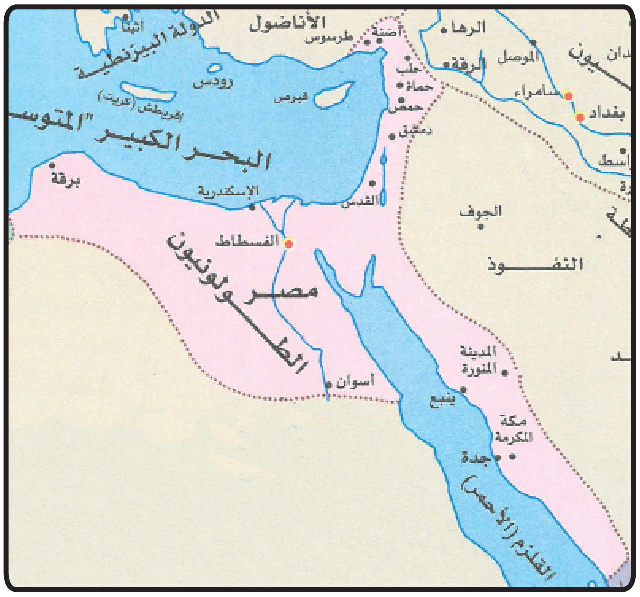
الدولة البيزنطية
أثينا
الأناضول
طرسوس
أضنة
الرها
الموصل
الرقة
سامراء
بغداد
واسط
حلب
حماة
حمص
دمشق
رودس
قبرص
أقريطش (كريت)
البحر الكبير "المتوسط"
برقة
الإسكندرية
القدس
الجوف
الفسطاط
النفوذ
الطولونيون
مصر
المدينة المنورة
أسوان
ينبع
مكة المكرمة
جدة
القلزم (الأحمر)

الدولة الطولونية

تنسب **الدولة الطولونية** إلى أحمد بن طولون التركي الأصل، والذي نشأ نشأة علمية وعسكرية تختلف عن الكثير من أبناء جنسه؛ إذ أنه كان حافظاً للقرآن، بل كان من أحفظ الناس له، ومن أطيبهم صوتاً به، فيه صيانة وعفاف ورياسة، ولاه المعتز الخليفة العباسي مصر في رمضان (سنة ٢٥٤هـ)، فأحسن إلى أهلها، وعدل بينهم، وأنشأ بها جامعه الشهير بالمنارة الملتوية، وظل يبنيه لثلاث سنوات، وما زال قائماً في القاهرة شاهداً على ذلك الزمان، كما بنى بيمارستاناً (مستشفى) لعلاج المرضى، وكانَ يكثر من الصدقات وأعمال الخير، وكانت له مائدة يحضرها الخاصّ والعام، وكانَ يتصدق في كل شهر من خالص ماله بألف دينار، وكانت له صدقات كثيرة جداً، وإحسان زائد، حتى إن الناس كانت تأكل وتحمل من الطعام ما شاءت من أنواع الأطعمة المختلفة، وكان هو ينظر إليهم ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون، فيسره ذلك، ويحمد الله على المنة والنعمة.

---

(١) راجع ابن الأثير / الكامل (٤/ ٣٩٩)، ابن خلكان/ وفيات الأعيان (ج:١)، ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٥٨٧-٥٩٢) بتصرف، المقريزي/ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

حدث خلاف بينه وبين الخلافة العباسية أدت إلى تباعد ونفرة، وفي (سنة ٢٦٤هـ) ضم إليه الشام والثغور، فأحسن إلى أهلها إحساناً بالغاً، واتسعت مملكته حتى بلغت إلى الفرات شرق سوريا، وقد استطاع بحسن سياسته أن تزيد مصادر الثروة في مصر حتى بلغ خراج مصر في عهده أربعة ملايين وثلاثمئة ألف دينار ذهبي في السنة، وكان يخطب للخليفة العباسي، ولم ينزع يد الطاعة عنه برغم أن ملكه فاق ملك الخليفة إلى أن توفي رحمه الله في (سنة ٢٧٠هـ)، وقد ترك خلفه من الأموال والأثاث والدوابّ شيئاً كثيراً، من ذلك: عشرة آلاف ألف دينار (عشرة ملايين دينار)، ومن الفضة شيئاً كثيراً، وكان له ثلاثة وثلاثون ولداً، منهم سبعة عشر ذكراً، وكان له من الغلمان أربعة وعشرون ألف غلام، ومن الموالي سبعة آلاف مولى، ومن البغال والخيل والجمال شيءٌ كثيرٌ جداً.

تولى من بعده ابنه خمارويه من (سنة ٢٧٠ إلى سنة ٢٨٠هـ)، فاستمر على نسق أبيه، ووقعت في عهده معارك بينه وبين الأتراك أصحاب السلطة العسكرية في بغداد الذين أرادوا أن يخرجوه من الشام، فاستطاع الانتصار عليهم (سنة ٢٧١هـ) قرب دمشق؛ مما اضطر الموفقَ وزيرَ الخلافة أن يعقد صلحاً مع خمارويه، وقلده الخليفة حكمَ مصر والشام والثغور أطراف بلاد الروم.

وشيئاً فشيئاً قويت العلاقة بين خمارويه والخليفة المعتضد الذي تولى بعد المعتمد، وازدادت قوةً عندما تزوج الخليفة من ابنة خمارويه أسماء، والتي تُلقب بقطر الندى، والتي جهزها خمارويه جهازاً تُضرب به الأمثال من الجوهر والمال، بل أمر ببناء القصور في الطريق بين مصر وبغداد لتستريح فيها قطر الندى في أثناء السفر؛ مما أضعف خزينة الدولة، وأدى إلى تراجعها بعد أن كانت ممتدة، ثم تمت المؤامرة عليه، وقتله أحدُ خدمه بدمشق، فحملوه إلى مصر، ودفنوه هناك بناء على وصيته (سنة ٢٨٢هـ)، ويعتبر هو آخر الطولونية، وتوفي عن اثنتين وثلاثين سنة(١).

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية (١٤/ ٦٦٠-٦٦١).

وبعد مقتل خمارويه بدأ الضعف يدب بشكل كبير في أرجاء الدولة الطولونية، وقد حكم من بعده ثلاثة من البيت الطولوني خلال عشر سنوات، وهم على الترتيب: ابنه أبو العساكر، والذي كانت سمعته سيئة، والتف حوله حاشية سيئة أعانته على الفساد، فخرجت بلاد الشام من طاعته، وتبرأ العلماء من بيعته، وتم خلعُه وسجنه، وتولى من بعده أخوه الأصغر هارون، والذي لم يزد عمره على أربع عشرة سنة، وانتهى الأمر بمقتله، وتولى من بعده عمه شيبان بن أحمد بن طولون، والذي لم يرضَ عنه قادةُ الجند؛ مما أدى إلى إشاعة الفوضى التي انتهت بإحراق مدينة القطائع عاصمةِ الطولونيين، ولم يبقَ منها غير المسجد الجامع الشهير بمسجد أحمد بن طولون، وطويت بذلك صفحة الدولة الطولونية من التاريخ.

الدولة السامانية(١)

(٢٦١هـ ـ ٣٨٩هـ)

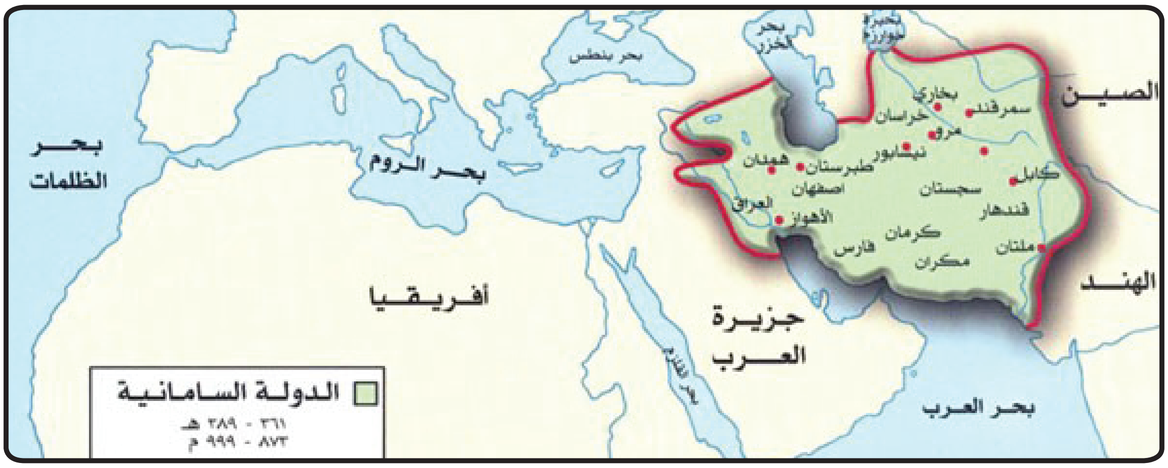
بحر الظلمات
بحر الروم
بحر بنطس
بحر الخزر
بحيرة خوارزم
أفريقيا
جزيرة العرب
بحر القلزم
بحر العرب
الصين
الهند
بخارى
سمرقند
خراسان
مرو
نيسابور
طبرستان
همذان
اصفهان
العراق
الأهواز
سجستان
كابل
قندهار
كرمان
فارس
مكران
ملتان
🟩 الدولة السامانية
٢٦١ - ٣٨٩ هـ
٨٧٣ - ٩٩٩ م

تنسب الدولة السامانية إلى قرية سامان بسمرقند، والتي عرفت الإسلام في زمان الأمويين، وكان أحد رجالها المسمى بأسد الساماني، والذي سُمِّي باسم أسد بن عبد الله القسري والي الأمويين على خراسان في ذلك الحين، وكان على صلة بعد ذلك في أيام العباسيين بالخليفة هارون الرشيد، ثم بابنه المأمون أيام أن كان في مرو، وحاز هذا الرجل ثقة المأمون، حتى إنه لما انتقل إلى بغداد ولى أبناءَ أسدٍ السامانيِّ الأربعةَ: نوحاً، وأحمد، ويحيى، وإلياس على الولايات الأربعة في بلاد ما وراء النهر، سمرقند، والشاش (طشقند)، وأشروسنة(٢) وفرغانة، وولاية هرات في أفغانستان، وظلت هذه الأسرة تحظى بمكانة عند الخلفاء، وفي رمضان (سنة ٢٦١هـ) أسند الخليفة المعتمد العباسي ولاية جميع بلاد ما وراء النهر إلى نصر بن أحمد بن أسد الساماني، وبدأ نصر بن أحمد ينظم الولايات التي وزع عليها إخوته جميعاً ليؤسس الدولة السامانية.

واتخذ نصر بن أحمد من سمرقند عاصمة له، وبعد وفاته تولى أخوه إسماعيل بن أحمد، والذي يعده كثير من المؤرخين المؤسسَ الحقيقي للدولة السامانية، وقد أقره الخليفة

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٥٤٩).والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
(٢) أشروسنة منطقة تاريخية تقع بين وادي فرغانة وخجندة في بلاد ما وراء النهر فيما يسمى اليوم بأوزبكستان. الحموي/ معجم البلدان (١/ ٢٣٤).

العباسي المعتضد على بلاد ما وراء النهر وخراسان (سنة ٢٨٧هـ)؛ مما دفعه أن يقوم بتطوير دولته في جميع المجالات، وأن يتسع في حدودها، واتخذ من بخارى عاصمة له.

اتسعت دولة السامانيين بعد ذلك اتساعاً كبيراً، ودخلت تركستان كاملةً ضمنها، وأصبحت دولة السامانيين ضمن دولة الإسلام.

كانت العلاقة بين السامانيين والعباسيين علاقة قوية، تقوم على أسس متينة بين الدولة الأم العباسية، وبين توابعها من الدول التي نشأت في ظلها، مما ساهم في تأمين أطراف الدولة العباسية في المشرق من هجمات الأتراك قبل دخولهم الإسلام، كما استخدمتهم الدولة العباسية في القضاء على حركات التمرد في تلك المناطق، مثل حركة محمد بن زيد العلوي في طبرستان، والتي انتهت بفتح السامانيين لها، والقضاء على حركته، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي.

ضعفت الدولة السامانية كما هي سنة الله في خلقه، بسبب الصراعات بين رجالات الحكم؛ مما أدى إلى الفوضى التي عمت البلاد، وانتهى الأمر بطيِّ صفحة الدولة السامانية في عهد آخر أمرائها عبدِ الملك بن نوح بن منصور، وذلك على يد السلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين الذي استطاع أن يدخل خراسان، وأن يستلب ملكَ السامانيين بعد أن واقعهم مراتٍ متعددة في (سنة ٣٨٩هـ) حتى أزال اسمهم ورسمهم عن البلاد بالكلية، وانقرضت دولتهم على يديه(١).

ولقد بقيت هذه الدولة إلى آخر زمانها وفيةً للخلافة العباسية، داعمةً لها، عاملة على بقائها تحت سماء الدنيا.

واتهمت الدولة السامانية بالتشيع والاعتزال وبعض الزندقة إذ أنه أمَّ بلادَهم الفلاسفةُ والملاحدة؛ كابن سينا(٢) وغيره.

---

(١) الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية (١٥/ ٤٨٢).

(٢) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ولد في بخارى (سنة ٣٧٠هـ)، تلقى علوم الفلسفة منذ الصغر والمنطق من أبي عبد الله النائلي الملحد؛ مما أثر عليه في انحرافه العقدي، كان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون برب ولا خالق ولا رسول مبعوث من عند الله، وكانت له مقالات كفرية أثبت فيها أنه إمام للملحدين كما قال عنه ابن قيم الجوزية في «إغاثة اللهفان»، وقال عنه أيضاً: مُعطل مشرك، جاحد للنبوات والمعاد، قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده، وغاية ما أمكنه، هلك في (سنة ٤٢٧هـ). الذهبي/ السير (١٧/ ٥٣١).

وذهب بعض المؤرخين إلى أنهم من أهل السنة والجماعة، ويستدل على ذلك بالحروب التي قامت بينهم وبين البويهيين الذين ادعوا محبة آل البيت، والصحيح أنهم لم يكونوا جميعاً سواءً في المعتقد، فالأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني كان من هواة الإسماعيلية الباطنية، وقرب النسفي الباطني الإسماعيلي، وترك له حرية الدعوة، غير أن قواده من العسكر، وكلّهم من أهل السنة والجماعة أبوا عليه ذلك؛ مما اضطره إلى التخلي عن الحكم لابنه نوح، الذي قام بمحاربة مذهب الإسماعيلية الباطنية، كما دعا العلماء من أهل السنة لمناظرة النسفي، فلما حاجّوه وغلبوه، أمر الأمير بقتله.

ومما يؤكد أن معظمهم كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة: أنهم كانوا سبباً في دخول الكثير من الترك للإسلام، والذين بقُوا على معتقد أهل السنة والجماعة بعد ذلك.

مِلَفُ ٱلقَرَامِطَةِ وَٱلبَاطِنِيَّةِ

دولة القرامطة

قال ابن خلدون: ودعوى هؤلاء القرامطة في غاية الاضطراب، مختلة العقائد والقواعد، منافية للشرائع والإسلام في الكثير من مزاعمهم(١) .

---

(١) تاريخ العبر (٧/ ١٨١).

دولة القرامطة (١)

(٢٧٨هـ - ٤١٨هـ)

- **مدخل هام:**

ترتبط دولة القرامطة ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الباطنية التي نشأت على يد ميمون بن داود بن ديصان القداح الفارسي اليهودي الديانة، وقامت على نفس الأفكار التي نشأت عليها وامتداداً لها الدولةُ العبيدية الفاطمية في شمال إفريقيا ومصر والشام، ولابد لنا قبل الخوض في الحديث عن القرامطة ودولتهم أن نتعرف على العقيدة الباطنية وفِرقها، وأثرها على الأمة، حتى يتبين للقارئ حقيقة دولة القرامطة ومعتقدها.

الباطنية:

مذهب من أخبث وأردأ المذاهب، وأتباعهُ من ألد أعداء الإسلام، ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن لهم في معاداة الإسلام وأهله وقائعَ مشهورة، وإذا تمكنوا سفكوا دماء المسلمين، وإذا عجزوا لجؤوا إلى المؤامرة والتخطيط السري، وهم مع كل عدّو للمسلمين، فلقد كانوا أعظم أعوان النصارى الصليبيين عند استيلائهم على السواحل الشامية، وكانوا عوناً للتتر في اجتياح بغداد (٦٥٦ هـ)، فهم الذين حرضوا التتر على قتل الخليفة، واستباحة أعراض المسلمات وفضحهنّ، وسفك دماء المسلمين بغير حق(٢).

قال البغدادي(٣): اعلموا ـ أسعدكم الله ـ أن ضرر الباطنية على المسلمين أعظمُ من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم ، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثرُ من الذين يضلون بالدجال من وقت

---

(١) راجع ابن الأثير/ الكامل، ابن كثير/ البداية والنهاية، ابن خلدون/ العبر، الغزالي/ فضائح الباطنية، عبد الرحمن بن الجوزي/ القرامطة/ تحقيق: محمد لطفي الصباغ، محمود شاكر/ القرامطة، د. غالب العواجي/ فرق معاصرة تنتسب للإسلام، الشهرستاني/ الملل والنحل (ج:٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٩-١٥١)/ بتصرف.

(٣) البغدادي: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، (ت: ٤٢٩هـ)، صاحب كتاب الفرق بين الفرق. الذهبي/ السير (١٧/ ٥٧٢).

ظهوره ؛ لأن فتنة الدجال لاتزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هم أكفرُ من اليهود والنصارى، بل وأكفرُ من كثير من المشركين، وضررُهم على أمة محمد ﷺ أعظمُ من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار الفرنج والتتار وغيرهم؛ فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لايؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا بنهي، ولا بثواب ولا بعقاب، ولا بجنة ولا بنار(٢).

أنشأ مذهبَ الباطنية ميمونُ بن داود بن ديصان القداح؛ أصله مجوسي، وقيل: يهودي من فارس، ولد بالأهواز، وانتقل إلى مكة، واتصل بمحمدٍ الباقر وولدِه جعفرٍ الصادق، ثم استقرا في السلمية من أعمال حمص بالشام، وألف كتابين، أحدهما: الميزان، والثاني: الهداية، وتوفي بالسلمية، انحدر من نسله الفاطميون أتباعُ عبيد الله بن ميمون القداح.

أسس مذهبه على مقاصدَ خبيثة، من أهمها: زعزعة الإسلام في نفوس المسلمين، وتشكيكُهم فيه، والقضاء عليه تباعاً، وإحلال المجوسية والإلحاد محله، ويقوم مذهبهم على تأويل النصوص تأويلاً يخالف مراد الله تعالى، واتخذوا من التشيع وسيلة لتحقيق أهدافهم .

ويذكر المؤرخون أن تأسيس المذهب تم أولَ الأمر في اجتماع لأبناء المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين، والملاحدة من الفلاسفة، وبقاية الخرمية واليهود، وقالوا: إن محمداً غلب علينا وأبطل ديننا ، واتفق له من الأعوان مالم نقدر على مقابلتهم، ولا مطمعَ لنا في نزع مافي أيدي المسلمين بالسيف والحرب؛ لقوة شوكتهم، وكثرة جنودهم .

فقام ميمون القداح بالعمل على إيجاد المذهب، وإيجاد الوسائل المعينة على نشره، لذلك أظهر زوراً الإسلامَ ومحبةَ آل البيت، وقال بأن القرآن له ظاهر وباطن، وأن الظاهر قشور، والباطن لباب، من أجل أن يؤول وجماعته ما شاؤوا من النصوص على الوجه الذي يريدون، ولذلك اتخذوا من الروافض «حمير اليهود» مركباً للوصول إلى المسلمين،

---

(١) الفرق بين الفرق (ص:٢٤٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٤٩).

فهم كما **قال الغزالي**(١): أركُّ الناس عقولاً، وأسخفهم رأياً، وأطوعهم لتصديق الأكاذيب والخرافات ، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض(٢).

قال بعض أهل العلم: إن الإمامية دهليز الباطنية.

وهذا مايفسر لنا التقاربَ الشديد بينهم وبين الرافضة في كل زمان، وما يجري في سورية اليوم صورة لهذا التقارب الخبيث الحاقد.

جملة من معتقدات الباطنية:

تتكون عقائد الباطنية من مجموعة أفكار كلُّها خبطٌ واضطراب من مذاهب شتى، ويستدلون عليها ببعض آيات القرآن، وبعض الأحاديث النبوية التي يحرفون معناها ، ويؤوِّلونها بحسب معتقداتهم الإلحادية، وهي في الجملة تقوم على إنكار وجود الله تعالى، وجحد أسماء الله وصفاته، وتحريف شريعة الإسلام، وإنكار النبوات والمعجزات، كما اعتقدوا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في اليوم الذي أوصى فيه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه بغدير خم، كما زعموا أن القائم المهدي عندهم حيّ لم يمت ، وأنه يعيش ببلاد الروم، وعند خروجه من طَوْر الخفاء سيخرج علينا بقرآن جديد، كما أنكروا الدار الآخرة بكل ما فيها، وقالوا: إن القيامة هي خروجُ قائم الزمان، كما اعتقدوا بتناسخ الأرواح، واعتقدوا بإسقاط التكاليف الشرعية، والإباحية البهيمية، وبهذه الخرافات التي جمعوها من مزابلَ طفحت بها عقولٌ فاسدة من الهندوس والبوذيين والرافضة الاثني عشرية، خرجوا علينا بهذه الديانة التي لاعلاقة لها بالإسلام من قريب ولا بعيد.

كما اتخذوا من المخدرات وسيلة للسموّ الروحي كما يزعمون ، وأشهرُ من استخدمها عندهم طائفةُ الحشاشين، الذين تعبدوا بأكل الحشيشة، والقيام بعدها بأعمال باطلة منحرفة، منها: قتلُ من خالفهم، معتقدين أنهم في سمو تام وأنسٍ مع الإله. عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

---

(١) أبو حامد الغزالي: (ت: ٥٠٥هـ)، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري صاحب كتاب الإحياء، كان والده يعمل بغزل الصوف لذا سمي بالغزالي. الذهبي/ السير (١٩/ ٣٢٢).

(٢) نصائح الباطنية (ص:١٩، ٣٧)/ بتصرف.

من مبادئ الباطنية: تقديسُ النفاق والكذب والخداع، فهم يجارون ويوافقون مذهب الآخرين، فإن كان سنياً، أظهروا منهج السنة، وإن كان غير ذلك، أظهروا تعظيمهم لمنهج الآخر، فهم يتلونون ويتحايلون بهذه الطرق المختلفة للوصول إلى قلوب الناس، وقد وضعوا لأنفسهم حِيَلاً يدخلون بها على الناس؛ فقد أسسوا في مذهبهم عدة حِيَل، أشهرها: حيلة السلخ ، وهي أنهم إذا اطمأنوا إلى المدعوّ، وأنه أصبح منهم، أخبروه بأنه أُطلق وثاقه، وحلَّ له كل ما حرم على غيره من الناس الذين لم يوافقوا مذهبهم ، وأنه سقطت عنه جميع التكاليف الشرعية، وأُبيح له كلُّ شيء، كما أن الإمام يُسقط عن الفرد بعض التكاليف الشرعية؛ كالصلاة مقابل مبلغ من المال، بعد أن يقرأ له الإمام: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ويفهمه أن معرفة الأسماء الخمسة علي والحسين والحسن ومحسن وفاطمة هي الصلاة الحقيقية، وكذلك يسقطون عنه فريضة الصوم، والحجّ، كما يسقطون عنه حرمة الخمر والميسر، والاغتسال من الجنابة، ثم يسقطون عنه حرمة الزنى، ويسمونه: المشهد الأعظم ونهاية الفوز، وإحلاله هو دخول الجنة، ثم يتلو عليه الإمام: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾ [الأعراف:٣٢]. فالزينة عندهم ما خفي من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا الخاصة منهم ، كما يقرأ عليه: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة:١٧].

يبدأ المدعو بتطبيق هذه المبادئ التي تبيح الفجور والفحش، وأول ما يطبق على زوجته، فيبيحها للمدعو، ثم يحضر المشهد الأعظم عندهم، وهو اجتماع الرجال والنساء في مكان واحد، وإطفاء السُّرُج بعد أن تدار الكؤوس، وتحمى الرؤوس، ثم يقعون في بعضهم بعضاً، ويتناهبون النساء، ويسمون ذلك: صيداً.

وهكذا ينقضون الإسلام عروة عروة بإسقاط التكاليف، زاعمين أن ذلك هو السمو والعلو، والوصول إلى تحقيق قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

وهذا يفسر لنا اندفاعَ الهَمل وأصحابِ الشهوات وراء هذه العقيدة الفاسدة، ودفاعَهم عنها، وبذلَ كل غالٍ ونفيس من أجلها.

فرق الباطنية:

- **الإسماعيلية:**

تنوعت فرق الباطنية وجماعاتهم كسائر الفرق المنحرفة، وأشهرهم: الإسماعيلية، وهي التي تُنسب زوراً إلى إسماعيل بن جعفرٍ الصادق، وزعموا أن أباه قد أوصى بالإمامة له من بعده، والصحيح أن إسماعيل مات وهو صبي صغير في (سنة ١٤٥) يعني: في حياة أبيه.

وزعموا أن أباه خاف عليه من الخليفة العباسي المنصور، فأرسله خفيةً مع ميمون القداح إلى السلمية، وأمره أن يتولى رعايته، ويزعمون أيضاً أن إسماعيل تنقل بين دمشق ثم العراق متخفياً بين أتباعه إلى أن مات (سنة ١٥٨هـ)، وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لولده محمد ثاني الأئمة المستورين عندهم، في حين أن الرافضة يزعمون أن موسى الكاظم هو الإمام بعد أبيه جعفر الصادق.

وانقسمت الإسماعيلية إلى ثلاث فرق معاصرة هي: الدروز، والنزارية «البهرة»، والأغاخانية، ويراجع ماكتبه إحسان إلهي ظهير رحمه الله عن الإسماعيلية، والتي انشقت قديماً عن طائفة القرامطة، وكذلك الفاطمية العبيدية كما سيأتي.

- **الدروز:**

وهي طائفة من الإسماعيلية، من الذين ألّهوا الحاكمَ بأمر شيطانه وهواه الفاطميَّ العبيديّ(١)، وجحدوا ما جاء به القرآن، وقالوا بتناسخ الأرواح الذي يسمونه: التقمص.

ظهرت هذه الطائفة في مصر مع بدايات القرن الخامس الهجري، ويتكتم الدروز على عقائدهم أشدَّ التكتم، ولهذا خفي أمرُهم على كثير من العلماء، وهم يتفقون مع النصيرية في الكثير من المعتقدات، ويختلفون معهم إلى حدّ العداوة في تأليه النصيرية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعدم تأليههم للحاكم بأمر هواه، والذي يُؤَلهه الدروز.

---

(١) يزعم الباطنية من الدروز أنه كانت تحل به روح الإله، ويلبس على الناس بتسميته الحاكم بأمر الله.

يقول العلامة السفاريني(١): وكتب أهل الكفر، لاسيما كتب الدروز عليهم لعنة الله، فقد نظرتُ في بعضها، فرأيت العجب العجاب، فلا يهود ولا نصارى ولا مجوس مثلهم، بل هم أشدُّ مَنْ علمنا كفراً؛ لإسقاطهم الأحكام، وإنكارهم القيامة، وزعمِهم أن الحاكم العبيديَّ الخبيثَ ربُّ الأنام. ا.هـ(٢).

وأهل الإسلام هم أبغض الناس للدروز، فهم يتعاونون مع خصوم المسلمين للقضاء على الإسلام وأهله، ولذلك لا عجب أن نراهم ينخرطون في جيش اليهود، وإخلاصهم لهم وقتالهم معهم ضد العرب المسلمين في فلسطين.

ومؤسس هذه الطائفة رجل يقال له: درزي، ويعرف أيضاً بنشتكين الدرزي، وأصله فارسي قدم إلى مصر وكان أولَ من أعلن ألوهية الحاكم، وتبعه على ذلك ضالٌّ فارسيّ آخرُ يدعى: حمزة بن علي الزوزني، والذي أصبح زعيم المذهب الدرزي ومُنَظِّره، وقد ألف درزي هذا كتاباً أعلن فيه ألوهيةَ الحاكم ، وتصدر مجلساً بالجامع الأزهر، وقرأ الكتاب على الناس، مما أحدث ضجة كبرى انتهت بفرار درزي هذا إلى جبال لبنان، وهناك بدأ يؤسس وينشر مذهبه إلى أن قتل (سنة ٤١٠ هجرية).

وهذا يفسر لنا انتشارهم في جبال الشام اليوم، ويطلق الدروز على أنفسهم: الموحدين، وتعني: توحيدَ الحاكم بأمر هواه.

ويستوطن الدروز اليوم مناطق مختلفة بالمشرق والمغرب ، ففي سوريا يسكنون محافظة السويداء، وجبل حوران، وفي لبنان يسكنون في الشحار والمناصب والجرد والعرقوب والشوف والغرب الأسفل والأعلى ، وفي فلسطين عند جبل الكرمل وصفد ، وفي الجزائر بالقرب من مدينة تلمسان.

---

(١) السفاريني: محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، ولد في سفاريين من قرى نابلس بفلسطين (سنة ١١١٤هـ)، تعلم العلم وأصبح من المبرزين في علم الحديث والأصول والأدب، وله مؤلفات كثيرة منها: الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات (خ)، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام (خ)، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب (مطبوع)، لوائح الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية (مطبوع في جزأين)، وشرح منظومة له في عقيدة السلف، وتحبير الوفا في سيرة المصطفى، وغيرها من المؤلفات النافعة، توفي رحمه الله (سنة ١١٨٨هـ). الزركلي/ الأعلام (٦/ ١٤).

(٢) غذاء الأبدان شرح منظومة الآداب (١/ ١٩٤).

ويعتقد الدروز أن جبل المقطم بالقاهرة أحدُ جبال الجنة، وأن الحاكم المعبود عندهم قد دخله ولم يرجع منه، وأنه اختفى وسيعود قريباً مرة أخرى، ويملك الأرض وينشر العدل، وهذا يفسر لنا قدوم طائفة البهرة إلى مصر في السنوات الأخيرة، وإعادة ترميم مسجد السلطان الأنور الحاكم بأمر هواه على باب الفتوح بمصر في القاهرة القديمة، ويزعمون أنه خرج من قصره إلى جبل المقطم، واختفى هناك، وأنه قد آن زمانُ خروجه.

تَرَأَّسَ الدروزَ في زماننا كمال جنبلاط، الذي كان له الدور الكبير في جمع شملهم، وتثبيت عقائدهم، ولما هلك، تولى بعده ولدُه وليد جنبلاط.

- **النصيرية**(١):

تنسب إلى: محمد بن نصير النميري الفارسي الأصل، الإثني عشري المُعْتَقَد، كان من رجال الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للإثني عشرية، وكان يزعم أنه الباب الموصل إلى ذلك الإمام، وهذا ما اعتقدته الطائفة النصيرية فيه.

وهم فرقة من غلاة الباطنية، يعتقدون بحلول الإله في جسد الأئمة، ويقولون: ظهور الروحاني بالجسد الجسماني لا ينكره عاقل.

وهذا المعتقد ماضٍ معهم في كل زمان ومكان، ولذا يقولون: لا إله إلا فلان زعيم الطائفة في ذلك الزمان «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً».

ولقد انطوت معتقداتهم على كفر وإلحاد وخرافات، منها:

- **أن علياً** رضي الله عنه هو الربُّ والإله، وأنه يحلّ بالقمر والشمس، وأن الأرواح الصالحة تحلّ بالنجوم، لذا هم يعبدون الشمس والقمر والكواكب.

- **كلمة السر عندهم** ثلاثة أحرف ع - م - س، وتعني: علي، ومحمد، وسلمان، ويقولون بأن علياً خلق محمداً، ومحمدٌ خلقَ سلمان، وسلمان خلق الأيتامَ الخمسة الذين هم:

---

(١) الشهرستاني/ الملل والنحل (١/ ٢٢٠-٢٢٢)، د. غالب العواجي/ فرق معاصرة تنتسب للإسلام (٢/ ٥٣٣-٥٨٧).

١. **المقداد بن الأسود** ﷺ الموكل بالرعود والزلازل والصواعق.

٢. **أبو ذر الغفاري** ﷺ الموكل بدوران الكواكب والنجوم.

٣. **عبد الله بن رواحة** ﷺ الموكل بالرياح وقبض الأرواح.

٤. **عثمان بن مظعون** ﷺ الموكل بالمعدة والحرارة والأمراض.

٥. **قمبر بن كادان** مولى علي ﷺ الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام.

- **وتعتقد النصيرية** بوجوب بغض الصحابة ﷺ بالعموم، وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما بالخصوص، وبلغ بهم من السفه والحقد أن عمدوا إلى بعض الحيوانات، وتفننوا في تعذيبها؛ لأن روح أبي بكر وعمر وعائشة ﷺ حلَّت فيهم بالتناسخ كما زعموا.

- **وتعتقد النصيرية** أن لهم قرآناً خاصاً يحتوي على سور سطرت بالخرافات والضلالات والكلمات الركيكة التي ينالون فيها من ذات الله جل وعلا، «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً».

- **ويعتقد النصيرية** أن آدم عليه السلام هو ثامن آدم، وقد سبقه سبعة كلُّهم آدم هلكوا مع ذرياتهم.

- **وتعتقد النصيرية** بوجوب محبة عبد الرحمن بن ملجم قاتلِ عليّ، زعموا أنه خلص الناسوت من اللاهوت؛ أي: الإنسان من الإله.

- **وتعتقد النصيرية** أن إيقاعهم الشر بأهل السنة مأجورون عليه من عند العليّ علي، ولذلك رأينا بأم أعيننا كيف يذبح أهلُ السنة في زماننا على أيديهم في سوريا ذبح النعاج والدجاج بأبشع الطرق وأقساها.

فهم كلما تمكنوا من رقاب أهل السنة، أنزلوا بهم المذابح، كما حدث في (سنة ٧١٧هـ) على يد مهديهم المزعوم بمدينة جَبْلَةَ بالساحل السوري(١).

---

(١) راجع البداية والنهاية للحافظ ابن كثير أحداث (سنة ٧١٧هـ).

- **يقدس النصيريون** الخمر، ويزعمون أن الله تعالى يتجلى فيها، ويسمونها: عبد النور؛ تشريفاً لها.
- **وطائفة النصيرية** يحاربون بناء المساجد، ويقيمون صلواتٍ خاصةً على هيئة قداس النصارى في بيوت خاصة، ومن ذلك: قداس الطيب لكل أخ وحبيب، وقداس البخور في روح ما يدور في محل الفرح والسرور، وقداس الآذان وبالله المستعان.
- **ويستبيح النصيريون** نكاح الأمهات والأخوات والبنات، ولا يرون في ذلك بأساً، كما يستبيحون نكاح الرجال بعضهم بعضاً، وهي فعلة قوم لوط، ويزعمون أن ذلك من التواضع والتذلل، وأنه من الشهوات الطيبات، وأن الله عز وجل لم يحرم شيئاً من ذلك.
- **كما يحتفل النصيريون** بأعياد فارسية وشيعية؛ كعيد النيروز، وعيد يوم الغدير، وعيد الفراش، ويوم عاشوراء، والخريف، وعيد الميلاد.
- **وتنتشر النصيرية اليوم** في جنوب تركيا، وسواحل سوريا، وأطراف لبنان الشمالي، وإيران، وتركستان الغربية، وكردستان.

وهذا الذي ذكرته غيض من فيض عن فرقة تزعم الانتساب للإسلام، والإسلام منها براء، ومن أراد الاستزادة، فعليه بكتب الفِرَق والجماعات.

- **الصوفية:**

المذهب الصوفي ربيبُ الرفض والباطنية، فهو خليط من أفكار منحرفة وعقائدَ فاسدة ، ففيه التشيع والباطنية والنصرانية والهندوكية والبوذية والفلسفات القديمة.

وتعد الصوفية الوجهَ الآخر لدعوة الرافضة والباطنية عند أهل السنة والجماعة ، فهم لايختلفون في ظاهرهم عن معتقدات الرافضة إلا في الصحابة رضوان الله عليهم، فهم يظهرون محبتهم، والرافضة يظهرون عداوتهم وبغضهم.

والصوفية يكمن خطرها في أنها تنسب نفسها لأهل السنة، فهي جسر يعبر عليه الرافضة والباطنية، وكل الفرق المنحرفة إلى عالمنا الإسلامي اليوم، مستغلين جهل كثير من المسلمين بحقيقة دينهم، والجهل بحقيقة التصوف.

وكذلك تستغل الصوفية دعم أعداء الإسلام لها ، إذ أنها تدعو إلى تعطيل شعيرة الجهاد في سبيل الله بنوعيه – الطلب، والدفع – بالركون إلى الأوراد والأذكار والقبور؛ بزعم أن هذا هو الجهاد الأكبر، كما أنها تخيم بأفكارها المنحرفة على عقول المسلمين، وتخدرهم بما ينافي الفطرة السليمة؛ مما يساهم في تخلف المسلمين، وعدم قدرتهم على منازلة أعدائهم بالعلم الكوني، فيظلوا دائماً في تبعية لأعدائهم.

ولقد ظهرت الصوفية بعد القرن الثالث الهجري، في البصرة والكوفة، بدعوى الزهد والتقشف، ثم اتسعت شيئاً فشيئاً لتعلن عن وجهها القبيح وعقائدها الفاسدة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم على المستوى الشعبي والرسمي في عالمنا الإسلامي.

تنتشر الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً في العالم، وأشهرها؛ النقشبندية، والتيجانية، والرفاعية، والشاذلية، وكلها تقوم على المعتقد الباطل الباطني والرافضي، فهم يزعمون أن علم الشريعة الظاهر يقابله علم الحقيقة الباطن ، وعلم الشريعة يعرفه المساكين، وأما علم الحقيقة فيعرفه أهل المعرفة، ويسمونهم: أهل الباطن، ويزعمون أن الله تعالى يجتمع بهم في الملأ الأعلى يستشيرهم في تسيير أمر الكون، ويزعمون أن القرآن له ظاهر وباطن، والظاهر يعرفه النبي ﷺ والصحابة والتابعون والعامة وكل أحد من الناس، وأما الباطن، فإن الله تعالى خص به أولياءهم دون غيرهم، ويسمونه: العلم اللدني، ولم يمنح هذه المعرفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وتزعم الصوفية أن للكون أقطاباً، وأهل الباطن يُختار منهم الأقطاب للكون، ومنهم من يرقى عن ذلك، وهو الغوث الأعظم الذي يحل فيه الإله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولهم أوراد وأذكار خاصة يقدمونها على تلاوة القرآن، ويقدمونها على كل ذكر مشروع، ولهم صلوات و صيام وعبادات مبتدعة، كما لهم خلوات ما أنزل الله بها من سلطان، ولاحول ولاقوة إلا بالله.

ومما ابتدعته الصوفية: هذه الخلوة، والتي يقصد بها حبس النفس في مكان يختلي فيه المريد بربه لمدة شهر إلى أربعين يوماً، ويشترطون لصحة الخلوة شروطاً عديدة، بها ظلمات البوذية والهندوسية والنصرانية، ومن ذلك: أن يعتاد المريد السهر، وقلة الطعام، والعزلة قبل الشروع بالخلوة، وأن يدخل الخلوة بحضور شيخه ليباركه ويبارك له المكان مصلياً ركعتين يدعو فيهما بتوفيق المريد، وأن يعتقد المريد في نفسه أنه دخل إليها ليريح الناس من شره، وأن يتعوذ ويبسمل عند دخوله الخلوة مستمداً العون من أرواح مشايخه بواسطة شيخه المباشر، وأن يعتقد المريد بأن كل ما يتجلى له في الخلوة من الصور، ويقول له: أنا الله، فليقل: سبحان الله آمنت بالله، وأن لا يتعجل المريد ظهور الكرامات، وأن يجلس المريد في الخلوة غير مستند إلى جدار، مطرقاً رأسه، مغمضاً عينيه، مستحضراً خيال شيخه بين عينيه، شاغلاً قلبه بالذكر والأوراد، مداوماً على الصوم الذي يسمو به عن أجزائه الترابية والمائية إلى صفاء القلب ونقائه. واشترطوا أيضاً: دوام الوضوء، ودوام السكوت، وأن تكون الخلوة مظلمة بعيدة عن الناس، وعلى المريد أن يهذب نفسه في الخلوة على ترك الاعتراض على الشيخ؛ لأنه أعلمُ بمصالحه الدنيوية والدينية، ومن اعترض على شيخه أغلق دونه الباب؛ أي: باب المعرفة والرحمة، وهذا قانون التصوف: من اعترض انطرد، وعلى المريد أن يدخل الخلوة وهو يحدث نفسه بأنه قد انتهى من الحياة، وشرع في دخول القبر لاستقبال الآخرة.

وبعد هذه الخلوة يصبح المريد في درجة رفيعة عند أهل السلوك كما يزعمون، ويعتبر المتصوفة أن تلك الخلوة وهذه الرهبانية والطاعة العمياء هي الموصل إلى الحقيقة وعين اليقين، وهذا من تمام ضلالهم وانحرافهم عن الشريعة الغراء.

ولقد قسم الصوفية الخلوة إلى أقسام متعددة، منها: خلوة فاتحة الكتاب، ويشترط فيها الصوم أربعين يوماً، وعدم أكل لحم الحيوان، وخلوة البسملة، وخلوة الياقوتة الفريدة، وغيرها من الخلوات الخرافية التي تنتهي بهم إلى مس الشياطين، والإتيان بالعجائب التي يدعونها معجزة وكرامة، يُلَبسون بها على العامة من المسلمين.

مسلك التصوف:

أول ما يجب على المريد: اختيارُ الشيخ الذي يقوم بتربيته وتصفية قلبه للوصول إلى معرفة الله كما يزعمون، ولا يتم له ذلك إلا إذا أصبح كالميت بين يدي المغسِّل، وعليه أن يتبع شيخه في كل ما يمليه عليه، وإن كان في تحريم الحلال وإباحة الحرام ، وعلى المريد أن يردد الأذكار التي يرددها شيخه، وعليه أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الشيخ فعلُه الحقُّ والصواب دائماً، وإن زنى وسرق وركب الحرام؛ لأنه لا يفعل ذلك بروحه ، وإنما يفعله بصورته البشرية لتربية المريد، وهذا من تمام الضلال واستباحة الحرام.

وعلى المريد أن يلتزم شيخه، ولا يغيره بآخر، وأن لا يزور الأولياء والمشايخ إلا بإذن شيخه، وأن يبذل ماله في سبيل السلوك للطريقة ،ولو طلب الشيخ كل المال منه ، وعليه أن يرضى بالذل الدائم؛ كما **ينسبون للجيلاني**(١) **قولاً**: فمن لم يرض بهذا ويوطِّنْ نفسه عليه، فلا يكاد أن يفتح عليه(٢).

فإن أتم المريد هذه المرحلة، انتقل منها إلى مرحلة السالك ، والتي يلتزم فيها بتعاليم الشيخ وأوراده، فإن أتقنها، انتقل إلى مرتبة العبودية؛ ليمر بما مر به في الأطوار السابقة، وينتقل إلى مقام آخر حيث تقبِل عليه العناية الإلهية، فينتقل بذلك إلى مقام العشق لله، وبعدها يُكثر من الأوراد والعزلة بنفسه، والندم الشديد حتى تمتلكه حال علوية شريفة كما يزعمون، فينتقل إلى مقام الوجد والهيام؛ لتتوارد على قلبه النفحات الربانية، ويزداد معرفة بصفات الذات العلية، فيصل إلى الحقيقة، والتي يصل بعدها إلى منازل الفناء، ويقصدون به: أن يفنى العبد في الله تعالى، ويصير كما قال الحلاج: ما في الجبة إلا الله -تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً- وعندئذ يرى المريد الوجود بعين الحقيقة، وخصوصاً النساء، وهي أن الله تعالى هو الوجود، والوجود هو الله، ومن هنا بدا على

---

(١) الجيلاني: أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي الحنبلي شيخ بغداد، ولد بجيلان (سنة ٤٧١هـ)، قال الذهبي رحمه الله: الشيخ عبد القادر كبير الشأن وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، وبعض ذلك مكذوب عليه، قلت، وكان معتقد الشيخ الجيلاني رحمه الله هو معتقد السلف في إثبات الصفات كما هو مكتوب في كتاب الغنية المنسوب له ، (ت: ٥٦١هـ). الذهبي/ سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٢) الغنية (٢/ ٢٧٨).

أدبهم العشق والغرام والغزل، ويقولون: إنما هو في الله، وأصحاب هذه المرتبة يجتمعون رجالاً ونساءً، ويرددون الأشعار التي تثير الغرائز، وهم يرقصون ويتمايلون باسم لقاءات العشق الإلهي، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مقام اللقاء، ثم مقام البقاء.

من عقائد الصوفية الباطنية:

من جملة عقائد الصوفية: اعتقادهم بأن الله تعالى حَلَّ في خلقه، وكذلك اعتقادهم بوحدة الوجود، وأن الكون جزء من الله، والله جزء منه، وأما عقيدتهم في النبي ﷺ، فليست بمنأى من هذه الخرافات، فهم يزعمون أن الله تعالى تعين في صورة النبي ﷺ، وأن كلاهما واحد، وأن الذي هاجر من مكة إلى المدينة هو الذات الإلهية متجلية في الصورة النبوية.

قال شيخهم الأكبر محيي الدين بن عربي: اللهم أفض صلة صلواتك، وسلامة تسليماتك، على أول التعينات المفاضة من العماء الرباني، وأخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني المهاجر من مكة ، كان الله ولم يكن معه شيء ثانٍ إلى المدينة(١).

ويعتقدون أن النبي ﷺ حي يسير كيف شاء في الكون ، ويحضر ماشاء من المجالس.

ويعتقدون أن المخلوقات كلها خلقت من نور النبي ﷺ.

قال ابن عطاء الله السكندري أحد كبار ضلالهم: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة(٢).

ويعتقدون أن النبي ﷺ هو الذي علم جبريل القرآن ليوحيه إليه مرة أخرى.

ويعتقدون من الترهات والخرافات في النبي ﷺ ما الله به عليم، ومن أراد الاستزادة، فعليه بكتاب «هذه هي الصوفية» للشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه الله، و«تنبيه الغبي بكفر ابن عربي» للبقاعي.

---

(١) مجموعة أحزاب وأوراد الشيخ ابن عربي (ص:٢٠).

(٢) لطائف المنن (ص:٣٢).

بعض مصطلحات الصوفية:

الولي: صاحب الصلاحيات التي لاحد لها، فهو العارف بالله الذي تفنى ذاته في ذات الرب جل وعلا، حتى إنه يتلقى العلم اللدني ـ كما يزعمون ـ بلا واسطة.

وقد قسموا الولاية إلى أقسام، منها:

١. **الغوث الأكبر**: وهوأكبر الأولياء وأعظم الأقطاب، وهو ذات الحق عندما تحل في الخلق، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٢. **الأوتاد الأربعة**: وهم أركان العالم، وكل واحد منهم على قدم بدل من الأبدال الأربعين المكلفين بحفظ العالم؛ لأنهم دونهم في الرتبة والمكانة، والأبدال كل منهم على قدم قطب من الأقطاب.

٣. **الأقطاب السبعة**: موضع نظر الله من العالم في كل زمان ، وهم القائمون بحفظ الأرضين السبع، وإذا مات قطب أحلَّ الله محله آخر.

٤. **النجباء**: الأربعة القائمون بإصلاح شؤون السالكين.

٥. **الأفراد**: وهم على قدم النبي ﷺ، وهم الغرباء المتفردون عن الخلق بشهود الحق، وهؤلاء من أهل الكشف ، والعلوم الإلهية الخاصة.

٦. **الملامتية**: وهم الذين يخفون أسرارهم لكمال ذوقهم وقوة شهودهم لربهم.

ولقد ادعوا بأن الولاية لها خاتمة كالنبوة تماماً، وأول من ادعى أنه خاتم الأولياء محمد بن علي بن الحسين «الحكيم الترمذي» وهو غير الإمام المحدث أبي عيسى.

ثم جاء محيي الدين بن عربي، وادعى أنه خاتم الأولياء، ثم زعم محمد بن عثمان الميرغني السوداني –ت: ١٢٣٠ هـ– أنه خاتم الأولياء، ثم ادعى أحمد التيجاني من فاس بالمغرب – ت ١٢٣٠ هـ – أن هؤلاء كذبة، وأنه هو خاتم الأولياء.

ولاندري من الخاتم منهم في زماننا، والله المستعان عليهم، أتباع إبليس خصوم السنة أعداء الإسلام.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

كما يعتقد الغلاة من الصوفية أن التكاليف الشرعية من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة هي عبادات العوام، وأما هم، فهم خاصة، ولهم عبادات خاصة، وذلك بعد بلوغ أحدهم درجة اليقين كما يعتقدون، وهذا يفسر لنا تباين العبادات عند طرق الصوفية المختلفة.

و هذا يندرج معه أحكام الإباحة والتحريم، فأهلُ وحدة الوجود والحلولية لاشيء يحرم عندهم، وهذا يفسر لنا الأفعال القبيحة الشاذة التي تصدر عنهم، والتي لايجوز لأحد أن يعترض عليه؛ لأنه لم يفعله إلا لحكمة خفية، والقاعدة عندهم: من اعترض انطرد، وأيضاً كن بين يدي الشيخ كالميت بين يدي المغسِّل.

ويعتقدون أن النبي ﷺ له شريعة خاصة هي شريعة العوام ، وأما الأولياء، فلهم شرائعهم الخاصة التي يتلقونها عن الله مباشرة.

وهذا يفسر لنا تقسيمهم الناس إلى مراتب ثلاثة:

١ . مرتبة **العامة** أصحاب الأمزجة الكثيفة والأفهام الضعيفة، وهؤلاء يتعبدون بشريعة النبي ﷺ.

٢. مرتبة **أهل الخصوص** ، وهم أصحاب الفهوم والأخلاق والنفوس الأبية، وهؤلاء طريقتهم مجاهدُة النزوات، والوقوع في الزلات.

٣. مرتبة **أصحاب الفطرة الصدِّيقية** والعقول الزكية والنفوس الرضية، وهؤلاء طريقهم طريق المحبوبين المخطوبين من ربّ العالمين.

ويقولون: الزاهد هو من ينصرف عن الملاذ الدنيوية، وينكر على نفسه جميع الشهوات التي أحلها الشرع، ويتحمل مرارة الجوع والعطش طمعاً في الأرباح الأخروية، وأما الصوفي، فلا يرجو من ذلك شيئاً، وإنما همه وهدفه معرفة الله والاتصالُ برضوانه.

ومن يراجع «الطبقات الكبرى» للشعراني، و«لطائف المنن» لابن عطاء الله السكندري يرى عجباً، ويحمد الله تعالى على نعمة العقل والدين.

وتبقى كلمة:

لقد لعبت الصوفية في حياة هذه الأمة أدواراً خبيثة باطنية، وأظهرت أمراً وأبطنت آخر، واستغفلت الجماهير التي تنضم إليها باسم العشق الإلهي، وتعبدوهم بالذل لهم ولأورادهم وأذكارهم، وموالدهم وأعيادهم، ووجدهم ورقصهم، وشذوذهم الأخلاقي والعقلي، وخلواتهم التي ما أنزل الله بها من سلطان، وزعموا قربهم منه سبحانه، وهو منزه سبحانه عما نسبوه إليه.

وينخدع كثير من الناس بسلوك التصنع الذي يستخدمه الصوفية، والأخلاق المزيفة التي يظهرونها لإغواء الناس وخداعهم، وإذا واجههم أحد بهذه الحقائق، يتبرؤون منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السلام؛ لأنهم أشد تمسكاً بالتقية من الرافضة.

فلنكن على حذر من خداعهم وطرقهم وضلالهم، وكتبهم وأئمتهم؛ كالشعراني وكتبه، وابن عربي وكتبه، والدسوقي وكتابه «الجوهرة»، وابن عطاء الله السكندري وحكمه.

ولنهتم بدراسة كتب العقيدة النافعة؛ ككتب المتقدمين من سلف الأمة، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلامذته من المدرسة المباركة التي قامت بشرح تلك الكتب، وكتب المعاصرين من علمائنا الأفاضل؛ كالشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ الفوزان، وإني ناصح للأسرة المسلمة بكتاب قيم مبارك سهل مبسط للشيخ صالح الفوزان، وهو كتاب «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد»، فهو كتاب مبارك بما فيه من الخير، وأُعلم القارئ المحب أن كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف، وفقنا الله وإياكم لصالح المعتقد والقول والعمل.

- **البابية:**

إحدى الفرق الباطنية التي عملت على هدم الإسلام، وإخراج أهله منه بأساليب وطرق شتى.

ومؤسس البابية هو علي محمد رضا الشيرازي، الذي أعلن في (سنة ١٢٦٠هـ) أنه الباب الموصل إلى الغائب المنتظر.

كانت له علاقات مشبوهة مع سفيري روسيا وبريطانيا في طهران ، وقد مدت كلتا الدولتين يد العون لحماية تلك الطائفة، وتزويدها بالأسلحة لزعزعة الأمن والأستقرار.

فتحت روسيا أبواب بلادها لأتباع علي رضا الملقب بالباب ليعيشوا فيها بحرية تامة؛ مما دفع علي رضا أن يعلن عن كتابه المقدس المسمى بالبيان، والذي ادعى أنه نزل عليه بوحي من السماء.

ادعى علي رضا بعد ذلك الألوهية، وكان أتباعه ينادونه بالرب أو الإله ، وأنكر القيامةَ، وزعم أن الجنة هي الفرح الذي يجده الإنسان عندما يؤمن بالباب، ثم رفع التكاليف الشرعية عن أتباعه، فألغى الصلوات الخمس، والجمعة والجماعات إلا الجنازة وقبلتها البيت الذي ولد فيه بشيراز، ثم دعا أتباعه أن يحجوا إلى ذلك البيت في شيراز، وشرع لهم الصوم ١٩ يوماً، والزواج إجباري بعد الحادية عشرة ، والطلاق يقع تسع عشرة مرة، وعدة المطلقة تسعة عشر يوماً.

وعند البابية يجب دفن الميت في قبر من البلور، والمرمر المصقول، ووضع خاتم في يمناه منقوش عليه فقرة من الكتاب المقدس ، وتركة الميت تكون لسبعة أشخاص من القرابة، وعيدهم النيروز، ومدته تسعة عشر يوماً.

ويجب على البابي استقبال الشمس بالسلام صباح كل جمعة، وحرم علي رضا على أتباعه قراءة القرآن، كما أمرهم بإحراقه مع كتب السنة النبوية، وكل من لم يدخل في دينهم كافر حلال الدم.

وعندما تمكنت البابية، ودعمت من روسيا وبريطانيا، قام أتباعها بقتل الأبرياء والفتك بهم بزعم أنهم يخالفون ربهم المزعوم، وقاموا بتهديد قرى عديدة إن هم خالفوا عقيدة البابية بالقتل؛ مما دفع العلماء لإصدار فتوى بكفر الباب وأتباعه، وأنهم كفار وجب قتالهم لإفسادهم، مما أدى إلى اعتقال الباب وتقديمه للمحاكمة؛ مما دفع أتباعه إلى عقد مؤتمر بصحراء بدشت في إيران ليخلصوا إلهم المزعوم من السجن !!!

وقادت هذا المؤتمرَ إحدى الغواني من محظيات الباب المزعوم، وتدعى: أم سلمى، وكانت تلقب بقُرة العين، وبالطاهرة !!!! وهذه المرأة لها أخبار وقحة لايتسع المقام لذكرها ، وقد قرر المؤتمرون نسخَ شريعة الإسلام، وإظهارَ شعائرهم.

والمؤتمر كان خليطاً من الرجال والنساء، وقاموا بممارسة الإباحية والمتعة المحرمة، وشرب الخمر والأفعال القبيحة.

صدر حكم المحكمة بإعدام علي رضا الشيرازي الملقب بالباب رأس الفتنة، ونفذ القرار في صبيحة الإثنين ٢٧ شعبان (سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م) بعد أن بكى الشيرازي وناح وهو يردد أبياتاً من الشعر منها:

تروم إلى الخلد في دار المنايا

فكم قد رام مثلُك ماتروم

تنام ولم تنم عنك المنايا

تنبهْ للمنية يانؤوم

لهوت عن الفناء وأنت تفنى

فما شيء من المنايا يدوم

وتم تنفيذ حكم الإعدام أمام حشد جماهيري كبير، وقد تأثر بذلك قنصل روسيا الذي حاول أن ينقذ صاحبه ، ولكنه لم يتحقق له ذلك، ثم قامت الحكومة في عهد ناصر الدين شاه القاجاري بتتبع رؤوس البابية، وقامت بتصفية زعمائهم، ومنهم قرة العين.

ولكن هل قضي بذلك على البابية وقطع دابرهم ، أم أنهم مازالوا؟.

بعد أن تم تصفية رؤوس البابية ادعى رجل يقال له: يحيى صبح الأزل أن الباب قد أوصى له بزعامة الطائفة بعده، فقام أخوه حسين المزندراني، وهاجمه هو ومن تبعه على تلك الوصية، ثم زعم أن الله تعالى أوحى إليه بمهاجمة أخيه صبح الأزل وأتباعه، وأنه هو المظهر الإلهي، وأنه صاحب نسخ كل الديانات.

زعم المزندراني أن كتاب البيان المقدس الذي جاء به الشيرازي، وبقي مع صبح الأزل إنما هو من وحيه كاملاً. ثم قام هو وأتباعه بمهاجمة أتباع أخيه بالسلاح حتى استطاع القضاء عليهم بدعم من اليهود ومؤسساتهم الدولية ، لينتهي دور البابية، وتبدأ مرحلة جديدة لطائفة جديدة نشأت على أنقاضها هي طائفة البهائية التي مازالت تعيش وتحيا بيننا.

- **البهائية:**

تم تأسيس الطائفة على يد حسين المزندراني، الذي ولد بطهران (سنة ١٢٣٣ هـ)، وقد اعتنق البابية، ثم أصبح له دور بها، خاصة بعد أن أقام علاقة مع قرة العين غانية البابية، فلقبته ببهاء الله، وأقره اليهود على هذا المسمى الذي سميت به الطائفة أيضاً نسبة له، وكان علم المزندراني منذ الصغر يقوم على التصوف والتشيع والفلسفة، ثم زعم أنه أمي ألهمه الله العلوم والمعرفة والوحي.

وكان المزندراني وأسرته من أوفى الناس للروس، وكذلك كان الروس لهم إلى جانب اليهود الذين مازالوا يدعمون البهائية بكل الإمكانات، خاصة بعد أن ادعى الرجل أنه أوحي إليه في الكتاب أن ينادي بني صهيون من كل مكان إلى أن يجتمعوا بفلسطين، وأنه أوحي إليه بنسخ شريعة الجهاد عند المسلمين، ولذلك أقام له اليهود في عكا قصر البهجة الذي أصبح كعبة البهائيين، ومهوى أفئدتهم وقبلتهم.

قامت أيضاً بريطانيا بمنح المزندراني وسام الإمبراطورية؛ مما أعطاه مكانة بين أتباعه وغيرهم.

وقامت الدولة العثمانية بنفي المزندراني إلى فلسطين، وهناك عشش وباض وفرخ، حيث انتقل إلى مرحلة ادعائه الألوهية، وأن المولى تبارك وتعالى ظهر في صورته، لذا كان يمشي

وهو مبرقعٌ وجههَ حتى لا يطلع الناس على الإله، وقد زعم أن جميع الأنبياء والرسل إنما بُعثوا ليبشروا به، وبظهور الإله في خلقه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً -.

شاء الله الحق سبحانه أن يهلك ذلك الإله المزعوم بعد أن أصابته الحمى، غير أن أتباعه زعموا أنه صعد إلى السماء؛ **كما قال الجلبائيجاني البهائي**: وصعد الرب إلى مقر عزه الأقدس الأعلى، وغابت حقيقته المقدسة في هويته الخفية القصوى، وكانت هذه الحادثة في ثاني شهر ذي القعدة (سنة ١٣٠٩هـ)، وسادس عشر من شهر مايو (سنة ١٨٩٢م).

ودفن في عكا، وقيل: في حيفا حيث مرقده المزعوم بالمقدس، وكان قد أوصى من بعده بالخلافة لأكبر أبنائه عباس، ومن بعده لولده الأصغر الميرزا محمد علي، وما إن هلك المزندراني حتى وقع الخلاف بين ولديه، وانقسم على أثره البهائيون إلى فرقتين:

العباسية، والموحدون، وكلاهما فتح الباب للخلافات والنزاعات حتى انتهى بهم الأمر إلى خمس فرق، لعنهم الله وجمعهم بأبيهم في نار جهنم.

أسس البهائية قواعد وأسساً ودعايات براقة تحت مسمى المحبة والإخاء والعدل والسلام والمساواة، من أجل تحقيق جمع البشر عبيداً للمزندراني ، ومن هذه الأسس:

١. وحدة الأديان في دين واحد هو الدين البهائي.

٢. وحدة الأوطان في وطن واحد سيختاره لهم الرب المزعوم المزندراني.

٣. وحدة اللغة في لغة واحدة وهي التي يختارها لهم الرب المزعوم المزندراني.

٤. المساواة بين المرأة والرجل، فلا فرق بينهما، الكل عبيد للبهاء المزندراني ـ لعنه الله ـ.

وبذلك يتحقق الإيمان عند أتباعه، وتجتمع البشرية على إله واحد هو البهاء؛ كما زعم في كتابه بقوله: قل لايرى في هيكلي إلا هيكل الله، ولا في جمالي إلا جماله، ولا في كينونتي إلا كينونته، ولا في ذاتي إلا ذاته(١).

---

(١) الأقدس/ سورة الهيكل (بديع:٤٤).

ويضيف : ياقوم! طهروا قلوبكم ثم أبصاركم، لعلكم تعرفون بارئكم في هذا القميص المقدس واللميع(١).

لعنه الله لعناً كبيراً.

وهذه المبادئ الهدامة، والأفكار المنحرفة ينادي بها اليوم في أوطان المسلمين شياطينُ الإعلام المنحرف والتعليم الضال، وتساندهم قوانينُ المحافل الدولية التي يسيطر على معظمها إما بهائي، أوماسوني، أوبينَ بين. ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٦٨].

مواطن البهائية اليوم:

ينتشر أصحاب هذه الملة الضالة في مناطق متعددة، منها: فلسطين، إيران، دول الخليج العربي، السودان، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، العراق، الأمريكتان، أستراليا، الفلبين، مصر، وبعض الدول الأوروبية.

ويدعي البهائيون أن تعدادهم بلغ نحو ستين مليوناً ، وهو رقم دعائي أكثر منه حقيقي.

ولقد تبوأ البهائيون مناصب هامة في الدول التي يعيشون فيها بمعاونة أذناب الدول الداعمة لها، وأهم هذه المناصب: الإعلام والتعليم، وهذا يفسر لنا الانحراف في كثير من مناهج التعليم وفسادها في دول عدة من العالم الإسلامي، كما يفسر لنا ما تبثه أجهزة الإعلام من الإباحية والانحطاط الأخلاقي لممثلين بهائيين لإغراق شباب الأمة الملتهب في أوكار الرذيلة.

و يفسر لنا الصدارةَ لأصحاب البرامج المنحرفة والألفاظ النابية التي لاتقال عند السوقة، ناهيك في أجهزة الإعلام.

والبهائية لعبت أدواراً سيئة في كثير من الدول العربية، ومنها: مصر التي تبنت قضية الدفاع عن فلسطين بعد الاحتلال اليهودي لها، مما حمل رئاسة الجمهورية إلى حظر نشاطها المعلن والخفي في (سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، أسوة بإلغاء المحافل الماسونية

---

(١) المصدر السابق (بديع:٦٢).

وأندية الإباحية وبيوت الرذيلة المرخص لها بممارسة الفواحش بدعم من المحافل البهائية في بداية الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي، كما حظر نشاطها مرة أخرى بعد القضية الكبرى التي واجهها المجتمع المصري في منتصف الثمانينيات، والتي تزعمها المثال والصحفي حسين بيكار مع مجموعة من الممثلين الذين يتصدرون شاشات الإعلام لنشر الإباحية، وقد صدر بيانٌ من مكتب شيخ الأزهر جاد الحق رحمه الله بكفر الطائفة البهائية، ويطالب بإنزال عقوبة الإعدام ببيكار وأتباعه، ومع الأسف فوجئ الجميع بالإفراج عنهم، وعودتهم لمناصبهم، وبثهم لأفكارهم بكل حرية، حتى إنهم طالبوا أن تكتب ديانتهم في الأوراق الثبوتية؛ كالبطاقات الشخصية، وجوازات السفر (بهائية)، ولم يقتصر الأمر على مصر، بل إن الكثير من الدول الإسلامية حظرت نشاط تلك الطائفة.

ويمارس البهائيون تجارات مختلفة، منها: تجارة النظارات والعدسات، وتجارة الذهب في بعض المناطق، وأيضاً يعمل بعضهم في المحافل الدولية في مناصب رفيعة لها تأثيرها المباشر على القرارات الدولية والأممية.

إن البهائية مثلُها مثل باقي الديانات المنحرفة التي تقوم على فتح أبواب الشهوات على مصراعيها لأتباعها، وهذا يفسر لنا دفاع هؤلاء عن عقيدتهم الفاسدة، همُّهم تحقيقُ أغراضهم الدنيئة دون النظر إلى عواقب الأمور: ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨].

انتقم الله منهم أشدَّ انتقام، وشفى صدورَ قوم مؤمنين.

- **القاديانية أو الأحمدية:**

واحدة من أخبث الفرق الباطنية، ظهرت في بدايات القرن الثالث عشر الهجري، الموافق لنهايات القرن التاسع عشر الميلادي.

نشأت في الهند على يد ميرزا غلام أحمد، وقام الإنجليز بحمايتها واحتضانها ودعمها حينما كانوا مستعمرين للهند، إلى جانب اليهودية العالمية، حتى إنهم أنشؤوا لها مركزاً دعوياً في الأرض المحتلة لنشر ضلالها باسم الإسلام.

ويطلق عليها القاديانية نسبة لقرية قاديان التي هي مسقط رأس مؤسسها، وتسمت بالأحمدية في معظم بلاد المسلمين خداعاً لهم، وتمويهاً بأنهم ينتسبون إلى النبي ﷺ.

ادعى مؤسسها أن الله أوحى إليه بأن أصوله فارسية تنحدر من نسل فاطمة رضي الله عنها!!!

كان رجلاً بذيء اللسان، يتناول علماء الإسلام بأسوأ الألفاظ، ويصفهم بأقذع الأوصاف، وكان يعمل بالليل والنهار لإخضاع المسلمين للمحتل البريطاني، كما قال معترفاً بذلك: لقد ظللت منذ حداثة سني وقد ناهزت اليوم الستين أجاهد بلساني وقلمي لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية، والنصح لها، والعطف عليها، وألغي فكرة الجهاد التي يدين بها بعض جهالهم، والتي تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة(١).

أعلن هذا الرجل أن الله تبارك وتعالى قد خصه بالنبوة في زمانه، بما يتفق وحاجة الناس إلى النبوة، وأن من قال بأن النبوة خُتمت إنما يتهم الله تعالى بالعجز عن إرسال أنبياء ورسل البشريةُ في حاجتها.

وبهذا يكفر القدياني وفرقته؛ لأنهم كذبوا كلام الله تعالى بادعائهم نبوة القادياني، وأنه لاخاتم للنبوة، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾[الأحزاب:٤٠].

لكن القادياني قبل أن يدعي النبوة مر بمراحل أخرى ، فقد زعم أنه ملَهم من الله ، ثم انتقل من مرحلة الإلهام إلى ادعائه أنه المسيحُ الموعود، إلى أن ادعى النبوة، لعنه الله لعناً كبيراً.

ثم ادعى ميرزا غلام أحمد أنه أفضل من الأنبياء و المرسلين، وأن الله تعالى مثل فيه جميعَ الأنبياء والرسل، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين.

ومن هنا زعم القادياني أن الله أوحى إليه بالعقيدة والشريعة التي يدعو إليها، ومن ذلك :

---

(١) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام (٢/ ٧٥٩).

١. **التناسخ والحلول**، فهو يعتقد أن إبراهيم عليه السلام ولد مرة أخرى في بيت عبد الله بن عبد المطلب، وسمي بمحمد، وأن عيسى عليه السلام كذلك ولد في صورة القدياني نفسه، ثم حلت فيه روح محمد.

٢. **التشبيه**: والمقصود به: تشبيهُ الله تعالى بخلقه؛ كما زعم القادياني أن الله تعالى قال له: إني أصلي وأصوم، وأصحو وأنام، ويزعم أنه قال له أيضاً: إني مع الرسول أجيب، أخطئ وأصيب، إني مع الرسول محيط.

ومن أعجب ما زعمه القادياني: أنه قدم أوراقاً إلى الله تعالى ليوقع عليها، ويصدق على طلباته ومقترحاته، فوقع الله عليها بحبر أحمر.

ومن أعجب ما زعمه القادياني: أن يجد من يتبعه، ويعتقد في زعمه، ويسير خلفه بقلوب لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون.

تنتشر القاديانية في دول عديدة؛ كالهند وباكستان ونيجيريا وغانا وسيراليون وكينيا وموروشيوس وإندونيسا وفلسطين، وفي سويسرا وبريطانيا والدنمارك وألمانيا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية.

وللقاديانيين نشاط واسع وقوي في هذه الدول عن طريق الصحف والمجلات والمعابد التي ينشئونها بدعم من اليهودية العالمية ، لتكون أوكاراً لتزييف الإسلام، ونشرِ الانحرافات العقدية والأخلاقية .

كما للقاديانيين نشاطات أخرى؛ كبناء المدارس التي بلغ عددها في إفريقيا وحدها نحو خمسين مدرسة، وبلغ عدد المساجد التي بنوها في الدول السابقة نحو ٣٤٣ مسجداً.

والقاديانية تمثل مع باقي الفرق الباطنية الهجمةَ المنظمة باسم الإسلام على الأمة الإسلامية.

بقي أن أذكر أن القادياني هلك في (سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨م) بعد أن أُصيب بالكوليرا في لاهور، مات في الخلاء وهو يقضي حاجته، وإني لأذكر كلمات للشيخ عبد القادر الأرناؤوط في خطبة الجمعة بمسجد المحمدي بدمشق، وهو يتكلم عن وفاة القادياني

قائلاً: ولقد ورد في السنة الصحيحة أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا؛ لأن الله تعالى لايقبض نبياً إلا حيث أحب أن يدفن، فكان ينبغي على أتباعه أن يدفنوه في الخلاء حيث مكانه الذي قُبض فيه.

وقد نُقل جثمان القادياني الهالك إلى قريته قاديان، حيث دفن في المقبرة التي سماها بمقبرة الجنة، وخلفه على طائفته صديقُه الحميم نور الدين البهيوري.

عليهم جميعاً من الله مايستحقونه، وإني لأجد من واجبي التحذير من مواقعهم على الشبكة، وقنواتهم الفضائية، والصحف والمجلات التي يصدرونها؛ لما في ذلك من ضياع للدين والدنيا معاً.

- **القرامطة:**

طائفة من الإسماعيلية انشقوا عنها طمعاً بالزعامة، وبسبب الفكر المخالف للإسماعيلية من عدة وجوه، وزيادة الفرق المنحرفة في الأمة من أجل أن تتسع الهوة والخلاف بين أبنائها، فيفشلوا وتذهب ريحهم، وكل ذلك تدبير مجوسي خبيث.

يعتقد الإسماعيلية بإمامة أبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق من بعده، وأما القرامطة، فيعتقدون بأن محمد بن إسماعيل حي ولا يموت، وأن الداعية الذي يمثله ويعمل برأيه هو رأس القرامطة في كل زمان.

كما تعتقد الإسماعيلية بالمساواة بين الأنبياء والأئمة، وأن الأئمة لهم بعض الصفات الإلهية.

أما القرامطة، فيعتقدون أن روح الله تحل بإمامهم «تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً»، وقد ظهر ذلك جلياً عندما قاموا بالسجود لزكرويه بن مهرويه بعد أن اختفى عنهم لفترة ثم عاد إليهم.

كما ينسب إليهم التشابه العقدي بينهم وبين الصوفية الذين يقولون بحلول الإله في خلقه، ورفع التكاليف عن دعاتهم وأئمتهم، كما أن القرآن عندهم والسنة لهما ظاهر وباطن، وباطنهما لا يعرفهما إلا الإمام.

وقد قامت حركة القرامطة كحركة مجوسية مقنعة في ظاهرها بالإسلام، وفي باطنها بالمجوسية التي تمتلئ حقداً وغلاً على الإسلام والمسلمين.

- **نشأة القرامطة ونسبتهم:**

ادعى القرامطة أنهم ينحدرون من النسل العلوي، زاعمين أنهم أصحاب نسب شريف.

ينسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث الأهوازي الملقب بقرمط(١)، وتقال بالفتح: قَرمط، وبالكسر: قِرمط، وأصله من الأهواز(٢).

ظهر قرمط في سواد الكوفة حوالي (سنة ٢٥٨هـ)، وكان يعمل برعي الأبقار، وكان يُظهر الزهد والتقشف والتخلي عن الدنيا بسبب ما هو فيه من قصر القامة الذي جعله في منأى عن الناس، ونقمة وضجر وحقد دفين على المجتمع.

التقى مع رجل يسمى بحسين الأهوازي أحد دعاة الباطنية، وقد قدم من السلمية(٣) في بلاد الشام ليكوّن له أتباعاً في تلك المناطق التي كانت تنتشر بها الأهواء والبدع.

فلقي قرمط، ودعاه وأصبح من أتباعه، وذلك لأن حسيناً الأهوازي كان ينتقد العباسيين، وينال منهم، ويطعن في معتقدهم؛ مما جعل له مكانة في قلب قرمط حمدان بن الأشعث راعي البقر الذي اشتد في دعوته بين الناس، فاستمال إليه بعضهم، ولما توفي حسين الأهوازي، تولى حمدان بن الأشعث -قرمط مكانه بعهد منه.

ترقّى قرمط في درجات الدعوة الإسماعيلية الباطنية، وربما كان ذلك بسبب أنه وحسيناً الأهوازي انحدرا من أصل فارسي مجوسي، وهذا يبدو جلياً في من استجاب لهذه الدعوة، وعمل على إظهارها من أول أمرها؛ إذ أنهم جميعاً كانت أصولهم فارسية مجوسية، كزكرويه ابن مهراويه، وعبدان الأهوازي ابن عم حمدان وزوج أخته، والحسن بن بهرام الذي اشتهر بأبي سعيد الجنابي، وهم الذين لعبوا الدور الأساس من أجل تقويض الإسلام، ونشر هذه الضلالة في العراق ثم في البحرين.

---

(١) لقب بقرمط لقصر شديد في رجله ولقصر أيضاً في قامته.
قال ابن الجوزي: وأما تسميتهم بالقرامطة، ففي ذلك ستة أقوال: أحدها: لأنهم أول من أشار لهم بتلك المحبة محمد الوراق المقرمط، وكان كوفياً، والثاني: ينتسبون إلى رئيس لهم من الأنباط يلقب بقرموطية، والثالث: أن قرمطاً كان غلاماً لإسماعيل بن جعفر فنسبوا إليه لأنه هو من أحدث مقالتهم كما زعموا، الرابع: أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرمية، فلما رحل عنه تسمى قرمط بن الأشعث، الخامس: أن كرمية خُفف اسمه فقيل كرمط (قرمط)، والسادس: أنهم نُسبوا إلى حمدان بن قرمط أحد زهاد الكوفة. القرامطة (ص:٣٨-٤٥).

(٢) يقال لها: خوزستان، وتسمى بالفارسية: خورم شهر، وهي امتداد طبيعي لسواد العراق وجزء منه بين فارس والبصرة. ياقوت الحموي/ معجم البلدان (٢/ ٤٦٢).

(٣) السلمية: إحدى مدن حماة في سوريا، وهي موطن الدعوات الباطنية الإسماعيلية والدروز. ياقوت الحموي/ معجم البلدان (٣/ ٦٥٥٢).

ذكر عبد الرحمن بن الجوزي رحمه الله عن القرامطة أنهم قالوا: قد ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومَخْرقوا على أممهم، وأعظمُ كلِّ بليةٍ علينا محمد؛ فإنه نبت بين العرب الطغام، فخدعهم بناموسه -الوحي- فبذلوا أموالهم وأنفسهم ونصروه، وأخذوا ممالكنا، وقد طالت مدتهم، والآن قد تشاغل أتباعهُ، فمنهم مقبلٌ على كسب الأموال، ومنهم على تشييد البنيان، ومنهم على الملاهي، وعلماؤهم يتلاعبون ويكفِّر بعضهم بعضاً، وقد ضعفت بصائرهم، فنحن نطمع في إبطال دينهم، إلا أنا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم، فليس الطريق إلا إنشاء دعوة في الدين، والانتماء إلى فرقة منهم، وليس فيهم فرقة أضعف عقولاً من الرافضة، فندخل عليهم، نذكر ظلم سلفهم الأشراف من آل نبيهم، ودفعهم عن حقهم، وقتلهم، وما جرى عليهم من الذل لنستعين بها على إبطال دينهم، فتناصروا، وتكاتفوا، وتوافقوا، وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر(١).

دعوة القرامطة:

قام القرامطة باتخاذ وسائل مختلفة من أجل نشر دعوتهم الفاسدة بين الناس، واختلفت هذه الوسائل في كونها شريفة أو خبيثة، فالأصل عند كل هذه الفرق المنحرفة أن الغاية تبرر الوسيلة، أو مجموعة الوسائل القذرة(٢).

ومن هذه الوسائل:

١. التقشف والزهد:

وهو الأمر الذي أظهره القرامطة ليحركوا المجتمع نحوهم، وكان ذلك في أول أمرهم إظهاراً منهم للتقوى والصلاح، ثم انتقلوا بهم بعد ذلك إلى مرحلة إباحة الشهوات، حتى إذا فسدت النفوس، وانحرفت الأخلاق، نقلوهم إلى مرحلة رفع التكاليف الشرعية عنهم، وهي نفس الطريقة التي تستخدمها بعض الجماعات الصوفية، والتي خرجت من عباءة هؤلاء.

---

(١) عبد الرحمن بن الجوزي/ القرامطة (ص:٣٢-٣٣).

(٢) الغاية تبرر الوسيلة أو مجموعة الوسائل القذرة: هو المبدأ الذي استفاده اليهودي نيقولا ميكافيلي صاحب كتاب الأمير، والذي قامت عليه معظم السياسات الغربية والشرقية المعاصرة، بل وأساليب بعض الجماعات الإسلامية التي لا هم لها إلا التصدر للحكم.

٢. النساء:

وقد استغل القرامطة حبَّ النفوس المنحرفة للشهوات، فعملوا على إباحة هذه الشهوات للراغبين فيها من المنحرفين أخلاقياً وعقدياً، خاصة بين عبيد وعمال الأرض الزراعية، والذين جلبوا من القرن الإفريقي للعمل في هذه الأراضي، وقد تركوا خلفهم نساءهم، فأصبحوا مصيدة لدعوة القرامطة بإباحة النساء للرجال في ليلة بعينها كل فترة بعد أن يجمعوا في مكان واحد، ويختلط بعضهم ببعض، مدعياً أن هذا من صحة الود والألفة، وعلى هذا سار أبو سعيد الجنابي أحدُ كبارهم، والذي أدخل زوجته على ضيفه، وطلب منها أن لا تمنعه من نفسها، كما أنهم أباحوا لمقاتليهم النساءَ من أهل المدن والقرى كلما احتاجوا لذلك.

٣. المال:

وهو الشهوة الأخرى لأصحاب النفوس المريضة التي امتلأت قلوبها بمحبة المال، على عكس ما أراد لنا الإسلام، وهو أن يكون المال في أيدينا لا في قلوبنا؛ فإن الشريعة الغراء أمرتنا أن نُعبّد المال لله تعالى، فعندما يكون في أيدينا نوظفه ونستعمله في الطاعات وقضاء الحاجات لنا ولغيرنا من المسلمين، وعندما يكون في قلوبنا نصبح نحن عبيداً له نوطن أنفسنا ونوظفها تبعاً له، ويصبح غايتنا وهدفنا الحصول عليه دون النظر من أين جلب من حلال أو حرام، فيكون وبالاً علينا وعلى مجتمعاتنا الإسلامية.

وقد عرف القرامطة أن المال هو عصب الحياة، وأنه شهوة من الشهوات التي يتطلع إليها أولئك الذين جلبوا من القرن الإفريقي فيما يسمون بالزنج كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴾[آل عمران:١٤]، فبعد أن أباحوا لهم شهوات الفروج، أرادوا أن يستخدموهم ويستعملوهم ضد الخلافة العباسية بقولهم: إن هذا المال مشاع بين الناس، ولا ينبغي لأحد أن يطغى على أحد في الحصول عليه، وأن يقسموه بين الناس اشتراكية دون النظر إلى التفاوت الاجتماعي والعلمي والتقني بين أفراد المجتمع، وكان هدفهم من دعوتهم لمشاع المال بين الناس هو:

١ . حصول دعاة القرامطة والذين لا يعمل معظمهم في أي نوع من الأعمال على الأموال دون السعي أو العمل، بل يحصلون على زيادة يسرفون بها ويبذرون في نفقاتهم بصفتهم دعاة وقادة.

٢ . ضمان ولاء العبيد وعمال الأرض وأصحاب الشهوات لهم، وهم الذين في أمس الحاجة إلى الأموال.

وهذه الوسائل التي أباحها حمدان بن الأشعث (قرمط) من النساء والأموال إنما هي تحقيق لمبادئ مزدك(١) الذي يشتركون معه في العقيدة المجوسية، ويتعصبون لها ولأهلها.

عمل القرامطة بعد ذلك على توزيع السلاح بين أتباعهم، وخاصة الشباب، ونشروا بينهم الحقد والغل على بني العباس.

فاجتمع لدى القرامطة العبيد وعمال الأرض والشباب ذوو الفتوة والطاقات، والأعراب من الجهلة وسفلة الناس، فاستغلوهم أسوأ استغلال ضد الأمة الإسلامية.

كما عمل القرامطة بعد ذلك على نشر الإرهاب في المجتمع، وإظهار قوتهم؛ مما أخاف كثيراً من الناس، واضطروا للسير خلفهم وتأييدهم خوفاً على أنفسهم وأموالهم؛ مما ساهم في تكثير عدد القرامطة، غير أن هؤلاء عندما انكسرت شوكة القرامطة كانوا وبالاً عليهم، وانفضوا من حولهم، وتركوهم يواجهون وحدهم قدَرهم المحتوم جزاء على جرمهم وضلالهم .

ولقد ساعد القرامطةَ أيضاً في انتشارهم التنظيمُ الدقيق في صفوف دعوتهم، والتقيّةُ التي هي دين لكل طوائف الشيعة، والتي اتخذها القرامطة وسيلة أمام خصومهم، إذ أنهم يُظهرون لهم الولاء، ولغيرهم العداء؛ كما يفعلون مع غيرهم، وهكذا، يأتون بوجه ويخفون آخر، وهو النفاق المحض.

---

(١) مزدك بن ماهان، مباذان النار (الكاهن) في عهد كسرى قباذ بن فيروز ، كان قد انعزل في منطقة بعيدة من أجل التأمل كما يزعم، ثم عاد إلى الناس بعقيدة تدعو إلى مشاعة كل شيء وخاصة النساء والأموال، وإلغاء الملكية الخاصة، فتبعه كسرى قباذ على منهجه المخالف للفطرة، وعمل على نشر تعاليمه الإباحية، وحمل الناس على الاعتقاد والإيمان بالمزدكية؛ مما جعل كثيراً من الناس يؤمنون بها، ثم بعد وفاة كسرى قباذ تولى حكم الفرس كسرى أنو شروان فتتبع مزدك حتى تمكن منه وقتله، ثم تتبع أتباعه وأبادهم، وبقيت هذه المبادئ حبيسة في نفوس البعض إلى أن أحياها مرة أخرى حمدان بن الأشعث -قرمط- ليعيد المزدكية للناس، وهي التي سار على نهجها اليهودي الألماني كارل ماركس الذي وضع أسس ومبادئ الشيوعية الحديثة التي قامت أيضاً على إباحة الشهوات للناس ومشاعة المال. ابن الأثير/ الكامل (١/ ٢٤١) بتصرف، الشهرستاني/ الملل والنحل (٢/ ٢٩٤).

ومما ساعد وساهم في نجاح هذه الدعوة المنحرفة: ضعفُ دولة الخلافة العباسية التي مُنيت بظهور الحركات المناوئة لها بشكل مستمر، كما خاضت الكثير من الحروب ضد دولة الروم الخصم الألدّ لها، كما خاضت معارك مع الدويلات التي انفصلت عنها، كما أن سيطرة القوى العسكرية على الخلافة في بغداد ساهم في ضعف الدولة بشكل كبير.

واستغل القرامطة موقف العباسيين من دعاة التشيع الذين خرجوا عليها، وخاصة أبناء البيت الطالبي، وهم الذين انتشروا في المناطق(١) التي نشأت فيها دعوة القرامطة.

وبذلك نشر القرامطة الفساد بين الناس حتى اتسعت دائرته، وأوقعوا الخلاف بين الحاكم والمحكوم، حتى تمنى الناس الساعة التي يُقضى فيها على أولياء أمورهم من العباسيين، وبمثل هذه الخطة المحكمة يصدق كل من ادعى الإصلاح، وكل من ينادي بإقامة شرائع الإسلام، وهذا ما كان يقوم به ويرفع رايته أصحاب كل حركة، مهما كانت منحرفة وضالة، فيزداد أتباعه يوماً بعد يوم حتى بقيت هذه الوسيلة قائمة إلى زماننا هذا فيما نلمسه في واقعنا المعاصر؛ فإن الكثير من الجماعات التي تنتسب إلى الإسلام باسم الجماعات الإسلامية معظمهُا يغلب عليه الانحراف العقَدي الذي لا يفرق أتباعهُ بين العقيدة الصحيحة والعقيدة المنحرفة، وبين الشريعة والهوى؛ مما أدى إلى وصول المجتمعات الإسلامية اليوم إلى ما وصلنا إليه من تمزق وإهدار طاقات الأمة المادية والمعنوية فيما جر عليها الخيبة والوبال، وإلى الله المشتكى.

---

(١) انتشرت دعوة الطالبيين وأنصارهم في مناطق سواد العراق، وبشكل خاص في سواد الكوفة قاعدة التشيع الأولى، والتي خالط أهلها أهل فارس القريبين منهم، والذين كانوا دائماً يعملون على إحياء المجوسية كلما تيسر لهم ذلك، بل إن الكثير من الحركات المنحرفة التي اتخذت مظهر التصوف أو الدعوات الجديدة لها أصول فارسية وارتباط عقدي بفرق الشيعة والانتساب زوراً لآل البيت.

دولة القرامطة في البحرين

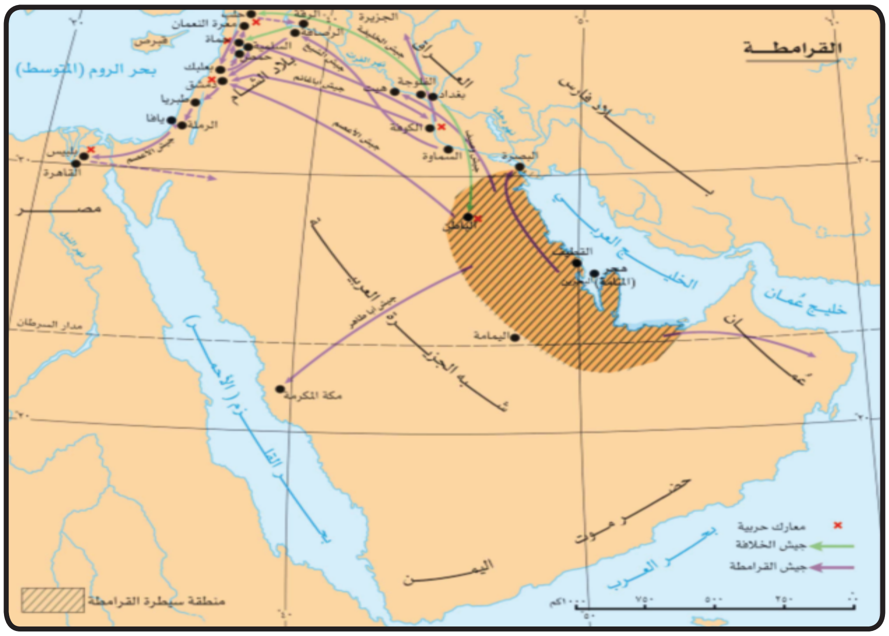
القرامطـــة
بحر الروم (المتوسط)
قبرص
حلب
معرة النعمان
حماة
السلمية
حمص
بعلبك
دمشق
طبريا
يافا
الرملة
بلبيس
القاهرة
مصـــــر
الرقة
الرصافة
الجزيرة
بلاد الشام
العراق
الفلوجة
هيت
بغداد
الكوفة
السماوة
البصرة
بلاد فارس
الناظر
القطيف
هجر
(المنامة) البحرين
الخليج العربي
خليج عُمان
عُمان
اليمامة
شبه الجزيرة العربية
جيش أبا طاهر
جيش الأعصم
مكة المكرمة
مدار السرطان
البحر الأحمر
نهر النيل
حضرموت
اليمـــن
بحر العرب
معارك حربية
جيش الخلافة
جيش القرامطة
منطقة سيطرة القرامطة
٠
٢٥٠
٥٠٠
٧٥٠
١٠٠٠كم

دولة القرامطة في البحرين

لما انتشرت دعوة القرامطة، بدأت في تأسيس دولة خاضت عدة معارك مع جيش الخلافة العباسية الذي لم يستطع إيقاف مدها لفترة طويلة من الزمان، وقد بلغ جيش القرامطة أطراف البادية في اليمن، وجنوبي العراق، والبحرين، ثم اتسعت أكثر شيئاً فشيئاً ونجحوا في امتداد دولتهم إلى كل بادية الشام والعراق، والجزيرة العربية كلها عدا منطقة عسير.

- **النشأة ودور أبي سعيد الجنابي:**

قال الحافظ ابن كثير⁽¹⁾: وظهور أبي سعيد الجنابي رأسِ القرامطة قبحهم الله ولعنهم، وهم أخبث من الزنج، وأشد فساداً.

وكان أول بروز لها في البحرين على يد شخص نزل بها يسمى: يحيى المهدي مُظهراً التشيع لآل البيت، ثم ادعى أنه المهدي المنتظر، فالتف حوله عدد كبير من السوقة والرعاع،

---

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٦٨٣).

وعدد من الشباب الذين أغراهم إباحة النساء، وما منَّاهم به من امتلاك المال والأراضي الزراعية.

وكان من أتباع يحيى المهدي الحسنُ بن بهرام الفارسي، والذي اشتهر باسم أبي سعيد الجنابي(١) قبحه الله، وقد جاء منفياً من فارس، وظل يتنقل بين البحرين والكوفة، وقد صحب حمدان بن الأشعث قرمط، وتأثر به، ونصره في دعوته، وتولى نشر الدعوة القرمطية في البحرين.

ولما كثر أتباع أبي سعيد الجنابي في البحرين، اشتد ساعده، وبدأ يبطش بمخالفيه، واستطاع مع أتباعه أن يستولي على هجر، والتي كانت قاعدة البحرين، فخرّبها، واستقر قريباً منها حيث بنى الأحساء، واتخذها عاصمة لدولته الناشئة(٢)، ثم سار إلى القطيف، وعاث فيها قتلاً وفساداً، فاجتمع له الناس، وأرسى بدايات الدولة القرمطية في البحرين؛ مستغلاً انشغال الخلافة العباسية بحروبها مع خصومها، ومستغلاً عواطف الناس ومشاعرهم ومحبتهم لآل بيت النبي ﷺ.

سار أبو سعيد الجنابي من القطيف متوجهاً إلى البصرة يريد اجتياحها، فأرسلت إليه الدولة العباسية جيشاً استطاع أبو سعيد التغلب عليه، ووقع قائد الجيش علي بن عمر الغنوي في الأسر، ووقع معه عدد كبير من جيشه أسرى، فأحرقهم الجنابي، وأطلق سراح علي بن عمر الذي سار إلى بغداد.

ثم قامت الدولة العباسية بمواجهتهم في معارك متعددة تمكن فيها القرامطة من الانتصار عدة مرات؛ مما زاد من تصدرهم وغرورهم.

---

(١) من أهل جنابة بفارس، وقد جاء إلى البحرين منفياً من بلاده. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٦٨٤).

(٢) بناها أبو الطاهر الجنابي وسميت بذلك لما فيها من أحساء المياه في الرمال ومراعي الإبل. ابن خلدون/ العبر (٧/ ١٩٧).

ومما يذكر في هذا المقام أنهم لم يتركوا مسجداً قائماً في تلك المناطق، بل أنهم منعوا بناء المساجد وخاصة في الأحساء.

قال ناصر خسرو في رحلته: دخلت الأحساء في آخر (سنة ٣٤٢هـ)، وكانت سوادها وقراها محاطة بأربعة أسوار بين كل سورين فرسخ (ثلاثة أميال)..

إلى أن قال: وليس فيها مسجد تقام فيه الصلاة.

وأضاف: وتباع فيها جميع لحوم الحيوانات حتى الكلاب والحمير، ويوضع رأس الحيوان عند لحمه.اهـ. عبد الله بن خالد آل خليفة، د. علي أبا حسين/ الوثيقة (١/ ١٦٨).

- **اتساع الدولة:**

ظهر أمر أبي سعيد الجنابي بشكل كبير في البحرين، حيث بدأ يظهر بمظهر الأمير الذي يستطيع أن ينازل الدولة العباسية.

قام أبو سعيد الجنابي بتولية ابنه سعيد العهدَ من بعده، فلما هلك مقتولاً في (سنة ٣٠١هـ) تولى سعيد الذي كان ضعيفاً؛ مما دفع أخاه سليمان الملقب بأبي الطاهر الجنابي أن يثور عليه ويقتله، ثم قام هو بأمر القرامطة، وهذا الذي لعب دوراً خطيراً في حياة القرامطة.

- **أبو الطاهر الجنابي:**

كان أبو الطاهر الجنابي رجلاً فظاً غليظاً موحشاً في عداوته للإسلام، فمنذ أن تولى إمارة القرامطة ظل يعمل بكل قوة على عداء الدولة العباسية، وعلى القضاء على مظاهر الإسلام الصحيح.

- **من أشهر الأحداث والمآسي التي وقعت من دولة القرامطة:**

لقد قامت هذه الدولة المنحرفة بحوادث مؤسفة في التاريخ الإسلامي، ومن ذلك: ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية(١): حوادث (سنة ٢٧٨هـ) قال: قال ابن الجوزي:

وفيها تحركت القرامطة، وهم فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون بنبوة زرادشت ومزدك، وكانا يبيحان المحرمات، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق لباطل، وأكثر ما يفسدون من جهة الرافضة، ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولاً.

وفي (سنة ٣١٧هـ) تمكنوا من الوصول إلى مكة في يوم التروية من موسم الحج ، بقيادة زعيمهم أبي الطاهر الجنابي، الذي أمرهم أن ينتهبوا الأموال، ويقتلوا الحجيج، وجلس هو على باب الكعبة والرجال تُصرَع حوله، والسيوف تعمل في المسجد الحرام، في الشهر الحرام، في البلد الحرام، وهو يقول: أنا الله وبالله أنا، أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٤/ ٦٣٥).

ولم يدع أحداً طائفاً أو متعلقاً بأستار الكعبة إلا أمر بقتله، ثم أمر بإلقاء القتلى في بئر زمزم، وأمر بخلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، ثم أمر بخلع الحجر الأسود من مكانه، فضرب الحجر أحد القرامطة وهو يقول: أين الطير الأبابيل، أين الحجارة من سجيل؟، ثم خلعه، وأخذوه معهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة، وهو ابتلاء من الله للمسلمين في ذلك الوقت.

ثم شاء الله أن يَهلك أبو الطاهر الجنابي في (سنة ٣٣٢هـ)، ومات عن عشرة من الولد، أكبرهم سابور الذي لم يتمكن من الملك، وإنما تولى عمه أحمد بن الحسن المكنى بأبي منصور، والذي جعل سابور ولياً لعهده.

وأبو منصور هو الذي قام بردّ الحجر الأسود إلى مكانه بضغط من الفاطميين، واستطاع أن يمد نفوذه إلى نجد والشام.

- **الأيام دول:**

شاء الله تعالى أن يوقع العداوةَ والبغضاء والمشاحنات بين أفراد هذه الأسرة الجنابية، فلقد قام سابور باعتقال عمه الأمير أبي منصور؛ مما أحدث فتنة بين أفراد الأسرة في (سنة ٣٥٨هـ) انتهت بمقتل سابور، ونفي إخوته إلى جزيرة أوال «البحرين»، وعودة أبي منصور أميراً على القرامطة.

ثم هلك أبو منصور مسموماً على يد شيعة سابور، وتولى من بعده ابنه أبو علي الحسن ابن أحمد، ويُلقب بالأعصم، ويقال: الأغنم، وهو من أكثرهم بقاءً في الحكم، ومن أكثرهم عداوة وصراعاً مع أسرته، فلقد قام بنفي الكثير من أبناء وأحفاد أبي الطاهر الجنابي إلى جزيرة أوال حتى اجتمع منهم نحو ثلاث مئة بها(١).

---

(١) ابن خلدون/ العبر (٧/ ١٨٨-١٩٩).

- **لكل شيء نهاية:**

بدأ العد التنازلي لنهاية دولة القرامطة منذ تولي الحسن بن أحمد الجنابي الملقب بالأعصم؛ حيث إنه اختلف مع الفاطميين، ونبذ عهدَه مع خليفتهم المزعوم المعز الفاطمي، فأعلن خلعه، وخطب للخليفة العباسي المطيع على منابر القرامطة، ولبس السواد شعار العباسيين، وأمر أتباعه بلبس السواد نكاية في الفاطميين.

وهنا تظهر حقيقة واضحة أن كل من قام بدعوى أحقية آل البيت بالخلافة إنما قاموا اتباعاً للأهواء والشهوات، هدفُهم واحد هو القضاء على الإسلام، غير أنهم عندما تتحقق لبعضهم المصالح والمنافع يقع بينهم التنافس، ويتحولون إلى ديدان يأكل بعضها بعضاً، ولو أنهم كانوا على الحق، لتآلفوا ولتماسكوا، فلقد ظهرت لهم عدة دول في آن واحد، فهذه دولة القرامطة، وإلى جوارهم الدولة الفاطمية العبيدية التي خرجت من نفس الدهليز الذي خرجت منه القرامطة، وكذلك الدولة الحمدانية، وكذلك دولة ابن بويه، لكن الله جل وعلا أوقع بينهم العداوة والبغضاء؛ لسوء طويتهم، ولضلالهم البيّن، ولحقدهم وعدائهم للإسلام والمسلمين.

قام الحسن بن أحمد بالزحف إلى دمشق، فواجهه قائد الفاطميين هناك جعفر بن فلاح الكتامي(١)، واستطاع أن ينتصر عليه وقتله، وملك دمشق، وسار إلى مصر وحاصر الفاطميين بها، وضيق عليهم، وكاد أن يستولي على مصر، وأن ينزل الهزيمة بقائد الفاطميين جوهر الصقلي، غير أن العرب لم يوافقوه ولم يعينوه على مطلبه، فعاد إلى الشام، ونزل الرملة من أرض فلسطين.

فكتب إليه المعز الفاطمي يوبخه، وأمره أن يعزل نفسه عن القرامطة، وأن يتولى مكانه أبناء أبي الطاهر، وكتب المعز إلى أبناء أبي الطاهر أن يخرجوا على الأعصم، وأن يتولى أحدهم أمر القرامطة، فخرجوا من أوال، ونهبوا الأحساء في غيبته، فكتب إليهم الخليفة

---

(١) «أبو علي» جعفر بن فلاح الكتامي: أحد قواد المعز الفاطمي العبيدي صاحب إفريقية، سيره المعز مع القائد جوهر الصقلي لمصر فدخلاها، ثم بعثه جوهر الصقلي إلى الشام فامتلك الرملة (سنة ٣٥٨هـ)، ثم زحف إلى دمشق وامتلكها (سنة ٣٥٩هـ)، ثم قُتل على يد القرمطي أبي الحسن بن أحمد (سنة ٣٦٠هـ). الزركلي/ الأعلام (٢/ ١٢٦).

العباسي الطائع أن يلتزموا الطاعة، وأن لا يخرجوا على ابن عمهم، وأن يقيموا بجزيرة أوال حيث أمرهم؛ ولم يكتفِ الخليفة بذلك، بل أرسل إليهم من يصلح بينهم، فهدأت الأمور.

ولما دخل المعز الفاطمي إلى القاهرة ليستقر بها، وأعلن نفسه خليفة على هذه المناطق، أرسل الجندَ إلى الشام فاستولى عليها، فقام إليهم الأعصم، وأوقع بهم الهزائم وأثخن فيهم، واستطاع أن ينتزع منهم ما ملكوه بالشام، ولم يكتفِ بذلك، بل سار إلى مصر مرة أخرى ليستولي عليها ويؤدب الفاطميين، وهذه كانت مجازفة كبيرة منه وعدم حكمة.

لما علم المعز الفاطمي بمسير الأعصم إلى مصر، جيش جيشاً كبيراً على رأسه ولدُه عبد الله الذي لقي الأعصم في بلبيس، واستطاع عبد الله الفاطمي أن يهزم الأعصم، وأن يقتل الكثير من أصحابه، ويأسر الكثير، واستطاع الأعصم أن يفر وينجو بنفسه، وعاد إلى الأحساء.

فقد القرامطة الشام بعد هذه الحروب، وأراد الأعصم أن يعيد الكرة، وأن يزحف على بلاد الشام، فاستطاع أن يدخل إلى الرملة، غير أن العزيز الفاطمي استطاع أن يهزم القرامطة، وفر الأعصم إلى طبرية منهزماً، ثم عاد إلى الأحساء.

اجتمع الفاطميون، وأنكروا على الأعصم بيعته لبني العباس، واتفقوا على إخراج الأمر من الأسرة الجنابية، وقدموا رجلين من القرامطة، أحدُهما اسمه جعفر، والآخر اسمه إسحاق، فسار أبناء أبي سعيد الجنابي إلى جزيرة أوال التي نُفي إليها أبناء عمومتهم من ولد أبي الطاهر الجنابي، واستقبلوا أبناء أبي سعيد القادمين إليهم بالقتل، فلم يبقوا منهم أحداً من ولد أحمد بن أبي سعيد وأشياعه، وانتهت بذلك دولة آل الجنابي، لكن لم تنتهِ دولة القرامطة بعد، إذ أن جعفراً وإسحاق قاما بأمر القرامطة، غير أن الخلاف وقع بينهما، وطمع كل منهما في الرياسة على صاحبه، وافترق أمرهم، وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى عليهم الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي في (سنة ٣٩٨هـ)، وملك الأحساء من أيديهم، وأذهب دولتهم، وخطب للطائع، واستقرت الدولة له ولبنيه⁽¹⁾.

---

(١) ابن خلدون / العبر (٧/ ١٩٥).

• دور بني ثعلب:

كانت أعظم قبائل العرب التي تعيش بالبحرين آنذاك: بنو ثعلب، وبنو عقيل، وبنو سليم، وقبائل أخرى كثيرة، غير أن أظهرهم قوةً وعزةً بنو ثعلب، وهم الذين استطاعوا أن يسيطروا على البحرين على يد كبيرهم الأصغر بن أبي الحسن الثعلبي.

ثم وقع الخلاف بين بني ثعلب وبني سليم، واستطاع بنو ثعلب أن يستعينوا ببني عقيل، وقاموا بطرد بني سليم الذين توجهوا لمصر، ومنها إلى إفريقية.

ثم اختلف بنو ثعلب مع بني عقيل، وقاموا بطردهم إلى العراق، فتملك بنو عقيل الكوفة وبعض العراق.

امتد ملك الأصغر وطالت أيامه، واستطاع أن يتغلب على الجزيرة الفراتية والموصل، وملك ملكاً لم يدم بعده طويلاً في أبنائه الذين قاموا بالأمر من بعده في البحرين(١).

ثم تلاشت دولة بني ثعلب على يد أحد زعماء قبيلة بني عبد القيس، ويدعى: عبد الله ابن علي العيوني(٢)، والذي استعان بالخليفة العباسي القائم بأمر الله، وبوزيره أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق نظام الملك، وبسلطان السلاجقة ملك شاه السلجوقي، فوجد تجاوباً منهم ومساعدة، وأمدوه بالجيش الذي أعانه في القضاء على خصومه، وعلى ما تبقى من فتنة القرامطة في البحرين، وذلك في (سنة ٤٦٧هـ) لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ البحرين مع دولة العيونيين.

• دور أبي البهلول العوام(٣) «إمارة بني الزجاج»:

في ذلك الوقت استطاع أبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف الزجاج أحدُ رجال قبيلة عبد القيس، والذي كان أحد الثائرين على القرامطة في البحرين أن يبسط نفوذه على جزيرة أوال، وكان يعمل ضامناً لخراج جزيرة أوال إلى والي القرامطة في البحرين،

---

(١) ابن خلدون / العبر (٧/ ١١٦).

(٢) عبد الله بن علي بن إبراهيم العيوني: من بني عبد القيس، رأس العيونيين في الأحساء نشأ بها وأزال القرامطة منها، عاش نحو ثمانين عاماً إلى أن توفي في (سنة ٥٢٠هـ). الزركلي/ الأعلام (٤/ ١٠٥).

(٣) خليفة النبهاني/ التحفة النبهانية (ص: ٦٣-٦٤).

كما كان أخوه أبو الوليد مسلم بن محمد بن يوسف الزجاج خطيباً للجمعة بجزيرة أوال في المسجد الذي عمل أبو البهلول على إنشائه بعد أن دفع للقرامطة ثلاثة آلاف دينارليسمحوا له ببنائه، فلما تم له ذلك، قام أخوه أبو الوليد وخطب الجمعة للخليفة أبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله، مما ملأ قلب القرامطة بأوال حقداً عليهم، ولم تتعرض له الدولة القرمطية؛ لكونه يبذل لهم الخراج، وكان القرامطة من قبل لا يقبلون إقامة المساجد، بل عملوا على تعطيلها بالهدم والإزالة، كما عطلوا الشرائع.

وخطوة بخطوة استطاع أبو البهلول أن يسيطر على جزيرة أوال، غير أن الدولة القرمطية انتبهت لذلك، وحاولت القبض على أبي البهلول وأصحابه مما دفعه أن يستجير بالله، ثم بأحد زعماء قبيلة عبد القيس من ذوي الوجاهة، واسمه أبو القاسم بن أبي العريان، واستطاع في النهاية أن يطرد ناظر القرامطة على أوال، مما دفع الدولة القرمطية أن تواجهه ببعض رجالها، فاستطاع التغلب عليهم، ولم يبقَ أمام الدولة إلا أن تواجه أبا البهلول، والذي استطاع أن يكمن لجيشهم، وينتصر عليهم، وبسط سيطرته ونفوذه على أوال، وجعل أخاه وزيراً له.

اتصل أبو البهلول بالدولة العباسية لدعمه ومساعدته، ومحاولة السيطرة على البحرين كاملة، في الوقت الذي كان يحيى بن عياش الجذمي في القطيف قد استطاع إخراج القرامطة منها، والاستيلاء عليها، وحاول السيطرة أيضاً على البحرين كاملة، واتصل بالدولة العباسية من أجل ذلك، ولما علم أن أبا البهلول يريد أيضاً ذلك، أعد له جيشاً ليحاربه ويقضي عليه، غير أنه توفي قبل المواجهة، وتولى من بعده ولده زكريا الذي استطاع أن ينتصر على أبي البهلول، وأن يدخل إلى جزيرة أوال في (سنة ٤٣٦هـ).

إمارة العيونيين في البحرين(١)

(٤٦٧هـ - ٦٤١هـ)

تنسب الإمارة العيونية إلى واحة العيون الواقعة شمال مدينة الأحساء، وكان يسكنها فخذ من قبيلة بني عبد القيس بن ربيعة يقال لهم: آل إبراهيم نسبة لجدهم، ونهض من بينهم الأمير عبد الله العيوني، والذي قادهم للقضاء على ما تبقى من دولة القرامطة مستعيناً بالدولة العباسية، والسلطة العسكرية السلجوقية.

وقف ملك شاه قائدُ السلطة العسكرية السلجوقية إلى جوار العيوني، وأمده بجيش كبير قوامه سبعة آلاف مقاتل، استطاع بعد عدة أحداث أن يقضي على بقايا القرامطة، وعلى خصوم الدولة في تلك المناطق، بعد أن ظل في معارك لسبع سنوات قاتل فيها أيضاً أمراء القطيف من بني عياش، وظفر بهم، وقتل زعيمهم زكريا بن يحيى، وولى ابنه علي بن عبد الله العيوني أميراً على أوال.

أسس عبد الله العيوني إمارة بقيت زهاء مئة وسبعين سنة، امتد عهده فيها نحو ستين سنة من بداية حركته إلى وفاته في (سنة ٥٢٦هـ) وقد تجاوز المئة من عمره، استطاع خلالها أن يرسي قواعد إمارة العيونيين، وأن يقضي على ما تبقى من انحرافات وعقائد القرامطة وعاداتهم السيئة؛ كعادة الماشوش، وهي عادة خبيثة اعتادوها في كل عام، حيث تجتمع أقوامهم رجالاً ونساءً في يوم بعينه لفعل الفواحش والمنكرات عياذاً بالله(٢).

وقد تداول فيها حكم الأحساء نحو عشرين أميراً إلى أن انتهت باستيلاء أبي بكر بن سعد الزنجي على الأحساء والقطيف (سنة ٦٤١هـ)، وكان أبو بكر بن سعد الزنجي قد استولى على جزيرة أوال قبل ذلك في (سنة ٦٣٣هـ)، وكان من أهل السنة والجماعة.

---

(١) خليفة النبهاني/ التحفة النبهانية (ص:٦٥-٦٨)، وللاستزادة مجلة الوثيقة التي تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بمملكة البحرين في عددها الأول دراسة قيمة وعرض مفيد عن إمارة العيونيين كتبها الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة، ود. علي أبا حسين، (ص:١٢-٣٥).

(٢) عبد الله بن خالد آل خليفة، د. علي أبا حسين/ مجلة الوثيقة (ص:١/ ٢١).

ولقد نبه النبهاني(١) إلى أن المنطقة الكبيرة التي تسمى الزنج بالبحرين اليوم لعلها منسوبة إلى تلك الدولة.

ولقد اشتهر من بين الأسرة العيونية الشاعر علي بن المقرب العيوني، وله ديوان عليه شرح على هامشه يعد مصدراً ثرياً لتاريخ الأسرة العيونية، والتي يصعب على الباحث تتبع آثارها وأحداثها من المصادر التاريخية(٢).

---

(١) خليفة النبهاني/ التحفة النبهانية (ص:٦٥-٦٨)

(٢) عبد الله بن خالد آل خليفة، د. علي أبا حسين/ مجلة الوثيقة (١/ ١٢-١٣).

الدولة الحمدانية

(٢٩٣هـ - ٣٩٣هـ)

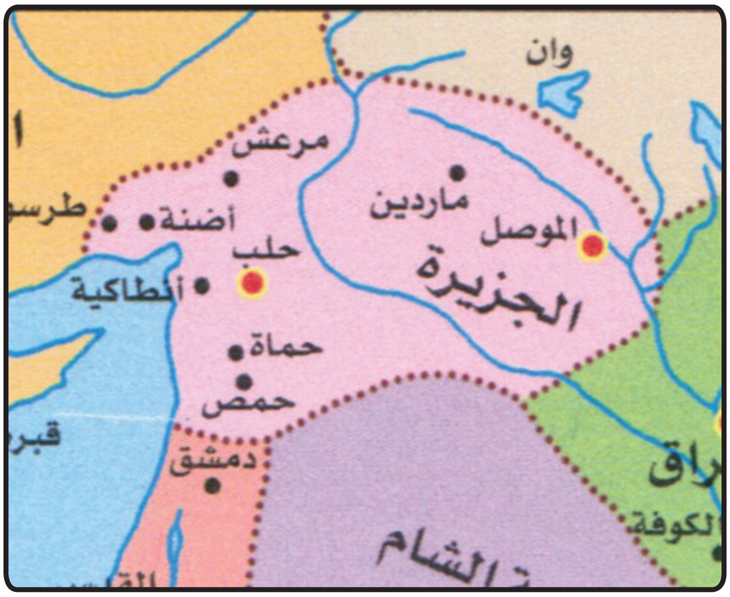

الدولة الحمدانية في العراق والشام

تنسب الدولة الحمدانية إلى حمدان بن حمدون بن الحارث التغلبي، قامت دولتهم في (سنة ٢٩٣هـ) بالجزيرة على الحدود مع الروم والموصل وحلب وحمص، وهي دولة عربية أنشأها حسين بن حمدان الذي كان ذا ولاء شديد للخليفة العباسي، ووقف إلى جوار الدولة في حربها مع الخوارج، كما لعب دوراً بارزاً في الحرب ضد القرامطة.

حدث بينه وبين وزير الخليفة المقتدر خلاف انتهى بسجنه وقتله (سنة ٣٠٦هـ)، ثم خلفه على ديار ربيعة أخوه إبراهيم الذي توفي (سنة ٣٠٨هـ).

ومن أهم رجال الدولة الحمدانية: عبد الله بن حمدان أبو الهيجاء الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة، ولاه الخليفة المكتفي الموصل وأعمالها (سنة ٢٩٣هـ)، إلى أن عزله الخليفة المقتدر (سنة ٣٠١هـ)، فقدم بغداد، ثم أعاده الخليفة، ثم قبض عليه مع أخيه الحسين بن حمدان، وأطلقه (سنة ٣٠٥هـ)، وقلده طريق خراسان والدينور (سنة ٣٠٨هـ)، فكان

يقوم بذلك وهو في بغداد، كما ضمن أعمال الخراج والضياع بالموصل والبلاد المجاورة لها (سنة ٣١٥هـ)، ثم أثناء فتنة خلع المقتدر قُتل عبد الله (سنة ٣١٧هـ).

ثم تولى على الموصل رجال من الحمدانيين كان آخرهم ناصر الدولة بن حمدان الذي طرده الأتراك من الموصل (سنة ٣٣٠هـ)، وكانت دولة بني حمدان في الموصل هي مشيخة قبائل متغلبة على الجزيرة، وانتهى أمرهم في الموصل (سنة ٣٣٠هـ).

- **الدولة الحمدانية في حلب:**

وقد انتهت مرحلة بني حمدان بن حمدون في الموصل قبل مرحلة السيطرة البويهية على بغداد لتبدأ مرحلة بني حمدان في حلب، وهي المرحلة الأشهر في التاريخ والأقوى، وانحصرت أسرتهم في ابنَي أبي الهيجاء عبدِ الله بن حمدان، وهما: الحسن، وعلي، وقد لقبهما الخليفة بناصر الدولة الحسن، وسيف الدولة علي.

كان الحمدانيون ينزعون إلى التشيع، وخاصة للبيت العلوي، وقد ظهر ذلك جلياً بعد دخول البويهيين إلى بغداد، الذين ارتبطوا مع الحمدانيين بعلاقات خفية قوية أظهروا عكسها من باب ذر الرماد بالعيون، وهو أصل دينهم الذي يقوم على التقية: إظهار أمر، وإخفاء ضده.

من أشهر الحمدانيين سيفُ الدولة الحمداني الذي تولى حلب (سنة ٣٣٣هـ إلى ٣٥٦هـ)، ووقع بينه وبين الإخشيديين حروبٌ انتهت بالصلح بينهم، وأصبح له الولاية على الثغور مع الروم.

ووقعت بينه وبين الروم مواجهات متعددة، ولكن مع الأسف كانت الغلبة دائماً للروم الذين فعلوا الأفاعيل بالمسلمين من قتل وأسر وسلب ونهب، ويرجعون متغطرسين جبابرة، وكل ذلك بسبب سيف الدولة الحمداني الذي لم يتقدم الجيش يوماً برغم أنه القائد، ولا يسير أمام الجند برغم أنه الأسوة، بل كان يرسل من ينوب عنه ويقوم مقامه، ولذا قلما انتصر جيشه.

ولقد غمزه ولمزه في موضع المدح الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي(١) في قصيدة يمدحه فيها، كان مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وفي موطن آخر:

تمر بك الأبطال كَلْمى هزيمةً   ووجهُك وضاحٌ وثغرك باسم

بل إن سيف الدولة الحمداني ما اقترب الروم من حلب إلا يفر إلى خناصر جنوب حلب، ويترك داره وفيها أهله، وقد أخذ الروم نساءه أكثر من مرة(٢).

وأما ما كتب عنه من الشجاعة والإقدام، فإنما كتبه القصاص وأصحاب العقائد المنحرفة الذين ماثلوه في العقيدة من أجل الدعاية والشهرة لمذهبهم الفاسد.

يقول الأستاذ محمود شاكر(٣): وكذا أبو فراس الحمداني، فإنه قد أُسر وسجن في ثغر (خرشنة)، وهو بالأصل ثغر إسلامي أخذه الروم منهم، فقال أبو فراس في سجنه بخرشنة مفتخراً بأنه قد أغار فيما مضى على خرشنة، وأنه أحرق فيها ما استطاع إحراقه، فيقول:

إن زرتُ خرشنة أسيرا   فلكم أحطت بها مغيراً
ولقد رأيت النار تلـ   ـتهم المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجـ   ـلب نحونا حوراً وحورا
نختار منه الغادة الـ   ـحسناء، والظبي الغريرا

ويظهر من قول أبي فراس هدف القتال ومرماه.ا.هـ.

---

(١) أبو الطيب المتنبي: أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي الشاعر المعروف بالمتنبي، ولد بالكوفة (سنة ٣٠٦هـ)، ونشأ ببادية الشام، وطلب الأدب وهو صغير وفاق أهل زمانه فيه، كان شاعراً مداحاً للملوك والأمراء وقد حصل له أموالاً كثيرة من وراء ذلك، وطاف بلداناً كثيرة من أجل ذلك، ادعى النبوة في فترة من حياته، وزعم أنه يتنزل عليه قرآن، فالتف حوله جمعٌ من الجهلة والرعاع، واجهه نائب حمص للإخشيديين الأمير لؤلؤ وانتصر عليه وسجنه لفترة طويلة ثم استتابه، فرجع عن قوله وتاب عنه ورجع إلى دين الإسلام، واختلف في عقيدته وأكثر المؤرخين أنه كان على عقيدة الرفض. له ديوان مشهور في الشعر فيه أشعار رائقة ومعانٍ ليست بمسبوقة، بل مبتكرة سابقة، وهو في الشعراء المحدثين كامرئ القيس في الشعراء المتقدمين، ومن شعره: ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ...... عدواً له ما من صداقته بد.

وأيضاً: ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت ...... على عينه حتى يرى صدقها كذباً. الذهبي/ السير (١٦/ ١٩٩).

انتهى الأمر بمقتله في رمضان (سنة ٤٥٣ هـ) على يد قوم من الأعراب.

(٢) محمود شاكر/ الخلفاء (ص:٦، ٦٦).

(٣) محمود شاكر/ الخلفاء (ص:٦، ٦٦).

كما جرى بين البويهيين وناصر الدولة الحمداني الوالي على الموصل صلح أغضب الأتراك في الموصل على ناصر الدولة، فهرب منهم إلى تكريت، ونزل عند القرامطة الذين أجاروه، ثم توجه بعد ذلك إلى الموصل، ثم إلى نصيبين (سنة ٣٣٥هـ)، وأما الأتراك، فقد استطاعوا الدخول إلى الموصل مع أميرهم البكتين، وساروا وراء ناصر الدولة إلى نصيبين، ثم لحقوا به إلى سنجار، ثم إلى الحديثة، فأرسل ناصر الدولة يستغيث بالبويهيين، فأمده أحمد بن بويه بالعسكر مع وزيره أبي جعفر الصيمري، فوقع قتال شديد بين البويهيين والأتراك، فانهزم الأتراك بعد أن كادوا ينتصرون، وتبعهم الأعراب من أنصار الحمداني، وأكثروا القتلى فيهم، ثم أسروا البكتين، وسملوا عينيه بين يدي ناصر الدولة الحمداني الذي أمر بسجنه في قلعة من قلاعه، ورجع إلى الموصل مع جيش البويهيين الذي مُنح مالاً وفيراً واطمأن على استقرار الوضع لناصر الدولة بالموصل والجزيرة.

وبعد وفاة سيف الدولة الحمداني تدهورت الدولة الحمدانية بسبب هجوم الروم دائماً عليها، حتى سقطت حلب نفسها في يد الروم، وانتهى أمر الدولة الحمدانية في حلب، وظلت المنطقة في تدهور وصراع بين القوى الموجودة آنذاك، تارة الفاطميون، وتارة أبناء مرداس، ولم تحسم هذه الفوضى إلا بعد أن تولى السلاجقة في عهد السلطان ملك شاه السلجوقي (سنة ٤٧٥هـ) لتعود مرة أخرى انتصارات الإسلام على الروم.

الدولة الإخشيدية

(٣٢٤هـ - ٣٥٦هـ)

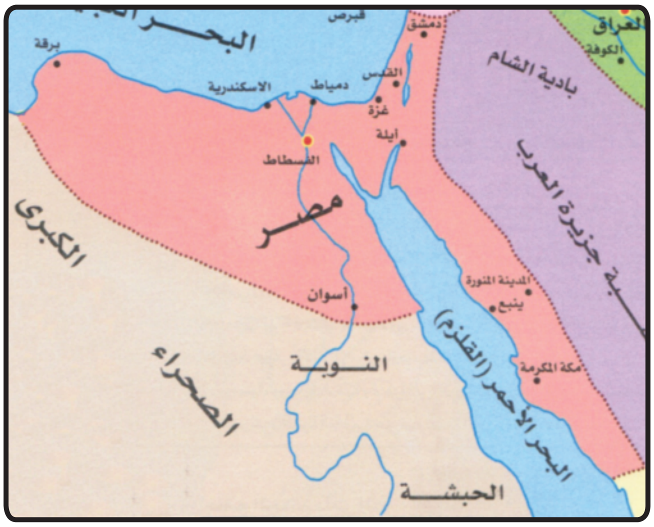
البحر
قبرص
دمشق
لعراق
الكوفة
برقة
بادية الشام
الاسكندرية
دمياط
القدس
غزة
أيلة
الفسطاط
جزيرة العرب
مصر
الكبرى
المدينة المنورة
ينبع
أسوان
الصحراء
النوبة
مكة المكرمة
البحر الأحمر (القلزم)
الحبشة

الدولة الإخشيدية في مصر والشام والحجاز

تنسب الدولة الإخشيدية إلى الإخشيد محمد بن طغج، ومعنى الإخشيد: ملك الملوك، كان من موالي الطولونيين، وقد سُر به الخليفة الراضي عندما قام الإخشيد بصد هجوم الفاطميين على مصر (سنة ٣٢٤هـ)، فعينه والياً عليها، واستطاع أن يضم الشام إليه، وكان الإخشيد محباً للخلافة، يدعو لها في خطبة الجمعة، بل عرض على الخليفة المتقي بالله أن ينتقل إلى مصر، ويجعلها مقراً للخلافة، ولكن الخليفة رفض.

كان الإخشيديون من أهل السنة أصحاب ديانة، وكان بلاط ولاتهم يعقد فيه للعلماء والأدباء، فقد كان الإخشيد يحرص على تلاوة القرآن، ويبكي عند سماعه، كما أشاد به المؤرخون، وأثنوا عليه. قال المقريزي في المقفى عنه: كان حازماً شديد التيقظ في حروبه، حسن التدين، مكرماً للأجناد، شديد القوى، حسن السيرة في الرعية، نجيباً شهماً.

وقد بلغ خراج مصر في زمان الإخشيد مليونين من الدنانير، كما بلغ في عهد مولاهم كافور القائم بأمر ولد الإخشيد أبي القاسم أونجور ثلاثة ملايين ومئتين وسبعين ألف دينار.

قال الذهبي رحمه الله[1]: وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكان يُقرأ عنده في كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية، وله ندماء، وكان عظيم الحميّة، يمتنع من الأسواق، زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد، وكان كريماً كثير الخُلع والهبات، خبيراً بالسياسة، فطناً ذكياً جيد العقل داهية.

وكانت أيام كافور سديدة جميلة، وكان يُدعى له على المنابر بالحجاز ومصر والشام والثغور وطرسوس والمَصِيصة، واستقل بملك مصر سنتين وأربعة أشهر.

وقيل: إنه كان يتهجّد، ثم يمرغ وجهه ساجداً يقول: اللهم لا تسلط عليَّ مخلوقاً.ا.هـ.

ومن المؤسف أنه اضطرب في زمانه أمرُ الشام، وهاجمها سيفُ الدولة الحمداني، واستولى على دمشق، لكن كافوراً استطاع أن يستردها، وأن يهزمه قرب حلب التي فر إليها سيف الدولة في موقعة مرج عذراء، ثم عُقد صلح بين الطرفين حصل به كافور على موافقة الخليفة العباسي بتولي أبي القاسم أونجور الإخشيد على مصر والشام ومكة والمدينة وحلب وطرطوس.

وارتفع شأن كافور، واستطاع السيطرة على الدولة في عهد أبي قاسم، ثم في عهد أخيه علي أبي الحسن، ثم في عهد ابنه أحمد، ثم استصدر كافور كتاباً من الخليفة بتولي إمارة مصر حتى توفي.

وفي خلال ولايته على مصر والشام تعرض لهجمات القرامطة من الشرق، والفاطميين من الغرب، والنوبيين من الجنوب، وبعد وفاة كافور (سنة ٣٥٦هـ) لم يهنأ الإخشيديون بالبقاء في الحكم؛ إذ أن الفاطميين دخلوا إلى مصر والشام، وأسروا الوالي الإخشيدي الحسن بن عبيد الله، ونقلوه إلى المغرب، وبقي فيها حتى مات (سنة ٣٧١هـ)، وانتهت بذلك الدولة الإخشيدية.

ومما يُذكر أن قبر كافور كُتب عليه:

انظـر إلى غير الأيام ما صنـعت   أفنت أناسـاً بها كانـوا وما فنيت
دنياهم ضحكت أيام دولتــهم   حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت[2]

---

(١) تاريخ الإسلام (٢٦/ ١٤٩)/ بتصرف - ابن العماد/ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٤/ ٢٩٦).
(٢)) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٣١١) - ابن الأثير/ الكامل في التاريخ (٥/ ٣٥١).

الدولة العبيدية الفاطمية الإسماعيلية

(٣٥٨هـ - ٥٦٤هـ)

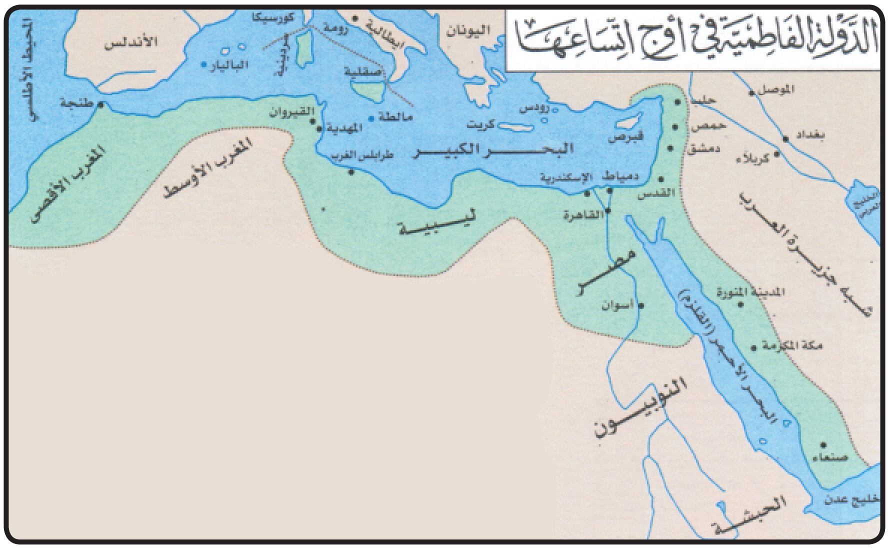
الدولة الفاطمية في أوج اتساعها
الأندلس
المحيط الأطلسي
طنجة
الباليار
كورسيكا
سردينية
رومة
إيطالية
صقلية
مالطة
اليونان
القيروان
المهدية
طرابلس الغرب
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
ليبية
البحر الكبير
كريت
رودس
قبرص
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
القدس
مصر
أسوان
حلب
حمص
دمشق
الموصل
بغداد
كربلاء
الخليج العربي
شبه جزيرة العرب
المدينة المنورة
مكة المكرمة
البحر الأحمر (القلزم)
النوبيون
صنعاء
خليج عدن
الحبشة

- **الدعوة الباطنية تمهد لقيام دولة لها:**

لقد كانت اليمن مهد أول مظهر لهذه الأفكار المنحرفة، إذ قام بها رجل يقال له: الحسين ابن حوشب، والذي يلقبونه بمنصور اليمن، قام بإعلان دعوته بين القبائل اليمنية باسم الإمام الإسماعيلي المنتظر، وقد تمكن في (سنة ٢٦٦هـ) أن يؤسس أول دولة تتبنى هذا الانحراف العقدي، وكان يعاونه في ذلك رجل يقال له: علي بن الفضل، وشيئاً فشيئاً بدأ يمتد نشاطه خارج اليمن عندما أرسل ابنُ حوشب رجلاً يكنى بأبي عبد الله الشيعي، وقيل: هو أخو علي بن حوشب، أرسله إلى المغرب لنشر العقيدة الباطنية بين البربر، وقد نجح أبو عبد الله بدهائه وادعائه نصرةَ بيت النبوة في كسب قبيلة يقال لها: كتّامة، والتي تحمست لهذه الأفكار المنحلة، وعملت لها حتى كسبت تأييداً من بعض القبائل؛ مما دفع أبا عبد الله الشيعي إلى دعوة عبيد الله بن ميمون القداح ساكن السلمية، والذي انحدر هو وأبوه من أصول فارسية ويهودية، فانتقل إلى المغرب، وقد وضع لنفسه نسباً فاطمياً مدعياً أنه عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وتسمى بالمهدي.

وبعد أن استقر في المغرب، بدأ الخلاف يدب بينه وبين عبد الله الشيعي، وانتهى بينهما بتفوق عبيد الله المهدي على أبي عبدالله الشيعي، والتخلص منه؛ مما جعله ينفرد بالزعامة بين أتباعه.

في الوقت الذي اختلف فيه الحسين بن حوشب في اليمن مع قائد جيشه علي بن الفضل الذي استطاع أن يجمع الناس حوله، ثم ادعى النبوة، وأباح المحرمات، وبلغ به الأمر أن يأمر المؤذن أن يؤذن في مجلسه بقوله: أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وقد بلغ به جبروته أن يكتب إلى عمّاله في البلاد: من باسط الأرض وداحيها، ومزلزل الجبال ومُرسيها عليِّ بنِ الفضل إلى عبده فلان.

وفي المغرب ادعى عبيد الله بن ميمون القداح أنه شريفٌ فاطمي كما أسلفنا، فصدقته طائفة من البربر في المغرب، وأسس بهم اللبناتِ الأولى للدولة الفاطمية العُبيدية الضالة، ثم أسس مدينة المهدية في تونس، وانتزع الملكَ من الأغالبة، وقد هلك عبيد الله (سنة ٣٢٢هـ)، وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر (سنة ٣٥٨هـ)، وأعلن الخلافة الفاطمية الباطنية، والتي خالفت الخلافة الإسلامية للعباسيين في بغداد، وأسس مدينة القاهرة عاصمة لها في (سنة ٣٥٩هـ/ ٩٩٦م) على يد وزيره جوهر الصقلّي.

قام الفاطميون بنشر مذهبهم الفاسد بين الناس، مستعينين بقوتهم العسكرية، وبيهود مصر، غير أن المصريين أداروا ظهورهم لدعوة الفاطميين الفاسدة، إلا أنهم تأثروا كما تأثر العالم الإسلامي بالبدع والأعياد التي أحدثها الفاطميون بالإسلام، كالاحتفال برأس السنة الهجرية، ومولد النبي ﷺ، ومولد أهل البيت رجالاً ونساءً، وأقاموا من أجل ذلك المشاهدَ والقبور المزيفة، وشدوا لها الرحال، ومن ذلك: المشهد الحسيني بالقاهرة، والذي بني بعد مقتل الحسين بنحو خمسة قرون(١)، كما احتفل هؤلاء بليلة

---

(١) بني المشهد الحسيني في (٥٤٩هـ) الموافق (١٠٥٤م) تحت إشراف الوزير الصالح طلائع، ثم مر بعد ذلك المشهد بتغيرات مختلفة كما ذكر المقريزي في الخطط، حتى بلغ على هيئته في زماننا هذا، ويزعم الفاطميون العبيديون والصوفية المنحرفون بأن الرأس التي حملت من مشهد عسقلان ووضعت في فضة ثم دفنوها في القاهرة أنها للحسين بن علي رضي الله عنهما، وهذا كذب مختلق كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن هذا بلا نزاع بين العلماء المعروفين الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك، وأن ما يذكره بعض الناس أن هذا المشهد للحسين فهو قول عمن لا يعرف على عادة من يحكي من مقالات الرافضة وأمثالهم من أهل الكذب، وإذا طالبتهم بمن قال ذلك ونقله؟ لم يكن لهم عصمة يرجعون إليها. بتصرف من كتاب رأس الحسين لشيخ الإسلام ابن تيمية/ تحقيق السيد الجميل، وهو مأخوذ من مجموع فتاوى ابن تيمية مجلد (٢٧/ ٤٥٠-٤٩٠).

النصف من شعبان، وليلة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين من رجب، فهم أول من أسس لهذه البدع الضالة التي ما أنزل الله من سلطان، وما زال أتباعهم والعوام الجهلة يحتفلون بها إلى اليوم.

ولقد ناصب الفاطميون العداء لأهل السنة، وآذوهم إيذاءً شديداً، كما آذوا علماءهم، واعتدوا عليهم.

ولقد كان الفاطميون كعادتهم يداً بيد مع أعداء الإسلام، وكانوا خير معين للصليبيين عند دخولهم بلاد الشام فيما يسمى بالحملات الصليبية.

ولقد عانى علماء الإسلام ودعاة أهل السنة في زمانهم أشد المعاناة؛ إذ أن الفاطميين مارسوا ألواناً قاسية من الإرهاب والعذاب مع من خالفهم.

قال الحافظ ابن كثير عن المعز الفاطمي: ادعى أنه يعدل وينصف المظلوم من ظالمه، وأن الله قد رحم الأمة بهم، واستنقذهم من أيدي الظلمة إلى عدلهم وإنصافهم، وهو مع ذلك يدعي ظاهر الرفض، ويبطن الكفر المحض، وكذلك أهل طاعته ومن نصره ووالاه، واتبعه في مذهبه، قبحهم الله وإياه.

ثم أضاف عن سلوك المعز مع الزاهد العابد التقي أبي بكر النابلسي، فقال: أُوقف بين يدي المعز، فقال له المعز: بلغني أنك قلت: لوكان معي عشرة أسهم لرميت الروم بسهم، ورميت المعز بتسعة، فقال: ما قُلت هذا. فقال المعز: فكيف قلت؟ قال: ينبغي أن يرميكم بتسعة، ثم يرميكم بالعاشر. قال المعز: ولِمَ؟ قال: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية.

فأمر المعز بضربه بالسياط ضرباً شديداً مبرحاً، ثم أمر بسلخه، فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقةٌ عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات، ثم ترحم ابن كثير عليه، وقال: وقيل له: الشهيد، وإليه ينسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم.

ولقد كان المعز منجماً يعتمد ما يرصد من حركات النجوم، قال له منجمه يوماً: عليك أن تتوارى هذه السنة عن وجه الأرض، فعمل له سرداباً، وأحضر الأمراء وأوصاهم بولده نزار، ولقبه بالعزيز، وفوض إليه الأمر حتى يعود إليهم، فبايعوه على ذلك، ودخل ذلك السرداب، فتوارى فيه سنة، فكانت المغاربة إذا رأوا سحاباً سارياً وهم على خيلهم يترجلون عن خيلهم، وأومؤوا إليه بالسلام ظانين أن المعز في ذلك الغمام، ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾[الزخرف:٥٤].

ثم برز إلى الناس بعد مضي سنة، وجلس في مقام الملك، وحكم على عادته، ولكنه لم تطل مدته بعد ذلك، بل عاجله القضاء المحتوم، والحين المقسوم، فكانت وفاته في هذه السنة (٣٦٥هـ)(١).

وشاء الله تعالى أن يمكن للأيوبيين بقيادة صلاح الدين في مصر (سنة ٥٦٤هـ)، فقضى على الدولة الفاطمية العبيدية، وأزال من مصر آثارهم، وأراح منهم البلاد والعباد، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، لقد أيقن صلاح الدين أنه لن يتمكن من استعادة بيت المقدس من الصليبيين إلا إذا طهر البلاد من انحرافات الفاطميين الباطنية، والقضاء عليهم أولاً.

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٣٦٦-٣٦٨).

دولة بني زيري

(٣٦٢هـ - ٥٤٣هـ)

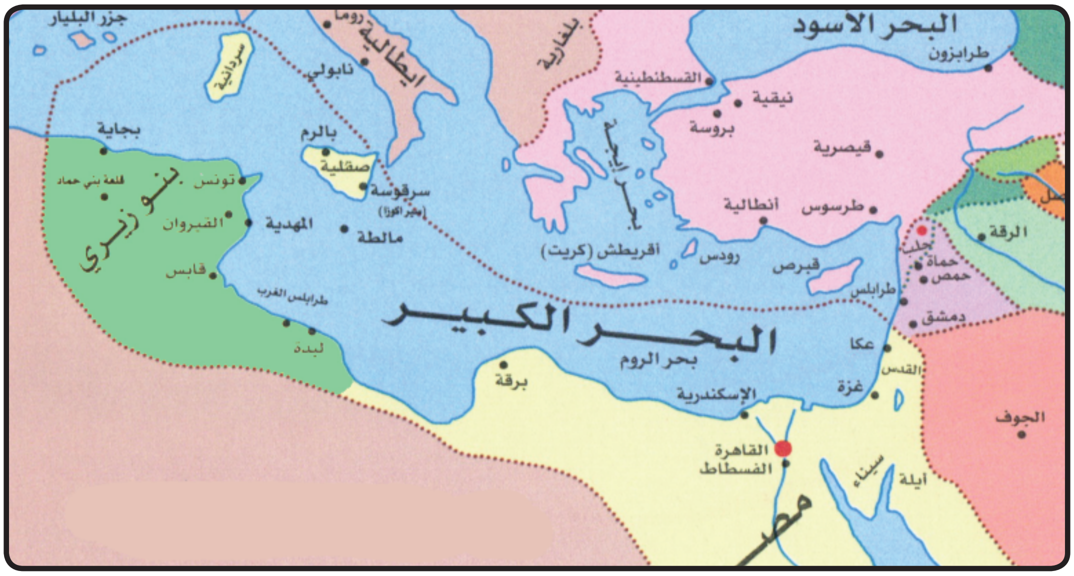
البحر الاسود
طرابزون
القسطنطينية
نيقية
بروسة
قيصرية
طرسوس
أنطالية
الرقة
حلب
حماة
حمص
دمشق
طرابلس
قبرص
رودس
اقريطش (كريت)
عكا
القدس
غزة
الإسكندرية
القاهرة
الفسطاط
أيلة
سيناء
مصر
الجوف
البحر الكبير
بحر الروم
برقة
لبدة
طرابلس الغرب
قابس
القيروان
المهدية
مالطة
سرقوسة
صقلية
بالرم
تونس
قلعة بني حماد
بجاية
بنو زيري
نابولي
روما
ايطالية
سردانية
جزر البليار
بلغارية

تنسب **دولة بني زيزي** إلى زيري بن مناد الصنهاجي من قبيلة صنهاج البربرية، وتعتبر هي أول دولة للبربر بعد إسلامهم، قامت بمساعدة الفاطميين لإخضاع المغرب الأوسط والأقصى، لكن أهل المغرب الأقصى ثاروا عليهم، وخلعوا الطاعة، وخطبوا للأمويين في الأندلس.

حدثت خلافات بين بني زيري، ووقع بينهم قتال في (سنة ٤٠٦هـ)، وانقسمت الدولة بعد القتال إلى ولاية بالجزائر، وأخرى في ليبيا مع تونس، فلما حكم فيهم المعز شرف الدولة، ألغى المذهب الشيعي الذي أرادوا أن يفرضوه على الناس، وخلع طاعة الفاطميين، ودعا على المنابر للعباسيين، ولما توفي في (سنة ٤٥٤هـ)، تولى من بعده ولدُه تميم، وفي عهده أغار الطليان على صقلية، واستطاعوا السيطرة عليها، فأطمعهم ذلك للهجوم بأساطيلهم على سواحل تونس، فانتصر تميم، وقتل منهم عدداً كبيراً، وظلت الحرب سجالاً بينهم وبين الروم الطليان حتى انتهت بدخول الروم الطليان إلى المهدية عاصمة بني زيري، فغادرها آخر ولاتهم الحسنُ بن علي الصنهاجي (سنة ٥٤٣هـ)، وسقطت دولتهم بعد أن استمرت نحو مئتي سنة وتسع سنين.

الدولة الغزنوية

(٣٦٦هـ - ٥٨٢هـ)

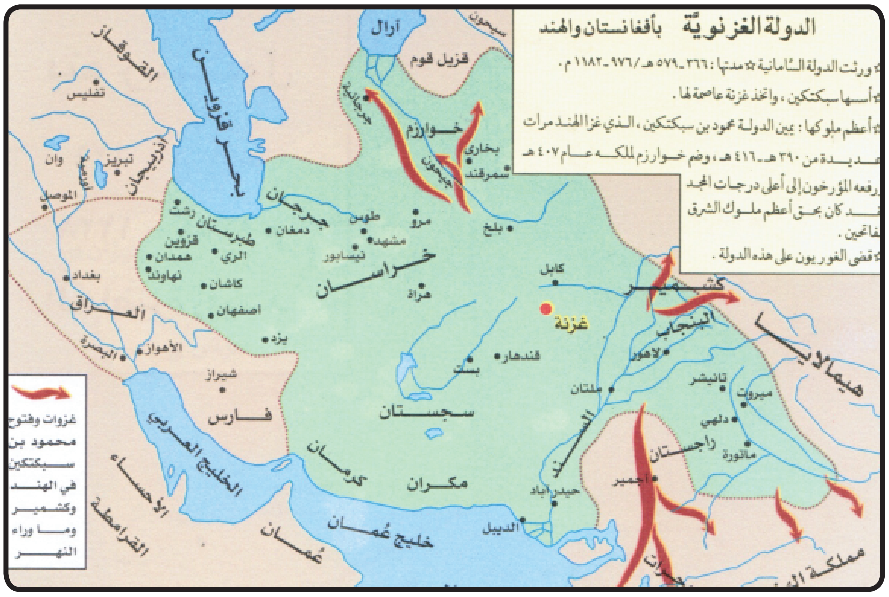
الدولة الغزنويّة بأفغانستان والهند
ورثت الدولة السّامانية ☆ مدتها: ٣٦٦-٥٧٩ هـ/ ٩٧٦-١١٨٢ م.
أسسها سبكتكين، واتخذ غزنة عاصمة لها.
أعظم ملوكها: يمين الدولة محمود بن سبكتكين، الذي غزا الهند مرات
عديدة من ٣٩٠ هـ-٤١٦ هـ، وضم خوارزم لملكه عام ٤٠٧ هـ
رفعه المؤرخون إلى أعلى درجات المجد
فقد كان بحق أعظم ملوك الشرق
الفاتحين.
قضى الغوريون على هذه الدولة.
غزوات وفتوح محمود بن سبكتكين في الهند وكشمير وما وراء النهر
غزنة
خراسان
خوارزم
جرجان
بحر قزوين
آرال
قزيل قوم
بخارى
سمرقند
بلخ
مرو
طوس
مشهد
نيسابور
دمغان
هراة
كابل
كشمير
البنجاب
لاهور
ملتان
قندهار
بست
سجستان
مكران
كرمان
فارس
شيراز
يزد
اصفهان
كاشان
الري
قزوين
همذان
نهاوند
طبرستان
رشت
تبريز
أذربيجان
وان
الموصل
تفليس
القوقاز
بغداد
العراق
الأهواز
البصرة
الخليج العربي
الأحساء
القرامطة
خليج عمان
عمان
الديبل
حيدر أباد
السند
أجمير
راجستان
ماثورة
دلهي
ميروت
تانيشر
هيمالايا
مملكة

الغزنويون سلالة تركية حكمت أفغانستان وخراسان وشمال الهند والبنجاب، وكانت عاصمتها غزنة، وإليها تنسب الدولة، ثم لاهور بعد ذلك، أسسها سبكتكين الوالي على مدينة غزنة من قبل السامانيين، والذي استقل عنهم، وضم إليه مناطق جديدة من خراسان، وبدأ يؤسس دولة الغزنويين.

تولى من بعده ابنه محمود بن سبكتكين الذي استطاع أن يقضي على دولة السامانيين في خراسان، وقام بغزو بلوشستان وخوارزم، وحارب البويهيين وعقيدتهم الفاسدة، واستطاع أن يستولي على الري (طهران)، ودخل بلاد قزوين، وصلب عدداً كبيراً من الباطنية(١)، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم، فنصر الله به عقيدة السلف، ورفع به رايات السنة، وظهر نجمه حين دعا للخليفة العباسي، فخلع عليه الخليفة لقب السلطان، خاصة أنه أبى أن يطيع حاكم مصر الفاطمي الذي أرسل إليه يدعوه إلى طاعته، فبصق السلطان محمود في رسالته، وأمر بحرقها، وأسمع حامل الرسالة غليظ القول.

---

(١) لقد استطاع السلطان محمود بن سبكتكين أن يُنزل بطائفة من أهل الري من الباطنية والروافض قتلاً ذريعاً، وصلباً شنيعاً، واستطاع أن يستولي على أموال زعيمهم رستم بن علي الديلمي، فحصّل منه ما يقارب ألف ألف دينار ذهب -مليون-، وكان مع رستم خمسون امرأة حرة يستبيح نكاحهن، وقد ولدن له ثلاثة وثلاثين ولداً من ذكر وأنثى، وكان هذا يرونه مباحاً فيما يعتقدون. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٦٢٥).

- **السلطان محمود بن سُبكتكين وفتوحات الهند:**

ثم قام بحملات على الهند حتى بلغ في فتوحه كوجرات، والسند إلى أن بلغ وسط الهند، ولقد استطاع السلطان محمود في (سنة ٣٩٢هـ) أن يغزو الهند، وأن يكسر جيشها الضخم الذي خرج لمواجهته مع ملكها جيبال، ففتح الله للمسلمين، وانتصروا نصراً مؤزراً، وانهزمت الهنود، وأسر ملكهم جيبال، وغنم المسلمون منهم أموالاً عظيمة، ومن ذلك: قلادةُ الملك التي كانت في عنقه، وقُدرت بثمانين ألف دينار، وقيل: مئتي ألف دينار، كما استطاع المسلمون فتح بلاد كثيرة بالهند، ومكّنوا للإسلام والمسلمين.

كما أطلق السلطان محمود ملكَ الهند احتقاراً له واستهانة به حتى يراه أهل مملكته وهو في لباس المذلة، فلما وصل إلى قومه، ألقى بنفسه في النار التي يعبدونها من دون الله، فاحترق لعنه الله(١).

ولقد ظل اهتمام السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي بالهند المترامية الأطراف، واستطاع في (سنة ٣٩٨هـ) أن يفتح حصوناً كثيرة بالهند، وأخذ أموالاً جزيلة، وجواهر نفيسة، ومن ذلك: بيت طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه خمسة عشر ذراعاً مملوءاً فضة، ولما رجع إلى غزنة، وبسط هذه الغنائم في صحن داره، جاء الأمراء ورسُلُ الملوك، فأدخلهم ليروا ما هالهم وبهرهم من الغنائم.

كما أن السطان محموداً قام في (سنة ٤٠٩هـ) بفتح مناطق مختلفة في الهند، واستطاع أن يسيطر على عدة مدن، منها مدينةٌ وجد بها ألف قصر مشيد، وألف بيت للأصنام، ومبلغ الأصنام من الذهب الخالص يقارب مئة ألف دينار، ومن الفضة نحو ألف صنم، ووجد عندهم صنماً معظماً يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاثمئة ألف عام، فأمر السلطان محمود بإحراق هذه المدينة حتى لم يبقَ منها إلا الرسوم والهياكل، وبلغ عدد الهالكين من الهنادكة خمسين ألفاً، وأسلم من الهنادكة نحو عشرين ألفاً، وكان الرقيق من الهنادكة ثلاثة وخمسين ألفاً، وغنم من الأفيال ثلاثمئة وستة وخمسين فيلاً، وغنم من الأموال عشرين ألف ألف درهم -عشرين مليون درهم-.

---

(١) الحافظ ابن كثير / البداية والنهاية (١٥/ ٤٩٦) - ابن الأثير / الكامل (٩/ ١٦٩-١٧١).

كما استطاع السلطان محمود أن يقوم في (سنة ٤١٨هـ) في واحدة من حملاته على الهند أن يحطم الصنم الأعظم للهنادكة المسمى بسومنات الذي كان الهنادكة يفدون إليه من كل فج عميق، وينفقون عنده من الأموال الشيء الكثير، وأوقفوا عليه عشرة آلاف قرية مشهورة، وملؤوا خزائنه أموالاً، وجعلوا عنده ألفَ رجل يخدمونه، وثلاثمئة حلّاق يحلقون لحجاجه، وثلاثمئة وخمسين يغنون ويرقصون على باب ذلك الصنم، فلما تمكن منه السلطان محمود، حطمه وأوقد فيه النار.

وقد حاول الهنود بذل أموال جزيلة للسلطان محمود حتى لا يتعرض لهذا الصنم بسوء، فأبى عليهم ذلك قائلاً: إني إذا نوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم؟ أحبُّ إليَّ من أن يقال: أين محمود الذي ترك الصنم؟.

ولقد وجد السلطان محمود على هذا الصنم من الذهب واللآلئ والجواهر النفيسة ما يزيد على ما عرضوه عليه من الأموال بأضعاف مضاعفة، ونرجو الله أن يدخر له ذلك الأجر الجزيل في الآخرة والثناء الجميل في الدنيا(١).

- **وفاة السلطان محمود بن سبكتكين:**

توفي السلطان محمود بن سبكتكين في ربيع الأول (سنة ٤٢١هـ)، بعد حياة حافلة بالكفاح والجهاد في سبيل الله، ولقد أُطلق عليه: فاتح أكثر بلاد الهند قهراً، وكاسر أوثانهم كسراً، وقاهر هنودهم وسلطانهم قهراً.

ولقد كان رحمه الله شهماً صارماً ذا قوة وعزم، وكان عادلاً قام بشرائع الإسلام قياماً تاماً، وعَظُمَ شأنه في العالمين، واتسعت مملكته، وامتدت رعاياه، وطالت أيامه، وقهر الباطنية وأصحاب العقائد المنحرفة قهراً، وكان في غاية الديانة والصيانة، يحب العلماء والمحدثين، ويكرمهم ويجالسهم ويحسن إليهم، وقد توفي رحمه الله عن ثلاث وستين سنة(٢).

---

(١) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٦١٥/ ٦١٦).
(٢) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٥/ ٦٢٨-٦٣٥).

وتولى من بعده ابنه محمد، ثم ابنه مسعود الذي ركز جهوده نحو الهند، وحارب السلاجقة، وانهزم أمامهم، وأزاحوه عن خراسان نهائياً؛ مما جعل اهتمامه بالهند.

ثم من بعده ابنه مودود بن مسعود، ثم من بعده ابنه علي بن مودود، ثم من بعده عمه بهاء الدولة علي بن مسعود، ثم من بعده عز الدولة عبد الرشيد بن محمود، ثم من بعده جمال الدولة فروخ زاده بن مسعود، ثم من بعده ظهير الدولة إبراهيم بن مسعود، والذي في عهده فقدت الدولة أكثر المناطق الواقعة شرق نهر جيحون، وانحسرت الدولة في زمانه من شرق أفغانستان إلى شمال الهند، ثم ظلت الدولة تنكمش شيئاً فشيئاً في عهد السلاطين بعد إبراهيم، والذي تولى من بعده شيرزادة بن مسعود، ثم أرسلان شاه بن مسعود، ثم من بعده بهرام شاه بن مسعود، والذي في عهده وعهدِ من تلاه خسرو شاه ابن مسعود، وخسرو ملك بن خسرو ظهر الغوريون، واستطاعوا الاستيلاء على غزنة، وتزايد الضغط عليهم، فكانت نهايتهم على يد الغوريين الذين دخلوا لاهور، وقضي على الدولة الغزنوية بعد أن بقيت لنحو قرنين من الزمان.

الدولة الخوارزمية

(٤٧٠هـ - ٦٢٨هـ)

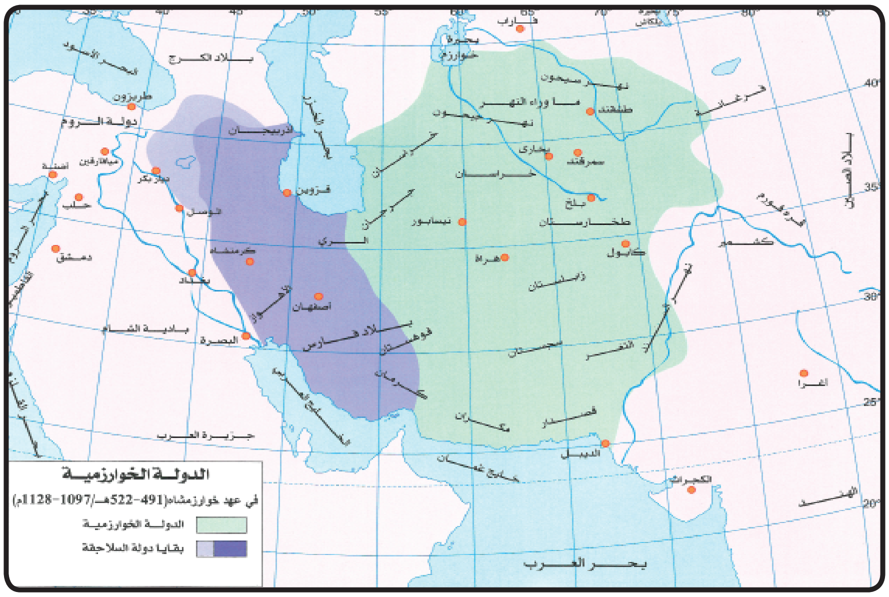
الدولة الخوارزمية
في عهد خوارزمشاه(491-522هـ/1097-1128م)
الدولة الخوارزمية
بقايا دولة السلاجقة
البحر الأسود
بلاد الكرج
طريزون
دولة الروم
ميافارقين
أضنة
حلب
ديار بكر
الموصل
أذربيجان
قزوين
دمشق
كرمنشاه
بغداد
أصفهان
بادية الشام
البصرة
بلاد فارس
الري
نيسابور
جزيرة العرب
فاراب
بحيرة خوارزم
نهر سيحون
ما وراء النهر
طشقند
نهر جيحون
فرغانة
بخارى
سمرقند
خراسان
بلخ
طخارستان
كابول
هراة
زابلستان
سجستان
كشمير
بلاد الصين
مكران
الديبل
خليج عمان
الكجرات
الهند
بحر العرب
أغرا

الخوارزميون من الأتراك المسلمين السنَّة، استطاعوا أن يرثوا ملك دولة السلاجقة بعد أن ضعفت، فحكموا أجزاءً كبيرة من آسيا الوسطى حتى غرب الهضبة الإيرانية وجنوب بحر الخزر، اتخذوا من سمرقند عاصمة حتى سقوط دولتهم على يد المغول وتقهقر جلال الدين منكبرتي إلى الهند.

سموا بالخوارزميين؛ لأن جدهم أنوشتكين عيّنه السلاجقة والياً على خوارزم، فنسبوا إليها.

كانت دولتهم دولة قوية، لكن سنة الله التي خلت في عباده عند انصرافهم وانشغالهم بشيء من الدنيا، ابتلوا بمجيء المغول الذين قضوا على هذه الدولة العظيمة، وكان آخر ملوكهم جلال الدين منكبرتي الذي اتخذ من غزنة قاعدة لحربه على المغول، واستطاع أن يشن هجوماً مفاجئاً في ربيع الأول (سنة ٦١٨هـ) على المغول، فانتصر عليهم، وأنزل بهم الهزيمة، وفر فرسانهم مدبرين يتعقبهم جنود السلطان بالقتل والأسر.

ولكن جنكيز خان استطاع أن يلملم جيشه، وأن يعيد الكرة على الخوارزميين حتى استطاع أن ينتصر عليهم، وذلك كله بسبب الصراع على الغنائم بين القادة الخوارزميين، وتفرق

جيش المسلمين كل مع قائده، حتى البحارة الذين كان معهم السفن فروا بسفنهم التي يمكن للسلطان جلال الدين أن يعبر عليها إلى نهر السند مع من تبقى معه من جنوده، والتي بلغت أربعة آلاف من جيشه فقط، وألقى السلطان بنفسه في النهر مع جنوده، وتوجه إلى الهند التي قضى فيها السلطان ثلاث سنوات استطاع أن يجمع فيها قوة كبيرة من الجند والمجاهدين، وبدأ يزداد قوة وسيطرة على الأقاليم الواقعة في حوض نهر السند؛ مما دفع حكام السند أن يقفوا جميعاً في وجهه، ويطلبوا منه مغادرة البلاد مع جيشه، واستجاب جلال الدين لهم؛ لأنه لم يكن له أطماع في الهند، وكانت إقامته بها إقامة مؤقتة، وقفل راجعاً إلى بلاده التي انسحب منها جيش المغول، فرجع في (سنة ٦٢٢هـ) إلى غزنة، وشيئاً فشيئاً استطاع أن يعيد الأمن وإصلاح ما خربه المغول في خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران.

توفي جنكيز خان في (سنة ٦٢٤هـ)، وانشغل المغول باختيار خليفة لهم، فانتهز جلال الدين هذه الفرصة، واستطاع أن يُنزل بالمغول هزيمة ساحقة في معركة قرب مدينة الري (طهران)، ثم تبعها معركة أخرى قرب أصفهان في (سنة ٦٢٥هـ)، والتي حقق فيها نصراً ساحقاً.

غير أن أوضاع الدولة الاقتصادية والعسكرية كانت منهكة من آثار الحروب مع المغول، كما أن الصراعات بين شعوب تلك المنطقة وغيرها من العوامل التي لم تمكن جلال الدين من وقف تقدم المغول الذين جاؤوا في حرب شاملة، مما اضطر جلال الدين إلى الفرار من أمامهم، وعدم مواجهتهم، ورحل إلى تبريز التي تبعه المغول إليها محاولاً الوصول للاستنجاد بالخليفة العباسي وأمراء ديار بكر، لكنه لم يتمكن من ذلك؛ إذ لحقه المغول عند آمد في أعلى نهر دجلة، وانتصروا عليه، واستولوا على سلاح من تبقى من جيشه، وقتلوا الكثير من جنده، وفر السلطان إلى جبال كردستان؛ حيث قتله بعض الأكراد في الخامس عشر من شوال (سنة ٦٢٨هـ)، وبمقتله انتهت الدولة الخوارزمية، وسيطر المغول على أراضيها، وتقدموا بعد ذلك حتى أسقطوا بغداد في (سنة ٦٥٦هـ).

الدولة الزنكية

(٥٢١هـ - ٥٦٩هـ)

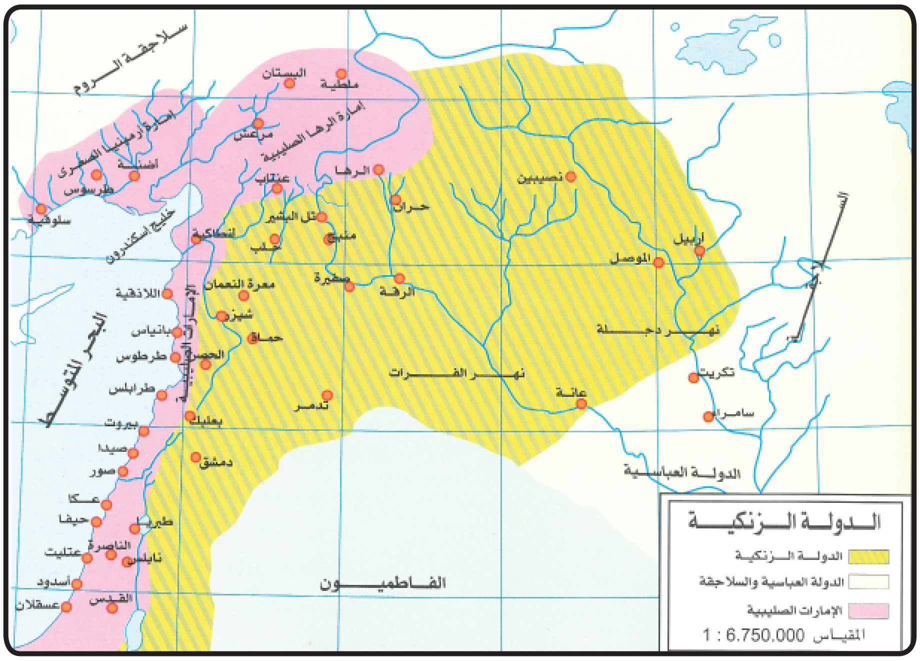
سلاجقة الروم
البستان
ملطية
إمارة أرمينيا الصغرى
إمارة الرها الصليبية
مرعش
اضنة
طرسوس
سلوقية
خليج اسكندرون
عنتاب
الرها
حران
تل البشير
انطاكية
حلب
منبج
نصيبين
اربيل
الموصل
صفيرة
الرقة
معرة النعمان
اللاذقية
شيزر
حماة
بانياس
طرطوس
الحصن
الإمارات الصليبية
البحر المتوسط
طرابلس
تدمر
بعلبك
بيروت
صيدا
صور
دمشق
عكا
حيفا
طبريا
الناصرة
عتليت
نابلس
أسدود
القدس
عسقلان
نهر الفرات
نهر دجلة
عانة
تكريت
سامراء
الدولة العباسية
الفاطميون
الدولة الزنكية
الدولة الزنكية
الدولة العباسية والسلاجقة
الإمارات الصليبية
المقياس 1 : 6.750.000

تنسب الدولة الزنكية إلى مؤسسها عماد الدين زنكي بن آق بن سنقر(١)، وتسمى بالدولة الأتابكية نسبة إلى أتابك، وهي لفظة مركبة من كلمتين (أتا، وتعني: المربي)، و (بك، وتعني: الأمير)، وهو لقب كان يطلق على أساتذة ومربي السلاجقة، ومعناه: مربي الأمير.

كان آق سنقر والدُ عماد الدين زنكي من قادة وأصدقاء السلطان السلجوقي ملك شاه الأول بن ألب أرسلان، ومن أخص رجاله، وقد منحه لقب قسيم الدولة؛ يعني: الشريك، وقدمه على غيره، ووثق به لأمانته، فعينه على حلب خوفاً من أطماع أخيه تتش بن ألب أرسلان في بلاد الشام.

---

(١) عماد الدين زنكي: كان من خيار ملوك الإسلام وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف، وكان رحمه الله من أشد الناس غيرة على نساء الرعيّة، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة. توفي رحمه الله قتيلاً عند حصاره لقلعة جعبر، (نحسبه عند الله شهيداً)، (سنة ٥٤١هـ). البداية والنهاية (١٦/ ٣٤١).

بعد وفاة ملك شاه وقع القتال بين تتش بن ألب أرسلان وآق سنقر، انتهى بأسر آق سنقر ثم قتله.

انتقل ابنه عماد الدين زنكي من حلب إلى الموصل، وكان في الحادية عشرة من عمره، وتعهده أمير الموصل كتبغا بالعناية والتربية والرعاية، وتعليمه فنون القيادة، حتى أصبح قائداً لشرطة بغداد في (سنة ٥٢١هـ)، وحصل على لقب الأتابك، ثم تولى في نفس العام الموصل، وأصبح أتابك أول والي الموصل للسلاجقة، وقد عزم على مواجهة العدوان الصليبي على الشام، واستطاع بفضل الله تعالى أن يوحد الصفوف، وأن يجمع القادة تحت راية واحدة، وضم إليه مدينة حلب، ثم حماه، ثم استطاع السيطرة على الحصون والقلاع بين حلب وأنطاكية، كما استطاع أن يستولي على قلعة بعرين القريبة من حماة بعد قتال عنيف مع قائدها الصليبي ريموند الذي وقع في الأسر، ثم استعاد معرة النعمان وكفر طاب، وتصدى لهجمات الصليبيين، وألحق بهم الهزائم تلو الهزائم، حتى استقرت معظم مدن الشام في يديه.

ثم استطاع تحقيق نصرٍ مؤزرٍ على الصليبيين عندما توجه إليهم، واسترد من بين أيديهم إمارة الرها في ضربة خاطفة؛ مما أعاد للمسلمين الشعور بالنصر والعزة.

وبعد وفاة عماد الدين زنكي (سنة ٥٤١هـ) تولى على الموصل ابنه سيف الدين غازي، وعلى حلب نور الدين محمود ثاني أبنائه، والذي تولى قيادة الدولة الزنكية، واستطاع دخول دمشق، واتخذها مركزاً له، واستمر في جهاده ضد الصليبيين وكان هدفه إعادة بيت المقدس، لذلك أنشأ منبراً في (سنة ٥٦٣هـ) ليضعه في المسجد الأقصى بعد استعادته من الصليبيين وفتحه(١).

ولما وقع الخلاف بين ضرغام وشاور وزيري الحاكم الفاطمي في مصر، استطاع نور الدين محمود أن يساعد المصريين على إنهاء الخلافات والصراعات التي وقعت بإرسال قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي قضى على ما يسمى بالخلافة

---

(١) اشتهر هذا المنبر في التاريخ باسم منبر صلاح الدين إذ أن صلاح الدين هو الذي وضعه في المسجد الأقصى بعد إعادته وتطهيره تحقيقاً لحلم نور الدين، وكان صلاح الدين قد أحضره معه من حلب، وقام اليهود بإحراقه في (سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) في الحريق الشهير ببيت المقدس.

الفاطمية وأقام السلطنة الأيوبية في مصر، والتي امتدت إلى الشام بعد وفاة نور الدين محمود الملقب بالشهيد رحمه الله في (سنة ٥٦٩هـ) لتنتهي فترة حكم الدولة الزنكية (١).

---

(١) كان نور الدين محمود رحمه الله من خيرة ملوك الإسلام، يحب الفقراء والعلماء ويكرمهم ويحترمهم ويحسن إليهم، قام بأمر الشرع المطهر، فحكم بالعدل وكان يتولى بنفسه مجالس العدل، كما كان يجلس للناس يوماً في الأسبوع بالمسجد ليتقدموا إليه بطلباتهم وشكاواهم سواءً من المسلمين أو أهل الذمة.

أظهر ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالأذان الشرعي المأثور دون حي على خير العمل، كما أقام الحدود والقصاص، وفتح الحصون وكسر الفرنج غير مرة واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة التي استولوا عليها من قبل، وكان له من الإصلاحات والأعمال الخيّرة ما الله به عليم. ابن كثير / البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١) بتصرف.

قال ابن الأثير: لم يكن في ملوك الإسلام بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين محمود، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. الكامل (١١/ ٤٠٣).

السلطنة الأيوبية

(٥٦٩هـ - ٦٤٧هـ)

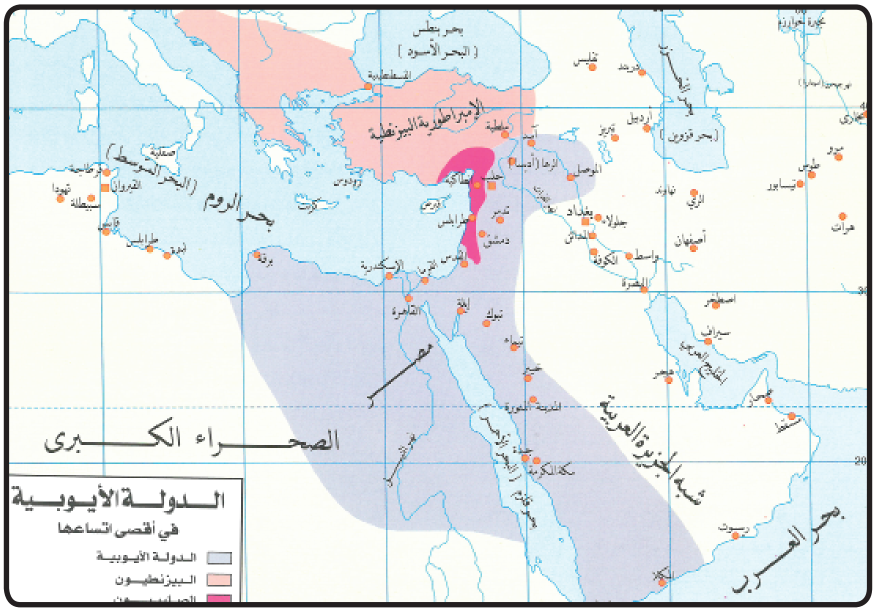
بحر بنطس
(البحر الأسود)
القسطنطينية
تفليس
الإمبراطورية البيزنطية
بحر قزوين
بحر الروم
(البحر المتوسط)
القيروان
طرابلس
برقة
الإسكندرية
القاهرة
دمشق
الموصل
بغداد
الكوفة
واسط
البصرة
أصفهان
الري
نيسابور
مرو
هراة
تبوك
المدينة المنورة
مكة المكرمة
مصر
شبه الجزيرة العربية
بحر العرب
الصحراء الكبرى
الدولة الأيوبية
في أقصى اتساعها
الدولة الأيوبية
البيزنطيون

تنسب الدولة الأيوبية إلى رجل يقال له: أيوب من العرب[1]، أو الأكراد، وقيل: إن أسرته من أرمينيا، فلقد اختُلف في أصلهم بين المؤرخين.

عمل رجال هذه الأسرة قادة عسكريين تحت إمرة عماد الدين زنكي أتابك الموصل (حاكم الموصل)، والذي تولى من بعده ولده نور الدين محمود، والذي كان من أبرز قادته أسد الدين شيركوه الذي استعان بابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في مصر، وعندما توفي أسد الدين شيركوه تولى من بعده صلاح الدين الأيوبي السلطنة في مصر، وأسس دولة سميت في التاريخ بالدولة الأيوبية، امتدت إلى الشام والحجاز وشمال العراق وديار بكر واليمن.

---

[1] (١) رجح الحسن بن داود الأيوبي في كتابه «الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية» أن أصولهم عربية قح، ودليل ذلك أنهم جميعاً كانوا يتكلمون العربية الفصحى بغير عجمة، وذكر نسب أجداده بهذه السلسلة: أيوب بن شاذي بن مروان بن محمد (أبو علي) بن عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز ابن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. نسب الأيوبيين ضمن سلسلة رسائل ونصوص/ صلاح الدين المنجد (ص:٤٩).

استطاع صلاح الدين أن يقضي على الفاطميين وما يسمى بالخلافة الفاطمية، ووحد مصر والشام تحت رايته، ودعا للخليفة العباسي، ولقب بالسلطان، وقاد الجهاد ضد الصليبيين أعداء الإسلام، واستطاع أن ينتصر عليهم في معركة حطين، واسترد منهم بعدها بيت المقدس، وأعاده بعد نحو تسعين سنة مسجداً يوحَّد فيه الله تعالى.

بعد وفاته رحمه الله تولى أخوه العادل، ثم قُسمت الدولة بعد العادل، فأصبحت مصر في يد الكامل الأيوبي، ودمشق وحمص وحلب تصارعَ عليها أبناء الأسرة الأيوبية، وانتهت هذه الدولة بعد وفاة الملك الصالح أيوب في مصر، وتولي المماليك حكم مصر والشام بعد ذلك.

دولة المرابطين(١)

(٤٤٨هـ - ٥٤١هـ)

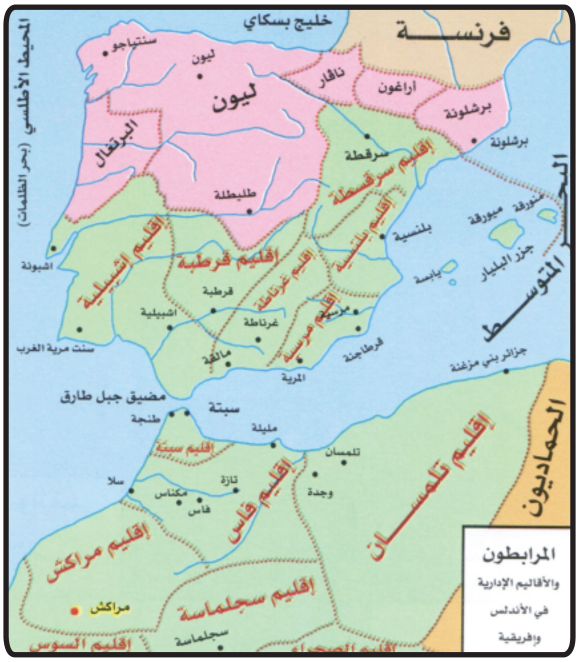
خليج بسكاي
فرنســــة
المحيط الأطلسي (بحر الظلمات)
سنتياجو
ليون
ليون
نافار
أراغون
برشلونة
برشلونة
البرتغال
سرقطة
إقليم سرقسطة
طليطلة
إقليم بلنسية
بلنسية
منورقة
ميورقة
جزر البليار
يابسة
البحر المتوسط
اشبونة
إقليم اشبيلية
إقليم قرطبة
إقليم غرناطة
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
إقليم مرسية
مرسية
قرطاجنة
سنت مرية الغرب
مالقة
المرية
جزائر بني مزغنة
مضيق جبل طارق
طنجة
سبتة
مليلة
إقليم سبتة
تلمسان
وجدة
سلا
تازة
مكناس
فاس
إقليم فاس
إقليم تلمسان
الحماديون
إقليم مراكش
مراكش
إقليم سجلماسة
سجلماسة
إقليم السوس
إقليم الصحراء
المرابطون
والأقاليم الإدارية
في الأندلس
وإفريقية

شهد المغرب الإسلامي في عصر الدولة العباسية قيام دول مختلفة ومتعددة بسبب الصراعات المذهبية والقبلية، مثل: الدولة الرستمية، ودولة الأدارسة، والأغالبة، وغيرها من الدول، واستمر هذا الصراع بين القوى المتمركزة هناك، حتى شاء الله تعالى أن تقوم دولة قوية هي دولة المرابطين، والتي كانت واحدة من أهم الدول التي لعبت دوراً هاماً في حياة المنطقة والخلافة الإسلامية.

ولقد قامت هذه الدولة في أول أمرها على أساس الدعوة الدينية التي قام بها أحد الفقهاء المالكية، ويسمى: عبد الله بن ياسين، والذي كان له أثر واسع وكبير على القبائل في تلك المنطقة، ونشر الإسلام بين القبائل حتى ذاع صيته بين القبائل التي وفد منها طلبة العلم إليه، وكثروا حوله، فأطلق عليهم لقب المرابطين.

---

(١) ابن الأثير/ الكامل (٦/ ٣٠٢ - ٣٠٥، ٣٢٤ - ٣٢٨، ٤٦٤ - ٤٦٥)، الذهبي / السير (١٩/ ٢٥٢-٢٥٤)، ابن خلدون/ العبر (٧/ ٣٣٦-٣٩٣)، ابن العماد/ شذرات الذهب (٥/ ٤٢٧-٤٢٨).
المرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابّون والمجاهدون دونهم. الحلل الموشية/ نقلاً عن الحجي/ التاريخ الأندلسي (ص:٤٠٨).

قام المرابطون بنشر دعوتهم بين القبائل، حتى وقع اختيار عبد الله بن ياسين على يحيى بن إبراهيم من قبيلة جدالة أميراً للمرابطين الذين كون منهم الأمير يحيى بن إبراهيم جيشاً قوياً يؤازر الدعوة، حتى توفي في (سنة ٤٤٧هـ).

اختار عبد الله بن ياسين رجلاً آخر من قبيلة لمتونة هو يحيى بن تلاكاكين اللمتوني قائداً وأميراً لجيش المرابطين بعد يحيى بن إبراهيم، فقام الأمير الجديد بقيادة هذه القبائل جميعها والذين انتشرت بينهم عادة تغطية وجه الرجال باللثام، ولذا سموا بقبائل الملثمين⁽¹⁾.

استطاع المرابطون أن يسيطروا على مناطق هامة في المغرب الإسلامي مثل مدينة سجلماسة، ومدينة درعة، وأثناء واحدة من الحروب في سجلماسة قُتل الأمير يحيى بن تلاكاكين اللمتوني برغم انتصار جيشه على ثوار سجلماسة في (سنة ٤٤٨هـ).

بعد مقتل يحيى اللمتوني، قام عبد الله بن ياسين، والذي يعد العالمَ والمرشدَ والموجه لدولة المرابطين باختيار أبي بكر بن عمر أميراً على جيش المرابطين، والذي كان عهده مرحلة حاسمة في تاريخ تلك القبائل؛ حيث قام بالغزو المسلح لمناطق المغرب الأقصى، وواجه قبائل برغواطة التي اعتنقت المجوسية، ونازلهم في عدة معارك شرسة أصيب في إحداها عبدُ الله بن ياسين إصابات بليغة أودت بحياته في (سنة ٤٥١هـ).

لم يؤثر رحيلُ عبد الله بن ياسين الداعيةِ الكبير على مسير دولة المرابطين، بل واصل الأمير أبو بكر جهاده، واستطاع أن يُخضع هذه المناطق للإسلام، وكان إلى جواره واحد من أبرز قادته هو ابنُ عمه يوسفُ بن تاشفين الصنهاجي، الذي كان من أبرز القادة العسكرين، واستطاع أن يحقق بفضل من الله انتصارات هائلة؛ مما كان له الأثر في أن يتولى قيادة المرابطين بعد الأمير أبي بكر بن إبراهيم الذي توجه إلى الجنوب تاركاً القيادة له.

---

(١) لقبوا بذلك لأنهم كانوا يتلثمون، ولا يكشفون وجوههم، وتلك سنة توارثوها خلفاً عن سلف، وقيل في سبب ذلك: إن حمير التي ينتسب إليها الصناهجة كانت تتلثم لشدة الحر والبرد، وأصل هؤلاء القوم من حمير بن سبأ من أهل اليمن، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء، ويسكنون الصحاري الجنوبية بين بلاد البربر وبلاد السودان، وينتقلون من ماء إلى ماء كالأعراب، وبيوتهم من الشعر والوبر. شعيب الأرناؤوط تعليقه على كتاب سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٥٢).

يوسف بن تاشفين:

أبو يعقوب يوسف بن تاشُفين اللمتوني البربري الصنهاجي الحميري الملثم أمير المرابطين، المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى؛ حيث نظم صفوف جيشه، وأنشأ مدينة مراكش عاصمة للدولة في (سنة ٤٥٤هـ)، وقيل: (٤٥٦هـ)، واستطاع أن يمتد بنفوذه إلى كل المغرب الأقصى (سنة ٤٦٧هـ)، ووحده تحت راية المرابطين.

كان يوسف بن تاشفين كثير العفو، مقرِّباً للعلماء، يأخذ برأيهم ويكرمهم، حازماً، يخطب للخليفة العباسي ببغداد، فيه شجاعة، حسنَ السيرة خيراً عادلاً، حليماً كريماً، ديّناً خيراً.

لعب دوراً هاماً في حياة الدولة الإسلامية بالأندلس؛ حيث استجاب لنداء علمائها وأمرائها الذين استغاثوا به لمواجهة الزحف النصراني عليهم من الشمال، فعبر إلى الأندلس، وخاض واحدة من أهم المعارك في التاريخ هي معركة الزلاقة، والتي استطاع فيها أن يحقق نصراً مؤزراً في منتصف رجب (سنة ٤٧٩هـ)، واستولى فيها المسلمون على كل ما كان مع جيش النصارى، ووزع الأمير يوسف بن تاشفين هذه الغنائم على ملوك الأندلس وأمرائها؛ مما جعل له المكانة في قلوبهم، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ترك حامية من ثلاثة آلاف مقاتل لمعاونة أهل الأندلس على أعدائهم إن هم عادوا إلى الهجوم عليهم.

وفي (سنة ٤٨٣هـ) قام أهل إشبيلية بالاستنجاد مرة أخرى بيوسف بن تاشفين الذي لبى نداءهم، غير أنه هذه المرة عاد ليؤدب ملوك الطوائف إلى جانب النصارى؛ لأن ملوك الطوائف من المسلمين كانوا سبباً في هجوم النصارى عليهم، وذلك بسبب الخلاف والنزاع والصراع بينهم، فأرسل الفقهاءُ والعلماء إليه أن يخلص المسلمين من شر هؤلاء الملوك، وجاءته الفتاوى من الشرق لتؤيد فتاوى فقهاء الأندلس في وجوب ضم الأندلس إليه حماية له من هؤلاء الملوك المترفين، ومن هجوم النصارى عليهم، فأرسل يوسف إلى الخليفة المستظهر العباسي أميرِ المؤمنين في بغداد يطلب منه تقليداً لولاية البلاد، فكتب له الخليفة بذلك.

فأعاد يوسف بن تاشفين حملته في نفس السنة (٤٨٣هـ) إلى غرناطة، واستمرت حملاته حتى (سنة ٤٩٥هـ) استطاع خلالها أن يقضي على نفوذ ملوك الطوائف، وأن يضم الأندلس بدولة المرابطين بالمغرب الأقصى، واستطاع يوسف بن تاشفين بذلك أن يحفظ للأندلس إسلامها لأربعة قرون أخرى بقيت بعده.

ظل يوسف بن تاشفين في خدمة دينه وأمته حتى لقي ربه في (سنة ٥٠٠هـ)، ودفن بمدينة مراكش، وتولى من بعده ابنُه علي، والذي سار في الناس بسياسة أبيه، وقدم العلماء والفقهاء، وكانت له مكانة بين العامة، وعبر بنفسه إلى الأندلس أربع مرات للحفاظ على دولة الإسلام هناك، وتحققت له انتصارات عظيمة، وتأييد من الخلافة العباسية في بغداد لتثبيت ملك المرابطين بالأندلس.

وعند وفاته في (سنة ٥٣٧هـ) تولى ابنه تاشفينُ بن علي بن يوسف بن تاشفين الحكمَ من بعده، والذي وقع في صراع مع دولة الموحدين الناشئة إلى جواره بالمغرب، ولم يستطع صدَّ هجماتهم المتتابعة حتى قُتل بوهران (سنة ٥٣٩هـ)؛ مما أدى إلى ضعف الدولة وتراجعها أمام دولة الموحدين، التي بدأت تفرض نفسها، وسيطرت على أجزاء كثيرة من دولة المرابطين.

تولى من بعد تاشفين ولدُه إبراهيمُ بن تاشفين، إلا أنه لم ينعم بالحكم ولا السلطة؛ إذ أنه نازعه عمه إسحاقُ بن علي بن تاشفين، مما زاد من ضعف ووهن الدولة، واستطاع إسحاق بن علي أن يزيح إبراهيم بن تاشفين عن الحكم، وتولى حكم المرابطين، غير أنه لم يستطع أن يدفع عن الدولة هجمات الموحدين، أو يفك حصارهم الذي ضربوه على العاصمة مراكش في (سنة ٥٤١هـ)، حتى سقطت مراكش بيد قائد الموحدين عبد المؤمن، الذي استباحها، ومع الأسف قضى على كثير من أهلها ليغلق بذلك تاريخ واحدة من أهم دول الإسلام المستقلة في عهد الخلافة العباسية، وذلك في (سنة ٥٤١هـ) لتبدأ صفحة جديدة لدولة أخرى هي دولة الموحدين.

دولة الموحدين(١)

(٥٤١هـ - ٦٦٨هـ)

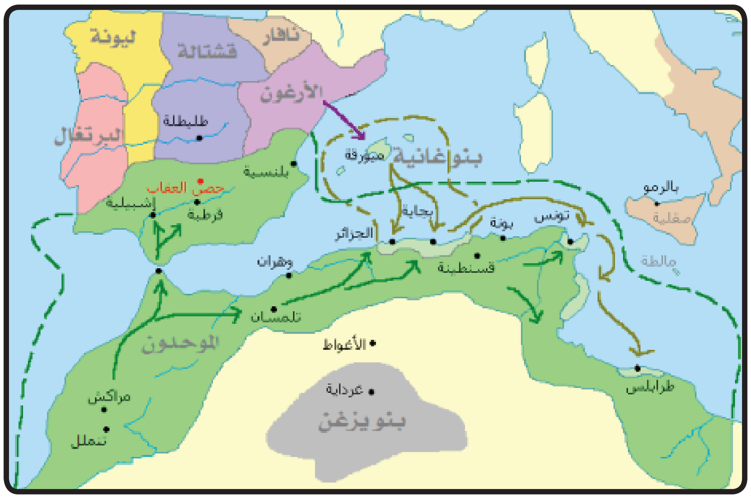
ليونة
قشتالة
نافار
الأرغون
البرتغال
طليطلة
بلنسية
حصن العقاب
إشبيلية
قرطبة
ميورقة
بنو غانية
بالرمو
صقلية
بجاية
الجزائر
بونة
تونس
مالطة
وهران
قسنطينة
تلمسان
الموحدون
الأغواط
مراكش
تنملل
غرداية
بنو يزغن
طرابلس

النشأة:

سبق وأن بينّا أن أصل نشأة دولة المرابطين كانت بسبب الداعية عبد الله بن ياسين الفقيه، وكذلك نشأة دولة الموحدين على يد محمد بن تومرت في المغرب الأقصى الداعي إلى قيام خلافة يرأسها بنفسه، وأنه المهدي الذي يبعثه الله في آخر الزمان.

ومحمد بن عبد الله تومرت أحدُ أبناء قبيلة هرنمة إحدى قبائل المصامدة، ولد في (سنة ٤٨٥هـ) تقريباً، ونسبُه موضعُ شك بين المؤرخين؛ إذ أن كل من أراد أن يُتوج في ذلك الزمان ادعى النسب الشريف؛ كما فعل الفاطميون وغيرهم، وهذا ما ادعاه أحد تلامذته أبو بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق(٢)، والذي أوصل نسبه إلى النبي ﷺ، وكذلك ادعى بعض تلامذته أنه من الأدارسة الأشراف، وهذا ما نستبعده بالكلية؛ لعدم قيام الدليل عليه.

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٤٧٦-٤٩١)، أبو بكر بن علي الصنهاجي/ أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين/ تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، يوسف علي بديوي/ عصر الدويلات الإسلامية (ص:١٦٢-٢٠١).

(٢) أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيدق، أحد خاصة ابن تومرت وأنصاردعوته ومؤرخ لدولة الموحدين، ألف وكتب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، كما ألف المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، وكلاهما مطبوع. مقدمة كتاب أخبار المهدي بقلم عبد الوهاب بن منصور.

طلب العلم في صغره، ورحل من أجله، وطوف في البلاد، ومنها: العراق ومصر؛ حيث بقي في هذه الرحلة خمس عشرة سنة، وعند عودته إلى مدينة المهدية التقى بشاب يطلب عليه العلم هو عبدُ المؤمن بن علي الكومي الذي أصبح من خاصة ابن تومرت، وأحبَّ طلابِه إليه.

انتقل بعد ذلك ابنُ تومرت إلى مراكش، وأنكر أموراً عدة على الحكام، وسلوكياتٍ خاطئةً استهجنها على الأمراء المرابطين، مما جعل له مكانة عند العامة، ودفع ذلك الدولة أن تستدعيه لملاقاة الأمير علي بن يوسف الذي جمعه بكبار العلماء للمناظرة، وبيان ما ينكره على الدولة، وقد وعظه العلماء والفقهاء، وردوا عليه أقواله المنحرفة في المعتقد، ولقد أشار بعض العلماء على الدولة أن تسجنه حتى يموت في سجنه، أو يرجع عمَّا هو فيه خشية أن ينتشر فكرُه المنحرف بين الناس، غير أن الأمير اكتفى بإبعاده عن مراكش التي غادرها ابن تومرت إلى مدينة تينملل، واتخذها مقراً له، ومركزاً لدعوته؛ حيث بدأ يعظ الناس، ويخبرهم عن المهدي وصفاته، وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، فكثر أتباعه، والتف حوله جمع غفير من السذَّج والعامة الذين نشر بينهم مؤلفاً في العقيدة والعبادة ليعلمهم ما يعتقده.

ثم ادعى محمدُ بن عبد الله بن تومرت أنه المهدي الذي يواطئ اسمُه اسمَ النبي ﷺ، واسمُ أبيه اسمَ أبيه، فقام عشرة طلاب من خاصته، على رأسهم عبدُ المؤمن بن علي الكومي وبايعوه على أنه المهدي، ثم توالى الناس والقبائل والعشائر لبيعته، فأصبح بذلك ابن تومرت الآمر الناهي على تلك القبائل، ووجههم ليحقق هدفه لقيام خلافة يرأسُها ويُنَادى فيها بأمير المؤمنين المهدي.

عمل ابن تومرت على تحقيق هدفه بمناوشة دولة المرابطين الذين أرسلوا له جيشاً ليكسر شوكته، غير أنه استطاع أن ينتصر عليهم؛ مما رفع من مكانته عند الناس، وعلا نجمه، وبدأ في محاربة المرابطين، وأعدَّ العدة لمواجهة حاسمة معهم، وقد خاض نحو تسع معارك مع المرابطين، كان آخرها معركة البحيرة التي أصيب فيها بالهزيمة، وكانت سبباً

في خيبة أمله، فلم يحقق ما يصبو إليه، ونزل به المرض الذي ألزمه دارهَ حتى فارق الحياة في (سنة ٥٢٤هـ)، وكان قد أخذ البيعة لتلميذه النجيب عبدِ المؤمن الكومي، وذهب هو إلى ربه يحاسبه على ما اقترفت يداه من فتن وابتلاءات وحروب أشعلها في المغرب الأقصى.

عقيدة ابن تومرت والموحدين:

إن المطلع على كتب التاريخ، وما كُتب حول ابن تومرت، وخاصة ما كتبه خادمه وتلميذه أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق، يجد أن عقيدة الرجل يكتنفها غموض عجيب من جانب، وانحرافٌ عقدي من جانب آخر، فهو جمع بين متناقضات، بين خليط من عقيدة أهل السنة والجماعة، وعقائد غلاة الشيعة، وخاصة عصمة الإمام، إلى جانب عقائد صوفية منحرفة ومتطرفة، وعقائد الجهمية، وأقوال المعتزلة، وأفعال الخوارج.

ولقد بين شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله حقيقة هذا الرجل الذي خُدع فيه كثير من الناس وفي دولته؛ ظناً منهم أنه كان على التوحيد، وهو على الضلالة العمياء.

وفيما قاله شيخ الإسلام ابنُ تيمية عنه وعن عقيدته بيانٌ واضح على انحرافه العقدي ودعواه الباطلة.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن «المرشدة» لابن التومرت المتلقب بالمهدي، فَأَجَابَ رحمه الله تعالى قَائِلًا[1]:

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَصْلُ هَذِهِ:

أَنَّهُ وَضَعَهَا أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ التومرت الَّذِي تَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ، وَكَانَ قَدْ ظَهَرَ فِي الْمَغْرِبِ فِي أَوَائِلِ الْمِئَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ نَحْوِ مِئَتَيْ سَنَةٍ، وَكَانَ قَدْ دَخَلَ إِلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ، وَتَعَلَّمَ طَرَفًا مِنَ الْعِلْمِ، وَكَانَ فِيهِ طَرَفٌ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ.

وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْـمَغْرِبِ، صَعِدَ إِلَى جِبَالِ الْـمَغْرِبِ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْبَرْبَرِ وَغَيْرِهِمْ : جُهَّالٍ لَا يَعْرِفُونَ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ، فَعَلَّمَهُمْ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصِّيَامَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَجَازَ أَنْ يُظْهِرَ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنْ المخاريق لِيَدْعُوَهُمْ بِهَا إِلَى الدِّينِ، فَصَارَ يَجِيءُ إِلَى الْمَقَابِرِ يَدْفِنُ بِهَا أَقْوَامًا وَيُوَاطِئُهُمْ عَلَى أَنْ يُكَلِّمُوهُ إِذَا دَعَاهُمْ، وَيَشْهَدُوا لَهُ بِمَا طَلَبَهُ مِنْهُمْ؛ مِثْلَ أَنْ يَشْهَدُوا لَهُ بِأَنَّهُ الْـمَهْدِيُّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ رَسُولُ الله الَّذِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمَهُ، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِيهِ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، وَأَنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ أَفْلَحَ، وَمَنْ خَالَفَهُ خَسِرَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْكَلَامِ. فَإِذَا اعْتَقَدَ أُولَئِكَ الْبَرْبَرُ أَنَّ الْمَوْتَى يُكَلِّمُونَهُ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِذَلِكَ، عَظُمَ اعْتِقَادُهُمْ فِيهِ وَطَاعَتُهُمْ لِأَمْرِهِ.

ثُمَّ إِنَّ أُولَئِكَ الْمَقْبُورِينَ يَهْدِمُ عَلَيْهِمْ الْقُبُورَ لِيَمُوتُوا وَلَا يُظْهِرُوا أَمْرَهُ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ دِمَاءَ أُولَئِكَ مُبَاحَةٌ بِدُونِ هَذَا، وَأَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ إِظْهَارُ هَذَا الْبَاطِلِ لِيَقُومَ أُولَئِكَ الْجُهَّالُ بِنَصْرِهِ وَاتِّبَاعِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ عَنْهُ أَهْلُ الْـمَغْرِبِ وَأَهْلُ الْـمَشْرِقِ الَّذِينَ ذَكَرُوا أَخْبَارَهُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ أَنْوَاعًا، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ حَالَهُ عَنْهُ؛ وَمِنَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي يَأْثُرُونَهَا عَنْهُ: أَنَّهُ وَاطَأَ رَجُلًا عَلَى إِظْهَارِ الْجُنُونِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَالِمًا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ وَالْفِقْهَ، فَظَهَرَ بِصُورَةِ الْجُنُونِ وَالنَّاسُ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَّا مَجْنُونًا، ثُمَّ أَصْبَحَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ عَاقِلٌ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ وَالْفِقْهَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ، وَعُوفِيَ مِمَّا كَانَ بِهِ، وَرُبَّمَا قِيلَ: إِنَّهُ ذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَّمَهُ ذَلِكَ فَصَارُوا يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِذَلِكَ الشَّخْصِ، وَأَنَّهُ كَانَ لَهُمْ يَوْمٌ يُسَمُّونَهُ:

---

[1] ابن تيمية/ الفتاوى (١١/ ٤٧٦-٤٩١)/ بتصرف.

يَوْمَ الْفُرْقَانِ، فَرَّقَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِزَعْمِهِ، فَصَارَ كُلُّ مَنْ عَلِمُوا أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ جَعَلُوهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَعَصَمُوا دَمَهُ، وَمَنْ عَلِمُوا أَنَّهُ مِنْ أَعْدَائِهِمْ جَعَلُوهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَاسْتَحَلُّوا دَمَهُ.

وَاسْتَحَلَّ دِمَاءَ أُلُوفٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الْـمَالِكِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ وَأَهْلِ الْـمَدِينَةِ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ: كَالصَّحِيحَيْنِ وَالْـمُوَطَّأِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْفِقْهَ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَزَعَمَ أَنَّهُمْ مُشَبِّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، وَلَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ إِظْهَارُ الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ.

وَاسْتَحَلَّ أَيْضًا أَمْوَالَهُمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْـمُحَرَّمَاتِ بِهَذَا التَّأْوِيلِ وَنَحْوِهِ مِنْ جِنْسِ مَا كَانَتْ تَسْتَحِلُّهُ الجهمية الْـمُعَطِّلَةُ - كَالْفَلَاسِفَةِ وَالْـمُعْتَزِلَةِ وَسَائِرِ نُفَاة الصِّفَاتِ - مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَمَّا امْتَحَنُوا النَّاسَ فِي «خِلَافَةِ الْـمَأْمُونِ» وَأَظْهَرُوا الْقَوْلَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، وَأَنَّ اللهَ لَا يرى فِي الْآخِرَةِ، وَنَفَوْا أَنْ يَكُونَ للهِ عِلْمٌ أَوْ قُدْرَةٌ أَوْ كَلَامٌ أَوْ مَشِيئَةٌ أَوْ شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِهِ.

وَصَاحِبُ «الْـمُرْشِدَةِ» كَانَتْ هَذِهِ عَقِيدَتَهُ كَمَا قَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي كِتَابٍ لَهُ كَبِيرٍ شَرَحَ فِيهِ مَذْهَبَهُ فِي ذَلِك ذَكَرَ فِيهِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى وُجُودٌ مُطْلَقٌ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ ابْنُ سِينَا وَابْنُ سَبْعِينَ وَأَمْثَالُهُمْ.

وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ فِي «مُرْشِدَتِهِ» الِاعْتِقَادَ الَّذِي يَذْكُرُهُ أَئِمَّةُ الْعِلْمِ وَالدِّينِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا يَذْكُرُهُ أَئِمَّةُ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ: مِنَ الكلابية وَالْأَشْعَرِيَّةِ والكرامية وَغَيْرِهِمْ وَمَشَايِخِ التَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ، وَعُلَمَاءِ أَهْلِ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى حَيٌّ عَالِمٌ بِعِلْمٍ قَادِرٌ بِقُدْرَةٍ.

وَالْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَسَائِرُ مَنْ ذَكَرَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يرى فِي الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ. فَصَاحِبُ «الْـمُرْشِدَةِ» لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا شَيْئًا مِنَ الْإِثْبَاتِ الَّذِي عَلَيْهِ طَوَائِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَا ذَكَرَ فِيهَا الْإِيمَانَ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ، وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ

مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ، وَالْحِسَابِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَالْحَوْضِ، وَشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُصُولَ كُلَّهَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَمِنْ عَادَاتِ عُلَمَائِهِمْ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ فِي الْعَقَائِدِ الْـمُخْتَصَرَةِ، بَلْ اقْتَصَرَ فِيهَا عَلَى مَا يُوَافِقُ أَصْلَهُ، وَهُوَ الْقَوْلُ بِأَنَّ اللهَ وُجُودٌ مُطْلَقٌ، وَهُوَ قَوْلُ الْـمُتَفَلْسِفَةِ والجهمية، وَالشِّيعَةِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ اتَّفَقَتْ طَوَائِفُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَهْلُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرُهُمْ عَلَى إِبْطَالِ قَوْلِهِ وَتَضْلِيلِهِ.

فَذَكَرَ فِيهَا مَا تَقُولُهُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا صِفَةً وَاحِدَةً لله تَعَالَى ثُبُوتِيَّةً، وَزَعَمَ فِي أَوَّلِهَا أَنَّهُ قَدْ وَجَبَ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ، وَقَدْ اتَّفَقَتْ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْـمُسْلِمِينَ مَا أَوْجَبَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُوجِبَ عَلَى الْـمُسْلِمِينَ مَا لَمْ يُوجِبْهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَالْكَلَامُ الَّذِي ذَكَرَهُ بَعْضُهُ قَدْ ذَكَرَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَيَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَبَعْضُهُ لَمْ يَذْكُرْهُ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، فَلَا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا مَا لَمْ يُوجِبِ اللهُ قَوْلَهُ عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ كَلِمَةً وَتَكُونُ حَقًّا، لَكِنْ لَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوهَا، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى النَّاسِ أَنْ يَقُولُوهَا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتِ الْكَلِمَةُ تَتَضَمَّنُ بَاطِلًا؟ وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ النَّفْيِ يَتَضَمَّنُ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَالْحَقُّ يَجِبُ اتِّبَاعُهُ، وَالْبَاطِلُ يَجِبُ اجْتِنَابُهُ. وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابٍ كَبِيرٍ.

وَذَكَرْنَا سَبَبَ تَسْمِيَتِهِ لِأَصْحَابِهِ بِالْـمُوَحِّدِينَ؛ فَإِنَّ هَذَا مِمَّا أَنْكَرَهُ الْمُسْلِمُونَ؛ إِذْ جَمِيعُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُوَحِّدُونَ، وَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَحَدٌ، وَالتَّوْحِيدُ هُوَ مَا بَيَّنَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ (٤)﴾ [الإخلاص:١-٤]، وَهَذِهِ السُّورَةُ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ. وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٣) وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون:١-٦].

فنفاة الجَهْمِيَّة مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ سَمَّوْا نَفْيَ الصِّفَاتِ تَوْحِيدًا، فَمَنْ قَالَ: إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهَ، وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، أَوْ قَالَ: إنَّ اللهَ يرَى فِي الْآخِرَةِ، أَوْ قَالَ: «أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك، وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك» لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا عِنْدَهُمْ؛ بَلْ يُسَمُّونَهُ مُشَبِّهًا مُجَسِّمًا، وَصَاحِبُ «الْـمُرْشِدَةِ» لَقَّبَ أَصْحَابَهُ مُوَحِّدِينَ اتِّبَاعًا لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا تَوْحِيدًا مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَأَلْحَدُوا فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ بِهِ الْقُرْآنَ.

وَقَالَ أَيْضًا فِي قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى: إنَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ، وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ الْفَلَاسِفَةِ وَعَلِيٍّ الأسواريِّ وَغَيْره مِنَ الْـمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِ مَا فَعَلَ، وَمَذْهَبُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، سَوَاءٌ شَاءَهُ أَوْ لَمْ يَشَأْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام:٦٥].

فَيَأْخُذُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعَ دِينِهِمْ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْعِبَادَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ مُخَالِفًا لِلْعَقْلِ الصَّرِيحِ؛ فَإِنَّ مَا خَالَفَ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ فِيهِ أَلْفَاظٌ قَدْ لَا يَفْهَمُهَا بَعْضُ النَّاسِ، أَوْ يَفْهَمُونَ مِنْهَا مَعْنًى بَاطِلًا، فَالْآفَةُ مِنْهُمْ لَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩].

وبذلك نجد أن ابن تومرت برغم قصر حياته، لكنه من أجل أن يحقق شهوته في الصدارة وقيادة الأمة على غير هُدًى كان لا يبالي في أن يكذب على رسول الله ﷺ، ويزيف أحاديثه، ويخدع الناس عن قصد، وعرض الكثير منهم للدماء والقتل، ولم يأسف على قتلهم؛ مما كلفهم أرواحاً وأموالاً أُنفقت في غير سبيل الله تعالى، وإنما أُنفقت للهوى والضلال.

ويتضح لنا أن لقب الموحدين الذي أطلقه على أتباعه لقب مزيف، وهم في الحقيقة مضللون للأمة، فبدلاً من أن يحيي عقيدة التوحيد في نفوس الناس، أحيا فيهم الضلال والانحراف والهوى، ولقد أفضى إلى ما قدم من عمل، والحمد لله الذي أماته ولم يمكن له في الأرض ولا لأتباعه إلا قليلاً.

عبد المؤمن الكومي وقيام الدولة:

قاد عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدين لقتال المرابطين؛ تحقيقاً لهدف أستاذه وشيخه ابن تومرت، واستباح قتال المرابطين بما زعمه شيخُه أنهم مجسمة، وأنهم يثبتون عقائد السلف، ولذا تعتبر دولة الموحدين دولة قامت على دعوى باطلة، قادها انحراف عقدي ليشعلوا صراعاتٍ مريرةً في المغرب الأقصى.

ولقد قام عبد المؤمن بن علي بمحاولة الاستيلاء على مراكش في آخر حياة ابن تومرت، لكنه فشل فشلاً ذريعاً، وارتد عنها بخسارة كبيرة بعد أن هزمهم الأمير الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، ولذلك بدأ عبد المؤمن في التخطيط الدقيق وجمع الصفوف وتنظيم القبائل من أجل يوم حاسم.

وفي (سنة ٥٣٣هـ) بدأ بصدامه العسكري مع المرابطين لمدة أربع سنوات استولى خلالها على حصون للمرابطين في الطريق إلى مراكش، كما استطاع أن يمد سلطانه على مناطق عدة في المغرب الأوسط، وفي (سنة ٥٣٧هـ) توفي علي بن يوسف أمير المرابطين، وخلفه ابنه تاشفين؛ مما أطمع عبدَ المؤمن وجيشَه على مهاجمة المرابطين، فتصدى لهم تاشفين محاولاً ردهم عن وهران، غير أنه قُتل في المعركة، وسقطت وهران وتلمسان في أيدي الموحدين في السابع عشر من رمضان (سنة ٥٣٩هـ).

وبمقتل تاشفين بدأت تتداعى دولة المرابطين الذين استغلوا الصراعات بين أمراء المرابطين في مراكش، واستطاعوا الاستيلاء على فاس بعد حرب طويلة وحصار شديد، مما أطمع عبد المؤمن للتوجه إلى مراكش وحصارها حصاراً شديداً سقطت على إثره، وقُتل أمراء المرابطين، واستباح الموحدون دماء وأعراض المسلمين من المرابطين بقولهم: إنهم كفار، كما استباحوا دورهم وأموالهم، وذلك في (سنة ٥٤١هـ)، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لم يكتفِ عبد المؤمن بما حقق من انتصارات وقيام دولة، بل عمل على محاولة ضم شمال إفريقيا له، وقام بحملات عسكرية بلغت طرابلس الغرب، ودانت له البلاد، وأعلن نفسه خليفة على الموحدين، واتخذ من مراكش عاصمة له، وذاع صيته في المشرق والمغرب، حتى إن الأندلسين أرسلوا إليه ليستعينوا به على النصارى كما تقدم.

وقد توفي في أثناء إعداده واحدة من الحملات على نصارى الأندلس في (سنة ٥٥٨هـ)، وتولى من بعده ولده يوسف الذي بويع له خليفة بعد والده، فأتم ما قام به والده وبعث بالحملات المتتابعة إلى الأندلس، وخرج بنفسه قائداً لحملة قوية في (سنة ٥٦٦هـ)، ثم خرج على رأس جيشه مرة أخرى في (سنة ٥٧٩هـ) وأصيب هناك بسهم، فحُمل وأعادوه إلى مراكش، فقضى نحبه هناك في (سنة ٥٨٠هـ)، وَوَلي من بعده ولده يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن، والذي لُقب بالخليفة المنصور الموحدي، وقد قامت عليه عدة ثورات استطاع أن يقضي عليها.

كما اهتم المنصور بالأندلس، ودخل في عدة معارك مع نصارى الأندلس كان أشهرها: معركة الآرك في (سنة ٥٩١هـ)، وقاد المعركة بنفسه، واستطاع أن يحقق نصراً مؤزراً على الصليبيين، حتى تذكر الناس انتصار المرابطين في معركة الزلاقة، وفي (سنة ٥٩٥هـ) أصيب المنصور بمرض شديد أدى إلى وفاته.

تولى أبو عبد الله محمد بن يعقوب قيادةَ الموحدين بعد والده المنصور، ولُقب بالناصر الموحدي، وفي عهده حدثت أحداث وتطورات كانت بداية النهاية لدولة الموحدين؛ حيث ظهرت مرة أخرى حركات مضادة، وخاصة في إفريقية (تونس) فيما يسمى ببني

الغانيّة(١) (سنة ٥٩٨هـ)، فقضى عليها، ودخل إلى إفريقية، وبقي بها إلى (سنة ٦٠٤هـ)، ثم قفل راجعاً بعد أن ولى عليها عبدَ الواحد بن أبي حفص أحدَ رجاله الموثوقين من الموحدين، فكان سلطان أبي حفص على إفريقية البداية لقيام دولة الحفصيين؛ حيث استقل أبناؤه بعد ذلك بإفريقية، وأقاموا بها الدولة الحفصية.

وفي (سنة ٦٠٩هـ) أعلن الصليبيون قيام حملة واسعة على المسلمين في الأندلس، وجمعوا من أجل ذلك المتطوعين والجند من كل أوروبا الصليبية، فقام الناصر الموحدي بقيادة جيش المسلمين، والذي بلغ تعداده نحو نصف مليون محارب، غير أن قلة حيلة الناصر العسكرية، وعدم قدرته على تدبير شؤون جيشه فجعَ المسلمين بهزيمة قاسية على يد الصليبيين الذين انتصروا عليه في معركة العقاب، وكأنها كانت اسماً على مسمى؛ إذ أن المسلمين الذين فرطوا في دينهم، وركنوا إلى الحياة الدنيا ولشهواتهم ولخلافاتهم وصراعاتهم عاقبهم الله تعالى في هذه المعركة التي بلغت أخبارها إلى شمال إفريقيا مما دفع قبائل البربر أن تثور على الدولة الموحدية، كما طمع فيهم أمراء الأندلس وأزاحوهم عن الأندلس بعد ذلك في (سنة ٦٣٣هـ).

أضعفت هذه الهزيمة دولة الموحدين، وأفقدهم قوتهم، وأصاب ذلك الناصر الموحدي بالهم والغم والمرض، وقضى نحبه في (سنة ٦١٠هـ).

وبعد وفاة الناصر بدأت مرحلة الفوضى بين أفراد الأسرة الحاكمة، كما قامت ثورات في مناطق متعددة في المغرب الأقصى، وتولى خلالها الحكم ثمانية من الحكام، كان آخرهم أبو العلاء إدريس الثاني المشهور بأبي دبوس، والذي بقي في الحكم ثلاث سنوات انتهت بمقتله أمام أسوار العاصمة مراكش في (سنة ٦٦٨هـ) وهو يقاتل المرينيين الذين قضوا على دولة الموحدين، وأقاموا إمارة بني مرين(٢).

---

(١) مؤسس بيت الغانيّة: محمد المسوفي والذي ينسب لأمه من غانة بقارة إفريقيا، فيقال لها الغانيّة، ونسبة الولد لأمه كانت شائعة بين المرابطين.

(٢) إمارة بني مرين بالمغرب الأقصى قامت من (سنة ٦٦٨هـ إلى سنة ٨٦٩هـ)، وذلك بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد، فلا تعد من الدول المستقلة عنها.

ٱلحُرُوبُ ٱلصَّلِيبِيَّةُ

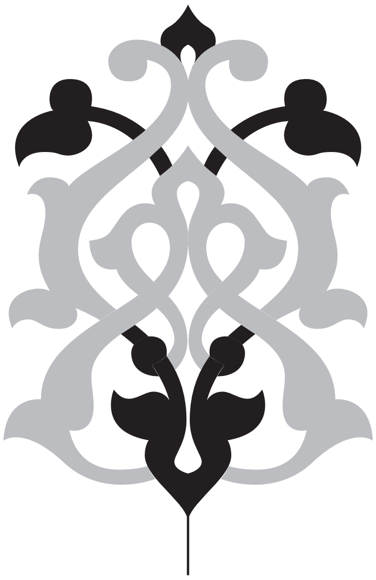

الغارة الصليبية على العالم الإسلامي
«الحروب الصليبية»

منذ فجر الإسلام وأعداؤه يتربصون به الدوائر، وكلما تحينت لهم الفرصة حاولوا الانقضاض على الدولة الإسلامية وغزوها، كما عرضنا ذلك لحروب المسلمين مع الروم خاصة.

وعندما اعترى الضعف الخلافة العباسية في بغداد بعد القرن الأول منها، والذي تولاه خلفاء أقوياء، وسيطرت عليها القوى العسكرية المختلفة، مما أفقد الخلافة مكانتها الفعلية، وهيمنتَها على الولايات الشرقية والغربية، وأصبح الخلفية لا حول له ولا قوة، وانحدرت الأوضاع العسكرية بسبب التفكك والصراعات الداخلية؛ مما كان سبباً في إشغال المسلمين عن أعدائهم الذين كانوا يرقبون ذلك وينتظرونه لينقضوا على الدولة الإسلامية.

وفي واحدة من أهم الأحداث التي وقعت في عهد الخلافة العباسية في بغداد، وفي غفلة من غفلات العالم الإسلامي وانشغاله بنفسه، اجتمع الصليبيون وقرروا غزو العالم الإسلامي، وخاصة منطقة القلب منه في الشام ومصر في سبع حملات صليبية منتظمة على مر قرنين من الزمان أنهكت الأمة، وكانت لها نتائج وآثار سلبية ما زالت تعاني منها الأمة الإسلامية، وكذلك حملة واحدة إلى شمال إفريقيا كانت هي ثامن الحملات وخاتمتها في ذلك الزمان، وقد سميت هذه الحملات بالحملات الصليبية؛ لاتخاذها الصليبَ شعاراً لها وضع على الصدور، وعلى ثياب الجند، وعلى آلات الحرب، وعلى الخيول ورايات الحرب ورايات القتال.

ولا شك أن الصليبيين انطلقوا نحو تحقيق أهدافهم، يدفعهم إلى ذلك دوافع عدة، نعرض لها بإيجاز.

الدوافع الصليبية لغزو بلاد المسلمين:

١ـ الدوافع الدينية:

يعتبر الدافع الديني هو المحرك الأساس، والمادة الملتهبة التي أشعلت الحروب والغزو الصليبي في المشرق الإسلامي، وهذا ليس بغريب على عباد الصليب، فلقد قال الله

تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]؛ فإن التعصب الديني للنصارى، وحقدهم على المسلمين، وعلى ظهور عقيدة التوحيد وانتشارها بين الناس، كان أحدَ الدوافع التي جعلت رجال الكنيسة يجتمعون ويتشاورون من أجل تحقيق هدفهم بالقضاء على المسلمين.

فلقد دعا كاهن النصارى الأكبر المدعو بالبابا أوروبان الثاني إلى عقد مجمع ديني في كليرمونت بفرنسا في (سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) من أجل مناقشة أمر الإعداد لحملات صليبية على المشرق الإسلامي، فاستجاب له حشد كبير من الملوك والأمراء والقساوسة، فخطبهم البابا وحثهم على حرب الإسلام والمسلمين، وكان مما ألهبهم: بعضُ فقرات خطابه التي ذكر فيها بيت المقدس، والتي يزعمون أنها أرضهم المقدسة، قائلاً لهم: إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها ـ يقصد المسيح عيسى بن مريم ﷺ ـ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا، وذاك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا، وذلك الضريح الذي تنازل بأن يدفن فيه ضحية للموت، كُلها أضحت ميراثاً لشعب غريب، وغاب بهاؤها الأصلي، وهياكلُها قد خربت، وأشعةُ نورها الساطع تحولت إلى ظلام حالك، وهي تستحق الندب الشديد والبكاء.... ثم أضاف: والأتراك قد مدوا ولايتهم إلى أبواب القسطنطينية.

ثم قال: أيها الناس! إني أُهيب بكم، بل باسم السيد المسيح أن تَهُبّوا هبة الرجل الواحد لنصرة إخوانكم في الدين ـ يقصد: نصارى الشرق ـ وطردِ الأعداء من الأماكن المقدسة.

ثم أخرج لهم البابا ما يسمى بصليب الخلاص، أو علامة الفداء المقدسة، وطلب منهم أن يحملوه على عواتقهم وصدورهم وأسلحتهم⁽¹⁾.

وقد ألهبت كلماته هذه المؤتمرين الذين بدؤوا يعدون العدة لحرب ضروس على بلاد الإسلام، كما أخذ البابا بعد هذا المؤتمر على عاتقه مهمة التنقل بنفسه بين بلدان ومدن أوروبا للقاء الملوك والأمراء والنبلاء والجماهير لحشد الجميع في هذه الحرب الصليبية؛ مما ترتب عليه مجيء الصليبيين في هذه الحملات السبعة الشهيرة في التاريخ.

ومما يدلل على أنها حروب الدافعُ الأولُ فيها الحقدُ الصليبي، وأنها حروب دينية في أساسها:

---

(١) وثائق الحروب الصليبية/ محمد ماهر حمادة (ص:٩٩).

استجابةُ الملوك والأمراء والنبلاء الفوريةُ لرغبات البابا، ودعموا هذه الحملات نصرة للنصرانية.

كما كانت الشعوب لديها هذا الشعور والتعصب البغيض، فاندفعت بقوة للاستجابة لنداء البابا.

وما قامت به القوات الصليبية عند احتلالها لبيت المقدس من ذبح وتقتيل لعشرات الآلاف من المسلمين، كباراً وصغاراً ونساءً وأطفالاً داخل ساحات المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، لأدلُّ دليل على حقدهم على الإسلام والمسلمين، وعلى الدوافع الدينية المنحرفة التي حركتهم لهذه الأفعال.

لقد علق المؤرخ الصليبي وليم الصوري على ذلك بقوله: أصبح بيت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوفنا واشمئزاز البعض منا.

ويتضح ذلك جلياً في الرسالة التي أرسلها غدوفري قائدُ الصليبيين في بيت المقدس إلى بابا النصارى يبشره بفعله القبيح في بيت المقدس يقول له: إن شئت أن تعلم ماذا فعلنا بأعدائنا المسلمين في المدينة المقدسة، فلا نخفيّن عليك أن فرساننا كانوا يخوضون داخل المسجد الأقصى وفي ساحاته بدماء المسلمين حتى الركاب.

كما أن سيطرة الكنيسة والسلطة البابوية على الملوك والأمراء والشعوب في أوروبا دفعت هؤلاء الحكام لإرضاء الكنيسة خشية أن يتعرضوا لغضب الكنيسة التي يمكن لها أن تثير الشعوب ضدهم، فيفقدوا عروشهم وسلطتهم.

مع العلم بأن هذه الحروب ـ بكل صورها العسكرية والثقافية ـ لم ولن تتوقف عن الإسلام والمسلمين في المشرق والمغرب، وما قامت به محاكم التفتيش من أعمال وحشية ضد المسلمين في إسبانيا بعد سقوط الأندلس لأدلُّ دليل على ذلك.

وما التحالفاتُ الأوروبية، وحروبُها المستمرة التي لم تنقطع على الخلافة العثمانية لإضعافها، والسيطرة على تركتها في العالم الإسلامي إلا دليل آخر، وكذلك هذه البعثات التنصيرية المتمثلة في المدارس والجامعات والإعلام المسموع والمرئي والمستشفيات

في العالم الإسلامي، والتي تعمل بالليل والنهار على طمس هوية المسلمين وغزوهم الثقافي والفكري لإبعادهم عن دينهم، وإذكاء روح الولاء للنصرانية والاشمئزاز من الإسلام، وقد ظهر ذلك جلياً في صور الولاء والبراء بين المسلمين في معاداتهم لدينهم وللمسلمين، وولائهم وتبعيتهم للنصارى، وانبهارهم بحضارتهم المادية المزيفة، أصبح منتشراً في المجتمعات الإسلامية حتى إننا أصبحنا نوالي من يشجع فريق الكرة الذي يحمل الصليب شعاراً له، ونعادي ونوالي فيه، وأصبحنا في تبعية لهم في هدينا الظاهر، حتى في أسلوب حياتنا اليومية، مصداقاً لما قاله القس زويمر(١) عندما أعلن مهمة المنصرين بقوله: إنه ليس من مهمتنا أن نخرج المسلمين من الإسلام إلى النصرانية، كلا إن مهمتنا أن نخرجهم من الإسلام فحسب، وأن نجعلهم أذلة لتعاليمنا ونفوذنا وأفكارنا.

وهذا غيض من فيض يدلل على أن الحرب حرب دينية في الأول وفي الآخر، وإن أنكروا ذلك، فيكفينا نحن المسلمين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة:٢١٧].

إن عداء الغرب النصراني وحقده الدفين على الإسلام والمسلمين قد بدا جلياً واضحاً في مواقف رجالهم المتشدقين بالديمقراطية والحرية من مأساة المسلمين في البوسنة والهرسك، وذبح الآلاف منهم، ومحاولة طمس هويتهم، وما موقف فرنسا الزاعم أنها أم الحرية والديمقراطية في العالم من قضية الحجاب للمرأة المسلمة على لسان رئيسها السابق نيكولاي سركوزيه، وتأييد البرلمان الفرنسي له باتخاذ إجراءات ضد الحجاب والمحجبات، وكذلك ما نسمعه كل يوم عن النيل من الإسلام ومن نبيه ﷺ، ومن المسلمين ومساجدهم في أوروبا، سواء في الدنمارك أو هولندا أو السويد، أو أي دولة أوربية أخرى، ما هو إلا حلقة من حلقات الصراع الدالّ على أن الحرب على الإسلام حرب دينية، خاصة بعد أن أعلنها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن أمام العالم أجمع بقوله: نحن بحاجة إلى حرب صليبية جديدة. وقد أيده ودعمه في ذلك دولٌ نصرانية عدة، ومفكرون ووجهاء كلهم يتغنى بالحرية والديمقراطية كذباً وزوراً.

---

(١) القس زويمر: صموائيل مرينوس زويمر، منصر أمريكي، قاد الحملات التنصيرية الصليبية بالبحرين كما سيأتي.

وما شَنُّهم حرباً ضروساً على العالم الإسلامي في أفغانستان، وفي العراق، ودعمُهم لإيران فارس لتبتلع منطقة الخليج العربي بدوله، مما كان له الأثر في قتل آلاف من الأبرياء من أهل السنة والجماعة، وزعزعة الأمن في الدول المجاورة، ومحاولات النيل مادياً وإعلامياً من قادتها ورموزها الوطنية؛ كما حدث في مملكة البحرين، والمملكة العربية السعودية، لهو أدلُّ دليل على أن الحرب حرب دينية.

ما زالت معظم الدول الأوروبية ترفع شعار الصليب على راياتها، برغم ادعائها بأنها دول علمانية متحررة في سياستها عن الدين، بل تداعى هذا الأمر إلى شعار الأندية الرياضية، والفرق المتنافسة على الألعاب المختلفة، فهناك أكثر من خمس وعشرين دولة وضعت الصليب شعاراً لها معظمُها دولٌ أوروبية؛ مثل: بريطانيا، وفينلندا، وسويسرا، والسويد، والدنمارك، والنرويج.

وهذا يدل على أن العلمانية، والليبرالية، والديمقراطية، كلُّها شعارات مزيفة يُضحَك بها على السذج، وأن الحقد الصليبي متغلغل في قلوبهم ونفوسهم، ولقد أظهرت ذلك فرنسا الدولة التي تتغنى بأنها أم الحرية والديمقراطية في العالم، فلقد ناصبت المسلمين العداء علناً، وحاربت بقوانين جائرة حجاب المرأة المسلمة لمواطنيها ولغيرهم، برغم أنها لم تتعرض للعري وللبغي والفحشاء، والتي حرَّمتها ديانتهم النصرانية المنحرفة، وكذلك سويسرا الدولة المحايدة زوراً، تصدر القرارات تلو القرارات بمنع بناء المآذن على المساجد على طرازها المعهود، كما أن هذه الدول جميعها تمنع الأذان خارج المسجد.

وإني لأهمس في آذان الآباء الذين تركوا أبناءهم فريسة لتعظيم الصليب، سواء بمشاعرهم الفياضة؛ بتشجيعهم الفرقَ التي تضعه على صدرها، يوالون ويعادون فيها، أو بأدائهم عملياً بارتدائه على أجسادهم فخورين بأنهم يضعون شعار الفريق الفلاني الصليبي، وأقول لهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم ـ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة ـ: أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه(١).

وهو أُسوتنا الذي ينبغي لنا أن نتأسى به في كل أعمالنا الظاهرة والباطنة، فهل من معتبر؟!

---

(١) صحيح البخاري: (ح:٥٦٠٨).

٢ـ الدوافع الاقتصادية:

مرت أوروبا النصرانية في تلك الفترة بأحوال اقتصادية متردية لأسباب متعددة، منها: تسلطُ نظام الإقطاع في أوروبا؛ مما جعل فئة بعينها تستأثر بالمال الذي حرم منه الكثير من الناس؛ مما أدى إلى وجود الصراعات والحروب الداخلية، والذي ترتب عليه المجاعات، وقلة الغلال وارتفاع أثمانها للغاية، وخاصة في فرنسا، وهذا الذي يفسر لنا اشتراك فرنسا بالنسبة الكبيرة من المقاتلين في الحملة الصليبية الأولى.

كما أن رجال الإقطاع تطلعوا لاستغلال خيرات الشرق بإنشاء إقطاعات لهم هناك، وكان نفس التطلع للفقراء والمعدمين أن يستفيدوا من خيرات الشرق بالتخلص من الأوضاع المتردية في أوطانهم.

كما تطلعت المدن التجارية الإيطالية لإنشاء موانئ بحريةٍ لها، وأسواقٍ تجارية في بلاد الشام ومصر، والحصول على التحكم في تجارة الشرق من التوابل والعطورات وغيرها معفاة من الجمارك.

كما أن هناك دوافع أخرى مختلفة ساعدت في ذلك، منها: الأزمات المتعددة التي مر بها المجتمع الأوروبي، وأراد التخلص منها؛ مثل: الزيادة السكانية، وهروب الكثير من أرباب الإجرام للانخراط في هذه الحملات تكفيراً عن سيئاتهم كما أوهمهم القساوسة، وأيضاً: أزمة انتشار الأوبئة والأمراض المعدية التي ساهمت في خروج الكثير للمشاركة في الحروب الصليبية.

وكان من أهم الدوافع التي أعانت على هذه الحملات: استنجاد الدولة الرومانية الشرقية البيزنطية بالكنيسة الغربية، وبأباطرة أوروبا بعد هزيمتها في موقعة ملاذكرد -منزكرت- على يد المسلمين السلاجقة بقيادة ألب أرسلان، وفقدانها الكثير من آسيا الصغرى والأناضول وانحسارها في القسطنطينية.

وهذا أشعر الغربَ المخالفَ في مذهبه للبيزنطيين بأن الحرب متوجهة إليهم بعد البيزنطيين، ولذلك استعد استعداداً بعيد المدى من أجل هذه الحروب الصليبية.

الآثار المترتبة على الحملات الصليبية السبع:

١. تأسيس ثلاث إمارات، ومملكة في الشرق، وهي كالتالي:

- **إمارة الرها**: دخلها الصليبيون بقيادة الصليبي بلدوين(١)، وذلك بطلب من حاكمها طوروس الأرمني(٢) (سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، وبسرور وترحيب من سكانها الأرمن، وكانت هي أولى الإمارات الصليبية في الشرق.

- **إمارة أنطاكية**: دخلها الصليبيون بعد حصار دام تسعة أشهر، دافع خلالها المسلمون السلاجقة والأتراك عن المدينة بشجاعة فائقة سنة (٤٩١هـ/ ١٠٩٨م)، غير أن الأرمن من سكانها تعاونوا مع الحملات الصليبية سراً، فمكنوهم حتى دخلوا إلى المدينة، فاستباحها الصليبيون، وقتلوا وأسروا وسبوا، وفعلوا الأفاعيل بأهلها بقيادة الصليبي بوهمند(٣).

- **مملكة بيت المقدس**: كان بيت المقدس تحت حكم الفاطميين العبيديين، وتابعاً لهم، وهؤلاء الفاطميون كان عليهم مهمة الدفاع عن المدينة، لكنهم لم يعيروا اهتماماً بذلك، وتركوا المسلمين في بيت المقدس يواجهون مصيرهم ويدافعون عن أنفسهم مع بعض القوات الشكلية التي كانت موجودة هناك، وقد فرض الصليبيون الحصار على المدينة لأكثر من أربعين يوماً، دافع واستبسل خلالها المسلمون دفاعاً مستميتاً، لكنهم لم يستطيعوا مواجهة الأعداء الذين تجمع لهم أعداد هائلة من الأرمن نصارى الشرق، فهرع الجنود والسكان إلى ساحات بيت المقدس التي تبعهم الصليبيون إليها، وأحدثوا بهم مذبحة وحشية راح ضحيتها أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين رجالاً وشيوخاً ونساءً وأطفالاً، كما أخذوا العلماء والأئمة، وفعلوا بهم الأفاعيل نكاية وحقداً من الصليبيين، وكان ذلك في (سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م).

---

(١) بلدوين الأول: أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وثاني ملوك بيت المقدس بعد خلافته لأخيه غدوفري. الموسوعة الحرة.

(٢) طوروس بن هيتوم، كان يحكم الرها منفرداً منفصلاً عن أمراء السلاجقة. الموسوعة الحرة.

(٣) بوهمند الأول: ولد في جنوب إيطاليا، وأمير تارانتو، أحد قادة الحملة الصليبية الأولى، أسس إمارة أنطاكية الصليبية، وانفرد بحكمها، وقع أسيراً في أيدي المسلمين، وأطلق سراحه بعد ثلاث سنوات، ثم عاد للقتال مرة أخرى مع جيشه، فانتصر عليهم السلاجقة، وقتلوا اثني عشر ألفاً من جيشه، مما اضطره للعودة إلى أوروبا تاركاً أنطاكية ، وعند عودته إلى أوروبا هُزم هزيمة ساحقة على يد إمبراطور بيزنطة إيلكسوس في موقعة دورازو (سنة ١٠٧٠م)، وتوفي في صقلية (سنة ١١١١م) بعد أن فقد ملكه. الموسوعة الحرة.

يقول أحد الصليبيين ممن أرخ لهذه الواقعة: إنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة، وإن دماء القتلى بلغت ركبتيه(١).

- **إمارة طرابلس:** تقدم الصليبيون نحو طرابلس الشرق، وحاصروها حصاراً شديداً براً وبحراً، وقد ساعدتهم الدولة البيزنطية بالإمدادات عن طريق البحر حتى اضطرت المدينة للاستسلام بعد حصار دام لست سنوات من (سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) إلى (سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م)، وقد مات قائد الصليبيين الأمير ريموند(٢) متأثراً بجراحه أثناء الحصار عندما حاول المسلمون فك الحصار عنهم، وقد تولى برتورام بن ريموند إمارة طرابلس، ولقد كانت إمارة واسعة انضمت إليها العديد من مدن الساحل السوري من جبلة شمالاً مروراً ببانياس وطرطوس وطرابلس إلى ما بعد بيروت جنوباً.

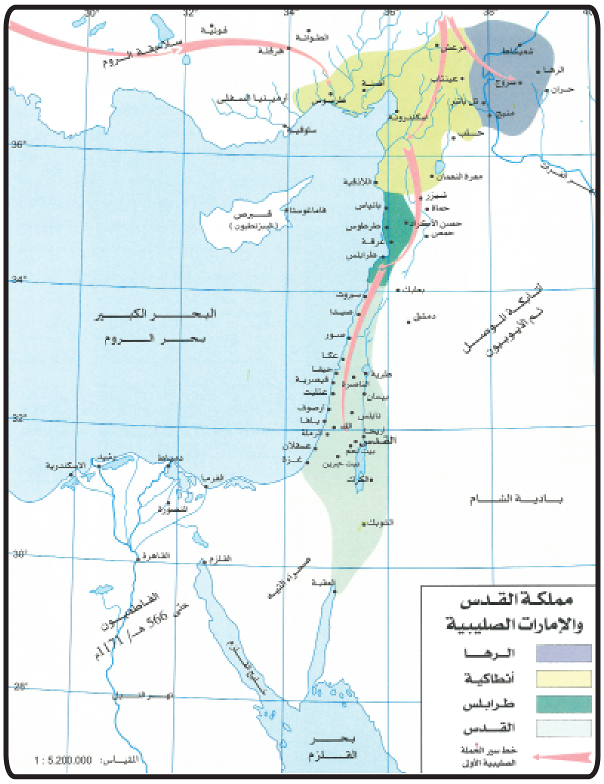
مملكة القدس
والإمارات الصليبية
الرها
أنطاكية
طرابلس
القدس
خط سير الحملة الصليبية الأولى
المقياس: 1 : 5.200.000
البحر الكبير
بحر الروم
بادية الشام
بحر القلزم
سلاجقة الروم
الرها
أنطاكية
حلب
اللاذقية
بانياس
طرطوس
طرابلس
بيروت
صيدا
صور
عكا
دمشق
بعلبك
حمص
حماة
القدس
عسقلان
غزة
الكرك
الشوبك
العقبة
قبرص
القاهرة
الإسكندرية
دمياط

٢. **بقاء هذه القوى الصليبية في الشرق الإسلامي لقرنين من الزمان** حافلة بالصراعات العسكرية، والحروب الدامية التي راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين يعد بمئات الآلاف

---

(١) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي (ص:٣٠).

(٢) الأمير ريموند تولوز: كونت طرابلس، ولد (سنة ١٠٤٥م) وتوفي (سنة ١١٠٥م)، كان حاكماً وقائداً للصليبيين في طرابلس. الموسوعة الحرة.

من الرجال والنساء والأطفال، كما أثرت على تطور الحضارة الإسلامية في تلك المناطق تأثيراً بالغاً، وأدت إلى خراب وتدمير الكثير من المدن والأسوار والحصون والقلاع في مصر وبلاد الشام.

٣.ظهور المقاومة الإسلامية للحملات الصليبية:

- **دور الدولة الزنكية:**

كانت هذه الحروب أيضاً سبباً في وحدة المسلمين، وإحداث حركة إفاقة بينهم للتخلص من الغزو الصليبي، فلقد ظهرت معالم هذه الوحدة مع بروز دور الدولة الزنكية التي قادها عماد الدين زنكي رحمه الله، واستطاع أن يسترد إمارة الرها في ضربة خاطفة من أيدي الصليبيين، وذلك في (سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)، بعد أن بقيت في أيديهم نحو نصف قرن من الزمان.

وكان عماد الدين زنكي يُعد العدة لتطهير بلاد المسلمين من الرجس الصليبي، غير أنه في (سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م) قُتل غيلة على يد أحد الخدم الباطنيين، فخسر المسلمون قائداً ومجاهداً عظيماً، غير أنهم لم يخسروا هذه الروح المعنوية المرتفعة عندهم لجهاد الصليبيين، فلقد كان جهاد عماد الدين زنكي هو البداية الحقيقية لمواجهة الصليبيين في حروب منتظمة حتى تم إخراجهم من ديار الإسلام، وتولى من بعده ابنه نور الدين محمود زنكي(١).

سار نور الدين محمود على مسيرة أبيه، واستطاع مواجهة الصليبيين بعد أن وحد وضم إليه مدناً عدة، وخاصة أنه ورث إمارة حلب عن أبيه، وعمل على تحرير بيت المقدس، وأمر ببناء منبر خشبي من الخشب الفاخر قام بصناعته جمع من الحرفيين المهرة في دمشق وحلب ليضعه في بيت المقدس بعد استرداده من الصليبيين، وقد اشتهر هذا المنبر في التاريخ بمنبر صلاح الدين؛ لأنه وضعه في بيت المقدس بعد أن حرره من الصليبيين.

---

(١) نور الدين محمود زنكي أبو القاسم الملقب بالملك العادل، ولُقب بعد وفاته بنور الدين الشهيد برغم وفاته بسبب المرض، وكان الابن الثاني لعماد الدين زنكي، توفي رحمه الله في (سنة ٥٦٩هـ) وعمره ثمانية وخمسون عاماً. الذهبي/ السير (٢٠/ ٥٣١).

وهذا يدل على صدق نور الدين محمود لتحرير بيت المقدس واسترداده من أيدي الصليبيين، ولقد واجه نور الدين محمود الصليبيين في الحملة الصليبية الثانية على دمشق في حروب عدة إلى أن توفي رحمه الله.

ولقد كان نور الدين محمود ذا نظرة ثاقبة؛ حيث إنه كان يرى أن تتم وحدة عسكرية بين الشام ومصر ليطوق الصليبيين من البر والبحر، غير أن مصر كانت تحت الخلفاء الفاطميين العبيديين، وقد وقع بها خلافات بين وزرائها الذين استعان أحدهم بالصليبيين؛ مما دفع الآخر إلى الاستعانة بنور الدين محمود على خصمه، فأرسل نور الدين محمود إلى مصر حملة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركوه(١)، وابن أخيه صلاح الدين لتقضي على الصراعات والفوضى القائمة في مصر، وتعرقل المد الصليبي إليها، فكانت هذه الحملة هي النواة لتأسيس الدولة الأيوبية، وإنهاء الدور الفاطمي العبيدي من تاريخ المنطقة آنذاك، والذي بدأ البعض يحلم بعودته مرة أخرى في زماننا هذا مستغلاً فوضى ما يسمى بالربيع العربي.

استطاع أسد الدين شيركوه أن ينهي الصرعات في مصر، وأن يتولى الوزارة في مصر، ولكن لله في خلقه شؤون، فسرعان ما وافته المنية بعد شهرين من توليه منصب الوزارة، فخلفه ابنُ اخيه صلاح الدين يوسفُ الأيوبي وعمره إحدى وثلاثون سنة(٢).

---

(١) أسد الدين شيركوه بن شاذي: أحد القادة العسكريين للدولة الزنكية، وعم صلاح الدين الأيوبي، ولد في أرمينيا سنة خمسمئة للهجرة، ومعنى شيركوه أسد الجبل، نشأ وترعرع مع أخيه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بتكريت، عمل في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض معه الحروب ضد الصليبيين، وكان أحد قادة استرداد الرها، بطلاً شجاعاً لا يهاب الموت، وبعد مقتل عماد الدين زنكي عمل مع نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وقد قربه نور الدين محمود وجعله قائداً لجيشه، وكان من أفضل أعماله ضمه لديار مصر لقيادة نور الدين محمود وتوحيد مصر والشام، وإعداد صلاح الدين للقيادة، والعمل على إسقاط ما يسمى بالخلافة الفاطمية التي كانت سبباً في البلاء على الأمة، توفي بمصر رحمه الله في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمئة للهجرة. الذهبي/ السير (٢٠/ ٥٨٧).

(٢) الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدويني المشهور بصلاح الدين الأيوبي، ولد (سنة ٥٣٢هـ) وتوفي (سنة ٥٨٩هـ). راجع: الدول المستقلة في الكتاب. الذهبي/ السير (٢١/ ٢٧٨).

- **دور الدولة الأيوبية(١) في الصراع مع الصليبيين:**

استطاعت الدولة الأيوبية بقيادة مؤسسها صلاح الدين أن تواجه الصليبيين بشكل منظم، وقد أعد العدة لهم بعد أن طهر جبهة المسلمين الداخلية من الشوكة الباطنية المسماة بالخلافة الفاطمية؛ حيث قضى على هذه الدولة في مصر، وقطع الخطبة والدعاء لخليفتهم، وأقامها للخليفة العباسي، مما عجل بوفاة آخر خلفاء الفاطميين العاضد كمداً ومرضاً، لتغلق هذه الصفحة السيئة في تاريخ أمتنا.

وفي (سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) توفي نور الدين محمود، وترك خلفه ابنه الصالح إسماعيل الذي كان صبياً لم يتجاوز عمره الحادية عشرة، مما دفع أمراء دمشق ووجهاءها إلى مراسلة صلاح الدين ودعوته إلى دمشق لتوحيد قيادتها مع مصر؛ لمواجهة الصليبيين خاصة، فاستجاب لهم صلاح الدين، وذهب إليهم، واستقبله أهلها استقبالاً حسناً، وتوحدت مصر والشام تحت قيادة صلاح الدين، وبمباركة من الخليفة العباسي.

استطاع صلاح الدين أن يواجه الصليبيين في عدة مواطن؛ مما أرغم بعض أمراء الصليبيين لعقد هدنة مع صلاح الدين، وقد استغل صلاح الدين هذه الهدنة لتوحيد القوى الإسلامية بضم حلب والموصل إلى مصر والشام.

وبعد أن أتم صلاح الدين استعداداته التامة، توجه إلى حطين لمواجهة الصليبيين في المعركة الشهيرة، والتي انتهت بهزيمة الصليبيين الذين زاد عددهم عن خمسين ألفاً، وانتصار المسلمين الذين كان عددهم اثني عشر ألفاً، فكانت هذه المعركة هي بداية النهاية للوجود الصليبي في الشام؛ حيث استطاع صلاح الدين أن يسترد الموانئ والمدن الإسلامية من الصليبيين، مثل: عكا، وحيفا، وقيسارية، وأرسوف، ونابلس، وصيدا، وغزة، وعسقلان، والرملة، وبيت لحم؛ مما أدى إلى تبدد وانكماش مملكة بيت المقدس، والتي انحصرت في القدس وما حولها(٢).

---

(١) يراجع: الدول المستقلة عن الخلافة العباسية في الكتاب.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: كانت وقعة حطين أمارة ومقدمة وبشارة لفتح بيت المقدس على المؤمنين، واستنقاذه من أيدي الكافرين. (١٦/ ٥٧٧٩).

ـ استرداد بيت المقدس:

توجه صلاح الدين الأيوبي إلى بيت المقدس بعد أن أمر بتحرك الأسطول البحري من مصر إلى الشام لحماية السواحل، ومنع وصول إمدادات للصليبيين.

حاصر صلاح الدين بيت المقدس حصاراً شديداً؛ مما اضطر الصليبيين أن يستسلموا لصلاح الدين الذي دخل إلى المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب (سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، ولم يتفق له لضيق الوقت أن يقيم الجمعة في هذا اليوم، وأقامها الجمعة التي تلتها في بيت المقدس بعد أن طهره من الرجس والصلبان.

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية(١): لما نُزه البيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، دخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان، وهرب الشيطان، وقُرئ القرآن، وطهر المكان.

فأقام صلاح الدين أول جمعة في الرابع من شعبان بعد أن نصب المنبر(٢) إلى جانب المحراب المطهر، وبُسطت البسُط الرفيعة، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل عوضاً عما كان يُقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء الحق، وبطلت تلك الأباطيل، وصفت السجادات، وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وأديمت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكربات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون، وغاب القسوس، وطابت الأنفاس، واطمأنت النفوس، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس، وحضر العباد والزهاد، وعُبد الواحد، وكثر الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع، وسالت لرقة القلوب المدامع، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عظيم، وموسم وسيم، وهذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسيل العبرات، وتقال العثرات، فأذن المؤذنون للصلاة وقت الزوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال، وصعد المنبر القاضي محيي الدين ابن الزكي(٣)، وقد كساه الله

---

(١) ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ٥٨٨).

(٢) منبر نور الدين.

(٣) محيي الدين بن الزكي: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي، قاضي قضاة الشام، ابن قاضي القضاة زكي الدين أبي الحسن، ابن قاضي القضاة المنتخب أبي المعالي، ابن قاضي القضاة الزكي أبي المفضل القرشي الدمشقي الشافعي.
فكل منهم محيي الدين وأبوه وجده وجد أبيه كانوا قضاة لدمشق، وهو جد الحافظ أبي القاسم ابن عساكر لأمه، ولد (سنة ٥٥٠هـ)، خطب خطبة الفتح=

البهاء، وأعطاه السكينة والوقار، فخطب الناس خطبة عظيمة سمية، فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف بيت المقدس، وما ورد فيه مَنَّ الفضائل، وما من الله به على الحاضرين من هذه النعمة التي تعدل الكثير من القربات.

ـ خطبة فتح بيت المقدس:

وكان أول ما قال في خطبته: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥]، ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: الحمد لله معزِّ الإسلام بنصره، ومذلِّ الشرك بقهره، ومصرفِ الأمور بأمره، ومديمِ النعم بشكره، ومستدرجِ الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره.

ثم أثنى على الله بما هو أهله، وصلى وسلم على النبي ﷺ، وترضى على الأئمة الخلفاء الراشدين، السادة الحنفاء، ثم ذكر الموعظة، ثم دعا للخليفة العباسي، ثم للسلطان الملك الناصر صلاح الدين، فكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً، فلله الحمد والمنة⁽١⁾.

وقد ترتب على استرداد بيت المقدس وهزيمة الصليبيين أن قدم الصليبيون في حملة ثالثة بقيادة ريتشارد ملك بريطانيا، وفريدريك بربروسا إمبراطور ألمانيا، وفليب أغسطس ملك فرنسا لمحاولة احتلال بيت المقدس وإعادته مرة أخرى للصليبيين؛ مما أدى إلى وقوع مصادمات دامية بين صلاح الدين وبين الصليبيين انتهت بعقد صلح يسمى بصلح الرملة في شعبان (سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م)، والذي احتفظ بموجبه صلاح الدين بفتوحاته السابقة، وسمح بموجبه للنصارى بزيارة بيت المقدس دون ضريبة، على أن يدخلوها بدون سلاح، كما احتفظ الصليبيون ببعض المناطق الساحلية من بلاد الشام.

= لبيت المقدس بأمر من صلاح الدين، فنال شرفاً عظيماً من بين أقرانه، مرض رحمه الله بشبه صرع وكان داءً عضالاً، فكان سبباً في وفاته بدمشق الشام (سنة ثمان وتسعين وخمسمئة) عن ثمان وأربعين سنة، ودفن بتربته بسفح جبل قاسيون. الذهبي/ السير (٢١/ ٣٥٨).

(١) الحافظ ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ٥٩٠).

لقد كانت هناك عدة عوامل دفعت بصلاح الدين إلى توقيع هذا الاتفاق، منها: حجم الإمدادات الهائلة التي وصلت للصليبيين من أوروبا، وقلة الإمكانات والمساعدات من العالم الإسلامي لصلاح الدين، وكذلك لإعطاء الفرصة لجيشه أن يلتقط أنفاسه ولو براحة قصيرة بعد حروب مستمرة، وكانت مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

وسبحان الله! شاء الله حيث شاء تبارك وتعالى أن يُتوفى صلاح الدين بعد توقيعه على هذا الصلح بأشهر قليلة في صفر (٥٨٩هـ)(١)، وكان قد قسّم دولته بين أبنائه وأخيه العادل(٢)، وبرغم ذلك تطور الأمر بعد وفاته إلى وقوع الخلاف والصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية، والذي استطاع أخوه العادل أن ينهيه بتوحيد معظم أجزاء الدولة مرة أخرى تحت سلطته؛ مما أدى إلى استقرار البلاد في يد السلطان العادل، وقد أزعج ذلك الصليبيين الذين جعلوا مصر هدفاً لهم، وأعدوا من أجل ذلك حملة صليبية رابعة في (سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م)، استطاع الملك العادل أن يفشلها قبل أن تصل إلى أراضي مصر باتفاقه مع أمراء البندقية في إيطاليا، الذين كانت لهم مصالح اقتصادية كبيرة مع مصر؛ مما أدى إلى فشل الحملة فشلاً ذريعاً.

لكن الصليبيين أعدوا حملة صليبية خامسة في (سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م) بقيادة الملك يوحنّا جانديبرين(٣) ملكِ بيت المقدس، وملك المجر، ودوق النمسا، وملك قبرص، وأمير أنطاكية، ووجهوها نحو مصر، واستطاعت هذه الحملة دخول دمياط بعد حصار طويل (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)، بعد أن انتهكوا الحرمات، وقتلوا معظم السكان، واعتدوا

---

(١) توفي صلاح الدين الأيوبي في صفر (٥٨٩هـ) الموافق لمارس (١١٩٣م)، وهو في السادسة والخمسين من عمره ودفن في دمشق الشام حرسها الله، وقد بكاه ورثاه المسلمون حتى إن البعض صور ذلك بأن يوم وفاته لم يصب المسلمون بمثله منذ فقد الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يوجد في خزانة صلاح الدين بعد موته سوى سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك خلفه داراً ولا عقاراً، وكان رحمه الله لا يؤخر الصلاة عن وقتها ويهتم بأمرها ويتابع جنوده في أدائها في الجماعات، وكان من صفاته رحمه الله أن كان سمحاً حليماً كريماً حسن الخلق صبوراً عالي الهمة في جهاد أعداء الأمة، رحمه الله رحمة واسعة. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٦/ ٦٥١).

(٢) الملك العادل سيف الدين أبو بكر أحمد شقيق الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، ثاني ملوك الدولة الأيوبية، وصل إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه وأخيه صلاح الدين الأيوبي، كان نائباً لصلاح الدين وتولى حلب لأربع سنوات في عهد أخيه صلاح الدين ثم رجع إلى مصر إلى أخيه.
كان ذا رأي ومعرفة وله حنكة في السياسة والحرب، محافظاً على الصلوات في وقتها، يحب العلم والعلماء، قسّم البلاد بين أبنائه، توفي بقرية علقين بظاهر دمشق ونقل إلى دمشق فدفن بمدرسته المعروفة هناك. الذهبي/ السير (٢٢/ ١١٥).

(٣) جانديبرين: قائد صليبي فرنسي حمل لقب ملك بيت المقدس، وقاد الحملة الصليبية الخامسة على مصر، صاهره الإمبراطور فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا والذي قاد الحملة الصليبية السادسة. الموسوعة الحرة.

على المساجد وحولوها إلى كنائس، وكان الملك العادل قد توفي بالشام، وتم تولية ابنه الكامل(١) على مصر؛ مما أدى إلى استغلال الصليبيين لهذا الأمر، فقاموا بما فعلوه من أفاعيل في دمياط، وزحفوا إلى القاهرة، في الوقت الذي كان الملك الكامل يعدّ العدة لمواجهتم، ثم أرسل إليهم يحاول أن يفاوضهم ليرجعوا عن مصر مقابل أن يتخلى لهم عن المناطق التي كانت في أيديهم قبل معركة حطين.

لكن الصليبيين رفضوا هذا العرض، وطلبوا منه أموالاً هائلة وطائلة موقنين بأن مصر ضعيفة، ولا تستطيع المقاومة، وأنه يسهل الاستيلاء عليها، فتوقفت المفاوضات، وواصل الصليبيون تقدمهم نحو القاهرة بمحاذاة ساحل نهر النيل لفرع دمياط في (سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، وقد تجمع المسلمون في مصر من كل حدب وصوب، وقاموا بحصار الصليبيين، ثم فتحوا قنوات مياه النيل حيث ارتفع منسوب مياه النهر، ثم قاموا بمهاجمة الصليبيين الذين خشوا على أنفسهم من الغرق والقتال، فحلت الهزيمة بهم، وسارعوا إلى طلب الصلح والخروج دون قيد أو شرط مقابل الأمان، فوافقهم الملك الكامل، فانسحبوا ورجعوا عن مصر دون أن يحققوا هدفهم المقصود.

غير أن بابا روما هنورويس الثالث دعا ملوك أوروبا إلى حملة صليبية جديدة، وكتب إلى فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا من أجل ذلك، وأنه قد اختاره ليقود الحملات لبيت المقدس.

استجاب فريدريك الثاني ملك ألمانيا، وتفاعل مع مطلب البابا، وبدأ يعد العدة لهذه الحملة بعد أن تجمع له الكثير من الصليبيين من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والنمسا، فقادهم في حملة بحرية، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرسل عليهم العواصف التي شتتت مراكبهم، واضطر فريدريك إلى العودة بجيشه إلى ألمانيا، الأمر الذي أغضب البابا الجديد جريجوري

---

(١) السلطان الكامل: أبو المعالي محمد بن محمد بن أيوب ناصر الدين الملك الكامل، ولد في مصر (سنة ٥٧٦هـ) وتوفي (سنة ٦٣٥هـ)، أحد سلاطين الدولة الأيوبية، لم يكن على مستوى أبيه وعمه في الحكم لذا تنازل عن بيت المقدس للصليبيين، له آثار باقية في القاهرة في مصر، منها: المدرسة الكاملية، توفي بدمشق (سنة ٦٣٥هـ)، بعد أن بقي في الملك أربعين سنة. الذهبي/ السير (٢٢/ ١٢٧).

التاسع والذي اعتبر فريدريك عاصياً؛ مما أدى إلى الضغط الشديد على فريدريك من جميع أنحاء أوروبا، فاضطره ذلك إلى العودة بالحملة (سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م)، وتوجه إلى عكا بحملة كبيرة يقودها بنفسه؛ مما أرهب الملك الكامل ابن العادل الأيوبي، والذي مال إلى المهادنة؛ لأنه أدرك مدى الضعف الذي عليه الدولة، وعدم القدرة على مواجهة الصليبيين، **ومع الأسف دفعه ذلك إلى التخلي والتفريط في بيت المقدس وبيت لحم والناصرة للصليبيين** بعد الضغط الشديد من جانبهم عليه، مقابل ضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية، مع الاحتفاظ بالمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وسائر قرى القدس.

وبعد وفاة الكامل في (سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) خلفه ابنه الملك العادل الثاني، والذي لم يبق في الحكم إلا أقل من سنتين، فقد ثار عليه أخوه الملك الصالح أيوب(١)، وأخرجه من مصر، **واستطاع الصالح أيوب أن يستعين بالمماليك الأتراك في استعادة بيت المقدس في** (سنة ٦٤٢هـ) من يد ابن عمه الناصر داود الذي كان قد سيطر عليها بعد انقضاء الهدنة مع الصليبيين التي وقعها الملك العادل الأول، وفرط خلالها ببيت المقدس.

كانت استعادة بيت المقدس هي الخطوة الأولى للملك الصالح أيوب بعد أن يوحد من جديد دولة صلاح الدين بكاملها، ووقع في زمانه الغزو الصليبي بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس، فيما يسمى بالحملة السابعة والأخيرة على المشرق الإسلامي.

وقد استطاعت هذه الحملة أن تحتل دمياط بعد أن فرت منها حاميتها من الجنود والقادة؛ مما أغضب الملك الصالح أيوب، فحاسبهم حساباً شديداً، وبرغم مرضه الشديد

---

(١) الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن العادل أبي بكر بن أيوب، لُقب بأبي الفتوح، ولد بالقاهرة (سنة ٦٠٣هـ)، وتوفي بالمنصورة (سنة ٦٤٧هـ)، أحد أبرز سلاطين الدولة الأيوبية في مصر، أنشأ المماليك البحرية بمصر.

مر عهده بأمور عديدة، لكنه استطاع أن يملك زمام الأمور وأن ينشر الأمن في ربوع مصر، وكان شغوفاً بالعمارة يشرف عليها بنفسه ويصممها، فلقد شيد بمصر مالم يشيده ملوك بني أيوب، ومن ذلك قلعة روضة المنيل، وأقام جسراً بين جزيرة المنيل وبين القاهرة، وأنشأ مدينة الصالحية، ومسجد الصالح أيوب في المنصورة، والمدارس الصالحية المختلفة بالقاهرة، وقصور باب اللوق، وقصر ومنتزه الكبش.

ظل الملك الصالح في خدمة أمته إلى أن لقي ربه وهو في طريقه لجهاد الصليبيين بحملتهم السابعة على مصر. المقريزي/ السلوك، ابن إياس المصري/ بدائع الزهور في وقائع الدهور. الذهبي/ السير (٢٣/ ١٨٧).

أعد جيشاً كبيراً بقيادة عسكره من المماليك أمثال القائد عز الدين أيبك(١)، وقطز(٢)، وبيبرس(٣)، وخرج بنفسه على رأس جيشه لمواجهة الصليبيين، غير أنه توفي رحمه الله وهو في طريقه إلى المنصورة في شهر شعبان (سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م).

أَخبرت شجرة الدر جاريةُ الملك الصالح أيوب خبر وفاة الصالح أيوب عزَّ الدين أيبك كبيرَ قادة الجيش، وأخفى خبر وفاته عن الجيش خشية أن يفتَّ عزمَ الجنود، وأرسل في استدعاء ابن الصالح أيوب طوران شاه ليحل محلَّ أبيه في حكم البلاد.

تسرب خبر وفاة الملك الصالح أيوب إلى الصليبيين الذين استغلوا هذا الموقف، فهاجموا المنصورة بقيادة الملك لويس التاسع في (سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، في الوقت الذي وصل فيه توران شاه(٤) إلى مصر، واستطاع المسلمون أن يصدوا هجوم الصليبيين، وأن ينازلوهم في معركة اشتهرت في التاريخ باسم معركة المنصورة، والتي انتهت بنصر حاسم للمسلمين بفضل الله تعالى، وهزيمة ساحقة للصليبيين، وأسر ملكهم لويس التاسع في المعركة التي تلت ذلك عند فرسكور، وقادها توران شاه، ووضع أسيراً بدار ابن لقمان(٥)، وقد

---

(١) عز الدين أيبك: الملك عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني، أحد مماليك السلطان نجم الدين أيوب ممن استجلبهم من وسط آسيا، تركماني الأصل.

بعد وفاة الملك الصالح أيوب واغتيال ابنه السلطان توران شاه تزوج من شجرة الدر جارية السلطان نجم الدين أيوب، وبويع له سلطاناً على المماليك في مصر، فكان أول سلاطين المماليك. قضى حياته نتيجة كيد النساء حيث دبرت له زوجته شجرة الدر مكيدة انتهت بقتله. ابن العماد/ شذرات الذهب (٧/ ٤٦٣) - الذهبي/ السير (٢٣/ ١٩٨).

(٢) قطز: الملك المظفرسيف الدين قطز محمود بن ممدود بن خوارزم شاه، ولد بسمرقند، سلطان المماليك وملك مصر قاهر التتار في معركة عين جالوت، قصته طويلة في التاريخ. قضى حياته على يد ركن الدين بيبرس أحد قادته فخسر المسلمون قائداً عظيماً لم يبقَ في الحكم إلا سنة واحدة حقق خلالها النصر على المغول، وأزال أسطورة الجيش الذي لا يقهر، وقد قتل رحمه الله (سنة ٦٥٨هـ) عند عودته إلى مصر بعد موقعة عين جالوت. الذهبي/ السير (٢٣/ ٢٠٠).

(٣) بيبرس: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري سلطان المماليك وملك مصر بعد السلطان قطز والذي قضى نحبه على يدي بيبرس، أصله من مماليك الترك القبجاق في كزخستان حالياً.

حقق انتصارات عظيمة للمسلمين وواجه الصليبيين في مواقع متعددة، واهتم بالعمارة، وله آثار من المساجد والمدارس، أشهرها المكتبة الظاهرية في دمشق، توفي يوم الخميس في السابع والعشرين من محرم (سنة ٦٧٦هـ). ابن العماد/ شذرات الذهب (٧/ ٦١٠) - د. ناصر الأنصاري/ موسوعة حكام مصر (ص:٩٥) - الزركلي/ الأعلام (٢/ ٧٧).

(٤) توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، بويع ملكاً على مصر والشام، وسلطاناً على المماليك بعد وفاة أبيه، فلقد أتى مباشرة من الشام ووصل بعد نحو عشرة أيام أو أكثر من وفاة أبيه، فقاد الجيش بنفسه بعد أن أُعلن وفاة الملك الصالح أيوب، فاستطاع أن يلتقي مع الصليبيين عند مدينة فرسكور بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة، فحقق انتصاراً عظيماً على الصليبيين، وأُسر الملك لويس التاسع، وأصبح جيشه ما بين قتيل وأسير، وسيق الملك لويس مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث حبس في دار ابن لقمان.

غير أن المماليك كعادتهم أرادوا أن ينفردوا وحدهم بالحكم وتذرعوا بأنهم يشكون في نوايا السلطان توران شاه نحوهم؛ لذا قاموا بقيادة بيبرس وقلوون وأقطاي وقتلوه، ففر منهم لكشك خشبي فأحرقوه عليه، فهرب منه ورمى نفسه بالنيل، فضربوه بالسهام والنبال فقتل جريحاً حريقاً غريقاً ليُغلق بمقتله صفحة الدولة الأيوبية بمصر، وقيام دولة المماليك. الذهبي/ السير (٢٣/ ١٩٣).

(٥) دار ابن لقمان: تنسب دار ابن لقمان للقاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وهي الدار التي بقي فيها لويس التاسع أسيراً حتى افتدى نفسه بعد ذلك، وشهدت نهاية الحروب الصليبية المسلحة على مصر والشام بمدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية بمصر، وهي متحف يزار للسياح وللباحثين.

أتاحت له فترة السجن فرصة لأن يترك وصية لملوك وأباطرة أوروبا صاغ فيها السياسة التي ينبغي للصليبيين اتباعها في الغزو الصليبي.

وكان من أهم ما جاء في هذه الوصية:

١. تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات سلمية تستهدف الغرض نفسه، ويكون السلاح هو إثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية وإشاعة التفكك في وحدة المسلمين.

٢. استخدام من يمكن إغراؤهم من نصارى الشرق في تنفيذ سياسة الصليبيين في التبشير بالنصرانية، ودعمهم في ذلك ليكونوا عوناً لهذه الحملات.

٣. إنشاء قاعدة صليبية في قلب الشرق العربي يتخذها الصليبيون نقطة ارتكاز بقوته الحربية للقضاء على الإسلام في المنطقة.

وقد وجههم إلى أهمية الشام ومصر باعتبارهما القاعدة المعنوية والاستراتيجية للدفاع عن الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى كون كل منهما يمثل رأس جسر يمكن العبور عليه إلى آسيا وإفريقيا.

وقد لاحت الفرصة للويس التاسع بإجراء المفاوضات والدخول مع المسلمين في معاهدة من أجل أن يسلم من القتل تسمى بمعاهدة المنصورة، ومما جاء فيها: أنه يتعهد بألا يعود لمحاربة المسلمين مرة أخرى، وأن يسلم الصليبيون دمياط فدية عن الملك لويس التاسع، وخمسمئة ألف دينار كفدية عن الجيش، وإطلاق سراح أسرى الجانبين، وهدنة لعشر سنوات.

أبحر الملك لويس التاسع مع من تبقى من جيشه باتجاه عكا، ومنها إلى فرنسا، لكنه قد غدر بالمسلمين، ونكث العهد معهم، وقاد حملة بنفسه إلى شمال إفريقيا في (سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م) ليهاجم الدولة الحفصية في تونس، وينطلق من هناك إلى مصر لاحتلال بيت المقدس، غير أنه بمجرد أن وطئت قدماه تونس وافته المنية وهلك هناك.

لقد لعبت المقاومة الإسلامية دوراً بارزاً في مواجهة الصليبيين على مدار قرنين من الزمان بقيادة الدولة الزنكية، ثم الأيوبية، ثم دولة المماليك التي نشأت بعد ذلك، والتي استطاعت أن تنهي الوجودَ الصليبي في الشرق، غير أن الحروب الصليبية لم تنته، ولن تنتهي على مر التاريخ كما وقع من التحالفات الأوروبية ضد دولة الخلافة العثمانية، وهجومها العسكري، واحتلالها لمناطق عدة في العالم الإسلامي، كما أن هذه الغزوات الصليبية لازالت مستمرة سواء كانت عسكرية، أو فكرية وهي الأخطر؛ كما هو مشاهد ويُرى الآن.

لقد تركت الحروب الصليبية آثاراً واسعة وبارزة؛ سواءٌ على العالم الإسلامي، أو على أوروبا، فلقد أوذي العالم الإسلامي بالخراب والدمار، وقتل مئات الآلاف، كما غزا المنصِّرون والإرساليات والبعثات التعليمية النصرانيةُ بلادَ المسلمين بعد هذه الحروب.

ومن أبرز الآثار للحروب الصليبية على المسلمين: نشأة الاستشراق؛ حيث اتجه الكثير من المفكرين وعلماء النصرانية إلى دراسة الديانة الإسلامية واللغة العربية وأحوال الشرق؛ مما كان له الأثر ـ ولا يزال ـ على بلورة وتوجيه الكثير من الأفكار المعادية للإسلام وانتشارها بين المسلمين.

كما أنها أدت إلى قتل مئات الآلاف من المسلمين، ومن المحاربين الصليبيين، أمراء كانوا أو فرساناً أو جنوداً.

ولقد كان أبرز الآثار على أوروبا هو تراجعُ دور الكنيسة، وضعف مكانتها، وتقليص نفوذ البابوية.

كما أنها ساهمت بشكل مباشر في انهيار النظام الإقطاعي بعد مقتل الكثير من كبار الإقطاعيين، فظهرت القوميات المختلفة في أوروبا، وازدادت سلطة الملوك.

كما كان للحروب الصليبية أثر إيجابي على الأوروبين الذين نقلوا علوم المسلمين وأنشؤوا المدارس، وظهرت بينهم الحركة العلمية الحديثة، كما نقلوا الكثير من الصناعات التي أثرت بشكل كبير في ظهور وقيام النهضة الأوربية الحديثة.

دولة المماليك

(٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ)

تطلق لفظة المماليك على العبيد الأرقاء البيض الذين كان يجلبهم السلاطين والأمراء من بلاد ما وراء النهر في بلاد الترك، وخاصة سمرقند التي كانت تعدّ من أكبر أسواق العبيد في العالم، وكان يعتمد عليهم كقوة في القتال إلى جوار الأمير أو السلطان.

وينسب للخليفة العباسي المأمون أنه أول من استعان بهم، ثم الخليفة المعتصم، ثم التصقت هذه الكلمة في التاريخ بدولة المماليك التي نشأت في مصر، واتسعت إلى الشام والحجاز على يد السلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك.

وكان قد جلبهم إلى مصر الملكُ الصالح نجم الدين أيوب آخرُ ملوك الدولة الأيوبية، وقد أكثر منهم، وولى قيادتهم عزَّ الدين أيبك الذي يعد القائد العسكري للمماليك المكون الأساس لجيش الدولة الأيوبية.

ولقد اشتُهر المماليك في التاريخ ببأسهم، وبشدة قتالهم لخصومهم؛ لذا فلقد سطرت لنا صفحات التاريخ صفحات ناصعة عن جهادهم وقتالهم في سبيل الله تعالى، فلله الفضل ثم لهم في وقف تقدم المغول وكسرِ شوكتهم في يوم عين جالوت، كما كانوا السبب الرئيسي في إقامة الخلافة الإسلامية مرة أخرى بعد سقوطها في بغداد (٦٥٦هـ) على يد المغول، وبقاء منصبها شاغراً لثلاث سنوات، فأقاموها بالقاهرة (سنة ٦٥٩هـ) كما سيأتي.

كما اشتهرت دولة المماليك بأنها تنقسم إلى قسمين: الأول منهما: دولة المماليك البحرية، والثاني: دولة المماليك البرجية، أو مماليك الشراكسة.

ولقد كانت دولة المماليك البحرية أشدهما وأقواهما، وهم مماليك الملك الصالح أيوب، وسُمُّوا بالمماليك الصالحية، وأكثر الملك الصالح أيوب منهم حتى ضج الناس منهم، فبنى لهم قلعة بجزيرة روضة المَنْيَل بنهر النيل، واتخذها مقراً لحكمه، ولذا سموا بالبحرية، وإن كانت هذه النسبة ـ المماليك البحرية ـ قد أطلقت على كثيرين ممن جُلبوا

من وراء البحار، وخاصة الصقالبة(١)، وتولى عليها أربعة وعشرون سلطاناً من (سنة ٦٤٨هـ إلى سنة ٧٠٢هـ)، وتولى من بعدهم المماليك الشراكسة الذين تولوا إلى (سنة ٩٢٣هـ)، وتأمر عليهم أربعة وعشرون سلطاناً.

كان أول أمراء المماليك البحرية عز الدين أيبك التركماني، الذي تآمر مع شجرة الدرّ جاريةِ الملك الصالح أيوب(٢) على قتل توران شاه الملك المعظم ابنِ الملك نجم الدين أيوب الذي تولى على مصر.

ثم تزوج عز الدين أيبك من شجرة الدرّ، وتولى ملْكَ مصر(٣)، وأصبح أول سلاطين المماليك حتى قُتل (سنة ٦٥٥هـ)، فتولى من بعده ولده الملقب بالمنصور، وهو صبي صغير لا يحسن إدارة البلاد، وخاصة في هذه المرحلة التي اجتاح فيها المغول بغداد، وفعلوا بها الأفاعيل كما أسلفنا، ثم تقدموا نحو الشام إلى حلب، وأكثروا الفساد فيها بعد أن حاصروها سبعة أيام، ثم دخلوها بعهد الأمان، وغدروا بعد ذلك بأهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال، وعاثوا فيها الفساد، وجعلوا أعزة أهلها، أذلة، وبقيت حلب بعد أن دمروها كأنها حمار أجرب على حدّ قول الحافظ ابن كثير رحمه الله(٤)، كما تقدموا وأخذوا دمشق سريعاً، فهدموا جزءاً كبيراً من قلعتها، وعظموا دين النصارى، كما رفعوا نصارى الشام إلى الصدارة فوق المسلمين؛ مما جرأ النصارى بالشام أن يسيروا ومعهم صلبانٌ وهم يقولون: (ظهر الدين الصحيح دين المسيح)، ويتطاولون ويسبُّون دين الإسلام والمسلمين، ومروا بالمساجد، ورشوا عندها الخمر، كما أمروا الناس أن يقوموا تعظيماً للصليب، وكان كل ذلك بإعانة من المغول لنصارى الشام.

---

(١) الصقالبة: هم السلاف، وتعني: الشرفاء، يعيشون على ضفاف البحر الأسود وضفاف ألطونة. ابن خلدون/ العبر (١/ ١٢٤)/ تعليق شكيب أرسلان.

(٢) اشتهر بين الناس وعند غير المحققين أن شجرة الدر كانت زوجة للملك الصالح أيوب، وهي في الحقيقة جارية أم ولد يسمى: خليل من أبناء الملك الصالح أيوب. ابن كثير/ البداية والنهاية (١٧/ ٣٤٧).

(٣) يخطئ كثير من المؤرخين بزعمه أن شجرة الدر تولت الملك على مصر لثمانين يوماً، وأنها كانت آمرة وناهية، وهي المؤسسة لدولة المماليك، وهذا مالم يذكره المؤرخون الموثوقون من أهل السنة والجماعة كالحافظ ابن كثير الدمشقي رحمه الله في البداية والنهاية، وهذا الذي يستقيم مع شريعة الإسلام أن المرأة لا تتصدر ولاية عظمى، كما أنها لا تستقيم مع طبائع المسلمين الذين كانوا أكثر غيرة من زماننا.

(٤) البداية والنهاية (١٧/ ٣٩٦).

ثم تقدم المغول بعد ذلك نحو مصر، فاجتمع رأي الناس من العلماء والفضلاء وقادة الجند على تنحية الطفل المنصور بن عز الدين أيبك، و تولية محمود سيف الدين قطز سلطنةَ المماليك وحكمَ البلاد (سنة ٦٥٧هـ)، ولقب بالملك المظفر.

قام سيف الدين قطز بأمر مصر أحسنَ قيام، واستطاع أن يحصنها في مواجهة الخطر المغولي الزاحف عليه من جهة الشام، وبدأ يستعد استعداداً واسعاً لمواجهة حاسمة مع التتر الغزاة القساة، وخاصة بعد أن سقطت دمشق في أيدي المغول، وإرساهم وفداً إلى سلطان مصر سيفِ الدين قطز يحملون معهم رسالة تهديد وطلب التسليم للمغول.

استقبل سيف الدين قطز هذا الأمر بإمهال ذلك الوفد، ثم عقد اجتماعاً مع الأمراء والملوك، وخطبهم وحثهم على الجهاد، وأن الرأي لابد أن يجتمع على الحرب، فلما شعر بأن بعض الأمراء لا يرغبون في الحرب قال لهم: يا أمراء المسلمين! لكم زمان وأنتم تأكلون من أموال المسلمين، وها أنتم للغزو كارهون، وإني متوجه بمشيئة الله للقتال، فمن اختار الجهاد في سبيل الله فليصحبني، ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى داره وأهله، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتخلفين والمتخاذلين.

فأثرت تلك الكلمات في نفوسهم؛ مما أدى إلى توحيد الرأي بالحرب.

أمر قطز بضرب أعناق الوفد المغولي ثأراً لما ارتكبه المغول من فظائع وأهوال وتنكيل للمسلمين، وبدأ يتخذ خطوات حكيمة لمواجهة المغول، ويستعد استعداداً واسعاً للقتال، فاجتمع معه العلماء، وعلى رأسهم العزُّ بنُ عبد السلام رحمه الله، وبدؤوا يستحثون الناس على الخروج لملاقاة المغول، فاجتمع لهم جمع كبير، ثم رأى بعض الأمراء أن تجمع الدولة على سبيل الوجوب مالاً من السكان لتستعين به في الحرب، فرد عز الدين بن عبد السلام رحمه الله على ذلك بقوله: إن على الأمير إذا أراد فعل ذلك أن يبدأ بنفسه، ويأخذ الحلي التي في بيت أهله وفي بيوت الأمراء، وأن يضربها نقوداً، فإن لم تف بالحاجة فليفرض يومئذ إذ على الناس ذلك.

ولقد قال لهم: إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقتم أموال الحوائض المذهبة وغيرها

من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب؛ بحيث لم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء عنه؛ لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعُهم لأموالهم وأنفسهم.

وهكذا يكون موقف العلماء واستجابة الأمراء لهم طاعةً لله تعالى ولأمره سبحانه ولسنة نبيه ﷺ.

- **معركة عين جالوت:**

استفاد قطز من السيرة النبوية العطرة عندما أراد الروم غزو المدينة النبوية في (سنة ٩هـ) بجيش عرمرم، فبادرهم النبي ﷺ بالخروج إليهم، مما قذف في قلوبهم الرعب، وشتتهم، حتى إن النبي ﷺ لما وصل يومئذ إلى تبوك لم يجد أحداً من مئتين وأربعين ألفاً كانوا قد اجتمعوا له، فكما يقال: خيرُ وسيلة للدفاع الهجوم.

انطلق السلطان قطز بجيشه الكبير، وعلى رأسه القادة والعلماء والأمراء، يتقدمهم جيش آخر بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري، الذي تقدم نحو غزة، فقضى على حاميتها من المغول قبل أن يصل إليها مدد مغولي، ووصل بعده السلطان مع الجيش إلى عكا، وعسكر بالحدائق والبساتين الواقعة خارج أسوارها، فأخذ الجيش قسطاً من الراحة بعد رحلة طويلة في صيف حار بصحراء سيناء، في الوقت الذي تقدم إليه جيش المغول، وعبر نهر الأردن، ووصل إلى منطقة الجليل الشرقي بفلسطين، ووصلت أخبارهم إلى السلطان الذي توجه بجيشه إلى منطقة عين جالوت، والتي كانت ساحة للمعركة، وسميت باسمها في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان (سنة ٦٥٨هـ).

وصل جيش المسلمين إلى هناك في المنطقة التي يقع فيها بعض التلال، فأخفى الجزء الأكبر من جيشه خلف تلك التلال، وأظهر فرقة على رأسها ركن الدين بيبرس للمغول متقدماً إلى كتبغا القائد المغولي الذي ألقى بكل قواته في المعركة ليحسمها لصالحه من أولها، فكانت هذه فرصة لركن الدين بيبرس أن يتقهقر إلى الخلف بقواته مظهراً الانسحاب والهزيمة؛ ليجر جيش المغول إلى المصيدة في وسط التلال، وبالفعل تبعه جيش المغول

الذي لم يدرك ذلك، وما هي إلا لحظات حتى وجدوا أنفسهم محاصرين من كل جهة، فتحولت المعركة إلى معركة حياة وموت؛ حيث لا نجاة بالنسبة إلى المغول الذين قاتلوا قتال المستميت؛ مما أدى إلى ارتباك في بعض صفوف المسلمين، وكادت المعركة في لحظة أن تحسم لصالح المغول لولا أن الله تعالى تدارك الأمر بقطز الذي خلع خوذته من فوق رأسه، وألقى بها إلى الأرض، وصرخ قائلاً! «وإسلاماه»، فكانت هذه الصرخة بمثابة الوقود الذي أضيف إلى النار، فانطلقت جيوش المسلمين كالأسود والفهود الضارية تحصد رؤوس الكفر، وتحولت المعركة إلى مجزرة ومذبحة رهيبة لجيش المغول الذي ظل قائده كتبغا يقاتل بعناد حتى وقع أسيراً ين يدي العسكر، فأمر قطز على الفور بضرب عنقه، وفر من تبقى من جيشه إلى الجبال والتلال، وتبعهم جيش المسلمين حتى لم يبقوا منهم أحداً، وقد حُطم شعار المغول بأنهم الجيش الذي لا يقهر، فسبحان جبار السموات والأرض القهّار، الذي يكور الليل على النهار، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ينصر مظلوماً ويخذل ظالماً ويقصم جباراً، ويرفع أقواماً ويضع آخرين.

لقد كانت هذه المعركة واحدة من المعارك التي غيرت وجه التاريخ، وأعادت للمسلمين اعتبارهم وثقتهم بالله ثم بأنفسهم، وكانت لهم ولنا عبرة وآية؛ بأن التمسك بالهدي القويم، واتباع الصراط المستقيم، والترفع عن الأهواء والشهوات والزيغ والضلال والحزبية المقيتة، فهو الطريق للنصر المبين.

ولقد فرح المسلمون وابتهجوا في بلاد الشام بأخبار المعركة، فهبوا يهاجمون المغول والنصارى الذين أيدوهم على المسلمين، وقاموا بتقتيلهم وذبحهم حتى استتب الأمن بدمشق بدخول سيف الدين قطز إليها بعد المعركة بيومين؛ أي: في السابع والعشرين من رمضان (سنة ٦٥٨هـ).

ولقد حققت هذه المعركة الرفعة لشأن المماليك في العالم الإسلامي الذين استقبلوا ذلك بالفرح الشديد، ولقد شفى شيئاً من غليلهم من المغول كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[التوبة:١٤].

كما أنها كانت سبباً في توحيد مصر والشام تحت قيادة واحدة للمماليك، والذي مهد لإعادة الخلافة العباسية مرة أخرى، ولكن بالقاهرة وليس ببغداد.

وكما تصدى المماليك للخطر المغولي، فإنهم نالوا شرف التصدي للخطر الصليبي، والقضاء عليه في مصر والشام، وخاصة في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي استرد مدناً وقلاعاً كثيرة، وعلى رأسها أنطاكية، وظل يجاهد عباد الصليب إلى أن توفي رحمه الله.

واستمر جهاد المماليك للصليبيين في عهد السلطان قلاوون، والذي استطاع أن يستعيد اللاذقية وطرابلس، وأراد أن يستعيد عكا أمنع الحصون آنذاك، لكنه أدركته المنية قبل أن يحقق ذلك رحمه الله، غير أنه تحقق استرداد عكا في عهد ابنه الأشرف خليل بن قلاوون، كما استطاع أن يسترد حيفا وصور وصيدا، **فنال الأشرف خليل بن قلاوون شرف إنهاء الوجود الصليبي في الشام.**

كما استطاع المماليك استرداد قبرص، ومهاجمة رودس؛ مما أمّن بلاد الشام ومصر من الخطر الصليبي لفترة طويلة، غير أن الحروب الصليبية لم تنته بعد كما سيأتي في عهد الخلافة العثمانية.

- **سلاطين المماليك البحرية:**

١. عز الدين أيبك (٦٤٨هـ - ٦٥٥هـ) قُتل.
٢. نور الدين علي بن أيبك (٦٥٥هـ - ٦٥٧هـ) خُلع.
٣. الملك المظفر سيف الدين قُطز (٦٥٧هـ - ٦٥٨هـ) قُتل.
٤. الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨هـ - ٦٧٦هـ) قُتل.
٥. الملك السعيد بركة خان بن بيبرس (٦٧٦هـ - ٦٧٨هـ) خُلع.
٦. العادل بدر الدين سلامش بن بيبرس (٦٧٨هـ - ٦٧٩هـ) خُلع.
٧. السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي(١) (٦٧٩هـ - ٦٨٩هـ) توفي.

---

(١) مؤسس أسرة قلاوون التي حكمت بعده، وقد تولى السلطنة بعد أن اتفق أمراء المماليك على خلع سلامش بن بيبرس، ولقد استطاع هذا الملك المبارك أن يصد غارات المغول عن بلاد الشام وأوقع بهم هزيمة نكراء، كما أمن البلاد ونشر العدل بين العباد.

٨. السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٨٩هـ - ٦٩٣هـ) قُتل[1].

٩. السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى السلطنة لثلاث مرات الأولى: (٦٩٣هـ إلى ٦٩٤هـ) ثم خُلع، والثانية: (٦٩٨هـ إلى ٧٠٨هـ) ثم خُلع، والثالثة: (٧٠٩هـ إلى ٧٤١هـ) حتى توفي.

١٠. السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري (٦٩٤هـ - ٦٩٦هـ) خُلع.

١١. السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري (٦٩٦هـ - ٦٩٨هـ) قُتل.

١٢. السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨هـ - ٧٠٩هـ) قُتل.

١٣. السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤١هـ - ٧٤٢هـ) خُلع.

١٤. السلطان الملك الأشرف علاء الدين كوجك بن محمد بن قلاوون (٧٤٢هـ - ٧٤٢هـ) خُلع.

١٥. السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد بن محمد بن قلاوون (٧٤٢هـ - ٧٤٣هـ) خُلع.

١٦. السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون (٧٤٣هـ - ٧٤٦هـ) توفي.

١٧. السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون (٧٤٦هـ - ٧٤٧هـ) قُتل.

١٨. السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بن قلاوون (٧٤٧هـ - ٧٤٨هـ) قُتل.

١٩. السلطان الملك الناصر بدر الدين أبو المعالي حسن بن محمد بن قلاوون وقد تولى مرتين، الأولى: (٧٤٨هـ - ٧٥٢هـ). ثم خُلع، والمرة الثانية: (٧٥٥هـ - ٧٦٢هـ) وقُتل.

٢٠. السلطان الملك صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون (٧٥٢هـ - ٧٥٥هـ) خُلع.

---

(١) فتح عكا وصور وصيدا وبيروت وطرطوس وكسر الصليبيين، مات مقتولاً غيلة على يد بعض مماليكه رحمه الله.

٢١. السلطان الملك صلاح الدين المنصور محمد بن حاجي بن قلاوون (٧٦٢هـ - ٧٦٤هـ) خُلع.

٢٢. السلطان الملك المنصور الأشرف زين الدين شعبان بن حسن بن محمد قلاوون (٧٦٤هـ - ٧٧٨هـ) قُتل.

٢٣. السلطان الملك المنصور علاء الدين علي بن شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون (٧٧٨هـ - ٧٨٣هـ) توفي.

٢٤. السلطان الملك الصالح زين الدين حاجي (٧٨٣هـ - ٧٨٤هـ)، وشاركه في السلطنة الأمير برقوق السلطان الأول للمماليك البرجية، فبقي برقوق لسبع سنوات، ثم انفرد الملك الصالح زين الدين بالسلطنة من (سنة ٧٩١هـ إلى ٧٩٢هـ) حتى خُلع، وبدأ عهد سلاطين المماليك البرجية - الشراكسة، وكان السلطان الملك الصالح زين الدين حاجي هو آخر السلاطين من المماليك البحرية ومن أسرة قلاوون.

- **سلاطين المماليك البرجية:**

١. السلطان الظاهر برقوق بن أنس اليبغاوي (٧٨٤هـ - ٨٠١هـ)، أول سلاطين المماليك البرجية، توفي.

٢. فرج بن برقوق اليبغاوي لمرتين: الأولى: (٨٠١هـ - ٨٠٨هـ) تولاها وعمره عشر سنوات، الثانية: (٨٠٨هـ - ٨١٥هـ)، قُتل.

٣. عبد العزيز بن برقوق اليبغاوي (٨٠٨هـ) حكم لمدة شهرين.

٤. السلطان المؤيد شيخ المحمودي (٨١٥هـ - ٨٢٤هـ)، توفي.

٥. السلطان أحمد بن المؤيد شيخ (٨٢٤هـ) حكم تحت وصاية الأمير ططر الذي انتزع السلطنة لنفسه ليصبح السلطان السادس.

٦. السلطان الظاهر سيف الدين ططر، حكم لمدة أربع وتسعين يوماً.

٧. السلطان ناصر الدين محمد بن ططر، حكم تحت وصاية الأمير برسباي الذي انتزع السلطنة لنفسه بعد عدة أشهر.

٨. السلطان الأشرف سيف الدين برسباي (٨٢٥هـ - ٨٤١هـ)، توفي.

٩. السلطان العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي (٨٤١هـ) حكم تحت وصاية الأمير جقمق الذي انتزع السلطنة لنفسه.

١٠. السلطان الظاهر سيف الدين جقمق (٨٤٢هـ - ٨٥٧هـ)، توفي، أوصى بالسلطنة من بعده لابنه عثمان.

١١. السلطان المنصور فخر الدين عثمان بن الظاهر جقمق (٨٥٧هـ) خلعه العسكر بعد شهر ونصف من توليه.

١٢. السلطان الأشرف سيف الدين قينال العلائي الظاهري الأجرود (٨٥٧هـ - ٨٦٥هـ).

١٣. السلطان المؤيد شهاب الدين أحمد بن قينال (٨٦٥هـ) تولى لمدة أربعة أشهر.

١٤. السلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥هـ - ٨٧٢هـ).

١٥. السلطان سيف الدين يالباي - المجنون - (٨٧٢هـ)، تولى السلطنة لعدة أشهر.

١٦. السلطان الظاهر تمربغا الرومي (٨٧٢هـ) حكم لمدة شهرين ثم عُزل.

١٧. السلطان خير بك المشهور بأنه سلطان ليلة، بقي في الحكم لليلة واحدة بعد أن دبر مؤامرة عزل السلطان الذي سبقه، فتقدم إليه الأمير قايتباي، وأسرع بالسيطرة على الموقف، وقام بعزله وتولى هو السلطنة.

١٨. السلطان الأشرف قايتباي (٨٧٢هـ - ٩٠١هـ)، ثم تنازل عن العرش لابنه محمد، وتوفي في اليوم التالي.

١٩. السلطان محمد بن الأشرف قايتباي، تولى السلطنة مرتين، الأولى: (٩٠١هـ - ٩٠٢هـ)، ثم عزل، والثانية: (٩٠٢هـ - ٩٠٤هـ).

٢٠. السلطان قانصوه خمسمئة، لم يبق في العرش إلا ثلاثة أيام.

٢١. السلطان قانصوه الأشرفي (٩٠٤هـ - ٩٠٥هـ).

٢٢. السلطان طُومان باي الأول (٩٠٦هـ)، تولى السلطنة لمدة مئة يوم فقط.

٢٣. السلطان الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦هـ - ٩٢٢هـ)، قُتل في معركة مرج دابق

بين المماليك والعثمانيين.

٢٤. السلطان طُومان باي (٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ)، وقد قُتل شنقاً على إثر دخول العثمانيين بقيادة سليم الأول، والذي قاد المعركة النهائية مع المماليك في الريدانية، وانتهت بنصر العثمانيين وهزيمة المماليك.

غدت دولة المماليك صاحبة الزعامة على مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، وكان لسلاطين هذه الدولة الزعامة بين حكام وملوك المسلمين لأمرين:

الأول: أن هذه الدولة كانت تقوم بخدمة الحرمين الشريفين.

الثاني: وجود الخلافة العباسية في القاهرة بعد سقوطها في بغداد.

ولقد كانت دولتهم من أكبر الدول وأكثرها عماراً وحياة تجارية، وذلك بسبب تمكن المماليك من السيطرة على طريق التجارة بين الشرق والغرب، فجنوا أرباحاً طائلة مكنتهم من إقامة عمارة زاهرة وجيش قوي، ومظاهر تطور وتقدم في نواحي الحياة المختلفة، وذلك في ظل الخلفاء العباسيين في القاهرة، والذين كان دورهم محدوداً للغاية محصوراً في إقامة الشعائر الدينية والمراسم الرسمية.

ومع مرور الزمان، وتوالي الأحداث، دب الضعف في دولة المماليك لعوامل عدة، كان على رأسها: الصراع على الحكم فيما بينهم؛ مما أدى في النهاية إلى ضعف الدولة، وعدم قدرتها على حماية العالم الإسلامي، ومد يد العون إلى المسلمين في الأندلس، فكان له الأثر البالغ في تردي الدولة الإسلامية، وانكماشها شيئاً فشيئاً، فسقطت الأندلس، وترتب عليه الغزو الصليبي الإسباني والبرتغالي للعالم الإسلامي، فواجههم المماليك في عدة مواطن، لكنهم لم يتمكنوا تمكناً تاماً من ردهم، والقضاء عليهم، خاصة في مناطق الأطراف والهند، فقيض الله لهذا الدور دولة أخرى، قامت بحماية العالم الإسلامي بعد المماليك والعباسيين في مصر، ولمدة أربع قرون، **هي الدولة العثمانية**.

فِهرِسُ ٱلمَوضُوعَاتِ

المحتوى	الصفحة
• التمهيد:	١٥
• أولاً: مدخل إلى علم التاريخ	١٧
• تعريف التاريخ	١٨
• أهمية دراسة التاريخ	٢٠
• مصادر التاريخ الإسلامي	٢١
• اهتمام المسلمين بعلم التاريخ	٢٤
• ثانياً: الإسلام دين الأنبياء والرسل	٢٧
• إن الدين عند الله الإسلام	٢٨
• ثالثاً: الصراع بين التوحيد والشرك	٣١
• أول ظهورالشرك في البشرية	٣٣
• قوم نوح	٣٤
• قوم هود	٣٨
• قوم صالح	٣٩
• دعوة إبراهيم	٤١
• دعوة لوط	٤٤
• دعوة شعيب	٤٥
• بنو إسرائيل	٤٧
• موسى عليه السلام	٥٠
• موقف بني إسرائيل من آيات الله ومعجزاته	٥٢
• بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام	٥٤
• عيسى عليه السلام	٥٦
• رابعاً: العالم قبل البعثة النبوية	٥٩
• أولاً: القوى غير العربية: الدولة الرومانية	٦١
• مدينة القسطنطينية	٦٤
• الدولة الفارسية الساسانية	٦٦
• ثانياً: العرب	٦٩
• العرب العاربة – القحطانيون	٧١
• العرب المستعربة – العدنانيون	٧١

- خصائص جزيرة العرب ٧٣
- الممالك العربية في بلاد الرافدين ٧٩
- دولة المناذرة ٨٣
- الممالك العربية في بلاد الشام ٨٩
- دولة الأنباط ٩٢
- مملكة تدمر ٩٣
- دولة الغساسنة ٩٥
- الممالك العربية جنوب شبه الجزيرة العربية – بلاد اليمن ٩٧
- العرب في شرق الجزيرة العربية – البحرين ١٠١
- الموقع الجغرافي للبحرين ١٠٢
- سكان البحرين قبل البعثة ١٠٥
- الحياة الدينية ١٠٦
- الحياة الاقتصادية ١٠٨
- خامساً: العرب في الحجاز ١١١
- أهم المدن بالحجاز ١١٣
- مظاهر الحضارة عند عرب الحجاز ١١٧
- **الباب الأول: البحرين في العهد النبوي المبارك** ١٢٧
- ميلاد النبي ﷺ ونسبه ١٢٩
- نشأته ١٢٩
- إرهاصات النبوة ١٣٠
- البعثة النبوية ١٣٢
- المرحلة السرية ١٣٢
- مرحلة الجهر بالدعوة ١٣٤
- دعوة الإسلام خارج مكة ١٣٦
- الإسراء والمعراج ١٣٧
- بيعة العقبة الثانية ١٤١
- الهجرة المباركة ١٤٢
- العهد المدني ١٤٥

- المؤاخاة بين المسلمين، المعاهدة بين سكان المدينة ١٤٦
- التشريعات والغزوات ١٤٧
- تشريع الجهاد ١٥٠
- غزوات النبي ﷺ ١٥٣
- غزوة بدر ١٥٣
- غزوة أحد ١٥٥
- غزوة الخندق ١٥٧
- صلح الحديبية ١٦٠
- غزوة مؤتة ١٦٢
- فتح مكة ١٦٣
- غزوة حنين ١٦٥
- غزوة تبوك ١٦٦
- غزوات النبي ﷺ لليهود ١٦٧
- رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وقدوم وفودهم إلى النبي ﷺ ١٧٣
- البحرين ولاية إسلامية ١٧٩
- حجة الوداع ١٨٠
- الوصايا الأخيرة للنبي ﷺ ووفاته ١٨٣
- **الباب الثاني: البحرين في عهد الخلافة الراشدة** ١٨٥
- الخليفة الراشد الأول: أبو بكر الصديق ﵁ ١٩٣
- اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للرسول ﷺ ١٩٤
- فضائله ١٩٦
- أهمية ولاية العهد والاستخلاف ١٩٨
- بيعته ١٩٨
- بيعة علي بن أبي طالب لأبي بكر رضي الله عنهما ١٩٩
- أبرز الأعمال التي قام بها في خلافته ٢٠٠
- إنفاذ بعث أسامة ٢٠٠
- حروب الردة ٢٠٠
- البحرين والردة ٢٠٢

• بدء حركة الفتوحات الإسلامية	٢٠٤
• جمع القرآن	٢٠٧
• وفاته ﵇	٢٠٨
• الخليفة الراشد الثاني: عمر بن الخطاب ﵇	٢١٣
• اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للرسول ﷺ	٢١٤
• هجرته وجهاده في سبيل الله	٢١٥
• مناقبه وفضائله	٢١٥
• أبرز الأعمال التي قام بها في خلافته	٢١٨
• الفتوحات في عهده	٢١٨
• التنظيم الإداري للدولة	٢٢٤
• تأسيس مدن جديدة	٢٢٤
• التأريخ الهجري	٢٢٤
• صلاة التراويح	٢٢٥
• مواجهة البدع	٢٢٦
• وفاته ﵇	٢٢٧
• وصية عمر ﵇	٢٢٨
• آل البيت وعمر ﵇	٢٢٩
• الخليفة الراشد الثالث: عثمان بن عفان ﵇	٢٣١
• اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للرسول ﷺ	٢٣٢
• إسلامه وجهاده	٢٣٢
• فضائله	٢٣٣
• بيعته وخلافته	٢٣٤
• أهم الأعمال التي قام بها في خلافته	٢٣٥
• الفتوحات في عهده	٢٣٥
• إنشاء البحرية الإسلامية	٢٣٧
• جمع المسلمين على مصحف ذي رسم واحد	٢٣٨
• توسعة الحرمين الشريفين	٢٣٩
• أهم الأحداث في عهده، فتنة السبئية	٢٤٠

- مقتل الخليفة عثمان ﵁ ٢٤٢
- الخليفة الراشد الرابع: علي بن أبي طالب ﵁ ٢٤٩
- اسمه ولقبه ونسبه وقرابته للنبي ﷺ ٢٥٠
- فضائل علي ﵁ ٢٥١
- بيعته ٢٥٢
- أهم الأعمال التي قام بها والأحداث التي وقعت في عهده ﵁ ٢٥٤
- موقعة الجمل ٢٥٦
- موقعة صفين ٢٦٠
- التحكيم ٢٦٤
- خروج الخوارج أول الفرق المنحرفة عقدياً في الإسلام ٢٦٦
- قتال الغلاة من شيعته ٢٦٩
- معركة النهراوان ٢٧١
- الفتوحات في عهده ٢٧٣
- استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁ ٢٧٥
- الولاة على البحرين في عهد الخلافة الراشدة ٢٧٩
- **الباب الثالث: البحرين في عهد الخلافة الأموية** ٢٩١
- شجرة أنساب الأمويين وعلاقتهم بالنبي ﷺ: ٢٩٣
- نشأة الخلافة الأموية: ٢٩٤
- خلفاء الدولة الأموية ٢٩٥
- أبرز الأعمال التي قامت بها الخلافة الأموية ٢٩٦
- خلفاء المسلمين في العهد الأموي «البيت السفياني»: ٣٠٥
- الخليفة الأول: معاوية بن أبي سفيان ﵁ ٣٠٦
- اسمه ونسبه وقرابته للرسول ﷺ ٣٠٦
- إسلامه، فضائله ٣٠٦
- جهاده وولايته ٣٠٨
- بيعة يزيد بن معاوية ٣١١
- وفاته ٣١٣
- الخليفة الثاني: يزيد بن معاوية ٣١٤

- من أهم الأحداث في عهده ٣١٥
- مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما ٣١٥
- وقعة الحرة وموقف آل البيت والصحابة منها ٣٢٢
- الخليفة الثالث: معاوية بن يزيد بن معاوية (معاوية الثاني) ٣٢٦
- دور عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ٣٢٦
- إمارة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ٣٢٧
- بداية الافتراق والاختلاف ٣٣٠
- أهم الأحداث في عهده، إعادة بناء الكعبة ٣٣١
- ظهور المختارية ٣٣٢
- انقسام المسلمين ٣٣٣
- الصراع مع الأمويين ومقتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ٣٣٣
- خلفاء المسلمين في العهد الأموي «البيت المرواني» ٣٣٩
- الخليفة الرابع:مروان بن الحكم بن العاص ٣٤٠
- الخليفة الخامس: عبد الملك بن مروان ٣٤٠
- أهم الأحداث التي وقعت في خلافته ٣٤٢
- الثورات على الخلافة الأموية ٣٤٢
- تنقيط المصحف ٣٤٨
- الخليفة السادس: الوليد بن عبد الملك: ٣٤٩
- الخليفة السابع: سليمان بن عبد الملك ٣٥٠
- الخليفة الثامن: عمر بن عبد العزيز ٣٥١
- الخليفة التاسع: يزيد بن عبد الملك ٣٥٢
- الخليفة العاشر: هشام بن عبد الملك ٣٥٣
- الخليفة الحادي عشر: الوليد بن يزيد بن عبد الملك ٣٥٤
- الخليفة الثاني عشر: يزيد بن الوليد بن عبد الملك ٣٥٤
- الخليفة الثالث عشر: إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ٣٥٥
- الخليفة الرابع عشر: مروان بن محمد ٣٥٦
- أسباب سقوط الدولة الأموية ٣٦١
- الولاة على البحرين في عهد الخلافة الأموية ٣٦٧

- الولايات والأقاليم في الدولة الأموية ٣٦٨
- ولاة البحرين في العهد الأموي ٣٦٩
- دور الخوارج في البحرين ٣٧٢
- **الباب الرابع: البحرين في عهد الخلافة العباسية في العراق** ٣٧٧
- مدخل ٣٧٩
- خلفاء الدولة العباسية ٣٨٥
- خلفاء الدولة العباسية بالعراق ٣٨٦
- الخلافة العباسية في العراق ٣٨٨
- أبرز مظاهر الخلافة العباسية في العراق ٣٨٨
- نقل العاصمة ٣٨٨
- الاهتمام بتنمية الموارد المالية ٣٨٩
- تراجع حركة الفتوح الإسلامية ٣٨٩
- ظهور أصحاب منهج الاعتزال ٣٩٠
- ظهور المصادر والمدونات العلمية ٣٩٢
- سيطرة القوى العسكرية على الخلافة ٣٩٣
- الخلفاء العباسيون في عصر القوة ٣٩٥
- شجرة النسب العباسي ٣٩٦
- الخليفة الأول: أبو العباس السفاح ٣٩٧
- الخليفة الثاني: أبو جعفر المنصور ٤٠١
- الخليفة الثالث: محمد المهدي ٤٠٢
- حركات الخوارج ٤٠٣
- حركات الفتوحات في عهد المهدي ٤٠٤
- الخليفة الرابع: موسى الهادي ٤٠٥
- ثورة الحسين بن علي بن الحسن ٤٠٦
- موقف الروم ٤٠٧
- ولاية العهد ٤٠٧
- الخليفة الخامس: هارون الرشيد ٤٠٨
- أهم الأحداث في عصره، حركات الخوارج ٤١٠

- الجهاد في عهد الرشيد ٤١٢
- الخليفة السادس: الأمين بن هارون الرشيد ٤١٥
- الخليفة السابع: المأمون بن هارون الرشيد ٤١٦
- أهم الأحداث في عصره، الثورات والحركات ٤١٩
- الخليفة الثامن: محمد المعتصم بن هارون ٤٣٠
- أهم الأحداث في عصره، استمرار محنة العلماء ٤٣٢
- الفتنة بين العباس والمعتصم ٤٣٣
- فتح عمورية ٤٣٣
- أهم الأحداث في عصره، استمرار محنة العلماء ٤٣٣
- الثورات على الخلافة ٤٣٥
- وفاة الخليفة المعتصم ٤٤١
- الخليفة التاسع: هارون الواثق بن محمد المعتصم ٤٤٢
- أهم الأحداث في عصره ٤٤٢
- وفاة الخليفة أبي جعفر هارون بن الواثق بن المعتصم ٤٤٦
- الخليفة العاشر: المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ٤٤٦
- أهم الأحداث في عصره، رفع محنة العلماء ٤٤٧
- حركات الخوارج ٤٥٠
- غزو الروم ٤٥١
- ولاية العهد ٤٥٢
- عصر ضعف الخلافة العباسية في العراق وسيطرة القوى العسكرية ٤٥٣
- الخلفاء في عصر القوة العسكرية للأتراك ٤٥٥
- أهم الوقائع والمظاهر للخلافة في عصر سيطرة الأتراك ٤٥٦
- البويهيون ٤٦٧
- أهم مظاهر عصر البويهيين ٤٦٩
- الخلفاء في عهد السيطرة البويهية ٤٧٣
- حال العالم الإسلامي في أثناء العهد البويهي ٤٧٦
- الخلفاء في عهد القوة العسكرية السلجوقية ٤٧٨

• معركة ملاذ كرد	٤٧٩
• خلفاء الدولة العباسية في عصر نفوذ السلاجقة	٤٨٢
• آخر خلفاء العهد العباسي في العراق	٤٨٧
• سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ	٤٩٢
• الدول المستقلة عن الخلافة العباسية	٤٩٩
• الدولة الأموية في الأندلس	٥٠٢
• مرحلة الفتح الإسلامي	٥٠٣
• مرحلة عصر الولاة	٥٠٤
• مرحلة عصر الإمارة الأموية	٥١١
• مرحلة إعلان الخلافة في الأندلس	٥١٤
• مرحلة عصر الطوائف	٥١٧
• مرحلة دولة المرابطين	٥٢٠
• مرحلة دولة الموحدين	٥٢٥
• مرحلة الأندلس الصغيرة	٥٢٩
• الدولة الرستمية	٥٣٤
• دولة الأدارسة	٥٣٦
• دولة الأغالبة	٥٣٩
• الدولة الزيدية	٥٤٣
• الدولة الطولونية	٥٤٦
• الدولة السامانية	٥٤٩
• ملف القرامطة والباطنية	٥٥٣
• دولة القرامطة	٥٥٤
• فرق الباطنية	٥٥٨
• الإسماعيلية	٥٥٨
• الدروز	٥٥٨
• النصيرية	٥٦٠
• الصوفية	٥٦٢

- البابية ٥٧٠
- البهائية ٥٧٢
- القرامطة ٥٧٩
- دولة القرامطة في البحرين ٥٨٥
- إمارة العيونيين في البحرين ٥٩٣
- الدولة الحمدانية ٥٩٥
- الدولة الإخشيدية ٥٩٩
- الدولة العبيدية الفاطمية الإسماعيلية ٦٠١
- دولة بني زيري ٦٠٥
- الدولة الغزنوية ٦٠٦
- الدولة الخوارزمية ٦١٠
- الدولة الزنكية ٦١٢
- السلطنة الأيوبية ٦١٥
- دولة المرابطين ٦١٧
- دولة الموحدين ٦٢١
- الغارة الصليبية على العالم الإسلامي «الحروب الصليبية» ٦٣٢
- الدوافع الصليبية للغزو الإسلامي ٦٣٢
- الآثار المترتبة على الحملات الصليبية السبعة ٦٣٨
- ظهور المقاومة الإسلامية للحملات الصليبية ٦٤٠
- دور الدولة الزنكية ٦٤٠
- دور الدولة الأيوبية ٦٤٢
- استرداد بيت المقدس ٦٤٣
- دولة المماليك ٦٥١
- معركة عين جالوت ٦٥٤
- سلاطين المماليك البحرية ٦٥٦
- سلاطين المماليك البرجية ٦٥٨
- فهرس الموضوعات ٦٦١